التفسير الأثري الجامع

الجزء الرابع

سورة البقرة - الآية ١١٩ - ١٨٥

محمد هادي معرفة

مؤسسة التمهيد

الجمهورية الإسلامية الإيرانية.
قم المقدسة. شارع انقلاب. فرع ١٨. رقم ٤٩
موبايل: ٠٠٩٨/٩١٢١٥٣١٩٥٥

التفسير الأثري الجامع

الجزء الرابع

العلّامة محمدهادي معرفة

الطبعة الأُولى
١٣٨٧ هـ ش، ١٤٢٩ هـ ق، ٢٠٠٨ م
الكمّية: ٣٠٠٠ نسخة
مطبعة ستاره

جميع الحقوق محفوظة

التوزيع:
منشورات ذوي القربى: قم المقدسة، شارع إرم،
بناية القدس التجارية
هاتف: ٠٠٩٨/٢٥١/٧٧٤٤٦٦٣
موبايل: ٠٠٩٨/٩١٢١٥١٧٧٤٨

سعر الدورة: ٣٥٠٠٠ تومان

ISBN: 978-600-5079-05-0 (Vol. 4)
ISBN: 978-600-5079-08-1 (Vol.SET)

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى محمد وآله الطاهرين

فهرس مواضيع الكتاب

إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا... وَ لَا تَنفَعُهَا شَفَاعَةٌ وَ لَا هُمْ يُنصَرُونَ﴿١١٩ ـ ١٢٣﴾ ١٣
«إِنَّـآ أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا» ١٥
«وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ الْيَهُودُ وَ لَا النَّصَارَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ» ١٨
«الَّذِينَ آتَيناهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ أُولَـٰئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ» ١٨
«يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ» ٢٠

وَ إِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ... وَ لَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴿١٢٤ ـ ١٤١﴾ ٢٢
الكلمات التي ابتلي بها إبراهيم عليه السلام ٣٣
«وَمِن ذُرِّيَّتِي» ٥٠
ملحوظة ٥١
«لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ» ٥٢
العهد هي الإمامة ٥٢
هل تصلح إمامة الجائر؟ ٥٥
عدالة ظاهرة وباطنة ٥٧
عصمة أم عدالة شاملة؟ ٦٠
صلاحيّة إمام الجماعة ٦١
الصلاة خلف من يشارط ٦٤
الولاية من قِبَلِ الجائر ٦٤

«وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ» ٦٦
«وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى» ٦٨
«أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ» ٧٦
«وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هذا بَلَدًا آمِنًا» ٧٨
«وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ» ٨٠
«وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ» ٨١
«رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ» ٨٤
«وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا» ٨٥
«رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْهُمْ» ٩٨
«وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ» ٩٩
«ويزكّيهم» ١٠٠
«إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ» ١٠٠
«وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إبراهيمَ» ١٠١
«وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ في الدُّنْيَا وَإِنَّهُ في الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ» ١٠٢
«إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ» ١٠٢
«وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَابَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم» ١٠٣
«أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِن بَعْدِي» ١٠٤
«تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ...» ١٠٦
«وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ تَهْتَدُوا قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا» ١٠٧
«قُولُوٓا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ» ١٠٨
«لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ» ١٠٩
«فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَآ آمَنتُم بِهِ فَقَدِ اهْتَدَوا وَّإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ في شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ» ١١٠
«صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ» ١١٢

«قُلْ أَتُحَآجُّونَنَا فِي اللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَآ أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ» ١١٣
«وَنَحْنُ لَهُ مُخْلِصُونَ» ١١٤
نكتة دقيقة ١١٧
«أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ كَانُوا هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ» ١٢٠
«تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ» ١٢١

سَيَقُولُ السُّفَهَآءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّاهُمْ عَن قِبْلَتِهِم... وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ ﴿١٤٢ ـ ١٥٢﴾ ١٢٢
«سَيَقُولُ السُّفَهَآءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّاهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عليها» ١٢٩
«وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا» ١٣٦
«لِّتَكُونُوا شُهَدَآءَ عَلَى النَّاسِ» ١٣٧
ملحوظة ١٤٣
«وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ الرَّسُولَ» ١٥٠
«وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللهُ» ١٥١
«وَمَا كَانَ اللهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ» ١٥٢
«قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ» ١٥٤
«فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ» ١٥٦
«وَمَا بَعْضُهُم بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ» ١٥٩
«الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ» ١٥٩
«وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ» ١٥٩
«لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ» ١٦١
«وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ» ١٦١
«كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا» ١٦٣
«فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ» ١٦٣

«وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ» ١٨٠

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴿١٥٣﴾ ١٩٤
كلام عن الصبر ٢٠٣
حقيقة الصبر ومعناه ٢٠٥
الصبر نصف الإيمان ٢١١
الأسامي الّتي تتجدّد للصبر بالإضافة إلى ما عنه الصبر ٢١٢
مراتب الصبر ٢١٤
مظانّ الحاجة إلى الصبر ٢١٧
دواء الصبر ٢٢٩

وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَكِنْ لَا تَشْعُرُونَ﴿١٥٤﴾ ٢٥٢
هل البقاء خاصّ بالشهداء؟ ٢٥٤
السواد المخترم ٢٦٣
أبدان مثاليّة أم حواصل طيور؟ ٢٦٦

وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ... وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ﴿١٥٥ ـ ١٥٧﴾ ... ٢٧٩
تعزية على مصاب للإمام جعفر بن محمّد الصادق عليه السلام ٢٨٢

إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا﴿١٥٨﴾ ٢٩٧

إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ... لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ﴿١٥٩ ـ ١٦٢﴾ ٣٠٩
«وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ» ٣١٤

وَإِلَـهُكُمْ إِلَـهٌ وَاحِدٌ لَا إِلَـهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمانُ الرَّحِيمُ... لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴿١٦٣ ـ ١٦٤﴾ ٣١٧
«وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ» ٣٢٢

وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللهِ أَنْدَاداً يُحِبُّونَهُمْ... وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ﴿١٦٥ ـ ١٦٧﴾ ٣٢٩

يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلَالاً طَيِّباً... صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴿١٦٨ ـ ١٧١﴾ ٣٣٥
ملحوظة ٣٣٦
«إِنَّمَا يَأْمُرُكُمْ بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ» ٣٤٢
ملحوظة ٣٤٢
«وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا...» ٣٤٦
«وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً» ٣٤٧
موضع العقل من الشريعة الغرّاء ٣٥٢

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلهِ... إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴿١٧٢ ـ ١٧٣﴾.... ٣٦٦
وقفة قصيرة ٣٧٣
ملحوظة ٣٧٦

إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلَ اللهُ مِنَ الْكِتَابِ وَيَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَناً قَلِيلاً... لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ﴿١٧٤ ـ ١٧٦﴾ .. ٣٧٩

لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴿١٧٧﴾.... ٣٨٣
«وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ» ٣٩١
«ذَوِي الْقُرْبى» ٣٩٨
ملحوظة ٣٩٩
«وابن السَّبِيلِ» ٤٠٠

«وَالسَّائِلِين» ٤٠٠
«وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا» ٤٠٢
«وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ» ٤٠٢
«أُوْلَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ» ٤٠٤

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى الْحُرُّ بِالْحُرِّ... لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴿١٧٨ ـ ١٧٩﴾ ٤٠٥

كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِنْ تَرَكَ خَيْراً الْوَصِيَّةُ... إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴿١٨٠ ـ ١٨٢﴾ ٤٢٩
«الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ» ٤٣١
نظرة في حديث «لا وصيّة لوارث» ٤٣٣
«فَمَنْ خَافَ مِنْ مُوصٍ جَنَفاً أَوْ إِثْماً فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ» ٤٤٧

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ ... وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴿١٨٣ ـ ١٨٥﴾ ٤٤٨
«كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ» ٤٦١
«أَيَّاماً مَعْدُودَاتٍ» ٤٦٧
«وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ» ٤٦٩
«فَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْراً فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ وَأَنْ تَصُومُوا خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ» ٤٧٢
«شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ» ٤٧٨
تعظيم التلفّظ بشهر رمضان ٤٨٦
في اشتقاق رمضان ٤٩٠
«الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ» ٤٩٣
«هُدىً لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ» ٤٩٧
الفرقان في القرآن ٤٩٩

«فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ» ٥٠٢
وقفة عند قوله تعالى: «فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ» ٥٠٦
ملحوظة ٥٠٩
«فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ» ٥١٧
«يُرِيدُ اللهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ» ٥١٨
باب القصد في العبادة ٥٢٣
ملحوظة ٥٣٤
تعليل عليل ٥٤٠
والقول بالتفصيل ٥٤٤
تأويلات فارغة ٥٤٦
«وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ» ٥٤٨
مقالة الشيخ المفيد ٥٥٥
«وَلِتُكَبِّرُوا اللهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ» ٥٥٧

قال تعالى:

إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَ لَا تُسأَلُ عَنْ أَصْحَابِ الْجَحِيمِ ﴿١١٩﴾ وَ لَن تَرْضَىٰ عَنكَ
الْيَهُودُ وَ لَا النَّصَارَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَىٰ وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم
بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَ لَا نَصِيرٍ ﴿١٢٠﴾ الَّذِينَ آتَيناهُمُ الْكِتَابَ
يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ أُولَـٰئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَن يَكْفُرْ بِهِ فَأُولَـٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿١٢١﴾ يَابَنِي
إِسرائيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَ أَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿١٢٢﴾ وَ اتَّقُوا يَوْمًا
لَّا تَجْزِي نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئًا وَ لَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَ لَا تَنفَعُهَا شَفَاعَةٌ وَ لَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿١٢٣﴾

وبعد أن انتهت مقولاتهم وفضحت أباطيلهم، يتوجّه الخطاب إلى رسول الله ﷺ يبيّن له وظيفته، ويحدّد له تبعاته، ويكشف له عن حقيقة المعركة بينه وبين العرب المشركين من جهة، وبينه وبين أهل الكتاب ولا سيّما اليهود من جهة أخرى وأنّ طبيعة الخلاف، الذي لاحلّ له. فإنّه لا يملك مقابلته ولا التعامل عليه إلّا بثمن باهظ قد يحطّ من قَدَره ومنزلته عند الله وحاشاه من نبيّ كريم؟!

﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ﴾ لامرية فيه ولا موضع للشكّ فيه، بعد وضوح الدلائل والبيّنات. ﴿بَشِيرًا وَ نَذِيرًا﴾. كانت وظيفتك البلاغ والأداء، تبشّر أهل الطاعة المستسلمين للحقّ الصُّراح.. وتنذر العُصاة العُتاة، ممّن لمسوا الحقّ فنبذوه. ﴿وَ لَا تُسأَلُ عَنْ أَصْحَابِ الْجَحِيمِ﴾ فلا مسؤوليّة عليك وراء الإنذار والتبليغ، إذ ليس عليك هداهم. ولست عليهم بمصيطر.. فإن صاروا إلى الجحيم فبظلمٍ منهم، ولا تزر وازرةٌ وزر أخرى.

أمّا العصاة المردة من أهل الكتاب، فإنّهم على درجة بالغة من العصبيّة العمياء، فلن ترضخ نفوسهم العاتية لتستسلم للحقّ مهما وضح سبيله وتبيّنت معالمه. لأنّهم على غلواء من العتوّ والاستكبار فلا يرضون منك بأقلّ من الاستسلام لهم هم واتّباع سبيلهم في الغيّ والضلال.

﴿وَ لَن تَرْضَىٰ عَنكَ الْيَهُودُ﴾ العَنُود ﴿وَ لَا النَّصَارَىٰ﴾ الجَحُود ﴿حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ﴾: تجاريهم على طريقتهم الملتوية.. فتلك هي العلّة الوحيدة، ولم يكن يُعوزهم البرهان.

﴿قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَىٰ﴾ لا معدل عنه أبداً. ﴿وَلَـئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ الَّذِي جَآءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَ لَا نَصِيرٍ﴾ وهذا من باب «إيّاك أعني واسمعي يا جاره». فمن تابع سبيل الغيّ والضلال بعد وضوح الهدى والصلاح، فقد خرج عن ذمّة الله، ودخل في ذمّة الشيطان.. فما له في مهاوي الضلال والدمار من وليّ يحنّ له ولانصير يخرجه من الهلكة.

* * *

نعم، الّذين يتجرّدون عن الهوى ويتراودون كتاب الله ليل نهار، فهم على وشك من الاهتداء إلى سبيل الرشاد.

﴿الَّذِينَ آتَيناهُمُ الْكِتَابَ﴾ فاحتضنوه عن جدٍّ وأخذوه بقوّةٍ ﴿يَتْلُونَهُ﴾ يتراودونه ﴿حَقَّ تِلَاوَتِهِ﴾ بجدّ وحزم ﴿أُولَـٰئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾ بالهدى الّذي أتاهم، حيث كان منشودهم منذ عهد بعيد.

﴿وَمَن يَكْفُرْ بِهِ﴾ يكفر بالحقّ الّذي لمسه ﴿فَأُولَـٰئِكَ هُمُ الْخَـٰسِرُونَ﴾ خسروا أنفسهم وأضاعوها هباءً، حيث مصيرهم إلى الهلاك والدمار.

وبعد هذا التقرير الحاسم الجازم ينتقل السياق بالخطاب إلى بني إسرائيل، كأنّما ليهتف بهم الهتاف الأخير، بعد تلك المجابهة وذلك الجدل الطويل، وبعد استعراض تاريخهم ـ المسجّل على صفحات سوداء ـ هنا يجيء الالتفات إليهم كأنّها الدعوة الأخيرة، وهم على أبواب الإهمال والإغفال، والتجريد النهائي من شرف الأمانة أمانة العقيدة.. التي نيطت بهم من قديم. وهنا يكرّر لهم الدعوة ذاتها التي وجّهها إليهم من بداية التجوال.

﴿يَابَنِي إِسرائيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ﴾ طول حياتكم البذيئة ﴿وَ أَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ رغم توالي تمرّداتكم وإصراركم على العناد والفساد؟!

ولكن حيث لم تنغلق أبواب الرحمة، وكانت الفرصةُ باقية ومتاحة على يد خاتم النبيّين ـ نبيّ الرحمة والفضيلة ـ وعليكم فاغتنموها.

﴿وَ اتَّقُوا يَوْمًا﴾ هو يوم الحسرة والندامة. يوماً ﴿لَّا تَجْزِي﴾ لا تُغني ﴿نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئًا﴾ ﴿لَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ وَ إِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَ لَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ﴾.[1]

﴿وَ لَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ﴾ فداءٌ. والعَدْل: ما يُعادلُ الشيءَ. كقوله تعالى: ﴿أَوْ عَدْلُ ذَٰلِكَ صِيَامًا﴾[2].

---

(١) فاطر ٣٥: ١٨. (٢) المائدة ٥: ٩٥.

﴿وَلَا تَنفَعُهَا شَفَاعَةٌ﴾ إذا لم تستعدّ لنيلها ولم تمهّد أرضيّة الاستفاضة من وابل فيضها الغـزير. ﴿يَوْمَـئِذٍ لَّا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَانُ وَ رَضِيَ لَهُ قَوْلًا﴾.(١)

قوله تعالى: ﴿إِنَّـآ أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَ نَذِيرًا﴾

[٣١٣٥/٢] قال مقاتل بن سليمان ـ في قوله تعالى ـ: ﴿إِنَّـآ أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ﴾ يقول: لم نرسلك عبثاً لغير شيء ﴿بَشِيرًا وَ نَذِيرًا﴾ بشيراً بالجنّة ونذيراً من النار ﴿وَ لَا تُسأَلُ عَنْ أَصْحَابِ الْجَحِيمِ﴾ فإنّ الله قد أحصاها عليهم.(٢)

[٣١٣٦/٢] وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عبّاس، قال: قال رسول الله ﷺ: «يا بني عبدالمطّلب يا بني فِهر يا بني فلان، أرأيتم لو أخبرتكم أنّ خيلاً بسفح هذا الجبل تـريد أن تُـغِير عـليكم أكـنتم مصدّقي؟ قالوا: نعم. قال: فإنّي نذير لكم بين يدي عذاب شديد».(٣)

[٣١٣٧/٢] وأخرج ابن أبي حاتم عن أبي مالك قال: الجحيم ما عظم من النار.(٤)

وذكر أبو جعفر الطبري أنّ الجحيم هي النار بعينها إذا شَبَّتْ وُقُودُها. ومنه قول أميّة بن الصلت:

إذا شَـــبَّتْ جـــهنّمُ ثُـــمَّ دارت   وأعرض عن قوابسها الجحيم(٥).

* * *

هذا على قراءة ﴿تُسأَلُ﴾ مرفوعاً مبنيّاً للمفعول وهي قراءة عامّة القرّاء.. وقرأ نافع: «ولا تَسْأَلْ» بفتح المضارعة والجزم على النهي وهي قراءة مرفوضة عند المحقّقين. وفنّدها أبوجعفر الطـبري نظراً لمخالفتها للسياق، ولوجوه ذكرها. وأيّد قراءة الرفع بموافقتها لقراءة أُبَيّ: «وما تُسأَلُ»، وكذا قراءة ابن مسعود: «ولن تُسْأَلَ».. الأمر الذي يؤيّد كون «لا» نفياً لا نهياً.

وكذا رفض الخبرين بشأن تمنّيه لو يعلم من حالة أبويه: «أين أبواي؟» ـ كما في رواية داوود بن أبي عاصم ـ و «ليت شعري ما فعل أبواي» ـ كما في رواية محمّد بن كعب القرظي ـ!!

---

(١) طه ٢٠ ـ ١٠٩.   (٢) تفسير مقاتل ١: ١٣٤ ـ ١٣٥.

(٣) ابن أبي حاتم ١: ٢١٦ ـ ٢١٧ / ١١٥٠، و ١٠: ٣٤٧٣ / ١٩٥٢٣، سورة المسدّ. وفي ذيله: فقال أبو لهب: تبّاً لك، إنّما جمعتنا لهذا؟! فنزلت سورة المسدّ.   (٤) الدرّ ١: ٢٧١.

(٥) الطبري ١: ٧٢٠. وشبّتْ النارُ: اتّقدت.

وذلك لأنّه ﷺ لو كان يعلم أنّ أبويه ماتا كافرين فلا يتردّد في كونهما من أصحاب الجحيم وإن كان علم إيمانهما ـ كما هو أصحّ القولين ـ فلا شكّ أنّهما من أصحاب النعيم فلا موضع للشكّ بعد اليقين.

قال: واستحالة الشكّ من الرسول ﷺ بعد معرفة حالة أبويه إن شركاً أو إيماناً، مايدفع صحّة ما قاله محمّد بن كعب القرظي ـ إن كان الخبر عنه صحيحاً ـ[1].

* * *

وهكذا ذكر جلال الدين السيوطي الخبرين وضعّفهما. قال ـ بعد أن ذكر خبر القرظي ـ: هذا مرسل ضعيف الإسناد. قال: والآخر ـ يعني به خبر داوود بن أبي عاصم ـ معضل الإسناد ضعيف لايقوم به ولا بالذي قبله حجّة.

وإليك الخبرين:

[٣١٣٨/٢] أخرج وكيع وسفيان بن عُيينة وعبدالرزّاق وعبدبن حميد وابن جرير وابن المنذر عن محمّد بن كعب القرظي قال: قال رسول الله ﷺ: «ليت شعري ما فعل أبواي، فنزل: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَ نَذِيرًا وَ لَا تُسأَلُ عَنْ أَصْحَابِ الْجَحِيمِ﴾ فما ذكرهما حتّى توفّاه الله». قال السيوطي: هذا مرسل ضعيف الإسناد.[2]

[٣١٣٩/٢] وأخرج ابن جرير عن داوود بن أبي عاصم، أنّ النبي ﷺ قال ذات يوم: أين أبواي؟ فنزلت. قال السيوطي: والآخر معضل الإسناد ضعيف لاتقوم به ولا بالذي قبله حجّة.[3]

قلت: ولقد أنصف كلّ من الطبري والسيوطي في رفض الخبرين وتفنيد قراءة نافع تفنيداً فنّيّاً أوّلاً لضعف الإسناد وإعضاله، ثانياً لمخالفته للسياق ولدليل العقل الحاكم بأنّه ﷺ لا يتمنّى العلم بشيء كان يعلمه حقّاً.

هذا مضافاً لما ثبت من طهارة آباء النبيّ وطهارة أرحام الأمّهات.. حسبما ورد من روايات

---

(١) المصدر.

(٢) الدرّ ١: ٢٧١؛ عبدالرزّاق ١: ٢٩١ ـ ٢٩٢ / ١٢٦؛ الطبري ١ / ٧٢٠ / ١٥٥٨ و ١٥٥٧. ابن أبي حاتم ١: ٢١٧ / ١١٥١، بلفظ: كان النبي ﷺ يسأل عن أبيه فأنزل الله ـ عزّ وجلّ ـ: ﴿وَ لَا تُسأَلُ عَنْ أَصْحَابِ الْجَحِيمِ﴾.

(٣) الدرّ ١: ٢٧١؛ الطبري ١: ٧١٩ ـ ٧٢٠ / ١٥٥٩؛ ابن كثير ١: ١٦٨. وزاد: «وهذا مرسل كالذي قبله».

بشأن تأويل الآية: ﴿وَ تَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ﴾[1]: أنّه ﷺ لم يزل ينقل من أصلاب طاهرة فإلى أرحام مطهّرة.

[٢/ ٣١٤٠] فقد أخرج ابن أبي حاتم وابن مردويه وأبو نعيم في الدلائل عن ابن عبّاس قال: ما زال النبيّ ﷺ يتقلّب في أصلاب الأنبياء حتّى ولدته أمّه[2].

[٢/ ٣١٤١] وأخرج ابن أبي عمر العدني في مسنده والبزّار وابن أبي حاتم والطبراني وابن مردويه والبيهقي في الدلائل عن مجاهد قال: «من نبيّ إلى نبيّ حتّى أُخرجتُ نبيّاً»[3].

[٢/ ٣١٤٢] وأخرج ابن أبي حاتم عن عكرمة عن ابن عبّاس قال: من نبيّ إلى نبيّ حتّى أخرجك نبيّاً.[4]

[٢/ ٣١٤٣] وروى عليّ بن إبراهيم بالإسناد إلى محمّد بن الفرات عن الإمام أبي جعفر الباقر عليه السلام في قوله تعالى: ﴿وَ تَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ﴾ قال: «في أصلاب النبيّين».[5]

[٢/ ٣١٤٤] وروى أبو القاسم فرات بن إبراهيم الكوفي بالإسناد إلى الإمام أبي جعفر محمّد بن عليّ عليه السلام قال: «وتقلّبك في أصلاب الأنبياء نبيّ بعد نبيّ».[6]

[٢/ ٣١٤٥] وروى السيّد شرف الدين الإسترابادي عن محمّد بن العبّاس مسنداً عن أبي الجارود قال: سألت الإمام أبا جعفر الباقر عليه السلام عن هذه الآية، فقال: «يرى تقلّبه في أصلاب النبيّين من نبيّ إلى نبيّ، حتّى أخرجه من صلب أبيه من نكاح غير سفاح من لدن آدم عليه السلام»[7].

والأحاديث بشأن طهارة أصلاب آباء النبيّ وطهارة الأرحام التي حملته كثيرة[8]، وسوف نستوفي البحث عنها ذيل الآية تفسيراً وتأويلاً إن شاء الله.

وذكر أبو عبدالله القرطبي ـ تأييداً لاختيار أبي جعفر الطبري ـ: أنّ الله تعالى أحيى لرسول الله ﷺ أباه عبدالله وأمّه آمنة، فآمنا به.[9]

---

(١) الشعراء ٢٦: ٢١٩.
(٢) الدرّ ٦: ٣٣٢.
(٣) المصدر: ٣٣١.
(٤) ابن أبي حاتم ٩: ٢٨٢٨/ ١٦٠٢٨.
(٥) القمي ٢: ١٢٥.
(٦) تفسير فرات: ٣٠٤/ ٤٠٩/ ٢.
(٧) تأويل الآيات ١: ٣٩٦/ ٢٥.
(٨) راجع: تفسير البرهان للسيّد البحراني ٥: ٥١٤ـ٥١٨.
(٩) قال: ذكرنا ذلك في كتاب «التذكرة». القرطبي ٢: ٩٣. وراجع: التذكرة: ١٩ ـ ٢٠ (ط ٦).

ذكر ذلك ردّاً على ما رُوي من قوله: «إنّ أبي وأباك في النار!»(١).

قوله تعالى: ﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ﴾

[٣١٤٦/٢] أخرج الثعلبي عن ابن عبّاس «قال: هذا في القبلة وذلك إنّ يهود المدينة ونصارى نجران كانوا يرجون أن يصلّي النبي ﷺ إلى قبلتهم، فلمّا صرف الله القبلة إلى الكعبة شقّ ذلك عليهم وأيسوا منه أن يوافقهم على دينهم، فأنزل الله: ﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَىٰ...﴾ الآية».(٢)

[٣١٤٧/٢] وقال ابن عبّاس ـ في قوله: ﴿قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَىٰ﴾ ـ: أي قل يا محمّد لهم: إنّ دين الله الذي يرضاه هو الهدى، أي: الدين الذي أنت عليه.(٣)

[٣١٤٨/٢] وعنه في قوله تعالى: ﴿وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم﴾ قال: معناه إن صلّيت إلى قبلتهم.(٤)

[٣١٤٩/٢] وقال مقاتل بن سليمان: ﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ الْيَهُودُ﴾ من أهل المدينة ﴿وَلَا النَّصَارَىٰ﴾ من أهل نجران ﴿حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ﴾ وذلك أنّهم دعوا النبيّ ﷺ إلى دينهم وزعموا أنّهم على الهدى فأنزل الله ـ عزّ وجلّ ـ: ﴿قُلْ﴾ لهم: ﴿إِنَّ هُدَى اللَّهِ﴾ يعني الإسلام ﴿هُوَ الْهُدَىٰ﴾ ثمّ حذّر نبيّه ﷺ فقال: ﴿وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم﴾ يعني أهل الكتاب على دينهم ﴿بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ﴾ علم البيان ﴿مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ﴾ يعني من قريب فينفعك ﴿وَلَا نَصِيرٍ﴾ يعني ولا مانع.(٥)

[٣١٥٠/٢] وأخرج ابن أبي حاتم، عن محمّد بن إسحاق في قوله: ﴿بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ﴾ قال: فيما قصصتُ عليك من الخبر.(٦)

قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ أُولَٰئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾

[٣١٥١/٢] أخرج عبد بن حميد وابن جرير عن قتادة في قوله: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ

(١) راجع: ابن كثير ١: ١٦٧.
(٢) الثعلبي ١: ٢٦٦. البغوي ١: ٢٧٢.
(٣) مجمع البيان ١: ٣٦٩؛ الوسيط ١: ٢٠٠. بلفظ: «يريد أنّ الذي أنت عليه هو دين الله الذي رضيه».
(٤) مجمع البيان ١: ٣٧٠؛ الوسيط ١: ٢٠٠.
(٥) تفسير مقاتل ١: ١٣٥.
(٦) ابن أبي حاتم ١: ٢١٧ / ١١٥٥.

تِلَاوَتِهِ أُولَـٰئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾ قال: منهم أصحاب محمّد الّذين آمنوا بآيات الله وصدّقوا بها. قال: وذُكر لنا أنّ ابن مسعود كان يقول: والله إنّ حقّ تلاوته أن يُحلّ حلاله ويُحرّم حرامه، ويقرأه كما أنزله الله، ولا يُحرّف عن مواضعه.(١)

[٣١٥٢/٢] وأخرج عبد الرزّاق وابن جرير من طرق عن ابن مسعود قال: في قوله: ﴿يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ﴾ قال: أن يُحلّ حلاله ويُحرّم حرامه، ويقرأه كما أنزل الله ولا يحرّف الكلم عن مواضعه، ولا يتأوّل منه شيئاً غير تأويله.(٢)

[٣١٥٣/٢] وأخرج عبدالرزّاق عن قتادة في قوله: ﴿الَّذِينَ آتَيناهُمُ الْكِتَابَ﴾ قال: هم اليهود والنصارى.(٣)

[٣١٥٤/٢] وقال ابن زيد: هم من أسلم من بني إسرائيل.(٤)

[٣١٥٥/٢] وعن ابن عبّاس قال: نزلت في أهل السفينة الّذين قدموا مع جعفربن أبي طالب من الحبشة، وكانوا أربعين رجلاً، اثنان وثلاثون من الحبشه، وثمانية من رهبان الشام، منهم بُحَيرا.(٥)

[٣١٥٦/٢] وقال مقاتل بن سليمان: ثمّ ذكر مؤمني أهل التوراة؛ عبدالله بن سلام وأصحابه فقال ـ عزّوجلّ ـ: ﴿الَّذِينَ آتَيناهُمُ الْكِتَابَ﴾ يعني أعطيناهم التوراة ﴿يَتْلُونَهُ﴾ يعني نعت محمّد ﷺ في التوراة ﴿حَقَّ تِلَاوَتِهِ﴾ في التوراة ولا يحرّفون نعته ﴿أُولَـٰئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾ يقول: أولئك يصدّقون بمحمّد يعني عبدالله بن سلام وأصحابه. ثمّ قال: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِهِ﴾ يعني بمحمّد من أهل التوراة ﴿فَأُولَـٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ في العقوبة.(٦)

---

(١) الدرّ ١: ٢٧٣؛ الطبري ١: ٧٢٣ / ١٥٦٠؛ عبدالرزّاق ١: ٢٨٨ / ١١٣؛ القرطبي ٢: ٩٥. في قوله: ﴿الَّذِينَ آتَيناهُمُ الْكِتَابَ﴾ قال قتادة: هم أصحاب النبيّ ﷺ ثمّ زاد: «والكتاب على هذا التأويل: القرآن»؛ ابن أبي حاتم ١: ٢١٨ / ١١٦١.

(٢) الدرّ ١: ٢٧٢؛ عبدالرزّاق ١: ٢٨٨ / ١١٣؛ الطبري ١: ٧٢٤ / ١٥٦٥، بتفاوت.

(٣) الدرّ ١: ٢٧٢؛ عبدالرزّاق ٢: ٤٦ / ٧٨٨؛ ابن أبي حاتم ١: ٢١٨ / ١١٥٦.

(٤) القرطبي ٢: ٩٥. وزاد: «والكتاب على هذا التأويل: التوراة»؛ التبيان ١: ٤٤١ و زاد: «والكتاب على قوله: التوراة».

(٥) مجمع البيان ١: ٣٧٠؛ الثعلبي ١: ٢٦٦؛ البغوي ١: ١٦١؛ أبوالفتوح ٢: ١٣٥ ـ ١٣٦.

(٦) تفسير مقاتل ١: ١٣٥.

قوله تعالى: ﴿يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ﴾

[٣١٥٧/٢] قال الطبرسي: في قوله: ﴿يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ﴾ اختلف في معناه على وجوه إلى قوله: وثالثها ما رُوي عن أبي عبدالله عليه السلام: «أنّ حقّ تلاوته هو الوقوف عند ذكر الجنّة والنار، يسأل في الأُولى، ويستعيذ من الأخرى».(١)

[٣١٥٨/٢] وروى الحسن بن أبي الحسن الديلمي، بالإسناد إلى جعفر بن محمّد الصادق عليه السلام، في قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ آتَيناهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ﴾، قال: «يرتّلون آياته ويتفقّهون به، ويعملون بأحكامه، ويرجون وعده ويخافون وعيده، ويعتبرون بقصصه، ويأتمرون بأوامره، وينتهون بنواهيه. ما هو والله حفظ آياته ودرس حروفه وتلاوة سوره ودرس أعشاره وأخماسه، حفظوا حروفه وأضاعوا حدوده، وإنّما هو تدبّر آياته والعمل بأحكامه؛ قال الله تعالى: ﴿كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَ لِيَتَذَكَّرَ أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾».(٢)(٣)

[٣١٥٩/٢] وأخرج ابن جرير عن مجاهد في قوله: ﴿يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ﴾ قال: يتّبعونه حقّ اتّباعه.(٤)

[٣١٦٠/٢] وأخرج عن عكرمة قال: يتّبعونه حقّ اتّباعه، أما سمعت قول الله ـ عزّ وجلّ ـ: ﴿وَ الْقَمَرِ إِذَا تَلاهَا﴾(٥) قال: إذا تبعها.(٦)

[٣١٦١/٢] وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم. والحاكم وصحّحه عن ابن عبّاس في قوله: ﴿يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ﴾ قال: يُحلّون حلاله ويُحرّمون حرامه، ولا يحرّفونه عن مواضعه.(٧)

---

(١) نور الثقلين ١: ١٢٠ / ٣٣٧؛ مجمع البيان ١: ٣٧١؛ التبيان ١: ٤٤٢؛ البرهان ١: ٣١٧ / ٣، بلفظ: «الوقوف عند الجنّة والنّار»؛ العيّاشي ١: ٧٦ / ٨٤.

(٢) سوره ص ٣٨: ٢٩.

(٣) البرهان ١: ٣١٧ / ٤؛ إرشاد القلوب ١: ١٦١، الباب العشرون في قراءة القرآن المجيد.

(٤) الطبري ١: ٧٢٥ / ١٥٧١؛ ابن كثير ١: ١٦٩، وكذا عن ابن عبّاس وعكرمة وعطاء وأبي رزين وإبراهيم النخعي؛ التبيان ١: ٤٤١؛ الثعلبي ١: ٢٦٧؛ مجمع البيان ١: ٣٧٠ ـ ٣٧١، عن مجاهد وقتادة وابن مسعود.

(٥) الشمس ٩١: ٢.

(٦) الطبري ١: ٧٢٤ / ١٥٧٤؛ ابن أبي حاتم ١: ٢١٨ / ١١٥٩.

(٧) الدرّ ١: ٢٧٢؛ الطبري ١: ٧٢٤ / ١٥٦٣، بطريقين؛ ابن أبي حاتم ١: ٢١٨ / ١١٥٧؛ الحاكم ٢: ٢٦٦.

[٣١٦٢/٢] وأخرج ابن جرير عن مجاهد قال: يعملون به حقّ عمله.(١)

[٣١٦٣/٢] وأخرج وكيع وابن جرير عن الحسن في قوله: ﴿يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ﴾ قال: يعملون بمحكمه، ويؤمنون بمتشابهه، ويكلون ما أشكل عليهم إلى عالمه.(٢)

* * *

[٣١٦٤/٢] قال مقاتل بن سليمان في قوله تعالى: ﴿يَابَنِي إِسرائيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَ أَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ قال: يعني عالَمي ذلك الزمان يعني عالمي أجدادهم ويعني بالنعمة: المنّ والسلوى والحَجَر والغمام. ﴿وَ اتَّقُوا يَوْمًا﴾ يعني اخشوا يوماً يومَ القيامة ﴿لَّا تَجْزِي نَفْسٌ﴾ كافرة ﴿عَن نَّفْسٍ﴾ كافرة ﴿شَيْئًا﴾ من المنفعة ﴿وَ لَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ﴾ يعني فداء ﴿وَ لَا تَنفَعُهَا شَفَاعَةٌ﴾ يعني شفاعة نبيّ ولا شهيد ولا صدّيق ﴿وَ لَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ يعني يمتنعون من العذاب.(٣)

[٣١٦٥/٢] وروى أبو النضر محمّد بن مسعود العيّاشي بالإسناد إلى إبراهيم بن الفُضَيل عن الإمام أبي عبدالله الصادق عليه السلام قال: «العدل ـ في قول أبي جعفر (الباقر عليه السلام) ـ الفداء»(٤).

وما روي من تفسير العدل بالفريضة(٥)، فهو ناظر إلى الحديث المعروف: «من أحدث حَدَثاً أو آوىٰ مُحدثاً لم يقبل الله منه يوم القيامة صرفاً ولا عدلاً».(٦)

فقد فسّر العدل بالفريضة والصرف بالنافلة. فيما رواه أسباط الزطّي عن الإمام أبي عبدالله الصادق عليه السلام.(٧)

---

(١) الطبري ١: ٧٢٥ / ١٥٧٠، وفي لفظ قال: «عملاً به».

(٢) الدرّ ١: ٢٧٣؛ الطبري ١: ٧٢٥ ـ ٧٢٦ / ١٥٧٢؛ ابن أبي حاتم ١: ٢١٨ / ١١٥٨؛ الثعلبي ١: ٢٦٦.

(٣) تفسير مقاتل ١: ١٣٥.

(٤) العيّاشي ١: ٧٦ / ٨٦؛ البحار ٨: ٦١ / ٧٤، باب ٢١؛ البرهان ١: ٣١٧ / ٢.

(٥) فيما رواه العيّاشي ١: ٧٦ / ٨٥ عن يعقوب الأحمر عن الصادق عليه السلام وما رواه ابن أبي حاتم ١: ٢١٩ / ١١٦٤ بالإسناد إلى عبدالله بن المنيب قال: سمعت من يحدّث عن سعيد بن المسيّب أنّه سُئل عن العدل؟ فقال: العدل الفريضة، ما افترض الله على خلقه.

(٦) تحف العقول: ٣٩١؛ البحار ١: ١٤٣.

(٧) العيّاشي ١: ٧٦ / ٨٧.

قال تعالى:

وَ إِذِ ابْتَلَىٰٓ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَ مِن ذُرِّيَّتِي
قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ ﴿١٢٤﴾ وَ إِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَ أَمْنًا وَ اتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ
إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى وَ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَاهِيمَ وَ إِسْمَاعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّآئِفِينَ وَ الْعَاكِفِينَ
وَ الرُّكَّعِ السُّجُودِ ﴿١٢٥﴾ وَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هذا بَلَدًا آمِنًا وَ ارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ
آمَنَ مِنْهُم بِاللَّهِ وَ الْيَوْمِ الْآخِرِ قَالَ وَ مَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلاً ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَىٰ عَذَابِ النَّارِ وَ بِئْسَ
الْمَصِيرُ ﴿١٢٦﴾ وَ إِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَ إِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ إِنَّكَ أَنتَ
السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾ رَبَّنَا وَ اجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَ مِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَ أَرِنَا مَنَاسِكَنَا
وَ تُبْ عَلَيْنَآ إِنَّكَ أَنتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾ رَبَّنَا وَ ابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ
وَ يُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَ الْحِكْمَةَ وَ يُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١٢٩﴾ وَ مَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ
إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُ وَ لَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَ إِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٣٠﴾ إِذْ
قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٣١﴾ وَ وَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَ يَعْقُوبُ يَابَنِيَّ إِنَّ
اللَّهَ اصْطَفَىٰ لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ
الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِن بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلٰهَكَ وَ إِلٰهَ آبَآئِكَ إِبْرَاهِيمَ وَ إِسْمَاعِيلَ
وَ إِسْحَاقَ إِلٰهًا وَاحِدًا وَ نَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٣﴾ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَ لَكُم مَّا
كَسَبْتُمْ وَ لَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٣٤﴾ وَ قَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ تَهْتَدُوا قُلْ بَلْ مِلَّةَ
إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَ مَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٣٥﴾ قُولُوٓا آمَنَّا بِاللَّهِ وَ ما أُنزِلَ إِلَيْنَا وَ ما أُنزِلَ إِلَىٰٓ
إِبْرَاهِيمَ وَ إِسْمَاعِيلَ وَ إِسْحَاقَ وَ يَعْقُوبَ وَ الْأَسْبَاطِ وَ ما أُوتِيَ مُوسَىٰ وَ عِيسَىٰ وَ ما أُوتِيَ
النَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَ نَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٦﴾ فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ ما آمَنتُم بِهِ
فَقَدِ اهْتَدَوا وَّإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ وَ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿١٣٧﴾ صِبْغَةَ
اللَّهِ وَ مَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً وَ نَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ ﴿١٣٨﴾ قُلْ أَتُحَآجُّونَنَا فِي اللَّهِ وَ هُوَ رَبُّنَا

وَ رَبُّكُمْ وَ لَنَآ أَعْمَالُنَا وَ لَكُمْ أَعْمَالُكُمْ وَ نَحْنُ لَهُ مُخْلِصُونَ ﴿١٣٩﴾ أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَ إِسْحَاقَ وَ يَعْقُوبَ وَ الْأَسْبَاطَ كَانُوا هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ قُلْ ءَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللَّهُ وَ مَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَادَةً عِندَهُ مِنَ اللَّهِ وَ مَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٤٠﴾ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَ لَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَ لَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٤١﴾

فيما سبق من آيات كان الجدل مع أهل الكتاب دائراً حول سيرة بني إسرائيل ومواقفهم المتعنّتة مع أنبيائهم وفي العمل بشرائعهم وفي مواثيقهم وعهودهم ما بين نبذ ونقض وتمرّد وعصيان، ابتداءً من عهد موسى عليه السلام فإلى عهد ظهور الإسلام وأكثره عن اليهود، وشيء عن النصارى إلى جنب تمرّدات المشركين، عند السمات التي كانوا يلتقون فيها مع اليهود وسائر أهل الكتاب.

والآن يرجع السياق إلى مرحلة تاريخيّة أسبق من تاريخ اليهود، يرجع إلى عهد إبراهيم الخليل عليه السلام وقصّة إبراهيم ـ على النحو الذي تساق به في موضعها هنا ـ تؤدّي دورها في السياق، كما تؤدّي دورها فيما يعود إلى الجدل بين اليهود والجماعة المسلمة في المدينة من نزاع حادّ متشعّب الأطراف.

إنّ بني إسرائيل ليرجعون بأصولهم إلى إبراهيم عن طريق إسحاق، ويعتزّون بنسبتهم إليه، وبوعده تعالى له ولذرّيّته بالنموّ والبركة، وعهده معه ومع ذرّيّته من بعده، ومن ثمّ فيحتكرون لأنفسهم الهداية والقوامة على الدين، كما كانوا يحتكرون لأنفسهم الجنّة أيّاً كان مايعملون!!

هذا وقريش أيضاً كانت لترجع بأصولها إلى إبراهيم عن طريق إسماعيل، وتعتزّ بنسبتها إليه، وتستمدّ منها القوامة على البيت وعمارة المسجد الحرام، وتستمدّ كذلك سلطانها الديني على العرب، وفضلها وشرفها ومكانتها!!

الأمر الذي جعل القبيلين يصطدمان في الاحتكار بأصول الاعتزاز والشرف والنبل.

ومن ثمّ وللفصل بين الموقفين يجب عرض هذه الأصول ومدى امتدادها ـ شرفاً وعزّاً ـ في أيّ القبيلين؟! أو لا ذا ولا ذاك، وإنّما يعتزّ الأبناء بشرف الآباء، إذا ما حفظوا على السمات الأولى التي كان الآباء يملكونها وكانت موضع عزّهم وشرفهم وإلّا فربّ ولدٍ هو شرُّ خلفٍ لخير سلف!؟

إذن فالعزّ والشرف إنّما يرثهما الأخلاف المتّبعون لآثار الأسلاف. ﴿إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ

لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهذا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ﴾[١].

والآن يجيء الحديث عن إبراهيم وإسماعيل وإسحاق، والحديث عن البيت الحرام وبنائه وعمارته وشعائره، في جوّه المناسب، لتقرير الحقائق الخالصة في ادّعاءات اليهود والنصارى والعرب جميعاً حول هذه النسب وهذه الصلات. ولتقرير قضيّة القبلة الّتي ينبغي أن يتّجه إليها المسلمون.

كذلك تجيء المناسبة لتقرير حقيقة دين إبراهيم ـ وهو التوحيد الخالص ـ وفصل ما بينها وبين العقائد المشوّهة المنحرفة التي عليها أهل الكتاب والمشركون سواء.. وتقرير وحدة دين الله واطّراده على أيدي رسله جميعاً، ونفي فكرة احتكاره في أيدي أمّة أو جنس.

وهكذا فإنّ العقيدة هي تُراث القلب المؤمن الواعي لاتراث العصبيّة العمياء. وإنّ وراثة هذا التُراث لاتقوم على قرابة الدم والجنس، ولكن على قرابة الإيمان والعقيدة الصادقة. فمن آمن بهذه العقيدة ورعاها في أيّ جيل ومن أيّ قبيل فهو أحقّ بها من أبناء الصُّلب وأقرباء العَصَب؟ فالدين دين الله، وليس بين الله وبين أحد من عباده نسبٌ ولا صهر!!

نعم ﴿إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ﴾ واتّخذوه الحنيفيّة ديناً لهم ومشوا على طريقته البيضاء النقيّة ﴿وَهذا النَّبِيُّ﴾ نبيّ الإسلام ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ معه هم خلفه الصالح، ومن ثمّ فإنّهم الّذين ورثوه، وورثوا عزّه وسؤدده، ونالتهم العناية الربّانية الشاملة ﴿وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ﴾.

* * *

هذه الحقائق التي تمثّل شطراً من الخطوط الأساسيّة في التصوّر الإسلامي، يجلّيها القرآن الكريم هنا في نَسَقٍ من الأداء عجيب، وفي عَرْض من الترتيب والتعبير بديع يسير بنا خطوة خطوة من لدن إبراهيم‌عليه السلام منذ أن ابتلاه ربّه واختبره فاستحقّ اختياره واصطفاءه وتنصيبه للناس إماماً إلى أن نشأت الأمّة المسلمة المؤمنة برسالة محمّد صلى الله عليه وآله استجابة من الله لدعوة إبراهيم وإسماعيل‌عليهما السلام وهما يرفعان القواعد من البيت الحرام؛ فاستحقّت وراثة هذه الأمانة، دون ذرّيّة إبراهيم جميعاً؛ بذلك السبب الوحيد الذي تقوم عليه وراثة العقيدة. سبب الإيمان بالرسالة، وحسن القيام عليها، والاستقامة على تصوّرها الصحيح!

(١) آل عمران ٣: ٦٨.

وفي ثنايا هذا العرض التاريخي يبرز السياق: أنّ الإسلام ـ بمعنى إسلام الوجه لله وحده ـ كان هو الرسالة الأُولى، وكان هو الرسالة الأخيرة. هكذا اعتقد إبراهيم، وهكذا اعتقد مِنْ بَعْده إسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط، حتّى أسلموا هذه العقيدة ذاتها إلى موسى وعيسى. ثُمَّ آلت أخيراً إلى ورثة إبراهيم من المسلمين. فمن استقام على هذه العقيدة الواحدة فهو وريثها، ووريث عهودها وبشاراتها. ومن فسق عنها، ورغب بنفسه عن ملّة إبراهيم، فقد فسق عن عهد الله، وقد فقد وراثته لهذا العهد وبشاراته.

وعندئذٍ تسقط كلّ دعاوي اليهود والنصارى في اصطفائهم واجتبائهم، لمجرّد أنّهم أبناء إبراهيم وحفدته.. لقد سقطت عنهم الوراثة منذ أن انحرفوا عن هذه العقيدة.

وعندئذٍ تسقط كذلك كلّ دعاوي قريش في الاستئثار بالبيت الحرام وشرف القيام عليه وعمارته، لأنّهم قد فقدوا حقّهم في وراثة باني هذا البيت ورافع قواعده، بانحرافهم عن عقيدته.

ثمّ تسقط كلّ دعاوي اليهود فيما يختصّ بالقبلة التي ينبغي أن يتّجه إليها المسلمون. فالكعبة هي قبلتهم وقبلة أبيهم إبراهيم.

كلّ ذلك في نَسَق من العرض والأداء والتعبير عجيب؛ حافل بالإشارات الموحية، والوقفات العميقة الدلالة، والإيضاح القويّ التأثير(١). فلنأخذ في استعراض هذا النَسَق العالي في ظلّ هذا البيان المنير:

* * *

﴿وَ إِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ﴾ هي مواقفه المشهودة التي قضاها بسلام ﴿فَأَتَمَّهُنَّ﴾ وفّاهنّ ﴿وَ إِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّىٰ﴾(٢). وبذلك استحقّ تلك البُشرى، أو تلك الثقة الكبرى: ﴿قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾ قدوة، يقودهم إلى الله، وأسوة يأخذ بهم إلى سعادة الحياة الأبديّة.

وعند ذلك تداركت إبراهيمَ فطرتُه الإنسانيّة العليا: الرغبة في امتداد الذات الكريمة عن طريق الذراري والأحفاد ذلك الشعور الفطريّ العميق، الذي أودعه الله فطرة البشر لتنمو الحياة وتزدهر وتمضي في طريقها المرسوم، ويكمل اللاحقُ ما بدأه السابق، وتتعاون الأجيال جميعاً وتتساوق

---

(١) في ظلال القرآن ١: ١٥٢ ـ ١٥٤.
(٢) نجم ٥٣: ٣٧.

في الاتّجاه النبيل ذلك الشعور الذي يحاول بعض المتشاكسين الأحداث تحطيمه أو تعويقه وتكبيله، وهو مركوز في أصل الفطرة، لتحقيق تلك الغاية البعيدة المدى.

ومن ثمّ ﴿قَالَ﴾ ـ إبراهيم بدافع من فطرته الرشيدة ـ: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِي﴾؟ وذلك استعلام منه: هل هناك في ذرّيّته من يصلح للإمامة؟ وليس طلباً منه أن يجعل منهم إماماً![1]

وجاءه الجواب من ربّه الذي ابتلاه واصطفاه ـ بعد أن قضى عقبات كؤودة ـ جواباً يقرّر القاعدة الكبرى لنيل الشهادة العليا، والتي أساسها الإيمان الصادق والعمل الصالح والسير على منهج اليقين. إنّ الإمامة ـ وهي قدوة إلّهيّة ـ إنّما تكون لمن استحقّها بالعمل والشعور، وبالصلاح والإيمان والإخلاص لله ربّ العالمين.. وليست هي وراثة أصلاب وأنساب. فالقربى ليست وشيجة لحم ودم، إنّما هي وشيجة دين وعقيدة.

ومن ثمّ ﴿قَالَ﴾ ـ تعالى ـ: ﴿لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾.

والظلم أنواع وألوان: ظلم النفس بالشرك، وظلم الناس بالبغي.. والإمامة الممنوعة على الظالمين تشمل كلّ معاني الإمامة: إمامة الرسالة، وإمامة الخلافة. وإمامة القيادة. وحتّى إمامة الصلاة.

فالعدل بكلّ معانيه هو أساس استحقاق هذه الإمامة في أيّة صورة من صورها. ومن ظلم ـ أيّ لون من الظلم ـ فقد جرّد نفسه من حقّ الإمامة وأسقط حقّه فيها، بكلّ معنى من معانيها.

وهذا الذي قيل لإبراهيم عليه السلام وهذا العهد بصيغته التي لا التواء فيها ولا غموض، قاطع في تنحية مشركي العرب واليهود عن صلاحيّة القيادة والإمامة، بما عتوا وبغوا في الأرض، عتوا عن أمر الله إلى حدّ الشرك بالله وأفسدوا وانحرفوا عن طريقة جدّهم إبراهيم الخليل عليه السلام.

وهذا الذي قيل لإبراهيم عليه السلام وهذا العهد بصيغته التي لا التواء فيها ولا غموض، قاطع كذلك في تنحية من يسمّون أنفسهم المسلمين اليوم، ولكنّهم ظلموا وفسقوا وعتوا عن أمر ربّهم، ونبذوا شريعة الله وراء ظهورهم. ودعواهم الإسلام، وهم ينحّون شريعة الله ومنهجه عن الحياة، دعوى كاذبة بل فاضحة تزيد على خبثهم لؤماً.

---

(١) كما قال الجبّائي: إنّه سؤال منه من الله أن يعرّفه: هل في ذرّيّته من يجعله إماماً مثله؟ (التبيان ١: ٤٤٧).

﴿وَ إِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً﴾ مرجعاً ﴿لِّلنَّاسِ﴾ جميعاً يؤوبون إليه من كلّ صوب ومكان. فهو حقّ للجميع، وليس لأحد أو فئة أن يمنع الناس عن مثابتهم حول البيت. ﴿وَ أَمْنًا﴾ محلاً آمناً. وليس لسدنته من قريش أن يروّعوا أحداً أو يؤذوهم أو يفتنوهم عن دينهم ـ كما فعلت بالمؤمنين وهم أحقّ به منهم.

﴿وَ اتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى﴾. ومقام إبراهيم هنا يشمل البيت والمسجد الحرام، والذي ينبغي أن يتخذ مصلّى، محلاً للعبادة لله خالصة. ومن ثمّ ﴿وَ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَاهِيمَ وَ إِسْمَاعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّآئِفِينَ وَ الْعَاكِفِينَ وَ الرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾.

وهذا هو عهد الله بالنسبة إلى بيت الله الحرام، فليكن مطهّراً من رجس الأوثان، وممهّداً للطائفين حوله، والعاكفين في جواره، والمتعبّدين الركّع السجود.

* * *

﴿وَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَ ارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ﴾. ومرّة أخرى يؤكّد دعاء إبراهيم صفة الأمن للبيت، ويؤكّد معنى الوراثة للفضل والخير.. ولقد عرف إبراهيم منذ أن قال له ربّه: ﴿لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾ أن يحترس ويستثني ويحدّد من يعني:

﴿مَنْ آمَنَ مِنْهُم بِاللَّهِ وَ الْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ إيماناً بالمبدأ والمعاد، إيماناً بمسيرة الحياة مبتدئةً من عند الله، ومنتهية إليه في نهاية المطاف.. فقد كانت المسيرة في جميع مراحلها مرعيّة برعايته تعالى وفي قبضته وفي رقابة شديدة منه. ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾[1]. فليكن الإنسان على حذر من شأنه في الحال والمآل.

وإبراهيم المتأدّب بالأدب الذي علّمه ربّه، فيراعيه في طلبه ودعائه.. يجيئه الجواب من عند ربّه مكمّلاً ومبيّناً عن الشطر الآخر الذي سكت عنه إبراهيم. شطر الّذين بغوا في الأرض وعتوا عن أمر ربّهم، فليؤولوا إلى مصيرٍ أليم:

﴿قَالَ﴾ ـ تعالى ـ: ﴿وَ مَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلاً﴾ قد يكون له حظّ في الحياة ولكنّه قصير ﴿ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَىٰ عَذَابِ النَّارِ وَ بِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ تلك عاقبة الّذين خسروا أنفسهم فألجؤوا إلى شقاء الأبد وبئس المصير.

---

(١) سورة ق ٥٠: ١٨.

ويأتي دور تنفيذ إبراهيم وإسماعيل للأمر الذي تلقّياه من ربّهما، بإعداد البيت وتطهيره للطائفين والعاكفين والركّع السجود. يرسمه القرآن مشهوداً كما لوكانت الأعين تراهما اللحظة وتسمعهما في آن:

﴿وَ إِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ﴾ هي أصول بنيانه ﴿وَ إِسْمَاعِيلُ﴾ ضارعين سائلين منه تعالى: ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّـآ إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ السميع لدعائنا، العليم بالمصالح في عاجل الحياة وآجلها.

﴿رَبَّنَا وَ اجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ﴾ إسلاماً عن صدق وإخلاص ﴿وَ﴾ كذلك اجعل ﴿مِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ﴾. لتكون الذرّيّة هم العناصر الأُولى لتكوين أمّة عريقة لها تأصّلها وكرامتها وشرفها التليد. وليكن طابعها الإسلام وشعارها السلام والتضامن والوئام.. تضامن الأجيال في العقيدة والإيمان.

﴿وَ أَرِنَا مَنَاسِكَنَا﴾ عرّفنا شعائر ديننا الحقّ، ومراسيم عباداتنا حسبما ترضاه.. فلا ننحرف ولا ننجرف ولايتلاعب بنا الأهواء.

﴿وَ تُبْ عَلَيْنَآ﴾ إن نسينا أو أخطأنا ﴿إِنَّكَ أَنتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾.

ثمّ لئلّا يتركهم بلا هداية في أجيالهم المتلاحقة: ﴿رَبَّنَا وَ ابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَ يُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَ الْحِكْمَةَ وَ يُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾.

وكان آخر من أرسل إليهم بدعاء إبراهيم وإسماعيل، هو نبيّ الإسلام محمّد المصطفى ﷺ فقد كانت فيه جماع الأوصاف:

[٣١٦٦/٢] كما قال أمير المؤمنين ﷺ: «اجتباه من بني جلدته من خير محتد أصيل. يتلو عليهم آياته: بيّناته. يتابع ذكر الدلائل على عظيم آلائه، فيذكّرهم منسيّ نعمته، ويستأديهم ميثاق فطرته، ويريهم آيات المقدرة، ويثير لهم دفائن العقول»[١]. ويعلّمهم شرائع الكتاب المفروضة عليهم والمندوب إليها في صميم الشريعة. كما ويفتح لهم أبواب الحكمة الرشيدة: بصيرة نافذة في الأعماق ﴿وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾.[٢]

* * *

(١) انظر: نهج البلاغة، الخطبة الأُولى.

(٢) البقرة ٢: ٢٦٩.

وبعد فإذ تمّ عرض قصّة إبراهيم وإسماعيل عليه السلام وبنائهما للبيت الرفيع، وما أبرزته هذه القصّة البديعة من سمات وصفات هي من جلائل سمات الكرام وما حوته أدعية هذا الأب والابن الحنونين على الذراري والأحفاد، من درس وعبر وتبيين لموضع وراثة الأبناء لآبائهم الأعلام، وما به يستحقّ الأحفاد أن يرثوا الأجداد.

بعد إذ تمَّ ذلك، يأتي السياق ليلتقط دلالته وإيحاءه، ليواجه بهما الّذين ينازعون الأمّة المسلمة في الإمامة، وينازعون نبيّ الإسلام النبوّة والرسالة وقيادته لهداية الناس جميعاً، عن استحقاق تليد وليس عن طارف.

نعم يجادلون في حقيقة دين الله الأصيلة الصحيحة: ﴿وَ مَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَاهِيمَ﴾ يحيد عن طريقته الواضحة وشريعته البيضاء اللائحة ﴿إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُ﴾ سفيهٌ مستهتر حيث أخذ في عكر الظلام، مع وضوح المحجّة وظهور الحجّة؟!

﴿وَ لَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا﴾ حيث أفضليتُه على سائر الناس ﴿وَ إِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾ معدود من عبادنا الصالحين الخُلَّص، لم يعكر صفو زلاله كدر غبار. ولكن لِمَ اصطفاه الله في الدنيا إماماً، ليكون في الآخرة من خير عباد الله الصالحين؟

نعم لم يكن لشيء سوى استسلامه لربّ العالمين: ﴿إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ﴾ ـ لفوره ـ: ﴿أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ هذه هي ملّة إبراهيم وطريقته اللائحة المفضّلة: الإسلام الخالص الصريح.. ولم يكتف إبراهيم بنفسه، إنّما تركها كلمة باقية في عقبه، وجعلها وصيّة في ذرّيّته.

﴿وَ وَصَّىٰ بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَ يَعْقُوبُ﴾ ويعقوب هذا هو إسرائيل الذي ينتسب اليهود إليه، ثمّ لايُلبّون وصيّته ووصيّة جدّه وجدّهم إبراهيم.

وها هو إبراهيم وحفيده يعقوب يذكّران ذراريهما بنعمة الله عليهم في اختياره الحنيفيّة ديناً لهم: ﴿يَابَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ لَكُمُ الدِّينَ﴾ فلا تكن مشيتكم على خلاف هذا الاصطفاء الحنيف، ولتكن مسيرتكم على منهجه مع الأبد. ﴿فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَ أَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾.. وليكن ذلك شكراً منكم على نعمة هذا الاختيار وهذا الاصطفاء.. والحرص على ما اختاره الله لهم، والاجتهاد في أن لايتركوا هذه الأرض إلّا وهذه الأمانة محفوظة فيهم.

* * *

تلك كانت وصيّة إبراهيم وحفيده يعقوب، الوصيّة التي كرّرها يعقوب في آخر لحظة من لحظات حياته، والتي كانت شُغْلَه الشاغل الذي لم يصرفه عنه الموت وسكراته، فليسمعها بنو إسرائيل: ﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِن بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَـٰهَكَ وَ إِلَـٰهَ آبَآئِكَ إِبْرَاهِيمَ وَ إِسْمَاعِيلَ وَ إِسْحَاقَ إِلَـٰهًا وَاحِدًا وَ نَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾.

إنّه لمشهد عظيم الدلالة، قويّ الإيحاء، عميق التأثير، ماهي القضيّة التي كانت تُشغل بال ميّت محتضر في تلك الساعة الحرجة؟ ما هو الأمر الجلل الذي يريد أن يطمئنّ عليه ويستوثق منه؟ ما هي التركة التي يريد أن يخلّفها لأبنائه ويحرص على سلامة وصولها إليهم فيسلّمها لهم في محضر يسجّل فيه كلّ التفصيلات؟

نعم، إنّها العقيدة الصافية الخالصة، والتي تجعل من الحياة زاهية لامعة مع الأبد.

وبعد فها هي الفرصة سانحة لتبلور تلك العقيدة وتخليصها من كدورات علتها عبر الزمان، فقد جاءهم الرسول الذي يجدّد دعوتهم إلى الإسلام والاستسلام المحض، وهو ثمرة الدعوة التي دعاهم إبراهيم عليه السلام.

* * *

وفي ضوء هذا التقرير يظهر الفارق الحاسم بين تلك الأمّة التي أخذت بوصيّة إبراهيم ويعقوب، وقد خلت وهذا الجيل الحاضر الذي حاول نبذ الوصيّة وتركها في غياهب النسيان فلا مجال لنسب بين السابقين واللاحقين:

﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ﴾ من مفاخر ومواقف محمودة. ﴿وَ لَكُم مَّا كَسَبْتُمْ﴾ من مآثم ومواضع ممقوتة. فلكلٍّ حساب، ولكلٍّ عقيدة وعمل ﴿كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِ﴾[1] فكان النتاج: أن ليست هذه الأعقاب امتداداً لأولئك الأسلاف، ولاصلة تربطهما، ولا علاقة تجمعهما، لا في المسيرة ولا في الاتّجاه.

* * *

وفي ظلّ هذا البيان التاريخي الحاسم، لقصّة العهد مع إبراهيم، وقصّة البيت الحرام كعبة للمسلمين، ولحقيقة الوراثة وحقيقة الدين؛ يناقش ادّعاءات أهل الكتاب المعاصرين لنزول

(١) الإسراء ١٧: ٨٤.

القرآن، ويعرض لحججهم وجولهم ومِخالهم، فيبدو كلّه ضعيفاً شاحباً، كما يبدو فيه العنت والادّعاء بلا دليل.. كذلك تبدو العقيدة الإسلاميّة عقيدة طبيعيّة شاملة لاينحرف عنها إلّا المتعنّتون:

﴿وَ قَالُوا﴾ ـ لا عن وعي ـ: ﴿كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ تَهْتَدُوا﴾ قالت اليهود: كونوا هوداً تهتدوا. وقالت النصارى: كونوا نصارى تهتدوا. فكلّ يضرب على وتره ويحاكي شاكلته، لا عن وعي ولا إقامة برهان.

﴿قُلْ: بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا﴾: الشريعة البيضاء النقيّة التي جاء بها إبراهيم من أوّل يومه، ولاتزال هي شريعة الله الخالدة مدى الأجيال.

﴿وَمَاكَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ كما تزعم العرب المشركون أنّهم على امتداد خطّ أبيهم إبراهيمؑ.

وعليه فلنرجع جميعاً ـ سواء اليهود أو النصارى أم المشركون ـ إلى ملّة أبينا إبراهيم، هو أب الأنبياء، وملّته ملّتهم جميعاً، كما هي ملّة الإسلام الحاضرة ﴿مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَ فِي هذا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَ تَكُونُوا شُهَدَآءَ عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَ آتُوا الزَّكَاةَ وَ اعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَىٰ وَ نِعْمَ النَّصِيرُ﴾.(١)

تلك هي الوحدة الدينيّة الكبرى التي يدعو إليها المسلمون، من لدن إبراهيم فإلى موسى وعيسى وإلى الإسلام الأخير.. دعوة أهل الكتاب إلى الإيمان بهذا الدين الحنيف الشامل.

﴿قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَ ما أُنزِلَ إِلَيْنَا﴾ نحن المسلمين ﴿وَ ما أُنزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَ إِسْمَاعِيلَ وَ إِسْحَاقَ وَ يَعْقُوبَ وَ الْأَسْبَاطِ، وَ ما أُوتِيَ مُوسَىٰ وَ عِيسَىٰ وَما أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَ نَحْنُ لَهُ﴾ لله ﴿مُسْلِمُونَ﴾ كما قال الأبُ إبراهيم من قبلُ ﴿إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾.

تلك هي حقيقة الإيمان وأساسها الاستسلام لله ربّ العالمين.. ومن ثمّ ﴿فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ ما آمَنتُم بِهِ فَقَدِ اهْتَدَوا وَّإِن تَوَلَّوْا﴾ وحسبوا الاهتداء في احتكارهم ﴿فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ﴾ جدال مع الحقّ الصريح ﴿فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ﴾ شرّهم و مكائدهم ﴿وَ لَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّءُ إِلَّا بِأَهْلِهِ﴾(٢).. ﴿وَ هُوَ السَّمِيعُ﴾ لما يدور بينهم من مؤامرات لئيمة ﴿الْعَلِيمُ﴾ بنيّاتهم الخبيثة، ومن ثمّ فإنّ كلّ دسائسهم تصبح فاشلة وفاضحة، ولايفلح الماكر حيث أتى.(٣)

---

(١) الحجّ ٢٢: ٧٨.
(٢) فاطر ٣٥: ٤٣.
(٣) اقتباساً من قوله تعالى: ﴿وَ لَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ﴾ (طه ٢٠: ٦٩). حيث الماكر ساحر.

نعم، ليس للمؤمن إلّا أن يستقيم على طريقته ﴿الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا﴾[١]. فيعتزّ بالحقّ المستمدّ مباشرةً من ربّه[٢]، وبالسمة التي يسمهم بها ربّهم الجليل، فيعرمون بها بين الناس ﴿سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ﴾[٣]. تلك كانت: ﴿صِبْغَةَ اللَّهِ وَ مَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً وَ نَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ﴾.

قال سيّد قطب: ونقف هنا عند سمة من سمات التعبير القرآني ذات الدلالة العميقة.. إنّ صدر الآية من كلام الله التقريري: ﴿صِبْغَةَ اللَّهِ وَ مَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً﴾. أمّا باقيها فهو من كلام المؤمنين. يلحقه السياق ـ بلا فصل ـ بكلام الباريء ـ سبحانه ـ في السياق. وكلّه قرآن منزل. ولكنّ الشطر الأوّل حكاية عن قول الله، والشطر الثاني حكاية عن قول المؤمنين. وهو تشريف عظيم أن يلحق كلام المؤمنين بكلام الله في سياق واحد، بحكم الصلة الوثيقة بينهم وبين ربّهم، وبحكم الاستقامة الواصلة بينه وبينهم. وأمثال هذا في القرآن كثير، وهو ذو مغزى كبير.[٤]

* * *

ثمّ تمضي الحجّة الدامغة إلى نهايتها الحاسمة:

﴿قُلْ أَتُحَآجُّونَنَا فِي اللَّهِ وَ هُوَ رَبُّنَا وَ رَبُّكُمْ وَ لَنَآ أَعْمَالُنَا وَ لَكُمْ أَعْمَالُكُمْ وَ نَحْنُ لَهُ مُخْلِصُونَ﴾.

نعم لا مجال للجدل في الله وهو ربّنا وربّكم كما أنّ لنا أعمالنا نحاسب عليها.. ولكم أعمالهم تتحوّل وزرها.. غير أنّ هناك فارق كبير يفصل بيننا وبينكم، إذ نحن متجرّدون له ومخلصون في عبادته لانشرك به شيئاً ولاندعو معه أحداً.

وهذا تعريض لطيف بالمدّعين للتوحيد، فإمّا يجعلون له شريكاً في الربوبيّة، كما صنع أهل الكتاب أو يشركون في عبادته، مع اعترافهم بأنّ الصانع تعالى واحد لاشريك له. فلم يكن توحيد كلّ من الفئات خالصاً، كما هو عند المسلمين.

* * *

وينتقل السياق إلى مجال آخر من مجالات الجدل، ممّا لاينبغي الجدل فيه.

﴿أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَ إِسْحَاقَ وَ يَعْقُوبَ وَ الْأَسْبَاطَ كَانُوا هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ﴾ وهم أسبق

---

(١) فصّلت ٤١: ٣٠.

(٢) حيث ذيل الآية: ﴿تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَ لَا تَحْزَنُوا وَ أَبْشِرُوا...﴾

(٣) الفتح ٤٨: ٢٩.

(٤) في ظلال القرآن ١: ١٦٤ ـ ١٦٥.

عهداً من اليهوديّة والنصرانية.. إذن تلك فضيحة عارمة.

﴿قُلْ أَأَنتُمْ﴾ مع هذا الجهل المفرط ﴿أَعْلَمُ أَمِ اللَّهُ﴾ الذي لايعزب عن علمه شيء؟!

وهذا سؤال لا جواب لهم عليه! وفيه من الاستنكار مايقضي بالخجل والتراجع عن الجواب.

ولكنّه كتمان عن الشهادة بالحقّ: ﴿وَ مَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَادَةً عِندَهُ مِنَ اللَّهِ وَ مَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾. نعم ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَ لَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَ لَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾.

هذا هو الفاصل بين رفعة تلكم الآباء وضعة هؤلاء الأحفاد. وفي ذلك فصل الخطاب ونهاية الجدل، والكلمة الأخيرة في تلك الدعاوي الفارغة ولكنّها العريضة بلا طائل.

الكلمات التي ابتلي بها إبراهيم عليه السلام

والكلمات: الكلام الذي أوحَى الله به إلى إبراهيم، إمّا إلهاماً في شعور باطنه أو وحياً مباشريّاً ألقاه في رُوعه. إذ الكلمة لفظ يدلّ على معنىً والمراد: الوظائف الإنسانيّة الكريمة التي توحيها الفطرة السليمة أو التي تتلقّاها الأنفس الكريمة من وحي السماء.

فإبراهيم الخليل ـ بفطرته الذاتيّة أوّلاً وبوحي السماء في امتداد حياته ـ قام بأعمال جسام ووقف مواقف مشهودة، جرّبته بها الأيّام، إنساناً شهماً عريقاً في شعور إنسانيّته النبيلة وآهلته للنيل بمقام محمود عند الله مدى الدهر.

أمّا وما هي هذه الكلمات وهذه المواقف التي جعلت إبراهيم إبراهيم الخليل؟

تكفيك مراجعة تاريخ حياته منذ أن بزغ إلى الوجود، من طفولته فريعان شبابه فكهولته وحتّى أيّام المشيب.. تجده ملأ حياته الحيويّة والنشاط والتضحية في سبيل إعلاء كلمة الله في الأرض، حتّى أصبح لوحده أمّة: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا﴾[١]. نعم هو لوحده أمّة، حيث إنّه منطلق أمّة قانتة لله تعالى عبر الزمان، ومنبعث شريعة حنيفة بيضاء على صفحات التاريخ مدى الدهر.. ﴿وَ جَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ﴾[٢].

وهذه الكلمات هي أوامره تعالى ونواهيه، منها الفطريّة ومنها بإيحاء. وإبراهيم عليه السلام قام بإنجازها كُمَلا ومن غير توانٍ قياماً لا هوادة فيه ولافتور. ﴿فَأَتَمَّهُنَّ﴾: وفّى بهنّ أحسن وفاء

(١) النحل ١٦: ١٢٠.
(٢) الزخرف ٤٣: ٢٨.

﴿وَ إِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّىٰ﴾[(١)].

وللمفسرين هنا شرح وتبيين لهذه المواقف، وبالأحرىٰ تفصيل البيان عن هذه الكلمات نعرضها كما يلي:

للشيخ أبي جعفر ابن بابويه الصدوق ـ عليه الرحمة ـ هنا بيان لطيف جامع لتبيين هذه الكلمات استناداً إلى المستفاد من فحوى آي الذكر الحكيم، قال:

والابتلاء على ضربين، أحدهما يستحيل على الله تعالى ذكره، والآخر جائز. فأمّا ما يستحيل فهو أن يختبره ليعلم ما تكشف الأيّام عنه. وهذا ما لا يصحّ له، لأنّه ـ عزّوجلّ ـ علّام الغيوب. والضرب الآخر من الابتلاء أن يبتليه حتّى يصبر فيما يبتليه به، فيكون مايعطيه من العطاء على سبيل الاستحقاق، ولينظر إليه الناظر فيقتدي به، فيعلم من حكمة الله ـ عزّوجلّ ـ أنّه لم يكل أسباب الإمامة إلّا إلى الكافىء المستقلّ، الذي كشفت الأيّام عنه بخبره.

فأمّا الكلمات فمنها ـ مضافاً إلى ما ورد في الحديث ـ: اليقين. وذلك قول الله ـ عزّوجلّ ـ: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ﴾.[(٢)]

ومنها المعرفة بقدم باريه وتوحيده وتنزيهه عن التشبيه، حين نظر إلى الكواكب والقمر والشمس، فاستدلّ بأُفول كلّ واحد منها على حدوثه، وبحدوثه على مُحدثه.

ومنها الشجاعة، وقد كشفت الأيّام عنها. بدلالة قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَ قَوْمِهِ مَا هٰذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ﴾ ـ قال لهم ذلك مُسخّفاً لعقليّتهم الهزيلة ـ ولمّا ﴿قَالُوا وَجَدْنَآ آبَآءَنَا لَهَا عَابِدِينَ﴾ قال لهم بجرأة وشهامة: ﴿لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَ آبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾. وأخيراً هدّدهم بكلّ صرامة: ﴿وَ تَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ﴾. وبالفعل قام بما هدّدهم ولم يهبهم.. قال الصدوق: ومقاومة إنسان واحد أُلوفاً حاشدة، لهي أدلّ دليل على شجاعة فائقة.

والحلم، كما جاء في قوله ـ عزّوجلّ ـ: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُّنِيبٌ﴾[(٣)].

والسخاء، ينبؤك به حديث ضيف إبراهيم المكرمين.[(٤)]

---

(١) النجم ٥٣: ٣٧.
(٢) الأنعام ٦: ٧٥.
(٣) هود ١١: ٧٧.
(٤) الذاريات ٥١: ٢٤. والحجر ١٥: ٥١.

والعزلة عن الأهل والعشيرة، في جنب الله: ﴿اعْتَزَلَهُمْ وَ مَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ﴾[١].

والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. لما في قوله: ﴿يا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَ لَا يُبْصِرُ وَ لَا يُغْنِي عَنكَ شَيْئًا﴾ الآيات[٢].

ودفع السيّئة بالحسنة، وذلك لمّا قال له أبوه: ﴿أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ آلِهَتِي يا إِبْرَاهِيمُ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا﴾ قال في جوابه: ﴿سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا﴾[٣].

والتوكّل، وبيان ذلك في قوله: ﴿الَّذي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ. وَ الَّذي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ. وَ إِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾[٤].

وتحمّل المحن في النفس[٥]، والولد[٦]، والأهل[٧] والصبر عليها صبر عبد شكور.

وإلى غير ذلك من مواقفه المشهودة، والتي اختصّ بها ذلك العبد الأوّاه المنيب إبراهيم الخليل، صلوات الله عليه.[٨]

[٣١٦٧/٢] قال الجبّائي: أراد بالكلمات كلّ ما كلّفه من الطاعات العقليّة والشرعيّة.[٩]

ويكفيك شاهداً على صلابة إيمانه وشديد عزمه واستقامته في جنب الله، شهادة الله بحقّه.. وأيّ شيء أكبر شهادة من الله.[١٠]

انظر إلى قوله تعالى: ﴿وَ لَقَدْ آتَيْنَآ إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِن قَبْلُ وَ كُنَّا بِهِ عَالِمِينَ﴾.[١١]

وقوله: ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا﴾.[١٢]

وقوله: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَ لَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ. شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ اجْتَبَاهُ وَ هَدَاهُ إِلَى

(١) مريم ١٩: ٤٩.
(٢) مريم ١٩: ٤٣ـ٤٦.
(٣) مريم ١٩: ٤٧ـ٤٨.
(٤) الشعراء ٢٦: ٧٨ ـ ٨٠.
(٥) حين قذف في النار.
(٦) حين أُمر بذبح ولده إسماعيل. قال تعالى: ﴿إِنَّ هذا لَهُوَ الْبَلاءُ الْمُبِينُ﴾ (الصافات ٣٧: ١٠٦).
(٧) حينما أُمر بالهجرة بهاجر.
(٨) راجع: كتاب الخصال ١: ٣٠٥ ـ ٣١٠، أبواب الخمسة برقم ٨٤.
(٩) التبيان ١: ٤٤٦، مجمع البيان ١: ٢٠٠.
(١٠) الأنعام ٦: ١٩.
(١١) الأنبياء ٢١: ٥١.
(١٢) مريم ١٩: ٤١.

صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ. وَ آتَيناهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَ إِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾[١].

وقوله: ﴿وَ إِبْرَاهِيمَ الَّذي وَفَّىٰ﴾[٢].

وقوله: ﴿وَ لَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَ إِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ. إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾[٣].

وقوله: ﴿وَ إِنَّ مِن شِيعَتِهِ لَإِبْرَاهِيمَ. إِذْ جَاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾.[٤]

وقوله: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ﴾[٥].

وقوله: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُّنِيبٌ﴾[٦].

وأخيراً: ﴿سَلَامٌ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ﴾[٧] ومن ثمّ: ﴿وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلاً﴾[٨]. وجعله إماماً وأمر باتباع سنّته مدى الأجيال: ﴿قُلْ صَدَقَ اللَّهُ فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا﴾[٩]. وصدق الله العلي العظيم.

تلك شهادات الله الفخيمة بشأن رجل عظيم، سجلّت مواقفه المشهودة المُشرّفة صفحاتُ التاريخ المُشْرقة وما هذه المفاخر والمكرمات الإنسانية العليا، والتي لا تزال البشرية تعتزّ بها وتعمل في تحقيقها حتّى بلوغ الكمال إلّا أثراً مشهوداً من سيرة ذلك الرجل العظيم: ﴿وَ جَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ﴾[١٠].

ولنذكر ـ هنا وبالمناسبة ـ ظاهرة عجيبة من حياة شيخ الأنبياء وإمام الأئمّة النبلاء قد تبدو غريبة، ولكن لامنه، بل ممّن سواه على الإطلاق:

[٣١٦٨/٢] حدّث بها كبير ذراريه الإمام أبو عبدالله جعفر بن محمّد الصادق عليه السلام فيما رواه أبو جعفر ابن بابويه الصدوق بإسناد صحيح عنه عليه السلام قال: «لمّا أهوى بإبراهيم إلى النار، تلقّاه جبرئيل وقال له: ألك حاجة يا إبراهيم؟! فقال له إبراهيم ـ بكلّ عظمة وإكبار ـ: أمّا إليك فلا!!».[١١]

---

(١) النحل ١٦: ١٢٠ ـ ١٢٢.
(٢) النجم ٥٣: ٣٧.
(٣) البقرة ٢: ١٣٠ ـ ١٣١.
(٤) الصافات ٣٧: ٨٣.
(٥) التوبة ٩: ١١٤.
(٦) هود ١١: ٧٥.
(٧) الصافات ٣٧: ١٠٩.
(٨) النساء ٤: ١٢٥.
(٩) آل عمران ٣: ٩٥.
(١٠) الزخرف ٤٣: ٢٨.
(١١) البحار ١٢: ٣٩ / ٢٤.

ما أفخم هذا التوكّل وهذا الانقطاع إلى الله الكبير المتعال؟!

ومن ثمّ تداركته عناية ربّه الجليل: ﴿قُلْنَا يَانَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ﴾(١).

[٣١٦٩/٢] وروى ثقة الإسلام أبو جعفر محمّدبن يعقوب الكليني بالإسناد إلى زيد الشحّام قال: سمعت الإمام أبا عبدالله الصادق عليه السلام يقول: «إنّ الله ـ تبارك وتعالى ـ اتّخذ إبراهيم عبداً قبل أن يتّخذه نبياً. وإنّ الله اتّخذه نبيّاً قبل أن يتّخذه رسولاً. وإنّ الله اتّخذه رسولاً قبل أن يتّخذه خليلاً. وإنّ الله اتّخذه خليلاً قبل أن يجعله إماماً. فلمّا جمعت له الأوصاف قال: ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾. ومن عظمها قال إبراهيم: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِي﴾. قال تعالى: ﴿لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾. قال الإمام الصادق: لا يكون السفيه إمام التقيّ!»(٢)

* * *

قال أبو جعفر الطبري في قوله تعالى: ﴿وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾

يعني ـ جلّ ثناؤه ـ بقوله: ﴿وَإِذِ ابْتَلَىٰ﴾ وإذا اختبر. يقال منه: ابتليتُ فلاناً أبتليه ابتلاء.

ومنه قول الله ـ عزّ وجلّ ـ: ﴿وَابْتَلُوا الْيَتَامَىٰ﴾. يعني به: اختبروهم. وكان اختبار الله ـ تعالى ذكره ـ إبراهيم اختباراً بفرائض فرضها عليه، وأمر أمره به، وذلك هو الكلمات التي أوحاهنّ إليه وكلّفه العمل بهنّ امتحاناً منه له واختباراً.

ثمّ أخذ في بيان تفاصيل الأقوال، قال:

اختلف أهل التأويل في صفة الكلمات التي ابتلى اللهُ بها إبراهيمَ نبيَّه و خليلَه ـ صلوات الله عليه ـ فقال بعضهم: هي شرائع الإسلام، وهي ثلاثون سهماً.

[٣١٧٠/٢] كما حدّثنا محمّد بن المثنّى، بالإسناد إلى عكرمة، عن ابن عبّاس قال: لم يبتل أحد بهذا الدين فأقامه إلّا إبراهيم، ابتلاه الله بكلمات فأتمّهنّ. قال: فكتب الله له البراءة، فقال: ﴿وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّىٰ﴾. قال: عشر منها في الأحزاب، وعشر منها في براءة، وعشر منها في المؤمنين والمعارج

---

(١) الأنبياء ٢١: ٦٩.

(٢) الكافي ١: ١٧٥ / ٢، كتاب الحجة باب طبقات الأنبياء والرسل والأئمّة؛ البحار ١٢: ١٢ / ٣٦ و ٢٥: ٢٠٥ ـ ٢٠٦ / ١٧. عن كتاب الاختصاص للمفيد: ٢٢.

وقال: إنّ هذا الإسلام ثلاثون سهماً.

قلت: ما جاء في هذه السور لا تعدو عشر خصال مكرّرات في السور الأربع.

[٢/٣١٧١] وكما في رواية إسحاق بن شاهين، بالإسناد عن ابن عبّاس قال: ما ابتلي أحد بهذا الدين فقام به كلّه غير إبراهيم، ابتلي بالإسلام فأتمّه، فكتب الله له البراءة، فقال: ﴿وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّىٰ﴾ فذكر عشراً في براءة: ﴿التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ﴾[1]، وعشراً في الأحزاب: ﴿إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ﴾[2]، وعشراً في سورة المؤمنين، إلى قوله: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾[3]، وعشراً في سأل سائل: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾[4].

قلت: وبذلك أصبحت الخصال أربعين!؟

قال: وقال آخرون: هي خصال عشر من سنن الإسلام.

[٢/٣١٧٢] كما حدّثنا الحسن بن يحيى، بالإسناد عن ابن عبّاس قال: ابتلاه الله بالطهارة: خمس في الرأس، وخمس في الجسد. في الرأس: قصّ الشارب، والمضمضة، والاستنشاق، والسواك، وفرق الرأس. وفي الجسد: تقليم الأظفار، وحلق العانة، والختان، ونتف الإبط، وغسل أثر الغائط والبول بالماء.

وروى المثنى، بالإسناد إلى ابن عبّاس بمثله، ولم يذكر أثر البول.

[٢/٣١٧٣] وعن أبي هلال قال: حدّثنا قتادة قال: ابتلاه بالختان، وحلق العانة، وغسل القبل والدبر، والسواك، وقصّ الشارب، وتقليم الأظافر، ونتف الإبط. قال أبو هلال: ونسيت خصلة.

[٢/٣١٧٤] وعن أبي الجلد قال: ابتلي إبراهيم بعشرة أشياء هنّ في الإنسان: سنّة الاستنشاق، وقصّ الشارب، والسواك، ونتف الإبط، وقلم الأظفار، وغسل البراجم، والختان، وحلق العانة، وغسل الدبر والفرج.

* * *

وقال بعضهم: بل الكلمات التي ابتلي بهنّ عشر خلال بعضهن في تطهير الجسد، وبعضهنّ في مناسك الحجّ.

---

(١) التوبة ٩: ١١٢. وهي تسع خصال.

(٢) الأحزاب ٣٣: ٣٥. وهي إحدى عشرة خصلة.

(٣) المؤمنون ٢٣: ٩. وهي ستّ خصال.

(٤) المعارج ٧٠: ٣٤. وهي ثماني خصال.

[٣١٧٥/٢] كما حدّثني المثنّى، بالإسناد إلى حنش عن ابن عبّاس قال: ستّة في الإنسان، وأربعة في المشاعر. فالّتي في الإنسان: حلق العانة، والختان، ونتف الإبط، وتقليم الأظفار، وقصّ الشارب، والغسل يوم الجمعة. وأربعة في المشاعر: الطّواف، والسعي بين الصفا والمروة، ورمي الجمار، والإفاضة.

* * *

وقال آخرون: بل ذلك: إنّي جاعلك للناس إماماً في مناسك الحج.

[٣١٧٦/٢] كما حدّثنا أبو كريب بالإسناد إلى أبي صالح ـ مولى أمّ هانيء ـ قال: فمنهنّ: ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾ ومنهنّ آيات النسك.

[٣١٧٧/٢] وهكذا روى ابن أبي نجيح، عن مجاهد قال: قال الله لإبراهيم: إنّي مبتليك بأمر، فما هو؟ قال: تجعلني للناس إماماً. قال: نعم. قال: ومن ذرّيّتي؟ قال: لا ينال عهدي الظالمين. قال: تجعل البيت مثابة للناس! قال: نعم. وأمناً! قال: نعم. وتجعلنا مسلمين لك، ومن ذرّيّتنا أمّة مسلمة لك! قال: نعم. وتُرينا مناسكنا وتتوب علينا! قال: نعم. قال: وتجعل هذا البلد آمناً! قال: نعم. قال: وترزق أهله من الثمرات من آمن منهم! قال: نعم. وهكذا ذكر عكرمة. قال ابن جُريج: فاجتمع على هذا القول مجاهد وعكرمة جميعاً.

[٣١٧٨/٢] وعن مجاهد أيضاً قال: ابتلي بالآيات التي بعدها: ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا. قَالَ وَ مِن ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾.

[٣١٧٩/٢] وهكذا روى عن الربيع قال، فالكلمات هي قوله: ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾ وقوله: ﴿وَ إِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ﴾ وقوله: ﴿وَ اتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى﴾ وقوله: ﴿وَ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَاهِيمَ وَ إِسْمَاعِيلَ﴾ الآية، وقوله: ﴿وَ إِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ﴾ الآية. قال: فذلك كلمة من الكلمات التي ابتلي بهنّ إبراهيم.

* * *

وقال آخرون: بل ذلك مناسك الحجّ خاصّة.

[٣١٨٠/٢] كما حدّثنا ابن بشّار، بالإسناد إلى قتادة، عن ابن عبّاس في قوله: ﴿وَ إِذِ ابْتَلَىٰٓ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ﴾ قال: مناسك الحجّ.

وفي أخرى قال: منهنّ مناسك الحجّ.

* * *

وقال آخرون: هي أمور منهنّ الختان.

[٣١٨١/٢] كما حدّثني محمّد بن بشّار، بالإسناد إلى الشعبي: ﴿وَ إِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ﴾ قال: منهنّ الختان.

[٣١٨٢/٢] وهكذا سأله أبو إسحاق عن قول الله: ﴿وَ إِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ﴾ قال: منهنّ الختان يا أبا إسحاق.

* * *

وقال آخرون: بل ذلك الخلال الستّ: الكوكب والقمر والشمس والنار والهجرة والختان، التي ابتلي بهنّ فصبر عليهنّ.

[٣١٨٣/٢] كما حدّثني يعقوب بن إبراهيم، عن ابن علية، عن أبي رجاء، قال: قلت للحسن: ﴿وَ إِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ﴾ قال: ابتلاه بالكوكب فرضي عنه، وابتلاه بالقمر فرضي عنه، وابتلاه بالشمس فرضي عنه، وابتلاه بالنار فرضي عنه، وابتلاه بالهجرة، وابتلاه بالختان.

[٣١٨٤/٢] وأيضاً، عن قتادة قال: كان الحسن يقول: إي والله ابتلاه بأمر فصبر عليه، ابتلاه بالكوكب والشمس والقمر، فأحسن في ذلك وعرف أنّ ربّه دائم لا يزول، فوجّه وجهه للذي فطر السماوات والأرض حنيفاً وما كان من المشركين، ثمّ ابتلاه بالهجرة، فخرج من بلاده وقومه حتّى لحق بالشام مهاجراً إلى الله، ثمّ ابتلاه بالنار قبل الهجرة فصبر على ذلك، فابتلاه الله بذبح ابنه وبالختان فصبر على ذلك.

وقال آخرون بما:

[٣١٨٥/٢] حدّثنا به موسى بن هارون بالإسناد عن السدّي: الكلمات التي ابتلى بهن إبراهيم ربُّه: ﴿ربّنا تَقَبَّلْ مِنَّآ إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ رَبَّنَا وَ اجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَ مِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَ أَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَ تُبْ عَلَيْنَآ إِنَّكَ أَنتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ. رَبَّنَا وَ ابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ﴾.

قال ابن جرير: والصواب من القول في ذلك عندنا أن يقال: إنّ الله ـ عزّ وجلّ ـ أخبر عباده أنّه اختبر إبراهيم خليله بكلمات أوحاهنّ إليه، وأمره أن يعمل بهنّ وأتمّهنّ، كما أخبر الله ـ جلّ ثناؤه ـ

عنه أنّه فعل. وجائز أن تكون تلك الكلمات جميع ما ذكروه في تأويل الكلمات، وجائز أن تكون بعضه، لأنّ إبراهيم ـ صلوات الله عليه ـ قد كان امتُحن فيما بَلَغنا بكلّ ذلك، فعمل به وقام فيه بطاعة الله وأمره الواجب عليه فيه. وإذ كان ذلك كذلك، فغير جائز لأحد أن يقول: عنى الله بالكلمات التي ابتلي بهنّ إبراهيم شيئاً من ذلك بعينه دون شيء، ولا عنى به كلّ ذلك إلّا بحجّة، يجب التسليم لها من خبر عن الرسول ﷺ، أو إجماع من الحجّة، ولم يصحّ في شيء من ذلك خبرٌ عن الرسول بنقل الواحد، ولا بنقل الجماعة التي يجب التسليم لما نقلته. غير أنّه روي عن النبيّ ﷺ في نظير معنى ذلك خبران لو ثبتا، أو أحدهما، كان القول به في تأويل ذلك هو الصواب. أحدهما ما:

[٣١٨٦/٢] رواه أبو كريب، بالإسناد إلى سهل بن معاذ، عن أبيه، قال: كان النبيّ ﷺ، يقول: ألا أخبركم لم سمّى الله إبراهيم خليله الذي وفّى؟ لأنّه كان يقول كلّما أصبح وكلّما أمسى: ﴿فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَ حِينَ تُصْبِحُونَ...﴾ حتّى يختم الآية.

والآخر منهما ما:

[٣١٨٧/٢] رواه بالإسناد إلى أبي أمامة، قال: قال رسول الله ﷺ: «﴿وَ إِبْرَاهِيمَ الَّذي وَفَّى﴾ قال: أتدرون ما وفّى؟ قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: وفّى عمل يومه أربع ركعات في النهار».

قال أبو جعفر: فلو كان خبر سهل بن معاذ عن أبيه صحيحاً سنده، كان بيّنّا أنّ الكلمات التي ابتلي بهنّ إبراهيم فقام بهنّ هو قوله كلّما أصبح وأمسى: ﴿فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَ حِينَ تُصْبِحُونَ وَ لَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ وَ عَشِيًّا وَ حِينَ تُظْهِرُونَ﴾. أو كان خبر أبي أمامة عدولاً نقلته، كان معلوماً أنّ الكلمات التي أوحي إلى إبراهيم فابتلي بالعمل بهنّ أن يصلّي كلّ يوم أربع ركعات. غير أنّهما خبران في أسانيدهما نظر.

والصواب من القول في معنى الكلمات التي أخبر الله أنّه ابتلي بهنّ إبراهيم ما بيّنّا آنفاً.

ولو قال قائل في ذلك: إنّ الذي قاله مجاهد وأبو صالح والربيع بن أنس أولى بالصواب من القول الذي قاله وغيرهم، كان مذهباً، لأنّ قوله: ﴿إِنّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾ وقوله: ﴿وَ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَاهِيمَ وَ إِسْمَاعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّآئِفِينَ﴾ وسائر الآيات التي هي نظير ذلك كالبيان عن الكلمات التي ذكر الله أنّه ابتلي بهنّ إبراهيم.(١)

---

(١) الطبري ١: ٧٢٩ ـ ٧٣٦.

قال الحافظ ابن كثير: وهو كما قال ابن جرير، فـإنّه لايـجوز روايـتهما إلّا بـبيان ضـعفهما، وضعفُهما من وجوه عديدة، فإنّ كلّاً من السندين مشتمل على غير واحد من الضعفاء، مع ما في متن الحديث ما يدلّ على ضعفه.(١)

وقال ابن أبي حاتم: اختلف أهل التفسير في ذلك على أقوال، فمنها:

[٣١٨٨/٢] ما حدّثنا الحسن بن أبي الربيع عن عبدالرزّاق عن معمر عن ابن طاووس عن أبيه عن ابن عبّاس: ﴿وَ إِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ﴾ قال: ابتلاه الله بالطهارة، خمس في الرأس وخمس في الجسد. في الرأس: قصّ الشارب والمضمضة والاستنشاق والسواك وفرق الرأس، وفـي الجسـد: تقليم الأظافر وحلق العانة ونتف الإبط وغسل أثر الغائط والبول بالماء. وروى عن أبي صالح وأبي الجلد ومجاهد وسعيد بن المسيب والنخعي والشعبي نحو ذلك. وروي عن ابن عبّاس قول آخر(٢) وجعل يرد سائر الأقوال حتّى أنهاها إلى سبعة كما ذكره الطبري.

[٣١٨٩/٢] وأخرج ابن إسحاق وابن أبي حاتم عن ابن عبّاس قال: الكلمات التي ابتلي بهنّ إبراهيم فأتمّهنّ: فراق قومه في الله حين أمر بمفارقتهم، ومحاجّته نمرود في الله حين وقفه على ما وقفه عليه من خطر الأمر الذي فيه خلافهم، وصبره على قذفهم إيّاه في النـار ليـحرقوه فـي الله، والهجرة بعد ذلك من وطنه وبلاده حين أمره بالخروج عنهم، وما أمره به من الضيافة والصبر عليها، وما ابتلي به من ذبح ولده. فلمّا مضى على ذلك كلّه وأخلصه البلاء قال الله له: ﴿أسلم قال أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾(٣).(٤)

* * *

وهناك من المفسّرين من أرجع الضمير ـ المرفوع ـ في «أتمّهنّ» إلى الله، ليكون تعالى هو الذي ابتلى إبراهيم بكلمات ألقاهنّ إليه، ليسأل الله تعالى بها ـ كما في قصّة آدم ﷺ ﴿فَتَلَقَّىٰ آدَمُ مِـن رَّبِّـهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ﴾(٥) ـ فيكون معنى «أتمّهنّ» أكْـمَلَهُنّ بـالإجابة والتأثـير فـي رفـع الدرجـات والاستئهال لنيل مقام الإمامة.

---

(١) ابن كثير ١: ١٧٠.

(٢) ابن أبي حاتم ١: ٢١٩ ـ ٢٢٢.

(٣) البقرة ٢: ١٣١.

(٤) الدرّ ١: ٢٧٣؛ ابن أبي حاتم ١: ٢٢٠ / ١١٦٧.

(٥) البقرة ٢: ٣٧.

قال البلخي: الضمير في «أتمّهنّ» راجع إلى الله. قال الشيخ: وهو اختيار الحسين بن علـيّ المغربيّ.(١)

الأمر الذي يتناسب مع قول مجاهد: والكلمات التي ابتلاه بهنّ هي الآيات التي بعدها وهي: ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَ مِن ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾ وهذا القول رجّحه البلخي قائلاً: لأنّ الكلام متّصل، ولم يفصل بين قوله: ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾ وبين ما تقدّمه بواو.. قال: فأتمّهنّ الله بأن أوجب بها الإمامة له بطاعته واضطلاعه. ومنع أن ينال العهد الظالمين من ذرّيّته، وأخبره بأنّ منهم ظالماً! فرضي إبراهيم بذلك-وأطاعه أي استسلم وأسلم وجهه لله. وكلّ ذلك ابتلاء واختبار.(٢)

* * *

[٣١٩٠/٢] وأمّا مقاتل بن سليمان فيرى من الكلمات هي مسائل سألها إبراهيمُ ربَّه [ومتلقّياً لها منه]. قال: يعني بذلك كلّ مسألة في القرآن ممّا سأل إبراهيم:

من قوله: ﴿رَبِّ اجْعَلْ هذا بَلَدًا آمِنًا وَ ارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ﴾(٣).

ومن قوله: ﴿رَبَّنَا وَ اجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَ مِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَ أَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَ تُبْ عَلَيْنَآ إِنَّكَ أَنتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾(٤).

وحين قال: ﴿رَبَّنَا وَ ابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ﴾(٥).

وحين قال لقومه حين حاجّوه: ﴿إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾(٦).

وحين قال: ﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا﴾(٧).

وحين أُلقي في النار، وحين أراد ذبح ابنه، وحين قال: ربّ هب لي من الصالحين حين سأل الولد.

---

(١) التبيان ١: ٤٤٦؛ مجمع البيان ١: ٢٠١.
(٢) التبيان ١: ٤٤٦.
(٣) البقرة ٢: ١٢٦.
(٤) البقرة ٢: ١٢٨.
(٥) البقرة ٢: ١٢٩.
(٦) الأنعام ٦: ٧٨ وتمامها: ﴿فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هذا رَبِّي هذا أَكْبَرُ فَلَمَّآ أَفَلَتْ قَالَ يَاقَوْمِ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾.
(٧) الأنعام ٦: ٧٩.

وحين قال: ﴿وَ اجْنُبْنِي وَ بَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ الْأَصْنَامَ﴾[١].

وحين قال: ﴿فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِيَ إِلَيْهِمْ﴾[٢].

وحين قال: ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّـآ إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾[٣].

وما كان نحو هذا في القرآن، وما سأل إبراهيم فاستجاب له. ﴿فَأَتَمَّهُنَّ﴾ ثمّ زاده الله ممّا لم يكن في مسألته: ﴿قَالَ: إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾ في الدين يُقتدى بسنّتك ﴿قَالَ﴾ إبراهيم: يا ربّ ﴿وَ مِن ذُرِّيَّتِي﴾ فاجعلهم أئمة ﴿قَالَ﴾ الله: إنّ في ذرّيتك الظلمة ﴿لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾ يعني المشركين من ذرّيّتك. قال: لا ينال طاعتي الظلمة من ذرّيّتك ولا أجعلهم أئـمة: أنـحلها أوليـائي وأجـنّبها أعدائي[٤].

* * *

قد يحسب البعض أنّ ما ذهب إليه مقاتل، مسايرة مع قراءة أبي الشعثاء (جابربن زيد): إبراهيمُ ـ رفعاً ـ وربَّه ـ نصباً. ليكون المعنى: سأل ودعا إبراهيمُ ربَّه.[٥]

قال الدكتور شحاتة: جرى مقاتل في تفسيره على أنّ الابتلاء كان من إبراهيم لربّه، وهي قراءة في الآية. على أنّه دعا ربَّه بكلمات، مثل ﴿أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ الْمَوْتَىٰ﴾. ﴿اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا﴾، ليرى هل يجيبه على ما سأل؟ وعلى هذه القراءة فمعنى ﴿فَأَتَمَّهُنَّ﴾ أي أعطاه الله جميع ما سأل.[٦]

لكنّها قراءة شاذّة منبوذة أنكرتها الأئمّة منذ أوّل يـومها.. إذ لا مـوضع لعـبد مـثل إبـراهـيم الخليلﷺ أن يقوم باختبار مولاه الجليل. وهل لايكون قاطعاً باستجابة ربّه الكريم لمـثل عـبده الصالح المستكين؟! وهو القائل ـ وقوله الحقّ ووعده الصدق ـ: ﴿ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾[٧]. وهـل هناك داع أعزّ على الله من مثل إبراهيم، ذلك العبد الأوّاه المنيب؟! أو ليس إبراهيم هو القائل: ﴿إِنَّهُ﴾

---

(١) إبراهيم ١٤: ٣٥.
(٢) إبراهيم ١٤: ٣٧.
(٣) البقرة ٢: ١٢٧.
(٤) تفسير مقاتل ١: ١٣٦ ـ ١٣٧.
(٥) الثعلبي ١: ٢٦٧. قال الثعلبي: قيل له: ومن أين لك هذا؟ فقال: أقرأنيه ابن عبّاس! قال الثعلبي: وهذا غير قـويّ لأجـل الباء في قوله: ﴿بِكَلِمَاتٍ﴾ وقرأ الباقون بالنصب وجعلوا معنى الابتلاء الاختبار والامتحان في الأمر، وهو الصحيح.
(٦) هامش تفسير مقاتل ١: ١٣٧.
(٧) غافر ٤٠: ٦٠.

ربّي ﴿كَانَ بِي حَفِيًّا﴾[١]؟!

إذن فكيف يا تُرى يحاول اختبار ربّه، وهو يصفه بتلك السمات الكريمة، والتي تنبؤك عن كمال انقطاعه إليه وحسن يقينه بعناية ربّه، وكانت مشهودة له طول حياته التي قضاها مستسلماً لله ربّ العالمين.

ثمّ، إنّ ممّا استشهد به مقاتل من أسئلة إبراهيم قوله في المحاججة مع قومه: ﴿إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾[٢]. وقوله: ﴿وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾[٣]. وغير ذلك ممّا هو إبداء لموضع عبوديّته محضاً ولا مجال فيه لاختبار مولاه وانّما هو اختبار مولاه إيّاه صرفاً.

فالصحيح أنّ مقاتل لم يستند قراءة منبوذة.. وإنّما هي قراءة حفص المعروفة لتكون الكلمات هي التي تلقّاها من ربّه، وصاغها في صيغ الدعاء والمسألة، كما صنع آدمعليه السلام من قبل ومن ثمّ أضفنا بين معقوفتين [ومتلقّيًا لها منه] إيضاحاً لموضع مقاتل من التفسير على القراءة المشهورة.

وإليك بعض ما جاء بشأن إبراهيم، ذلك الرجل العظيم:

[٣١٩١/٢] أخرج ابن أبي شيبة وأبو داوود والترمذي والنسائي عن أنس قال: «جاء رجل إلى رسول اللهصلى الله عليه وآله وسلم فقال: يا خير البريّة! قال: ذاك إبراهيم».[٤]

[٣١٩٢/٢] وأخرج أحمد في الزهد عن مطرف قال: أوّل من راغم، إبراهيمعليه السلام حين راغم قومه إلى الله بالدعاء.[٥]

[٣١٩٣/٢] وأخرج أحمد وأبو نعيم عن نوف البكالي قال: قال إبراهيمعليه السلام: يا ربّ إنّه ليس في الأرض أحد يعبدك غيري! فأنزل الله ـ عزّ وجلّ ـ ثلاثة آلاف ملك فأمّهم ثلاثة أيّام.[٦]

---

(١) مريم ١٩: ٤٨. (٢) الأنعام ٦: ٧٨.

(٣) الأنعام ٦: ٧٩.

(٤) الدرّ ١: ٢٨٥؛ المصنّف ٧: ٤٤٧ / ٤، باب ٢؛ أبو داوود ٢: ٤٠٧ / ٤٦٧٢، باب ١٤؛ الترمذي ٥: ١١٦ / ٣٤٠١؛ النسائي ٦: ٥٢٠ / ١١٦٩٢، كتاب التفسير، سورة البيّنة؛ أبو يعلى ٧: ٣٩ / ٣٩٤٩.

(٥) الدرّ ١: ٢٨٥.

(٦) الدرّ ١: ٢٨٤؛ الزهد لأحمد: ١٤٠ ـ ١٤١ / ٤١٥؛ الحلية ٦: ٥٠، برقم ٣٢٦، نوف البكالي.

[٣١٩٤/٢] وأخرج ابن سعد عن الكلبيّ قال: إبراهيمﷺ أوّل من أضاف الضيف، وأوّل من ثَرَدَ الثريد، وأوّل من رأى الشيب، وكان قد وسّع عليه في المال والخدم.(١)

[٣١٩٥/٢] وأخرج ابن أبي الدنيا والبيهقي في شعب الإيمان عن أبي هريرة قال: قال رسول اللهﷺ: «كان أوّل من ضيّف الضيفَ إبراهيمﷺ».(٢)

[٣١٩٦/٢] وأخرج ابن سعد وابن أبي الدنيا وأبو نعيم في الحلية والبيهقي في شعب الإيمان عن عكرمة قال: كان إبراهيم خليل الرحمان يكنّى أبا الضيفان، وكان لقَصْره أربعة أبواب لكي لا يفوته أحد.(٣)

[٣١٩٧/٢] وأخرج البيهقي عن عطاء قال: كان إبراهيم خليل اللهﷺ، إذا أراد أن يتغدّى طلب من يتغدّى معه إلى ميل!(٤)

[٣١٩٨/٢] وأخرج ابن أبي شيبة عن السدّي قال: أوّل من ثَرَدَ الثريد إبراهيمﷺ.(٥)

---

(١) الدرّ ١: ٢٨٤؛ الطبقات ١: ٤٦ ـ ٤٧، رواه عن ابن عبّاس، بلفظ: لمّا هرب إبراهيم من كوثي وخرج من النار ولسانه يومئذ سُرياني فلمّا عبر الفرات من حرّان غيّر الله لسانه، فقيل عبراني حيث عبر الفرات. وبعث نمرود في أثره وقال: لا تَدَعوا أحداً يتكلّم بالسُريانية إلّا جئتموني به، فلقوا إبراهيم فتكلّم بالعبرانية فتركوه ولم يعرفوا لغته. قال هشام بن محمّد عن أبيه: فهاجر إبراهيم من بابل إلى الشام فجاءته سارة فوهبت له نفسها فتزوّجها وخرجت معه وهو يومئذ ابن سبع وثلاثين سنة فأتى حرّان فأقام بها زماناً ثمّ أتى الأردن فأقام بها زماناً، ثمّ خرج إلى مصر فأقام بها زماناً، ثمّ رجع إلى الشام فنزل السبع أرضاً بين إيليا وفلسطين، فاحتفر بئراً وبنى مسجداً، ثمّ إنّ بعض أهل البلد آذوه فتحوّل من عندهم فنزل منزلاً بين الرملة وإيليا، فاحتفر به بئراً وأقام به وكان قد وُسّع عليه في المال والخدم وهو أوّل من أضاف الضيف وأوّل من ثَرَدَ الثريد وأوّل من رأى الشيب.

(٢) الدرّ ١: ٢٨٣؛ الشعب ٧: ٩٧ / ٩٦١٥، باب ٦٨؛ كتاب الأوائل، لابن أبي عاصم: ٦٣.

(٣) الدرّ ١: ٢٨٣؛ الطبقات ١: ٤٧، باب ذكر إبراهيمﷺ؛ الحلية ٣: ٣٣٦، باب ٢٤٥؛ الشعب ٧: ٩٨ / ٩٦١٧ و ٩٦١٨؛ ابن عساكر ٦: ١٧٣، ترجمة ٣٥١، إبراهيم بن آزر.

(٤) الدرّ ١: ٢٨٣؛ الشعب ٧: ٩٨ / ٩٦١٩، باب ٦٨؛ ابن عساكر ٦: ٢٣٩، وفيه: طلب من يتغدّى معه ميلاً في ميل.

(٥) الدرّ ١: ٢٨٤؛ المصنّف ٨: ٣٣٥ / ٨٥، كتاب الأوائل؛ القرطبي ٢: ٩٨، بلفظ: وقال غيره: وأوّل من ثَرَد الثريد، وأوّل من ضرب بالسيف وأوّل من استاك وأوّل من استنجى بالماء وأوّل من لبس السراويل؛ ابن كثير ١: ١٧١، بنحو ما رواه القرطبي، إلّا أنّ فيه: «أوّل مَن بَرَد البريد» بدل: «ثَرَد الثريد».

[٣١٩٩/٢] وأخرج الديلمي عن نبيط بن شريط قال: قال رسول اللهﷺ: «أوّل من اتّخذ الخبز المبلقس[١] إبراهيمعليه السلام».[٢]

[٣٢٠٠/٢] وأخرج ابن أبي شيبة وأحمد في الزهد وأبو نعيم في الحلية عن كعب قال: قال إبراهيمعليه السلام: يا ربّ إنّني ليحزنني أن لا أرى أحداً في الأرض يعبدك غيري، فأنزل الله إليه ملائكةً يصلّون معه ويكونون معه.[٣]

[٣٢٠١/٢] وروى الطبرسي أنّه كان سعيد بن المسيب يقول: كان إبراهيم أوّل الناس أضاف الضيف، وأوّل الناس اختتن، وأوّل الناس قصّ شاربه، واستحدّ[٤]، وأوّل الناس رأى الشيب، فلمّا رآه قال: يا ربّ ما هذا؟ قال: هذا الوقار! قال: يا ربّ فزدني وقاراً. وهذا أيضاً قد رواه السكوني، عن أبي عبدالله، ولم يذكر: أوّل من قصّ شاربه واستحدّ، وزاد فيه: وأوّل من قاتل في سبيل الله إبراهيم، وأوّل من أخرج الخمس إبراهيم، وأوّل من اتّخذ النعلين إبراهيم، وأوّل من اتّخذ الرايات إبراهيم.[٥]

[٣٢٠٢/٢] وأخرج أحمد في الزهد وأبو نعيم في الحلية عن كعب قال: كان إبراهيمعليه السلام يقري الضيف ويرحم المسكين وابن السبيل، فأبطأت عليه الأضياف حتّى اشرأبّ لِذلك[٦]، فخرج إلى الطريق يطلب، فجلس فمرّ مَلَكُ الموت في صورة رجل، فسلّم عليه فردّ عليه السلام، ثمّ سأله من أنت؟ قال: أنا ابن السبيل! قال: إنّما قعدتُ هاهنا لمثلك، فأخذ بيده فقال له: انطلق. فذهب إلى منزله، فلمّا رآه إسحاق عرفه[٧]! فبكى إسحاق؟ فلمّا رأت سارة إسحاق يبكي بكت لبكائه، فلمّا

---

(١) والخبز المُبَلْقَس منسوب إلى بَلْقَس: قرية بشرقيّ مصر. وهي خبزة فيها أربعة أرطال. أوّل من اتّخذها سيّدنا إبراهيمعليه السلام كما ورد في الأوّليات. وكما فسّره الديلمي في مسند الفردوس. (تاج العروس ٤: ١١٢ مادّة بلقس).

(٢) الدرّ ١: ٢٨٤؛ كنز العمّال ١١: ٤٨٩ / ٣٢٣٠٦.

(٣) الدرّ ١: ٢٨٤؛ المصنّف ٨: ٢٧٠ / ١٤٥، كتاب الزهد؛ الزهد: ١٣٩ / ٤٠٧، في زهد إبراهيم الخليل؛ الحلية ٦: ٢٦، باب في تكملة كعب الأحبار.

(٤) استحدّ: حدّ شفرته. وفي بعض النسخ: استحذى أي اتّخذ الحذاء. لكن لايناسب اقترانه مع قصّ الشارب. وأيضاً لزم التكرار مع قوله: اتّخذ النعلين.

(٥) مجمع البيان ١: ٣٧٤ ـ ٣٧٥؛ كنز الدقائق ٢: ١٣٤؛ البحار ١٢: ٥٧، باب ٣.

(٦) اشرأبّ للشيء وإلى الشيء: مدّ عنقه لينظره.

(٧) كيف عرفه إسحاق ولم يعرفه أبوه إبراهيم؟!

رأى إبراهيم سارة تبكي فبكى لبكائها؟ فلمّا رأى مَلَكُ الموت إبراهيم يبكي بكى لبكائه. ثمّ صعد ملك الموت؛ فلمّا ارتقى غضب إبراهيم، فقال: بكيتم في وجه ضيفي حتّى ذهب. فقال إسحاق: لا تلمني يا أبتِ فإنّي رأيت مَلَكَ الموت معك، لا أرى أجلك إلّا قد حضر فأرِثْ في أهلك. أي: أوصِهْ. وكان لإبراهيم بيت يتعبّد فيه فإذا خرج أغلقه لا يدخله غيرُه، فجاء إبراهيم ففتح بيته الذي يتعبّد فيه فإذا هو برجل جالس، فقال إبراهيم: من أدخلك، بإذن من دخلت؟! قال: بإذن ربّ البيت! قال: ربّ البيت أحقّ به، ثمّ تنحّى في ناحية البيت فصلّى ودعا كما كان يصنع، وصعد ملك الموت، فقيل له: ما رأيت؟ قال: يا ربّ جئتك من عند عبدك ليس بعده في الأرض خير. قيل له: ما رأيت منه؟ قال: ما ترك خلقاً من خلقك إلّا قد دعا له بخير في دينه وفي معيشته.

ثمّ مكث إبراهيم عليه السلام ما شاء الله، ثمّ جاء ففتح بابه فإذا هو برجل جالس، قال له: من أنت؟ قال: إنّما أنا ملك الموت! قال إبراهيم: إن كنت صادقاً فأرني آيةً أعرف أنّك ملك الموت! قال: أعرض بوجهك يا إبراهيم. قال: ثمّ أقبل فأراه الصورة التي يقبض بها المؤمنين، فرأى شيئاً من النور والبهاء لا يعلمه إلّا الله، ثمّ قال: أعرِض بوجهك. ثمّ قال: انظر فأراه الصورة التي يقبض فيها الكفّار والفجّار، فرعب إبراهيم رعباً حتّى ألصق بطنه بالأرض، كادت نفسُ إبراهيم تخرج، فقال: أعرف، فانظر الذي أُمِرْتَ به فامضِ له.

فصعد ملك الموت فقيل له: تلطَّف بإبراهيم، فأتاه وهو في عنب له[1] وهو في صورة شيخ كبير لم يبق منه شيء، فلمّا رآه إبراهيم رحمه فأخذ مكتلاً ثمّ دخل عنبه فقطف من العنب في مكتله، ثمّ جاء فوضعه بين يديه فقال: كل. فجعل يمضغ ويريه أنّه يأكل ويمجّه على لحيته وعلى صدره، فعجب إبراهيم فقال: ما أبقت السنُّ منك شيئاً كم أتى لك؟ فحسب مدّة إبراهيم، فقال: أمالي كذا وكذا؟! فقال إبراهيم: قد أتي لي هذا، إنّما أنتظر أن أكون مثلك. اللهمّ اقبضني إليك، فطابت نفسُ إبراهيم على نفسه وقبض ملك الموت نفسه تلك الحال.[2]

[٣٢٠٣/٢] وأخرج ابن أبي الدنيا في كتاب الإخوان والخطيب في تاريخه والديلمي في مسند الفردوس والغسولي في جزئه المشهور، واللفظ له، عن تميم الداري: أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله سُئل عن

---

(١) أي كرم وهو بستان العنب.

(٢) الدرّ ١: ٢٨٦ ـ ٢٨٧؛ الحلية ٦: ٢٧ ـ ٢٩؛ ابن عساكر ٦: ٢٥٣ ـ ٢٥٥.

معانقة الرجلِ الرجلَ إذا هو لقيه؟ قال: «كانت تحيّةَ الأمم. وفي لفظ: كانت تحيّةَ أهل الإيمان وخالص وُدّهم، وإنّ أوّل من عانق خليل الرحمان، فإنّه خرج يوماً يرتاد لماشيته في جبل من جبال بيت المقدس، إذ سمع صوت مُقدِّس يُقدِّس الله تعالى، فذُهل عمّا كان يطلب، فقصد قصد الصوت، فإذا هو بشيخ طوله ثمانية عشر ذراعاً أهلب[1] يوحّد الله ـ عزّ وجلّ ـ فقال له إبراهيم: يا شيخ من ربّك؟ قال: الذي في السماء! قال: من ربّ الأرض؟ قال: الذي في السماء! قال: فيها ربّ غيره؟! قال: ما فيها ربّ غيره، لا إلـه إلّا هو وحده.

قال إبراهيم: فأين قبلتك؟ قال: إلى الكعبة! فسأله عن طعامه فقال: أجمع من هذه الثمرة في الصيف فآكله في الشتاء! قال: هل بقي معك أحد من قومك؟ قال: لا. قال: أين منزلك؟ قال: تلك المغارة. قال: اعبُر بنا إلى بيتك. قال: بيني وبينها وادٍ لايُخاض. قال: فكيف تعبره؟ فقال: أمشي عليه ذاهباً وأمشي عليه عائداً. قال: انطلق بنا فلعلّ الذي ذلّله لك يذلّله لي!

فانطلقا حتّى انتهيا، فمشيا جميعاً عليه، كلّ واحد منهما يعجب من صاحبه، فلمّا دخلا المغارة فإذا بقبلته قبلة إبراهيم! قال له ابراهيم: أيّ يوم خلق الله أشدّ؟ قال الشيخ: ذلك اليوم الذي يضع كرسيّه للحساب؛ يوم تُسعَّر جهنّم لا يبقى ملك مقرّب ولا نبيّ مرسل إلّا خرّ يهمّه نفسُه. قال له إبراهيم: ادع الله يا شيخ أن يؤمِّنّي وإيّاك من هول ذلك اليوم! قال الشيخ: وما تصنع بدعائي ولي في السماء دعوة محبوسة منذ ثلاث سنين؟ قال إبراهيم: ألا أخبرك ما حبس دعاءك؟ قال: بلى! قال: إنّ الله ـ عزّ وجلّ ـ إذا أحبّ عبداً احتبس مسألته، يُحبُّ صوتَه، ثمّ جعل له على كلّ مسألة ذُخراً لايخطر على قلب بشر، وإذا أبغض الله عبداً عجّل له حاجته أو ألقى الأياس في صدره ليقبض صوته، فما دعوتك التي هي في السماء محبوسة؟

قال: مرّ بي هاهنا شابّ في رأسه ذؤابة منذ ثلاث سنين ومعه غنم، قلت: لمن هذه؟ قال: لخليل الله إبراهيم. قلت: اللهمّ إن كان لك في الأرض خليل فأرنيه قبل خروجي من الدنيا! قال له إبراهيمعليه السلام: قد أجيبت دعوتُك، ثمّ اعتنقا؛ فيومئذ كان أصل المعانقة، وكان قبل ذلك السجود، هذا

---

(١) كثير الشعر.

لهذا وهذا لهذا، ثمّ جاء الصفاح[١] مع الإسلام، فلم يُسْجَد ولم يُعانَق، ولن تفترق الأصابعُ حتّى يُغفر لكلّ مصافح».[٢]

[٣٢٠٤/٢] وأخرج الحاكم عن أبي أمامة قال: طلعت كفٌّ من السماء بين إصبعين من أصابعها شعرةٌ بيضاء، فجعلت تدنو من رأس إبراهيم ثمّ تدنو، فألقتها في رأسه وقالت: اشعل وقاراً، ثمّ أوحى الله إليها أن تطهّر، وكان أوّل من شاب واختتن، وأنزل الله على إبراهيم ممّا أنزل على محمّد: ﴿التَّائِبُونَ الْعابِدُونَ الْحامِدُونَ﴾ إلى قوله: ﴿وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾[٣]. و ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ﴾ إلى قوله: ﴿هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾[٤]. و ﴿إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَ الْمُسْلِمَاتِ...﴾[٥] الآية. والتي في سأل، و ﴿الَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ﴾. إلى قوله: ﴿قَائِمُونَ﴾[٦] فلم يف بهذه السهام إلّا إبراهيم ومحمّد ﷺ.[٧]

قوله تعالى: ﴿وَ مِن ذُرِّيَّتِي﴾

[٣٢٠٥/٢] جاء في حديث جابر عن الإمام أبي جعفر الباقر عليه السلام: أنّه تعالى لمّا قال لإبراهيم عليه السلام: ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾ فمن عظمها في عين إبراهيم قال: يا ربّ ومن ذرّيّتي؟[٨]

وهذا ليس طلباً من الله أن يجعل من ذرّيّته أئمّة.. بل سأل ربّه أن يعرّفه: هل في ذرّيّته من يصلح لأن يجعله إماماً مثله يُقتدى به؟

هذا قول الجبّائي في تفسير الآية، ذكره عنه الشيخ في التبيان، ولم يرتضه ورجّح أن يكون

---

(١) المصافحة.

(٢) الدرّ ١: ٢٨٣ ـ ٢٨٤؛ كتاب الإخوان: ١٨٤ ـ ١٨٥ / ١٢٥؛ الخطيب ٩: ٤٢ / ٤٦٢٦؛ الفردوس بمأثور الخطاب ١: ٢٨ ـ ٢٩ / ٤٥.

(٣) التوبة ٩: ١١٢.

(٤) المؤمنون ٢٣: ٩.

(٥) الأحزاب ٣٣: ٣٥.

(٦) المعارج ٧٠: ٣٤.

(٧) الدرّ ١: ٢٨١ ـ ٢٨٢؛ الحاكم ٢: ٥٥٠ ـ ٥٥١، كتاب تواريخ المتقدمين، باختلاف يسير.

(٨) الكافي ١: ١٧٥ / ٤؛ البحار ١٢: ١٢ ـ ١٣ / ٣٧ و ٢٥: ٢٠٦ / ١٩.

ذلك طلباً منه أن يجعل من ذرّيّته أئمّة، كما طلب أن يجنّبهم عبادة الأصنام: ﴿وَ اجْنُبْنِي وَ بَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ الْأَصْنَامَ﴾[1]. قال: وهذا الذي قاله الجبّائي ليس في الكلام مايدلّ عليه، بل الظاهر خلافه.[2]

قلت: وما ذكره الجبّائي أقرب إلى أدب الأنبياء، لايسألون الله إلحافاً ولايحمّلون في مسألتهم لله فلا يسأل الله نبيٌّ أن يجعل من ولده نبيًّا أو إماماً، وهو منصب إلّهي، والله أعلم حيث يجعل رسالته.

ملحوظة

قد يتأيّد كون سؤال إبراهيم طلباً لا مجرّد استعلام، بأنّ طلب الذرّيّة وكونهم صالحين من خير آمال أهل الإيمان والصلاح، وجريٌ مع سنّة الله الحكيمة في الخلق. وقد جاء مدحه في القرآن الكريم: ﴿وَ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَ اجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾[3].

غير أنّ الإمامة هنا بمعنى الأسوة، ليشتمل الذراري على جماع أوصاف الكمال، وليتّخذهم المتّقون ـ وهم المتعهّدون في حياتهم الإنسانيّة الكريمة ـ أسوة يسيرون على منهجهم في مسيرة الصلاح والفلاح.

أمّا الإمامة في سؤال إبراهيم فهي بمعنى القدوة، وليقوموا بقيادة الأمّة إلى حيث الفلاح والنجاح نظير الإمامة التي منحها الله لإبراهيم في لزوم اتّباعه وإطاعته[4]، امتداداً لإطاعة الله المفروضة على العباد.

والخلاصة: أنّ الإمامة هنا هي الرئاسة العامّة في شؤون الدين والدنيا، الأمر الذي يفوق مسألة التأسّي بذوي الصلاح؟!

---

(١) البقرة ٢: ٣٥.

(٢) التبيان ١: ٤٤٧. وهكذا ذكر الرازي عن بعضهم: أنّه سؤال على سبيل الاستعلام. (التفسير الكبير ٤: ٤٠)

(٣) الفرقان ٢٥: ٧٤. وراجع: تفسير التسنيم للآملي ٦: ٤٦٨.

(٤) قال الجصّاص: فثبت بدلالة الآية بطلان إمامة الفاسق. وأنّ من نصب نفسه لهذا المنصب وهو فاسق، لم يلزم الناس اتّباعه ولا طاعته. حيث قال النبيّ ﷺ: «لاطاعة لمخلوق في معصية الخالق». (أحكام القرآن ١: ٧٠).

قوله تعالى: ﴿لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾

والعهد هنا بقرينة المقام هو عهد الإمامة من قِبَله تعالى ليكون قدوة للناس وقائداً صالحاً يقودهم إلى ساحل النجاة وهذا لايصلح له إلّا من استقامت سريرته ولم تأخذه الأهواء إلى حيث مهاوي الضلال. إذ:

[٣٢٠٦/٢]«لا يكون السفيه إمام التقيّ».كما قال الإمام جعفر بن محمّد الصادق عليه السلام[١].الأمر الذي تؤكّد عليه الآية الكريمة: ﴿أَفَمَن يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَّا يَهِدِّي إِلَّا أَن يُهْدَىٰ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ؟!﴾[٢].

نعم من لايرحم نفسه ويظلمها بارتكاب الفجور، فياتُرى كيف يرحم غيره ولايقودهم إلى مهاوي الضلال. وهكذا كمثل فرعون: ﴿فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ﴾[٣]. ﴿وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ وَمَا هَدَىٰ﴾[٤] ﴿وَسَوْفَ يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ﴾[٥].

فمن ضعفت شكيمته عن إلجام نفسه، فهو عن قدرته على قيادة قومه أعجز.

وها هي قاعدة كلّيّة عرضتها الآية الكريمة لتكون دستوراً خالداً لكلّ قيادة حكيمة وكان مبتغاها إعلاء كلمة الله في الأرض، وما هي إلّا خلافة الله في الأرض يرثها الصالحون من عباده الأمناء.

وهكذا استدلّ الإمام الشافعي على ضرورة كون الإمام عدلاً. قال: لأنّه لاينظر لنفسه فكيف ينظر لغيره؟![٦] وسيأتي الكلام في ذلك في شيء من التفصيل.

العهد هي الإمامة

قال أبو جعفر الطبري: هذا العهد الذي ابتغاه إبراهيم لذرّيّته، هو عهد الإمامة. وذلك أنّ إبراهيم لمّا رفع الله منزلته وكرّمه فأعلمه ما هو صانع به من تصييره إماماً في الخيرات لمن في عصره ولمن جاء بعده يُهتدى بهديه ويُقتدى بأفعاله وأخلاقه. قال: يا ربّ، ومن ذرّيّتي فاجعل أئمّة يُقتدى بهم

---

(١) الكافي ١: ١٧٥ / ٢.
(٢) يونس ١٠: ٣٥.
(٣) الزخرف ٤٣: ٥٤.
(٤) طه ٢٠: ٧٩.
(٥) هود ١١: ٩٨.
(٦) شرح العقائد النسفيّة، للتفتازاني: ١١٤ (ط: كابل).

كالذي جعلتني إماماً يُؤتمّ بي ويُقتدى بي. فهي مسألة إبراهيم سأل ربَّه إيّاها.

[٣٢٠٧/٢] كما حُدِّثت عن عمّار، بالإسناد عن الربيع، قال: قال إبراهيم: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِي﴾، يقول: فاجعل من ذرّيّتي من يؤتمّ به ويقتدى به.

قال: وقد زعم بعض الناس أنّ قول إبراهيم: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِي﴾ مسألة منه ربّه لعقبه أن يكونوا على عهده ودينه، كما قال: ﴿وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ الْأَصْنَامَ﴾ فأخبر الله ـ جلّ ثناؤه ـ أنّ في عقبه الظالم المخالف له في دينه، بقوله: ﴿لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾ قال: والظاهر من التنزيل يدلّ على غير الذي قاله صاحب هذه المقالة، لأنّ قول إبراهيم ـ صلوات الله عليه ـ: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِي﴾ في إثر قول الله ـ جلّ ثناؤه ـ: ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾ فمعلوم أنّ الذي سأله إبراهيم لذرّيّته لو كان غير الذي أخبر ربّه أنّه أعطاه إيّاه، لكان مبيّنا. ولكنّ المسألة لمّا كانت ممّا جرى ذكره، اكتفى بالذكر الذي قد مضى من تكريره وإعادته، فقال: ومن ذرّيّتي بمعنى: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِي﴾ فاجعل مثل الذي جعلتني به من الإمامة للناس.

وقال بشأن قوله تعالى: ﴿لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾: هذا خبر من الله ـ جلّ ثناؤه ـ عن أنّ الظالم لا يكون إماماً يقتدي به أهلُ الخير، وهو من الله ـ جلّ ثناؤه ـ جواب لما توهّم في مسألته إيّاه أن يجعل من ذرّيّته أئمّة مثله، فأخبر أنّه فاعل ذلك إلّا بمن كان من أهل الظلم منهم، فإنّه غير مُصَيِّره كذلك، ولا جاعله في محلّ أوليائه عنده بالتكرمة بالإمامة، لأنّ الإمامة إنّما هي لأوليائه وأهل طاعته دون أعدائه والكافرين به.

وقال: وبهذا المعنى قال مجاهد وجماعة:

[٣٢٠٨/٢] كما حدّثني محمّد بن عمرو، بالإسناد عن مجاهد: ﴿قال لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾ قال: لا يكون إمامٌ ظالماً.

[٣٢٠٩/٢] وحدّثني المثنّى، بالإسناد عنه: قال الله: ﴿لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾ قال: لا يكون إمامٌ ظالماً.

وحدّثنا المثنّى، بالإسناد، عن عكرمة بمثله.

[٣٢١٠/٢] وحدثنا ابن بشار، بالإسناد إلى مجاهد في قوله: ﴿قال لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾ قال: لا يكون إمامٌ ظالمٌ يُقتدى به.

[٣٢١١/٢] وحدّثنا مسروق بالإسناد إلى مجاهد في قوله: ﴿لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾ قال: لا أجعل إماماً ظالماً يُقتدى به.

[٣٢١٢/٢] وحدّثنا القاسم، بالإسناد إلى مجاهد: ﴿لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾ قال: لا يكون إماماً ظالمٌ.

[٣٢١٣/٢] وقال ابن جريج: وأما عطاء فإنّه قال: ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾ قال ﴿وَ مِن ذُرِّيَّتِي﴾ فأبى أن يجعل من ذرّيته ظالماً إماماً. قلت لعطاء: ما عهده؟ قال: أمره.

[٣٢١٤/٢] وحدّثنا محمّد بن سعد، بالإسناد عن ابن عبّاس قوله: ﴿لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾ يعني لا عهد لظالم عليك في ظلمه أن تطيعه فيه.

[٣٢١٥/٢] وحدّثني المثنّى، بالإسناد عن مجاهد، عن ابن عبّاس: ﴿قال لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾ قال: ليس للظالمين عهد، وإن عاهدته فانقضه.

[٣٢١٦/٢] وحدّثني القاسم، بالإسناد عن ابن عبّاس، قال: ليس لظالمٍ عهدٌ.

[٣٢١٧/٢] وحدّثني يحيى بن جعفر، بالإسناد عن الضحّاك في قوله: ﴿لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾ قال: لا ينال عهدي عدوّ لي يعصيني، ولا أنحلها إلّا ولياً يطيعني.

قال أبو جعفر: وهذا الكلام وإن كان ظاهرُه ظاهرَ خبرٍ عن أنّه لا ينال من ولد إبراهيم ـ صلوات الله عليه ـ عهد الله الذي هو النبوّة والإمامة لأهل الخير، بمعنى الاقتداء به في الدنيا، والعهد الذي بالوفاء به ينجو في الآخرة، من وفى لله به في الدنيا ـ من كان منهم ظالماً متعدّياً جائراً عن قصد سبيل الحقّ، فهو إعلام من الله ـ تعالى ذكره ـ لإبراهيم أنّ من ولده من يُشرك به ويجوز عن قصد السبيل، ويظلم نفسه وعباده![١]

[٣٢١٨/٢] وأخرج ابن إسحاق وابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عبّاس في الآية قال: يُخبره أنّه كائن في ذرّيّته ظالم لا ينال عهده، ولا ينبغي له أن يولّيه شيئاً من أمره.[٢]

[٣٢١٩/٢] وأخرج ابن أبي حاتم، عن مجاهد في قوله: ﴿وَ مِن ذُرِّيَّتِي﴾ قال: أمّا من كان منهم

---

(١) الطبري ١: ٧٣٧ ـ ٧٤٠.

(٢) الدرّ ١: ٢٨٨؛ ابن أبي حاتم ١: ٢٢٢ / ١١٧٥؛ ابن كثير ١: ١٧٢.

صالحاً فسأجعله إماماً يُقتدى به. وأمّا من كان منهم ظالماً فلا، ولا نعمة عين.[١]

[٣٢٢٠/٢] وأخرج وكيع وابن مردويه عن عليّ بن أبي طالب عليه السلام عن النبيّ صلى الله عليه وآله في قوله: ﴿لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾ قال: «لا طاعة إلّا في المعروف».[٢]

[٣٢٢١/٢] وأخرج عبد بن حميد عن عمران بن حصين: سمعت النبي صلى الله عليه وآله يقول: «لا طاعة لمخلوق في معصية الله».[٣]

هل تصلح إمامة الجائر؟

اتّفقت الأمّة على أنّ الجائر لايصلح للإمامة، وهي عهد الله لايناله الظالمون. قال الإمام الرازي: اتّفق جمهور الفقهاء والمتكلّمين على أنّ الفاسق ـ حال فسقه ـ لايجوز عقد الإمامة له واحتجّوا بقوله تعالى: ﴿لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾، حيث المراد بالعهد هي الإمامة المشروعة التي يرتضيه ربّ العالمين! قال: وكلّ عاصٍ فإنّه ظالم لنفسه.[٤]

[٣٢٢٢/٢] وقد عرفت من كلام الإمام الصادق عليه السلام: «لايكون السفيه إمام التقيّ!»[٥].

وهكذا استدلّ الإمام الشافعي على عدم صحّة عقد الإمامة للجائر، لأنّه فاسق، والفاسق ليس من أهل الولاية. قال: لأنّه لاينظر لنفسه فكيف ينظر لغيره؟![٦]

قال القاضي عبدالجبّار: فأمّا الذي يدلّ على وجوب كونه عدلاً، فلأنّه قد ثبت أنّ العدالة شرط في الشاهد والحاكم، فبأن يكون شرطاً في الإمام أولى. لأنّ للإمامة ما للشهادة والقضاء وزيادة.[٧]

قال جار الله الزمخشري: قوله: ﴿لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾. أي من كان ظالماً من ذرّيّتك، لاينال استخلافي وعهدي إليه بالإمامة. وإنّما ينال من كان عادلاً بريئاً من الظلم.. قالوا: في هذا دليل على أنّ الفاسق لايصلح للإمامة، وكيف يصلح لها من لايجوز حكمه وشهادته، ولاتجب طاعته، ولايُقبل

---

(١) ابن أبي حاتم ١: ٢٢٣ / ١١٧٩؛ ابن كثير ١: ١٧٢.

(٢) الدرّ ١: ٢٨٨؛ ابن كثير ١: ١٧٣؛ كنزالعمّال ٢: ٣٥٨ / ٤٢٣٥.

(٣) الدرّ ١: ٢٨٨؛ مسند أحمد ٥: ٦٦، بخلاف في اللفظ؛ كنزالعمّال ٦: ٦٧ / ١٤٨٧٥.

(٤) التفسير الكبير ٤: ٤٢، المسألة الخامسة. (٥) الكافي ١: ١٧٥ / ٢.

(٦) شرح العقائد النسفية، للتفتازاني: ١١٤ (ط: كابل). (٧) المغني في الإمامة: ٢٠١ : القسم الأوّل.

خبره، ولا يتقدّم للصلاة!

قال: وكان أبو حنيفة يفتي سرّاً بوجوب نصرة زيدبن عليّ ـ رضوان الله عليهما ـ وحمل المال إليه، والخروج معه على اللّصّ المتغلّب المتسمّي بالإمام والخليفة، كالدوانيقي وأشباهه.

وقالت امرأة لأبي حنيفة: أشرت على ابني بالخروج مع إبراهيم ومحمّد ابني عبدالله بن الحسن حتّى قتل! قال: ليتني مكان ابنك! وكان يقول في المنصور وأشياعه: لو أرادوا بناء مسجد وأرادوني على عدّ آجره لما فعلتُ! وعن ابن عُيَينة: لايكون الظالم إماماً قطّ. وكيف يجوز نصب الظالم للإمامة، والإمام إنّما هو لكفّ الظلمة، فإذا نصب من كان ظالماً في نفسه، فقد جاء المَثَل السائر: «من استرعى الذئبَ ظُلم».[1]

وقال أبوبكر الرازي: وقد أفادت الآية أنّ شرط جميع من كان في محلّ الائتمام به في أمر الدين العدالة والصلاح. وهذا يدلّ أيضاً على أنّ أئمّة الصلاة ينبغي أن يكونوا صالحين غير فُسّاق ولا ظالمين، لدلالة الآية على شرط العدالة لمن نُصب منصب الائتمام به في أمور الدين[2]، لأنّ عهد الله هو أوامره، فلم يجعل قبوله عن الظالمين منهم، وهو ما أودعهم من أمور دينه وأجاز قولهم فيه وأمر الناس بقبوله منهم والاقتداء بهم فيه..

فثبت أنّهم غير مؤتمنين على أوامر الله تعالى وغير مقتدى بهم فيها، فلا يكونون أئمّة في الدين. قال: فثبت بدلالة هذه الآية بطلان إمامة الفاسق، وأنّه لا يكون خليفة. وأنّ من نصب نفسه في هذا المنصب وهو فاسق، لم يلزم الناس اتّباعه ولا إطاعته. كما قال النبيّ ﷺ: «لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق».

قال: ودلّت الآية أيضاً على أنّ الفاسق لايكون حاكماً، وأنّ أحكامه لا تنفذ إذا ولي الحكم. وكذلك لاتُقبل شهادتُه ولاخَبَرُه إذا أخبر عن النبي ﷺ ولا فتياه إذا كان مفتياً. وأنّه لايقدَّم للصلاة. قال: فقد حوى قوله: ﴿لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾ هذه المعاني كلّها.

قال: ومن الناس من يظنّ أنّ مذهب أبي حنيفة تجويز إمامة الفاسق وخلافته، وأنّه يُفرّق بينه

---

(١) الكشّاف ١: ١٨٤.

(٢) وهذا ردّ على مذهب القائل بجواز الاقتداء بالبرّ والفاجر، نظراً لما رووه: «صلّوا خلف كلّ برٍّ وفاجر». (شرح العقائد النسفيّة: ١١٥؛ البيهقي ٤: ١٩ رواه مكحول عن أبي هريرة؛ عوالي اللئالي ١: ٣٧ / ٢٨. وسنبحث عن ذلك.

وبين الحاكم فلا يُجيز حكمه.. ذُكر ذلك عن بعض المتكلّمين وهو المسمّى «زرقان»! وقد كذب في ذلك وقال بالباطل، وليس هو أيضاً ممّن تقبل حكايته.

قال: ولا فرق عند أبي حنيفة بين القاضي وبين الخليفة، في أنّ شرط كلّ واحد منهما العدالة، وأنّ الفاسق لايكون خليفة ولايكون حاكماً، كما لا تُقبل شهادته ولاخبره.. وكيف يكون خليفة وروايته غير مقبولة وأحكامه غير نافذة؟!

وكيف يجوز أن يُدَّعى ذلك على أبي حنيفة، وقد أكرهه ابن هبيرة في أيّام بني أميّة على القضاء وضربه فامتنع من ذلك وحُبس. فَلَجَّ ابن هبيرة وجعل يضربه كلّ يوم أسواطاً. فلمّا خيف عليه قال له الفقهاء: فتولّ شيئاً من أعماله أيَّ شيء كان، حتّى يزول عنك هذا الضرب! فتولّى له عدّ أحمال التبن الذي يدخل، فخلّاه. ثمّ دعاه المنصور إلى مثل ذلك فأبى فحبسه حتّى عدّ له اللَّبِنَ الذي كان يُضرب لسور مدينة بغداد.

ومذهبه في قتال الظلمة وأئمّة الجور مشهور. وقضيّته في أمر زيدبن عليّ مشهورة. وفي حمله المال إليه وفُتياه الناس سرّاً في وجوب نصرته والقتال معه. وكذلك أمره مع محمّد وإبراهيم ابني عبدالله بن الحسن.

وقال لأبي إسحاق الفزاري ـ حين قال له: لم أشرت على أخي بالخروج مع إبراهيم حتّى قُتل ـ قال: مخرج أخيك أحبّ إليّ من مخرجك، وكان أبو إسحاق قد خرج إلى البصرة.. [المعاضدة ابن الأشعث ضدّ الحجّاج][(١)].

عدالة ظاهرة وباطنة

قال الإمام الرازي: فإن قيل: ظاهر الآية يقتضي انتفاء كونهم ظالمين ظاهراً وباطناً، ولايصحّ ذلك في الأئمّة والقضاء فلو كان شرطاً لم يمكن العلم بتحقّقه في أيّ إنسان مهما كان ظاهر العدالة. إذ لا يعلم سرّ القلوب إلّا الله.

قال: أمّا الشيعة الإماميّة فقد اشترطوا العصمة في الإمام، استناداً إلى هذه الآية لظاهر الإطلاق. والعصمة: عدالة في الظاهر والباطن.

---

(١) أحكام القرآن لأبي بكر الجصّاص ١: ٦٩ ـ ٧٠.

قال: وأمّا نحن فنقول: وإن كان مقتضى الآية ـ في ظاهر إطلاقها ـ ذلك، إلّا أنّا تركنا اعتبار الباطن [للمحذور] فتبقى العدالة الظاهرة هي المعتبرة.[1]

* * *

ولسيّدنا العلّامة الطباطبائي كلام مسهب عن مسألة «العصمة» وهي شرط في حمل رسالة الله إلى العباد.

قال: الإمام هادٍ يهدى بأمر ملكوتيّ ـ لم يزل يرافقه ـ لتكون الإمامة نحو ولاية على أعمال الناس ومحاولة لإيصالهم إلى المطلوب الخير. وليست مجرّد إرائة الطريق.

إنّه تعالى بيّن السبب لهذه الموهبة (الإمامة) حيث قال ـ عزّ من قائل ـ: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾[2]. وقال بشأن إبراهيم الخليل: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ﴾[3]. حيث اليقين عن مشاهدة الملكوت مشاهدة بعين القلب لا بالإبصار.

قال: فالإمام يجب أن يكون إنساناً ذا يقين مكشوفاً له عالمُ الملكوت، ومتحقّقاً بكلمات من الله سبحانه. والملكوت هو الوجه الآخر الباطن من وجهي عالم الوجود. ولا سبيل إليه عن غير طريق الكشف والشهود.

قال: ومن ثمّ فإنّ الإمامة ـ لشرافتها وفخامتها ـ لاتقوم إلّا بمن كان سعيد الذات شريف المحتد. لم تدنّسه جاهليّة ولا عكر الشقاء.

أمّا المتكدّر بلوث الأنجاس والأرجاس، والذي وهنت عزيمته عن الانحراف والانجراف، فهذا لايصلح للإمامة ولأن يأتمّ به الناس. وقد قال تعالى: ﴿أَفَمَن يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَّا يَهِدِّي إِلَّا أَن يُهْدَىٰ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾[4].

واستنتج أخيراً: أنّ الإمام ـ من كانت إمامته مطلقة وعامّة ـ يجب أن يكون معصوماً. وأنّ الظالم لايصلح لهذا المنصب الخطير أيّاً كان ظلمه. فإنّه ظالم لنفسه، لم يملك منعها عن الابتذال فهو بأن لا يملك منع الآخرين عن الإجرام، أولى.

---

(١) التفسير الكبير ٤: ٤٢.
(٢) السجدة ٣٢: ٢٤.
(٣) الأنعام ٦: ٧٥.
(٤) يونس ١٠: ٣٥.

قال: وبهذا البيان ظهر أنّ المراد بالظالمين [المحجوزين عن نيل الإمامة] مطلق من ارتكب ظلماً، شركاً فما دونه من سائر المعاصي التي توجب فسقاً وخروجاً عن طاعة الله.

قال: وهذا لايفترق بين أن يكون ظالماً لنفسه في الحال أو في سالف عمره قضاه في الشرك والفساد. ذلك لأنّ فسقه وتمرّده العارم في الحال أو في سالف عمره، يكشف عن وهن في سريرته، يسترسل مع مبتذلات الحياة حيثما أخذت به الأهواء. وهذا الضعف النفسي المشهود منه ـ في أيّ وقت من الأوقات ـ هو الذي أسقطه عن درجة الاعتبار، بحيث لايمكن الاعتماد عليه في تنصيبه لمثل هذا المنصب الخطير، ألا وهي قيادة الأمّة في مهامّ أمور تعود إلى شؤون حياتهم في المعاش والمعاد.(١)

قال: وقد سئل بعضُ أساتيدنا ﷺ عن تقريب دلالة الآية على ضرورة عصمة الإمام أي العدالة الشاملة، فأجاب: بحسب الفرض العقلي على أربعة أصناف: صنف يكون ظالماً طول حياته. وصنف يكون عادلاً طول بقائه. وصنف يظلم ثمّ يؤوب. والصنف الرابع هو الذي يعود ظالماً بقيّة حياته حتّى الموت.

قال: وحاش إبراهيم أن يسأل ربّه الإمامة للصنف الأوّل والأخير.. فبقي القسمان الثاني والثالث. صنف أصحاب العدل الشامل. وصنف التائب بعد الذنب المستديم.

فإذ وقع السؤال لكلا الصنفين، فالاستثناء في الجواب إذن أخرج الصنف الثالث، ليبقى الصنف الثاني صاحب العدل الشامل (العصمة) هو الصالح لنيل هذا المقام.(٢)

* * *

وهكذا قال الإمام الرازي بدلالة الآية على عصمة إبراهيم الخليل عصمة شاملة؛ قال: لأنّ الإمام هو الذي يُؤتمّ به ويقتدى، فلو صدرت منه معصية لجاز الاقتداء به فيها ـ لإطلاق النصّ وعمومه – فيلزم منه جواز المعصية، وهو محال، لأنّ كونها معصية عبارة عن كونها ممنوعة. وكونه جائزاً عبارة عن كونه غير ممنوع.. والجمع بينهما مستحيل.(٣)

---

(١) قالوا: الإمامة رياسة عامّة في أمور الدين والدنيا. قاله القاضي عضد الدين اللإيجي. (شرح المواقف للسيد شريف الجرجاني ٨: ٣٤٥؛ شرح المقاصد لسعدالدين التفتازاني ٥: ٢٣٤).

(٢) الميزان ١: ٢٧٥ ـ ٢٧٧.

(٣) التفسير الكبير ٤: ٤٠، المسألة الرابعة.

قلت: وإذا كانت الإمامة المطلوبة في دعاء إبراهيم، نفس الإمامة الممنوحة له ﷺ فالكلام فيها عين الكلام في إمامة إبراهيم، مستفاداً من الآية الكريمة.

أيضاً فإنّ كلامه هنا يناقض ما أسلفنا عنه بالإنكار على الشيعة حيث اعتبروا شرط العصمة في الإمام، استناداً إلى دلالة الآية الظاهرة في الإطلاق والشمول لكنّ الرازي ـ حيث هابته سطوة الأمراء الحاكمين في زمانه، وهكذا سلفهم الطُغاة العصاة الظالمون ـ عرّج بكلامه ولواه إلى حيث يهديه الاتّقاء من العُتاة وشرور غوغاء العوام. فقال: إنّ واقعنا المرير جعلنا نلوي بوجه الآية إلى حيث خلاف ظاهرها الصريح؟![1]

عصمة أم عدالة شاملة؟

نعم كانت العصمة ـ وهي عناية ملكوتيّة فائضة ـ شرطاً عند أصحابنا الإماميّة في الإمام الأصل، الذي يتعيّن بالنصّ[2]، وهو النبي الأكرم ﷺ والأئمّة الاثنا عشر من عترته الطيّبة ﷺ، هذا في عصر الظهور.

أمّا عصر الغيبه وفقد إمام ظاهر مبسوط اليد، منصوص عليه بالنصّ الخاصّ، فالشرط هي العدالة الشاملة، والتي يكشفها الاتّزان في السلوك في خَلَواته وفي الجَلَوات. وهذا كما جاء في حديث الإمام أبي محمّد العسكري ﷺ. فقد جاء الشرط للمرجعيّة العامّة في شؤون الدين والدنيا أن يكون:

[٣٢٢٣/٢] «صائناً لنفسه، حافظاً لدينه، مخالفاً على هواه، مطيعاً لأمر مولاه»[3].

هذه هي العدالة الشاملة للاتّزان النفسي والاعتدال في السلوك، الأمر الذي نشترطه فحسب في «وليّ أمر المسلمين» فيمن عدا الأئمّة المعصومين.

---

(١) المصدر: ٤٢.

(٢) إذ لا سبيل لمعرفة مقام العصمة من غير طريق الوحي المعجز (القرآن الكريم) نصّ على عصمة الرسول ﷺ. وأمّا الأئمّة من ذرّيته فقد نصّ كلّ سابق على اللاحق، كما نصّ النبيّ على ولاية عليّ وهكذا كابراً بعد كابر. وكتب المسانيد متوافرة بهذه النصوص.

(٣) التفسير الموسوم باسم العسكري: ٣٠٠ ذيل الآية ٧٨ ـ ٧٩ من سورة البقرة.

صلاحيّة إمام الجماعة

قد عرفت من كلام الجصّاص اعتبار العدالة حتّى في إمام الجماعة، حيث قال: دلّت الآية على بطلان إمامة الفاسق وأنّه لايكون خليفة ودلّت أيضاً على أنّ الفاسق لايكون حاكماً. وكذلك لاتُقبل شهادته ولا خبرُه، ولافتياه. وأنّه لايقدّم للصلاة. فقد حوت الآية على كلّ هذه المعاني..[١]

[٣٢٢٤/٢] روى ابن ماجة في سننه بالإسناد إلى سعيد بن المسيَّب عن جابر بن عبدالله الأنصاري قال: خطبنا رسول الله ﷺ وقال في خطبته: «ألا لا تَؤُمَّنَّ امرأةٌ رجلاً. ولا يَؤُمّ أعرابيّ مهاجراً. ولا يؤمّ فاجرٌ مؤمناً. إلّا أن يقهره بسلطانٍ يخاف سيفه وسوطه».[٢]

قال السندي في الشرح: لأنّ من شأن الأعرابي الجهل. ومن شأن المهاجر العلم. وقال في قوله: «لا يؤمّ فاجر مؤمناً» أي لا يؤمّ فاسقٌ غيرَ فاسق وحمله السندي على إرادة الكراهة؟!

غير أنّ ابن قدامة اعتمد الرواية واستدلّ بها على عدم صحّة الصلاة خلف الفاسق وجعل هذه الرواية أخصّ ممّا رووه من قوله ﷺ:

[٣٢٢٥/٢] «صلّوا خلف من قال: لا إلـه إلّا الله» ـ فيما رواه الدار قطني[٣] ـ قال: وهذا الذي رواه ابن ماجة أخصّ من حديثهم، فتعيّن تقديمه. قال: أمّا حديثهم فنقول به في الجُمَع والأعياد. وأضاف: فمن صلّى خلف فاسق خوفاً من سيفه وسوطه، أعادها.

وذكر عن الإمام أحمد بن حنبل أنّه قال: «لا تصلّ خلف فاجر ولا فاسق».[٤]

[٣٢٢٦/٢] وروى عن حبيب بن عمر الأنصاري عن أبيه قال: سألت واثلة بن الأسقع، قلت: أصلّي خلف القدري؟ قال: لاتصلّ خلفه. ثمّ قال: أمّا أنا لوصلّيت خلفه لأعدت صلاتي. رواه الأثرم.[٥]

قال ابن قدامة: وهذه النصوص تدلّ على أنّه لا يُصلّى خلف فاسق.

---

(١) أحكام القرآن ١: ٧٠.

(٢) ابن ماجة ١: ٣٣٤ ـ ٣٣٥ / ١٠٩٢، باب ٢٨٠ (فرض الجمعة). رواه عن محمّد بن عبدالله بن نمير عن الوليد بن بكير أبي خباب عن عبدالله بن محمّد العدوي عن عليّ بن زيد بن جدعان عن سعيد عن جابر.

(٣) الدار قطني ٢: ٤٣.

(٤) المغني لابن قدامة ٢: ٢٤.

(٥) المصدر: ٢٣.

ثمّ عرّج على دلائل القائلين بالجواز، وكان عمدة دليلهم حديث «صلّوا خلف من قال: لا إلـه إلّا الله». وبعمل بعض الأجلّة، ربما كانوا يقتدون بصلاة الفجرة في الجُمَع والأعياد.

وأجاب عن الحديث، بأنّه عامّ، والخاصّ مقدّم عليه، كما سبق.

وأمّا صلاة بعض الأجلّة خلف الفجرة، فلمكان خوفهم الضرر بترك الاقتداء.

[٢/٣٢٢٧] قال: فقد روينا عن عطاء وسعيدبن جبير أنّهما كانا في المسجد والحجّاج يخطب، فصلّيا بالإيماء. وإنّما فعلا ذلك لخوفهما على أنفسهما إن صلّيا على وجه يعلم بهما.(١)

* * *

[٢/٣٢٢٨] وأمّا ما رواه البيهقي بالإسناد إلى مكحول عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «صلّوا خلف كلّ بَرٍّ وفاجر»(٢).

[٢/٣٢٢٩] وما رواه أبو داوود بالإسناد إلى مكحول أيضاً عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ ـ: «الصلاة المكتوبة واجبة خلف كلّ مسلم، بَرّاً كان أو فاجراً، وإن عمل الكبائر!»(٣)؛ فمحمول على إرادة الجُمَع والأعياد يُقيمها الأمراء الجبابرة..

هذا مع أنّ في الإسناد انقطاعاً؛ قال عليّ بن عمر الحافظ: مكحول لم يسمع من أبي هريرة.(٤)

* * *

أمّا فقهاؤنا الإماميّة فقد أطبقوا على اعتبار العدالة في إمام الجماعة ـ ولو في ظاهر الحـال ـ وعليه تظافرت رواياتهم.

[٢/٣٢٣٠] فقد روى الشيخ أبو جعفر الطوسي بالإسناد إلى عليّ بن مهزيار عن أبي عليّ بن راشد عن الإمام أبي جعفر عليه السلام قال: «لا تصلّ إلّا خلف من تثق بدينه وأمانته».(٥)

---

(١) المصدر ٢: ٢٢ ـ ٢٥.

(٢) البيهقي ٤: ١٩، باب الصلاة على من قتل نفسه؛ عوالي اللئالي ١: ٣٧ / ٢٨.

(٣) أبو داوود ١: ١٦٢ / ٥٩٤.

(٤) البيهقي ٤: ١٩.

(٥) التهذيب ٣: ٢٦٦ / ٧٥٥ ـ ٧٥. ويقرب منه ما في الكافي ٣: ٣٧٤ / ٥.

[٢ / ٣٢٣١] وروى ابن بابويه الصدوق بالإسناد إلى إسماعيل بن مسلم، أنّه سأل الصادق عليه السلام عن الصلاة خلف رجل يكذّب بقدر الله ـ عزّ وجلّ ـ قال: «ليعد كلّ صلاة صلّاها خلفه».(١)

[٢ / ٣٢٣٢] وعن أبي ذرّ الغفاريّ ـ عليه الرحمة والرضوان ـ قال: إنّ إمامك شفيعك إلى الله، فلا تجعل شفيعك سفيهاً ولا فاسقاً. رواه الصدوق(٢). والشيخ بالإسناده المتّصل إلى طلحة بن زيد قال: حدّثنا ثوربن غيلان عن أبي ذرّ قال: إنّ إمامك شفيعك إلى الله، فلا تجعل شفيعك سفيهاً ولا فاسقاً(٣).

[٢ / ٣٢٣٣] وقال الإمام الصادق عليه السلام: «من عامل الناس فلم يظلمهم، وحدّثهم فلم يكذبهم، وواعدهم فلم يخلفهم، كان ممّن حرمت غيبته، وكملت مروّته، وظهر عدله، ووجبت أخوّته».(٤)

[٢ / ٣٢٣٤] وروى الشيخ بالإسناد إلى سعد بن إسماعيل عن أبيه قال: قلت للرضا عليه السلام: رجل يقارف الذنوب وهو عارف بهذا الأمر، أصلّي خلفه؟ قال: لا.(٥)

قال المحقّق صاحب كتاب الشرائع: يعتبر في الإمام الإيمان والعدالة.(٦)

وقال صاحب الجواهر في الشرح: فلايجوز الائتمام بالفاسق، إجماعاً محصّلاً ومنقولاً مستفيضاً أو متواتراً كالنصوص. بل ربما وافقنا أصحاب سائر المذاهب.(٧)

[٢ / ٣٢٣٥] وروى صاحب المستطرفات نقلاً من كتاب أبي عبدالله السيّاري صاحب الرضا عليه السلام قال: قلت لأبي جعفر الثاني (الجواد) عليه السلام: قوم من مواليك يجتمعون فتحضر الصلاة، فيقدّم بعضهم فيصلّي بهم جماعة؟ قال: «إن كان الذي يؤمّهم ليس بينه وبين الله طلبة، فليفعل»(٨).

---

(١) علل الشرائع: ٣٢٦ / ١، باب ٢٠؛ الفقيه ١: ٢٤٩ / ١١١٧؛ الوسائل ٨: ٣١١.

(٢) الفقيه ١: ٢٤٧.

(٣) التهذيب ٣: ٣٠ / ١٠٧ ـ ١٩.

(٤) الكافي ٢: ١٨٧ / ٢٨؛ الوسائل ٨: ٣١٥ ـ ٣١٦ / ١٠٧٧٢ ـ ٩.

(٥) التهذيب ٣: ٣١ / ١١٠؛ الوسائل ٨: ٣١٦ / ١٠٧٧٣ ـ ١٠.

(٦) شرائع الإسلام ١: ١٢٤.

(٧) جواهر الكلام ١٣: ٢٧٥.

(٨) السرائر لابن إدريس: ٣؛ المستطرفات: ٥٧٠؛ الوسائل ٨: ٣١٧.

الصلاة خلف من يشارط

قال أبو داوود: سمعت أحمد ـ وقد سئل عن إمام قال: أصلّي بكم رمضان بكذا وكذا درهماً؟ ـ قال: أسأل الله العافية، من يصلّي خلف هذا؟!.

وروي عنه أنّه قال: لا تصلّ خلف من يشارط! ولا بأس أن يدفعوا إليه من غير شرط.(١)

ونظير ذلك ما ورد بشأن «المستأكل بعلمه»... وأن لا بأس بقبول البرّ والصلة.

[٣٢٣٦/٢] روى ابن بابويه الصدوق بالإسناد إلى محمّد بن سنان عن حمزة بن حمران قال: سمعت الإمام أبا عبدالله الصادق عليه السلام يقول: «من استأكل بعلمه افتقر»! فقلت له: جُعلت فداك، إنّ في شيعتك ومواليك قوماً يتحمّلون علومكم ويبثّونها في شيعتكم، فلا يُعْدَمون على ذلك منهم البرّ والصلة والإكرام؟

فقال عليه السلام: «ليس أولئك بمستأكلين، إنّما المستأكل بعلمه الذي يُفتي بغير علم ولا هدىً من الله ـ عزّ وجلّ ـ ليُبطل به الحقوق، طمعاً في حُطام الدنيا».(٢)

الولاية من قِبَلِ الجائر

الولاية من قبل الجائر بما أنّها معونة له في جوره، فهي محرّمة، لحرمة إعانة الظالم في سلطانه.

ومن ثمّ كان أهل الورع من السلف يتحاشون التولّي عن قبل الأمراء، حيث موضعهم الغاشم.

قال المحقّق الأنصاري: معونة الظالمين في ظلمهم حرام بالأدلّة الأربعة، وهي من الكبائر التي أوعد الله عليها النار.(٣)

وقال بشأن الولاية من قبل الجائر: هي محرّمة، حيث الوالي من قبله هو من أعظم الأعوان.. قال: وظاهر الروايات كون الولاية من قبلهم محرّمة ذاتاً ومع قطع النظر عن ترتّب معصية عليها بارتكاب جرائم. قال: مع أنّ الولاية عن الجائر لا تنفكّ عن المعصية عادةً.(٤) الأمر الذي قد يخفّف

---

(١) المغني لابن قدامة ٢: ٢٤.

(٢) معاني الأخبار: ١٧٥ باب معنى الاستئكال بالعلم؛ البحار ٢: ١١٧ / ١٤.

(٣) المسألة الثانية والعشرون من محرّمات المكاسب للشيخ الأنصاري.

(٤) المسألة السادسة والعشرون.

من وطئه التحريم.. فحيث كان الوالي من قبله، لم يشاركه في عتوّه، ولم يكن يعاونه في جوره، ولم يعاضده في سلطانه، وتمكّن من إحقاق حقّ وإجراء عدل في مبسوطة يده.. فهذا لا وجه لحرمته بل قد يكون مندوباً إليه مطلوباً من ذوي الصلاح.

قال المحقّق الأنصاري: والذي يُسوّغ الولاية عن قبل الجائر، هو الاطمئنان بـإمكان القـيام بمصالح العباد بلا خلاف بين أصحابنا الفقهاء فمن تقلّد أمراً جائزاً في نفسه من قـبل الجـائر، إذا تمكّن معه من إيصال حقّ لمستحقّه أو دفع ظلم عنه، فإنّه جائز بالإجماع والسنّة الصحيحة ويشهد له استدعاء يوسف عليه السلام من عزيز مصر أن يجعله على خزائن الأرض[١].

[٣٢٣٧/٢] وروى ابن بابويه الصدوق بإسناده عن عليّ بن يقطين قال: قال لي أبو الحسن موسى بن جعفر عليه السلام: «إنّ لله ـ تبارك وتعالى ـ مع السلطان أولياء، يدفع بهم عن أوليائه» ورواه الكليني عن عليّ بن إبراهيم عن ابن أبي عمير عن بعض أصحابنا عن ابن يقطين مثله.

[٣٢٣٨/٢] قال الصدوق: وفي خبر آخر: «أولئك عتقاء الله من النار».

[٣٢٣٩/٢] قال: وقال الصادق عليه السلام: «كفّارة عمل السلطان قضاء حاجة الإخوان».

[٣٢٤٠/٢] وروى في الأمالي بالإسناد إلى زيد الشحّام قال: سمعت الصادق جعفر بن محمّد عليه السلام يقول: «من تولّى أمراً من أمور الناس، فعدل وفتح بابه ورفع ستره ونظر في أمور الناس، كان حقّاً على الله ـ عزّ وجلّ ـ أن يؤمّن روعته يوم القيامة ويدخله الجنّة».[٢]

* * *

وذكر الجصّاص عن بعضهم: أنّ القاضي إذا كان عدلاً في نفسه فوُلّي القضاء من قبل إمام جائر، فإنّ أحكامه نافذة وقضاياه صحيحة. قال: وهذا مذهب صحيح ولا دلالة فيه على أنّ مِن مـذهبه تجويز إمامة الفاسق! وذلك لأنّ القاضي إذا كان عدلاً في نفسه فإنّما يكون قاضياً إذا تمكّن من تنفيذ الأحكام وكانت له يد وقدرة على قهر الممتنع. وليس اعتبار قضائه بمن ولّاه، لأنّ الذي ولّاه إنّما هو بمنزلة سائر أعوان القاضي وعُمُده الّذين بهم يُنفّذ قضاءه، وليس شرط أعوان القاضي أن يكـونوا

(١) يوسف ١٢: ٥٥.

(٢) راجع: الفقيه ٣: ١٠٨ / ٤٥١ و ٤٥٢ و ٤٥٣؛ المقنع: ١٢٢؛ الأمالي: ٢٠٣ / ٢؛ الكافي ٥: ١١٢ / ٧؛ الوسائل ١٧: ١٩٢ ـ ١٩٣ / ١ و ٢ و ٣ و ٥ و ٦ و ٧ باب ٤٦.

عدولاً، ماداموا ثبتاً سنداً للتنفيذ فحسب.

وهؤلاء القضاة أيّام بني أميّة وبني مروان، كان نصبهم لمنصب القضاء على يد أمثال الحجّاج عامل عبدالملك بالكوفة. ولم يكن في العرب ولا آل مروان أظلم ولا أكفر ولا أفجر من عبدالملك، ولم يكن في عمّاله أكفر ولا أظلم ولا أفجر من الحجّاج. وكان عبد الملك أوّل من قطع ألسنة الناس في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؛ صعد المنبر فقال: إنّي والله ما أنا بالخليفة بالمستضعف ـ يعني عثمان! ـ ولا بالخليفة المصانع ـ يعني معاوية! ـ وإنّكم تأمروننا بأشياء تنسونها في أنفسكم، والله لا يأمرني أحد بعد مقامي هذا بتقوى الله إلّا ضربتُ عنقه.

وقد كان كبار التابعين يأخذون أرزاقهم من أيدي هؤلاء الظلمة، لا على أنّهم كانوا يتولّونهم ولا يرون إمامتهم، وإنّما كانوا يأخذونها على أنّها حقوق لهم في أيدي قوم فجرة! وكيف يكون ذلك على وجه موالاتهم وقد ضربوا وجه الحجّاج بالسيف وخرج عليه من القرّاء أربعة آلاف رجل هم خيار التابعين وفقهاؤهم فقاتلوه مع عبدالرحمان بن محمّدبن الأشعث بالأهواز ثمّ بالبصرة ثمّ بدير الجماجم من ناحية الفرات بقرب الكوفة، وهم خالعون لعبد الملك بن مروان، لاعنون لهم، متبرّؤون منهم.

وكذلك كان سبيل مَنْ قَبْلَهم مع معاوية حين تغلّب على الأمر بعد قتل عليّ عليه السلام. وكذلك من كان في ذلك العصر من الصحابة وهم غير متولّين له، بل متبرّؤون منه، على السبيل التي كان عليها عليّ عليه السلام إلى أن توفّاه الله تعالى إلى جنّته ورضوانه.

فليس إذن في ولاية القضاء من قبلهم ولا أخذ العطاء منهم دلالة على توليتهم واعتقاد إمامتهم.(١)

قوله تعالى: ﴿وَ إِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ﴾

[٣٢٤١/٢] أخرج ابن أبي حاتم عن زيدبن أسلم قال: الكعبة.(٢)

[٣٢٤٢/٢] وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عبّاس في قوله: ﴿مَثَابَةً﴾ قال:

---

(١) أحكام القرآن ١: ٧١.

(٢) ابن أبي حاتم ١: ٢٢٤ / ١١٨٩.

يثوبون إليه ثمّ يرجعون.(١)

[٣٢٤٣/٢] وأخرج الطبري عن سعيد بن جبير قال: يحجّون ويثوبون.(٢)

[٣٢٤٤/٢] وعن السدّي قال: أمّا المثابة فهو الذي يثوبون إليه كلّ سنة لا يدعه الإنسان إذا أتاه مرّة، أن يعود إليه.(٣)

[٣٢٤٥/٢] وعن ابن عبّاس قال: لا يقضون منه وطراً، يأتونه ثمّ يرجعون إلى أهليهم، ثمّ يعودون إليه.(٤)

[٣٢٤٦/٢] وقال عليّ بن إبراهيم: المثابة: العود إليه.(٥)

[٣٢٤٧/٢] وأخرج الثعلبي عن ابن عبّاس قال: معاذاً وملجأً.(٦)

[٣٢٤٨/٢] وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عبّاس في قوله: ﴿وَأَمْنًا﴾ قال: أمناً للناس.(٧)

[٣٢٤٩/٢] وعن السدّي قال: فمن دخله كان آمناً.(٨)

[٣٢٥٠/٢] وعن قتادة قال: مجمعاً.(٩)

---

(١) الدرّ ١: ٢٨٩؛ الطبري ١: ٧٤٢ـ٧٤٣ / ١٦٢١؛ ابن أبي حاتم ١: ٢٢٥ / ١١٩١، وزاد: «وروي عن أبي العالية، وسعيد بن جبير في إحدى روايتيه وعطاء ومجاهد والحسن وعطيّة والربيع بن أنس والسدّي، والضحّاك نحو ذلك»؛ البخاري ٥: ١٤٩، كتاب التفسير، سورة البقرة، باب واتّخذوا من مقام إبراهيم مصلّى.

(٢) الطبري ١: ٧٤٢ / ١٦١٩؛ عبدالرزّاق ١: ٢٩٢ / ١٢٧، بلفظ: «يحجّون، ثمّ يحجّون لا يقضون منه وطراً»؛ الثعلبي ١: ٢٦٩، عن مجاهد وسعيد بن جبير والضحّاك، بلفظ: «يثبون إليه من كلّ جانب ويحجّون ولا يملّون منه، فما من أحد قصده إلّا وهو يتمنّى العود إليه»؛ أبو الفتوح ٢: ١٤٥.

(٣) الطبري ١: ٧٤١ـ٧٤٢ / ١٦١٤.

(٤) الدرّ ١: ٢٨٩؛ الطبري ١: ٧٤٢ / ١٦١٥.

(٥) البرهان ١: ٣٢٦ / ١؛ القمي ١: ٥٩.

(٦) الثعلبي ١: ٢٦٩.

(٧) الدرّ ١: ٢٨٩؛ الطبري ١: ٧٤٣ / ١٦٢٨؛ ابن أبي حاتم ١: ٢٢٥ / ١١٩٣.

(٨) الطبري ١: ٧٤٣ / ١٦٢٥؛ ابن أبي حاتم ١: ٢٢٥ / ١١٩٤، ونسبه أيضاً إلى مجاهد وعطاء وقتادة والربيع بن أنس.

(٩) الطبري ١: ٧٤٢ / ١٦٢٠؛ ابن أبي حاتم ١: ٢٢٥ / ١١٩٢، بلفظ: «مجمعاً للناس» وكذا عن سعيدبن جبير وعكرمة وعطاء الخراساني؛ الثعلبي ١: ٢٧٠، عن قتادة وعكرمة.

[٣٢٥١/٢] وأخرج ابن أبي حاتم عن عطيّة قال: لايؤخذ فيه صاحبُ حدٍّ حتّى يَخرُجَ.(١)

[٣٢٥٢/٢] وأخرج ابن جرير عن أبي العالية في قوله: ﴿وَ أَمْنًا﴾ قال: أمناً من العدوّ أن يحمل فيه السلاح، وقد كانوا في الجاهليّة يتخطّف الناس من حولهم وهم آمنون.(٢)

[٣٢٥٣/٢] وأخرج الثعلبي عن ابن عبّاس قال: فمن أحدث حدثاً خارج الحرم ثمّ التجأ إلى الحرم أمن من أن يُهاج فيه، ولكن لا يُؤْوَى ولا يخالَط ولا يبايَع، ويوكّل به، فإذا خرج منه أقيم عليه الحدّ، ومن أحدث في الحرم أقيم عليه الحدّ فيه.(٣)

قوله تعالى: ﴿وَ اتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى﴾

[٣٢٥٤/٢] أخرج سعيد بن منصور وابن جرير عن مجاهد في قوله: ﴿وَ اتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى﴾ قال: مُدَّعى.(٤)

[٣٢٥٥/٢] وأخرج ابن جرير عن السدّي في قوله: ﴿وَ اتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى﴾ وهو الصلاة عند مقامه في الحجّ.(٥)

[٣٢٥٦/٢] وعن الربيع قال: فهم يصلّون خلف المقام.(٦)

[٣٢٥٧/٢] وأخرج مسلم وابن أبي داوود وأبو نعيم في الحلية والبيهقي في سننه عن جابر قال: إنّ النبيّ ﷺ رمل ثلاثة أشواط ومشى أربعاً، حتّى إذا فرغ عمد إلى مقام إبراهيم فصلّى خلفه

---

(١) ابن أبي حاتم ١: ٢٢٥ / ١١٩٥.

(٢) الدرّ ١: ٢٨٩؛ الطبري ١: ٧٤٣ / ١٦٢٧، بل رواه عن الربيع، بلفظ: «أمناً من العدوّ أن يحمل فيه السلاح، وقد كان في الجاهليّة يتخطّف الناس من حولهم وهم آمنون لايُسبَوْنَ؛ ابن أبي حاتم ١: ٢٢٥ / ١١٩٤؛ ابن كثير ١: ١٧٣، عن أبي العالية، بنحو ما رواه الطبري عن الربيع.

(٣) الثعلبي ١: ٢٧٠.

(٤) الدرّ ١: ٢٩٢؛ سنن سعيد بن منصور ٢: ٦٠٧ / ٢١٤؛ الطبري ١: ٧٤٨ / ١٦٤٥؛ ابن أبي حاتم ١: ٢٢٧ / ١٢٠١؛ القرطبي ٢: ١١٣. بلفظ: «ومعنى «مصلّى» مدعى يُدعىٰ فيه»؛ التبيان ١: ٤٥٣؛ مجمع البيان ١: ٣٨٢.

(٥) الطبري ١: ٧٤٧ / ١٦٤٣ و ١٦٤٧؛ ابن أبي حاتم ١: ٢٢٧ / ١٢٠٢؛ مجمع البيان ١: ٣٨٠، وكذا عن الحسن وقتادة، وليس فيه قوله: «في الحجّ».

(٦) الطبري ١: ٧٤٧ / ١٦٤٢.

ركعتين، ثمّ قرأ: ﴿وَ اتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى﴾.(١)

[٣٢٥٨/٢] وأخرج أبو داوود عن أبي هريرة، أنّ رسول الله ﷺ لمّا دخل مكّة طاف بالبيت وصلّى ركعتين خلف المقام، يعني يوم الفتح.(٢)

[٣٢٥٩/٢] وأخرج البخاري وأبو داوود والنسائي وابن ماجة عن عبدالله بن أبي أوفى، أنّ رسول الله ﷺ اعتمر فطاف بالبيت وصلّى خلف المقام ركعتين.(٣)

* * *

[٣٢٦٠/٢] وروى الكليني بالإسناد إلى أبي الصباح الكناني قال: سألت أبا عبدالله الصادق عليه السلام عن رجل نسي أن يصلّي الركعتين عند مقام إبراهيم عليه السلام في طواف الحجّ والعمرة، فقال: «إن كان بالبلد صلّى ركعتين عند مقام إبراهيم عليه السلام فإنّ الله ـ عزّ وجلّ ـ يقول: ﴿وَ اتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى﴾ وإن كان قد ارتحل فلا آمره أن يرجع».(٤)

[٣٢٦١/٢] وروى الشيخ بالإسناد إلى أبي بصير قال: سألت أبا عبدالله عليه السلام عن رجل نسي أن يصلّي ركعتي طواف الفريضة خلف المقام وقد قال الله: ﴿وَ اتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى﴾ حتّى ارتحل؟ فقال: «إن كان ارتحل فإنّي لاأشقّ عليه ولا آمره أن يرجع، ولكن يصلّي حيث يذكر».(٥)

[٣٢٦٢/٢] وروى بالإسناد إلى صفوان بن يحيى عمّن حدّثه عن أبي عبدالله عليه السلام قال: «ليس لأحد أن يصلّي ركعتي طواف الفريضة إلّا خلف المقام، لقول الله ـ عزّوجلّ ـ: ﴿وَ اتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى﴾ فإن صلّيتهما في غيره فعليك إعادة الصلاة»(٦).

---

(١) الدرّ ١: ٢٩٠؛ مسلم ٤: ٤٠، كتاب الحجّ؛ البيهقي ٥: ٩٠ ـ ٩١؛ الحلية ٣: ٢٠٠، قال: هذا حديث صحيح؛ الطبري ١: ٧٤٧ / ١٦٤٤. (٢) الدرّ ١: ٢٩٤؛ أبو داوود ١: ٤١٨ / ١٨٧١، باب ٤٦.

(٣) الدرّ ١: ٢٩٤؛ البخاري ٢: ١٦٠، كتاب الحجّ، باب ٥٣؛ أبو داوود ١: ٤٢٤ / ١٩٠٢، باب ٥٦؛ النسائي ٢: ٤٧١ / ٤٢١٩؛ ابن ماجة ٢: ٩٩٦ / ٢٩٩٠، باب ٤٤، بلفظ: عبدالله بن أبي أوفى يقول: كنّا مع رسول الله ﷺ حين اعتمر فطاف وطفنا معه، وصلّى وصلّينا معه وكنّا نستره من أهل مكّة لايُصيبه أحد بشيء.

(٤) الكافي ٤: ٤٢٥ / ١، كتاب الحجّ، باب السهو في ركعتي الطواف؛ العيّاشي ١: ٧٧ / ٩١، البحار ٩٦: ٢١٥ / ٩، باب ٣٩؛ الاستبصار ٢: ٢٣٥ / ٨١٥ ـ ٦؛ التهذيب ٥: ١٣٩ / ٤٥٨ ـ ١٣٠.

(٥) التهذيب ٥: ١٤٠ / ٤٦١ ـ ١٣٣، كتاب الحجّ، باب الطواف؛ الاستبصار ٢: ٢٣٥ ـ ٢٣٦ / ٨١٨ ـ ٩، باب ١٥٦.

(٦) نورالثقلين ١: ١٢٣ / ٣٥٣؛ التهذيب ٥: ١٣٧ / ٤٥١ ـ ١٢٣ كتاب الحجّ، باب الطواف؛ البرهان ١: ٣٢٧ / ٣.

[٣٢٦٣/٢] وأخرج سعيد بن منصور وأحمد والعدني والدارمي والبخاري والترمذي والنسائي وابن ماجة وابن أبي داوود في المصاحف وابن المنذر وابن مردويه وأبو نعيم في الحلية والطحاوي وابن حِبّان والدار قطني في الإفراد والبيهقي في سننه عن أنس بن مالك قال: قال عمر بن الخطاب: وافقتُ ربّي في ثلاث، أو وافقني ربّي في ثلاث: قلت: يا رسول الله لو اتّخذت من مقام إبراهيم مصلّى؟ فنزلت: ﴿وَ اتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى﴾. وقلت: يا رسول الله إنّ نساءك يدخل عليهم البرّ والفاجر، فلو أمرتهنّ أن يحتجبن، فنزلت آية الحجاب. واجتمع على رسول الله ﷺ نساؤه في الغيرة فقلت لهنّ: ﴿عَسَىٰ رَبُّهُ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ﴾[1] فنزلت كذلك.[2]

قلت: وعليه فقد كان عمر يستطيع النطق بكلام يُماثل القرآن، وهذا عجيب؟!

[٣٢٦٤/٢] وأخرج عبدبن حميد وابن أبي حاتم عن ابن عبّاس قال: مقام إبراهيم الحرم كلّه.[3]

[٣٢٦٥/٢] وقال إبراهيم النخعي: الحرم كلّه مقام إبراهيم.[4]

[٣٢٦٦/٢] وأخرج ابن جرير عن عطاء بن أبي رياح: ﴿وَ اتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى﴾ قال: لأنّي قد جعلته إماماً فمقامه عرفة ومزدلفة والجمار.[5]

[٣٢٦٧/٢] وأخرج عن مجاهد: الحرم كلّه مقام إبراهيم[6].

[٣٢٦٨/٢] وعن ابن عبّاس قال: مقامه عرفة.[7]

---

(١) التحريم: ٥.

(٢) الدرّ ١: ٢٨٩ ـ ٢٩٠؛ سنن سعيد بن منصور ٢: ٦٠٧ / ٢١٥؛ مسند أحمد ١: ٢٤؛ الدارمي ٢: ٤٤، باب الصلاة خلف المقام؛ البخاري ١: ١٠٥، كتاب الصلاة، باب ٣٢ (ما جاء في القبلة)؛ الترمذي ٤: ٢٧٥ / ٤٠٣٨، كتاب التفسير، سورة البقرة؛ النسائي ٦: ٤٣٥ / ١١٤١٨، سورة الأحزاب؛ ابن ماجة ١: ٣٢٢ / ١٠٠٩، باب ٥٦؛ الحلية ٣: ٣٧٧؛ ابن حِبّان ١٥: ٣١٩ / ٦٨٩٦، كتاب إخباره ﷺ عن مناقب الصحابة؛ البيهقي ٧: ٨٨، باب سبب نزول آية الحجاب؛ القرطبي ١٢: ١١٢، بتفاوت؛ ابن كثير ١: ١٧٤ ـ ١٧٥؛ البغوي ١: ١٦٣ ـ ١٦٤ / ٨٣ و ٨٤؛ الثعلبي ١: ٢٧٠، بتفاوت.

(٣) الدرّ ١: ٢٩١؛ ابن أبي حاتم ١: ٢٢٦ / ١١٩٨، وزاد: «وروي عن مجاهد وعطاء مثل ذلك».

(٤) الثعلبي ١: ٢٧٠؛ البغوي ١: ١٦٣؛ أبو الفتوح ٢: ١٤٦.

(٥) الطبري ١: ٧٤٦ / ١٦٣٥؛ القرطبي ٢: ١١٣؛ التبيان ١: ٤٥٣؛ مجمع البيان ١: ٣٨٠.

(٦) الطبري ١: ٧٤٦ / ١٦٣٩.

(٧) المصدر / ١٦٣٧.

[٣٢٦٩/٢] وعن ابن عبّاس قال: جعل إبراهيم يبنيه، وإسماعيل يناوله الحجارة، ويقولان: ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾(١). فلمّا ارتفع البنيان وضعف الشيخ عن رفع الحجارة قام على حجر، فهو مقام إبراهيم.(٢)

[٣٢٧٠/٢] وقال السُّدي: المقام الحجر الذي وضعته زوجة إسماعيل تحت قدم إبراهيم عليه السلام حين غسلت رأسه.(٣)

[٣٢٧١/٢] وذكر القرطبي عن أنس قال: رأيتُ في المقام أثر أصابعه وعقبه وأخمص قدميه!! غير أنّه أذهبه مسحُ الناس بأيديهم!(٤)

[٣٢٧٢/٢] وذكر أبو علي الطبرسي في سبب النزول، عن ابن عبّاس أنّه قال: لمّا أتى إبراهيم بإسماعيل وهاجر فوضعهما بمكّة، وأتت على ذلك مدّة ونزلها الجرهميّون وتزوّج إسماعيل امرأة منهم وماتت هاجر واستأذن إبراهيم سارة أن يأتي هاجر فأذنت له، وشرطت عليه أن لا ينزل، فقدم إبراهيم عليه السلام وقد ماتت هاجر فذهب إلى بيت إسماعيل، فقال لامرأته: أين صاحبك؟ قالت له: ليس هاهنا، ذهب يتصيّد، وكان إسماعيل يخرج من الحرم يتصيّد ويرجع، فقال لها إبراهيم: هل عندك ضيافة؟ فقالت: ليس عندي شيء وما عندي أحد. فقال لها إبراهيم: إذا جاء زوجك فاقرئيه السلام وقولي له فليغيّر عتبة بابه. وذهب إبراهيم عليه السلام، فجاء إسماعيل ووجد ريح أبيه، فقال لامرأته: هل جاءك أحد؟ قالت: جاءني شيخ صفته كذا وكذا، كالمستخفّة بشأنه، قال: فما قال لك؟ قالت: قال لي: أقرئي زوجك السلام وقولي له فليغيّر عتبة بابه، فطلّقها وتزوّج أُخرى. فلبث إبراهيم ما شاء الله أن يلبث ثمّ استأذن سارة أن يزور إسماعيل عليه السلام، فأذنت له، واشترطت عليه أن لا ينزل، فجاء إبراهيم حتّى انتهى إلى باب إسماعيل، فقال لامرأته: أين صاحبك؟ قالت: يتصيّد وهو يجيء الآن

---

(١) البقرة ٢: ١٢٧.

(٢) الطبري ١: ٧٤٦ / ١٦٤٠؛ البخاري ٤: ١١٧، كتاب الأنبياء، باب ٩؛ النسائي ٥: ١٠٢ / ٨٣٨٠؛ البغوي ١: ١٦٥ / ٨٦.

(٣) القرطبي ٢: ١١٣؛ ابن كثير ١: ١٧٤؛ التبيان ١: ٤٥٣، بزيادة، وزاد بعد نقلها: «وبه قال الحسن وقتادة والربيع، واختاره الجبائي والرماني»؛ أبوالفتوح ٢: ١٤٨.

(٤) القرطبي ٢: ١١٣؛ ابن كثير ١: ١٧٥؛ أبوالفتوح ٢: ١٤٨؛ الثعلبي ١: ٢٧١.

إن شاء الله، فانزل يرحمك الله. قال لها: هل عندك ضيافة؟ قالت: نعم، فجاءت باللبن واللحم، فدعا لها بالبركة، فلو جاءت يومئذ بخبز أو بُرّ أو شعير أو تمر لكانت أكثر أرض الله بُرّاً وشعيراً وتمراً. فقالت له: انزل حتّى أغسل رأسك، فلم ينزل. فجاءت بالمقام فوضعته على شقّه الأيمن، فوضع قدمه عليه، فبقي أثر قدمه عليه، فغسلت شقّ رأسه الأيمن ثمّ حولّت المقام إلى شقّه الأيسر، فبقي أثر قدمه عليه، فغسلت شقّ رأسه الأيسر، فقال لها: إذا جاء زوجك فاقرئيه منّي السلام وقولي له: قد استقامت عتبة بابك. فلمّا جاء إسماعيل وجد ريح أبيه، فقال لامرأته: هل جاءك أحد؟ قالت: نعم شيخ أحسن الناس وجهاً وأطيبهم ريحاً، وقال لي كذا وكذا وقلت له كذا وكذا، وغسلت رأسه، وهذا موضع قدميه على المقام، قال لها إسماعيل عليه السلام: ذاك إبراهيم عليه السلام.(١)

قلت: قصّة غريبة جدّاً. ولا تخفى مواضع الغرابة فيها.

[٣٢٧٣/٢] وأخرج ابن سعد وابن المنذر عن عائشة قالت: أُلقي المقام من السماء!(٢)

[٣٢٧٤/٢] وقال الطبرسي: وروي أنّ ثلاثة أحجار نزلت من الجنّة: مقام إبراهيم وحَجَرُ بني إسرائيل، والحَجَرُ الأسود(٣).

[٣٢٧٥/٢] وأخرج ابن أبي حاتم والأزرقي عن عبدالله بن عمر قال: إنّ المقام كانت ياقوتة من يواقيت الجنّة محي نورها، ولولا ذلك لأضاءت ما بين السماء والأرض، والركن مثل ذلك.(٤)

[٣٢٧٦/٢] وأخرج الترمذي وابن حِبّان والحاكم والبيهقي في الدلائل عن ابن عمر قال: قال

---

(١) البرهان ١: ٣٢٩ ـ ٣٣٠ / ١؛ مجمع البيان ١: ٣٨٠ ـ ٣٨١، وزاد: «وقد روى هذه القصّة بعينها عليّ بن إبراهيم عن أبيه عن ابن أبي عمير عن أبان عن الصادق عليه السلام مع بعض الاختلاف»؛ كنزالدقائق ٢: ١٤٢ ـ ١٤٣؛ البحار ١٢: ٨٤ ـ ٨٥.

(٢) الدرّ ١: ٢٩١؛ الطبقات ٨: ٤٩٨.

(٣) نور الثقلين ١: ١٢٢ / ٣٥٠؛ مجمع البيان ١: ٣٨٠. وزاد: استودع الله إبراهيم حجراً أبيض، وكان أشدّ بياضاً من القراطيس، فاسودّ من خطايا بني آدم؛ البرهان ١: ٣٣٣ ـ ٣٣٤ / ٥، عن العيّاشي ١: ٧٨ / ٩٣. بلفظ: نزلت ثلاثة أحجار من الجنّة، الحجر الأسود استودعه إبراهيم، ومقام إبراهيم، وحجر بني إسرائيل، قال أبو جعفر عليه السلام: إنّ الله استودع إبراهيم الحجر الأبيض وكان أشدّ بياضاً من القراطيس، فاسودّ من خطايا بني آدم.

(٤) الدرّ ١: ٢٩١.

رسول الله ﷺ: «الركن والمقام ياقوتتان من يواقيت الجنّة طمس الله نورهما، ولولا ذلك لأضاءتا ما بين المشرق والمغرب».(١)

[٣٢٧٧/٢] وأخرج الحاكم عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «الركن والمقام ياقوتتان من يواقيت الجنّة».(٢)

[٣٢٧٨/٢] وأخرج عبدبن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم، عن سعيد بن جبير قال: الحجر مقام إبراهيم ليّنه الله فجعله رحمة، وكان يقوم عليه ويناوله إسماعيل الحجارة.(٣)

[٣٢٧٩/٢] وأخرج الأزرقي في تاريخ مكّة والجندي عن مجاهد قال: يأتي الحَجَر والمقام يوم القيامة كلّ واحد منهما مثل أُحد، لهما عينان وشفتان يناديان بأعلى أصواتهما، يشهدان لمن وافاهما بالوفاء.(٤)

[٣٢٨٠/٢] وأخرج ابن أبي شيبة عن ابن الزبير، أنّه رأى قوماً يمسحون المقام، فقال: لم تؤمروا بهذا، إنّما أُمرتم بالصلاة عنده.(٥)

[٣٢٨١/٢] وأخرج عبدبن حميد، وابن جرير وابن المنذر والأزرقي عن قتادة في قوله: ﴿وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى﴾ قال: إنّما أُمروا أن يصلّوا عنده ولم يؤمروا بمسحه، ولقد تكلّفت هذه الأمّة شيئاً ما تكلّفته الأمم قبلها، وقد ذكر لنا بعض من رأى أثر عقبه وأصابعه، فما زالت هذه الأمّة تمسحه حتّى اخلولق وانمحى.(٦)

---

(١) الدرّ ١: ٢٩١؛ الترمذي ٢: ١٨٢ / ٨٧٩؛ ابن حِبّان ٩: ٢٤ / ٣٧١٠، كتاب الحجّ، باب ٣؛ الحاكم ١: ٤٥٦، كتاب المناسك؛ الدلائل ٢: ٥٣، باب ما جاء في بناء الكعبة. بتفاوت، وزاد: «وما مسّهما من ذي عاهة ولا سقيم إلّا شُفِيَ»؛ مسند أحمد ٢: ٢١٣ ـ ٢١٤؛ كنزالعمّال ١٢: ٢١٧ / ٣٤٧٤١؛ الثعلبي ١: ٢٧١؛ مجمع البيان ١: ٣٨٢؛ البغوي ١: ١٦٥ / ٨٧؛ أبوالفتوح ٢: ١٤٨.

(٢) الدرّ ١: ٢٩١؛ الحاكم ١: ٤٥٦، كتاب المناسك؛ كنزالعمّال ١٢: ٢١٧ / ٣٤٧٤٠.

(٣) الدرّ ١: ٢٩١؛ ابن أبي حاتم ١: ٢٢٦ / ١١٩٩.

(٤) الدرّ ١: ٢٩١؛ المصنّف لعبدالرزّاق ٥: ٣٠ / ٨٨٨٢، بلفظ: قال مجاهد: الركن والمقام يأتيان يوم القيامة أعظم من أبي قبيس لكلّ واحد منهما عينان ولسانان وشفتان تشهدان لمن وافاهما بالوفاء.

(٥) الدرّ ١: ٢٩٢؛ المصنّف ٤: ٥١٥ / ١، باب ٤٥٢، كتاب الحجّ.

(٦) الدرّ ١: ٢٩٢؛ الطبري ١: ٧٤٧ / ١٦٤١.

[٣٢٨٢/٢] وأخرج الأزرقي عن نوفل بن معاوية الديلمي قال: «رأيت المقام في عهد عبد المطلب مثل المهاة» قال أبو محمّد الخزاعي: المهاة خرزة بيضاء.[١]

[٣٢٨٣/٢] وأخرج الأزرقي عن أبي سعيد الخُدري قال: «سألت عبدالله بن سلام عن الأثر الذي في المقام؟ فقال: كانت الحجارة على ما هي عليه اليوم إلّا أنّ الله أراد أن يجعل المقام آيةً من آياته، فلمّا أمر إبراهيمﷺ أن يؤذّن في الناس بالحجّ قام على المقام. وارتفع المقام حتّى صار أطول الجبال وأشرف على ما تحته، فقال: يا أيّها الناس أجيبوا ربّكم، فأجابه الناس فقالوا: لبّيك اللهمّ لبّيك، فكان أثره فيه لما أراد الله، فكان ينظر عن يمينه وعن شماله أجيبوا ربّكم فلمّا فرغ أمر بالمقام فوضعه قبلة، فكان يصلّي إليه مستقبل الباب فهو قبلةٌ إلى ما شاء الله، ثمّ كان إسماعيل بعدُ يصلّي إليه إلى باب الكعبة، ثمّ كان رسول اللهﷺ فأمر أن يصلّي إلى بيت المقدس، فصلّى إليه قبل أن يهاجر وبعد ما هاجر، ثمّ أحبّ الله أن يصرفه إلى قبلته التي رضي لنفسه ولأنبيائه فصلّى إلى الميزاب وهو بالمدينة، ثمّ قدم مكّة فكان يصلّي إلى المقام ما كان بمكّة».[٢]

[٣٢٨٤/٢] وأخرج الأزرقي عن كثير بن أبي كثير بن المطّلب بن أبي وداعة السهمي عن أبيه عن جدّه قال: كانت السيول تدخل المسجد الحرام من باب بني شيبة الكبير قبل أن يردم عمرُ الردمَ الأعلى، فكانت السيول ربما رفعت المقام عن موضعه وربما نحّته إلى وجه الكعبة حتّى جاء سيل أمّ نهشل في خلافة عمربن الخطّاب، فاحتمل المقام من موضعه هذا فذهب به حتّى وجد بأسفل مكّة، فأُتي به فرُبط إلى أستار الكعبة، وكُتب في ذلك إلى عمر، فأقبل فزعاً في شهر رمضان وقد غبَى موضعه[٣] وعفاه السيل، فدعا عمر بالناس فقال: أَنشُدُ الله عبداً عنده علم في هذا المقام. فقال المطّلب بن أبي وداعة: أنا يا أميرالمؤمنين عندي ذلك، قد كنت أخشى عليه هذا فأخذت قدره من موضعه إلى الركن، ومن موضعه إلى باب الحجر، ومن موضعه إلى زمزم بمقاط[٤] وهو عندي في البيت. فقال له عمر: فاجلس عندي وأرسل إليه. فجلس عنده وأرسل فأُتي بها، فمدّها فوجدها مستويةً إلى موضعه هذا، فسأل الناس وشاورهم فقالوا: نعم، هذا موضعه. فلمّا استثبت ذلك عمر

---

(١) الدرّ ١: ٢٩٢. (٢) الدرّ ١: ٢٩٢.

(٣) غبى موضعه: اختفى. الوسيط «غ ب ى».

(٤) المِقاط ـ بالكسر ككتاب ـ حبل صغير شديد الفتل، يكاد يقوم من شدّة فتله. النهاية لابن الأثير ٤: ٣٤٧.

وحقّ عنده أمر به، فأعلم ببناءٍ ربّضه[١] تحت المقام ثمّ حوّله، فهو في مكانه هذا إلى اليوم.[٢]

[٣٢٨٥/٢] وأخرج الأزرقي من طريق سفيان بن عُيينة عن حبيب بن الأشرس قال: كان سيل أمّ نهشل قبل أن يعمل عمرُ الردم بأعلى مكّة، فاحتمل المقام من مكانه فلم يُدْرَ أين موضعه؟ فلمّا قدم عمر بن الخطّاب سأل من يعلم موضعه؟ فقال عبدالمطّلب بن أبي وداعة: أنا يا أميرالمؤمنين قد كنت قدّرته وذرّعته بمقاط وتخوّفت عليه هذا، من الحجر إليه، ومن الركن إليه، ومن وجه الكعبة. فقال: ائت به. فجاء به فوضعه في موضعه هذا وعمل عمرُ الردمَ عند ذلك. قال سفيان: فذلك الذي حدّثنا هشام بن عروة عن أبيه، أنّ المقام كان عند سقع البيت[٣]، فأمّا موضعه الذي هو موضعه فموضعه الآن، وأمّا ما يقول الناس: إنّه كان هنالك موضعه، فلا.[٤]

[٣٢٨٦/٢] وأخرج الأزرقي عن ابن أبي مليكة قال: موضع المقام هذا هو الذي به اليوم، هو موضعه في الجاهليّة، وفي عهد النبي، وأبي بكر وعمر، إلّا أنّ السيل ذهب به في خلافة عمر، فجُعل في وجه الكعبة حتّى قدم عمر فردّه بمحضر الناس.[٥]

[٣٢٨٧/٢] وأخرج الأزرقي عن طلق بن حبيب قال: كنّا جلوساً مع عبدالله بن عمرو بن العاص في الحِجْر، إذ قلص الظلّ وقامت المجالس، إذ نحن ببريق أيم طلع من هذا الباب ـ يعني من باب بني شيبة، والأيم الحيّة الذكر ـ فاشرأبّت له أعين الناس، فطاف بالبيت سبعاً وصلّى ركعتين وراء المقام؟! فقمنا إليه فقلنا: أيّها المعتمر قد قضى الله نسكك؛ وإنّ بأرضنا عبيداً وسفهاء وإنّما نخشى عليك منهم، فكوّم برأسه كومة بطحاء فوضع ذنبه عليها فسما بالسماء حتّى ما نراه!![٦]

قلت: يا لها من غريبة؟! وأغرب منها التالية:

[٣٢٨٨/٢] وأخرج الأزرقي عن أبي الطفيل قال: كانت امرأة من الجنّ في الجاهلية تسكن ذا طوى، وكان لها ابن ولم يكن لها ولد غيره، فكانت تحبّه حبّاً شديداً، وكان شريفاً في قومه فتزوّج وأتى زوجته، فلمّا كان يوم سابعه قال لأمّه: يا أمّاه إنّي أحبّ أن أطوف بالكعبة سبعاً نهاراً! قالت له

(١) ربّضه أي أحكمه.

(٢) الدرّ ١: ٢٩٢ـ٢٩٣؛ كنزالعمّال ١٤: ١١٧ـ١١٨ / ٣٨١٠٤.

(٣) سُقع البيت: ناحيته. أي إلى جنب البيت ملصقاً به.

(٤) الدرّ ١: ٢٩٣؛ كنزالعمّال ١٤: ١١٧ / ٣٨١٠٣.

(٥) الدرّ ١: ٢٩٣؛ كنزالعمّال ١٤: ١١٨ / ٣٨١٠٥.

(٦) الدرّ ١: ٢٩٤.

أمّه: أي بنيّ إنّي أخاف عليك سُفهاء قريش! فقال: أرجو السلامة. فأذنت له فولّى في صورة جانّ، فمضى نحو الطواف، فطاف بالبيت سبعاً وصلّى خلف المقام ركعتين ثمّ أقبل منقلباً، فعرض له شاب من بني سهم فقتله، فثارت بمكّة غبرة حتّى لم يبصر لها الجبال. قال أبو الطفيل: بلغنا أنّه إنّما تثور تلك الغبرة عند موت عظيم من الجنّ! قال: فأصبح من بني سهم على فرشهم موتى كثير مِنْ قَتْل الجنّ، فكان فيهم سبعون شيخاً أصلع سوى الشابّ!؟[1]

[٣٢٨٩/٢] وأخرج عن الحسن البصري قال: ما أعلم بلداً يصلّى فيه حيث أمر الله ـ عزّ وجلّ ـ نبيّه ﷺ إلّا بمكّة. قال الله: ﴿وَ اتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى﴾ قال: ويقال: يستجاب الدعاء بمكّة في خمسة عشر. عند الملتزم، وتحت الميزاب، وعند الركن اليماني، وعلى الصفا، وعلى المروة، وبين الصفا والمروة، وبين الركن والمقام، وفي جوف الكعبة، وبمنى، وبجُمَع، وبعرفات، وعند الجمرات الثلاث.[2]

[٣٢٩٠/٢] وذكر القرطبي عن جابر قال: نظر النبي ﷺ إلى رجل بين الركن والمقام. أو الباب والمقام وهو يدعو ويقول: اللّهم اغفر لفلان، فقال له النبي ﷺ: ما هذا؟ فقال: رجلٌ استودعني أن أدعو له في هذا المقام: فقال ﷺ: ارجع، فقد غُفر لصاحبك![3]

قوله تعالى: ﴿أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ﴾

[٣٢٩١/٢] أخرج ابن أبي حاتم عن مجاهد وسعيد بن جبير في قوله: ﴿أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ﴾ قالا: من الأوثان والريب وقول الزور والرجس.[4]

[٣٢٩٢/٢] وأخرج ابن أبي حاتم، عن سعيد بن جبير قال: طهّرا بيتي بلا إلـه إلّا الله من الشرك[5].

---

(١) الدرّ ١: ٢٩٤. (٢) الدرّ ١: ٢٩٤ ـ ٢٩٥.

(٣) القرطبي ٢: ١١٣.

(٤) الدرّ ١: ٢٩٥؛ ابن أبي حاتم ١: ٢٢٧ / ١٢٠٦؛ الطبري ١: ٧٤٩ ـ ٧٥٠ / ١٦٥٤؛ الثعلبي ١: ٢٧٢، عن سعيد بن جبير وعبيد بن عمر وعطاء ومقاتل.

(٥) ابن أبي حاتم ١: ٢٢٨ / ١٢٠٧، وزاد: «وروي عن عبيد بن عمير وأبي العالية وقتادة ومجاهد وعطاء نحوه»؛ ابن كثير ١: ١٧٧.

[٣٢٩٣/٢] وأخرج الطيالسي عن أسامة بن زيد، قال: دخل رسول الله ﷺ الكعبة ورأى صوراً، فدعا بدلوٍ من ماء، فأتيته به فجعل يمحوها ويقول: «قاتل الله قوماً يُصوّرون ما لا يخلقون».(١)

[٣٢٩٤/٢] وروى الشيخ بالإسناد إلى عمران الحلبي قال: سألت أبا عبدالله عليه السلام: أتغتسل النساء إذا أتين البيت؟ فقال: نعم؛ إنّ الله تعالى يقول: ﴿أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّـآئِفِينَ وَ الْعَاكِفِينَ وَ الرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾. وينبغي للعبد أن لايدخل إلّا وهو طاهر قد غُسل عنه العَرَق والأذى وتطهّر.(٢)

[٣٢٩٥/٢] وأخرج ابن أبي شيبة عن أبي بكر بن أبي موسى قال: سُئل ابن عبّاس عن الطواف أفضل أم الصلاة؟ فقال: أمّا أهل مكّة فالصلاة، وأمّا أهل الأمصار فالطواف!(٣)

[٣٢٩٦/٢] وأخرج الأزرقي والجندي وابن عديّ والبيهقي في شعب الإيمان والأصبهاني في الترغيب عن ابن عبّاس قال: قال رسول الله ﷺ: «إنّ لله في كلّ يوم وليلة عشرين ومائة رحمة، تنزل على هذا البيت ستّون للطائفين، وأربعون للمصلّين، وعشرون للناظرين».(٤)

[٣٢٩٧/٢] وروى الكليني بإسناده إلى معاوية بن عمّار عن الإمام أبي عبدالله الصادق عليه السلام قال: «إنّ لله ـ تبارك وتعالى ـ حول الكعبة عشرين ومائة رحمة، منها ستّون للطائفين وأربعون للمصلّين، وعشرون للناظرين»(٥).

أي أنّ هذه المائة والعشرين رحمة ترفرف حول الكعبة بدوام، فستّون منها للطائف حولها، وأربعون للمصلّي عندها، وعشرون للناظر إليها.

[٣٢٩٨/٢] وروى القاضي نعمان المصري بإسناده عن الإمام جعفر بن محمّد عليه السلام، أنّه قال: «لمّا

---

(١) مسند أبي داوود الطيالسي: ٨٧؛ كنز العمّال ٥: ٢٩٩ / ١٢٩٣٥؛ القرطبي ٢: ١١٦.

(٢) التهذيب ٥: ٢٥١ / ٨٥٢ ـ ١٢؛ العيّاشي ١: ٧٨ / ٩٥؛ الكافي ٤: ٤٠٠ / ٣؛ علل الشرائع ٢: ٤١١ / ١، باب ١٥١؛ البحار ٩٦: ٣٦٩ / ٣، باب ٦٤.

(٣) الدرّ ١: ٢٩٥؛ المصنّف ٤: ٤٦٣ / ٢، باب ٣٦٥؛ القرطبي ٢: ١١٦، عن ابن عبّاس وعطاء ومجاهد؛ أبوالفتوح ٢: ١٤٩ ـ ١٥٠.

(٤) الدرّ ١: ٣٢٨؛ الكامل لابن عدي ٦: ٢٧٨ و ٧: ١٦٣، بلفظ: يُنزل الله ـ عزّوجلّ ـ في كلّ يوم مئة وعشرين رحمة ستّون منها للطائفين وأربعون للمصلّين وعشرون للناظرين؛ الشعب ٣: ٤٥٤ ـ ٤٥٥ / ٤٠٥١، باب ٢٥ (في المناسك)؛ ابن عساكر ٣٤: ٣٨٩؛ الثعلبي ١: ٢٧٢؛ أبو الفتوح ٢: ١٤٩.

(٥) الكافي ٤: ٢٤٠ / ٢؛ ثواب الأعمال: ٤٩.

أوحى الله ـ عزّ وجلّ ـ إلى إبراهيم ﷺ ﴿أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّـآئِفِينَ وَ الْعَاكِفِينَ وَ الرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾، أهبط الله إلى الكعبة مائة وسبعين رحمة، فجعل منها ستّين للطائفين، وخمسين للعاكفين، وأربعين للمصلّين، وعشرين للناظرين».(١)

[٣٢٩٩/٢] وأخرج ابن جرير عن عطاء في قوله: ﴿لِلطَّـآئِفِينَ وَ الْعَاكِفِينَ﴾ قال: إذا كان طائفاً بالبيت فهو من الطائفين، وإذا كان جالساً فهو من العاكفين.(٢)

[٣٣٠٠/٢] وأخرج عبدبن حميد عن سويد بن غفلة قال: من قعد في المسجد وهو طاهر فهو عاكف حتّى يخرج منه.(٣)

[٣٣٠١/٢] وأخرج عبدبن حميد وابن أبي حاتم عن ثابت قال: قلت لعبدالله بن عبيد بن عمير: ما أراني إلّا مكلّم الأمير أن أمنع الّذين ينامون في المسجد الحرام، فإنّهم يجنبون ويحدثون. قال: لاتفعل فإنّ ابن عمر سُئل عنهم فقال: هم العاكفون.(٤)

[٣٣٠٢/٢] وأخرج ابن أبى حاتم عن عطاء في قوله: ﴿وَ الْعَاكِفِينَ﴾ قال: من انتابه من الأمصار فأقام عنده. وقال لنا ـ ونحن مجاورون ـ: أنتم من العاكفين.(٥)

[٣٣٠٣/٢] وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عبّاس قال: إذا كان قائماً فهو من الطائفين، وإذا كان جالساً فهو من العاكفين، وإذا كان مصلّياً فهو من الركّع السجود.(٦)

قوله تعالى: ﴿وَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هذا بَلَدًا آمِنًا﴾

[٣٣٠٤/٢] أخرج البخاري وابن ماجة عن صفيّة بنت شيبة قالت: سمعت النبيّ ﷺ يخطب عام

(١) دعائم الإسلام ١: ٢٩٤، كتاب الحجّ، ذكر الرغائب في الحجّ؛ البحار ٩٦: ٥٠ / ٤٨، باب ٤؛ مستدرك الوسائل ٩: ٣٧٨.

(٢) الطبري ١: ٧٥١ / ١٦٥٩؛ مجمع البيان ١: ٣٨٣؛ أبوالفتوح ٢: ١٤٩؛ الثعلبي ١: ٢٧٢.

(٣) الدرّ ١: ٢٩٥.

(٤) الدرّ ١: ٢٩٥؛ ابن أبي حاتم ١: ٢٢٩ / ١٢١٥؛ ابن كثير ١: ١٧٧. وزاد: «ورواه عبدبن حميد عن سليمان بن حرب عن حمّاد بن سلمة. ثمّ قال: وقد ثبت في الصحيح أنّ ابن عمر كان ينام في مسجد الرسول ﷺ وهو عزب».

(٥) ابن أبي حاتم ١: ٢٢٩ / ١٢١٤.

(٦) الدرّ ١: ٢٩٥؛ ابن أبي حاتم ١: ٢٢٨، وروي عن عطاء ومقاتل بن حيان وقتادة نحو ذلك؛ ابن كثير ١: ١٧٧.

الفتح فقال: «يا أيّها الناس إنّ الله تعالى حرّم مكّة يوم خلق السماوات والأرض وهي حرام إلى يوم القيامة، لا يُعْضَد شجرُها، ولا يُنَفَّر صيدُها، ولا يأخذ لقطتها إلّا منشدٌ. فقال العباس: إلّا الإذخر فإنّه للبيوت والقبور. فقال رسول الله ﷺ: إلّا الإذخر!»(١).

[٣٣٠٥/٢] وأخرج مسلم بالإسناد إلى أبي سعيد عن النبي ﷺ قال: «اللّهم إنّ إبراهيم حرّم مكّة فجعلها حراماً، وإنّي حرّمت المدينة حراماً ما بين مأزميها أن لا يُهراق فيها دم، ولا يُحمل فيها سلاح لقتال، ولا يُخبط فيها شجرة إلّا لعلف. اللهمّ بارك لنا في مدينتنا، اللهمّ بارك لنا في صاعنا، اللهمّ بارك لنا في مدّنا، اللهمّ اجعل مع البركة بركتين».(٢)

[٣٣٠٦/٢] وأخرج ابن أبي شيبة عن مجاهد قال: قال رسول الله ﷺ: «مكّة حرم حرّمها الله، لا يحلّ بيع رباعها ولا إجارة بيوتها».(٣)

قلت: يعني: بيع الرقبة ذاتاً، أمّا تبعاً لما أحدث فيها من بناء، فلا منع.

[٣٣٠٧/٢] وأخرج ابن سعد والأزرقي عن ابن عبّاس قال: أوّل من نصب أنصاب الحرم إبراهيم ﷺ يُريه ذلك جبريلُ ﷺ فلمّا كان يوم الفتح بعث رسول الله ﷺ تميم بن أسد الخزاعي فجدّد ما رثّ منها.(٤)

[٣٣٠٨/٢] وأخرج الأزرقي عن مجاهد قال: من أخرج مسلماً من ظلّه في حرم الله من غير ضرورة، أخرجه الله من ظلّ عرشه يوم القيامة.(٥)

[٣٣٠٩/٢] وأخرج الأزرقي عن ابن جُريج قال: بلغني أنّ الخطيئة بمكّة مائة خطيئة، والحسنة على نحو ذلك.(٦)

---

(١) الدرّ ١: ٢٩٧؛ البخاري ٢: ٩٥، كتاب الجنائز، باب ٧٦؛ ابن ماجة ٢: ١٠٣٨ / ٣١٠٩، باب ١٠٣؛ كنزالعمّال ١٢: ٢٠٧ / ٣٤٦٨٢؛ ابن كثير ١: ١٧٩.

(٢) مسلم ٤: ١١٧، كتاب الحجّ، باب الترغيب في سكنى المدينة؛ ابن كثير ١: ١٧٩.

(٣) الدرّ ١: ٢٩٨؛ المصنّف ٤: ٤١٧ / ١، باب ٣١٠.

(٤) الدرّ ١: ٢٩٩؛ الطبقات ٤: ٢٩٥، ترجمة تميم بن أسد بن عبدالعزّى بلفظ: عن ابن عبّاس: إنّ رسول الله ﷺ بعث عام الفتح تميم بن أسد الخزاعي فجدّد أنصاب الحرم.

(٥) الدرّ ١: ٣٠٠.

(٦) المصدر: ٣٠٣.

[٢/٣٣١٠] وأخرج الجندي عن مجاهد قال: تُضعّف بمكّة السيّئات كما تضعّف الحسنات.[١]

[٢/٣٣١١] وأخرج الأزرقي والجندي عن عمربن الخطّاب قال: لأن أخطيء سبعين خطيئة مزكيّة[٢] أحبّ إليّ من أن أخطيء خطيئة واحدة بمكّة.[٣]

[٢/٣٣١٢] وأخرج الأزرقي والجندي وابن خزيمة عن عمر بن الخطّاب، أنّه قال لقريش: إنّه كان ولاة هذا البيت قبلكم طَسْم[٤]، فاستخفّوا بحقّه واستحلّوا حرمته فأهلكهم الله. ثمّ ولّي بعدهم جَرْهم فاستخفّوا بحقّه واستحلّوا حرمته فأهلكهم الله. فلا تهاونوا به وعظّموا حرمته![٥]

[٢/٣٣١٣] وأخرج أبوبكر الواسطي في فضائل بيت المقدس عن عائشة أنّ النبيّ ﷺ قال: «إنّ مكّة بلد عظّمه الله وعظّم حرمته، خَلَق مكّة وحَفَّها بالملائكة قبل أن يخلق شيئاً من الأرض يومئذ كلّها بألف عام ووصلها بالمدينة، ووصل المدينة ببيت المقدس، ثمّ خلق الأرض كلّها بعد ألف عام خلقاً واحداً».[٦]

[٢/٣٣١٤] وأخرج الجندي عن طاووس قال: إنّ أهل الجاهليّة لم يكونوا يصيبون في الحرم شيئاً إلّا عُجّل لهم، ويُوشك أن يرجع الأمرُ إلى ذلك.[٧]

قوله تعالى: ﴿وَ ارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ﴾

[٢/٣٣١٥] روى عليّ بن إبراهيم عن أبيه عن النضر بن سويد عن هشام عن أبي عبدالله ؏ في حديث طويل قال فيه: «من ثمرات القلوب أيّ حبّبهم إلى الناس لينتابوا ويعودوا إليهم».[٨]

---

(١) المصدر.

(٢) أي كثيرة ومتوفّرة.

(٣) المصدر: ٣٠٢.

(٤) جاء في حديث مكّة: «وسكّانها طَسْم وَجدِيس». قال ابن الأثير: هما قوم من أهل الزمان الأوّل. وقيل: طَسْم حيٌّ من عاد.

(٥) الدرّ ١: ٣٠٢؛ المصنّف لعبد الرزّاق ٥: ١١١، ذيل رقم ٩٠١٧؛ كنزالعمّال ١٤: ١٠٣ / ٣٨٠٦٣.

(٦) الدرّ ١: ٣٠٣.

(٧) المصدر: ٣٠٢.

(٨) نورالثقلين ١: ١٢٤ / ٣٥٩؛ القمي ١: ٦٢، وفيه: لينتابوا إليهم؛ البحار ١٢: ١٠٠ / ٦، باب ٥، وفيه: لينتابوا إليهم ويعودوا إليه.

[٣٣١٦/٢] وقال مقاتل بن سليمان: ﴿وَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا﴾ يعني مكّة فقال الله ـعزّ وجلّ ـ: نعم، فحرّمه من الخوف. ﴿وَ ارْزُقْ أَهْلَهُ﴾ من المقيمين بمكّة ﴿مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُم بِاللَّهِ﴾ يعني من صدّق منهم بالله ﴿وَ الْيَوْمِ الآخِرِ﴾ وصدّق بالله أنّه واحد لاشريك له، وصدّق بالبعث الذي فيه جزاء الأعمال، فأمّا مكّة فجعلها الله أمناً، وأمّا الرزق فإنّ إبراهيم اختصّ بمسائلته الرزق للمؤمنين. ﴿قَالَ وَ مَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ﴾ أي قال الله ـ عزّ وجلّ ـ: والّذين كفروا أرزقهم أيضاً مع الّذين آمنوا، ولكنّها لهم متعة من الدنيا ﴿قَلِيلاً ثُمَّ أَضْطَرُّهُ﴾ أُلجئه إن مات على كفره ﴿إِلَىٰ عَذَابِ النَّارِ وَ بِئْسَ الْمَصِيرُ﴾.(١)

قوله تعالى: ﴿وَ إِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ﴾

[٣٣١٧/٢] أخرج الأزرقي عن قتادة في قوله: ﴿وَ إِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ﴾ قال: ذُكر لنا أنّه بناه من خمسة أجبل. من طور سينا، وطور زيتا، ولبنان، والجوديّ، وحراء، وذكر لنا أنّ قواعده من حِراء.(٢)

[٣٣١٨/٢] وأخرج الأزرقي عن عثمان بن ساج قال: بلغنا ـ والله أعلم ـ أنّ إبراهيم عرج به إلى السماء، فنظر إلى الأرض مشارقها ومغاربها فاختار موضع الكعبة، فقالت له الملائكة: يا خليل الله اخترت حرم الله في الأرض؟ فبناه من حجارة سبعة أجبل ويقولون خمسة، فكانت الملائكة تأتي بالحجارة إلى إبراهيم من تلك الجبال.(٣)

[٣٣١٩/٢] وأخرج الأزرقي وأبو الشيخ في العظمة وابن عساكر عن ابن عبّاس قال: لمّا أهبط الله آدم إلى الأرض من الجنّة كان رأسه في السماء، ورجلاه في الأرض، وهو مثل الفلك من رعدته، فطأطأ الله منه إلى ستّين ذراعاً فقال: يا ربّ ما لي لا أسمع أصوات الملائكة ولا أحسّهم؟ قال: خطيئتك يا آدم، ولكن اذهب فابن لي بيتاً فطُف به، واذكرني حوله كنحو ما رأيت الملائكة تصنع حول عرشي، فأقبل آدم يتخطّى فطويت له الأرض، وقبض الله له المفاوز فصارت كلّ مفازة يمرّ بها خطوةً، وقبض الله ما كان فيها من مخاض أو بحر، فجعله له خطوةً، ولم يقع قدمه في شيء من

(١) تفسير مقاتل ١: ١٣٨.
(٢) الدرّ ١: ٣٢٣.
(٣) المصدر: ٣٢٢.

الأرض إلّا صار عمراناً وبركةً، حتّى انتهى إلى مكّة فبنى البيت الحرام، وإنّ جبريل ﷺ ضرب بجناحه الأرض، فأبرز عن أسّ ثابت على الأرض السابعة، فقذفت فيه الملائكة الصخر، ما يطيق الصخرة منها ثلاثون رجلاً، وإنّه بناه من خمسة أجبل. من لبنان، وطور زيتا، وطور سينا، والجوديّ، وحِراء، حتّى استوى على وجه الأرض، فكان أوّل من أسّس البيت وصلّى فيه وطاف به آدمﷺ، حتّى بعث الله الطوفان فكان غَضَباً ورجساً، فحيثما انتهى الطوفان ذهب ريح آدمﷺ، ولم يقرب الطوفان أرض السند والهند، فدرس موضع البيت في الطوفان حتّى بعث الله إبراهيم وإسماعيلﷺ، فرفعا قواعده وأعلامه، ثمّ بَنَتْه قريش بعد ذلك وهو بحذاء البيت المعمور، لو سقط ما سقط إلّا عليه.(١)

[٢/ ٣٣٢٠] وأخرج أبو الشيخ في العظمة عن ابن عبّاس، أنّ رسول الله ﷺ قال: «إنّ البيت الذي بوّأه الله لآدم كان من ياقوتة حمراء لها بابان أحدهما شرقي والآخر غربيّ، فكان فيها قناديل من نور الجنّة، آنيتها الذهب منظومة بنجوم من ياقوت أبيض، والركن يومئذ نجم من نجومه، ووضع لها صفّاً من الملائكة على أطراف الحرم، فهم اليوم يذبّون عنه لأنّه شيء من الجنّة، لا ينبغي أن ينظر إليه إلّا من وجبت له الجنّة ومن نظر إليها دخلها، وإنّما سمّي الحرم لأنّهم لا يجاوزونه، وإنّ الله وضع البيت لآدم حيث وضعه والأرض يومئذ طاهرة لم يعمل عليها شيء من المعاصي، وليس لها أهل ينجّسونها، وكان سكّانها الجنّ».(٢)

[٢/ ٣٣٢١] وأخرج الطبراني عن ابن عمر قال: نزل الركن الأسود من السماء فوضع على أبي قبيس كأنّه مهاة بيضاء، فمكث أربعين سنة ثمّ وضع على قواعد إبراهيم.(٣)

[٢/ ٣٣٢٢] وأخرج الجندي عن معمر قال: إنّ سفينة نوح طافت بالبيت سبعاً حتّى إذا أغرق الله قوم نوح، رفعه وبقي أساسه، فبوّأه الله لإبراهيم فبناه بعد ذلك. وذلك قوله تعالى: ﴿وَ إِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَ إِسْمَاعِيلُ﴾ واستودع الركن أبا قبيس حتّى إذا كان بناء إبراهيم نادى أبو قبيس

---

(١) الدرّ ١: ٣١٣؛ العظمة ٥: ١٥٤٨/ ٩-١٠٠٨؛ ابن عساكر ٧: ٤٢١.

(٢) الدرّ ١: ٣٢٤؛ العظمة ٥: ١٥٨٥/ ١٠٥٠.

(٣) الدرّ ١: ٣٢٥؛ مجمع الزوائد ٣: ٢٤٣، باب فضل الحجر الأسود، قال الهيثمي: رواه الطبراني في الكبير ورجاله ثقات.

إبراهيم فقال: يا إبراهيم! هذا الركن! فجاء فحفر عنه فجعله في البيت حين بناه إبراهيم عليه السلام.[1]

[٣٣٢٣/٢] وأخرج الأزرقي والجندي عن ابن عبّاس قال: إنّ هذا الركن الأسود يمين الله في الأرض يصافح به عباده.[2]

[٣٣٢٤/٢] وأخرج البزّار عن أنس عن رسول الله صلى الله عليه وآله قال: «الحجر الأسود من حجارة الجنّة».[3]

[٣٣٢٥/٢] وأخرج الطبراني عن ابن عبّاس قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «الحجر الأسود من حجارة الجنّة، وما في الأرض من الجنّة غيره، وكان أبيض كالمها، ولولا ما مسّه من رجس الجاهلية ما مسّه ذو عاهة إلّا برىء».[4]

[٣٣٢٦/٢] وأخرج الأزرقي عن ابن عبّاس قال: لولا أنّ الحجر تمسّه الحائض وهي لا تشعر والجنب وهو لا يشعر، ما مسّه أجذم ولا أبرص إلّا برىء.[5]

[٣٣٢٧/٢] وأخرج الطبراني في الأوسط عن جابر قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «إنّ للكعبة لساناً وشفتين، وقد اشتكت فقالت: يا ربّ قلّ عُوّادي وقلّ زُوّاري. فأوحى الله: إنّي خالق بشراً خُشّعاً سُجّداً، يحنّون إليك كما تحنّ الحمامة إلى بيضها».[6]

[٣٣٢٨/٢] وأخرج الجندي عن وُهيب بن الورد قال: كنت أطوف أنا وسفيان بن سعيد الثوري ليلاً، فانقلب سفيان و بقيت في الطواف، فدخلت الحِجْر فصلّيت تحت الميزاب، فبينا أنا ساجد إذ سمعتُ كلاماً بين أستار الكعبة والحجارة، وهي تقول: يا جبريل أشكو إلى الله ثمّ إليك ما يفعل هؤلاء الطائفون حولي، تفكّههم في الحديث ولغطهم وشؤمهم. قال وُهيب: فأوّلت أنّ البيت يشكو إلى جبريل عليه السلام.[7]

---

(١) الدرّ ١: ٣١٦. (٢) المصدر: ٣٢٤.

(٣) الدرّ ١: ٣٢٣؛ مختصر زوائد مسند البزّار ١: ٤٥٣ـ٤٥٤ / ٧٦٩؛ كنزالعمّال ١٢: ٢١٤ / ٣٤٧٢٥.

(٤) الدرّ ١: ٣٢٥؛ الكبير ١١: ١١٨ / ١١٣١٤؛ مجمع الزوائد ٣: ٢٤٢، باب فضل الحجر الأسود.

(٥) الدرّ ١: ٣٢٦.

(٦) الدرّ ١: ٣٢٠؛ الأوسط ٦: ١٥٤ـ١٥٥ / ٦٠٦٦؛ مجمع الزوائد ٣: ٢٠٨.

(٧) الدرّ ١: ٣٣٠.

[٣٣٢٩/٢] وأخرج الأزرقي عن ابن المرتفع قال: كنّا مع ابن الزبير في الحِجْر، فأوّل حَجَر من المنجنيق وقع في الكعبة سمعنا لها أنيناً كأنين المريض: آه آه.(١)

[٣٣٣٠/٢] وروى الكليني بإسناده إلى معاوية بن عمّار قال: سألت أبا عبدالله ﷺ عن الحِجْر أَمِنَ البيت هو أو فيه شيء من البيت؟ فقال: لا ولا قلامة ظفر، ولكن إسماعيل دفن أمّه فيه، فكره أن توطأ فحَجَر عليه حَجَراً وفيه قبور أنبياء.(٢)

[٣٣٣١/٢] وأخرج الجندي في فضائل مكّة عن وهب بن منبّه قال: ما بعث الله ملكاً قطّ ولا سحابة، فيمرّ حيث بُعث حتّى يطوف بالبيت ثمّ يمضي حيث أُمر.(٣)

[٣٣٣٢/٢] وأخرج الأزرقي عن ابن عبّاس، أنّ جبريل وقف على رسول الله ﷺ وعليه عصابة خضراء قد علاها الغبار، فقال له رسول الله ﷺ: ما هذا الغبار الذي أرى على عصابتك؟ قال: إنّي زُرت البيت فازدحمت الملائكة على الركن، فهذا الغبار الذي ترى ممّا تثير بأجنحتها!!(٤)

[٣٣٣٣/٢] وأخرج الأزرقي عن مجاهد قال: حجّ موسى ﷺ على جمل أَحمر، فمرّ بالروحاء عليه عباءتان قطوانيّتان، متّزر بإحداهما مرتد بالأخرى، فطاف بالبيت ثمّ طاف بين الصفا والمروة، فبينما هو يطوف ويلبّي بين الصفا والمروة إذ سمع صوتاً من السماء، وهو يقول: لبيّك عبدي أنا معك، فخرّ موسى ساجداً.(٥)

[٣٣٣٤/٢] وأخرج أحمد في الزهد عن مجاهد قال: حجّ البيت سبعون نبيّاً، منهم موسى بن عمران عليه عباءتان قطوانيّتان، ومنهم يونس يقول: لبّيك كاشف الكرب لبّيك.(٦)

قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا وَ اجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ وَ مِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ﴾

[٣٣٣٥/٢] أخرج ابن أبي حاتم عن عبدالكريم في قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا وَ اجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ﴾ قال: مخلصين(٧).

---

(١) المصدر.

(٢) الكافي ٤: ٢١٠ / ١٥؛ البحار ١٢: ١١٧ / ٥٥، باب ٥.

(٣) الدرّ ١: ٣١٢.

(٤) الدرّ ١: ٣٢٠.

(٥) المصدر: ٣٢٧ ـ ٣٢٨.

(٦) الدرّ ١: ٣١٣؛ الزهد: ٧٤ / ١٨١.

(٧) الدرّ ١: ٣٣١؛ ابن أبي حاتم ١: ٢٣٤ / ١٢٤٥.

[٣٣٣٦/٢] وأخرج ابن أبي حاتم عن سلّام بن أبي مطيع في هذه الآية قال: كانا مسلمين ولكن سألاه الثبات(١).

[٣٣٣٧/٢] وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن السدّي في قوله: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ﴾: يعنيان العرب!(٢)

قوله تعالى: ﴿وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا﴾

[٣٣٣٨/٢] أخرج ابن أبي شيبة عن أبي مجلز في قوله: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبراهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسماعِيلُ﴾ قال: لمّا فرغ إبراهيم من البيت جاءه جبريل أراه الطواف بالبيت والصفا والمروة، ثمّ انطلقا إلى العقبة فعرض لهما الشيطان، فأخذ جبريل سبع حصيات وأعطى إبراهيم سبع حصيات، فرمى وكبَّر وقال لإبراهيم: إرم وكبّر فرَميا وكبّرا مع كلّ رمية حتّى أفَل الشيطان، ثمّ انطلقا إلى الجمرة الوسطى فعرض لهما الشيطان، فأخذ جبريل سبع حصيات وأعطى إبراهيم سبع حصيات فرميا وكبّرا مع كلّ رمية حتّى أفَل الشيطان، ثمّ أتيا الجمرة القصوى فعرض لهما الشيطان، فأخذ جبريل سبع حصيات وأعطى إبراهيم سبع حصيات، وقال: ارم وكبّر. فرميا وكبّرا مع كلّ رمية حتّى أفَل، ثمّ أتى به إلى منى فقال: هاهنا يحلق الناس رؤوسهم، ثمّ أتى به جمعاً فقال: هاهنا يجمع الناس الصلاة، ثمّ أتى به عرفات فقال: عرفتَ؟ قال: نعم. فمِن ثمّ سمّيت عرفات!(٣)

[٣٣٣٩/٢] وأخرج الأزرقي عن مجاهد في قوله: ﴿وَأَرِنا مَنَاسِكَنَا﴾ قال: مذابحنا(٤).

---

(١) ابن أبي حاتم ١: ٢٣٤ / ١٢٤٣.

(٢) الطبري ١: ٧٦٩ / ١٦٩٩. وزاد الطبري: «وهذا قول يدلّ ظاهر الكتاب على خلافه، لأنّ ظاهره يدلّ على أنّهما دعوا الله أن يجعل من ذرّيّتهما أهل طاعته و ولايته والمستجيبين لأمره، وقد كان في ولد إبراهيم العرب وغير العرب، والمستجيب لأمر الله والخاضع له بالطاعة من الفريقين»؛ ابن أبي حاتم ١: ٢٣٤ / ١٢٤٦؛ التبيان ١: ٤٦٤؛ مجمع البيان ١: ٣٩٢. وقال الطبرسي: والصحيح: أنّ المراد من الأمّة، الأولاد.

(٣) الدرّ ١: ٣٣٢؛ ابن أبي حاتم ١: ٢٣٥ / ١٢٥٢؛ المصنّف ٤: ٤٢١ / ٨، باب ٣١٣.

(٤) الدرّ ١: ٣٣٣؛ الطبري ١: ٧٧٠ / ١٧٠٤، عن مجاهد بطريقين، ابن أبي حاتم ١: ٢٣٥ / ١٢٥١، وكذا عن عطاء وقتادة؛ عبدالرزّاق ١: ٢٩٣ / ١٣٠؛ الثعلبي ١: ٢٧٥.

[٣٣٤٠/٢] وأخرج عبد بن حميد عن قتادة في قوله: ﴿وَ أَرِنـا مَـنَاسِكَنَا﴾ قـال: أراهـما الله مناسكهما: الموقف بعرفات، والإفاضة من جمع، ورمي الجمار والطواف بـالبيت، والسـعي بـين الصفا والمروة[١].

[٣٣٤١/٢] وقال مقاتل بن سليمان: ثمّ قالا: ﴿رَبَّنَا وَ اجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ﴾ يعني مُخلصَيْن لك ﴿وَ مِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَ أَرِنا مَنَاسِكَنَا﴾ يعني علّمنا مناسكنا. نظيرها: ﴿بِمَآ أَرَاكَ اللَّـهُ﴾[٢] يـعني بـما علّمك الله. ونظيرها: ﴿وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ﴾[٣] يعني يرى الله. ونظيرها أيضاً: ﴿وَ يَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ﴾[٤] يعني ويعلم. ونظيرها: ﴿فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا﴾ يعني وليرى الله ﴿وَ لَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ﴾[٥] يـعني ويرى.

﴿وَ أَرِنا مَنَاسِكَنَا﴾ فنصلّي لك ﴿وَ تُبْ عَلَيْنَآ﴾ يعني إبراهيم وإسماعيل أنفسهما ﴿إِنَّكَ أَنتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ ففعل الله ـ عزّ وجلّ ـ ذلك به فنزل جبريل فانطلق بإبراهيم إلى عرفات وإلى المشاعر ليريه ويعلّمه كيف يسأل ربّه[٦].

[٣٣٤٢/٢] وأخرج الطيالسي وأحمد وابن أبي حاتم والبيهقي في شعب الإيمان عن ابن عبّاس قال: إنّ إبراهيم لمّا أُري المناسك عرض له الشيطان عند المسعى، فسابق إبراهيمَ فسبقه إبراهيمُ، ثمّ انطلق به جبريل حتّى أراه مِنى فقال: هذا مناخ الناس. فلمّا انتهى إلى جمرة العقبة فـعرض له الشيطان، فرماه بسبع حصيات حتّى ذهب، ثمّ أتى به جمرة الوسطى فعرض له الشـيطان، فـرماه بسبع حصيات حتّى ذهب، ثمّ أتى به جمرة القصوى فعرض له الشيطان، فرماه بسبع حصيات حتّى ذهب، فأتى به جمعاً فقال: هذا المشعر. ثمّ أتى به عرفة فقال: هذه عرفة. فقال له جبريل: أعرفت؟ قال: نعم. ولذلك سمّيت عرفة. أتدري كيف كانت التلبية؟: إنّ إبراهيم لمّا أُمر أن يؤذّن في الناس

---

(١) الدرّ ١: ٣٣٤؛ الطبري ١: ٧٦٩ / ١٧٠٠.

(٢) النساء ٤: ١٠٥. قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ...﴾.

(٣) آل عمران ٣: ١٤٢. قوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ﴾.

(٤) سبأ ٣٤: ٦. قوله تعالى: ﴿وَ يَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ الْحَقَّ وَ يَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾.

(٥) العنكبوت ٢٩: ٣.

(٦) تفسير مقاتل ١: ١٣٩.

بالحجّ، أُمرت الجبال فخفضت رؤوسها ورفعت له القرى، فأذّن في الناس بالحجّ![(١)]

[٣٣٤٣/٢] وأخرج ابن خزيمة والطبراني والحاكم وصحّحه والبيهقي في شعب الإيمان عن ابن عبّاس رفعه قال: لمّا أتى إبراهيم خليلُ الله المناسك عرض له الشيطان عند جمرة العقبة، فرماه بسبع حصيات حتّى ساخ في الأرض، ثمّ عرض له عند الجمرة الثانية، فرماه بسبع حصيات حتّى ساخ في الأرض، ثمّ عرض له عند الجمرة الثالثة، فرماه بسبع حصيات حتّى ساخ في الأرض، قال ابن عبّاس: الشيطان ترجمون، وملّةَ أبيكم إبراهيم تتّبعون![(٢)]

[٣٣٤٤/٢] وأخرج الجندي عن مجاهد قال: قال الله لإبراهيم عليه السلام: قم فابن لي بيتاً. قال: أي ربّ أين؟ قال: سأخبرك. فبعث الله إليه سحابةً لها رأس فقالت: يا إبراهيم إنّ ربّك يأمرك أن تخطّ قدر هذه السحابة! قال: فجعل إبراهيم ينظر إلى السحابة ويخطّ. فقالت: قد فعلت؟ قال: نعم. فارتفعت السحابة. فحفر إبراهيم فأبرز عن أساس نابت من الأرض فبنى إبراهيم، فلمّا فرغ قال: أي ربّ قد فعلتُ، فأَرِنا مناسكنا. فبعث الله إليه جبريل يحجّ به، حتّى إذا جاء يوم النحر عرض له إبليس فقال له جبريل: احصب، فحصب بسبع حصيات، ثمّ الغد، ثمّ اليوم الثالث فالرابع، ثمّ قال: أعل ثبيراً[(٣)]. فعلا ثبيراً فقال: أي عباد الله أجيبوا، أي عباد الله أطيعوا الله. فسمع دعوته ما بين الأبحر ممّن في قلبه مثقال ذرّة من الإيمان، قالوا: لبّيك اللّهمّ لبّيك، أطعناك اللّهمّ أطعناك، وهي الّتي أتى الله إبراهيم في المناسك: لبّيك اللّهمّ لبّيك، ولم يزل على الأرض سبعة مسلمون فصاعداً، لولا ذلك هلكت الأرض ومن عليها[(٤)].

---

(١) الدرّ ١: ٣٣٣ ـ ٣٣٤؛ مسند الطيالسي: ٣٥١ ـ ٣٥٢ / ٢٦٩٧؛ مسند أحمد ١: ٢٩٧ ـ ٢٩٨؛ ابن أبي حاتم ١: ٢٣٤ ـ ٢٣٥ / ١٢٥٠؛ الشعب ٣: ٤٦٥، ضمن الحديث ٤٠٧٧. مجمع الزوائد ٣: ٢٥٩، باب رمي الجمار، قال الهيثمي: رواه أحمد والطبراني في الكبير ورجاله ثقات.

(٢) الدرّ ١: ٣٣٣؛ صحيح ابن خزيمة ٤: ٣١٥ ـ ٣١٦، وفيه: عن ابن عبّاس: جاء جبريل إلى رسول الله صلى الله عليه وآله فذهب به ليريه المناسك....، الكبير ١١: ٣٦٠ ـ ٣٦١ / ٤٠٧٨، بخلاف في اللفظ، وفيه: عن ابن عبّاس أنّ جبريل عليه السلام ذهب بالنبيّ صلى الله عليه وآله إلى الجمرة...؛ الحاكم ١: ٤٦٦، كتاب المناسك؛ الشعب ٣: ٤٦٦، ذيل الحديث ٤٠٧٧، باب في المناسك، فضل الوقوف بعرفات؛ كنزالعمّال ٥: ٨١ / ١٢١٤٤. (٣) جبل معروف بمكّة.

(٤) الدرّ ١: ٣٣٣.

[٣٣٤٣/٢] وأخرج مسلم عن عبدالله بن الزبير قال: حدّثتني خالتي (عائشة) قالت: قال النبيّ ﷺ: «يا عائشة لولا أنّ قومك حديثو عهد بشرك لهدّمتُ الكعبة فألزقتها بالأرض وجعلت لها بابين باباً شرقيًّا وباباً غربيًّا وزدت فيها ستّة أذرع من الحجر فإنّ قريشاً اقتصرتها حيث بنت الكعبة»(١).

قلت: حديث غريب جدّاً

[٣٣٤٤/٢] وأخرج مالك والشافعي والبخاري ومسلم والنسائي عن عائشة: أنّ رسول الله ﷺ قال: «ألم تر إلى قومك حين بنوا الكعبة أقصروا عن قواعد إبراهيم؟ فقلت: يا رسول الله ألا تردّها على قواعد إبراهيم؟ قال: لولا حِدثان قومك بالكفر! فقال ابن عمر: ما أرى رسول الله ﷺ ترك استلام الركنين اللّذين يليان الحجر إلّا أنّ البيت لم يتمّم على قواعد إبراهيم»(٢).

[٣٣٤٥/٢] وأخرج مسلم عن عائشة قالت: سألت رسول الله ﷺ عن الجَدْر(٣) أمن البيت هو؟ قال: «نعم» قلت: فلم لم يدخلوه [في البيت]؟ قال: «إنّ قومك قَصرت بهم النفقة». قلت: فما شأن بابه مرتفعاً؟ قال: «فعل ذلك قومك ليدخلوا من شاؤوا ويمنعوا من شاؤوا. ولولا أنّ قومك حديثٌ عهدُهم في الجاهليّة فأخاف أن تُنكر قلوبهم لنظرتُ أن أُدخل الجَدْر في البيت وأن أُلزِق بابه بالأرض»(٤).

[٣٣٤٦/٢] وأخرج الأزرقي عن ابن إسحاق قال: بنى إبراهيم ﷺ البيت وجعل طوله في السماء تسعة أذرع، وعرضه في الأرض اثنين وثلاثين ذراعاً، من الركن الأسود إلى الركن الشامي الّذي عند الحجر من وجهه، وجعل عرض ما بين الركن الشامي إلى الركن الغربي الّذي فيه الحجر اثنين

---

(١) مسلم ٤: ٩٨؛ القرطبي ٢: ١٢٤؛ ابن كثير ١: ١٨٥.

(٢) الدرّ ١: ٣٣٠؛ كتاب الأمّ ٢: ١٩٢، باب كمال الطواف؛ كتاب المسند للشافعي: ١٢٩؛ البخاري ٢: ١٥٦، كتاب الحجّ، باب ٤٢ و ٤: ١١٨، كتاب الأنبياء، باب ١٠، و ٥: ١٥٠، كتاب التفسير، باب ١٠، سورة البقرة؛ مسلم ٤: ٩٧، كتاب الحجّ، باب نقض الكعبة وبناءها؛ النسائي ٢: ٣٩١ / ٣٨٨٣، باب بناء الكعبة؛ مسند أحمد ٦: ١١٣؛ ابن كثير ١: ١٨٥.

(٣) الجَدْر: المسنّاة وهو ماارتفع حول المزرعة. وهنا يريد به الحِجْر، لما فيه من أُصول حائط البيت كما قيل. ابن الأثير، النهاية ١: ٢٤٦.

(٤) مسلم ٤: ١٠٠، كتاب الحجّ، باب جدر الكعبة وبابها؛ ابن ماجة ٢: ٩٨٥ / ٢٩٥٥، باب ٣١؛ القرطبي ٢: ١٢٣ـ ١٢٤.

وعشرين ذراعاً، وجعل طول ظهرها من الركن الغربي إلى الركن اليماني أحداً وثلاثين ذراعاً، وجعل عرض شقّها اليماني من الركن الأسود إلى الركن اليماني عشرين ذراعاً. قال: فلذلك سمّيت الكعبة لأنّها على خلقة الكعب.

قال: وكذلك بنيان أساس آدم، وجعل بابها بالأرض غير مبوَّب حتّى كان تبّع بن أسعد الحِميريّ، وهو الّذي جعل لها باباً وجعل لها غلَقاً فارسيّاً، وكساها كسوة تامّة، ونحر عندها، وجعل إبراهيم الحِجْر إلى جنب البيت عريشاً من أراك تقتحمه العنز، فكان زرباً لغنم إسماعيل، وحفر إبراهيم جبّاً[1] في بطن البيت على يمين من دخله، يكون خزانةً للبيت يلقى فيه ما يُهدى للكعبة، وكان الله استودع الركن أبا قبيس حين أُغرق الله الأرض زمن نوح، وقال: إذا رأيت خليلي يبني بيتي، فأخرجه له، فجاء به جبريل فوضعه في مكانه وبنى عليه إبراهيم، وهو حينئذ يتلألأ نوراً من شدّة بياضه، وكان نوره يضيء إلى منتهى أنصاب الحرم من كلّ ناحية. قال: وإنّما شدّة سواده لأنّه أصابه الحريق مرّةً بعد مرّةٍ في الجاهليّة والإسلام![2]

* * *

[٣٣٤٩/٢] وأخرج عبدبن حميد عن ابن عبّاس قال: كان البيت على أربعة أركان في الماء قبل أن يخلق السماوات والأرض، فدُحيت الأرض من تحته[3].

[٣٣٥٠/٢] وأخرج ابن جرير وأبو الشيخ في العظمة عن ابن عبّاس قال: وضع البيت على أركان الماء على أربعة أركان قبل أن تخلق الدنيا بألفي عام، ثمّ دحيت الأرض من تحت البيت[4].

[٣٣٥١/٢] وأخرج ابن جرير عن مجاهد، قال: كان موضع البيت على الماء قبل أن يخلق الله السماوات والأرض، مثل الزبدة البيضاء، ومن تحته دُحيت الأرض[5].

[٣٣٥٢/٢] وأخرج أبوالوليد الأزرقي في تاريخ مكّة عن سعيد بن المسيَّب قال: قال كعب الأحبار: كانت الكعبة غثاء على الماء قبل أن يخلق الله السماوات والأرض بأربعين سنة، ومنها

(١) الجبّ: الحفرة.
(٢) الدرّ ١: ٣٢٩ ـ ٣٣٠.
(٣) المصدر: ٣١٠.
(٤) الدرّ ١: ٣٠٨؛ الطبري ١: ٧٦١ / ١٦٨٥؛ العظمة ٤: ١٣٨١ / ٨٩٨؛ القرطبي ٢: ١٢٠؛ ابن كثير ١: ١٨٤.
(٥) الطبري ١: ٧٦١ / ١٦٨٣.

دحيت الأرض(١).

[٣٣٥٣/٢] وأخرج عبدالرزّاق والأزرقي في تاريخ مكّة والجندي عن مجاهد قال: خلق الله موضع البيت الحرام من قبل أن يخلق شيئاً من الأرض بألفي سنة، وأركانه في الأرض السابعة(٢).

[٣٣٥٤/٢] وأخرج ابن جرير عن ابن جريج، قال: قال عطاء وعمرو بن دينار: بعث الله رياحاً فصفَّقت(٣) الماء، فأبرزت في موضع البيت عن حَشَفَةٍ(٤) كأنّها القبّة، فهذا البيت منها فلذلك هي أمّ القرى. قال ابن جُريج: قال عطاء: ثمّ وَتَدَها بالجبال كي لا تُكفأ بمَيْدٍ(٥). فكان أوَّلَ جبل «أبو قبيس»(٦).

[٣٣٥٥/٢] وأخرج الأزرقي عن ابن عبّاس قال: لمّا كان العرش على الماء قبل أن يخلق الله السماوات والأرض، بعث الله تعالى ريحاً هفّافة فصفّقت الريحُ الماءَ، فأبرزت عن حشفة في موضع البيت كأنّها قبّة، فدحا الله تعالى الأرض من تحتها، فمادت ثمّ مادت فأوتدها الله بالجبال، فكان أوَّلَ جبل وضع فيها أبو قبيس، فلذلك سمّيت أمّ القرى(٧).

[٣٣٥٦/٢] وأخرج أحمد وعبد بن حميد والبخاري وابن جرير وابن أبي حاتم والجندي وابن مردويه والحاكم والبيهقي في الدلائل عن سعيد بن جبير، أنّه قال: سلوني يا معشر الشباب، فإنّي قد أوشكتُ أن أذهب من بين أظهركم؛ فأكثر الناسُ مسألته. فقال له رجل: أصلحك الله أرايت المقام أهو كما نتحدّث؟ قال: وماذا كنت تتحدّث؟ قال: كنّا نقول: إنّ إبراهيم حين جاء عرضت عليه امرأة إسماعيل النزول فأبى أن ينزل، فجاءت بهذا الحَجَر! فقال: ليس كذلك. فقال سعيد بن جبير: قال ابن عبّاس: إنّ أوّل من اتّخذ المناطق من النساء أمّ إسماعيل، اتّخذت منطقا لتعفّي أثرها على سارة، ثمّ جاء بها إبراهيم وبابنها إسماعيل وهي ترضعه حتّى وضعها عند البيت عند دوحة

---

(١) الدرّ ١: ٣١٠؛ الطبري ١: ٧٦٢ / ١٦٨٩؛ ابن أبي حاتم ١: ٢٣٢ / ١٢٣٥؛ ابن كثير ١: ١٨٤.

(٢) الدرّ ١: ٣٠٨؛ المصنّف ٥: ٩٤ ـ ٩٥ / ٩٠٩٧؛ الطبري ١: ٧٦٢ / ١٦٨٨؛ ابن أبي حاتم ١: ٢٣١ / ١٢٣٠؛ ابن كثير ١: ١٨٥.

(٣) صفّقت الريح الماء: ضربته وقلبته يميناً وشمالاً.

(٤) الحشفة: صخرة رخوة في سهل الأرض، ويقال للجزيرة في البحر لا يعلوها الماء: حشفة، وجمعها حِشَاف.

(٥) تُكفأ: تُقلب. والميد: من ماد يميد مَيداً: إذا تحرّك ومال.

(٦) الطبري ١: ٧٦١ / ١٦٨٤.

(٧) الدرّ ١: ٣١٠.

فوق زمزم في أعلى المسجد، وليس بمكّة يومئذ أحد وليس بها ماء، فوضعهما هنالك ووضع عندهما جراباً فيه تمر وسقاء فيه ماء، ثمّ قفّى إبراهيم منطلقاً فتبعته أمّ إسماعيل فقالت: يا إبراهيم أين تذهب وتتركنا بهذا الوادي الّذي ليس فيه إنس ولا شيء؟ قالت له ذلك مراراً وجعل لا يلتفت إليهما. قالت له: آلله أمرك بهذا؟ قال: نعم. قالت: إذاً لا يضيّعنا، ثمّ رجعت. فانطلق إبراهيم حتّى إذا كان عند الثنيّة حيث لايرونه، استقبل بوجهه البيت ثمّ دعا بهؤلاء الدعوات ورفع يديه قال: ﴿رَّبَّنَآ إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْـئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَ ارْزُقْهُم مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾[1].

وجعلت أمّ إسماعيل تُرضع إسماعيل وتشرب من ذلك الماء، حتّى إذا نفد ما في السقاء عطشت وعطش ابنها، وجعلت تنظر إليه يتلوّى أو قال: يتلبّط. فانطلقت كراهيّة أن تنظر إليه، فوجدت الصفا أقرب جبل في الأرض يليها، فقامت عليه ثمّ استقبلت الوادي تنظر هل ترى أحداً فلم تر أحداً، فهبطت من الصفا حتّى إذا بلغت الوادي رفعت طرف درعها، ثمّ سعت سعي الإنسان المجهود حتّى جاوزت الوادي، ثمّ أتت المروة فقامت عليها ونظرت هل ترى أحداً فلم تر أحداً، ففعلت ذلك سبع مرّات. قال ابن عبّاس: قال النبيّ ﷺ: «فلذلك سعى الناس بينهما».

فلمّا أشرفت على المروة سمعت صوتاً فقالت: صه، تريد نفسها، ثمّ تسمّعت فسمعت صوتاً أيضاً فقالت: قد أسمعت إن كان عندك غواث، فإذا هي بالملك عند موضع زمزم، فَنَجَث[2] بعقبه ـ أو قال بجناحه ـ حتّى ظهر الماء، فجعلت تخوضه بيدها وتغرف من الماء في سقائها وهي تفور بعد ما تغرف. قال ابن عبّاس: قال النبيّ ﷺ: «يرحم الله أمّ إسماعيل لو تركت زمزم ـ أو قال ـ: لو لم تغرف من الماء لكانت زمزم عيناً معيناً». فشربت وأرضعت ولدها.

فقال لها الملك: لا تخافي الضيعة فإنّ هاهنا بيتاً لله ـ عزّ وجلّ ـ يبنيه هذا الغلام وأبوه، وإنّ الله لايضيع أهله، وكان البيت مرتفعاً من الأرض كالرابية تأتيه السيول فتأخذ عن يمينه وعن شماله، فكانت كذلك حتّى مرّت بهم رفقة من جرهم أو أهل بيت من جرهم مقبلين من طريق كداء، فنزلوا في أسفل مكّة فرأوا طائراً عائفاً[3] فقالوا: إنّ هذا الطائر ليدور على الماء، لعهدنا بهذا الوادي وما

(١) إبراهيم ١٤: ٣٧.

(٢) نجث عن الأمر بحث عنه. نجث الشيء: استخرجه.

(٣) عاف الطير: حام على الشيء أو الماء أو الجيف، يريد الوقوع عليه.

فيه ماء! فأرسلوا جريّاً أو جريّين[١] فإذا هم بالماء، فرجعوا فأخبروهم بالماء فأقبلوا. قال: وأمّ إسماعيل عند الماء! فقالوا: أتأذنين لنا أن ننزل عندك؟ قالت: نعم، ولكن لا حقّ لكم في الماء، قالوا: نعم. قال ابن عبّاس قال النبيّ ﷺ: «فألفى ذلك أمَّ إسماعيل وهي تحبّ الأنس»[٢].

فنزلوا وأرسلوا إلى أهليهم فنزلوا معهم حتّى إذا كان بها أهلُ أبياتٍ منهم، وشبّ الغلامُ وتعلّم العربيّة منهم وأنفسهم وأعجبهم حين شبّ، فلمّا أدرك زوّجوه امرأة منهم وماتت أمّ إسماعيل، فجاء إبراهيم بعد ما تزوّج إسماعيل يطالع تركته فلم يجد إسماعيل، فسأل زوجته عنه! فقالت: خرج يبتغي لنا. ثمّ سألها عن عيشهم وهيئتهم؟ فقالت: نحن بشرٍّ نحن في ضيق وشدّة وشكت إليه. قال: إذا جاء زوجك فاقرئي عليه السلام وقولي له: يغيّر عتبة بابه!

فلمّا جاء إسماعيل كأنّه آنس شيئاً! فقال: هل جاءكم من أحد؟ قالت: نعم، جاءنا شيخ كذا وكذا، فسألني عنك فأخبرته، وسألني كيف عيشنا؟ فأخبرته أنّا في جهد وشدّة. قال: فهل أوصاكِ بشيء؟ قالت: نعم، أمرني أن أقرأ عليك السلام، ويقول: غيِّر عتبة بابك! قال: ذاك أبي وأمرني أن أُفارقك فالحقي بأهلك، فطلّقها وتزوّج منهم أُخرى، فلبث عنهم إبراهيم ما شاء الله، ثمّ أتاهم بعد ذلك فلم يجده، فدخل على امرأته فسألها عنه فقالت: خرج يبتغي لنا. قال: كيف أنتم؟ وسألها عن عيشهم وهيئتهم فقالت: نحن بخيرٍ وسعةٍ وأثنت على الله! فقال: ما طعامكم؟ قالت: اللحم. قال: فما شرابكم؟ قالت: الماء. قال: اللّهمّ بارك لهم في اللحم والماء. قال النبيّ ﷺ: «ولم يكن لهم يومئذ حَبٌّ، ولو كان لهم حَبٌّ لدعا لهم فيه». قال: فهما لا يخلو عليهما أحد بغير مكّة إلّا لم يوافقاه[٣]. قال: فإذا جاء زوجك فاقرئي عليه السلام ومريه يثبّت عتبة بابه!

فلمّا جاء إسماعيل قال: هل أتاكم من أحد؟ قالت: نعم، أتانا شيخ حسن الهيئة وأثنت عليه، فسألني عنك فأخبرته، وسألني كيف عيشنا؟ فأخبرته أنّا بخير. قال: أما أوصاك بشيء؟ قالت: نعم، هو يقرأ عليك السلام ويأمرك أن تثبّت عتبة بابك، قال: ذاك أبي وأنتِ العتبة فأمرني أن أمسكك!

ثمّ لبث عنهم ما شاء الله، ثمّ جاء بعد ذلك وإسماعيل يبري نبلاً تحت دوحة قريباً من زمزم،

---

(١) الجريّ: الرسول، المستخبر.

(٢) أي وجد هؤلاء أمَّ إسماعيل. (فتح الباري ابن حجر ٦: ٢٨٦).

(٣) أي لم يتذوّقهما بغير مكّة إلّا آذاه ولم يوافقاه. أي اشتكى بطنه. (الفتح ٦: ٢٨٨).

فلمّا رآه قام إليه فصنعا كما يصنع الولد بالوالد والوالد بالولد، ثمّ قال: يا إسماعيل إنّ الله أمرني بأمر. قال: فاصنع ما أمرك. قال: وتعينني؟ قال: وأعينك! قال: فإنّ الله أمرني أن أبني هاهنا بيتاً، وأشار إلى أكمةٍ مرتفعة على ما حولها قال: فعند ذلك رفع القواعد من البيت، فجعل إسماعيل يأتي بالحجارة وإبراهيم يبني، حتّى إذا ارتفع البناء جاء بهذا الحَجَر فوضعه له، فقام عليه وهو يبني وإسماعيل يناوله الحجارة وهما يقولان: ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾.

قال معمر: وسمعت رجلاً يقول: كان إبراهيم يأتيهم على البراق. قال معمر: وسمعت رجلاً يذكر أنّهما حين التقيا بكيا حتّى أجابتهما الطير(١).

[٣٣٥٧/٢] وأخرج ابن سعد عن أبي جهم بن حذيفة بن غانم قال: أوحى الله ـ عزّ وجلّ ـ إلى إبراهيم يأمره بالمسير إلى بلده الحرام، فركب إبراهيم البُراق وجعل إسماعيل أمامه وهو ابن سنتين وهاجر خلفه، ومعه جبريل يدلّه على موضع البيت حتّى قدم به مكّة، فأنزل إسماعيل وأُمّه إلى جانب البيت، ثمّ انصرف إبراهيم إلى الشام. ثمّ أوحى الله إلى إبراهيم أن يبني البيت، وهو يومئذ ابن مائة سنة وإسماعيل يومئذ ابن ثلاثين سنة فبناه معه، وتوفّي إسماعيل بعد أبيه فدفن داخل الحِجْر ممّا يلي الكعبة مع أمّه هاجر، وولي ثابت بن إسماعيل البيت بعد أبيه مع أخواله جرهم(٢).

[٣٣٥٨/٢] وأخرج الديلمي عن عليّ عن النبيّ ﷺ في قوله: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ﴾ الآية: قال: «جاءت سحابة على تربيع البيت لها رأس تتكلّم: ارتفاع البيت على تربيعي! فرفعاه على تربيعها»(٣).

[٣٣٥٩/٢] وقال مقاتل بن سليمان: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ﴾ يعني أساس البيت الحرام الّذي كان رفع أيّام الطوفان على عهد نوح فبناه إبراهيم وإسماعيل على ذلك الأصل وأعانهم الله ـ عزّ وجلّ ـ بسبعة أملاك على البناء. ملك إبراهيم. وملك إسماعيل. وملك هاجر.

---

(١) الدرّ ١: ٣٠٤ ـ ٣٠٦؛ مسند أحمد ١: ٣٤٧، إلى قوله: «سبع مرّات»؛ البخاري ٤: ١١٣ ـ ١١٦، كتاب الأنبياء؛ الطبري ٨: ٣٠٠ ـ ٣٠٢ / ١٥٧٦١، سورة إبراهيم، الآية ٣٧؛ الدلائل ٢: ٤٦ ـ ٥٢؛ النسائي ٥: ١٠١ / ٨٣٧٩؛ المصنّف، لعبد الرزّاق ٥: ١٠٥ ـ ١١١ / ٩١٠٧؛ فضائل الصحابة لأحمد بن حنبل: ٨٢ ـ ٨٤؛ ابن كثير ١: ١٨١ ـ ١٨٢.

(٢) الدرّ ١: ٣٠٦ ـ ٣٠٧؛ الطبقات ١: ٥٠ و ٥٢.

(٣) الدرّ ١: ٣٠٧؛ الفردوس بمأثور الخطاب ٤: ٤٠٣ / ٧١٧١؛ كنزالعمّال ٢: ٣٥٨ / ٤٢٣٦.

والملك الموكّل بالبيت. وملك الشمس. وملك القمر. وملك آخر. فلمّا فرغا من بناء البيت قالا: ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ﴾ يعني بناء هذا البيت الحرام ﴿إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ لدعائهما ربّنا تقبّل منّا[١].

[٢/٣٣٦٠] وأخرج ابن جرير عن السدّي في قوله: ﴿وَ عَهِدْنَآ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَ إِسماعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّآئِفِينَ وَ الْعاكِفِينَ﴾ قال: فانطلق إبراهيم حتّى أتى مكّة، فقام هو وإسماعيل وأخذا المعاول لا يدريان أين البيت، فبعث الله ريحاً يقال لها ريح الخَجُوج[٢]، لها جناحان ورأس في صورة حيّة. فكنست لهما ما حول الكعبة، وعن أساس البيت الأوّل، واتّبعاها بالمعاول يحفران حتّى وضعا الأساس؛ فذلك حين يقول: ﴿وَ إِذ بَوَّأْنَا لإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ﴾[٣] فلمّا بنيا القواعد فبلغا مكان الركن قال إبراهيم لإسماعيل: يا بنيّ اطلب لي حَجَراً حسناً أضعه هاهنا! قال: يا أبت إنّي كسلان تعب! قال: عليّ بذلك! فانطلق فطلب له حجراً فجاءه بحجر، فلم يرضه، فقال: ائتني بحجر أحسن من هذا! فانطلق يطلب له حجراً؛ وجاءه جبريل بالحجر الأسود من الهند، وكان أبيض ياقوتة بيضاء مثل الثَّغامة[٤]، وكان آدم هبط به من الجنّة فاسودّ من خطايا الناس، فجاءه إسماعيل بحجر فوجده عند الركن، فقال: يا أبت من جاء بهذا؟ فقال: من هو أنشط منك. فبنياه[٥].

[٢/٣٣٦١] وأخرج الثعلبي قال: سمعت أبا القاسم الحسن بن محمّد بن حبيب يقول: سمعت أبابكر محمّد بن محمّد بن أحمد القطان البلخي وكان عالماً بالقرآن يقول: كان إبراهيم يتكلّم بالسُّريانيّة، وإسماعيل يتكلّم بالعربيّة، وكلّ واحد منهما يعرف ما يقول صاحبه ولا يمكنه التفوّه به، فكان إبراهيم يقول لإسماعيل: هل لي كثيباً ـ يعني ناولني حجراً ـ ويقول له إسماعيل: هاك الحجر فخذه. قال: فبقي موضع حجرٍ فذهب إسماعيل يبغيه، فجاء جبريل بحجر من السماء، فأتى إسماعيل وقد ركّب إبراهيم الحجر في موضعه فقال: يا أبت من أتاك بهذا في موضعه؟! قال: أتاني

---

(١) تفسير مقاتل ١: ١٣٨.

(٢) الريح الخجوج: الشديدة المَرّ الّتي تلتوي في هبوبها وتشقّ شقّاً بشدّة عصفها.

(٣) الحج ٢٢: ٢٦.

(٤) الثَّغَام: شجرة بيضاء الثمر والزهر تنبت في قُنَّة الجبل، وإذا يبست اشتدّ بياضها. واحدتها ثَغَامة.

(٥) الطبري ١: ٧٦٤ / ١٦٩٢؛ ابن أبي حاتم ١: ٢٣٢ ـ ٢٣٣ / ١٢٣٧، وزاد: «وهما يدعوان الكلمات الّتي ابتلى إبراهيم ربّه فقال: ﴿ربّنا تقبل منّا....﴾»؛ ابن كثير ١: ١٨٤.

به من لم يتّكل على بنائك، فأتمّا البيت. فذلك قوله ﷻ: ﴿وَ إِذ يَرْفَعُ إِبْراهِيمُ الْقَواعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَ إِسماعِيلُ﴾[1].

[٣٣٦٢/٢] وأخرج الأزرقي عن ليث بن معاذ قال: قال رسول الله ﷺ: «هذا البيت خامس خمسة عشر بيتاً، سبعة منها في السماء وسبعة منها إلى تخوم الأرض السفلى، وأعلاها الّذي يلي العرشَ، البيتُ المعمور، لكلّ بيت منها حرم كحرم هذا البيت، لو سقط منها بيت لسقط بعضها على بعض إلى تخوم الأرض السفلى، ولكلّ بيت من أهل السماء ومن أهل الأرض من يَعْمُرُه كما يُعْمَر هذا البيت»[2].

* * *

[٣٣٦٣/٢] أخرج الأزرقي عن يوسف بن ماهك قال: إنّ الله جعل الركن عيد أهل هذه القبلة كما كانت المائدة عيداً لبني إسرائيل، وإنّكم لن تزالوا بخير ما دام بين ظهرانيّكم، وإنّ جبريل عليه السلام وضعه في مكانه[3].

[٣٣٦٤/٢] وأخرج الأزرقي عن عبدالله بن عمرو أنّ جبريل هو الّذي نزل بالحجر من الجنّة، وأنّه وضعه حيث رأيتم، وإنّكم لا تزالون بخير مادام بين ظهرانيّكم، فتمسّكوا به ما استطعتم فإنّه يوشك أن يجيء فيرجع به إلى حيث جاء به[4].

[٣٣٦٥/٢] وأخرج الأزرقي عن عثمان بن ساج قال: بلغني أنّ النبيّ ﷺ قال: «أوّل ما يُرفع الركن والقرآن ورؤيا النبيّ في المنام»[5].

[٣٣٦٦/٢] وأخرج الجندي عن ابن عبّاس قال: الحجر الأسود يمين الله في الأرض، فمن لم يدرك بيعة رسول الله ﷺ فاستلم الحجر فقد بايع الله ورسوله[6].

[٣٣٦٧/٢] وأخرج الأزرقي عن ابن عبّاس قال: الركن يمين الله في الأرض يصافح بها خلقه، والّذي نفسي بيده ما من امرئ مسلم يسأل الله عنده شيئاً إلّا أعطاه إيّاه[7].

---

(١) الدرّ ١: ٣٠٩؛ الثعلبي ١: ٢٧٤.
(٢) الدرّ ١: ٣١١.
(٣) المصدر: ٣٢٤.
(٤) المصدر: ٣٢٣.
(٥) الدرّ ١: ٣٢٥؛ كنزالعمّال ١٤: ٢١١ / ٣٨٤٣١.
(٦) الدرّ ١: ٣٢٤.
(٧) المصدر: ٣٢٦ـ٣٢٧.

[٣٣٦٨/٢] وأخرج ابن ماجة عن عطاء بن أبي رباح أنّه سُئل عن الركن الأسود فقال: حدّثني أبو هريرة أنّه سمع رسول الله ﷺ يقول: «من فاوضه فإنّما يفاوض يد الرحمان»(١).

* * *

وهناك أحاديث معزوّة إلى أئمّة أهل البيت ﷺ ذات أسانيد ضعيفة، قد تشبه أحاديث سلفت، في ظاهر مشكل ولعلّ لها تأويلاً زُوي عنّا، والله العالم!

[٣٣٦٩/٢] من ذلك ما رواه العيّاشي: أنّ أُمّة محمّد هم بنو هاشم. حيث قول إبراهيم: ﴿وَ اجْنُبْنِي وَ بَنِيَّ أن نَّعْبُدَ الْأَصْنَامَ﴾(٢).

[٣٣٧٠/٢] وما رواه عليّ بن إبراهيم: أنّ الله أمر إبراهيم أن يبني البيت في موضع القبّة الّتي نزلت على آدم، ثمّ ارتفعت أيّام نوح(٣).

[٣٣٧١/٢] وما رواه الكليني: أنّ الأمّة في دعاء إبراهيم، هم ذرّيّة إبراهيم وإسماعيل من سكنة الحرم ممّن لم يعبدوا غير الله(٤).

[٣٣٧٢/٢] وما رواه أيضاً: أنّ آدم وحوّاء لمّا أُهبطا إلى الأرض ضربت لهما خيمة في موضع البيت. ثمّ نُحّيا منه وأوحى الله إلى جبرئيل أن يرفع قواعد البيت، بحجر من الصفا وحجر من المروة وحجر من طور سيناء وحجر من ظهر الكوفة وأتمّ بناءها من حجارة أبي قبيس، وجعل لها بابين، فجعلت الملائكة تطوف بها. فلمّا نظر آدم وحوّاء إلى طواف الملائكة قاما فطافا حولها سبعة أشواط، ثمّ خرجا يطلبان الكلأ(٥).

[٣٣٧٣/٢] وما رواه: أنّ الله أمر إبراهيم أن يحجّ ويحجّ بإسماعيل ويسكنه الحرم. وكانت العرب تحجّ البيت وكانت قواعده ردماً، فجمع إسماعيل الصخور وكوّمها في جوف الكعبة. فلمّا أُمر ببناء البيت كشف عن الصخور وإذا هي صخرة حمراء، فجعلا بناء البيت عليها، وأنزل الله أربعة أملاك

---

(١) الدرّ ١: ٣٢٧؛ ابن ماجة ٢: ٩٨٥ ـ ٩٨٦ / ٢٩٥٧، باب ٣٢.

(٢) العيّاشي ١: ٧٩ ـ ٨٠ / ١٠١؛ البحار ٢٤: ١٥٤ / ٧. (٣) القمي ١: ٦١ ـ ٦٢؛ البحار ١٢: ٩٧ ـ ١٠٠ / ٦.

(٤) الكافي ٥: ١٣ ـ ١٤ / ١؛ التهذيب ٦: ١٢٧ ـ ١٢٨ / ٢٢٤ / ٣.

(٥) الكافي ٤: ١٩٥ ـ ١٩٧؛ العيّاشي ١: ٥٣ ـ ٥٧ / ٢١؛ البحار ١١: ٢٠٨ ـ ٢٠٩.

يجمعون إليه الحجارة. فكان إبراهيم وإسماعيل يبنيان والملائك تناولهما حتّى تمّت اثني عشر ذراعاً[1].

[٣٣٧٤/٢] وما رواه: أنّ قريشاً لمّا هدموا الكعبة وجدوا في قواعدها صخرة مكتوباً عليها: أنا الله ذو بكّة، حرّمتُها يوم خلقتُ السماوات والأرض، ووضعتها بين هذين الجبلين، وحففتها بسبعة أملاك حفّاً[2].

[٣٣٧٥/٢] وما رواه: أنّ الحجّاج لمّا هدم الكعبة وأراد الناس بناءها خرجت عليهم حيّة منعتهم. فلجأ الحجّاج إلى أعتاب الإمام زين العابدين عليه السلام فأمره أن يسترجع من الناس ما نهبوه من تراب البيت، فليبنوا منه! ففعلوا[3].

[٣٣٧٦/٢] وما رواه: أنّ السكينة ريح تخرج من الجنّة، لها صورة كوجه الإنسان ورائحة طيّبة. وهي الّتي نزلت على إبراهيم، فأقبلت تدور حول البيت وهو يضع الأساطين[4].

[٣٣٧٧/٢] وما رواه: أنّ الكعبة بناها إبراهيم تسعة أذرع. ثمّ بناها ابن الزبير ثمانية عشر ذراعاً. ثمّ بناها الحجّاج سبعة وعشرين ذراعاً[5].

[٣٣٧٨/٢] وأيضاً: كان طول الكعبة يومئذٍ تسعة أذرع، ولم يكن لها سقف فسقّفها قريش ثمانية عشر ذراعاً[6].

[٣٣٧٩/٢] وما رواه: أنّ إبراهيم كان يبني البيت كلّ يوم ساقاً حتّى انتهى إلى موضع الحجر، فناداه أبو قبيس: إبراهيمُ، إنّ لك عندي وديعة، فأعطاه الحجر فوضعه موضعه[7].

[٣٣٨٠/٢] وما رواه: أنّ قريشاً في الجاهليّة هدموا الكعبة، فجعلوا يبنونها بأطيب أموالهم الّتي اكتسبوها. حتّى انتهوا إلى موضع الحجر، فتحاكموا إلى أوّل من يدخل، وإذا برسول الله صلى الله عليه وآله جاءهم وأمر ببسط ثوب فوضع الحجر فيه، ثمّ أمرهم أن يأخذوا بأطراف الثوب، وجاء صلى الله عليه وآله فأخذه ووضعه في موضعه[8].

---

(١) الكافي ٤: ٢٠٢ ـ ٢٠٣؛ البحار ١٢: ٩٤ ـ ٩٥.
(٢) الكافي ٤: ٢٢٥ / ١.
(٣) الكافي ٤: ٢٢٢ / ٨؛ البحار ٩٦: ٥٢ ـ ٥٣.
(٤) الكافي ٣: ٤٧١ ـ ٤٧٢ / ٥؛ البحار ١٢: ١٠٣ / ١٠.
(٥) الكافي ٤: ٢٠٧ / ٧.
(٦) المصدر / ٨.
(٧) المصدر: ٢٠٥ / ٤.
(٨) المصدر: ٢١٧ / ٣.

وروى الطبرسي: أنّ إسماعيل شُقَّ لسانُه بالعربيّة، فكان أبوه إبراهيم يقول له: هابي ابن[١]. أي ناولني حجراً. فيقول له إسماعيل: يا أبة هاك[٢].

وإلى أمثالها من حكايات هي مشكلة المفاد.

قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا وَ ابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ﴾

[٣٣٨١/٢] أخرج أحمد وابن جرير وابن أبي حاتم والحاكم وابن مردويه والبيهقي في الدلائل عن العرباض بن سارية قال: قال رسول الله ﷺ: «إنّي عند الله في أمّ الكتاب لخاتم النبيّين وإنّ آدم لمنجدل في طينته، وسأنبّئكم بتأويل ذلك: أنا دعوة أبي إبراهيم، وبشارة عيسى بي، ورؤيا أمّي الّتي رأت، وكذلك أمّهات النبيّين يَرَيْن»[٣].

[٣٣٨٢/٢] وأخرج أحمد وابن سعد والطبراني وابن مردويه والبيهقي عن أبي أمامة قال: قلت: يا رسول الله ما كان بدء أمرك؟ قال: «دعوة إبراهيم، وبشرى عيسى، ورأت أمّي أنّه يخرج منها نور أضاءت له قصور الشام»[٤].

[٣٣٨٣/٢] وأخرج ابن سعد في طبقاته وابن عساكر من طريق جويبر عن الضحّاك، أنّ النبيّ ﷺ قال: «أنا دعوة إبراهيم. قال وهو يرفع القواعد من البيت: ﴿رَبَّنَا وَ ابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ﴾»[٥].

---

(١) ولعلّه بالسُّريانيّة. كما تقدّم.

(٢) مجمع البيان ١: ٣٨٨.

(٣) الدرّ ١: ٣٣٤؛ مسند أحمد ٤: ١٢٧؛ الطبري ١: ٧٧٣ / ١٧٠٩؛ ابن أبي حاتم ١: ٢٣٦ / ١٢٥٤؛ الحاكم ٢: ٦٠٠، كتاب تواريخ المتقدّمين؛ الدلائل ٢: ٨٣، باب ذكر مولد المصطفى ﷺ؛ الطبقات ١: ١٤٩؛ كنز العمّال ١١: ٤١٨ / ٣١٩٦٠؛ مجمع الزوائد ٨: ٢٢٣، باب قدم نبوّته ﷺ؛ أبو الفتوح ٢: ١٧٢ ـ ١٧٣؛ الثعلبي ١: ٢٧٨؛ البغوي ١: ١٦٨ / ٨٨، وفيه ـ بعد قوله: «رؤيا أمّي الّتي رأت» ـ: «حين وضعتني وقد خرج منها نورٌ أضاءت لها منه قصورُ الشام»؛ ابن كثير ١: ١٨٩.

(٤) الدرّ ١: ٣٣٤؛ مسند أحمد ٥: ٢٦٢؛ الطبقات ١: ١٤٩؛ الكبير ٨: ١٧٥ / ٧٧١٩؛ مجمع الزوائد ٨: ٢٢٢؛ الخصال للصدوق: ١٧٧ / ٢٣٦؛ البحار ١٦: ٣٢١ / ٩، باب ١١.

(٥) الدرّ ١: ٣٣٤؛ الطبقات ١: ١٤٩؛ ابن عساكر ١: ١٧٣؛ ورواه القمّي في تفسيره ١: ٦٢؛ البحار ١٢: ٩٢ / ١، باب ٥.

قوله تعالى: ﴿وَ يُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَ الْحِكْمَةَ﴾

[٣٣٨٤/٢] أخرج ابن أبي حاتم عن محمّد بن إسحاق في قوله: ﴿وَ يُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَ الْحِكْمَةَ﴾ قال: يعلّمهم الخير والشرّ ليعرفوا الخير فيعملوه والشرّ فيتّقوه، ويخبركم برضائه عنكم إذا أطعتموه لتستكثروا من طاعته، وتجتنبوا ماسخط منكم من معصيته(١).

[٣٣٨٥/٢] وأخرج ابن جرير بإسناده عن ابن زيد في قوله: ﴿وَ الْحِكْمَةَ﴾ قال: الحكمة: الدين الّذي لايعرفونه إلّا به ﷺ يعلّمهم إيّاها. قال: والحكمة: العقل في الدين؛ وقرأ: ﴿وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾(٢). وقال لعيسى: ﴿وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ﴾(٣). قال: وقرأ ابن زيد: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانسَلَخَ مِنْهَا﴾(٤). قال: لم ينتفع بالآيات حيث لم تكن معها حكمة. قال: والحكمة شيء يجعله الله في القلب ينوّر له به(٥).

[٣٣٨٦/٢] وأخرج ابن جرير عن ابن وهب إنّه قال: قلت لمالك: ما الحكمة؟ قال: المعرفة بالدين، والفقه في الدين، والاتّباع له(٦).

[٣٣٨٧/٢] وقال مجاهد: والحكمة فهم القرآن(٧).

[٣٣٨٨/٢] وأخرج أبو داوود في مراسيله عن مكحول قال: قال رسول الله ﷺ: «آتاني الله القرآن ومن الحكمة مِثْلَيه»(٨).

---

(١) ابن أبي حاتم ١: ٢٣٧ / ١٢٦١؛ ابن كثير ١: ١٩٠.

(٢) البقرة ٢: ٢٦٩.

(٣) آل عمران ٣: ٤٨.

(٤) الأعراف ٧: ١٧٥.

(٥) الطبري ١: ٧٧٥ / ١٧١٦، وقال الطبري: «والصواب من القول عندنا في الحكمة، أنّها العلم بأحكام الله الّتي لايدرك علمها إلّا ببيان الرسول والمعرفة بها»؛ ابن أبي حاتم ١: ٢٣٧ / ١٢٦٤، عن ابن زيد عن أبيه، بلفظ: «الحكمة: العقل في الدين».

(٦) الطبري ١: ٧٧٥ / ١٧١٥؛ القرطبي ٢: ١٣١، وزاد: وقاله [أيضاً] ابن زيد؛ التبيان ١: ٤٦٧ عن قول أنس بن مالك بلفظ: «المعرفة بالدين والفقه في التأويل»؛ مجمع البيان ١: ٣٩٤، عن مالك بن أنس: بنحو ما في التبيان.

(٧) البغوي ١: ١٦٨؛ الثعلبي ١: ٢٧٦.

(٨) الدرّ ١: ٣٣٥؛ المراسيل: ٣٥٩ / ٥٣٤، باب ١١٣ (في البدع).

قوله تعالى: ﴿ويزكّيهم﴾

[٣٣٨٩/٢] أخرج ابن جرير عن ابن جريج في قوله: ﴿ويزكّيهم﴾ قال: يطهّرهم من الشرك ويخلّصهم منه[١].

[٣٣٩٠/٢] وقال الجبّائي في قوله: ﴿ويزكّيهم﴾: معناه يستدعيهم إلى فعل ما يزكّون به، من الإيمان والصلاح[٢].

قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾

[٣٣٩١/٢] أخرج ابن أبي حاتم عن أبي العالية في قوله: ﴿الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ قال: عزيز في نقمته إذا انتقم، حكيم في أمره[٣].

[٣٣٩٢/٢] وقال ابن كيسان في قوله تعالى: ﴿والعَزِيز﴾: معناه الّذي لا يُعجزه شيء. دليله: ﴿وَ مَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِن شَيْءٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَ لَا فِي الْأَرْضِ﴾[٤][٥].

[٣٣٩٣/٢] وعن ابن عبّاس: ﴿العَزِيز﴾: الّذي لا يوجد مثله. وبيانه: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾[٦][٧].

[٣٣٩٤/٢] وأخرج ابن أبي حاتم: عن محمّد بن إسحاق: ﴿العَزِيز﴾ في نصرته ممّن كفر به إذا شاء ﴿الحكيم﴾ في عذره، وحجّته إلى عباده[٨].

[٣٣٩٥/٢] وقال الكلبي في قوله: ﴿العزيز﴾: المنتقم، قال: بيانه قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ﴾[٩][١٠].

[٣٣٩٦/٢] وقال مقاتل بن سليمان: فلمّا أراه الله المناسك والمشاعر علم أنّ الله ـ عزّ وجلّ ـ

---

(١) الدرّ ١: ٣٣٥؛ الطبري ١: ٧٧٦ / ١٧١٨؛ القرطبي ٢: ١٣١، بلفظ: «أي يطهّرهم من وَضَر الشرك» [الوَضَر: الوسخ]؛ التبيان ١: ٤٦٧؛ مجمع البيان ١: ٣٩٤.

(٢) التبيان ١: ٤٦٧؛ مجمع البيان ١: ٣٩٤.

(٣) الدرّ ١: ٣٣٥؛ ابن أبي حاتم ١: ٢٣٨ / ١٢٦٦ و ١٢٦٨.

(٤) فاطر ٣٥: ٤٤.

(٥) القرطبي ٢: ١٣١؛ الثعلبي ١: ٢٧٧.

(٦) الشورى ٤٢: ١١.

(٧) البغوي ١: ١٦٩؛ الثعلبي ١: ٢٧٧.

(٨) ابن أبي حاتم ١: ٢٣٨ / ١٢٦٧ و ١٢٦٩.

(٩) آل عمران ٣: ٤.

(١٠) الثعلبي ١: ٢٧٧؛ البغوي ١: ١٦٩.

سيجعل في ذرّيّتهما أمّة مسلمة كما سألا ربّهما فقالا عند ذلك: ﴿رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ﴾ يعني في ذرّيّتنا ﴿رَسُولًا مِّنْهُمْ﴾ يعني محمّد ﷺ ﴿يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ﴾ يعني يقرأ عليهم آيات القرآن ﴿وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ﴾ يقول يعلّمهم ما يتلى عليهم من القرآن ثمّ قال: ﴿وَالْحِكْمَةَ﴾ يعني المواعظ الّتي في القرآن من الحلال والحرام ﴿وَيُزَكِّيهِمْ﴾ يعني ويطهّرهم من الشرك والكفر ﴿إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ فاستجاب الله له في سورة الجمعة فقال: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ﴾[١]. إلى آخر الآية[٢].

قوله تعالى: ﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَاهِيمَ﴾

[٣٣٩٧/٢] أخرج ابن أبي حاتم عن أبي العالية في قوله: ﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَاهِيمَ﴾ قال: رغبت اليهود والنصارى عن ملّته، واتّخذوا اليهوديّة والنصرانيّة بدعة ليست من الله، وتركوا ملّة إبراهيم: الإسلام، وبذلك بعث الله نبيّه محمّداً ﷺ بملّة إبراهيم.

وأخرج عبدبن حميد عن قتادة مثله[٣].

[٣٣٩٨/٢] وأخرج سعيدبن سويد عن العرباض بن سارية قال: قال رسول الله ﷺ: «إنّ عبدالله بن سلام دعا ابني أخيه سَلَمة ومهاجراً إلى الإسلام، فقال لهما: قد علمتما أنّ الله ـ عزّ وجلّ ـ قال في التوراة: إنّي باعث من ولد إسماعيل نبيّاً اسمه أحمد، فمن آمن به فقد اهتدى ورشد، ومن لم يؤمن به فهو ملعون؟ فأسلم سَلَمة وأبىٰ مهاجر أن يسلم فأنزل الله تعالى»[٤].

[٣٣٩٩/٢] وأخرج ابن جرير عن ابن زيد في قوله: ﴿إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُ﴾ قال: إلّا من أخطأ حظّه[٥].

[٣٤٠٠/٢] وذكر أبو الفتوح الرازي في قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُ﴾ عن أبي عبيدة: إلّا من

---

(١) الجمعة ٦٢: ٢.
(٢) تفسير مقاتل ١: ١٣٩.
(٣) الدرّ ١: ٣٣٥؛ ابن أبي حاتم ١: ٢٣٨ / ١٢٧٠، عن أبي العالية وقتادة؛ الطبري ١: ٧٧٦ ـ ٧٧٧ / ١٧٢٠، عن الربيع بنحوه، و ١٧١٩، عن قتادة بلفظه.
(٤) الثعلبي ١: ٢٧٨؛ لباب النقول: ١٨ ـ ١٩.
(٥) الدرّ ١: ٣٣٥؛ الطبري ١: ٧٧٧ / ١٧٢١؛ التبيان ١: ٤٦٩.

أهلك نفسه وأوبقَها[1].

[٣٤٠١/٢] وعن أبي مسلم قال: جهل نفسه بما فيها من الآيات الدالّة على أنّ لها صانعاً، ليس كمثله شيء[2].

[٣٤٠٢/٢] وقال ابن عبّاس: خسر نفسه[3].

قوله تعالى: ﴿وَ لَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَ إِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾

[٣٤٠٣/٢] أخرج ابن أبي حاتم عن أبي مالك في قوله: ﴿وَ لَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ﴾ قال: اخترناه[4].

[٣٤٠٤/٢] وعن ابن عبّاس في قوله: ﴿وَ إِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾ قال: معناه لمع الصالحين. أي: مع آبائه الأنبياء في الجنّة[5].

[٣٤٠٥/٢] وقال مقاتل بن سليمان في قوله: ﴿وَ مَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَاهِيمَ﴾: وذلك أنّ عبدالله بن سلام دعا ابني أخيه سلمة ومهاجراً إلى الإسلام فقال لهما: ألستما تعلمان أنّ الله ـ عزّ وجلّ ـ قال لموسى: إنّي باعث نبيّاً من ذرّيّة إسماعيل، يقال له أحمد يحيد بأمّته عن النار، وأنّه ملعون من كذّب بأحمد النبيّ، وملعون من لم يتّبع دينه؟ فأسلم سلمة وأبى مهاجر ورغب عن الإسلام، فأنزل الله ﴿وَ مَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَاهِيمَ﴾ يعني الإسلام ثمّ استثنى: ﴿إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُ﴾ يعني إلّا من خسر نفسه من أهل الكتاب ﴿وَ لَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا﴾ يعني إبراهيم يعني اخترناه بالنبوّة والرسالة في الدنيا ﴿وَ إِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾[6].

قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾

[٣٤٠٦/٢] أخرج ابن أبي حاتم عن الحسن في قوله: ﴿إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ

---

(١) أبو الفتوح ٢: ١٧٤؛ الثعلبي ١: ٢٧٩، بلفظ: «أي أوبق نفسه وأهلكها».

(٢) مجمع البيان ١: ٣٩٦؛ التبيان ١: ٤٧٠؛ البغوي ١: ١٦٩، عن ابن كيسان والزّجاج، بلفظ: «معناه جهل نفسه».

(٣) البغوي ١: ١٦٩؛ أبو الفتوح ٢: ١٧٤؛ الثعلبي ١: ٢٧٩.

(٤) الدرّ ١: ٣٣٥؛ ابن أبي حاتم ١: ٢٣٨ / ١٢٧١.

(٥) مجمع البيان ١: ٣٩٦؛ البغوي ١: ١٦٩؛ الثعلبي ١: ٢٧٩.

(٦) تفسير مقاتل ١: ١٣٩ ـ ١٤٠.

﴿الْعَالَمِينَ﴾ قال: سأله الإسلام فأعطاه إيّاه، وأجاب ربّه فيه خيراً ومعرفة له، قال: أسلمت لربّ العالمين[١].

[٣٤٠٧/٢] وعن ابن كيسان والكلبي: أي أخلص دينك لله بالتوحيد[٢].

[٣٤٠٨/٢] وعن عطاء: أسلم نفسك إلى الله ـ عزّ وجلّ ـ وفوّض أمورك إليه[٣].

[٣٤٠٩/٢] وذكر الطبرسي في قوله: ﴿أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ عن ابن عبّاس: إنّما قال ذلك إبراهيمﷺ حين خرج من السرب[٤][٥].

[٣٤١٠/٢] وذكر البغوي في قوله: ﴿قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ عن ابن عبّاس قال: وقد حقّق ذلك حيث لم يستعن بأحد من الملائكة حين اُلقي في النّار[٦].

[٣٤١١/٢] وقال مقاتل بن سليمان في قوله: ﴿إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ﴾: يقول أخلص ﴿قَالَ أَسْلَمْتُ﴾ يعني أخلصت ﴿لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾[٧].

قوله تعالى: ﴿وَ وَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَ يَعْقُوبُ يَابَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَ أَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾

[٣٤١٢/٢] قال مقاتل بن سليمان: ﴿وَ وَصَّىٰ بِهَآ﴾ يعني بالإخلاص ﴿إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ﴾ الأربعة إسماعيل وإسحاق ومدين ومداين، ثمّ وصّى بها يعقوب بنيه يوسف وإخوته اثني عشر ذكراً بنيه ﴿وَ يَعْقُوبُ يَابَنِيَّ﴾ أي فقال يعقوب لبنيه الاثني عشر ﴿إِنَّ اللَّهَ﴾ ـ عزّ وجلّ ـ ﴿اصْطَفَىٰ﴾ يعني اختار

---

(١) ابن أبي حاتم ١: ٢٣٩ / ١٢٧٤.

(٢) القرطبي ٢: ١٣٤؛ البغوي ١: ١٦٩ عن الكلبي؛ أبو الفتوح ٢: ١٧٧ عنهما؛ الثعلبي ١: ٢٧٩، عن ابن كيسان.

(٣) أبو الفتوح ٢: ١٧٧؛ الثعلبي ١: ٢٧٩؛ البغوي ١: ١٦٩.

(٤) السرب: الحفير تحت الأرض.

(٥) مجمع البيان ١: ٣٩٧؛ البغوي ١: ١٦٩، بلفظ: «﴿إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ﴾: قال له ذلك حين خرج من السرب»؛ أبو الفتوح ٢: ١٧٧.

(٦) البغوي ١: ١٦٩؛ الثعلبي ١: ٢٧٩، بلفظ: «إنّما قال له ذلك حين اُلقي في النّار».

(٧) تفسير مقاتل ١: ١٤٠.

﴿لَكُمُ الدِّينَ﴾ يعني دين الإسلام ﴿فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَ أَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ يعني مخلصون بالتوحيد[١].

[٣٤١٣/٢] وقال الكلبي ومقاتل في قوله: ﴿وَ وَصَّىٰ بِهَآ﴾: يعني كلمة الإخلاص: لا إلـه إلّا الله[٢].

[٣٤١٤/٢] وأخرج الثعلبي عن فضيل بن عياض في قوله ﴿فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَ أَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ أي محسنون بربّكم الظنّ[٣].

[٣٤١٥/٢] وعن جابر بن عبدالله قال: سمعت رسول الله ﷺ قبل موته بثلاثة أيّام، يقول: «لا يموتنّ أحدكم إلّا وهو يُحسن الظّنّ بالله ﷻ»[٤].

[٣٤١٦/٢] وأخرج ابن أبي حاتم عن طاووس في قوله: ﴿فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَ أَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ على الإسلام وعلى ذمّة الإسلام[٥].

قوله تعالى: ﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِن بَعْدِي﴾

[٣٤١٧/٢] أخرج ابن أبي حاتم عن أبي العالية في قوله: ﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ﴾ يعني أهل مكّة. وقيل أهل الكتاب[٦].

[٣٤١٨/٢] وقال عطاء: إنّ الله تعالى لم يقبض نبيّاً حتّى يخيّره بين الحياة والموت، فلمّا خيّر يعقوب قال: يا ربّ أنظرني حتّى أسأل ولدي وأوصيهم، ففعل. فجمع ولده وولد ولده وقال لهم: قد حضر أجلي فما تعبدون من بعدي؟ ﴿قَالُوا نَعْبُدُ إِلَـٰهَكَ وَ إِلَـٰهَ آبَآئِكَ إِبْرَاهِيمَ وَ إِسْمَاعِيلَ وَ إِسْحَاقَ﴾، وكان إسماعيل عمّاً لهم، والعرب تسمّي العمّ أباً كما تسمّي الخالة أمّاً[٧].

[٣٤١٩/٢] وأخرج ابن أبي حاتم عن الحسن في قوله: ﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ﴾

---

(١) المصدر.

(٢) البغوي ١: ١٧٠؛ أبو الفتوح ٢: ١٧٧، عن ابن عبّاس؛ الثعلبي ١: ٢٨٠.

(٣) الدرّ ١: ٣٣٦؛ الثعلبي ١: ٢٨١؛ البغوي ١: ١٧٠.

(٤) البغوي ١: ١٧٠؛ مسلم ٨: ١٦٥، كتاب الجنّة وصفة نعيمها وأهلها، باب الأمر بحسن الظنّ بالله تعالى عند الموت؛ مسند أحمد ٣: ٢٩٣.

(٥) ابن أبي حاتم ١: ٢٣٩ / ١٢٧٧.

(٦) الدرّ ١: ٣٣٦؛ ابن أبي حاتم ١: ٢٣٩ / ١٢٧٨؛ الطبري ١: ٧٨٢ / ١٧٢٤؛ التبيان ١: ٤٧٥.

(٧) البغوي ١: ١٧١؛ أبو الفتوح ٢: ١٨١؛ الثعلبي ١: ٢٨١.

الآية . قال : يقول لم تشهد اليهود ولا النصارى ولا أحد من الناس يعقوب إذ أخذ على بنيه الميثاق إذ حضره الموت ألّا تعبدوا إلّا إيّاه ، فأقرّوا بذلك وشهد عليهم أن قد أقرّوا بعبادتهم ، وأنّهم مسلمون[1].

[٣٤٢٠/٢] وقال الكلبي : لمّا دخل يعقوب مصر رآهم يعبدون الأوثان والنيران والبقر ، فجمع ولده وخاف عليهم وقال : ما تعبدون من بعدي؟[2]

[٣٤٢١/٢] وقال مقاتل بن سليمان : ﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ﴾ وذلك أنّ اليهود قالوا للنبيّ ﷺ : يا محمّد ، ألست تعلم أنّ يعقوب يوم مات أوصى بنيه بدين اليهوديّة ، فأنزل الله ﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ﴾ . قال الله إنّ اليهود لم يشهدوا وصيّة يعقوب لبنيه ﴿إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ﴾ يوسف وإخوته ﴿مَا تَعْبُدُونَ مِن بَعْدِي﴾ أي بعد موتي ﴿قَالُوا نَعْبُدُ إِلَـٰهَكَ وَإِلَـٰهَ آبَآئِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَـٰهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ يعني مخلصون له بالتوحيد[3].

[٣٤٢٢/٢] وأخرج ابن جرير عن أبي زيد في الآية قال : يقال بدأ بإسماعيل لأنّه أكبر[4].

[٣٤٢٣/٢] وأخرج ابن سعد عن الكلبي قال : ولد لإبراهيم إسماعيل وهو أكبر ولده ، وأمّه هاجر وهي قبطيّة ، وإسحاق وأمّه سارة ، ومدن ومدين ، وبيشان وزمران ، وأشبق وشوح وأمّهم قنطوراء من العرب العاربة ، فأمّا بيشان فلحق بنوه بمكّة وأقام مدين بأرض مدين فسمّيت به ، ومضى سائرهم في البلاد وقالوا لإبراهيم : يا أبانا أنزلت إسماعيل وإسحاق معك وأمرتنا أن ننزل أرض الغربة والوحشة؟ قال : بذلك أُمرتُ . فعلّمهم اسماً من أسماء الله ، فكانوا يستسقون به ويستنصرون[5].

[٣٤٢٤/٢] وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عبّاس أنّه كان يقول : الجدّ أب ، ويتلو : ﴿قَالُوا نَعْبُدُ إِلَـٰهَكَ وَإِلَـٰهَ آبَآئِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ﴾[6].

---

(١) الدرّ ١ : ٣٣٦؛ ابن أبي حاتم ١ : ٢٣٩ ـ ٢٤٠ / ١٢٧٩.

(٢) القرطبي ٢ : ١٣٦؛ البغوي ١ : ١٧١؛ أبوالفتوح ٢ : ١٨١؛ الثعلبي ١ : ٢٨١.

(٣) تفسير مقاتل ١ : ١٤٠.

(٤) الدرّ ١ : ٣٣٦؛ الطبري ١ : ٧٨٢ / ١٧٢٥.

(٥) الدرّ ١ : ٣٣٦؛ الطبقات ١ : ٤٧ ـ ٤٨ ، ذكر إبراهيم خليل الرحمان ﷺ .

(٦) الدرّ ١ : ٣٣٦؛ ابن أبي حاتم ١ : ٢٤٠ / ١٢٨١.

[٣٤٢٥/٢] وأخرج ابن أبي حاتم عن أبي العالية في الآية قال: سمّي العمّ أباً(١).

[٣٤٢٦/٢] وأخرج ابن أبي حاتم عن محمّد بن كعب قال: الخال والد والعمّ والد، وتلا: ﴿قَالُوا نَعْبُدُ إِلَـهَكَ وَ إِلَـهَ آبَآئِكَ﴾ الآية(٢).

[٣٤٢٧/٢] وذكر البغوي في قوله: ﴿وَ إِلَـهَ آبَآئِكَ﴾: قال [النبيّ ﷺ] في عمّه العبّاس: «ردّوا عليّ أبي، فإنّي أخشى أن تفعل به قريش ما فعلت ثقيف بعروة بن مسعود». وذلك أنّهم قتلوه(٣).

[٣٤٢٨/٢] وقال الطبرسيّ: إسماعيل كان عمّ يعقوب وجعله أباً له، لأنّ العرب تسمّي العمّ أباً كما تسمّي الجدّ أباً، وذلك لأنّه يجب تعظيمهما كتعظيم الأب، ولهذا قال النبيّ ﷺ: «ردّوا عَلَيَّ أبي»، يعني العباس عمّه!(٤)

قوله تعالى: ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ...﴾

[٣٤٢٩/٢] وقال مقاتل بن سليمان: يقول: ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ﴾ يعني عُصبة ﴿قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ﴾ من العمل يعني الدين، يعني إبراهيم وبنيه ويعقوب وبنيه، ثمّ قال لليهود: ﴿وَ لَكُم مَّا كَسَبْتُمْ﴾ من الدين ﴿وَ لَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ أي أولئك. ﴿وَ قَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ تَهْتَدُوا﴾ وذلك أنّ رؤوس اليهود كعب بن الأشرف، وكعب بن أُسَيد، وأبا ياسر بن أخطب، ومالك بن الضيف، وعازارا، واشماويل، وخميشا. ونصارى نجران السيّد والعاقب، ومن معهما قالوا للمؤمنين: كونوا على ديننا فإنّه ليس دين إلّا ديننا فكذّبهم الله تعالى فقال: ﴿قُلْ بَلْ﴾ الدين ﴿مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ﴾ يعني الإسلام. ثمّ قال: ﴿حَنِيفًا﴾ يعني مخلصاً ﴿وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ يعني من اليهود والنصارى(٥).

---

(١) الدرّ ١: ٣٣٦؛ ابن أبي حاتم ١: ٢٤٠ / ١٢٨٢؛ التبيان ١: ٤٧٦، عن قول الفرّاء وأبي عبيدة، بلفظ: «إنّ العرب تسمّي العمّ أباً».

(٢) الدرّ ١: ٣٣٧؛ ابن أبي حاتم ١: ٢٤٠ / ١٢٨٣.

(٣) البغوي ١: ١٧١؛ أبوالفتوح ٢: ١٨٢؛ الثعلبي ١: ٢٨٢.

(٤) مجمع البيان ١: ٤٠٠؛ التبيان ١: ٤٧٦.

(٥) تفسير مقاتل ١: ١٤٠ ـ ١٤١.

قوله تعالى: ﴿وَ قَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ تَهْتَدُوا قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا﴾

[٣٤٣٠/٢] أخرج ابن أبي حاتم عن محمّد بن كعب قال: الحنيف المستقيم(١).

[٣٤٣١/٢] وقال ابن عبّاس: الحنيف: المائل عن الأديان كلّها إلّا دين الإسلام!(٢)

[٣٤٣٢/٢] وأخرج ابن أبي حاتم عن أبي العالية، قال: الحنيف: الّذي يستقبل البيت بصلاته، ويرى أنّ حجّه عليه إن استطاع إليه سبيلاً(٣).

[٣٤٣٣/٢] وأخرج ابن جرير عن السدّي في قوله: ﴿حَنِيفًا﴾ قال: مخلصاً(٤).

[٣٤٣٤/٢] وأخرج ابن أبي حاتم عن أبي قلابة قال: الحنيف الّذي يؤمن بالرسل كلّهم من أوّلهم إلى آخرهم(٥).

[٣٤٣٥/٢] وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن مجاهد في قوله: ﴿حَنِيفًا﴾ قال: متّبعا(٦).

[٣٤٣٦/٢] وعنه قال: الحنيفيّة اتّباع إبراهيم فيما أتى به من الشريعة الّتي صار بها إماماً للنّاس(٧).

[٣٤٣٧/٢] وأخرج ابن أبي حاتم عن قتادة قال: الحنيفيّة: شهادة أن لا إله إلّا الله. يدخل فيها تحريم الأمّهات والبنات والخالات والعمّات، وما حرّم الله ـ عزّ وجلّ ـ والختان. وكانت حنيفيّة في الشرك كانوا يحرّمون في شركهم الأمّهات والبنات والخالات والعمّات، وكانوا يحجّون البيت، وينسكون المناسك!(٨)

---

(١) الدرّ ١: ٣٣٧؛ ابن أبي حاتم ١: ٢٤١ـ٢٤٢ / ١٢٩٣.

(٢) البغوي ١: ١٧٢؛ الثعلبي ١: ٢٨٢، بلفظ: «الحنيف: المائل عن الأديان كلّها إلى دين الإسلام».

(٣) ابن أبي حاتم ١: ٢٤٢ / ١٢٩٦؛ ابن كثير ١: ١٩٢؛ أبوالفتوح ٢: ١٨٤، عن ابن عبّاس.

(٤) الطبري ١: ٧٨٧ / ١٧٣٤.

(٥) الدرّ ١: ٣٣٧؛ ابن أبي حاتم ١: ٢٤٢ / ١٢٩٤؛ ابن كثير ١: ١٩٢.

(٦) الدرّ ١: ٣٣٧؛ الطبري ١: ٧٨٦ / ١٧٣٣، بلفظ: «حنفاء، قال: متبعين»؛ ابن أبي حاتم ١: ٢٤١ / ١٢٩٢، وزاد: «وروي عن الربيع بن أنس نحو ذلك»؛ ابن كثير ١: ١٩٢، عن مجاهد والربيع بن أنس؛ مجمع البيان ١: ٤٠٣، بلفظ: «إنّها اتّباع الحقّ»؛ أبو الفتوح ٢: ١٨٤.

(٧) البغوي ١: ١٧٢.

(٨) ابن أبي حاتم ١: ٢٤٢ / ١٢٩٧؛ الثعلبي ١: ٢٨٣، بلفظ: «الحنيفيّة الختان وترك نكاح الأخت»؛ ابن كثير ١: ١٩٢؛ البغوي ١: ١٧٢؛ أبو الفتوح ٢: ١٨٤.

[٣٤٣٨/٢] وروى العيّاشيّ بإسناده عن زرارة عن أبي جعفر عليه السلام: «ما أبقت الحنيفيّة شيئاً حتّى أنّ منها قصّ الشارب وقلم الأظفار والختان»[١].

[٣٤٣٩/٢] وأخرج أحمد عن أبي أمامة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «بعثت بالحنيفيّة السمحة»[٢].

[٣٤٤٠/٢] وأخرج أحمد والبخاري في الأدب المفرد وابن المنذر عن ابن عبّاس قال: «قيل: يا رسول الله أيّ الأديان أحبّ إلى الله؟ قال: الحنيفيّة السمحة»[٣].

[٣٤٤١/٢] وروى العيّاشيّ عن الوليد عن أبي عبدالله عليه السلام، قال: «إنّ الحنيفيّة هي الإسلام»[٤].

قوله تعالى: ﴿قُولُوٓا آمَنَّا بِاللَّهِ وَ مَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَ مَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَاهِيمَ وَ إِسْمَاعِيلَ وَ إِسْحَاقَ﴾

[٣٤٤٢/٢] أخرج ابن أبي حاتم عن معقل بن يسار قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «آمنوا بالتوراة والزبور والإنجيل، وليسعكم القرآن»[٥].

[٣٤٤٣/٢] وأخرج وكيع عن الضحّاك قال: علّموا نساءكم وأولادكم وخدمكم أسماء الأنبياء المسمّين في الكتاب ليؤمنوا بهم، فإنّ الله أمر بذلك فقال: ﴿قُولُوٓا آمَنَّا بِاللَّهِ وَ مَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا﴾ إلى قوله: ﴿وَ نَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾[٦].

[٣٤٤٤/٢] وأخرج ابن جرير عن ابن عبّاس، قال: أتى رسولَ الله صلى الله عليه وآله نفرٌ من اليهود فيهم أبو ياسر بن أخطب ورافع بن أبي رافع وعازر وخالد وزيد وأزار بن أبي أزار وأشيع، فسألوه عمّن يؤمَن به من الرسل، فقال: «أؤمنُ بِاللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا، وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ، وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِن رَبِّهِمْ، لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ

(١) العيّاشيّ ١: ٨٠ / ١٠٤؛ البرهان ١: ٣٣٧ / ٢؛ البحار ٧٣: ٦٨ / ٤، باب ٢.

(٢) الدرّ ١: ٣٣٨؛ مسند أحمد ٥: ٢٦٦.

(٣) الدرّ ١: ٣٣٨؛ مسند أحمد ١: ٢٣٦؛ الأدب المفرد، للبخاري: ٦٩ / ٢٨٧؛ ابن عساكر ٢٢: ٣٥٦؛ مجمع الزوائد ١: ٦٠، قال الهيثمي: رواه أحمد والطبراني في الكبير والأوسط والبزّار.

(٤) العيّاشيّ ١: ٨٠ / ١٠٣؛ البحار ٣: ٢٨١ / ٢١، باب ١١.

(٥) الدرّ ١: ٣٣٨؛ ابن أبي حاتم ١: ٢٤٣ / ١٣٠٢؛ الحاكم ١: ٥٦٨، كتاب فضائل القرآن، وصحّحه؛ ابن كثير ١: ١٩٣.

(٦) الدرّ ١: ٣٣٨ ـ ٣٣٩؛ مجمع البيان ١: ٤٠٦.

وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ». فلما ذكر عيسى جحدوا نبوّته وقالوا: لا نؤمن بعيسى، ولا نؤمن بمن آمن به. فأنزل الله فيهم: ﴿قُلْ يا أَهْلَ الْكِتابِ هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّـآ إِلَّآ أَنْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلُ وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَاسِقُونَ﴾[1][2].

[٣٤٤٥/٢] وأخرج ابن جرير عن قتادة، قال: الأسباط: يوسف وإخوته بنو يعقوب، ولد اثني عشر رجلاً، فولد كلّ رجل منهم أمّة من الناس، فسمّوا أسباطاً[3].

قوله تعالى: ﴿لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ﴾

[٣٤٤٦/٢] قال الفرّاء: أي لانؤمن ببعض الأنبياء ونكفر ببعض كما فعلت اليهود والنصارى![4]

[٣٤٤٧/٢] وقال مقاتل بن سليمان: ثمّ أمر الله ـ عزّ وجلّ ـ المؤمنين فقال: ﴿قُولُوٓا آمَنَّا بِاللَّهِ﴾ بأنّه واحد لاشريك له ﴿وَ مَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا﴾ يعني قرآن محمّد ﷺ ﴿وَ مَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَاهِيمَ وَ إِسْمَاعِيلَ وَ إِسْحَاقَ وَ يَعْقُوبَ وَ الْأَسْبَاطِ﴾ وهم بنو يعقوب يوسف وإخوته فنزل على هؤلاء صحف إبراهيم. قال: ﴿وَ مَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ﴾ يعني التوراة ﴿وَ﴾ ما أوتي ﴿عِيسَىٰ﴾ يعني الإنجيل: يقول ما أنزل على موسى وعيسى وصدّقنا ﴿وَمَآ أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ﴾ وأوتي داوود وسليمان الزبور ﴿لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ﴾ فنؤمن ببعض النبيّين، ونكفر ببعض، كفعل أهل الكتاب ﴿وَ نَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ يعني مخلصون[5].

[٣٤٤٨/٢] وأخرج أحمد ومسلم وأبو داوود والنسائي والبيهقي في سننه عن ابن عبّاس قال: «كان رسول الله ﷺ يقرأ في ركعتي الفجر في الأُولى منهما الآية الّتي في البقرة: ﴿قُولُوٓا آمَنَّا بِاللَّهِ وَ مَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا﴾ الآية كلّها، وفي الآخرة بـ﴿آمَنَّا بِاللَّهِ وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾[6]»[7].

(١) المائدة ٥: ٥٩.

(٢) الطبري ١: ٧٨٩ / ١٧٣٥؛ ابن أبي حاتم ١: ٢٤٣ / ١٢٩٩؛ القرطبي ٢: ١٤٠ ـ ١٤١؛ التبيان ١: ٤٨١؛ أبوالفتوح ٢: ١٨٦.

(٣) الطبري ١: ٧٨٩ / ١٧٣٧؛ ابن أبي حاتم ١: ٢٤٣ / ١٣٠٠.

(٤) معاني القرآن للفرّاء ١: ٨٢؛ القرطبي ٢: ١٤١.

(٥) تفسير مقاتل ١: ١٤١.

(٦) آل عمران ٣: ٥٢.

(٧) الدرّ ١: ٣٣٨؛ مسند أحمد ١: ٢٣٠؛ مسلم ٢: ١٦١؛ أبو داوود ١: ٢٨٤ / ١٢٥٩، باب ٢٩٢؛ النسائي ١: ٣٢٨ / ١٠١٦؛ البيهقي ٣: ٤٢؛ الحاكم ١: ٣٠٧، كتاب صلاة التطوّع.

قوله تعالى: ﴿فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَآ آمَنتُم بِهِ فَقَدِ اهْتَدَوا وَّإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ وَ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾

[٣٤٤٩/٢] أخرج ابن جرير وابن أبي حاتم والبيهقي في الأسماء والصفات عن ابن عبّاس قال: لاتقولوا ﴿فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَآ آمَنتُم بِهِ﴾ فإنّ الله لا مثل له، ولكن قولوا: فإن آمنوا بالّذي آمنتم به![١]

[٣٤٥٠/٢] وأخرج ابن أبي داوود في المصاحف والخطيب في تاريخه عن أبي جمرة قال: كان ابن عبّاس يقرأ: «فإن آمنوا بالّذي آمنتم به»[٢].

قلت: وهذا يعني التحريف في كتاب الله، وحاشا ابن عبّاس أن يتفوّه بمثل هذا الكلام. على أنّ المثل هنا يعني المضاهاة في القول لا الإيمان بالمثل!! الأمر الّذي لايخفى على مثل ابن عبّاس!

وقد عرفت كلام الطبري في الهامش. ولا حاجة إلى تأويل القرطبي.

[٣٤٥١/٢] وأخرج ابن أبي حاتم عن محمّد بن إسحاق في قوله: ﴿وَّإِن تَوَلَّوْا﴾ قال: على كفرهم[٣].

[٣٤٥٢/٢] وأخرج عن الربيع بن أنس في قوله: ﴿وَّإِن تَوَلَّوْا﴾ قال: يعني: عن الإيمان[٤].

[٣٤٥٣/٢] وأخرج ابن أبي حاتم عن أبي العالية في قوله: ﴿فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ﴾ قال: فراق. وكذا عن قتادة والربيع[٥].

[٣٤٥٤/٢] وأخرج ابن جرير عن ابن زيد قال: الشقاق: الفراق والمحاربة، إذا شاقّ فقد حارب،

---

(١) الدرّ ١: ٣٣٩؛ الطبري ١: ٧٩١ / ١٧٤٢، وخالفه الطبري وقال: «إنّما معناه: فإن صدّقوا مثل تصديقكم بما صدّقتم به من جميع ما عددنا عليكم من كتب الله وأنبيائه، فقد اهتدوا. فالتشبيه إنّما وقع بين التصديقين والإقرارين»؛ ابن أبي حاتم ١: ٢٤٤ / ١٣٠٦؛ الأسماء والصفات: ٤١١، باب قول الله: ليس كمثله شيء؛ القرطبي ٢: ١٤٢، وزاد القرطبي قبله: فـ«مثل» زائدة كماهي في قوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ أي ليس كهو شيء؛ التبيان ١: ٤٨٤؛ البغوي ١: ١٧٣، بلفظ: «أي بما آمنتم به».

(٢) الدرّ ١: ٣٣٩؛ أبوالفتوح ٢: ١٨٦. تاريخ بغداد ٧: ٣٠٢ / ٣٧٩٥؛ الثعلبي ١: ٢٨٣، بلفظ: كان يقرأها ابن عبّاس ويقول: اقرأوا: «فإن آمنوا بما آمنتم به»؛ مجمع البيان ١: ٤٠٧، بلفظ: كان ابن عبّاس يقول: إقرأوا: «بما آمنتم به» فليس لله مثل.

(٣) ابن أبي حاتم ١: ٢٤٤ / ١٣١٠.

(٤) المصدر / ١٣٠٩.

(٥) الدرّ ١: ٣٣٩؛ ابن أبي حاتم ١: ٢٤٤ / ١٣١١، ونحوه عن قتادة والربيع؛ الطبري ١: ٧٩١ / ١٧٤٣.

وإذا حارب فقد شاقّ، وهما واحد في كلام العرب، وقرأ: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ الرَّسُولَ﴾[1][2].

وعن أبيه أنه المنازعة والمجادلة.

[٣٤٥٥/٢] وعن أبي سلمة والسدّي: في عداوة[3].

[٣٤٥٦/٢] وقال مقاتل وأبو عبيدة: في ضلال واختلاف[4].

وقال الحسن: معناه التعادي[5].

[٣٤٥٧/٢] وعن الكسائي: هي خلع الطّاعة. بيانه قوله: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ الرَّسُولَ﴾[6][7].

[٣٤٥٨/٢] وأخرج الحاكم عن ابن عبّاس قال: كنت قاعداً إذ أقبل عثمان، فقال النبيّ ﷺ: «يا عثمان تُقتَل وأنت تقرأ سورة البقرة، فتقع قطرة من دمك على ﴿فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ﴾»[8].

قال الذهبي في مختصر المستدرك: هذا كذب بحت، وفي إسناده أحمد بن محمّد بن عبد الحميد الجعفي، وهو المتّهم به[9].

---

(١) النساء ٤: ١١٥.

(٢) الطبري ١: ٧٩١ / ١٧٤٥؛ التبيان ١: ٤٨٤، بلفظ: هو المنازعة والمجادلة؛ القرطبي ٢: ١٤٣، بلفظ: عن زيد بن اسلم: الشقاق: المنازعة.

(٣) أبوالفتوح ٢: ١٨٧؛ الثعلبي ١: ٢٨٤، وزاد: «كأنّ كلّ واحد منهما أخذ في شقّ صاحبه أي في جُهده وما يشقّ عليه، من قوله: ﴿إِلَّا بِشِقِّ الْأَنفُسِ﴾ (النحل ١٦: ٧) دليله قوله: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمَن يُشَاقِقِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ (الأنفال ٨: ١٣) أي عادوا الله ورسوله.

(٤) أبوالفتوح ٢: ١٨٧؛ ابن كثير ٣: ٢٤١، الحجّ الآية ٥٣، بلفظ: قال مقاتل بن حيّان: هم اليهود ﴿وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ﴾ أي في ضلال ومخالفة وعناد بعيد، أي من الحقّ والصّواب؛ الثعلبي ١: ٢٨٤، وزاد عنهما: «بيانه قوله: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا﴾ (النساء ٤: ٣٥) أي اختلاف بينهما».

(٥) الثعلبي ١: ٢٨٤ بلفظ: «في بعاد وفراق إلى يوم القيامة».

(٦) النساء ٤: ١١٥.

(٧) الثعلبي ١: ٢٨٤؛ أبوالفتوح ٢: ١٨٧.

(٨) الحاكم ٣: ١٠٣، وزاد بعد قوله: ﴿فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ﴾: وهو السميع العليم وتبعث يوم القيامة أميراً على كلّ مخذول يغبطك أهل المشرق والمغرب، وتشفع في عدد ربيعة ومضر. قال الحاكم: قد ذكرتُ الأخبار المسانيد في هذا الباب في كتاب مقتل عثمان فلم أستحسن ذكرها عن آخرها في هذا الموضع، فإنّ في هذا القدر كفاية فأمّا الّذي ادّعته المبتدعة من معونة أميرالمؤمنين عليّ بن أبي طالب ؑ على قتله فإنّه كذب وزور فقد تواترت الأخبار بخلافه!

(٩) هامش المستدرك؛ الدرّ ١: ٣٣٩.

[٢/٣٤٥٩] وقال مقاتل بن سليمان: يقول الله ـ سبحانه ـ ﴿فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَآ آمَنتُم بِهِ﴾ يقول فإن صدّق أهل الكتاب بالّذي صدّقتم به يا معشر المسلمين من الإيمان بجميع الأنبياء والكتب ﴿فَقَدِ اهْتَدَوا﴾ من الضلالة ﴿وَّإِن تَوَلَّوْا﴾ أي وإن كفروا بالنبيّين وجميع الكتب ﴿فَإِنَّمَا هُمْ في شِقَاقٍ﴾ يعني في ضلال واختلاف، نظيرها: ﴿وَ إِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا في الْكِتَابِ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ ﴾[1] يعني لفي ضلال واختلاف، لأنّ اليهود كفروا بعيسى ومحمّد وبما جاءا به، وكفرت النصارى بمحمّد وبما جاء به، فلمّا نزلت هذه الآية قرأها النبيّ على اليهود والنصارى، فقال: إنّ الله أمرني أن أوصي بهذه الآية، فإن أنتم آمنتم يعني صدّقتم بالنبيّ والكتاب، فقد اهتديتم وإن تولّيتم وأبيتم عن الإيمان فإنّما أنتم في شقاق! فلمّا سمعت اليهود ذكر عيسى قالوا: لا نؤمن بعيسى. وقالت النصارى: وعيسى بمنزلتهم مع الأنبياء، ولكنّه ولد الله. يقول: إن أبوا أن يؤمنوا بمثل ما آمنتم به ﴿فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ﴾ يا محمّد يعني أهل الكتاب ففعل الله ـ عزّ وجلّ ـ ذلك فقتل أهل قريظة، وأجلى [بني] النضير من المدينة، ﴿وَ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ لقولهم للمؤمنين كونوا هوداً أو نصارى تهتدوا[2].

قوله تعالى: ﴿صِبْغَةَ اللَّهِ وَ مَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً وَ نَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ﴾

[٢/٣٤٦٠] أخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عبّاس في قوله: ﴿ صِبْغَةَ اللَّهِ﴾ قال: دين الله[3].

[٢/٣٤٦١] وقال مقاتل بن سليمان: ثمّ قال العليم بما قالوا: قل لهم: ﴿صِبْغَةَ اللَّهِ﴾ الّتي صبغ الناس عليها ﴿وَ مَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً﴾ يعني الإسلام. لقولهم للمؤمنين: اتّبعوا ديننا فإنّه ليس دين إلّا ديننا يقول الله دين الله ومن أحسن من الله ديناً يعني الإسلام ﴿وَ نَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ﴾ يعني موحّدون[4].

[٢/٣٤٦٢] وروى الصدوق بإسناده إلى فضالة عن أبان عن أبي عبدالله عليه السلام في قول الله عزّ وجلّ: ﴿صِبْغَةَ

(١) البقرة ٢: ١٧٦.
(٢) تفسير مقاتل ١: ١٤١ـ١٤٢.
(٣) الدرّ ١: ٣٤٠؛ الطبري ١: ٧٩٣ـ٧٩٤ / ١٧٥٣، وكذا عن مجاهد وعطيّة والسدّي وابن زيد؛ ابن أبي حاتم ١: ٢٤٥ / ١٣١٣، وكذا نسبه إلى أبي العالية ومجاهد والحسن وإبراهيم النخعي وعبدالله بن كثير والضحّاك وقتادة وعكرمة وعطيّة والربيع بن أنس والسدّيّ؛ عبدالرزّاق ١: ٢٩٤ / ١٣٥؛ البخاري ٥: ١٤٧، كتاب التفسير، سورة البقرة.
(٤) تفسير مقاتل ١: ١٤٢.

اللَّهِ وَ مَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً﴾ فقال: «هي الإسلام»[١].

[٣٤٦٣/٢] وأخرج ابن مردويه والضياء في المختارة عن ابن عبّاس عن النبيّ ﷺ قال: «إنّ بني إسرائيل قالوا: يا موسى هل يصبغ ربّك؟ فقال: اتّقوا الله. فناداه ربّه: يا موسى سألوك هل يصبغ ربّك فقل: نعم، أنا أصبغ الألوان الأحمر والأبيض والأسود، والألوان كلّها من صبغتي» وأنزل الله على نبيّه: ﴿صِبْغَةَ اللَّهِ وَ مَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً﴾ وأخرجه ابن أبي حاتم وأبو الشيخ في العظمة عن ابن عبّاس موقوفاً[٢].

[٣٤٦٤/٢] وقال ابن عبّاس: كانت النصارى إذا ولد لأحدهم ولد فأتى عليه سبعة أيّام غمسوه في ماء لهم أصفر، يقال له: المعموديّة، وصبغوه به ليطهّروه بذلك الماء مكان الختان، فإذا فعلوا به ذلك قالوا: الآن صار نصرانيّاً حقّاً، فأخبر الله أنّ دينه الإسلام لا ما يفعله النصارى[٣].

[٣٤٦٥/٢] وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن مجاهد في قوله: ﴿صِبْغَةَ اللَّهِ﴾ قال: فطرة الله الّتي فطر الناس عليها[٤].

قوله تعالى: ﴿قُلْ أَتُحَاجُّونَنَا فِي اللَّهِ وَ هُوَ رَبُّنَا وَ رَبُّكُمْ وَ لَنَا أَعْمَالُنَا وَ لَكُمْ أَعْمَالُكُمْ﴾

[٣٤٦٦/٢] أخرج ابن أبي حاتم عن ابن عبّاس في قوله: ﴿أَتُحَاجُّونَنَا فِي اللَّهِ﴾ قال: أتخاصموننا، وأخرجه ابن جرير عن مجاهد وابن زيد. وأيضاً عن ابن عبّاس: تجادلوننا[٥].

[٣٤٦٧/٢] وقال الحسن: كانت محاجّتهم أن قالوا: «نَحْنُ أَولى بِاللهِ مِنْكُم»، وقالوا: ﴿نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ﴾[٦] وقالوا: ﴿وَ قَالُوا لَن يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ﴾[٧]. وكان غرضهم بذلك

(١) معاني الأخبار: ١٨٨ / ١، باب معنى صبغة الله؛ الكافي ٢: ١٤، كتاب الإيمان والكفر، باب في أنّ الصبغة هي الإسلام؛ القمي ١: ٦٢؛ البرهان ١: ٣٣٩ / ٥؛ البحار ٦٤: ١٣١ ـ ١٣٢ / ١ و ٢، باب ١٤.

(٢) الدرّ ١: ٣٤٠؛ ابن أبي حاتم ١: ٢٤٥ / ١٣١٤، وكذا نسبه إلى سالم بن أبي الجعد؛ العظمة ٢: ٤٥٢ ـ ٤٥٤؛ أبوالفتوح ٢: ١٨٩.

(٣) الثعلبي ٢: ٥؛ البغوي ١: ١٧٣؛ أبو الفتوح ٢: ١٨٨.

(٤) الدرّ ١: ٣٤٠؛ الطبري ١: ٧٩٤ / ١٧٥٥؛ البغوي ١: ١٧٣.

(٥) الدرّ ١: ٣٤١؛ ابن أبي حاتم ١: ٢٤٥ / ١٣١٦؛ الطبري ١: ٧٩٥ / ١٧٥٦ و ١٧٥٧ و ١٧٥٨.

(٦) المائدة ٥: ١٨.

(٧) البقرة ٢: ١١١.

أنّ الدِّين يُلْتَمَس من جهتهم وأنّ النبوّة أولى أن تكون فيهم![(١)]

[٣٤٦٨/٢] وعن مقاتل والكلبي في قوله تعالى: ﴿وَلَنَآ أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ﴾: لنا ديننا ولكم دينكم[(٢)].

قوله تعالى: ﴿وَنَحْنُ لَهُ مُخْلِصُونَ﴾

[٣٤٦٩/٢] قال سعيد بن جبير: الإخلاص أن يُخلص العبد دينه وعمله فلايُشرك في دينه ولايُرائي بعمله[(٣)].

[٣٤٧٠/٢] وعن حذيفة بن اليمان قال: سألت النبيّ ﷺ عن الإخلاص ما هو؟ قال: «سألتُ جبريل ﷺ عن ذلك، قال: سألت ربّ العزّة عن ذلك فقال: هو سِرٌّ من سِرّي، استودعته قلب من أحببته من عبادي»[(٤)].

[٣٤٧١/٢] وأخرج ابن أبي حاتم عن أبي ثمامة: قال الحواريّون: يا روح الله أخبرنا من المخلص لله؟ قال: الّذي يعمل لله لايُحِبّ أن يحمده الناس[(٥)].

[٣٤٧٢/٢] وعن أبي إدريس الخولاني، قال: قال رسول الله ﷺ: «إنّ لكلّ حقٍّ حقيقة، وما بلغ عبدٌ حقيقة الإخلاص حتّى لايحبّ أن يُحمد على شيء من عمل لله»[(٦)]. أي العمل الّذي هو لله.

وعن أبي سليمان قال: للمرائي ثلاث علامات: يكسل إذا كان وحده، وينشط إذا كان في الناس، ويزيد في العمل إذا أثني عليه[(٧)].

* * *

(١) مجمع البيان ١: ٤٠٩؛ التبيان ١: ٤٨٦ ـ ٤٨٧؛ أبو الفتوح ٢: ١٩٠، بنحوه عن أبي عليّ وأبي القاسم البلخي.

(٢) الثعلبي ٢: ٦.

(٣) البغوي ١: ١٧٤؛ أبو الفتوح ٢: ١٩١؛ مجمع البيان ١: ٤١٠؛ الثعلبي ٢: ٦، وفيه: «... ولايرائي بعمله أحداً».

(٤) مجمع البيان ١: ٤٠٩ ـ ٤١٠؛ أبوالفتوح ٢: ١٩٠ ـ ١٩٢؛ الثعلبي ٢: ٦؛ القرطبي ٢: ١٤٢.

(٥) ابن أبي حاتم ١: ٢٤٦ / ١٣١٧؛ ابن كثير ٣: ١٣١، نقلاً عن أبي لبابة، سورة مريم، الآية ٥١.

(٦) مجمع البيان ١: ٤١٠؛ أبوالفتوح ٢: ١٩١، رواه عن أبي ذر؛ عدّة الداعي لابن فهد الحلّي: ٢٠٣؛ البحار ٦٩: ٣٠٤ / ٥١، باب ١١٦؛ الثعلبي ٢: ٦.

(٧) الثعلبي ٢: ٧.

وإليك من أحاديث أئمّة أهل البيت عليهم السلام بشأن الإخلاص في العمل، حسبما أورده ثقة الإسلام أبو جعفر محمّد بن يعقوب الكليني في الكافي الشريف.

[٣٤٧٣/٢] روى بالإسناد إلى الإمام أبي جعفر الباقر عليه السلام قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «أيّها الناس، إنّما هو الله والشيطان، والحقّ والباطل، والهدى والضلال، والرشد والغيّ. والعاجلة والآجلة، والحسنات والسيّئات. فما كان من حسنات فللّه، وما كان من سيّئات فللشيطان»(١).

[٣٤٧٤/٢] وروى بالإسناد إلى عليّ بن إبراهيم عن أبيه عن النوفلي عن السكوني عن الإمام أبي عبدالله جعفر بن محمّد الصادق عليه السلام قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «سيأتي على الناس زمان تخبث فيه سرائرهم، وتحسن فيه علانيتهم، طمعاً في الدنيا، لايريدون به ما عند ربّهم. يكون دينهم رياء لايخالطهم خوف. يعمّهم الله بعقاب، فيدعونه دعاء الغريق فلا يستجيب لهم»(٢).

[٣٤٧٥/٢] وبنفس الإسناد عن الصادق عليه السلام قال: قال النبيّ صلى الله عليه وآله: «إنّ الملك ليصعد بعمل العبد مبتهجاً به، فإذا صعد بحسناته يقول الله عزّ وجلّ: اجعلوها في سجّين، إنّه ليس إيّاي أراد»(٣).

[٣٤٧٦/٢] وروى بالإسناد إلى أبي حفص عمربن يزيد قال: إنّي لأتعشّى مع الإمام أبي عبدالله عليه السلام إذ تلا هذه الآية: ﴿بَلِ الْإِنسَانُ عَلَىٰ نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ. وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُ﴾(٤). ثمّ قال: يا أبا حفص، ما يصنع الإنسان أن يعتذر إلى الناس بخلاف ما يعلم الله منه؟! إنّ رسول الله صلى الله عليه وآله كان يقول: «من أسرّ سريرةً ألبسه الله رداءها، إن خيراً فخير وإن شرّاً فشرّ»(٥).

[٣٤٧٧/٢] وروى بالإسناد إلى ابن القدّاح عن الإمام أبي عبدالله عليه السلام قال: قال أميرالمؤمنين ـ عليه صلوات المصلّين ـ: «اخشوا الله خشية ليست بتعذير، واعملوا لله في غير رياء ولاسمعة؛ فإنّه من عمل لغير الله وكله الله إلى عمله»(٦).

[٣٤٧٨/٢] وروى عن عليّ بن إبراهيم بإسناده قال: قال الإمام أميرالمؤمنين ـ صلوات الله عليه ـ: «ثلاث علامات للمرائي: ينشط إذا رأى الناس، ويكسل إذا كان وحده، ويحبّ أن يُحمد

---

(١) الكافي ١: ١٥ـ١٦/ ٢.
(٢) المصدر: ٢٩٦/ ١٤.
(٣) المصدر: ٢٩٥/ ٧.
(٤) القيامة ٧٥: ١٤.
(٥) المصدر: ٢٩٦/ ١٥.
(٦) المصدر: ٢٩٧/ ١٧.

في جميع أموره»[١].

[٣٤٧٩/٢] وروى بالإسناد إلى عليّ بن أسباط عن الإمام علي بن موسى الرضا ﷺ قال: إنّ أميرالمؤمنين ـ صلوات الله عليه ـ كان يقول: «طوبى لمن أخلص لله العبادة والدعاء، ولم يشغل قلبه بما ترى عيناه، ولم ينس ذكر الله بما تسمع أذناه، ولم يحزن صدره بما أعطي غيره»[٢].

[٣٤٨٠/٢] وروى بالإسناد إلى سفيان بن عيينة عن الإمام الصادق ﷺ في قوله تعالى: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً﴾[٣]، قال: «ليس يعني أكثر عملاً، ولكن أصوبكم عملاً. وإنّما الإصابة خشية الله والنيّة الصادقة الحسنة. ثمّ قال: الإبقاء على العمل حتّى يخلص أشدّ من العمل. والعمل الخالص: الّذي لا تريد أن يحمدك عليه أحد إلّا الله ـ عزّ وجلّ ـ. والنيّة الصادقة أفضل من العمل. ألا وإنّ النيّة هي العمل. ثمّ تلا قوله تعالى: ﴿قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِ﴾[٤]. قال: يعني: نيّته»[٥].

[٣٤٨١/٢] وبهذا الإسناد قال: سألته عن قول الله ـ عزّ وجلّ ـ: ﴿إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾[٦]؟ قال: «القلب السليم: الّذي يلقى ربّه وليس فيه أحد سواه.

قال: وكلّ قلب فيه شرك أو شكّ فهو ساقط. وإنّما أرادوا الزهد في الدنيا لتفرغ قلوبهم للآخرة»[٧].

[٣٤٨٢/٢] وبهذا الإسناد عن سفيان عن السندي عن الإمام أبي جعفر الباقر ﷺ قال: «ما أخلص العبد الإيمان بالله ـ عزّ وجلّ ـ أربعين يوماً. أو قال: ما أجمل عبد ذكر الله ـ عزّ وجلّ ـ أربعين يوماً، إلّا زهّده الله في الدنيا وبصّره داءها ودواءها، فأثبت الحكمة في قلبه وأنطق بها لسانه»[٨].

[٣٤٨٣/٢] وروى بالإسناد إلى صفوان عن فضل عن الإمام أبي عبدالله ﷺ قال: «ما يصنع أحدكم أن يظهر حسناً ويُسرّ سيّئاً؟! أليس يرجع إلى نفسه فيعلم أنّ ذلك ليس كذلك، والله ـ عزّ وجلّ ـ يقول: ﴿بَلِ الْإِنسَانُ عَلَىٰ نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ﴾! إنّ السريرة إذا صحّت قويت العلانية»[٩].

---

(١) المصدر: ٢٩٥/٨.
(٢) المصدر: ٣/١٦.
(٣) الملك ٦٧: ٢.
(٤) الإسراء ١٧: ٨٤.
(٥) الكافي ٢: ١٦/٤.
(٦) الشعراء ٢٦: ٨٩.
(٧) الكافي ٢: ١٦/٥.
(٨) المصدر: ٦.
(٩) المصدر: ٢٩٥/١١.

[٣٤٨٤/٢] وعن أبي بصير قال: قال أبو عبدالله عليه السلام: «ما من عبد يُسِرُّ خيراً إلّا لَمْ تذهب الأيّام حتّى يظهر الله له خيراً! وما من عبد يُسِرُّ شرّاً إلّا لم تذهب الأيّام حتّى يظهر الله له شرّاً»[١].

[٣٤٨٥/٢] وروى بالإسناد عن يحيى بن بشير عن أبيه عن الإمام الصادق عليه السلام قال: «من أراد الله بالقليل من عمله أظهره الله له أكثر ممّا أراد. ومن أراد الناس بالكثير من عمله في تعب من بدنه وسهر من ليله، أبى الله إلّا أن يقلّله في عين من سمعه»[٢].

[٣٤٨٦/٢] وروى عن عليّ بن إبراهيم عن أبيه عن ابن أبي عمير عن جميل بن درّاج عن زرارة ـ والسند صحيح ـ عن الإمام أبي جعفر الباقر عليه السلام سأله عن الرجل يعمل الشيء من الخير فيراه إنسان فيسرّه ذلك؟! قال عليه السلام: «لا بأس، ما من أحد إلّا وهو يحبّ أن يظهر له في الناس الخير، إذا لم يكن صنع ذلك لذلك!!»[٣].

نكتة دقيقة

هنا وفي هذا الحديث (الأخير) إشارة إلى نكتة دقيقة: إنّ من جبلّة الإنسان هو حبّ الظهور والتعارف بين الناس بالمعروف. ذلك أنّه خُلق ليتعايش مع بني جلدته وليكون فيهم ومعهم، يعتمدهم ويعتمدونه. الأمر الّذي لا يكون إلّا إذا عُرف بالخير والصلاح، وقد جُبلت عليه فطرة الإنسان وفي أوّليّات ذاته. ومن ثمّ فمن صميم فطرته ينبعث نحو الصلاح وعمل الخير وإسداء الفضيلة إلى الجماعة. وليتعاضد معهم في تحقيق مطاليب الحياة بأحسن ما يكون. ولسان حال كلّ إنسان يحاول التعايش بسعادة وسلام: ﴿إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ﴾[٤].

---

(١) المصدر: ٢٩٥ ـ ٢٩٦ / ١٢.

(٢) المصدر: ٢٩٦ / ١٣. وبهذا المعنى روي عن الإمام أبي جعفر الباقر عليه السلام قال: «ما بين الحقّ والباطل إلّا قلّة العقل! قيل: كيف ذلك يا ابن رسول الله صلى الله عليه وآله؟ قال: إنّ العبد ليعمل العمل الّذي هو لله رضاً، فيريد به غير الله! فلو أنّه أخلص لله، لجاءه الّذي يريد في أسرع من ذلك!». (المحاسن، للبرقي: ٢٥٤ / ٢٨٠؛ الوسائل ١: ٦١ / ١١).

وأيضاً في الحديث: «من كان ظاهره أرجح من باطنه خفّ ميزانه». (الفقيه ٤: ٢٨٩ / ٤٦؛ الوسائل ١: ٦٨ ـ ٦٩ / ١٥).

(٣) المصدر: ٢٩٧ / ١٨.

(٤) سورة ص ٣٨: ٣٢.

ولاشكّ أنّ هذا التواجد على الخير والصلاح، ممّا حُبّب إليه في شريعة العقل ووحي السماء وهي غاية إلّهيّة محبّبه، ندب إليه الشرع الحنيف حيث الأمر بالسعي وراء إشاعة المعروف، لا بالقلم واللسان فحسب، بل بالقدم والعمل جميعاً. وليكونوا دعاة للناس بغير ألسنتهم بل بأعمالهم البادي عليها الورع والخير والصلاح. فإنّ ذلك داعية، وما أكبرها من داعية، كما ورد في الحديث[1].

[٣٤٨٧/٢] وروى الصدوق بإسناده إلى عبدالله بن الصامت عن أبي ذرّ ـ رضوان الله عليه ـ قال: قلت: يا رسول الله ﷺ، الرجل يعمل لنفسه ويحبّه الناس؟ قال: «تلك عاجلة بُشرى المؤمن!»[2]

نعم، المؤمن يستبشر بحسنة أسداها، كما يمتعض بسيّئه اقترفها، وهذا من علامة الإيمان.

[٣٤٨٨/٢] وروى ابن بابويه الصدوق بالإسناد إلى أبي عبدالله الصادق عليه السلام قال: قال رسول الله ﷺ: «من سرّته حسنته وساءته سيئته فهو مؤمن»[3].

[٣٤٨٩/٢] وعن الإمام أبي جعفر الباقر عليه السلام قال: سئل النبيّ ﷺ عن خير العباد؟ فقال: «الّذين إذا أحسنوا استبشروا، وإذا اساؤوا استغفروا، وإذا أُعطوا شكروا، وإذا ابتلوا صبروا، وإذا غضبوا غفروا»[4].

إذن فليس كلّ من استبشر بعمل أحسن فيه كان قد أخذه العُجب المقيت. ولا كلّ من تظاهر بعمل صالح كان مرائياً، وقد يكون بذلك داعية إلى عمل الخير وبثّ الصلاح في الأرض. وليقتد به

---

(١) روى الكليني بالإسناد إلى ابن أبي يعفور قال: قال أبو عبدالله عليه السلام: «كونوا دعاةً للناس بغير ألسنتكم، ليروا منكم الورع والاجتهاد والصلاة والخير. فإنّ ذلك داعية». (الكافي ٢: ٧٨ / ١٤؛ البحار ٦٧: ٣٠٣ / ١٣ / باب ٥٧). وفي حديث آخر: «كونوا دعاة بغير ألسنتكم، وكونوا زيناً ولاتكونوا شيناً». (الكافي ٢: ٧٨ / ضمن رقم ٩؛ البحار ٦٧: ٢٩٩). وفي مستطرفات السرائر: من كتاب عبدالله بن بكير عن عُبيد قال: قلت لأبي عبدالله عليه السلام: الرجل يدخل في الصلاة فيجوّد صلاته ويُحسّنها رجاء أن يستجرّ (يجتذب) بعض من يراه إلى هواه؟ قال: ليس هذا رياءً. (الوسائل ١: ٧٦ / ١٧٢ ـ ٣ / باب ١٦؛ السرائر ٢: ٦٣٢؛ البحار ٦٩: ٣٠١ / ٣٩، باب ١٠٦).

(٢) معاني الأخبار: ٣٢٢ / ١؛ الوسائل ١: ٧٥ ـ ٧٦ / ١٦٩ ـ ٢، باب ١٥.

(٣) صفات الشيعة: ٣٢ / ٤٤؛ الوسائل ١: ١٠٧ / ٢٦٢ ـ ٤، باب ٢٤.

(٤) الوسائل ١: ١٠٦ / ٢٦٠ ـ ٢، باب ٢٤؛ الكافي ٢: ٢٤٠ / ٣١؛ الأمالي للصدوق: ٦٠ / ١٨ ـ ٤ / المجلس ٣.

الآخرون في نيّة صادقة. وإنّما الأعمال بالنيّات، إن خيراً فخير وإن شرّاً فشرّ، كما في الحديث[1].

ومن ثمّ كانت كلّ من الصدقة سرّاً أو علانيةً محبَّبة وذات أجر جزيل:

[٣٤٩٠/٢] روى أبو جعفر ابن بابويه الصدوق بالإسناد إلى عمربن يزيد عن الإمام أبي عبدالله الصادق عليه السلام قال: «صدقة العلانية تدفع سبعين نوعاً من البلاء، وصدقة السرّ تطفيء غضب الربّ»[2].

حيث كانت صدقة العلانية تبعث على اشتياق الآخرين للمشاركة في هذا العمل الإنساني النبيل، فربما أوجب التصدُّقُ بدرهم التصدُّقَ بمئات الدراهم.

فإذ كان ينتفع فقير بدرهمك، فإذا هم لمّة من الفقراء تزوّدوا بدراهم ودنانير!! والسعي وراء إشاعة الخير، يوجب المزيد من البركات.

[٣٤٩١/٢] وجاء في خطبة الإمام أميرالمؤمنين ـ عليه صلوات المصلّين ـ المعروفة بالديباج: «عباد الله! إنّ أفضل ما توسّل به المتوسّلون إلى الله، الإيمان به وبرسله، والجهاد في سبيله، وكلمة الإخلاص، وإقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصوم رمضان، وحجّ البيت، وصلة الرحم، فإنّها مثراة في المال ومنسأة في الأجل. إلى أن قال: والصدقة في السرّ، فإنّها تكفّر الخطايا وتطفئ غضب الربّ تبارك وتعالى، والصدقة في العلانية، فإنّها تدفع ميتة السوء».

وأضاف عليه السلام: «وصنائع المعروف، فإنّها تقي مصارع الهوان»[3].

فقد كانت كلّ من الصدقة في السرّ والصدقة في العلانية، ذات حكمة رشيدة، ففي الأُولى إخلاص لله وصون لحرمة الفقير. وفي الثانية ترويج للخير ومزيد من البركات. والجميع محبَّب مطلوب. والعمدة هي النيّة الصادقة.

قال تعالى: ﴿إِن تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَآءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَيُكَفِّرُ عَنكُم

---

(١) روى الشيخ أبو جعفر الطوسي بأسانيده إلى الإمام موسى بن جعفر عن آبائه عن رسول الله صلى الله عليه وآله قال: «إنّما الأعمال بالنيّات ولكلّ امرىءٍ ما نوى...». (الوسائل ١: ٤٩/ ١٠عن أمالي الشيخ: ٦١٨/ ١٢٧٤ ـ ١٠). وهكذا روى البخاري في الصحيح ١: ٢.

(٢) ثواب الأعمال: ١٤٣ (ط: نجف)؛ البحار ٩٣: ١٧٩/ ٢٠.

(٣) تحف العقول: ١٤٩؛ البحار ٧٤: ٢٨٩ ـ ٢٩٠؛ نهج البلاغة: ٢١٦، الخطبة ١١٠.

مِّن سَيِّـَٔاتِكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾[١] أي بنيّاتكم!

[٣٤٩٢/٢] وهكذا أخرج ابن أبي حاتم عن الربيع قال: كلّ مقبول، إذا كانت النيّة صادقة[٢].

[٣٤٩٣/٢] وأخرج البيهقي عن رسول الله ﷺ قال: «عمل السرّ أفضل من العلانية. والعلانية أفضل لمن أراد الاقتداء به»[٣].

قال سيّدنا العلّامة الطباطبائي: وقد مدح الله ـ سبحانه ـ كلًّا من صدقة السرّ وصدقة العلانية، إذ في كلٍّ منهما آثار صالحة، فأمّا الإظهار فلأنّ فيه دعوةً عمليّةً إلى المعروف، وتشويقاً بليغاً إلى البذل والإنفاق على المعوزين. كما فيه تطييب لنفوس الفقراء حيث تواجد رجال رحماء يبذلون أموالهم في رفع حوائج المعتازين، لتكون ذخيرة مدّخرة تطمئنّ إليها النفوس ويذهب عنها اليأس والقنوط. وبالتالي يعاودهم نشاطٌ حيويّ باعث على الحركة والعمل والاكتساب، وفي مراودة وثيقة بينهم وبين أصحاب الثروات، وفي ذلك كلّه خير كلّ الخير.

وأمّا الإخفاء فلأنّه أبعد من الرياء وعن إمكان المنّ والأذى كما هو صون لوجه المعوزين دون المذلّة والامتهان وتكريم لهم في نهاية المطاف.

إذن فصدقة العلانية أكثر نتاجاً، وصدقة السرّ أخلص طهارة. وكلاهما حسن جميل[٤].

قوله تعالى: ﴿أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْراهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَ إِسْحَاقَ وَ يَعْقُوبَ وَ الْأَسْبَاطَ كَانُوا هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ﴾

[٣٤٩٤/٢] أخرج عبد بن حميد وابن جرير عن مجاهد قال: في قول يهود لإبراهيم وإسماعيل ومن ذكر معهما: إنّهم كانوا يهوداً أو نصارى، فيقول الله لهم: لا تكتموا منّي شهادة إن كانت عندكم، وقد علم الله أنّهم كاذبون[٥].

[٣٤٩٥/٢] وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن قتادة قال: أولئك أهل الكتاب كتموا الإسلام وهم يعلمون أنّه دين الله، واتّخذوا اليهوديّة والنصرانيّة وكتموا محمّداً وهم يعلمون أنّه رسول الله[٦].

---

(١) البقرة ٢: ٢٧١.
(٢) ابن أبي حاتم ٢: ٥٣٧ / ٢٨٤٩.
(٣) الدرّ ٢: ٧٧.
(٤) الميزان ٢: ٤٢٠.
(٥) الدرّ ١: ٣٤١؛ الطبري ١: ٧٩٧ / ١٧٥٩.
(٦) الدرّ ١: ٣٤١؛ الطبري ١: ٧٩٨ / ١٧٦٢؛ ابن أبي حاتم ١: ٢٤٦ / ١٣١٩.

[٣٤٩٦/٢] وأخرج ابن جرير عن الربيع قال: أهل الكتاب كتموا الإسلام وهم يعلمون أنّه دين الله، وهم يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل(١).

[٣٤٩٧/٢] وأخرج ابن جرير عن الحسن قال: كان عند القوم من الله شهادة أنّ أنبياءه برآء من اليهوديّة والنصرانيّة(٢).

قوله تعالى: ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾

[٣٤٩٨/٢] أخرج ابن أبي حاتم عن ابن عبّاس قال: قال عبدالله بن صوريا لرسول الله ﷺ: ما الهدى إلّا ما نحن عليه فاتّبِعْنا يا محمّدُ تهتدي! وقالت النصارى مثل ذلك! فأنزل الله: ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾(٣).

[٣٤٩٩/٢] وقال مقاتل بن سليمان: فلمّا قالوا: إنّ إبراهيم وبنيه ويعقوب وبنيه كانوا على ديننا، قال الله ـ تعالى ـ ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ﴾ يعني عصبة يعني إبراهيم وبنيه ويعقوب وبنيه ﴿قَدْ خَلَتْ﴾ قد مضت ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ﴾ من العمل يعني من الدين ﴿وَلَكُم﴾ معشر اليهود والنصارى ﴿مَّا كَسَبْتُمْ﴾ من العمل يعني من الدين ﴿وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ أي يعمل أولئك(٤).

[٣٥٠٠/٢] وأخرج ابن أبي حاتم وابن مردويه عن أبي المليح قال: الأمّة ما بين الأربعين إلى المائة فصاعداً(٥).

---

(١) الطبري ١: ٧٩٨ / ١٧٦١؛ ابن أبي حاتم ١: ٢٤٦ / ١٣١٩.

(٢) الدرّ ١: ٣٤١؛ الطبري ١: ٧٩٧ ـ ٧٩٨ / ١٧٦٠؛ ابن أبي حاتم ١: ٢٤٦ / ١٣٢٠.

(٣) ابن أبي حاتم ١: ٢٤٧ / ١٣٢٢.

(٤) تفسير مقاتل ١: ١٤٣.

(٥) الدرّ ١: ٣٤٢؛ ابن أبي حاتم ١: ٢٤٦ / ١٣٢١؛ التاريخ الكبير ٥: ١١٣، ذيل رقم ٣٣٨.

قال تعالى:

﴿سَيَقُولُ السُّفَهَآءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّاهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا قُل لِّلَّهِ الْمَشْرِقُ
وَ الْمَغْرِبُ يَهْدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِراطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٤٢﴾ وَكَذٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا
شُهَدَآءَ عَلَى النَّاسِ وَ يَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا وَ مَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنتَ عَلَيْهَآ إِلَّا
لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَ إِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ
وَ مَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَؤُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤٣﴾ قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي
السَّمَآءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَ حَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا
وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ وَ إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ وَ مَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا
يَعْمَلُونَ ﴿١٤٤﴾ وَ لَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَّا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ وَ مَآ أَنتَ بِتَابِعٍ
قِبْلَتَهُمْ وَ مَا بَعْضُهُم بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ وَ لَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم مِّن بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ
إِذًا لَّمِنَ الظَّالِمِينَ ﴿١٤٥﴾ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ وَ إِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ
لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَ هُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤٦﴾ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ﴿١٤٧﴾ وَ لِكُلٍّ وِجْهَةٌ
هُوَ مُوَلِّيهَا فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمُ اللَّهُ جَمِيعًا إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ
قَدِيرٌ ﴿١٤٨﴾ وَ مِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَ إِنَّهُ لَلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَ مَا
اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٤٩﴾ وَ مِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَ حَيْثُ مَا
كُنتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ
فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي وَ لِأُتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ وَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٠﴾ كَمَآ أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا
مِّنكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَ يُزَكِّيكُمْ وَ يُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَ الْحِكْمَةَ وَ يُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا
تَعْلَمُونَ ﴿١٥١﴾ فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَ اشْكُرُوا لِي وَ لَا تَكْفُرُونِ ﴿١٥٢﴾﴾

الحديث في هذا المقطع من الآيات يكاد يدور حول حادث تحويل القبلة، والملابسات الّتي أحاطت به، والدسائس الّتي حاولها اليهود لغرض الوهن في الصفّ المسلم المتراصّ، محاولة بالمناسبة. وأقاويل أطلقوها من غير هوادة. فجاءت الآيات علاجاً لآثار تلك الأقاويل والدسائس، وطردها عن هواجس نفوس بعض المسلمين، ولتثبيت اليقين في الصفّ المسلم عموماً.

كان المسلمون في مكّة يتّجهون إلى بيت المقدس اتّجاها يجعل الكعبة حيالهم حين التوجّه إلى القدس. لكنّهم بعد الهجرة كان الاتّجاه نحو القدس يحول دون مواجهة الكعبة. ودام ذلك حوالي ستّة عشر أو سبعة عشر شهراً بعد الهجرة. وكان ذلك صعباً على العرب وعلى المسلمين، حيث مفارقة البيت العتيق!

وقد كان التوجّه إلى بيت المقدس وهو قبلة أهل الكتاب كاد يحزّ من نفوس المسلمين، كما كان يستفزّ استكبار أهل الكتاب ليروا في ذلك اعتلاء شريعتهم وليتّخذوه ذريعة لرفض الإسلام.

نعم كان الأمر شاقّاً على المسلمين العرب، الّذين ألفوا أن يعظّموا البيت الحرام وأن يجعلوه قبلتهم، وزاد الأمر مشقّة ذاك التبجّج من اليهود واتّخاذهم ذلك حجّة عليهم.

كما كان الرسول ﷺ يقلّب وجهه في السماء متّجهاً إلى ربّه، دون أن ينطق لسانه بشيء، تأدّباً مع الله، وانتظاراً للفرج والخروج من هذه العسرة، بما يرضاه ويرتضيه ربّ العالمين.

ثمّ نزل القرآن يستجيب لما يعتمل في صدر الرسول ﷺ: ﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَآءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَ حَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ﴾.

وحينما سمع المسلمون بهذا التحويل ازداد فرحهم وعاد الأمل في نفوسهم، وكان بعضهم في منتصف الصلاة فحوّلوا وجوههم شطر المسجد الحرام في أثناء صلاتهم، وأكملوا الصلاة تجاه القبلة الجديدة.

عندئذٍ انطلقت أبواق اليهود ـ وقد عزّ عليهم هذا التحوّل المفاجئ ـ كما فقدوا حجّتهم الّتي كانوا يركنون إليها في تعاظم شريعتهم والتهوين بموضع المسلمين. انطلقت تُلقي في صفوف المسلمين وقلوبهم، بذور القلق والشكّ في ثبات العقيدة. كانوا يقولون لهم: إن كان التوجّه ـ فيما مضى ـ إلى بيت المقدس باطلاً فقد ضاعت صلواتكم طوال هذه الفترة. وإن كان حقّاً فالتوجّه

الجديد باطل وتضيع صلاتكم. وعلى أيّة حال فإنّ هذا النسخ والتغيير في الشريعة، يتنافى وثبات شريعة الله!

وقد كان قوله تعالى: ﴿مَا نَنسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَا﴾[1] جواباً قاطعاً على هذا التشكيك ـ على ما سلف ـ.

أمّا الآن فجاء دور تبيين حكمة هذا التحويل بشأن قبلة المسلمين بالذات.

لقد كان الاتّجاه إلى بيت المقدس أوّلاً، لحكمة تربويّة أشارت إليها الآية: ﴿وَ مَا جَعَلْنَا الْـقِبْلَةَ الَّتِي كُنتَ عَلَيْهَآ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ﴾. كان صعباً على العرب وهم مازالوا يعظّمون الكعبة بالذات ويعدّوه عنوان مجدهم القوميّ. غير أنّ الإسلام يريد استخلاص القلوب لله، وتجريدها من التعلّق بغيره، وتخليصها من كلّ نعرةٍ ومن كلّ عصبيّة لغير المنهج الإسلامي المرتبط بالله ـ عزّت آلاؤه ـ ارتباطاً مباشراً، ومتجرّداً عن كلّ ملابسة عنصريّة أو تاريخيّة أو أرضيّة على العموم.. ولذلك فقد نزعهم نزعاً من الاتّجاه إلى الكعبة، واختار لهم الاتّجاه ـ فترةً ـ إلى المسجد الأقصى، ليخلص نفوسهم من رواسب الجاهليّة (العنصريّة والقوميّة) وليظهر ويلتمع نفوس طـيّبة ممّن يتّبع الرسول ﷺ اتّباعاً مجرّداً من أيّ إيحاءٍ آخر.

فلم تكن القبلة القديمة إلّا ليتميّز المتّبع الصادق ممّن ينقلب على عقبيه اعتزازاً بنعرة جاهليّة تتعلّق بالجنس والقوم والأرض والتاريخ، أو تتلبّس بها في خفايا المشاعر وحنايا الضـمير، أيّ تلبّس من قريب أو من بعيد.

وبعد هذا كلّه فيجيء دور التعرّض لأقاويل أهل السفاسف من الكـلام، وهـم السـفهاء مـن الناس، يقولون: ﴿مَا وَلَّاهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا﴾ وهل هو تحوّل من باطل إلى حقّ أم من حقّ إلى باطل؟!

فكان الجواب: أن لا هذا ولا ذاك. بل الأمر اعتبار محض. وقد كانت الحكمة في ذات الاتّجاه الواحد، فلا يتفرّق المتعبّدون في اتّجاه عباداتهم، بل الجميع وفي صفّ واحد يتّجهون إلى جـهة واحدة. أمّا كون نقطة الاتّجاه كذا أو كذا فهذا لامساس له في أصل التكليف. فقد يعتبر نقطة مّـا، لمصلحة تقتضيها شرائط الزمان. ويجوز التحويل عنها إلى نقطة أُخرى إذا تغيّرت المصالح. شأن

---

(١) البقرة ٢: ١٠٦.

كلّ أمر اعتباري كانت المصلحة تنوط بذات الاعتبار محضاً.

وإذ كان الأمر على ذلك فالاتّجاه إلى أيّ جهة، اتّجاهٌ إلى الله، حيث لا يحجزه مكان ولا يخلو منه مكان.

ومن ثمّ ﴿قُل لِّلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ فالعمدة اتّباع الأمر والانصياع للتكليف الموظّف والطاعة والاستسلام لأوامره تعالى، والكلّ هادية إلى سبيل الرشاد.

فالجهات والأماكن لافضل لها ذاتيّاً، إنّما يفضّلها ويخصّصها اختيار الله وتوجيهه. والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم.

* * *

ثمّ ينتقل الحديث إلى بيان حقيقة هي أفخم وأضخم، وهي ما تحمله هذه الأُمّة من رسالة خالدة إلى سائر الأمم جميعاً ومع الأبد. وهذه هي الفضيلة الكبرى الّتي منح الله لهذه الأمّة تكريماً لها وتعزيزاً لجانبها. وهي وظيفتها الضخمة في هذه الأرض، ومكانتها العظيمة في ركب البشريّة السائرة إلى الأمام، ومن ثمّ فهي تلعب دورها الأساسي في حياة الناس!

﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ أي بهذا النمط من الاستعداد الذاتي والاستقلال في العقيدة والسلوك ﴿جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَآءَ عَلَى النَّاسِ﴾ عُرَفاء يتحمّلون مسؤوليّة إقامة العدل بين الناس ﴿وَيَكُونَ الرَّسُولُ﴾ بدوره ﴿عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ مسؤولاً عنكم في أداء رسالة الله إليكم بتمام وكمال.

نعم إنّها الأمّة الوسط الّتي تشهد على الأمم جميعاً، فتقيم بينهم العدل والقسط، وتضع لهم معايير وقيماً، وتبدي فيهم رأيها، ليكون هو الرأي المعتمد عند الناس جميعاً. فتزن بها قيمهم وتصوّراتهم وتقاليدهم وشعاراتهم، فتفصل في أمرها، وتقول: هذا حقّ وهذا باطل. لا الّتي تتلقّى من الناس تصوّراتها وقيمها وموازينها. فهي شهيدة على الناس ومسؤولة بالقيام ببسط العدل بينهم. وبينما هي تشهد على الناس وتتحمّل مسؤوليّة العدل بينهم، إذا هم في مرأى ومسمع نبيّهم وخلفائه المرضيّين، فيشهدون مواضع الأمّة في أداء رسالة الله في الأرض.

نعم إنّها الأمّة الوسط بكلّ معاني الكلمة: وسط لإقامة العدل بين الناس. ووسط في التصوّر والاعتقاد. لاتغلو في التجرّد الروحي ولا تبالغ في الارتكاس المادي. ووسط في التفكير والشعور. لاتجمد على ظاهر التعبير لتغلق منافذ المعرفة. ولا تتّبع كلّ ناعق أو تقلّد تقليد القردة.

إنّها تأخذ بصلب الدين في إمعان وتعمّق وتفكير. كما أنّها وسط في التنظيم والتدبير وفي كلّ ما يرتبط وعلاقته بالحياة.

وبذلك جاءت الإشارة في سورة الحجّ: ﴿وَ جَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَ مَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَ فِي هَـٰذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَ تَكُونُوا شُهَدَآءَ عَلَى النَّاسِ﴾[1] فالأمّة برمّتها مسؤولة تجاه الرسول، في أداء رسالة الله في الأرض.

وعليه فتمتاز هذه الأمّة باستقلالها الذاتيّ في جميع مجالات الحياة معنويّاتها وماديّاتها.

نعم كان الاتّجاه الأوّل ـ نحو بيت المقدس ـ لغرض الاختبار ﴿وَ مَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنتَ عَلَيْهَآ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ﴾.

﴿وَ إِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً﴾ «إن» مخفّفة عن المثقّلة، أي وبحقّ كان تكليفاً اختباريّاً شاقّاً. أمّا الّذين تجرّدت نفوسهم طوع إرادة الله. فلم يكن ذلك صعباً عليهم: ﴿إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّـهُ﴾ هدى الله قلوبهم فتفتّحت منافذها لتلقّي إشعاعات رحمته تعالى الخاصّة بالمؤمنين.

﴿وَ مَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ﴾ حيث لاتشبه عليه خلجات الصدور ﴿إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ﴾ عموماً ﴿لَرَؤُوفٌ رَّحِيمٌ﴾. ذو رحمة شاملة وعطف عامّ.

وبهذا يفيض على قلوب المسلمين الطمأنينة، ويذهب عنها القلق، ويجعلهم على رضىً وثقةٍ ويقين.

وبعد ذلك يعلن استجابة الله لرسوله ﷺ في أمر القبلة: ﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَآءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَ حَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ﴾.

إنّ هذا التعبير يصوّر حالة النبيّ وضراعته إلى الله كي يجعل له مخرجاً من ذلك المأزق.

وجاءت الاستجابة في تعبير قاطع، تكليفاً له ولأمّته حيثما كانوا من أنحاء الأرض وعلى امتداد الزمان. قبلة واحدة تجمع هذه الأمّة وتوحّد صفوفها على اختلاف مواطنها واختلاف أجناسها ومآربها، فتحسّ أنّها جسم واحد وكيان واحد، تتّجه إلى هدف واحد، وتسعى لتحقيق منهج واحد، منهج ينبثق من كونها جميعاً تعبد إلّهاً واحداً، وتؤمن برسول واحد، وتتّجه إلى قبلة واحدة، في صفّ متراصّ حيث شرق الأرض وغربها.

---

(١) الحجّ ٢٢: ٧٨.

ثمّ ما شأن أهل الكتاب وهذه القبلة الجديدة؟

﴿وَ إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ﴾: يعلمون أنّ الكعبة هو أوّل بيت وضع للناس[١]. وكان إبراهيم ـ أبو الأنبياء ـ هو الّذي رفع قواعده.

وهو جدّ هذه الأمّة الوارثة، ويعلمون أنّه الأحقّ بالتوجّه إليه. ولكنّهم مع هذا، يتلهّجون بغير ما يوحيه هذا العلم الرشيد. إذن فما على المسلمين أن لايبالوا بسفاسفهم المهرّجة، وهي لاتلوي على شيء. فالله هو الوكيل الكفيل بردّ مكرهم وكيدهم:

﴿وَ مَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾.

إنّهم ليسوا بمن يقتنع بدليل ولا تُخضعهم حجّة. حيث الّذي يعوزهم ليس هو الدليل. إنّما يعوزهم الإخلاص والتجرّد عن الهوى. ولم يكونوا على استعداد للتسليم للحقّ مهما كان واضحاً لائحاً:

﴿وَ لَـئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ﴾ حجّة أو برهان قاطع ﴿ما تَبِعُوا قِبْلَتَكَ﴾ فهم في عناد ولجاج يقوده الهوى ويحدوه الغرض وتورثه المطامع[٢]. الأمر الّذي ليس يعالجه برهان ولا تفيده إقامة دليل!

﴿وَ مَآ أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ﴾ بعد وضوح البرهان.

﴿وَ مَا بَعْضُهُم بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ﴾[٣] حيث العداء والمنافسة قائمة بينهم على أوار.

ومن كان هذا شأنهم لايحتشمون قريباً ولابعيداً وهم على اختلاف دائم. فلا صلاحيّة لهم ليكونوا قدوة لغيرهم من الهادفين إلى السلام. إذن فليس ينبغي لمسلم مستسلم للحقّ الصّراح أن يتّبع آثار من وجدهم على مثل هذا التنافر والشقاق.

﴿وَ لَـئِنِ اتَّبَعْتَ﴾ خطاب لمن استمع هذا المقال ﴿أَهْوَآءَهُم مِّن بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ الْعِلْمِ، إِنَّكَ إِذًا لَّمِنَ الظَّالِمِينَ﴾ الّذين انحرفت بهم الأهواء فتاهوا في غياهب الضلال.

فليس للمسلم الواعي أن يدع العلم المستيقن إلى الهوى المتقلّب. وماذا بعد الحقّ إلّا الضلال.

ومن شدّة هذا اللحن الصارم نلمح أنّه كانت هناك حالة واقعة من بعض المسلمين؛ غمرتهم

---

(١) آل عمران ٣: ٩٦.

(٢) أي تُوقد لَهَبَه المطامعُ.

(٣) حيث النصارى تتّجه إلى المشرق واليهود إلى بيت المقدس. (آلاء الرحمان ١: ١٣٧).

دسائس يهوديّة، فحاولوا الركض وراء السراب، ومن ثمّ هذه الحدّة في التحذير وهذا الجزم في التعبير.

نعم ليس الحقّ بالّذي يخفى، وإن حاول إخفاءه الزائفون:

﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ﴾ يعرفون الحقّ فيما جاء به القرآن معرفةً لا مرية فيها ﴿كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَ إِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَ هُمْ يَعْلَمُونَ﴾.

ومعرفة الناس بأبنائهم هي قمّة المعرفة، وهي مَثَل يُضرب في لغة العرب لليقين الّذي لا شبهة فيه. إذن فلا وقع لتشكيكاتهم بعد عرفان الكتمان منهم.

ومن هنا صحّ البيان الصريح: ﴿الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾.

ولم يكن رسول الله ﷺ ليشكّ، ولكنّ الخطاب يحمل إيحاءً قويّاً إلى مَنْ وراءه من المسلمين، سواء منهم من كان في ذلك الحين وكاد يتأثّر بأباطيل اليهود وأحابيلهم، ومن يأتي بعدهم، فلا يتأثّروا بمكايد أهل الكتاب. ولا غيرهم من أصحاب المذاهب والآراء الكاسدة. فلا يغترّ مسلم ـ وعنده الرصيد الأفخم ـ ببضائع مزجاة يعرضها أهل الأهواء.

وعلى المسلم النابه أن يختار الأفضل والأمثل طريقة في الحياة. من غير أن يذهب به الأهواء يمنة ويسرةً كريشة في الهواء.

﴿وَ لِكُلٍّ وِجْهَةٌ﴾ حسب اختياره ﴿هُوَ مُوَلِّيهَا فَاسْتَبِقُوا﴾ أيّها المسلمون ﴿الْخَيْرَاتِ﴾ والتمسوا أفضلها وأقومها وأبقاها ﴿أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمُ اللَّهُ جَمِيعًا﴾ في نهاية المطاف ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

وبذلك يصرف الله المسلمين عن الانشغال بأباطيل لا محصّل لها وتأويلات لا مستند لها. يصرفهم إلى العمل الجادّ والاستباق في فعل الخيرات، وليكونوا منشأ بثّ البركات في الأرض. والعاقبة لله.

* * *

ثمّ يعود فيؤكّد الأمر بالاتّجاه نحو القبلة الجديدة المختارة: ﴿وَ مِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَ إِنَّهُ لَلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَ مَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾.

ثمّ توكيد للمرّة الثالثة ممّا يشي بأنّه كانت هناك حالة واقعة وراءه في قلوب بعض المسلمين،

هي حالة ترديد وشكّ عن جدّ الأمر. ومن ثَمّ هذا التوكيد المكرّر وهذا التحذير الشديد:

﴿وَ مِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَ حَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي وَ لِأُتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ وَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾.

نعم هذا التأكيد في التوجّه إلى القبلة الجديدة، لئلا يكون لسفهاء والناس عليكم حجّة، ليحسبوا من شريعتهم هي المتّبعة المفضّلة. لكنّها قولة ظالمة، إذ لاتستند إلى برهان. ومن ثَمّ فلاتخشوهم، ولديكم سلطان من الله!

بل اخشوا الله الّذي أيّدكم بنصره وفضّلكم ببرهانه. وغمركم بنعمته. كلّ ذلك لغرض هدايتكم إلى سبيل الرشاد. وليجعلكم قدوة للناس وأسوة لامعة.

﴿كَمَآ أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ﴾ من أنفسكم ﴿يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا﴾ يتابع البيان في الدلائل والبرهان ﴿وَ يُزَكِّيكُمْ﴾ يطهّركم من الأدناس والأرجاس، ويرفع بكم إلى مستوى الفكر الرشيد والعقل السديد.

﴿وَ يُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَ الْحِكْمَةَ﴾. المراد بالكتاب: ما كتب عليهم من أحكام الشريعة وفرائضها. أمّا الحكمة فهي البصيرة في الدين.

﴿وَ يُعَلِّمُكُم﴾ من حقائق راقية ومعارف سامية ﴿مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ﴾ لو تُركتم على حالتكم الأولى القاحلة.

إذن ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَ اشْكُرُوا لِي وَ لَا تَكْفُرُونِ﴾.

* * *

وبعد فإليكم من أحاديث السلف بشأن حادث تحويل القبلة:

قوله تعالى: ﴿سَيَقُولُ السُّفَهَآءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّاهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عليها﴾

[٣٥٠١/٢] أخرج ابن إسحاق وعبد بن حميد وابن أبي حاتم عن البراء قال: كان رسول الله ﷺ يصلّي نحو بيت المقدس ويُكثر النظر إلى السماء ينتظر أمر الله، فأنزل الله: ﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ في

السَّمَآءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾[1] فقال رجال من المسلمين: وَدِدنا لو علمنا من مات منّا قبل أن نصرف إلى القبلة؟ وكيف بصلاتنا نحو بيت المقدس؟ فأنزل الله: ﴿وَ مَاكَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ﴾[2]. وقال السفهاء من الناس ـ وهم أهل الكتاب ـ: ما ولّاهم عن قبلتهم الّتي كانوا عليها؟ فأنزل الله: ﴿سَيَقُولُ السُّفَهَآءُ مِنَ النَّاسِ﴾ إلى آخر الآية[3].

[٣٥٠٢/٢] وأخرج ابن إسحاق وابن جرير وابن أبي حاتم والبيهقي في الدلائل عن ابن عبّاس قال: صُرفتِ القبلة عن الشام إلى الكعبة في رجب، على رأس سبعة عشر شهراً من مقدم رسول الله ﷺ المدينة، فأتى رسولَ الله ﷺ رفاعةُ بن قيس وقردم بن عمرو وكعب بن الأشرف ونافع بن أبي نافع والحجّاج بن عمرو، حليف كعب بن الأشرف، والربيع بن أبي الحُقَيق[4]، وكنانة بن أبي الحُقَيق، فقالوا له: يا محمّد، ما ولّاك عن قبلتك الّتي كنت عليها، وأنت تزعم أنّك على ملّة إبراهيم ودينه؟ ارجع إلى قبلتك الّتي كنت عليها، نتّبعك ونصدّقك؛ وإنّما يريدون فتنته عن دينه! فأنزل الله: ﴿سَيَقُولُ السُّفَهَآءُ مِنَ النَّاسِ﴾ إلى قوله ﴿إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ﴾ أي ابتلاءً واختباراً ﴿وَ إِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ﴾[5] أي الّذين ثبّت الله. ﴿وَ مَاكَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ﴾ يقول: صلاتكم بالقبلة الأُولى، وتصديقكم نبيّكم واتّباعكم إيّاه إلى القبلة الآخرة، أي ليعطينّكم أجرهما جميعاً، ﴿إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَؤُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ إلى قوله ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾[6].

[٣٥٠٣/٢] وأخرج البيهقي في الدلائل عن الزهري قال: صرفت القبلة نحو المسجد الحرام في رجب على رأس ستة عشر شهراً من مخرج رسول الله ﷺ من مكّة، وكان رسول الله ﷺ يقلّب وجهه في السماء وهو يصلّي نحو بيت المقدس، فأنزل الله حين وجّهه إلى البيت الحرام: ﴿سَيَقُولُ السُّفَهَآءُ مِنَ النَّاسِ﴾ وما بعدها من الآيات، فأنشأت اليهود تقول: قد اشتاق الرجل إلى بلده وبيت

---

(١) البقرة ٢: ١٤٤. (٢) البقرة ٢: ١٤٣.

(٣) الدرّ ١: ٣٤٢؛ ابن أبي حاتم ١: ٢٤٨ / ١٣٢٨؛ ابن كثير ١: ١٩٥.

(٤) في الدلائل: الربيع بن الربيع بن أبي الحقيق. (٥) البقرة ٢: ١٤٣.

(٦) الدرّ ١: ٣٤٤؛ الطبري ٢: ٥ / ١٧٧٣؛ ابن أبي حاتم ١: ٢٤٧ ـ ٢٤٨ / ١٣٢٧. وفيه: إنّ يهود قالوا للنبيّ ﷺ: ... إلى قوله: «فأنزل الله ﴿سيقول...﴾» وعزّاه أيضاً إلى سعيد بن جبير وقتادة والسدّي والربيع بن أنس؛ الدلائل ٢: ٥٧٥، باب تحويل القبلة إلى الكعبة؛ التبيان ٢: ٤؛ مجمع البيان ١: ٤١٤.

أبيه، وما لهم حتّى تركوا قبلتهم يصلّون مرّة وجهاً ومرّة وجهاً آخر؟ وقال رجال من الصحابة: فكيف بمن مات منّا وهو يصلّي قِبَلَ بيت المقدس، وفرح المشركون وقالوا: إنّ محمّداً قد التبس عليه أمره، ويوشك أن يكون على دينكم، فأنزل الله في ذلك هؤلاء الآيات[١].

[٣٥٠٤/٢] وأخرج ابن جرير عن السدّي قال: لمّا وُجِّه النبيّ ﷺ قِبَلَ المسجد الحرام اختلف الناس فيها، فكانوا أصنافاً؛ فقال المنافقون: ما بالهم كانوا على قبلةٍ زماناً ثمّ تركوها وتوجّهوا غيرها؟ وقال المسلمون: ليت شعرنا عن إخواننا الّذين ماتوا وهم يصلّون قِبَلَ بيت المقدس هل يقبل الله منّا ومنهم أم لا؟ وقالت اليهود: إنّ محمّداً اشتاق إلى بلد أبيه ومولده، ولو ثبت على قبلتنا لكنّا نرجو أن يكون هو صاحبنا الّذي ننتظر، وقال المشركون من أهل مكّة: تحيّر على محمّدٍ دينُه، فتوجّه بقبلته إليكم وعلم أنّكم كنتم أهدى منه، ويوشك أن يدخل في دينكم، فأنزل الله في المنافقين: ﴿سَيَقُولُ السُّفَهَآءُ مِنَ النَّاسِ﴾ إلى قوله ﴿إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ﴾، وأنزل في الآخرين الآيات بعدها[٢].

[٣٥٠٥/٢] وأخرج الزبير بن بكّار في أخبار المدينة عن عثمان بن عبدالرحمان قال: كان رسول الله ﷺ إذا قام يصلّي انتظر أمر الله في القبلة، وكان يفعل أشياء لم يؤمر بها ولم يُنه عنها، من فعل أهل الكتاب، فبينا رسول الله ﷺ يصلّي الظهر في مسجده، قد صلّى ركعتين إذ نزل عليه جبريل، فأشار له أن صلّ إلى البيت وصلّى جبريل إلى البيت، وأنزل الله: ﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَآءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَ حَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ وَ إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ وَ مَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾[٣] قال: فقال المنافقون: حنّ محمّد إلى أرضه وقومه، وقال المشركون: أراد محمّدٌ أن يجعلنا له قبلة ويجعلنا له وسيلة، وعرف أنّ ديننا أهدى من دينه. وقال اليهود للمؤمنين: ما صرفكم إلى مكّة وترككم به القبلة، قبلةَ موسى ويعقوب والأنبياء؟ والله إن أنتم إلّا تفتنون. وقال المؤمنون: لقد ذهب منّا قوم ماتوا ما ندري أكنّا نحن وهم على قبلة أو لا؟ قال: فأنزل الله عزّ وجلّ في ذلك: ﴿سَيَقُولُ السُّفَهَآءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّاهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا﴾ إلى قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَؤُوفٌ رَّحِيمٌ﴾[٤].

---

(١) الدرّ ١: ٣٤٥؛ الدلائل ٢: ٥٧٤ ـ ٥٧٥.
(٢) الدرّ ١: ٣٤٥؛ الطبري ٢: ٩ و١٨ ـ ١٩ / ١٧٨٨ و ١٨٢١.
(٣) البقرة ٢: ١٤٤.
(٤) الدرّ ١: ٣٤٦ ـ ٣٤٧.

[٣٥٠٦/٢] وقال مقاتل بن سليمان: ﴿سَيَقُولُ السُّفَهَآءُ مِنَ النَّاسِ﴾ وذلك أنّ النبيّ وأصحابه كانوا بمكّة يصلّون ركعتين بالغداة وركعتين بالعشيّ، فلمّا عُرج بالنبيّ ﷺ إلى السماء ليلاً أُمر بالصلوات الخمس، فصارت الركعتان للمسافر، وللمقيم أربع ركعات، فلمّا هاجر إلى المدينة لليلتين خلتا من ربيع الأوّل أمر أن يصلّي نحو بيت المقدس لئلا يكذّب به أهلُ الكتاب إذا صلّى إلى غير قبلتهم مع مايجدون من نعته في التوراة، فصلّى النبيّ وأصحابه قِبَلَ بيت المقدس من أوّل مقدمه المدينة سبعة عشر شهراً وصلّت الأنصار قِبَلَ بيت المقدس سنتين قبل هجرة النبيّ ﷺ وكانت الكعبة أحبّ القبلتين إلى النبيّ ﷺ. فقال لجبريل ﵇: «وددتُ أنّ ربّي صرفني عن قبلة اليهود إلى غيرها!» فقال جبريل ﵇: إنّما أنا عبد مثلك لا أملك شيئاً، فاسأل ربّك ذلك، وصعد جبريل إلى السماء، وجعل النبيّ يُديم النظر إلى السماء رجاء أن يأتيه جبريل بما سأل. فأنزل الله ـ عزّ وجلّ ـ في رجب عند الصلاة الأُولى قَبْل قتال بدر بشهرين: ﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَآءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ﴾. ولمّا صرفت القبلة إلى الكعبة قال مشركو مكّة: قد تردّد على أمره واشتاق إلى مولد آبائه، وقد توجّه إليكم وهو راجع إلى دينكم، فكان قولهم هذا سفهاً منهم، فأنزل الله: ﴿سَيَقُولُ السُّفَهَآءُ مِنَ النَّاسِ﴾ يعني مشركي مكّة ﴿مَا وَلَّاهُمْ﴾ يقول ما صرفهم ﴿عَن قِبْلَتِهِمُ﴾ الأولى ﴿الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا قُل﴾ يا محمّد ﴿لِّلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ يعني دين الإسلام يهدي الله نبيّه والمؤمنين لدينه[١].

وقد اختلفوا في المراد من السفهاء ـ هنا ـ:

[٣٥٠٧/٢] فقد أخرج ابن جرير عن السدّي أنّهم المنافقون[٢].

[٣٥٠٨/٢] وعن مجاهد: أنّهم اليهود[٣]. وكذا عن ابن عبّاس[٤].

[٣٥٠٩/٢] وروى بعضهم عن الحسن أنّهم مشركو العرب[٥].

[٣٥١٠/٢] وقال أبو محمّد ﵇: «وجاء قوم من اليهود إلى رسول الله ﷺ، فقالوا: يا محمّد هذه القبلة (بيت المقدس) قد صلّيت إليها أربع عشرة سنة، ثمّ تركتها الآن، أفحقّاً كان ما كنت عليه، فقد

---

(١) تفسير مقاتل ١: ١٤٣ ـ ١٤٤.
(٢) الطبري ٢: ٤ / ١٧٧٢.
(٣) المصدر: ٣ / ١٧٦٨.
(٤) المصدر.
(٥) أبو الفتوح ٢: ١٩٥؛ تفسير مقاتل ١: ١٤٤.

تركته إلى باطل، فإنّما يخالف الحقّ الباطل، أو باطلاً كان ذلك. فقد كنت عليه طول هذه المدّة، فما يؤمننا أن تكون الآن على باطل!؟ فقال رسول الله: بل ذلك كان حقّاً وهذا حقّ، يقول الله: ﴿قُل لِّلَّهِ الْمَشْرِقُ وَ الْمَغْرِبُ يَهْدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِراطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ إذا عرف صلاحكم يا أيّها العباد في استقبال المشرق أمركم به، وإذا عرف صلاحكم في استقبال المغرب أمركم به، وإن عرف صلاحكم في غيرهما أمركم به، فلا تنكروا تدبير الله في عباده، وقصده إلى مصالحكم، ثمّ قال رسول الله ﷺ: قد تركتم العمل يوم السبت، ثمّ عملتم بعده سائر الأيّام، ثمّ تركتموه في السبت ثمّ عملتم بعده، أفتركتم الحقّ إلى الباطل والباطل إلى حقّ أو الباطل إلى باطل أو الحقّ إلى حقّ؟ قولوا كيف شئتم، فهو قول محمّد وجوابه لكم. قالوا: بل ترك العمل في السبت حقّ، والعمل بعده حقّ، فقال رسول الله: فكذلك قبلة بيت المقدس في وقته حقّ، ثمّ قبلة الكعبة في وقته حقّ. فقالوا: يا محمّد، أفبدا لربّك فيما كان أمرك به بزعمك من الصلاة إلى بيت المقدس، حين نقلك إلى الكعبة؟ فقال رسول الله ﷺ: ما بدا له عن ذلك، فإنّه العالم بالعواقب، والقادر على المصالح، لا يستدرك على نفسه غلطاً، ولا يستحدث رأياً يخالف المتقدّم، جلّ عن ذلك، ولا يقع أيضاً عليه مانع يمنعه عن مراده، وليس يبدو إلّا لمن كان هذا وصفه، وهو ﷻ متعال عن هذه الصفات علوّاً كبيراً. ثمّ قال لهم رسول الله: أيّها اليهود، أخبروني عن الله، أليس يُمرض ثمّ يُصحّ؟ ويُصحّ ثمّ يُمرض؟ أبدا له في ذلك؟ أليس يُحيي ويُميت؟ أليس يأتي بالليل في أثر النهار ثمّ بالنهار في أثر الليل؟ أبدا له في كلّ واحد من ذلك؟ قالوا: لا، قال: فكذلك الله تعبّد نبيّه محمّداً بالصلاة إلى الكعبة، بعد أن تعبّده بالصلاة إلى بيت المقدس، وما بدا له في الأوّل. فكذلك تعبّدكم في وقت لصلاح يعلمه بشيء، ثمّ بعده في وقت آخر لصلاح آخر يعلمه بشيء آخر، فإذا أطعتم الله في الحالين استحققتم ثوابه، وأنزل الله: ﴿وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَ الْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ﴾[1] أي إذا توجّهتم بأمره، فثمّ الوجه الّذي تقصدون منه الله وتأملون ثوابه. ثمّ قال رسول الله ﷺ: يا عباد الله، أنتم كالمرضى والله ربّ العالمين كالطبيب، فصلاح المرضى فيما يعلمه الطبيب ويدبّره به، لا فيما يشتهيه المريض ويقترحه، ألا فسلّموا لله أمره تكونوا من الفائزين. فقيل ـ خطاباً لأبي محمّد ؑ ـ: يا ابن رسول الله ﷺ، فَلِمَ أمر بالقبلة الأُولى؟ فقال: لما قال الله ﷻ: ﴿وَ مَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنتَ عَلَيْهَآ﴾ وهي بيت المقدس ﴿إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ

(١) البقرة ٢: ١١٥.

الرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ﴾ إلّا لنعلم ذلك منه موجوداً، بعد أن علمناه سيوجد ذلك، أنّ هوى أهل مكّة كان في الكعبة، فأراد الله أن يبيّن متّبع محمّد من مخالفه، باتّباع القبلة الّتي كرهها، ومحمّد يأمر بها، ولمّا كان هوى أهل المدينة في بيت المقدس، أمرهم مخالفتها والتوجّه إلى الكعبة، ليتبيّن من يوافق محمّداً فيما يكرهه، فهو مصدّقه وموافقه. ثمّ قال: ﴿وَ إِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ﴾ إنّما كان التوجّه إلى بيت المقدس في ذلك الوقت كبيرة، إلّا على من يهدي الله، فعرف أنّ الله يُتعبّد بخلاف ما يريده المرء، ليبتلي طاعته في مخالفته هواه»[١].

[٣٥١١/٢] وأخرج ابن أبي شيبة وأبو داوود في ناسخه والنحّاس والبيهقي في سننه عن ابن عبّاس: أنّ النبيّ ﷺ كان يصلّي وهو بمكّة نحو بيت المقدس والكعبة بين يديه، وبعد ما تحوّل إلى المدينة ستّة عشر شهراً، ثمّ صرفه الله إلى الكعبة[٢].

[٣٥١٢/٢] وأخرج ابن عدي والبيهقي في السنن والدلائل من طريق سعيد بن المسيّب، قال: سمعت سعد بن أبي وقّاص يقول: صلّى رسول الله ﷺ بعد ما قدم المدينة ستّة عشر شهراً نحو بيت المقدس، ثمّ حوّل بعد ذلك قِبَلَ المسجد الحرام قبل بدر بشهرين[٣].

[٣٥١٣/٢] وأخرج ابن جرير عن حجّاج قال: قال ابن جُرَيج: صلّى رسول الله ﷺ أوّل ما صلّى إلى الكعبة، ثمّ صرف إلى بيت المقدس، فصلّت الأنصار نحو بيت المقدس قبل قدومه ثلاث حجج، وصلّى بعد قدومه ستّة عشر شهراً، ثمّ ولّاه الله ـ جلّ ثناؤه ـ إلى الكعبة[٤].

[٣٥١٤/٢] وأخرج ابن جرير عن معاذ بن جبل: أنّ النبيّ ﷺ قدم المدينة فصلّى نحو بيت المقدس ثلاثة عشر شهرا[٥].

---

(١) مستدرك الوسائل ٣: ١٧٥؛ الاحتجاج ١: ٤٤؛ البحار ٤: ١٠٥ ـ ١٠٧.

(٢) الدرّ ١: ٣٤٣؛ البيهقي ٢: ٣، كتاب الصلاة، باب تحويل القبلة من بيت المقدس إلى الكعبة؛ مسند أحمد ١: ٣٢٥؛ مجمع الزوائد ٢: ١٢، باب ما جاء في القبلة، قال الهيثمي: رواه أحمد والطبراني في الكبير والبزّار ورجاله رجال الصحيح.

(٣) الدرّ ١: ٣٤٥؛ البيهقي ٢: ٣؛ الدلائل ٢: ٥٧٤، باب تحويل القبلة إلى الكعبة؛ الكامل ١: ١٩١، وفيه: تسعة عشر شهراً.

(٤) الطبري ٢: ٨ / ١٧٨٥.

(٥) الدرّ ١: ٣٤٦؛ الطبري ٢: ٧ / ١٧٨٠؛ التبيان ٢: ٤؛ مجمع البيان ١: ٤١٤؛ أبوالفتوح ٢: ٢٠٣.

[٣٥١٥/٢] وأخرج البزّار وابن جرير عن أنس قال: صلّى النبيّ ﷺ نحو بيت المقدس تسعة أشهر أو عشرة أشهر، فبينما هو قائم يصلّي الظهر بالمدينة وقد صلّى ركعتين نحو بيت المقدس انصرف بوجهه إلى الكعبة، فقال السفهاء: ﴿مَا وَلَّاهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا؟﴾(١).

[٣٥١٦/٢] وأخرج أبو داوود في ناسخه عن سعيد بن عبدالعزيز: أنّ النبيّ ﷺ صلّى نحو بيت المقدس من شهر ربيع الأوّل إلى جمادي الآخرة(٢).

[٣٥١٧/٢] وأخرج الطبراني عن عثمان بن حنيف قال: كان رسول الله ﷺ قبل أن يقدم من مكّة يدعو الناس إلى الإيمان بالله وتصديقٍ به قولاً بلا عمل، والقبلة إلى بيت المقدس، فلمّا هاجر إلينا نزلت الفرائض، ونَسختِ المدينةُ مكّةَ والقولَ فيها، ونسخ البيتُ الحرام بيتَ المقدس، فصار الإيمان قولاً وعملاً(٣).

قلت: هذا حديث غريب!

[٣٥١٨/٢] وأخرج أبو داوود في ناسخه من طريق مجاهد عن ابن عبّاس قال: أوّل آية نُسخت من القرآن القبلة، ثمّ الصلاة الأُولى(٤).

قلت: ليس في القرآن آية بشأن القبلة الأُولى حتّى تُنسخ، بل الموجود هي الآية الناسخة. ولعلّ في التعبير مسامحة.

[٣٥١٩/٢] وأخرج البخاري عن أنس قال: لم يبق ممن صلّى للقبلتين غيري(٥).

[٣٥٢٠/٢] وأخرج أحمد والبيهقي في سننه عن عائشة قالت: قال رسول الله ﷺ «إنّهم ـ يعني أهل الكتاب ـ لا يحسدونا على شيء كما يحسدونا على الجمعة الّتي هدانا الله لها وضلّوا عنها،

---

(١) الدرّ ١: ٣٤٦؛ الطبري ٢: ٦ـ٧ / ١٧٧٩.

(٢) الدرّ ١: ٣٤٥.

(٣) الدرّ ١: ٣٤٨؛ الكبير ٩: ٣٢؛ مجمع الزوائد ١: ٥٥، باب: في الإسلام والإيمان، قال الهيثمي: رواه الطبراني في الكبير وفي إسناده جماعةٌ لم أعرفهم!

(٤) الدرّ ١: ٣٤٤؛ مجمع البيان ١: ٤٢٣، بلفظ: «إنّ أوّل ما نسخ في القرآن القبلة»؛ التبيان ٢: ١٥، كما في المجمع؛ أبوالفتوح ٢: ٢٠٧.

(٥) الدرّ ١: ٣٤٦؛ البخاري ٥: ١٥١، كتاب التفسير، باب ١٥، وفيه: صلّى القبلتين.

وعلى القبلة الّتي هدانا الله لها وضلّوا عنها، وعلى قولنا خلف الإمام: آمين»[١].

قلت: ولعلّ الجملة الأخيرة مزيدة. وقد فصّلنا القول في ذلك عند تفسير سورة الحمد. ولاسيّما بعد ملاحظة ضعف الحديث سنداً بعليّ بن عاصم، كما نبّه عليه الهيثمي.

[٣٥٢١/٢] وأخرج ابن أبي حاتم عن أبي العالية في قوله: ﴿يَهْدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ قال: يهديهم إلى المخرج من الشبهات والضلالات والفتن[٢].

[٣٥٢٢/٢] وقال مقاتل بن سليمان في قوله: ﴿يَهْدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾: يعني دين الإسلام يهدي الله نبيّه والمؤمنين لدينه[٣].

قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾

[٣٥٢٣/٢] أخرج ابن جرير وجماعة عن النبيّ ﷺ في قوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ قال: «عدلاً»[٤].

[٣٥٢٤/٢] وأخرج ابن جرير عن ابن عبّاس في قوله: ﴿جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ يقول: جعلكم أمّة عدلاً[٥].

[٣٥٢٥/٢] وأخرج ابن جرير عن أبي سعيد الخدري في قوله: ﴿أُمَّةً وَسَطًا﴾ قال: «عُدُولاً»[٦].

[٣٥٢٦/٢] وأخرج عبد الرزّاق عن قتادة في قوله: ﴿وَسَطًا﴾ قال: عدولاً لتكون هذه الأمّة شهداء

---

(١) الدرّ ١: ٣٤٨؛ مسند أحمد ٦: ١٣٥؛ البيهقي ٢: ٥٦، باب التأمين؛ مجمع الزوائد ٢: ١٥، قال الهيثمي: رواه أحمد وفيه عليّ بن عاصم شيخ أحمد وقد تُكلّم فيه بسبب كثرة الغلط والخطاء، كنزالعمّال ٧: ٧١٧ / ٢١٠٧٤؛ ابن كثير ١: ١٩٦ و ٣٣ـ٣٤.

(٢) الدرّ ١: ٣٤٨؛ ابن أبي حاتم ١: ٢٤٨ / ١٣٣٠.

(٣) تفسير مقاتل ١: ١٤٤.

(٤) الدرّ ١: ٣٤٨؛ الطبري ٢: ١١ / ١٧٩١، بلفظ: «عُدولاً»؛ أبوالفتوح ٢: ١٩٧.

(٥) الدرّ ١: ٣٤٩؛ الطبري ٢: ١٢ / ١٧٩٧، بلفظ: «جعلكم أمّةً عُدُولاً»؛ التبيان ١: ٦، وعن قول مجاهد وقتادة والربيع وأكثر المفسرين؛ أبوالفتوح ٢: ١٩٧، وكذا عن مجاهد وقتادة والربيع وابن زيد.

(٦) الطبري ٢: ١١ / ١٧٩٠، وكذا عن جماعة، أُنظر الأحاديث من رقم ١٧٩٢ إلى ١٧٩٩.

على الناس أنّ الرسل قد بلّغتهم، ويكون الرسولُ على هذه الأمّة شهيداً أن قد بلّغ ما أُرسل به[١].

[٣٥٢٧/٢] وأخرج ابن جرير عن ابن زيد في قوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ قال: وهم وسط بين النبيّ ﷺ وبين الأمم[٢].

[٣٥٢٨/٢] وقال الكلبي: يعني أهل دين وسط بين الغلوّ والتقصير، لأنّهما مذمومان في الدّين[٣].

قوله تعالى: ﴿لِّتَكُونُوا شُهَدَآءَ عَلَى النَّاسِ﴾

[٣٥٢٩/٢] أخرج ابن المنذر والحاكم وصحّحه عن جابر قال: «شهد رسول الله ﷺ جنازة في بني سَلَمة وكنت إلى جانبه، فقال بعضهم: والله يا رسول الله لنعم المرء كان، لقد كان عفيفاً مسلماً وكان وكان، وأثنوا عليه خيراً. فقال رسول الله ﷺ: أنت الّذي تقول؟ فقال: يا رسول الله ذلك بدا لنا، والله أعلم بالسرائر! فقال رسول الله ﷺ: وجبت. قال: وكنّا معه في جنازة رجل من بني حارثة أو من بني عبد الأشهل، فقال رجل: بئس المرء ما علمنا إن كان لَفظّاً غليظاً إن كان. فقال رسول الله ﷺ: أنت الّذي تقول؟ فقال: يا رسول الله، الله أعلم بالسرائر، فأمّا الّذي بدا لنا منه فذاك. فقال: وجبت، ثمّ تلا رسول الله ﷺ: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَآءَ عَلَى النَّاسِ﴾»[٤].

قلت: ذيل الحديث مستنكر، كالحديث التالي وأمثاله. إذ لا يعذّب الله أحداً بمجرّد شهادة أناس.

[٣٥٣٠/٢] وأخرج الطيالسي وأحمد والبخاري ومسلم والنسائي والحكيم الترمذي في نوادر الأصول عن أنس، قال: «مرّوا بجنازة فأثني عليه خيراً. فقال النبيّ ﷺ: وجبت وجبت وجبت. ومرّ بجنازة فأثني عليها بشرٍّ. فقال النبيّ ﷺ: وجبت وجبت. فسأله عمر فقال: من أثنيتم عليه خيراً وجبت له الجنّة، ومن أثنيتم عليه شرّاً وجبت له النار، أنتم شهداء الله في الأرض، أنتم شهداء الله في الأرض، أنتم شهداء الله في الأرض. وزاد الحكيم الترمذي: ثمّ تلا رسول الله ﷺ: ﴿وَكَذَٰلِكَ

(١) عبدالرزّاق ١: ٢٩٥ / ١٣٧. (٢) الطبري ٢: ١٢ / ١٨٠٠.

(٣) البغوي ١: ١٧٤ ـ ١٧٥؛ أبوالفتوح ٢: ١٩٧؛ الثعلبي ٢: ٨، بلفظ: «يعني متوسطة أهل دين...».

(٤) الدرّ ١: ٣٤٩ ـ ٣٥٠؛ الحاكم ٢: ٢٦٨، باختلاف، كتاب التفسير، سورة البقرة؛ ابن كثير ١: ١٩٦، وفيه: «بني مسلمه» بدل «بني سلمة» وزاد بعد نقله: «هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه».

جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَآءَ عَلَى النَّاسِ﴾»[(١)].

[٣٥٣١/٢] وأخرج ابن أبي شيبة وأحمد والبخاري والترمذي والنسائي عن عمر أنّه مرّت به جنازة فأثني على صاحبها خيراً فقال: وجبت وجبت، ثمّ مرّ بأخرى فأثني عليها شرّاً فقال عمر: وجبت. فقال أبو الأسود: وما وجبت؟ قال: قلت كما قال رسول الله ﷺ: «أيّما مسلم شهد له أربعة بخير أدخله الله الجنّة». فقلنا: وثلاثة؟ فقال: وثلاثة. فقلنا: واثنان؟ فقال: واثنان، ثمّ لم نسأله عن الواحد[(٢)].

[٣٥٣٢/٢] وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن أبي هريرة قال: «أُتي النبيّ ﷺ بجنازة يصلّي عليها فقال الناس: نعم الرجل. فقال النبيّ ﷺ: وجبت. وأُتي بجنازة أخرى فقال الناس: بئس الرجل. فقال: وجبت. قال أُبيّ بن كعب: ما قولك؟ فقال: قال الله تعالى: ﴿لِّتَكُونُوا شُهَدَآءَ عَلَى النَّاسِ﴾»[(٣)].

[٣٥٣٣/٢] وأخرج أحمد وأبو يعلى وابن حبّان والحاكم وأبو نعيم في الحلية والبيهقي في شعب الإيمان والضياء في المختارة عن أنس: أنّ رسول الله ﷺ قال: «ما من مسلم يموت فتشهد له أربعة من أهل أبيات جيرانه الأدنَيْن أنّهم لا يعلمون منه إلّا خيراً إلّا قال الله: قد قبلت شهادتكم فيه

---

(١) الدرّ ١: ٣٥٠؛ الطيالسي: ٢٧٥ / ٢٠٦٢؛ مسند أحمد ٣: ١٨٦، باختصار؛ البخاري ٢: ١٠٠، كتاب الجنائز؛ مسلم ٣: ٥٣؛ النسائي ١: ٦٢٩ / ٢٠٥٩؛ نوادر الأصول ٤: ٨٦ ـ ٨٧، بلفظ: عن أنس قال: بينا رسول الله ﷺ قائم إذ مرّت به جنازة فسأل عنها وأثنوا عليها خيراً فقال: وجبت. ثمّ مرّت به أخرى، فأثنوا عليها شرّاً. فقال ﷺ: وجبت. فقلنا يا رسول الله، قلت: وجبت؟ قال: إنّ المؤمنين شهود الله في الأرض، إذا شهدوا للعبد بخير أوجب الله له الجنّة وإذا شهدوا للعبد بشرٍّ أوجب الله له النار. وما من عبد يشهد له أمّة إلّا قبل الله شهادتهم. والأمّة الواحد إلى ما فوقه؛ قال الله تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً﴾. وقال: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ الآية؛ الحاكم ١: ٣٧٧، كتاب الجمعة؛ ابن ماجة ١: ٤٧٨ / ١٤٩١؛ القرطبي ٢: ١٥٥.

(٢) الدرّ ١: ٣٥٠؛ المصنّف ٣: ٢٤٦ / ٤، كتاب الجنائز، باب ١٧١؛ مسند أحمد ١: ٢١ ـ ٢٢ و ٣٠ و ٤٥؛ البخاري ٢: ١٠٠ ـ ١٠١، كتاب الجنائز، باب ٨٦؛ الترمذي ٢: ٢٦١ / ١٠٦٥، باب ٦٤؛ النسائي ١: ٦٢٩ ـ ٦٣٠ / ٢٠٦١، باب ٥٠.

(٣) الدرّ ١: ٣٥٠؛ الطبري ٢: ١٣ / ١٨٠٥؛ ابن أبي حاتم ١: ٢٤٩ / ١٣٣٤؛ أبو الفتوح ٢: ٢٠٠، عن أُبيّ بن كعب عن النبيّ ﷺ؛ التاريخ الكبير للبخاري ٥: ١٦٩ / ٥٣٥.

وغفرت له ما لا تعلمون»(١).

[٢/٣٥٣٤] وأخرج ابن أبي شيبة وهنّاد وابن جرير والطبراني عن سلمة بن الأكوع قال: «مُرّ على النبيّ ﷺ بجنازة رجل من الأنصار، فأثني عليها خيراً فقال: وجبت. ثمّ مُرّ عليه بجنازة أخرى، فأثني عليها دون ذلك فقال: وجبت. فقال: يا رسول الله وما وجبت؟ قال: الملائكة شهود الله في السماء وأنتم شهود الله في الأرض»(٢).

[٢/٣٥٣٥] وأخرج أحمد وابن ماجة والطبراني والبغوي والحاكم في الكُنى والدار قطني في الأفراد والحاكم في المستدرك والبيهقي في سننه عن أبي زهير الثقفي قال: سمعت رسول الله ﷺ بالنّباوة يقول: «يوشك أن تعلموا خياركم من شراركم. قالوا: بم يا رسول الله؟ قال: بالثناء الحسن والثناء السيّء، أنتم شهداء الله في الأرض»(٣).

[٢/٣٥٣٦] وأخرج الخطيب في تاريخه عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «ما من مسلم يموت فيشهد له رجلان من جيرانه الأدنين فيقولان: اللّهمّ لا نعلم منه إلّا خيراً، إلّا قال الله للملائكة: اشهدوا أنّي قد قبلت شهادتهما وغفرت ما لا يعلمان»(٤).

[٢/٣٥٣٧] وأخرج ابن المبارك في الزهد وابن جرير عن حبّان بن أبي جَبَلة يُسنده إلى رسول الله ﷺ قال: «إذا جمع الله عباده يوم القيامة كان أوّل من يُدعىٰ إسرافيل، فيقول له ربّه: ما فعلت في عهدي، هل بلَّغت عهدي؟ فيقول: نعم، ربّ قد بلّغته جبريل. فيُدعىٰ جبريل فيقال: هل بلّغك إسرافيل عهدي؟ فيقول: نعم. فيخلّى عن إسرافيل، ويقول لجبريل: هل بلّغت عهدي؟

(١) الدرّ ١: ٣٥١؛ مسند أحمد ٣: ٢٤٢؛ أبو يعلى ٦: ١٩٩؛ ابن حبّان ٧: ٢٩٥ / ٣٠٢٦؛ الحاكم ١: ٣٧٨ وصحّحه؛ الحلية ٩: ٢٥٢؛ الشعب ٧: ٨٦ / ٩٥٦٨، باب ٦٧ (في إكرام الجار)، فصل في مراعاة حقّ الرفيق؛ مجمع الزوائد ٣: ٤؛ كنز العمّال ١٥: ٦٨٥.

(٢) الدرّ ١: ٣٥١؛ المصنّف ٣: ٢٤٥ / ٢، باب ١٧١؛ الزهد لهنّاد ١: ٢٢٢ / ٣٦٧، نقلاً عن أبي سلمة عن أبي هريرة، الطبري ٢: ١٤ / ١٨٠٦؛ الكبير ٧: ٢٢ / ٦٢٥٩.

(٣) الدرّ ١: ٣٥٠؛ مسند أحمد ٣: ٤١٦، وفيه: «بالبناءة أو النباوة» و ٦: ٤٦٦؛ ابن ماجة ٢: ١٤١١ / ٤٢٢١، باب ٢٥؛ الكبير ٢٠: ١٧٩، رقم ٣٨٢؛ الحاكم في مستدركه ١: ١٢٠، كتاب العلم، وفيه: «بالنباه أو بالنباوه»؛ البيهقي ١٠: ١٢٣، كتاب آداب القاضي، باب اعتماد القاضي.

(٤) الدرّ ١: ٣٥١؛ الخطيب ٧: ٤٦٦ / ٤٠٢٨؛ كنز العمّال ١٥: ٦٨٥ ـ ٦٨٦ / ٤٢٧٤٤.

فيقول: نعم، قد بلّغت الرسل، فتُدعىٰ الرسل. فيقال لهم: هل بلّغكم جبريل عهدي؟ فيقولون: نعم. فيخلّى عن جبريل، ثمّ يقال للرسل: هل بلّغتم عهدي؟ فيقولون: نعم، بلّغناه الأمم. فتدعى الأمم، فيقال لهم: هل بلّغتكم الرسل عهدي؟ فمنهم المكذّب ومنهم المصدّق. فتقول الرسل: إنّ لنا عليهم شهداء. فيقول: من؟ فيقولون: أمّة محمّد. فتُدعىٰ أمّة محمّد فيقال لهم: أتشهدون أنّ الرسل قد بلّغت الأمم؟ فيقولون: نعم. فتقول الأمم: يا ربّنا كيف يشهد علينا من لم يُدركنا؟ فيقول الله: كيف تشهدون عليهم ولم تُدركوهم؟ فيقولون: يا ربّنا أرسلت إلينا رسولاً، وأنزلت علينا كتاباً، وقصصت علينا فيه أن قد بلّغوا، فنشهد بما عهدت إلينا. فيقول الربّ: صدقوا، فذلك قوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً﴾ والوسط العدل ﴿لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً﴾»[(١)].

[٣٥٣٨/٢] وأخرج ابن أبي حاتم من طريق أبي العالية عن أبيّ بن كعب في الآية قال: ﴿لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾ يوم القيامة، كانوا شهداء على قوم نوح، وعلى قوم هود، وعلى قوم صالح، وعلى قوم شعيب، وغيرهم أنّ رسلهم بلّغتهم وأنّهم كذّبوا رسلهم، قال أبو العالية: وهي في قراءة أبيّ: «لتكونوا شهداء على الناس يوم القيامة»[(٢)].

[٣٥٣٩/٢] وأخرج ابن جرير عن زيد بن أسلم: أنّ قوم نوح يقولون يوم القيامة: لم يبلّغنا نوح! فيُدعىٰ نوح عليه السلام فيُسأل: هل بلّغتهم؟ فيقول: نعم، فيقال: من شهودك؟ فيقول: أحمد ﷺ وأمّته. فتدعون فتسألون، فتقولون: نعم قد بلّغهم. فتقول قوم نوح: كيف تشهدون علينا ولم تُدركونا؟ قالوا: قد جاء نبيّ الله ﷺ فأخبرنا أنّه قد بلّغكم، وأنزل عليه أنّه قد بلّغكم، فصدّقناه. قال: فيصدَّق نوح عليه السلام ويكذّبونهم. قال: ﴿لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً﴾[(٣)].

[٣٥٤٠/٢] وأخرج سعيد بن منصور وأحمد والنسائي وابن ماجة والبيهقي في البعث والنشور عن أبي سعيد قال: قال رسول الله ﷺ: «يجيء النبيّ يوم القيامة ومعه الرجل والنبيّ ومعه الرجلان وأكثر من ذلك، فيُدعى قومه فيقال لهم: هل بلّغكم هذا؟ فيقولون: لا. فيقال له: هل بلّغت قومك؟ فيقول: نعم. فيقال له: من يشهد لك؟ فيقول: محمّد وأمّته. فيُدعىٰ محمّد وأمّته. فيقال لهم: هل بلّغ

---

(١) الدرّ ١: ٣٥١-٣٥٢؛ الزهد لابن مبارك ١: ٥٥٧/١٥٩٨؛ الطبري ٢: ١٥/١٨١٢.

(٢) الدرّ ١: ٣٥٢؛ ابن أبي حاتم ١: ٢٥٠/١٣٣٩.

(٣) الطبري ٢: ١٥/١٨١٠؛ عبدالرزّاق ١: ٢٩٥/١٣٨.

هذا قومه؟ فيقولون: نعم. فيقال: وما علمكم؟ فيقولون: جاءنا نبيّنا فأخبرنا أنّ الرسل قد بلّغوا. فذلك قوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً﴾ قال: عدلاً ﴿لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً﴾»[1].

[٣٥٤١/٢] وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم وابن مردويه عن جابر بن عبدالله عن النبيّ ﷺ قال: «أنا وأمّتي يوم القيامة على كوم مشرفين على الخلائق، ما من الناس أحد إلّا ودّ أنّه منّا، وما من نبيّ كذّبه قومه إلّا ونحن نشهد أنّه بلّغ رسالة ربّه»[2].

[٣٥٤٢/٢] وأخرج أحمد وعبد بن حميد والبخاري والترمذي والنسائي وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه والبيهقي في الأسماء والصفات عن أبي سعيد قال: قال رسول الله ﷺ: يُدعىٰ نوح يوم القيامة فيقال له: هل بلّغت؟ فيقول: نعم، فيُدعى قومه فيقال لهم: هل بلّغكم؟ فيقولون: ما أتانا من نذير وما أتانا من أحد. فيقال لنوح: من يشهد لك؟ فيقول: محمّد وأمّته. فذلك قوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً﴾ قال: والوسط العدل. فتُدعون فتشهدون له بالبلاغ وأشهد عليكم[3].

[٣٥٤٣/٢] وأخرج عبد بن حميد عن عبيد بن عمير قال: يأتي النبيّ ناديه ليس معه أحد، فتشهد

---

(١) الدرّ ١: ٣٤٩؛ سنن سعيد بن منصور ٢: ٦١٨ / ٢٢٢؛ مسند أحمد ٣: ٥٨؛ النسائي ٦: ٢٩٢ / ١١٠٠٧؛ ابن ماجة ٢: ١٤٣٢ / ٤٢٨٤؛ استدراكات البعث: ٨٩ / ١٤٥، بلفظ: «يجيء النبيّ يوم القيامة، ومعه الثلاثة والأربعة والرجلان، حتّى يجيء النبيّ وليس معه أحد. قال: فيقال لهم: هل بلّغتم؟ فيقولون: نعم، قال: فيُدعىٰ قومهم فيقال لهم: هل بلّغكم؟ فيقولون: لا. قال: فيقال للنبيّين: مَن يشهد لكم أنّكم قد بلّغتم؟ قال: فيقولون: أمّة محمّد ﷺ قال: فتُدعىٰ أمّة محمّد فيشهدون أنّهم قد بلّغوا، قال: فيقولون: جاءنا رسولنا بكتاب أخبرنا أنّهم قد بلّغوا فصدّقناه. قال: فيقال: صدّقتم. قال: وذلك قول الله ـ ﷻ ـ في كتابه: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً﴾ الآية»؛ ابن كثير ١: ١٩٦؛ كنزالعمّال ٢: ٤ / ٢٨٨٨.

(٢) الدرّ ١: ٣٤٩؛ الطبري ٢: ١٣ / ١٨٠٤، وفيه: «... إلّا ودّ أنّه منها أيّتها الأمّة، وما من نبيّ كذّبه قومه إلّا نحنُ شهداؤهُ يوم القيامة أنّه قد بَلَّغ رسالات ربِّهِ ونَصَح لهم» قال: ﴿وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً﴾؛ ابن كثير ١: ١٩٦؛ أبوالفتوح ٢: ١٩٩.

(٣) الدرّ ١: ٣٤٩؛ مسند أحمد ٣: ٣٢، باختلاف؛ منتخب مسند عبد بن حميد: ٢٨٦ / ٩١٣؛ البخاري ٥: ١٥١ و٨: ١٥٦؛ الترمذي ٤: ٢٧٥ / ٤٠٤٠، كتاب التفسير؛ النسائي ٦: ٢٩٢ / ١١٠٠٧؛ الطبري ٢: ١٣ / ١٨٠١ و١٨٠٢؛ ابن أبي حاتم ١: ٢٤٩ / ١٣٣٢؛ الأسماء والصفات: ٣٣٤، الجزء الثاني؛ ابن كثير ١: ١٩٦؛ البغوي ١: ١٧٥ / ٩٤؛ القرطبي ٢: ١٥٤.

له أمّة محمّد أنّه قد بلّغهم[١].

[٣٥٤٤/٢] وأخرج عبد بن حميد عن عكرمة قال: يقال: يا نوح قد بلّغت؟ قال: نعم يا ربّ. قال: فمن يشهد لك؟ قال: ربّ أحمد وأمّته. قال: فكلّما دعي نبيّ كذّبه قومه، شهدت له هذه الأمّة بالبلاغ، فإذا سأل عن هذه الأمّة لم يُسأل عنها إلّا نبيّها[٢].

[٣٥٤٥/٢] وأخرج الحكيم الترمذي في نوادر الأصول عن حِبّان بن أبي جَبَلَة قال: بلغني أنّه ترفع أمّة محمّد على كوم بين يدي الله تشهد للرسل على أممها بالبلاغ، فإنّما يشهد منهم يومئذ من لم يكن في قلبه إحنة[٣] على أخيه المسلم[٤].

[٣٥٤٦/٢] وأخرج ابن جرير عن زيد بن أسلم، أنّ الأمم يقولون يوم القيامة: والله لقد كادت هذه الأمّة أن يكونوا أنبياء كلّهم لما يرون الله أعطاهم[٥].

[٣٥٤٧/٢] وأخرج الفريابي وسعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن أبي حاتم عن كعب قال: أعطيت هذه الأمّة ثلاث خصال لم يُعطَها إلّا الأنبياء، كان النبيّ يقال له: بلّغ ولا حرج، وأنت شهيد على قومك، وادع أُجبك. وقال لهذه الأمّة: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾[٦]. وقال: ﴿لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾ وقال: ﴿ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾[٧][٨].

[٣٥٤٨/٢] وأخرج الحكيم الترمذي عن عبادة بن الصامت قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «أُعطِيتْ أمّتي ثلاثاً لم تُعط إلّا الأنبياء: كان الله إذا بعث نبيّاً قال له: ادعني أستجب لك، وقال لهذه الأمّة: ﴿ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾. وكان الله إذا بعث نبيّاً قال له: ما جعل عليك في الدّين من حرج، وقال لهذه الأمّة: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾. وكان الله إذا بعث نبيّاً جعله شهيداً على

---

(١) الدرّ ١: ٣٥٢؛ وفي الطبعة الجديدة: يأتي النبيّ يوم القيامة بأمّته ليس معه أحد، فتشهد له أمّة محمّد أنّه قد بلّغهم (٢: ٢٤)؛ الطبري ٢: ١٤ ذيل رقم ١٨٠٨، وكذا عن ابن أبي نجيح وفيه: «يأتي النبيّ يوم القيمة ...».

(٢) الدرّ ١: ٣٥٢.

(٣) الإحنة: الحقد.

(٤) الدرّ ١: ٣٥٢.

(٥) الدرّ ١: ٣٥١؛ الطبري ٢: ١٥ / ١٨١١؛ عبدالرزّاق ١: ٢٩٥ / ١٣٩.

(٦) الحجّ ٢٢: ٧٨.

(٧) غافر ٤٠: ٦٠.

(٨) الدرّ ١: ٣٥١؛ معاني القرآن ٤: ٤٣٥، عن قتادة.

قومه، وجعل هذه الأمّة شهداء على الناس»[١].

[٣٥٤٩/٢] وأخرج البغوي عن أبي سعيد الخدري قال: قام فينا رسول الله ﷺ يوماً بعد العصر، فما ترك شيئاً إلى يوم القيامة إلّا ذكره في مقامه ذلك، حتّى إذا كانت الشمس على رؤوس النخل وأطراف الحيطان، قال: «إنّه لم يبق من الدنيا فيما مضى منها إلّا كما بقي من يومكم هذا، ألا وإنّ هذه الأمّة تُوَفّي سبعين أمّة هي آخرها وأَخْيرها وأكرمها على الله تعالىٰ»[٢].

[٣٥٥٠/٢] وأخرج ابن جرير عن مجاهد في قوله: ﴿لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾: تكونوا شهداء لمحمّد ﷺ على الأمم: اليهود والنصارى والمجوس[٣].

[٣٥٥١/٢] وأخرج ابن جرير عن ابن زيد في قوله: ﴿لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً﴾ قال: رسول الله ﷺ شاهد على أُمّته وهم شهداء على الأمم، وهم أحد الأشهاد الّذي قال الله ﷻ: ﴿وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ﴾[٤] الأربعة: الملائكة الّذين يحصون أعمالنا، لنا وعلينا. وقرأ قوله: ﴿وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ﴾[٥] قال: هذا يوم القيامة. قال: والنبيّون شهداء على أممهم. قال: وأمّة محمّد ﷺ شهداء على الأمم، قال: والأطراف: الأجساد والجلود[٦].

[٣٥٥٢/٢] وأخرج مسلم وأبو داوود والحكيم الترمذي عن أبي الدرداء قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يكون اللعّانون شهداء ولا شفعاء يوم القيامة»[٧].

ملحوظة

هناك روايات وردت عن أئمّة أهل البيت ﷺ بتفسير الأمّة بالأئمّة. ليكون الشهداء على الأمم هم أئمّة المسلمين، حيث هم الدعاة إلى الله لكافّة الخلائق وعلى مدى الأجيال. كما كان

---

(١) نوادر الأصول ٤: ١٢٤؛ القرطبي ٢: ١٥٥.
(٢) البغوي ١: ١٧٥.
(٣) الطبري ٢: ١٤/ ١٨٠٧.
(٤) غافر ٤٠: ٥١.
(٥) سورة ق ٥٠: ٢١.
(٦) الطبري ٢: ١٦ ـ ١٧ / ١٨١٧؛ مجمع البيان ١: ٤١٨، بلفظ: «الأشهاد أربعة: الملائكة والأنبياء وأمّة محمّد ﷺ والجوارح كما قال: ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ﴾ الآية (النور ٣٤: ٢٤)».
(٧) الدرّ ١: ٣٥٢؛ مسلم ٨: ٢٤، كتاب البرّ والصلة والآداب، باب النهي عن لعن الدواب وغيرها؛ أبو داوود ٢: ٤٥٨ / ٤٩٠٧، باب ٥٣؛ نوادر الأصول ١: ٣٦٤، الأصل ٧١؛ الحاكم ١: ٤٨؛ كنز العمّال ٣: ٦١٥ / ٨١٧٩.

رسول الله ﷺ داعياً إلى الله لكافّة الناس. فلا يزال في الأمّة ـ على مدى الدهر ـ دعاة وُعاة يحملون عبء الرسالة إلى الملأ في الخافقين:

[٣٥٥٣/٢] روى أبو العبّاس أحمد بن عليّ النجاشي بإسناده إلى إسماعيل بن جابر عن الإمام أبي عبدالله الصادق عليه السلام قال: قال رسول الله ﷺ: «يحمل هذا الدين في كلّ قرن عدول ينفون عنه تأويل المبطلين وتحريف الغالين وانتحال الجاهلين...»(١).

[٣٥٥٤/٢] وروى عليّ بن إبراهيم القمّيّ ـ ذيل الآية ﴿وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾(٢) ـ بإسناده إلى أبي بصير عن الإمام الصادق عليه السلام قال: «في كلّ زمان إمامٌ هادٍ مبيّن».

قال عليّ بن إبراهيم: وهو ردّ على من ينكر أنّ في كلّ عصر وزمان إماماً وأنّه لاتخلو الأرض من حجّة ـ كما قال الإمام أمير المؤمنين عليه السلام ـ: «لاتخلو الأرض من قائم بحجّة الله، إمّا ظاهر مشهور وإمّا خائف مغمور. لئلّا تبطل حجج الله وبيّناته»(٣).

[٣٥٥٥/٢] وروى أبو جعفر الصدوق بالإسناد إلى أبي بصير عن الصادق عليه السلام قال: «إنّ الله لايدع الأرض إلّا وفيها عالم يعلم الزيادة والنقصان، فإذا زاد المؤمنون شيئاً ردّهم، وإذا نقصوا أكمله لهم. قال: ولولا ذلك لالتبس على المؤمنين أمرهم ولم يُفرَّق بين الحقّ والباطل»(٤).

[٣٥٥٦/٢] وقال عليه السلام: «لو لم يبق في الأرض إلّا رجلان لكان أحدهما الحجّة»(٥).

[٣٥٥٧/٢] وعنه عليه السلام قال: «إنّ جبرئيل نزل على محمّد ﷺ يخبر عن ربّه عزّ وجلّ: يا محمّد، لم أترك الأرض إلّا وفيها عالم يعرف طاعتي وهداي، ويكون نجاة فيما بين قبض نبيّ إلى خروج نبيّ آخر. ولم أترك إبليس يضلّ الناس، وليس في الأرض حجةٌ وداعٍ إليّ وهادٍ إلى سبيلي وعارف بأمري. وإنّي قد قيّضتُ لكلّ قوم هادياً أهدي به السعداء ويكون حجّة على الأشقياء»(٦).

[٣٥٥٨/٢] وقال: «الأرض لاتكون إلّا وفيها عالم يُصلحهم، ولايصلح الناس إلّا ذلك»(٧).

---

(١) اختيار معرفة الرجال ١: ١٠/ ٥، وأورده ابن حجر ـ في الصواعق: ١٤١ ـ بلفظ: «... في كلّ خَلَفٍ من أُمّتي عدولٌ من أهل بيتي...».
(٢) الرعد ١٣: ٧.
(٣) القمي ١: ٣٥٩.
(٤) علل الشرائع ١: ١٩٥/ ٤ باب ١٥٣.
(٥) المصدر: ١٩٧/ ١٠.
(٦) المصدر: ١٩٦/ ٧.
(٧) المصدر/ ٨.

[٣٥٥٩/٢] وفي أخرى: «لايصلح الناس إلّا بإمام، ولاتصلح الأرض إلّا بذلك»[١].

[٣٥٦٠/٢] وعنه ﷺ قال: «والله ما ترك الله الأرض منذ قبض آدم إلّا وفيها إمام يُهتَدى به إلى الله ﷺ وهو حجّة الله على العباد. من تركه هلك ومن لزمه نجا. حقّاً على الله ﷺ»[٢].

والأحاديث من هذا القبيل كثير ربما بلغت التواتر.

راجع: بحارالأنوار للعلّامة المجلسي كتاب الإمامة باب الاضطرار إلى الحجّة. والباب ١٥٣ من علل الشرائع للصدوق. وغيرهما من أصول معتمدة.

والجميع ينبؤك عن أصل ركين لتبيين طرق الهداية للناس جميعاً وفي جميع الأصقاع والأعصار. فلايزال لله في كلّ دور وكور، حجّة بالغة يفزع إليه الناس في حوائجهم ومسائلهم في الحلال والحرام، حتّى تقوم الساعة.

إذن فالمسؤوليّة قائمة في هذه الأمّة مدى الأحقاب.

[٣٥٦١/٢] قال الصادق ﷺ في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾[٣]: «كلُّ إمامٍ هادٍ للقرن الّذي هو فيهم»[٤].

[٣٥٦٢/٢] وقال: «لا والله لايدع الله هذا الأمر إلّا وله من يقوم به إلى يوم تقوم الساعة»[٥].

هذا لاشكّ فيه ولعلّ الأمّة مجمعة على ذلك من غير خلاف.

وهكذا جاء في وصف المؤمنين حقّاً: ﴿وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَاماً﴾[٦]. ليكون من هذه الأمّة الصالحة من يكونوا قدوة للخلائق وأسوة للناس جميعاً. وهذا هو معنى أداء رسالة الله في الأرض.

الأمر الّذي لايصلح له سوى ثلّة هي نخبة هذه الأمّة المعترف بفضلهم لدى الجميع وليس كلّ آحاد المسلمين صالحين لحمل هذا العبء الثقيل الثمين.

وعليه فالأمّة بكاملتها إنّما تحمل رسالتها إلى الملأ بمِشيتها في الحياة مشية مرضيّة

---

(١) المصدر / ٩.

(٢) المصدر: ١٩٧ / ١٣.

(٣) الرعد ١٣: ٧.

(٤) الغيبة، للنعماني: ٥٤؛ البحار ٢٣: ٥٤ / ١١٥؛ الكافي ١: ١٩١ / ١.

(٥) الغيبة: ٢٥؛ البحار ٢٣: ٥٤ / ١١٤.

(٦) الفرقان ٢٥: 74.

تستحسنها الأمم فترغب في الإسلام.

[٣٥٦٣/٢] وهذا هو معنى قول الصادق عليه السلام: «كونوا دعاة الناس بأعمالكم، ولاتكونوا دعاةً بألسنتكم»[١]. أي سيروا في الحياة وفي التعامل مع الآخرين سيرةً يرتضيها العقل ويستطيبها أرباب العقول الناضجة، وبذلك تصبح الأمّة بكلّيّتها أئمّة: قدوة وأسوة للعالمين.

أمّا أنّ آحاد الأمّة، كلٌّ على انفراده يقوم بتوجيه المجتمع العامّ ومن دون مكاتفة الآخرين ولا معاضدة العلماء النابهين. فهذا غير صحيح ولا هو ناجح في نهاية المطاف!

إذ القيام بفريضة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، على مستوى عامّ شامل، إنّما هي وظيفة النخبة الأمناء والثلّة النبهاء، ممّن عرفوا المعروف على حقيقته وحسب ملابسات تستدعيها ظروف راهنة. فيقوموا بدعم أُسسه وأركانه، والأمر به ونشره وتبليغه.

وهكذا المنكر عرفوه على نكارته فقاموا بردعه والزجر عنه. الأمر الّذي يتعيّن له النخب من الأمّة وهم الأئمّة الصالحون..

فما ورد من تفسير الأمّة ـ هنا وفي نظائرها من آيات ـ بالأئمّة إنّما هو تبيين لواقع المراد، وإن كان الخطاب في ظاهره عامّاً. نظير قوله تعالى في آية السرقة: ﴿فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا﴾[٢] أو في آية الفحشاء: ﴿فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مِئَةَ جَلْدَةٍ﴾[٣] دستور إلى القضاة وولاة الأمر وليس العموم مكلّفين بهذا الإجراء.

إذ معرفة شرائط الموضوع كُمَلا، ضرورة لجواز إجراء الحدود وغيرها من أحكام مترتّبة، الأمر الّذي لايعرفه إلّا العالمون.

[٣٥٦٤/٢] سُئل الإمام أبو عبدالله الصادق عليه السلام عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، أواجب هو على الأمّة جميعاً؟ فقال: لا. فقيل له: ولِمَ؟ قال: «إنّما هو على القويّ المطاع، العالم بالمعروف من المنكر، لا على الضعيف الّذي لايهتدي سبيلاً إلى أيٍّ من أيٍّ، يقول من الحقّ إلى الباطل!

قال: والدليل على ذلك كتاب الله ـ عزّ وجلّ ـ قوله: ﴿وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ

(١) البحار ٥: ١٩٨ / ١٩، عن كتاب قرب الإسناد: ٣٧ ـ ٣٨.

(٢) المائدة ٥: ٣٨. (٣) النور ٢٤: ٢.

وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾[١]. وهذا خاصّ غير عامّ؛ كما قال تعالى: ﴿وَمِنْ قَوْمِ مُوسَى أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ﴾[٢]. ولم يقل: على أمّة موسى ولا كلّ قومه»[٣].

[٣٥٦٥/٢] وروى العيّاشيّ بالإسناد إلى أبي عمرو الزبيري عن الإمام أبي عبدالله الصادق عليه السلام في قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾. قال: «فإن ظننت أنّ الله عنى بهذه الآية جميع أهل القبلة من الموحّدين؟! أفترى أنّ من لا تجوز شهادته في الدنيا على صاع من تمر، يطلب الله شهادته يوم القيامة ويقبلها منه بحضرة جميع الأمم الماضية؟! كلّا، لم يعن الله مثل هذا من خلقه!

قال: يعني الأمّة الّتي وجبت لها دعوة إبراهيم عليه السلام. وهم الأمّة الوسطى وخير أُمّة أُخرجت للناس»[٤].

[٣٥٦٦/٢] وفي حديث حمران بن أعين مع الإمام الصادق عليه السلام في الآية قال عليه السلام: «ولا يكون شهداء على الناس إلّا الأئمّة والرسل، فأمّا الأمّة فإنّه غير جائز أن يستشهدها الله وفيهم من لا تجوز شهادته في الدنيا على حزمة بقل!»[٥]

وهنا لابدّ من التنبّه على أمر: هو أنّ الأئمّة من أهل البيت عليهم السلام يرون من علماء العترة الطاهرة هم أفضل الراسخين في العلم، الّذين يعلمون تفسير القرآن وتأويله كلّه، لا يدانيهم غيرهم من سائر الرجال مهما أوتوا من علم وفضيلة، ذلك لأنّهم عليهم السلام ورثة علم النبيّ وعيبة علمه وأقرب الناس إلى فهم أسرار الشريعة والوقوف على مباني الدين الحنيف، إن كتاباً أو سنّة!

[٣٥٦٧/٢] ومن ثمّ لمّا سأل عبيدة السلماني وعلقمة بن قيس والأسود بن يزيد النخعي، الإمامَ أمير المؤمنين عليه السلام: من ذا يسألونه عمّا إذا أشكل عليهم فهم معاني القرآن؟ أجابهم: «سلوا عن ذلك آل محمّد»[٦].

---

(١) آل عمران ٣: ١٠٤. (٢) الأعراف ٧: ١٥٩.

(٣) الكافي ٥: ٥٩ / ١٦؛ الوسائل ١٦: ١٢٦.

(٤) العيّاشيّ ١: ٨٢ / ١١٤؛ البرهان ١: ٣٤٦ / ١١؛ البحار ٢٣: ٣٥٠.

(٥) مناقب آل أبي طالب ٣: ٣١٤؛ البحار ٢٣: ٣٥١ / ٦٣، باب ٢٠.

(٦) بصائر الدرجات للصفّار: ١٩٦ / ٩.

[٣٥٦٨/٢] وقال الإمام أبو جعفر الباقر عليه السلام لعمرو بن عُبَيد: «فإنّما على الناس أن يقرأوا القرآن كما أُنزل، فإذا احتاجوا إلى تفسيره، فالاهتداء بنا وإلينا، يا عمرو!»[١].

[٣٥٦٩/٢] وروى ابن حجر الهيثمي مرفوعاً إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: «في كلّ خلف من أُمّتي عدول من أهل بيتي ينفون عن هذا الدين تحريف الضالّين وانتحال المبطلين وتأويل الجاهلين. ألا إنّ أئمّتكم وفدكم إلى الله عزّ وجلّ، فانظروا من توفدون»[٢].

إلى غيرها من أحاديث جمّة تنبؤك عن محوريّة الأئمّة من أهل البيت للمرجعيّة العامّة في كلّ مجالات الدين[٣]. فلا غرو أن لو عرفنا منهم الذروة في العلم والكمال ومعرفة مباني الديـن فـي الأصول والفروع جميعاً. فلا تعجب أن لو سمعت منهم أنّهم الراسخون في العلم، وأنّهم هم يعلمون القرآن كلّه ظاهره وباطنه. لأنّهم إنّما يتكلّمون عن منطق رشيد ويهدون إلى أقوم ركن وثيق.

[٣٥٧٠/٢] روى الكليني بالإسناد إلى بُرَيد العجلي قال: سألت أبا عبدالله عليه السلام عن قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾ فقال: «نحن الأمّة الوسطى ونحن شهداء الله على خلقه وحججه في أرضه»[٤].

[٣٥٧١/٢] وفي أخرى: «نحن الشهداء على الناس بما عندهم من الحلال والحرام وبما ضيّعوا منه»[٥].

[٣٥٧٢/٢] وفي ثالثة: «نحن الشهداء على الناس بما عندنا من الحلال والحرام»[٦].

[٣٥٧٣/٢] وفي رابعة: «إلينا يرجع الغالي وبنا يلحق المقصّر»[٧].

وغيرها وغيرها وهي كثير في كثير. والكلّ معقول ومقبول.

* * *

وإليك لمّة من أحاديث أهل البيت ترمي هذا الهـدف الفـخيم، اسـتخرجـناها مـن الكـافي الشريف:

---

(١) تفسير فرات الكوفي: ٢٥٨ / ٣٥١.

(٢) الصواعق المحرقة: ٩٠ ـ ٩١.

(٣) راجع في ذلك كتابنا: الجزء التاسع من التمهيد: ٤٣١ ـ ٤٣٣.

(٤) الكافي ١: ١٩٠ / ٢.

(٥) بصائر الدرجات: ٩١ / ١ باب ١٣.

(٦) مختصر بصائر الدرجات: ٦٥.

(٧) العيّاشيّ ١: ٨٢ / ١١٣.

[٣٥٧٤/٢] روى أبو جعفر محمّدبن يعقوب الكليني بإسناده إلى سماعة قال: قال أبو عبدالله عليه السلام: في قوله تعالى: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيداً﴾[١]. قال: «نزلت في أمّة محمّد صلى الله عليه وآله خاصّة، في كلّ قرن منهم إمام منّا شاهد عليهم، ومحمّد صلى الله عليه وآله شاهد علينا»[٢].

[٣٥٧٥/٢] وعن بُرَيد العجلي قال: سألت أبا عبدالله عليه السلام عن قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾[٣]؟ قال: «نحن الأمّة الوسطى ونحن شهداء الله على خلقه وحججه في أرضه. قلت: قول الله جل جلاله: ﴿مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ﴾؟ قال: إيّانا عنى خاصّة. ﴿هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ﴾ في الكتب الّتي مضت ﴿وَفِي هَذَا﴾ القرآن. ﴿لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيداً عَلَيْكُمْ﴾[٤] فرسول الله صلى الله عليه وآله الشهيد علينا بما بلّغنا عن الله جل جلاله ونحن الشهداء على الناس، فمن صدّق صدّقناه يوم القيامة، ومن كذّب كذّبناه يوم القيامة»[٥].

[٣٥٧٦/٢] وعن الإمام أميرالمؤمنين ـ عليه صلوات المصلّين ـ قال: «إنّ الله ـ تبارك وتعالى ـ طهّرنا وعصمنا وجعلنا شهداء على خلقه وحجّته في أرضه، وجعلنا مع القرآن، وجعل القرآن معنا، لانفارقه ولايفارقنا»[٦].

[٣٥٧٧/٢] وعن الفضيل قال: سألت أبا عبدالله عليه السلام عن قوله جل جلاله: ﴿وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾[٧]؟ فقال: «كلّ إمام هادٍ للقرن الّذي هو فيه»[٨].

[٣٥٧٨/٢] وعن بُرَيد العجلي عن الإمام أبي جعفر الباقر عليه السلام في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾؟ فقال: «رسول الله صلى الله عليه وآله المنذر، ولكلّ زمان منّا هادٍ يهديهم إلى ما جاء به نبيّ الله صلى الله عليه وآله ثمّ الهداة من بعده: عليٌّ ثمّ الأوصياء واحدٌ بعد واحد»[٩].

[٣٥٧٩/٢] وعن عبدالرحيم القصير عن أبي جعفر عليه السلام في الآية، قال: «رسول الله صلى الله عليه وآله المنذر، وعليٌّ الهادي. أما والله ما ذهبت منّا وما زالت فينا إلى الساعة»[١٠].

---

(١) النساء ٤: ٤٥.
(٢) الكافي ١: ١٩٠/ ١.
(٣) البقرة ٢: ١٣٨.
(٤) الحج ٢٢: ٧٨.
(٥) الكافي ١: ١٩٠/ ٢.
(٦) المصدر: ١٩١/ ٥.
(٧) الرعد ١٣: ٩.
(٨) المصدر السابق: ١٩١/ ١.
(٩) المصدر: ١٩١ـ ١٩٢/ ٢.
(١٠) المصدر: ١٩٢/ ٤.

[٣٥٨٠/٢] وعن عبدالرحمان بن كثير قال: سمعت أبا عبدالله عليه السلام يقول: «نحن ولاة أمر الله، وخزنة علم الله، وعيبة وحي الله»[١].

[٣٥٨١/٢] وعن سُدَير عن أبي جعفر عليه السلام قال: قلت له: جعلتُ فداك، ما أنتم؟ قال: «نحن خُزّان علم الله، ونحن تراجمة وحي الله، ونحن الحجّة البالغة على من دون السماء ومن فوق الأرض»[٢].

[٣٥٨٢/٢] وفي حديث الإمام الصادق عليه السلام مع ابن أبي يعفور، قال: «يا ابن أبي يعفور، فنحن حجج الله في عباده، وخزّانه على علمه، والقائمون بذلك»[٣].

[٣٥٨٣/٢] وعن الإمام أبي الحسن الرضا عليه السلام قال: «الأئمّة خلفاء الله عزّ وجلّ في أرضه»[٤].

[٣٥٨٤/٢] وعن الإمام أبي عبدالله الصادق عليه السلام قال: «الأوصياء هم أبواب الله عزّ وجلّ الّتي يُؤتى منها، ولولاهم ما عُرف الله. وبهم احتجّ الله على خلقه»[٥].

[٣٥٨٥/٢] وعنه عليه السلام قال: «كان أمير المؤمنين ـ عليه صلوات المصلّين ـ باب الله الّذي لا يؤتى إلّا منه، وسبيله الّذي من سلك بغيره هلك. قال: وكذلك يجري لأئمّة الهدى واحداً بعد واحدٍ، جعلهم الله أركان الأرض أن تميد بأهلها، وحجّته البالغة على من فوق الأرض ومن تحت الثرى»[٦] (أي الأحياء والأموات).

قوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ﴾

[٣٥٨٦/٢] قال مقاتل بن سليمان في قوله: ﴿وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنتَ عَلَيْهَا﴾ يعني بيت المقدس ﴿إِلَّا لِنَعْلَمَ﴾ إلّا لنرى ﴿مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ﴾ يعني محمّداً صلى الله عليه وآله وسلم على دينه في القبلة ومن يخالفه من اليهود ﴿مِمَّنْ يَنقَلِبُ عَلَى عَقِبَيْهِ﴾ يقول: ومن يرجع إلى دينه الأوّل[٧].

[٣٥٨٧/٢] ورُوي عن الإمام أمير المؤمنين عليه السلام قال: «معنى: ﴿لِنَعْلَمَ﴾: لنرى»[٨].

[٣٥٨٨/٢] وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والبيهقي في سننه عن ابن عبّاس في

---

(١) المصدر: ١٩٢/١.
(٢) المصدر/٢.
(٣) المصدر: ١٩٣/٥.
(٤) المصدر/١.
(٥) المصدر/٢.
(٦) المصدر: ١٩٦/١.
(٧) تفسير مقاتل ١: ١٤٥.
(٨) القرطبي ٢: ١٥٦.

قوله: ﴿إِلَّا لِنَعْلَمَ﴾ قال: إلّا لنميّز أهل اليقين من أهل الشكّ ﴿وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً﴾ يعني: تحويلها على أهل الشكّ والريب(١).

قوله تعالى: ﴿وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللهُ﴾

[٣٥٨٩/٢] قال مقاتل بن سليمان في قوله: ﴿وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً﴾ يعني القبلة حين صرفها عن بيت المقدس إلى الكعبة عظمت على اليهود، ثمّ استثنى فقال: ﴿إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللهُ﴾ فإنّه لايكبر عليهم ذلك(٢).

[٣٥٩٠/٢] روى الشيخ الطوسي ﴿وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً﴾ قال الحسن: معناه ثقيلة يعني: التحويلة إلى بيت المقدس. لأنّ العرب لم تكن قبلةٌ أحبَّ إليهم من الكعبة(٣).

[٣٥٩١/٢] وأخرج ابن جرير عن ابن جُريج قال: بلغني أنّ أناساً من الّذين أسلموا رجعوا فقالوا مرّة هاهنا ومرّةً هاهنا(٤).

[٣٥٩٢/٢] وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عبّاس في قوله: ﴿وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللهُ﴾ أي: الّذين ثبّت الله. وروي عن قتادة قال: عَصَم الله(٥).

[٣٥٩٣/٢] وأخرج عن مجالد بن سعيد، قال الحجّاج للحسن: أخبرني برأيك في أبي تراب. قال الحسن: سمعتَ الله يقول: ﴿وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللهُ﴾؟ فعليٌّ مِمَّنْ هَدَى الله(٦).

[٣٥٩٤/٢] وأخرج ابن جرير عن ابن زيد في قوله: ﴿وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَى عَقِبَيْهِ﴾ قال: من إذا دخلته شبهة رجع عن الله، وانقلب كافراً على عقبيه(٧).

---

(١) الدرّ ١: ٣٥٣؛ الطبري ٢: ٢٠ / ١٨٢٤ و ١٨٢٦؛ ابن أبي حاتم ١: ٢٥٠ / ١٣٤١، و ١٣٤٤؛ البيهقي ٢: ١٣.

(٢) تفسير مقاتل ١: ١٤٥.

(٣) التبيان ٢: ١٠؛ مجمع البيان ١: ٤١٩.

(٤) الدرّ ١: ٣٥٣؛ الطبري ٢: ١٩ ذيل رقم ١٨٢٢.

(٥) ابن أبي حاتم ١: ٢٥١ / ١٣٤٥.

(٦) ابن أبي حاتم ١: ٢٥١ / ١٣٤٦؛ أبوالفتوح ٢: ٢٠٦، وزاد فيه: «ومن أهل الإيمان وهو ابن عمّ رسول الله وخَتَنُهُ على ابنَتِهِ وأَحَبُّ الناس إليه وصاحب سوابقَ مباركاتٍ سَبَقَت له منَ اللهِ لاتستطيعُ أنتَ ولا أحدٌ من الناس يخطوها عليه ولا أن يحول بينها وبينه».

(٧) الطبري ٢: ٢٢ / ١٨٢٥.

[٣٥٩٥/٢] وأخرج عن عطاء في قوله: ﴿إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ﴾ قال: يبتليهم ليعلم من يسلّم لأمره(١).

[٣٥٩٦/٢] وروى أبوجعفر الطوسي بالإسناد إلى أبي بصير عن الباقر أو الصادق عليه‌السلام في قوله: ﴿سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّاهُمْ عَنْ قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ قال: «قلت له: الله أمره أن يصلّي إلى بيت المقدس؟ قال: نعم، ألا ترى أنّ الله تعالى يقول: ﴿وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنقَلِبُ عَلَى عَقِبَيْهِ وَإِنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللهُ وَمَا كَانَ اللهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ إِنَّ اللهَ بِالنَّاسِ لَرَؤُوفٌ رَحِيمٌ﴾ قال: إنّ بني عبدالأشهل أتوهم وهم في الصلاة وقد صلّوا ركعتين إلى بيت المقدس، فقيل لهم: إنّ نبيّكم قد صُرف إلى الكعبة! فتحوّل النساء مكان الرجال، والرجال مكان النساء، وصلّوا الركعتين الباقيتين إلى الكعبة، فصلّوا صلاة واحدة إلى قبلتين، فلذلك سمّي مسجدهم مسجد القبلتين»(٢).

قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ اللهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ﴾

[٣٥٩٧/٢] أخرج ابن جرير عن قتادة، قال: قال أناس من الناس لمّا صرفت القبلة نحو البيت الحرام: كيف بأعمالنا الّتي كنّا نعمل في قبلتنا؟ فأنزل الله جلّ ثناؤه: ﴿وَمَا كَانَ اللهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ﴾(٣).

[٣٥٩٨/٢] وأخرج عن الربيع قال: قال ناس لما صرفت القبلة إلى البيت الحرام: كيف بأعمالنا الّتي كنّا نعمل في قبلتنا الأُولى؟ فأنزل الله تعالى ذكره: ﴿وَمَا كَانَ اللهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ﴾ الآية(٤).

[٣٥٩٩/٢] وأخرج عن أسباط، عن السدّي، قال: لمّا توجّه رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم قبل المسجد الحرام،

---

(١) الدرّ ١: ٣٥٢ ـ ٣٥٣؛ الطبري ٢: ١٩ / ١٨٢٢.

(٢) نور الثقلين ١: ١٣٦ / ٤١٤؛ تهذيب الأحكام ٢: ٤٣ ـ ٤٤ / ١٣٨ ـ ٦، باب ٥، كتاب الصلاة، باب القبلة؛ البرهان ١: ٣٤١ / ١، و ٣٤٦ / ٢؛ كنز الدقائق ٢: ١٨٣؛ البحار ١٩: ٢٠٠ / ٤، باب ٩.

(٣) الطبري ٢: ٢٥ / ١٨٣٧؛ مجمع البيان ١: ٤١٩، عن ابن عبّاس وقتادة؛ التبيان ٢: ١١، بلفظ: قال ابن عبّاس وقتادة والربيع: لمّا حوّلت القبلة قال ناس: كيف بأعمالنا الّتي كنّا نعمل في قبلتنا الأُولى؟

(٤) الطبري ٢: ٢٥ / ١٨٣٩.

قال المسلمون: ليت شعرنا عن إخواننا الّذين ماتوا وهم يصلّون قِبَلَ بيت المقدس، هل تقبّل الله منّا ومنهم أم لا؟ فأنزل الله جلّ ثناؤه فيهم: ﴿وَمَا كَانَ اللهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ﴾ قال: صلاتكم قبل بيت المقدس، يقول: إنّ تلك طاعة وهذه طاعة(١).

[٣٦٠٠/٢] وقال مقاتل بن سليمان في قوله: ﴿وَمَا كَانَ اللهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ﴾ وذلك أنّ حُيَي بن أخطب اليهودي وأصحابُه، قالوا للمسلمين: أخبرونا عن صلاتكم نحو بيت المقدس، أكانت هدى أم ضلالة؟ فوالله لئن كانت هدى، لقد تحوّلتم عنه، ولئن كانت ضلالة لقد دنتم الله بها فتقرّبتم إليه بها، وإنّ من مات منكم عليها مات على الضلالة! فقال المسلمون: إنّما الهدى ما أمر الله به، والضلالة ما نهى الله عنه. قالوا: فما شهادتكم على من مات منكم على قبلتنا.

وكان قد مات قبل أن تحوّل القبلة إلى الكعبة أسعدُ بن زرارة من بني النجّار، ومات البراء بن معرور من بني سلمة، وكانا من النقباء. ومات رجال فانطلقت عشائرهم فقالوا للنبيّ ﷺ: توفّى إخواننا وهم يصلّون إلى القبلة الأُولى وقد صرفك الله إلى قبلة إبراهيم عليه السلام فكيف بإخواننا؟ فأنزل الله: ﴿وَمَا كَانَ اللهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ﴾. يعني إيمان صلاتكم نحو بيت المقدس يقول لقد تقبّلت منهم ﴿إِنَّ اللهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ﴾ يعني يرقّ لهم ﴿رَحِيمٌ﴾ حين قبلها منهم قبل تحويل القبلة(٢).

[٣٦٠١/٢] وروى العيّاشيّ بالإسناد إلى أبي عمرو الزبيريّ، عن أبي عبدالله عليه السلام، قال: قلت له: ألا تُخبرني عن الإيمان، أقولٌ هو وعمل، أم قولٌ بلا عمل؟ فقال: «الإيمان عمل كلّه، والقول بعضُ ذلك العمل، مفروض من الله مبيَّن في كتابه، واضح نوره، ثابتة حجّته، يشهد له بها الكتابُ ويدعو إليه. قال: ولمّا أن صرف الله نبيّه إلى الكعبة عن بيت المقدس، قال المسلمون للنبيّ ﷺ: أرأيت صلاتنا الّتي كنّا نصلّي إلى بيت المقدس، ما حالنا فيها وما حال من مضى من أمواتنا وهم يصلّون إلى بيت المقدس؟ فأنزل الله: ﴿وَمَا كَانَ اللهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ إِنَّ اللهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾، فسمّي الصلاة إيماناً، فمن اتّقى الله حافظاً لجوارحه موفياً كلّ جارحة من جوارحه بما فرض الله عليه، لقي الله مستكملاً لإيمانه من أهل الجنّة، ومن خان في شيء منها أو تعدّى ما أمر الله فيها لقي الله ناقص

(١) الطبري ٢: ٢٥/ ١٨٣٨.
(٢) تفسير مقاتل ١: ١٤٥ـ١٤٦.

الإيمان»[١].

[٣٦٠٢/٢] وأخرج ابن أبي حاتم عن سعيد بن أبي عروبة في قوله: ﴿لَرَؤُوفٌ رَحِيمٌ﴾ قال: يعني: رؤوف رفيق[٢].

[٣٦٠٣/٢] وعن محمّد بن إسحاق في قوله: ﴿رَحِيمٌ﴾ قال: يرحم الله العباد على ما فيهم[٣].

[٣٦٠٤/٢] وعن سعيد بن جبير، في قوله: ﴿رَحِيمٌ﴾ قال: يعني بالمؤمنين[٤].

قوله تعالى: ﴿قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ﴾

[٣٦٠٥/٢] أخرج ابن ماجة عن البراء قال: صلّينا مع رسول الله ﷺ نحو بيت المقدس ثمانية عشر شهراً، وصرفت القبلة إلى الكعبة بعد دخوله إلى المدينة بشهرين، وكان رسول الله ﷺ إذا صلّى إلى بيت المقدس أكثر تقلّب وجهه في السماء، وعلم الله من قلب نبيّه أنّه يهوى الكعبة، فصعد جبريل فجعل رسول الله ﷺ يُتبعه بصره وهو يصعد بين السماء والأرض ينظر ما يأتيه به، فأنزل الله: ﴿قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ﴾ الآية. فقال رسول الله ﷺ: «يا جبريل كيف حالُنا في صلاتنا إلى بيت المقدس؟» فأنزل الله: ﴿وَمَا كَانَ اللهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ﴾[٥].

[٣٦٠٦/٢] وأخرج أبو داوود في ناسخه عن أبي العالية: «أنّ رسول الله ﷺ نظر نحو بيت المقدس فقال لجبريل: وددت أنّ الله صرفني عن قبلة اليهود إلى غيرها؟ فقال له جبريل: إنّما أنا عبد مثلك، ولا أملك لك شيئاً إلّا ما أُمرت، فادع ربّك وسله، فجعل رسول الله ﷺ يُديم النظر إلى السماء رجاء أن يأتيه جبريل بالّذي سأل، فأنزل الله: ﴿قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ﴾ يقول: إنّك تديم النظر إلى السماء للّذي سألت، ﴿فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ يقول: فحوّل وجهك في الصلاة نحو المسجد الحرام ﴿وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ﴾ يعني من الأرض ﴿فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ﴾ في الصلاة ﴿شَطْرَهُ﴾

---

(١) العيّاشيّ ١: ٨٢ـ٨٣ / ١١٥؛ الصافي ١: ٢٩٧؛ كنز الدقائق ٢: ١٨٢؛ البحار ١٩: ١٩٩ / ١، باب ٩، و ٦٦: ٢٤ / ٦؛ الكافي ٢: ٣٣ـ٣٤ / ١، كتاب الإيمان والكفر، باب في أنّ الإيمان مبثوث لجوارح البدن كلّها؛ نور الثقلين ٥: ٥٩ / ٣٠، (سورة محمّد ٤٨: ٤)؛ البرهان ١: ٣٤٧ / ٤.

(٢) ابن أبي حاتم ١: ٢٥٢ / ١٣٥٠.

(٣) المصدر / ١٣٥٢.

(٤) المصدر / ١٣٥٣.

(٥) الدرّ ١: ٣٥٣ـ٣٥٤؛ ابن ماجة ١: ٣٢٢ـ٣٢٣ / ١٠١٠، باب ٥٦.

نحو الكعبة»[١].

[٣٦٠٧/٢] وأخرج ابن مردويه عن ابن عبّاس قال: كان النبيّ ﷺ إذا سلّم من صلاته إلى بيت المقدس رفع رأسه إلى السماء، فأنزل الله: ﴿قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ﴾ الآية[٢].

[٣٦٠٨/٢] وروى الطبرسي قال: قال ابن عبّاس: لأنّ الكعبة كانت قبلة أبيه إبراهيم ﷺ وقبلة آبائه![٣]

[٣٦٠٩/٢] وأخرج مالك وعبد بن حميد والبخاري ومسلم وأبو داوود في ناسخه والنسائي عن ابن عمر قال: بينما الناس بقباء في صلاة الصبح إذ جاءهم آتٍ فقال: إنّ رسول الله ﷺ قد أُنزل عليه الليلة قرآن، وقد أُمر أن يستقبل الكعبة فاستقبلوها، وكانت وجوههم إلى الشام فاستداروا إلى الكعبة[٤].

[٣٦١٠/٢] وقال مجاهد وغيره: نزلت هذه الآية ورسول الله ﷺ في مسجد بني سَلِمَة، وقد صلّى بأصحابه ركعتين من صلاة الظهر، فتحوّل في الصلاة واستقبل الميزاب، وحوّل الرجال مكان النساء والنساء مكان الرجال، فسُمّي ذلك المسجد مسجد القبلتين[٥].

[٣٦١١/٢] وأخرج ابن سعد وابن أبي شيبة عن عمارة بن أوس الأنصاري قال: صلّينا إحدى صلاتي العشيّ، فقام رجل على باب المسجد ونحن في الصلاة، فنادى: إنّ الصلاة قد وجبت نحو الكعبة، فحوّل أو انحرف إمامُنا نحو الكعبة والرجال والنساء والصبيان[٦].

[٣٦١٢/٢] وأخرج أبو داوود في ناسخه وأبو يعلى والبيهقي في سننه عن أنس، أنّ النبيّ ﷺ

---

(١) الدرّ ١: ٣٤٣ ـ ٣٤٤؛ مجمع البيان ١: ٤٢١ ـ ٤٢٢؛ الثعلبي ٢: ١١، نسبه إلى ابن زيد ومقاتل ومجاهد وابن عبّاس.

(٢) الدرّ ١: ٣٥٤؛ ابن كثير ١: ١٩٨.

(٣) مجمع البيان ١: ٤٢٢؛ الثعلبي ٢: ١١؛ القرطبي ٢: ١٥٠؛ التبيان ٢: ١٣، عن مجاهد.

(٤) الدرّ ١: ٣٤٦؛ الموطّأ ١: ١٩٥؛ البخاري ١: ١٠٥ و ٥: ١٥٢؛ مسلم ٢: ٦٦؛ النسائي ١: ٣٠٥ / ٩٤٨ و ٦: ٢٩١ / ١١٠٠٢؛ مسند أحمد ٢: ١١٣؛ البغوي ١: ١٧٩ / ١٠٠.

(٥) البغوي ١: ١٧٨ ـ ١٧٩ / ٩٩؛ الثعلبي ٢: ١٢.

(٦) الدرّ ١: ٣٤٧؛ الطبقات ١: ٢٤٣ و ٤: ٣٨٢؛ المصنّف ١: ٣٦٩ / ٤، باب ١٠٤؛ ابن كثير ١: ١٩٩، بلفظ: «بينما نحن في الصلاة نحو بيت المقدس ونحن ركوع إذ نادى مناد بالباب: أنّ القبلة قد حوّلت إلى الكعبة. قال فأشهد على إمامنا أنّه انحرف فتحوّل هو والرجال والصبيان وهم ركوع نحو الكعبة».

وأصحابه كانوا يصلّون نحو بيت المقدس، فلمّا نزلت هذه الآية: ﴿فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ مرّ رجل من بني سلمة فناداهم وهم ركوع في صلاة الفجر نحو بيت المقدس: ألا إنّ القبلة قد حُوّلت إلى الكعبة، مرّتين، فمالوا كما هم ركوع إلى الكعبة(١).

[٣٦١٣/٢] وأخرج ابن أبي شيبة والبزّار عن أنس بن مالك قال: جاءنا منادي رسول الله ﷺ فقال: «إنّ القبلة قد حُوّلت إلى بيت الله الحرام، وقد صلّى الإمام ركعتين فاستداروا، فصلّوا الركعتين الباقيتين نحو الكعبة»(٢).

[٣٦١٤/٢] وأخرج النسائي والبزّار وابن المنذر والطبراني عن أبي سعيد بن المعلّى قال: كنّا نغدو إلى المسجد على عهد رسول الله ﷺ، فنمرّ على المسجد فنصلّي فيه، فمررنا يوماً ورسول الله ﷺ قاعد على المنبر، فقلت: لقد حدث أمر! فجلست. فقرأ رسول الله ﷺ هذه الآية: ﴿قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ﴾ حتّى فرغ من الآية، فقلت لصاحبي: تعال نركع ركعتين قبل أن ينزل رسول الله ﷺ، فنكون أوّل من صلّى فتوارينا فصلّينا، ثمّ نزل رسول الله ﷺ فصلّى للناس الظهر يومئذ إلى الكعبة(٣).

قوله تعالى: ﴿فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾

[٣٦١٥/٢] أخرج ابن أبي حاتم عن رفيع قال: (شَطْرَه) تلقاءه بلسان الحبش(٤).

[٣٦١٦/٢] وأخرج ابن جرير عن ابن عبّاس قال: البيت كلّه قبلة، وقبلة البيت الباب(٥).

---

(١) الدرّ ١: ٣٤٦؛ سنن أبي داوود ١: ٢٣٥ / ١٠٤٥، باب ٢٠٦؛ أبويعلى ٦: ٤٤٢ / ٣٨٢٦؛ البيهقي ٢: ١١، كتاب الصلاة، باب استيبان الخطاء بعد الاجتهاد؛ النسائي ٦: ٢٩٢ / ١١٠٠٨.

(٢) الدرّ ١: ٣٤٧؛ المصنّف ١: ٣٦٩ / ٢، باب ١٠٤؛ مختصر زوائد مسند البزّار ١: ٢١٤ / ٢٦٨؛ مجمع الزوائد ٢: ١٣، والعبارة بعد قوله «حوّلت»: والإمام في الصلاة قد صلّى ركعتين فقال المنادي: قد حوّلت القبلة إلى الكعبة فصلّوا الركعتين الباقيتين إلى الكعبة. قال الهيثمي: رواه البزّار وإسناده حسن.

(٣) الدرّ ١: ٣٥٤؛ ابن كثير ١: ١٩٨؛ النسائي ٦: ٢٩١ / ١١٠٠٤؛ مختصر زوائد مسند البزّار ١: ٢١٢ـ٢١٣ / ٢٦٦؛ الكبير ٢٢: ٣٠٤؛ القرطبي ٢: ١٤٩؛ مجمع الزوائد ٢: ١٢ـ١٣.

(٤) الدرّ ١: ٣٥٥؛ ابن أبي حاتم ١: ٢٥٤ / ١٣٦٢.

(٥) الطبري ٢: ٣٢ / ١٨٦٠.

قلت: وهو غريب!

[٣٦١٧/٢] وأخرج البيهقي في سننه عن ابن عبّاس مرفوعاً: «البيت قبلة لأهل المسجد، والمسجد قبلة لأهل الحرم، والحرم قبلة لأهل الأرض في مشارقها ومغاربها من أمّتي»[١].

[٣٦١٨/٢] وقال عطاء في قوله تعالى: ﴿فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ قال: الحرم كلّه مسجد[٢].

[٣٦١٩/٢] وأخرج ابن جرير عن ابن جُريج، قال: قلت لعطاء: سمعت ابن عبّاس يقول: إنّما أُمرتم بالطواف، ولم تؤمروا بدخوله؟! قال: لم يكن ينهى عن دخوله، ولكنّي سمعته يقول: أخبرني أسامة بن زيد أنّ رسول الله ﷺ لمّا دخل البيت دعا في نواحيه كلّها، ولم يصلّ حتّى خرج، فلمّا خرج ركع في قِبَلِ القبلة ركعتين وقال: «هذه القبلة»[٣].

[٣٦٢٠/٢] وأخرج عن عطاء، قال: قال أسامة بن زيد: رأيت رسول الله ﷺ حين خرج من البيت أقبل بوجهه إلى الباب فقال: «هذه القبلةُ، هذه القبلةُ!»[٤]

[٣٦٢١/٢] وروى عليّ بن إبراهيم عن أبيه عن حمّاد عن حريز عن زرارة عن أبي جعفر عليه السلام قال: «إذا استقبلت القبلة بوجهك فلا تقلّب وجهك عن القبلة، فتفسد صلاتك، فإنّ الله ﷻ قال لنبيّه ﷺ في الفريضة: ﴿فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ﴾»[٥].

[٣٦٢٢/٢] وروى زرارة عن أبي جعفر عليه السلام أنّه قال: «لا صلاة إلّا إلى القبلة، قال: قلت وأين حدّ

---

(١) البيهقي ٢: ١٠، كتاب الصلاة، باب من طلب باجتهاده جهة الكعبة؛ كنز العمّال ٧: ٣٣٨ ـ ٣٣٩ / ١٩١٦٤؛ القرطبي ٢: ١٥٩

(٢) التبيان ٢: ١٦؛ ابن كثير ٢: ٣٦٠، بلفظ: قال عطاء: الحرم كلّه مسجد، لقوله تعالى: ﴿فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَٰذَا﴾، سورة التوبة، الآية ٢٨.

(٣) الطبري ٢: ٣٣ / ١٨٦٤؛ مسلم ٤: ٩٦ ـ ٩٧ كتاب الحجّ، باب استحباب دخول الكعبة؛ الحاكم ١: ٤٧٩، كتاب المناسك؛ البيهقي ٢: ٨ ـ ٩؛ مسند أسامة بن زيد: ١٠١.

(٤) الطبري ٢: ٣٢ / ١٨٦٢. وفي حديث (١٨٦٣) عنه: خرج النبيّ من البيت، فصلّى ركعتين مستقبلاً بوجهه الكعبة، فقال: «هذه القبلة» مرّتين.

(٥) الكافي ٣: ٣٠٠ / ٦، كتاب الصلاة، باب الخشوع في الصلاة وكراهية العبث؛ العيّاشيّ ١: ٨٣ / ١١٦، عن حريز عن أبي جعفر عليه السلام.

القبلة؟ قال: ما بين المشرق والمغرب قبلة كلّه، قال. قلت: فمن صلّى لغير القبلة أو في يوم غيم في غير الوقت؟ قال: يعيد»[١].

[٣٦٢٣/٢] وعن أبي هريرة عن النبيّ ﷺ قال: «ما بين المشرق والمغرب قبلة»[٢].

[٣٦٢٤/٢] وقال مقاتل بن سليمان: ﴿قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ﴾ يعني نرى أنّك تديم نظرك إلى السماء ﴿فَلَنُوَلِّيَنَّكَ﴾ يعني لنحوّلنك إلى ﴿قِبْلَةً تَرْضَاهَا﴾ لأنّ الكعبة كانت أحبّ إلى النبيّ ﷺ من بيت المقدس ﴿فَوَلِّ﴾ يعني فحوّل ﴿وَجْهَكَ شَطْرَ﴾ يعني تلقاء ﴿الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ﴾ من الأرض ﴿فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ﴾ يعني فحوّلوا وجوهكم في الصلاة تلقاءه، وقد كان النبيّ يصلّي في مسجد بني سلمة فصلّى ركعة ثمّ حوّلت القبلة إلى الكعبة. وفرض الله صيام رمضان، وتحويل القبلة، والصلاة إلى الكعبة قبل بدر بشهرين. وحرّم الخمر قبل الخندق.

﴿وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾ يعني أهل التوراة وهم اليهود منهم الحميس بن عمرو قال: يا محمّد ما أُمرت بهذا الأمر، وما هذا إلّا شيء ابتدعته، يعني في أمر القبلة فأنزل الله: ﴿وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾ يعني أهل التوراة ﴿لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ﴾ بأنّ القبلة هي الكعبة فأوعدهم الله، فقال: ﴿وَمَا اللهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾ يعني عمّا يعملون من كفرهم بالقبلة. ﴿وَلَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾ يعني اليهود: ينحوم بن سكين، ورافع بن سكين، ورافع بن حريملة، ومن النصارى أهل نجران: السيد والعاقب. فقالوا للنبيّ: ائتنا بآية نعرفها كما كانت الأنبياء تأتي بها فأنزل الله: ﴿وَلَئِنْ أَتَيْتَ﴾ يقول ولئن جئت يا محمّد ﴿الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ﴾ يعني الكعبة ﴿وَمَا أَنْتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ﴾ يعني بيت المقدس ثمّ قال: ﴿وَمَا بَعْضُهُمْ بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ﴾ يقول إنّ اليهود يصلّون قبل المغرب لبيت المقدس والنصارى قبل المشرق فأنزل الله ـ عزّ وجلّ ـ يحذّر نبيّه ويخوّفه: ﴿وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ﴾ فصلّيت إلى قبلتهم ﴿مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ﴾ يعني البيان ﴿إِنَّكَ إِذاً لَمِنَ الظَّالِمِينَ﴾[٣].

---

(١) الفقيه ١: ٢٧٨ / ٨٥٥.

(٢) البغوي ١: ١٧٩ ـ ١٨٠ / ١٠١؛ الترمذي ١: ٢١٤ / ٣٤١، باب ٢٥٣؛ ابن ماجة ١: ٣٢٣ / ١٠١١، باب ٥٦؛ كنز العمّال ٧: ٣٣٨ / ١٩١٦٣.

(٣) تفسير مقاتل ١: ١٤٦ ـ ١٤٧.

قوله تعالى: ﴿وَمَا بَعْضُهُمْ بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ﴾

[٣٦٢٥/٢] أخرج ابن جرير عن السدّي وابن زيد في قوله: ﴿وَمَا بَعْضُهُمْ بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ﴾ يقولا: لا اليهود بتابعي قبلة النصارى ولا النصارى بتابعي قبلة اليهود[١].

قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ﴾

[٣٦٢٦/٢] أخرج الطبراني عن سلمان الفارسي قال: خرجت أبتغي الدين، فوقعت في الرهبان بقايا أهل الكتاب، قال الله تعالى: ﴿يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ﴾ فكانوا يقولون: هذا زمان نبيّ قد أطلّ يخرج من أرض العرب له علامات، من ذلك شامّة مدوّرة، بين كتفيه خاتم النبوّة[٢].

[٣٦٢٧/٢] وأخرج الثعلبي من طريق السدّي الصغير عن الكلبي عن ابن عبّاس قال: لمّا قدم رسول الله ﷺ المدينة قال عمربن الخطّاب لعبدالله بن سلام: قد أنزل الله على نبيّه: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ﴾ فكيف يا عبدالله هذه المعرفة؟ فقال عبدالله بن سلام: يا عمر لقد عرفته حين رأيته كما أعرف ابني إذا رأيته مع الصبيان، وأنا أشدّ معرفة بمحمّد منّي بابني. فقال عمر: كيف ذلك؟ قال: أشهد أنّه رسول الله حقّ من الله، وقد نعته الله في كتابنا ولا أدري ما تصنع النساء. فقال له عمر: وفّقك الله يا ابن سلام[٣].

[٣٦٢٨/٢] وأخرج ابن جرير عن السدّي في قوله: ﴿يَعْرِفُونَهُ﴾ قال: يعرفون الكعبة من قبلة الأنبياء كما يعرفون أبناءهم[٤].

قوله تعالى: ﴿وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ﴾

[٣٦٢٩/٢] قال الشيخ الطبرسي: إنّ لكلّ قوم من المسلمين وجهة: من كان منهم وراء الكعبة، أو قدّامها، أو عن يمينها، أو عن شمالها، وهو اختيار الجبّائي[٥].

---

(١) الدرّ ١: ٣٥٦؛ الطبري ٢: ٣٥ / ١٨٦٦ و ١٨٦٧ عن ابن زيد؛ ابن أبي حاتم ١: ٢٥٥.

(٢) الدرّ ١: ٣٥٧؛ الكبير ٦: ٢٦٧؛ مجمع الزوائد ٨: ٢٤١.

(٣) الدرّ ١: ٣٥٧؛ الثعلبي ٢: ١٣؛ أبو الفتوح ٢: ٢١٥؛ البغوي ١: ١٨٠.

(٤) الطبري ٢: ٣٦ / ١٨٧٠؛ ابن أبي حاتم ١: ٢٥٥ / ١٣٦٨.

(٥) مجمع البيان ١: ٤٢٨ـ٤٢٩؛ التبيان ٢: ٢٤.

[٣٦٣٠/٢] وأخرج البخاري والنسائي والبيهقي في سننه عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «من صلّى صلاتنا، واستقبل قبلتنا، وأكل ذبيحتنا، فذلك المسلم، له ذمّة الله وذمّة رسوله، فلا تُخفروا الله في ذمّته».(١)(٢).

[٣٦٣١/٢] وقال مقاتل بن سليمان: ﴿وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا﴾ يقول لكلّ أهل ملّة قبلة هم مستقبلوها، يريدون بها الله ﴿فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ﴾ يقول سارعوا في الصالحات من الأعمال ﴿أَيْنَ مَا تَكُونُوا﴾ من الأرض أنتم وأهل الكتاب ﴿يَأْتِ بِكُمُ اللهُ جَمِيعاً﴾ يوم القيامة ﴿إِنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ من البعث وغيره قدير(٣).

[٣٦٣٢/٢] وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عبّاس في قوله: ﴿وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ﴾ يعني بذلك أهل الأديان. يقول: لكلٍّ قبلةٌ يرضونها، ووجه الله حيث توجّه المؤمنون(٤).

[٣٦٣٣/٢] وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن مجاهد في قوله: ﴿وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا﴾ قال: لكلّ صاحب ملّة قبلة وهو مستقبلها(٥).

[٣٦٣٤/٢] وعن ابن عبّاس في قوله: ﴿فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ﴾ قال: معناه تنافسوا فيما رغبتم فيه من الخير، فلكلّ عندي ثوابه(٦).

[٣٦٣٥/٢] وروى الشيخ المفيد بالإسناد إلى جابر بن يزيد الجعفي، قال: قال أبو جعفر عليه السلام في حديث يذكر فيه علامات القائم عليه السلام، إلى أن قال: فيجمع الله له أصحابه ثلاثمائة وثلاثة عشر رجلاً ويجمعهم الله له على غير ميعاد قَزَعاً كقَزَع الخريف(٧)، وهم يا جابر الآية الّتي ذكرها الله في كتابه

(١) خفر فلاناً: نقض عهده.

(٢) الدرّ ١: ٣٥٨؛ البخاري ١: ١٠٢؛ النسائي ٦: ٥٣٠ / ١١٧٢٨، باب ٩، صفة المسلم؛ البيهقي ٢: ٣؛ كنز العمّال ١: ٩٢ / ٣٩٨.

(٣) تفسير مقاتل ١: ١٤٨.

(٤) الدرّ ١: ٣٥٧؛ الطبري ٢: ٤٠ / ١٨٨٦؛ ابن أبي حاتم ١: ٢٥٦ / ١٣٧٤؛ ابن كثير ١: ٢٠٠.

(٥) الدرّ ١: ٣٥٨؛ الطبري ٢: ٣٩ و ٤١ / ١٨٨٢ و ١٨٩٣؛ التبيان ٢: ٢٤؛ القرطبي ٢: ١٦٤، بنحوه عن الربيع وعطاء وابن عبّاس.

(٦) مجمع البيان ١: ٤٢٩.

(٧) القزع: قِطَع من السحاب صغار متفرّقة.

﴿أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمُ اللهُ جَمِيعاً إِنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ فيبايعونه بين الركن والمقام ومعه عهد من رسول الله ﷺ، وقد توارثته الأبناء من الآباء[1].

قوله تعالى: ﴿لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ﴾

[٣٦٣٦/٢] أخرج ابن أبي حاتم عن أبي العالية في قوله: ﴿لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ﴾ قال: يعني بذلك أهل الكتاب ﴿إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ﴾ بمعنى مشركي قريش. وكذا عن مجاهد وقتادة وغيرهما[2].

قوله تعالى: ﴿وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ﴾

[٣٦٣٧/٢] أخرج الثعلبي في قوله تعالى: ﴿وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ﴾ قال: روي عن عليّ عليه السلام أنّه قال: «النعم ستّة: الإسلام والقرآن ومحمّد ﷺ والستر والعافية والغنى ممّا في أيدي الناس»[3].

[٣٦٣٨/٢] وعنه عليه السلام قال: «تمام النعمة الموت على الإسلام»[4].

[٣٦٣٩/٢] وروى العيّاشيّ بالإسناد إلى هشام بن سالم عن الإمام أبي عبدالله الصادق عليه السلام قال: «تمام النعمة دخول الجنّة»[5].

[٣٦٤٠/٢] وروي عن النبيّ ﷺ قال: «تمام النعمة دخول الجنّة».

[٣٦٤١/٢] وعن أمير المؤمنين عليه السلام قال: «تمام النعمة الموت على الإسلام». قال المحقّق الفيض الكاشاني: لاتنافي بين الخبرين، لتلازم الأمرين[6].

[٣٦٤٢/٢] وقال سعيد بن جبير: ولا يتمّ نعمته على المسلم إلّا أن يدخل الجنّة[7].

---

(١) البرهان ١: ٣٥٠ / ٤؛ الاختصاص: ٢٥٧؛ الغيبة للنعماني: ٢٨٢ / ٦٧؛ كنزالدقائق ٢: ١٩٢؛ البحار ٥٢: ٢٣٩ / ١٠٥، باب ٢٥؛ تأويل الآيات ١: ٨٢ / ٦٦.

(٢) الدرّ ١: ٣٥٩؛ ابن أبي حاتم ١: ٢٥٨ / ١٣٨٧، و ٢٥٩ / ١٣٨٩.

(٣) الثعلبي ٢: ١٧؛ مجمع البيان ١: ٤٣٢.

(٤) البغوي ١: ١٨٢؛ أبوالفتوح ٢: ٢٢٤؛ الثعلبي ٢: ١٧.

(٥) العيّاشيّ ١: ٣٢٢ / ٢٣؛ البحار ٣٧: ١٣٨ / ٢٩، باب ٢٥.

(٦) الصافي ١: ٣٠٣ ذيل الآية ١٥٠، من سورة البقرة.

(٧) البغوي ١: ١٨٢.

[٣٦٤٣/٢] وعن ابن عبّاس قال: ولأتمّ نعمتي عليكم في الدنيا والآخرة. أمّا في الدنيا فانتصركم على أعداءكم وأورثكم أرضهم وديارهم وأموالهم، وأمّا في الآخرة فجنّتي ورحمتي[1].

[٣٦٤٤/٢] وقال الطبرسي في قوله: ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ أي: لكي تهتدوا، و«لعلّ» من الله واجب. عن الحسن وجماعة[2].

[٣٦٤٥/٢] وقال مقاتل بن سليمان: ﴿وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ يعني الحرم كلّه فإنّه مسجد كلّه ﴿وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ﴾ من الأرض ﴿فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ﴾ يعني فحوّلوا وجوهكم تلقاءه، ثمّ قال: ﴿لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ﴾ يعني اليهود في أنّ الكعبة هي القبلة ولا حجّة لهم عليكم في انصرافكم إليها. ثمّ استثنى فقال: ﴿إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ﴾ يعني من الناس يعني مشركي العرب وذلك أنّ مشركي مكّة قالوا: إنّ الكعبة هي القبلة فما بال محمّد تركها وكانت لهم في ذلك حجّة. يقول الله ـعزّ وجلّـ: ﴿فَلَا تَخْشَوْهُمْ﴾ أن يكون لهم عليكم حجّة في شيء غيرها ﴿وَاخْشَوْنِي﴾ في ترك أمري في أمر القبلة، ثمّ قال ـعزّ وجلّـ: ﴿وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ﴾ في انصرافكم إلى الكعبة وهي القبلة ﴿وَلَعَلَّكُمْ﴾ ولكي ﴿تَهْتَدُونَ﴾ من الضلالة. فإنّ الصلاة قبل بيت المقدس بعد ما نسخت الصلاة إليه ضلالة.

قال: حدّثنا عبيدالله بن ثابت، قال: حدّثنا أبي، قال الهذيل عن ليث بن سعد عن يزيد بن أبي حبيب عن أبي الجهم مرثد عن عبدالله بن عمرو بن العاص، قال: إنّكم ستفتحون قسطنطينية والرومية وحمقلة.

قال: حدّثنا عبيدالله، قال: حدّثنا أبي قال: حدّثنا الهذيل عن ابن لهيعة عن أبي قبيل عن عبدالله بن عمرو قال: إنّكم ستفتحون رومية فإذا دخلتموها فادخلوا كنيستها الشرقيّة فعدّوا سبع بلاطات واقلعوا الثامنة وهي بلاطة حمراء فإنّ تحتها عصا موسى وإنجيل عيسى وحُليّ إيلياء. يعني بيت المقدس. هذا خزيهم في الدنيا ولهم في الآخرة عذاب النار.

قال: حدّثنا عبيدالله، قال: حدّثني أبي عن الهذيل بن حبيب عن مقاتل، قال: كلّ من ملك القبط يسمّى قيطوس وكلّ من ملك الروم يسمّى قيصر، وكلّ من ملك الفرس يسمّى كسرى[3].

---

(١) مجمع البيان ١: ٤٣٢.
(٢) المصدر: ٤٣٢.
(٣) تفسير مقاتل ١: ١٤٩.

قوله تعالى: ﴿كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولاً مِنْكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا﴾

[٣٦٤٦/٢] قيل: معنى الكلام على التقديم والتأخير، أي فاذكروني كما أرسلنا، روي ذلك عن عليّ ـ عليه صلوات المصلّين ـ واختاره الزجّاج[١].

[٣٦٤٧/٢] وأخرج ابن أبي حاتم عن مقاتل بن حيّان في قوله: ﴿وَيُزَكِّيكُمْ﴾ قال: ويطهّركم من الذنوب[٢].

قوله تعالى: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ﴾

[٣٦٤٨/٢] أخرج عبد بن حميد وابن جرير عن سعيد بن جبير في قوله: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ﴾ قال: اذكروني بطاعتي أذكركم بمغفرتي[٣].

[٣٦٤٩/٢] وأخرج أبو الشيخ والديلمي من طريق جويبر عن الضحّاك عن ابن عبّاس قال: قال رسول الله ﷺ: «﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ﴾ يقول: اذكروني يا معاشر العباد بطاعتي أذكركم بمغفرتي»[٤].

[٣٦٥٠/٢] وأخرج الديلمي وابن عساكر عن أبي هند الداري عن النبيّ ﷺ قال: قال الله: «اذكروني بطاعتي أذكركم بمغفرتي، فمن ذكرني وهو مطيع فحقّ عليّ أن أذكره بمغفرتي، ومن

---

(١) القرطبي ٢: ١٧٠ ـ ١٧١، وزاد: «أي كما أرسلنا فيكم رسولاً تعرفونه بالصدق فاذكروني بالتوحيد والتصديق به»؛ التبيان ٢: ٢٩ ـ ٣٠، عن الحسن ومجاهد، وابن أبي عن الفرّاء في أحد قوليه والزجّاج؛ الثعلبي ٢: ١٩، بلفظ: «تقديرها: كما أرسلنا فيكم رسولاً منكم فاذكروني أذكركم. فيكون جزاءً له جوابان مقدّم ومؤخّر... وهذا قول مجاهد وعطاء والكلبي ومقاتل والأخفش وابن كيسان واختيار الزّجاج».

(٢) ابن أبي حاتم ١: ٢٥٩ / ١٣٩٣.

(٣) الدرّ ١: ٣٦٠؛ الطبري ٢: ٥١ / ١٩٧١؛ ابن أبي حاتم ١: ٢٦٠ / ١٣٩٨، وفي رواية أخرى عنه أيضاً قال:... أذكركم برحمتي، رقم ١٣٩٩؛ الثعلبي ٢: ١٩؛ البغوي ١: ١٨٣؛ الوسيط ١: ٢٣٤، وكذا عن ابن عبّاس؛ أبو الفتوح ٢: ٢٢٩؛ مجمع البيان ١: ٤٣٥؛ التبيان ٢: ٣١.

(٤) الدرّ ١: ٣٦٠؛ الفردوس بمأثور الخطاب، الديلمي ٣: ١٥٠ / ٤٤٠٥؛ الثعلبي ٢: ١٩، وفيه: «... أذكركم بمعونتي» البغوي ١: ١٨٣؛ الوسيط ١: ٢٣٤.

ذكرني وهو لي عاصٍ فحقّ عليّ أن أذكره بمقت»(١).

[٢/٣٦٥١] وقال مقاتل بن سليمان: إذا فعلت ذلك بكم ﴿فَاذْكُرُونِي﴾ يقول فاذكروني بالطاعة ﴿أَذْكُرْكُمْ﴾ بخير ﴿وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ﴾ يقول اشكروا الله ـ عزّ وجلّ ـ في هذه النعم ولا تكفروا بها(٢).

[٢/٣٦٥٢] وقال مجاهد في قوله: ﴿كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولاً مِنْكُمْ﴾ يقول كما فعلت فاذكروني(٣)

[٢/٣٦٥٣] وأخرج سعيد بن منصور وابن المنذر والبيهقي في شعب الإيمان عن خالد بن أبي عمران قال: قال رسول الله ﷺ: «من أطاع الله فقد ذكر الله وإن قلّت صلاته وصيامه وتلاوته للقرآن، ومن عصى الله فقد نسي الله وإن كثرت صلاته وصيامه وتلاوته للقرآن»(٤).

[٢/٣٦٥٤] وأخرج الطبراني في الأوسط وأبو نعيم عن أبي هريرة عن النبيّ ﷺ يقول الله: «يا ابن آدم إنّك إذا ما ذكرتني شكرتني، وإذا ما نسيتني كفرتني»(٥).

[٢/٣٦٥٥] وأخرج ابن أبي الدنيا وابن أبي حاتم والبيهقي في شعب الإيمان عن زيد بن أسلم: أنّ موسى ﷺ قال: يا ربّ أخبرني كيف أشكرك؟ قال: «تذكرني ولا تنساني، فإذا ذكرتني فقد شكرتني وإذا نسيتني فقد كفرتني»(٦).

[٢/٣٦٥٦] وأخرج أحمد في الزهد عن عمرو بن قيس قال: أوحى الله إلى داوود إنّك إن ذكرتني ذكرتُك وإن نسيتني تركتُك، واحذر أن أجدك على حال لا أنظر إليك فيه!(٧)

[٢/٣٦٥٧] وروى الكليني بإسناده إلى أبي عبدالله ﷺ ـ في حديث طويل ـ يقول فيه ﷺ: «والله

---

(١) الدرّ ١: ٣٦٠؛ الفردوس بمأثور الخطاب، الديلمي ٣: ١٧٩ / ٤٤٨٦، بلفظ: أبو هند الرازي، قال الله ـ ﷻ ـ: اذكروني بطاعتي أذكركم بمغفرتي، من ذكرني وهو عاص فحقّ عليّ أن أذكره بمقت.

(٢) تفسير مقاتل ١: ١٥٠.

(٣) ابن كثير ١: ٢٠١؛ الثعلبي ٢: ١٩ وعن عطاء والكلبي ومقاتل وابن كيسان.

(٤) الدرّ ١: ٣٦٢؛ الشعب ١: ٤٥٢ / ٦٨٧؛ الثعلبي ٢: ١٩، إلى قوله: وتلاوته للقرآن؛ الوسيط ١: ٢٣٤.

(٥) الدرّ ١: ٣٦٠؛ الأوسط ٧: ٢٠٠؛ حلية الأولياء ٤: ٣٣٨؛ مجمع الزوائد ١٠: ٧٩؛ كنزالعمّال ١: ٤٤٤ / ١٩١٥.

(٦) الدرّ ١: ٣٦٠؛ ابن أبي حاتم ١: ٢٦١ / ١٤٠٢؛ الشعب ١: ٤٥٨ / ٧١١؛ ابن كثير ١: ٢٠١ ـ ٢٠٢.

(٧) الدرّ ١: ٣٦٨.

ذاكر لمن ذكره من المؤمنين. واعلموا أنّ الله لم يذكره أحد من عباده المؤمنين إلّا ذكره بخير، فاعطوا الله من أنفسكم الاجتهاد في طاعته»[١].

[٣٦٥٨/٢] وروى أبو الجارود عن الإمام أبي جعفر عليه السلام في قوله: ﴿وَلَذِكْرُ اللهِ أَكْبَرُ﴾[٢] يقول: «ذكر الله لأهل الصلاة أكبر من ذكرهم إيّاه، ألا ترى أنّه يقول: ﴿اذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ﴾»[٣].

[٣٦٥٩/٢] وعن ابن عبّاس قال: ذكر الله إيّاكم أكبر من ذكركم إيّاه[٤].

[٣٦٦٠/٢] وأخرج الطبراني وابن مردويه والبيهقي في شعب الإيمان عن ابن مسعود قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «من أعطى أربعاً أُعطي أربعاً، وتفسير ذلك في كتاب الله: من أعطى الذكر ذكره الله لأنّ الله يقول: ﴿اذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ﴾، ومن أعطى الدعاء أُعطي الإجابة لأنّ الله يقول: ﴿ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾[٥]، ومن أعطى الشكر أُعطي الزيادة لأنّ الله يقول: ﴿لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾[٦]، ومن أعطى الاستغفار أُعطي المغفرة لأنّ الله يقول: ﴿اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّاراً﴾»[٧][٨].

[٣٦٦١/٢] وأخرج البزّار والطبراني والبيهقي عن ابن عبّاس قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «من عجز منكم عن اللّيل أن يكابده، وبخل بالمال أن ينفقه، وجبُن عن العدوّ أن يجاهده، فليكثر ذكر الله»[٩].

* * *

[٣٦٦٢/٢] وأخرج أحمد والبخاري ومسلم والترمذيّ والنسائيّ وابن ماجة والبيهقي في شعب الإيمان عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «يقول الله: أنا عند ظنّ عبدي بي، وأنا معه إذا

---

(١) نورالثقلين ١: ١٤٠ / ٤٣٢؛ الكافي ٨: ٧ / ١، باب رسالة أبي عبدالله عليه السلام إلى جماعة الشيعة؛ البحار ٧٥: ٢١٥ ـ ٢١٦ / ٩٣، باب ٢٣.

(٢) العنكبوت ٢٩: ٤٥.

(٣) نورالثقلين ١: ١٤٠ / ٤٣١؛ القمي ٢: ١٥٠، ذيل الآية ٤٥ من سورة العنكبوت؛ الصافي ١: ٣٠٤، وفيه: ذكر الله لأهل الطاعة أكبر...؛ كنز الدقائق ٢: ١٩٤؛ البحار ٧٩: ٢٠٦ / ٨، باب ١.

(٤) ابن كثير ١: ٢٠٢؛ الطبري ١١: ١٩٠ / ٢١١٦١؛ مجمع البيان ٨: ٣٠، في تفسير سورة العنكبوت، الآية ٤٥.

(٥) غافر ٤٠: ٦٠.

(٦) إبراهيم ١٤: ٧.

(٧) نوح ٧١: ١٠.

(٨) الدرّ ١: ٣٦٠؛ الأوسط ٧: ١١٧ ـ ١١٨؛ الشعب ٤: ١٢٦ / ٤٥٢٩؛ مجمع الزوائد ١٠: ١٤٩؛ كنزالعمّال ١٥: ٨٧٤ / ٤٣٤٧٣.

(٩) الدرّ ١: ٣٦٢ ـ ٣٦٣؛ الكبير ١١: ٧٠؛ الشعب ١: ٣٩١ / ٥٠٨؛ مجمع الزوائد ١٠: ٧٤؛ كنزالعمّال ١: ٤٢٩ / ١٨٥٢.

ذكرني، فإن ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي، وإن ذكرني في ملاءٍ ذكرته في ملاءٍ خيرٍ منهم، وإن تقرّب إليّ شبراً تقرّبت إليه ذراعاً، وإن تقرّب إليّ ذراعاً تقرّبت إليه باعاً، وإن أتاني يمشي أتيته هرولة»[(١)].

[٣٦٦٣/٢] وأخرج الطبراني عن معاذ بن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «قال الله ـ عزّ وجلّ ذكره ـ: لا يذكرني أحد في نفسه إلّا ذكرته في ملأ من ملائكتي، ولا يذكرني في ملأ إلّا ذكرته في الرفيق الأعلى»[(٢)].

[٣٦٦٤/٢] وروى الكليني بإسناده عن ابن فضّال، رفعه قال: «قال الله ـ عزّ وجلّ ـ لعيسى عليه السلام: يا عيسى اذكرني في نفسك أذكرك في نفسي. واذكرني في ملأك أذكرك في ملاء خير من ملاء الآدميّين، يا عيسى ألن لي قلبك وأكثر ذكري في الخلوات، واعلم أنّ سروري أن تبصبص إليّ، وكن في ذلك حيّاً ولا تكن ميّتاً»[(٣)].

[٣٦٦٥/٢] وعن ابن محبوب عن إبراهيم بن أبي البلاد عمّن ذكره عن أبي عبدالله عليه السلام قال: «قال الله ﷻ: من ذكرني سرّاً ذكرته علانية»[(٤)].

[٣٦٦٦/٢] وعن أحمد بن محمّد بن عيسى عن ابن محبوب عمّن ذكره عن أبي عبدالله عليه السلام قال: «قال الله ﷻ: من ذكرني في ملاء من الناس ذكرته في ملاء من الملائكة»[(٥)].

[٣٦٦٧/٢] وأخرج عبدالله بن أحمد عن أبي الدرداء قال: اذكر الله عند كلّ حُجيرة وشُجيرة ومُديرة، واذكره في سرّائك يذكرك في ضرّائك[(٦)].

---

(١) الدرّ ١: ٣٦٢؛ أحمد ٢: ٤١٣؛ البخاري ٨: ١٧١؛ مسلم ٨: ٦٢ ـ ٦٣؛ الترمذي ٥: ٢٣٨ ـ ٢٣٩ / ٣٦٧٣، باب ١٣٢، قال أبو عيسى: هذا حديث حسن صحيح؛ النسائي ٤: ٤١٢ / ٧٧٣٠، باب ٤٥، بدون قوله: «وإن أتاني يمشي أتيته هرولة»؛ ابن ماجة ٢: ١٢٥٥ ـ ١٢٥٦ / ٣٨٢٢، باب ٥٨؛ الشعب ١: ٤٠٦ / ٥٥٠؛ الثعلبي ٢: ٢٠؛ الوسيط ١: ٢٣٥؛ عوالي اللئالي ١: ٥٦ / ٨١.

(٢) الدرّ ١: ٣٦٢؛ الكبير ٢٠: ١٨٢؛ ابن كثير ١: ٢٠٢؛ مجمع الزوائد ١٠: ٧٨، ثمّ قال: إسناده حسن؛ كنز العمّال ١: ٤٢٠ / ١٧٩٦.

(٣) الكافي ٢: ٥٠٢ / ٣.

(٤) المصدر / ١.

(٥) المصدر: ٤٩٨ / ١٣.

(٦) الدرّ ١: ٣٦٦.

[٣٦٦٨/٢] وقال رسول الله ﷺ: «تعرّف إلى الله في الرخاء يعرفك في الشدّة»(١).

[٣٦٦٩/٢] وأخرج ابن أبي شيبة عن سلمان قال: إذا كان العبد يحمد الله في السرّاء ويحمده في الرخاء فأصابه ضرّ دعا الله، قالت الملائكة: صوت معروف من امرئ ضعيف فيشفعون له، فإذا كان العبد لايذكر الله في السرّاء ولايحمده في الرخاء فأصابه ضرّ فدعا الله، قالت الملائكة: صوت منكر(٢).

[٣٦٧٠/٢] وروى أبو جعفر الكليني بالإسناد إلى عبدالله بن سنان عن أبي حمزة الثُّمالي عن أبي جعفر عليه السلام قال: مكتوبٌ في التوراة الّتي لم تغيّر: «أنّ موسى عليه السلام سأل ربّه فقال: يا ربّ أقريب أنت منّي فأناجيك أم بعيد فأناديك؟ فأوحى الله عزّ وجلّ إليه: يا موسى، أنا جليس من ذكرني! فقال موسى: فمن في سَتْرك يَوْمَ لا سَتْرَ إلّا سترُك؟ فقال: الّذين يذكرونني فأذكرهم، ويتحابّون فيّ فأحبّهم، فأولئك الّذين إذا أردت أن أصيب أهل الأرض بسوء ذكرتُهم فدفعتُ عنهم بهم!»(٣).

[٣٦٧١/٢] وعن أبي الصباح الكناني عن أبي عبدالله عليه السلام قال: «يموت المؤمن بكلّ ميتة إلّا الصاعقة لا تأخذه وهو يذكر الله ـ عزّ وجلّ ـ»(٤).

[٣٦٧٢/٢] وعن عليّ بن إبراهيم عن أبيه عن ابن أبي عُمَير عن ابن أُذَينة عن بُرَيد بن معاوية العجلي قال: قال أبو عبدالله عليه السلام: «إنّ الصواعق لا تصيب ذاكراً، قال: قلت: وما الذاكر؟ قال: من قرأ مائة آية!»(٥)

[٣٦٧٣/٢] وعن وهيب بن حفص عن أبي بصير قال: سألت أبا عبدالله عليه السلام عن ميتة المؤمن؟ قال: «يموت المؤمن بكلّ ميتة يموت غرقا ويموت بالهدم ويبتلي بالسبع ويموت بالصاعقة ولا تصيب ذاكر الله ـ عزّ وجلّ ـ»(٦).

[٣٦٧٤/٢] وعن محمّد بن إسماعيل بن بزيع عن أبي الحسن الرضا عليه السلام قال: «أحسن الظنّ بالله،

---

(١) أبو الفتوح ٢: ٢٣١؛ الحاكم ٣: ٥٤١، رواه مطولاً؛ مجمع البيان ١: ٤٣٥؛ القرطبي ٦: ٣٩٨، الرواية مطولة ـ نقله عن الترمذي، سورة الأنعام، الآية ١٧؛ ابن كثير ٤: ٢٣، عن ابن عبّاس سورة الصافّات، الآية ١٤٣ ـ ١٤٤.

(٢) الدرّ ١: ٣٦٧؛ المصنّف ٧: ٧٦ / ٢٩، كتاب الدعاء، باب ٥٠، في ثواب ذكر الله؛ الثعلبي ٢: ٢٠؛ أبوالفتوح ٢: ٢٣١.

(٣) الكافي ٢: ٤٩٦ ـ ٤٩٧ / ٤.

(٤) المصدر: ٥٠٠ / ١.

(٥) المصدر / ٢.

(٦) المصدر: ٥٠٠ ـ ٥٠١ / ٣.

فإنّ الله ﷻ يقول: أنا عند ظنّ عبدي المؤمن بي إن خيراً فخيراً وإن شرّاً فشرّاً»(١).

[٣٦٧٥/٢] وأخرج ابن ماجة وابن حِبّان والبيهقي عن أبي هريرة عن النبيّ ﷺ قال: «إنّ الله -ﷻ- يقول: أنا مع عبدي إذا هو ذكرني وتحرّكت بي شفتاه»(٢).

[٣٦٧٦/٢] وأخرج الحاكم وصحّحه عن أبي الدرداء قال: «سمعت رسول الله ﷺ يقول: إنّ الله يقول: أنا مع عبدي إذا هو ذكرني وتحرّكت بي شفتاه»(٣).

[٣٦٧٧/٢] وأخرج الحاكم وصحّحه عن أنس مرفوعاً: قال الله: «عبدي، أنا عند ظنّك بي، وأنا معك إذا ذكرتني»(٤).

[٣٦٧٨/٢] وأخرج ابن أبي شيبة وأحمد والترمذي وحسّنه وابن ماجة وابن حِبّان والحاكم وصحّحه والبيهقي عن عبدالله بن بسر، «أنّ رجلاً قال: يا رسول الله إنّ شرائع الإسلام قد كثرت عليّ فأخبرني بشيء أستنّ به، قال: لا يزال لسانك رطباً من ذكر الله»(٥).

[٣٦٧٩/٢] وأخرج ابن أبي شيبة وأحمد في الزهد عن أبي الدرداء قال: إنّ الّذين لا تزال ألسنتهم رطبةً بذكر الله تبارك وتعالى يدخل أحدهم الجنّة وهو يضحك(٦).

[٣٦٨٠/٢] وأخرج ابن أبي الدنيا والبزّار وابن حبّان والطبراني والبيهقي عن مالك بن يَخامر، أنّ معاذ بن جبل قال لهم: «إنّ آخر كلام فارقتُ عليه رسول الله ﷺ أن قلتُ: أيّ الأعمال أحبّ إلى

---

(١) المصدر: ٣/٧٢.

(٢) الدرّ ١: ٣٦٤؛ الحاكم ١: ٤٩٦، كتاب الدعاء؛ سنن ابن ماجة ٢: ١٢٤٦/٣٧٩٢، باب ٥٣.

(٣) الدرّ ١: ٣٦٤؛ الحاكم ١: ٤٩٦، كتاب الدعاء؛ سنن ابن ماجة ٢: ١٢٤٦/٣٧٩٢، باب ٥٣، نقلاً عن أمّ الدرداء عن أبي هريرة؛ البغوي ١: ١٨٤/١٠٤، عن أمّ الدرداء عن أبي هريرة.

(٤) الدرّ ١: ٣٦٤؛ الحاكم ١: ٤٩٧، كتاب الدعاء؛ كنزالعمّال ٣: ١٣٥/٥٨٤٧.

(٥) الدرّ ١: ٣٦٢؛ المصنّف ٧: ٧٢/٢ باب ٥٠؛ أحمد ٤: ١٩٠، وفيه: «أتشبّث به» بدل: «أستنّ». وهكذا الترمذي والمستدرك والبيهقي في السنن وفي الشعب؛ الترمذي ٥: ١٢٦-١٢٧/٣٤٣٥، باب ٤؛ ابن ماجة ٢: ١٢٤٦/٣٧٩٣ باب ٥٣؛ ابن حبّان ٣: ٩٦-٩٧/٨١٤؛ الحاكم ١: ٤٩٥؛ البيهقي ٣: ٣٧١؛ الشعب ١: ٣٩٣/٥١٥؛ القرطبي ٢: ١٧٢، وفيه: «أتشبّث» بدل: «أستنّ»؛ البغوي ١: ١٨٥/١٥٠، بلفظ: جاء أعرابي إلى رسول الله فقال يا رسول الله أيّ الأعمال أفضل؟ قال: أن تفارق الدنيا ولسانك رطب من ذكر الله تعالى.

(٦) الدرّ ١: ٣٦٦؛ المصنّف ٧: ٧٢/٨، باب ٥٠، في ثواب ذكر الله؛ كنزالعمّال ١: ٤٢٧/١٨٣٩.

الله؟ قال: أن تموت ولسانك رطب من ذكر الله»[١].

[٢/ ٣٦٨١] وأخرج ابن أبي الدنيا عن أبي المخارق قال: قال النبيّ ﷺ: «مررت ليلة أسري بي برجل مغيَّب في نور العرش، قلت: من هذا، أمَلَك؟! قيل: لا. قلت: نبيٌّ؟ قيل: لا. قلتُ: من هذا؟ قال: هذا رجل كان في الدنيا لسانه رطب من ذكر الله، وقلبه معلَّق بالمساجد، ولم يَسْتَسِبَّ لوالديه»[٢].

[٢/ ٣٦٨٢] وأخرج ابن أبي شيبة وأحمد في الزهد وابن أبي الدنيا عن سالم بن أبي الجعد قال: قيل لأبي الدرداء: إنّ رجلاً أعتق مائة نسمة. قال: إنّ مائة نسمة من مال رجل لكثير، وأفضل من ذلك إيمان ملزوم بالليل والنهار وأن لايزال لسان أحدكم رطباً من ذكر الله[٣].

[٢/ ٣٦٨٣] وأخرج أحمد والترمذي وابن ماجة وابن أبي الدنيا والحاكم وصحّحه والبيهقي عن أبي الدرداء قال: قال رسول الله ﷺ: «ألا أنبّئكم بخير أعمالكم وأزكاها عند مليككم وأرفعها في درجاتكم وخيرٍ لكم من إنفاق الذهب والورق وخير لكم من أن تلقوا أعدائكم فتضربوا أعناقهم؟ قالوا: بلى، قال: ذكر الله»[٤].

[٢/ ٣٦٨٤] وأخرج أحمد عن معاذ بن جبل قال: قال رسول الله ﷺ: «ما عمل آدميّ عملاً قطّ أنجى له من عذاب القبر من ذكر الله. وقال رسول الله ﷺ: ألا أخبركم بخير أعمالكم، وأزكاها عند مليككم، وأرفعها في درجاتكم، وخير لكم من تعاطي الذهب والفضّة، ومن أن تلقوا عدوّكم

---

(١) الدرّ ١: ٣٦٢؛ مختصر زوائد مسند البزّار ٢: ٣٩٢/ ٢٠٧٨؛ ابن حبّان ٣: ٩٩ـ ١٠٠/ ٨١٨؛ الكبير ٢٠: ١٠٦؛ الشعب ١: ٣٩٣/ ٥١٦؛ كنزالعمّال ١: ٤١٤/ ١٧٥٢؛ مجمع الزوائد ١٠: ٧٤.

(٢) الدرّ ١: ٣٦٢؛ حلية الأولياء ١: ٣٨/ ٩٥. أي لم يجلب المسبّة لوالديه.

(٣) الدرّ ١: ٣٦٢؛ المصنَّف ٨: ٢٣٧/ ١٢ كتاب الزهد، باب ٥٣، ما جاء في فضل ذكر الله؛ الزهد، لأحمد: ٢١٣/ ٧٣٠، بلفظ: عن سالم بن أبي الجعد قال: قيل لأبي الدرداء: إنّ أبا سعد بن منّبه أعتق مائة محرَّر، فقال: إنّ مائة محرّر من مال رجل لكثير وإن شئت أنبأتك بما هو أفضل من ذلك: إيمان ملزوم بالليل والنهار، ولايزال لسانك رطباً من ذكر الله ـ.

(٤) الدرّ ١: ٣٦٢؛ أحمد ٥: ١٩٥؛ الترمذي ٥: ١٢٧ـ ١٢٨/ ٣٤٣٧، باب ٦؛ ابن ماجة ٢: ١٢٤٥/ ٣٧٩٠ باب ٥٣؛ الحاكم ١: ٤٩٦؛ الشعب ١: ٣٩٤/ ٥١٩؛ مجمع الزوائد ١٠: ٧٣، ثمّ قال: رواه أحمد وإسناده حسن؛ كنزالعمّال ١: ٤١٦/ ١٧٦٧.

فتضربوا أعناقهم ويضربوا أعناقكم؟ قالوا: بلى يا رسول الله. قال: ذكر الله»[(١)].

[٣٦٨٥/٢] وأخرج ابن أبي الدنيا والبيهقي عن عبدالله بن عمرو عن النبيّ ﷺ أنّه كان يقول: «إنّ لكلّ شيء صقالة وإنّ صقالة القلوب ذكر الله، وما من شيء أنجى من عذاب الله من ذكر الله. قالوا: ولا الجهاد في سبيل الله؟ قال: ولو أن يضرب بسيفه حتّى ينقطع»[(٢)].

[٣٦٨٦/٢] وأخرج ابن أبي الدنيا في كتاب الشكر والطبراني والبيهقي عن ابن عبّاس: أنّ النبيّ ﷺ قال: «أربع من أعطيهنّ فقد أعطي خير الدنيا والآخرة: قلب شاكر، ولسان ذاكر، وبدن على البلاء صابر، وزوجة لاتبغيه خوناً في نفسها وماله»[(٣)].

[٣٦٨٧/٢] وأخرج ابن حبّان عن أبي سعيد الخدري: أنّ رسول الله ﷺ قال: «ليذكرنّ الله أقوام في الدنيا على الفرش الممهَّدة، يدخلهم الله الدرجات العلى»[(٤)].

[٣٦٨٨/٢] وأخرج البخاري ومسلم والبيهقي عن أبي موسى قال: قال النبيّ ﷺ: «مثل الّذي يذكر ربّه والّذي لايذكر ربّه مثل الحيّ والميّت»[(٥)].

[٣٦٨٩/٢] وأخرج ابن أبي الدنيا عن أبي ذرّ عن النبيّ ﷺ قال: «ما من يوم وليلة إلّا ولله ﷻ فيه صدقة مَنَّ بها على من يشاء من عباده، وما مَنَّ الله على عبد بأفضل من أن يلهمه ذكره»[(٦)].

[٣٦٩٠/٢] وأخرج ابن أبي شيبة عن خالد بن معدان قال: إنّ الله يتصدّق كلّ يوم بصدقة، فما تصدّق على عبده بشيء أفضل من ذكره[(٧)].

[٣٦٩١/٢] وأخرج أحمد عن معاذ بن جبل «أنّه سأل النبيّ ﷺ عن أفضل الإيمان؟ قال: أن

---

(١) الدرّ ١: ٣٦٥ـ٣٦٦؛ مسند أحمد ٥: ٢٣٩؛ مجمع الزوائد ١٠: ٧٣.

(٢) الدرّ ١: ٣٦٢؛ شعب الايمان ١: ٣٩٦ / ٥٢٢؛ كنزالعمّال ١: ٤٢٨ / ١٨٤٨.

(٣) الدرّ ١: ٣٦٣؛ كتاب الشكر: ٨١ / ٣٤؛ الكبير ١١: ١٠٩؛ شعب الايمان ٤: ١٠٤ / ٤٤٢٩؛ مجمع الزوائد ٤: ٢٧٣؛ كنزالعمّال ١٥: ٨٥٨و ٨٥٩ / ٤٣٤١٦.

(٤) الدرّ ١: ٣٦٣؛ ابن حبّان ٢: ١٢٤ / ٣٩٨؛ مجمع الزوائد ١٠: ٧٨، ثمّ قال: رواه أبويعلى وإسناده حسن.

(٥) الدرّ ١: ٣٦٣؛ البخاري ٧: ١٦٨، باب فضل ذكر الله؛ مسلم ٢: ١٨٨؛ شعب الايمان ١: ٤٠١ / ٥٣٦، وفيه: مثل البيت الّذي يذكر الله فيه والبيت الّذي لايذكر فيه مثل الحيّ والميّت؛ كنزالعمّال ١: ٤٢٤ / ١٨٢٠.

(٦) الدرّ ١: ٣٦٣؛ كنزالعمّال ٧: ٨٠٨ / ٢١٥١٠؛ مجمع الزوائد ٢: ٢٣٧.

(٧) الدرّ ١: ٣٦٣؛ المصنّف ٧: ٧٦ / ٣٠، باب ٥٠ في ثواب ذكر الله ـ عزّ وجلّ ـ.

تحبّ لله وتبغض لله وتُحمل لسانك في ذكر الله . قال : وماذا؟ قال : وأن تحبّ للناس ما تحبّ لنفسك وتكره لهم ما تكره لنفسك وأن تقول خيراً أو تصمُت»[١].

[٣٦٩٢/٢] وأخرج الطبراني عن أبي موسى قال : قال رسول الله ﷺ : «لو أنّ رجلاً في حجره دراهم يقسّمها وآخر يذكر الله لكان الذاكر لله أفضل»[٢].

[٣٦٩٣/٢] وأخرج أحمد في الزهد عن أبي الدرداء قال : لأن أُكبِّر مائة تكبيرة أحبّ إليّ من أن أتصدَّق بمائة دينار[٣].

[٣٦٩٤/٢] وأخرج ابن أبي شيبة عن عمر قال : التكبيرة خير من الدنيا وما فيها[٤].

[٣٦٩٥/٢] وروى الكليني عن عليّ بن إبراهيم عن أبيه عن النوفلي عن السكوني عن أبي عبدالله عليه السلام قال : «قال رسول الله ﷺ : ذاكرُ الله ـ عزّ وجلّ ـ في الغافلين كالمقاتل عن الفارّين ، والمقاتل عن الفارّين له الجنّة»[٥].

[٣٦٩٦/٢] وأيضاً عنه عن أبيه عن حمّاد عن حريز عن زرارة عن أحدهما عليهما السلام قال : «لا يكتب الملك إلّا ما سمع وقال الله ﷻ: واذكر ربّك في نفسك تضرّعاً وخُفية[٦] فلا يعلم ثواب ذلك الذكر في نفس الرجل غير الله ﷻ لعظمته»[٧].

[٣٦٩٧/٢] وأيضاً عن هشام بن سالم عن أبي عبدالله عليه السلام قال : «إنّ الله ـ عزّ وجلّ ـ يقول : من شغل بذكري عن مسألتي أعطيته أفضل ما أعطي من سألني»[٨].

[٣٦٩٨/٢] وعن هارون بن خارجة عن أبي عبدالله عليه السلام قال : «إنّ العبد ليكون له الحاجة إلى

---

(١) الدرّ ١ : ٣٦٦؛ مسند أحمد ٥ : ٢٤٧؛ مجمع الزوائد ١ : ٦١، ثمّ قال : رواه الطبراني في الكبير وفي إسناده ابن لهيعه.

(٢) الدرّ ١ : ٣٦٣؛ الأوسط ٦ : ١١٦؛ مجمع الزوائد ١٠ : ٧٤؛ المصنّف ٨ : ٢٣٦ / ٥، باب ٥٣. و ٧ : ٧٣ / ١١، باب ٥٠؛ كنزالعمّال ١ : ٤٣١ / ١٨٦٠.

(٣) الدرّ ١ : ٣٦٦؛ كتاب الزهد : ٢١٤ / ٧٣٣، وفيه : لأن أكبّر مائة مرّة أحبّ....

(٤) الدرّ ١ : ٣٦٦؛ المصنّف ٧ : ١٤٣ / ١، باب ١٦٥، بلفظ :... سمعت أباوائل يقول : أعطاني عمر أربع أعطية بيده وقال : التكبير خير من الدنيا وما فيها.

(٥) الكافي ٢ : ٥٠٢ / ٢.

(٦) الأعراف ٧ : ٥٥.

(٧) المصدر / ٤.

(٨) المصدر : ٥٠١ / ١.

الله ـ ﷻ ـ فيبدأ بالثناء على الله والصلاة على محمّد و آل محمّد حتّى ينسى حاجته فيقضيها الله له من غير أن يسأله إيّاها»(١).

[٣٦٩٩/٢] وعن داوود بن سرحان عن أبي عبدالله ﷺ قال: «قال رسول الله ﷺ: من أكثر ذكر الله ـ ﷻ ـ أحبّه الله ومن ذكر الله كثيراً كتبت له براءتان: براءة من النار وبراءة من النفاق»(٢).

[٣٧٠٠/٢] وأيضاً عنه عن معلّى بن محمّد عن الوشّاء عن داوود عن أبي عبدالله ﷺ قال: «من أكثر ذكر الله ﷻ أظلّه الله في جنّته»(٣).

[٣٧٠١/٢] وأخرج ابن أبي شيبة عن جعفر قال: قال رسول الله ﷺ: «أشدّ الأعمال ثلاثة، ذكر الله على كلّ حال، والإنصاف من نفسك، والمواساة في المال»(٤).

[٣٧٠٢/٢] وفيما علّم أميرالمؤمنين ﷺ أصحابه: «اذكروا الله في كلّ مكان فإنّه معكم»(٥).

[٣٧٠٣/٢] وروى الصدوق فيما أوصى به النبيّ عليّاً ﷺ «ثلاث لاتطيقها هذه الأمّة، المواساة للأخ في ماله، وإنصاف الناس من نفسه، وذكر الله على كلّ حال، وليس هو سبحان الله والحمد لله ولا إلـه إلّا الله والله أكبر، ولكن إذا ورد على ما يحرّم الله عليه خاف الله تعالى عنده وتركه»(٦).

[٣٧٠٤/٢] وعن زياد بن المنذر عن أبي عبدالله ﷺ شبهه بزيادة: «وإذا ورد عليك شيء من أمر الله أخذت به»(٧).

---

(١) المصدر / ٢.
(٢) المصدر: ٤٩٩ ـ ٥٠٠ / ٣.
(٣) المصدر: ٥٠٠ / ٥.
(٤) الدرّ ١: ٣٦٧؛ المصنّف ٨: ١٣١ / ٣٩؛ كتاب الزهد، باب ٦ (ما ذكر عن نبيّنا ﷺ في الزهد).
(٥) نورالثقلين ١: ١٤١ / ٤٣٨؛ الخصال: ٦١٣ / ١٠، باب الواحد إلى المائة، حديث أربعمائة؛ البحار ١٠: ٩٢ / ١، و ٩٠: ١٥٤ / ١٦؛ الصافي ١: ٣٠٤؛ كنزالدقائق ٢: ١٩٥.
(٦) نورالثقلين ١: ١٤٠ ـ ١٤١ / ٤٣٤؛ الخصال: ١٢٥ / ١٢٢؛ البحار ٧١: ٣٩٥ / ٢٠، باب ٢٨، و ٧٤: ٤٥ / ٢، باب ٣، و ٩٠: ١٥١ / ٤؛ كنزالدقائق ٢: ١٩٥.
(٧) نورالثقلين ١: ١٤١ / ٤٣٥؛ الخصال: ١٣١ ـ ١٣٢ / ١٣٩، وزاد: وإذا ورد عليك شيء من نهي الله ـ عزّ وجلّ ـ تركته؛ الكافي ٢: ١٤٤ / ٣، كتاب الإيمان والكفر، باب الإنصاف والعدل؛ المعاني: ١٩٣ / ٤، باب معنى ذكر الله كثيراً؛ الأمالي للطوسي: ٦٨٠ / ١٤٤٦ ـ ٢٥، المجلس ٣٧؛ المجالس: ١٩٣ / ٢٣، المجلس ٢٣؛ البحار ٧٢: ٣١ / ٢٤، باب ٣٥، و ٦٦: ٣٨١ / ٤٢، باب ٣٧، و ٩٠: ١٥٥ / ١٨.

[٣٧٠٥/٢] وعن أبي حمزة عن أبي جعفر عليه السلام قال: «مكتوب في التوراة الّتي لم تغيّر أنّ موسى سأل ربّه فقال: إلهي إنّه يأتي عليَّ مجالس أعزّك وأجلّك أن أذكرك فيها! فقال: يا موسى إنّ ذكري حسن على كلّ حال»(١).

[٣٧٠٦/٢] وعن النوفلي عن السكوني عن أبي عبدالله عليه السلام قال: «أوحى الله عزّ وجلّ إلى موسى عليه السلام: يا موسى، لا تفرح بكثرة المال ولاتدع ذكري على كلّ حال فإنّ كثرة المال تنسي الذنوب وإنّ ترك ذكري يقسي القلوب»(٢).

[٣٧٠٧/٢] وعن الحلبي عن أبي عبدالله عليه السلام قال: «لا بأس بذكر الله وأنت تبول، فإنّ ذكر الله عزّ وجلّ حسن على كلّ حال فلا تسأم من ذكر الله»(٣).

[٣٧٠٨/٢] وعن جعفر بن محمّد الأشعري عن ابن القداح عن أبي عبدالله عليه السلام قال: «ما من شيء إلّا وله حدّ ينتهي إليه إلّا الذكر فليس له حدّ ينتهي إليه، فرض الله عزّ وجلّ الفرائض فمن أدّاهنّ فهو حدّهنّ، وشهر رمضان فمن صامه فهو حدّه، والحجّ فمن حجّ فهو حدّه، إلّا الذكر فإنّ الله ـ عزّ وجلّ ـ لم يرض منه بالقليل ولم يجعل له حدّاً ينتهي إليه. ثمّ تلا هذه الآية: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللهَ ذِكْراً كَثِيراً. وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلاً﴾(٤) فقال: لم يجعل الله ـ عزّ وجلّ ـ له حدّاً ينتهي إليه. قال: وكان أبي عليه السلام كثير الذكر، لقد كنت أمشي معه وإنّه ليذكر الله، وآكل معه الطعام وإنّه ليذكر الله، ولقد كان يحدّث القوم وما يشغله ذلك عن ذكر الله، وكنت أرى لسانه لازقاً بحنكه يقول: لا إلٰه إلّا الله، وكان يجمعنا فيأمرنا بالذكر حتّى تطلع الشمس، ويأمر بالقراءة من كان يقرأ منّا، ومن كان لا يقرأ منّا أمره بالذكر. والبيت الّذي يُقرأ فيه القرآن ويذكر الله ـ عزّ وجلّ ـ فيه تكثر بركته وتحضره الملائكة وتهجره الشياطين ويضيء لأهل السماء كما يضيء الكوكب الدرّي لأهل الأرض. والبيت الّذي لا يُقرأ فيه القرآن ولا يُذكر الله فيه، تقلّ بركته وتهجره الملائكة وتحضره الشياطين. وقد قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: ألا أخبركم بخير أعمالكم لكم، أرفعها في درجاتكم، وأزكاها عند مليككم، وخير لكم من الدينار والدرهم، وخير لكم من أن تلقوا عدوّكم فتقتلوهم ويقتلوكم؟ فقالوا: بلى، فقال: ذكر الله ـ عزّ وجلّ ـ كثيراً. ثمّ قال: جاء رجل إلى النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم فقال: من خير أهل المسجد؟ فقال: أكثرهم

---

(١) الكافي ٢: ٤٩٧/ ٨.
(٢) المصدر/ ٧.
(٣) المصدر/ ٦.
(٤) الأحزاب ٣٣: ٤١ ـ ٤٢.

لله ذكراً. وقال رسول الله ﷺ: من أعطي لساناً ذاكراً فقد أعطي خير الدنيا والآخرة، وقال في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَمْنُنْ تَسْتَكْثِرُ﴾[1] قال: لاتستكثر ما عملت من خيرٍ لله»[2].

[٣٧٠٩/٢] وروى الصدوق عن رسول الله ﷺ قال: «والّذي نفس أبي القاسم بيده ما هلّل الله مهلّل ولا كبّر الله مكبِّر على شرف من الأشراف إلّا هلّل ما خلفه وكبّر ما بين يديه بتهليله وتكبيره حتّى يبلغ مقطع التراب»[3].

[٣٧١٠/٢] وروى الكليني بالإسناد عن أبي بصير عن أبي عبدالله عليه السلام قال: «شيعتنا الّذين إذا خلوا ذكروا الله كثيراً»[4].

[٣٧١١/٢] وروى الصدوق عن معاوية بن عمّار عن أبي عبدالله عليه السلام قال: «كان رسول الله ﷺ في سفره إذا هبط سبّح وإذا صعد كبّر»[5].

[٣٧١٢/٢] وعن أبي عبيدة عن أحدهما عليهما السلام قال: «إذا كنت في سفر فقل: اللّهمّ اجعل مسيري عبراً وصمتي تفكّراً وكلامي ذكراً»[6].

[٣٧١٣/٢] وعن سليمان بن جعفر عن أبي الحسن موسى بن جعفر عليه السلام قال: «من خرج وحده في سفر فليقل: ما شاء الله لا حول ولا قوّة إلّا بالله، اللّهمّ آنس وحشتي وأعنّي على وحدتي وأدّ غيبتي»[7].

[٣٧١٤/٢] وروى الكليني بإسناده إلى حنان عن أبيه قال: قال لي أبو جعفر عليه السلام: «يا أبا الفضل أما لك مكان تقعد فيه فتعامل الناس؟ قال: قلت: بلى، قال: ما من رجل مؤمن يروح أو يغدو إلى مجلسه أو سوقه فيقول حين يضع رجله في السوق: اللّهمّ إنّي أسألك من خيرها وخير أهلها، إلّا وكّل الله ـ عزّ وجلّ ـ به من يحفظه ويحفظ عليه حتّى يرجع إلى منزله، فيقول له: قد أجرت من شرّها وشرّ أهلها يومك هذا بإذن الله ـ عزّ وجلّ ـ وقد رزقت خيرها وخير أهلها في يومك هذا، فإذا جلس مجلسه قال حين يجلس: أشهد أن لا إلٰه إلّا الله وحده لاشريك له وأشهد أنّ محمّداً عبده و

---

(١) المدّثّر ٧٤: ٦.

(٢) المصدر: ٤٩٨ ـ ٤٩٩ / ١.

(٣) الفقيه ٢: ٢٧٣ ـ ٢٧٤ / ٢٤٢٢.

(٤) الكافي ٢: ٤٩٩ / ٢.

(٥) الفقيه ٢: ٢٧٣ / ٢٤٢٠.

(٦) المصدر / ٢٤٢١.

(٧) المصدر: ٢٧٦ / ٢٤٣١.

رسوله اللّهمّ إنّي أسألك من فضلك حلالاً طيّباً وأعوذ بك من أن أَظلم أو أُظلم وأعوذ بك من صفقة خاسرة ويمين كاذبة، فإذا قال ذلك قال له الملك الموكّل به: أبشر فما في سوقك اليوم أحد أوفر منك حظّاً، قد تعجّلت الحسنات ومحيت عنك السيّئات، وسيأتيك ما قسّم الله لك موفّراً حلالاً طيّباً مباركاً فيه»[١].

[٣٧١٥/٢] وعن ابن محبوب عن معاوية بن عمّار عن أبي عبدالله عليه السلام قال: «إذا دخلت سوقك فقل: اللّهمّ إنّي أسألك من خيرها وخير أهلها، وأعوذ بك من شرّها وشرّ أهلها، اللّهمّ إنّي أعوذ بك من أن أَظلم أو أُظلم أو أبغي أو يُبغى عليّ أو أعتدي أو يُعتدى عليّ، اللّهمّ إنّي أعوذ بك من شرّ إبليس وجنوده وشرّ فسقة العرب والعجم، وحسبي الله لا إله إلّا هو عليه توكّلت وهو ربّ العرش العظيم»[٢].

[٣٧١٦/٢] وعن حمّاد عن حريز عن أبي عبدالله عليه السلام قال: «إذا اشتريت شيئاً من متاع أو غيره فكبّر، ثمّ قل: اللّهمّ إنّي اشتريته ألتمس فيه من فضلك، فصلّ على محمّد و آل محمّد، اللّهمّ فاجعل لي فيه فضلاً، اللّهمّ إنّي اشتريته ألتمس فيه من رزقك [اللّهمّ] فاجعل لي فيه رزقاً، ثمّ أعد كلّ واحدة ثلاث مرّات»[٣].

[٣٧١٧/٢] وعن هذيل عن أبي عبدالله عليه السلام قال: «إذا اشتريت جاريةً فقل: اللّهمّ إنّي أستشيرك وأستخيرك»[٤].

[٣٧١٨/٢] وعن معاوية بن عمّار عن أبي عبدالله عليه السلام قال: «إذا أردت أن تشتري شيئاً فقل: يا حيّ يا قيّوم، يا دائم يا رؤوف يا رحيم، أسألك بعزّتك وقدرتك وما أحاط به علمك، أن تقسم لي من التجارة اليوم أعظمها رزقاً وأوسعها فضلاً وخيرها عاقبةً، فإنّه لا خير فيما لا عاقبة له، قال: وقال أبو عبدالله عليه السلام: إذا اشتريت دابّة أو رأسا فقل: اللّهمّ اقدر لي أطولها حياة وأكثرها منفعة وخيرها عاقبة»[٥].

[٣٧١٩/٢] وعن ابن أبي عمير عن معاوية بن عمّار عن أبي عبدالله عليه السلام قال: «إذا اشتريت دابّة

(١) الكافي ٥: ١٥٥ـ١٥٦ / ١.
(٢) المصدر: ١٥٦ / ٢.
(٣) المصدر / ١.
(٤) المصدر: ١٥٦ـ١٥٧ / ٢.
(٥) المصدر: ١٥٧ / ٣.

فقل: اللّهمّ إن كانت عظيمة البركة فاضلة المنفعة ميمونة الناصية فيسّر لي شراها، وإن كانت غير ذلك فاصرفني عنها إلى الّذي هو خير لي منها، فإنّك تعلم ولا أعلم وتقدر ولا أقدر وأنت علّام الغيوب، تقول ذلك ثلاث مرّات»(١).

[٣٧٢٠/٢] وعن زرارة بن أعين عن أبي عبدالله عليه السلام قال: «تسبيح فاطمة الزهراء عليها السلام(٢) من الذكر الكثير الّذي قال الله عزّ وجلّ: ﴿اذْكُرُوا اللهَ ذِكْراً كَثِيراً﴾(٣)»(٤).

[٣٧٢١/٢] وروى الصدوق بإسناده إلى أبي الصباح بن نعيم العائذي عن محمّد بن مسلم قال في حديث طويل يقول في آخره: تسبيح فاطمة عليها السلام من ذكر الله الكثير الّذي قال الله ـ عزّ وجلّ ـ: ﴿اذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ﴾(٥).

[٣٧٢٢/٢] وأخرج الطبراني والبيهقي عن معاذ بن جبل قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «ليس يتحسّر أهل الجنّة إلّا على ساعة مرّت بهم لم يذكروا الله تعالى فيها»(٦).

[٣٧٢٣/٢] وأخرج ابن أبي الدنيا والبيهقي عن عائشة أنّها قالت: سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول: «ما من ساعة تمرّ بابن آدم لم يذكر الله فيها إلّا تحسّر عليها يوم القيامة»(٧).

[٣٧٢٤/٢] وروى الكليني عن حسين بن زيد عن أبي عبدالله عليه السلام قال: «قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: ما من قوم اجتمعوا في مجلس فلم يذكروا اسم الله ـ عزّ وجلّ ـ ولم يصلّوا على نبيّهم إلّا كان ذلك المجلس حسرةً ووبالاً عليهم»(٨).

[٣٧٢٥/٢] وعن الفضيل بن يسار قال: قال أبو عبدالله عليه السلام: «ما من مجلس يجتمع فيه أبرار وفجّار

---

(١) المصدر / ٤.

(٢) هي: ٣٤ تكبيرة و٣٣ تحميدة و٣٣ تسبيحة. تُستَحبُّ خلف الصلوات.

(٣) الأحزاب ٣٣: ٤١. (٤) المصدر السابق ٢: ٥٠٠ / ٤.

(٥) نور الثقلين ١: ١٤٠ / ٤٢٩؛ المعاني: ١٩٤، بعد رقم ٥؛ البرهان ١: ٣٥٧ ـ ٣٥٨ / ١، و ٥؛ العيّاشيّ ١: ٨٧ / ١٢٣، عن محمّد بن مسلم عن أبي جعفر عليه السلام؛ كنزالدقائق ٢: ١٩٤؛ البحار ٩٠: ١٥٥ / ١٩، و٨٢: ٣٣١ / ٨، باب ٣٧.

(٦) الدرّ ١: ٣٦٣؛ الكبير ٢٠: ٩٤؛ شعب الإيمان ١: ٣٩٢ / ٥١٢؛ مجمع الزوائد ١٠: ٧٣ و ٧٤؛ كنزالعمّال ١: ٤٢٢ / ١٨٠٦.

(٧) الدرّ ١: ٣٦٣؛ شعب الإيمان ١: ٣٩٢ / ٥١١؛ الأوسط ٨: ١٧٥؛ مجمع الزوائد ١٠: ٨٠؛ كنزالعمّال ١: ٤٢٤ / ١٨١٩.

(٨) الكافي ٢: ٤٩٧ / ٥.

فيقومون على غير ذكر الله ـ عزّ وجلّ ـ إلّا كان حسرة عليهم يوم القيامة»(١).

[٣٧٢٦/٢] وعن الحسن بن محمّد بن سماعة عن وهيب بن حفص عن أبي بصير عن أبي عبدالله عليه السلام قال: «ما اجتمع في مجلس قوم لم يذكروا الله ـ عزّ وجلّ ـ ولم يذكرونا إلّا كان ذلك المجلس حسرة عليهم يوم القيامة. ثمّ قال: قال أبو جعفر عليه السلام: إن ذكرنا من ذكر الله، وذكر عدوّنا من ذكر الشيطان»(٢).

[٣٧٢٧/٢] وأخرج ابن أبي شيبة وأحمد ومسلم والترمذي وابن ماجه والبيهقي عن أبي هريرة وأبي سعيد أنّهما شهدا على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أنّه قال: «لا يقعد قوم يذكرون الله إلّا حفّتهم الملائكة، وغشيتهم الرحمة، ونزلت عليهم السكينة، وذكرهم الله في من عنده»(٣).

[٣٧٢٨/٢] وأخرج البزّار عن أنس عن النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم قال: «إنّ لله سيّارة من الملائكة يطلبون حِلَقَ الذكر، فإذا أتوا عليهم حفّوا بهم، ثمّ بعثوا رائدهم إلى السماء إلى ربّ العزّة ـ تبارك وتعالى ـ فيقولون: ربّنا أتينا على عباد من عبادك يعظّمون آلاءك، ويتلون كتابك، ويصلّون على نبيّك محمّد صلى الله عليه وآله وسلم، ويسألونك لآخرتهم ودنياهم. فيقول ـ تبارك وتعالى ـ: غشّوهم برحمتي، فهم الجلساء لايشقى بهم جليسهم»(٤).

[٣٧٢٩/٢] وأخرج ابن أبي الدنيا والبزّار وأبويعلى والطبراني والحاكم وصحّحه والبيهقي في الدعوات عن جابر قال: «خرج علينا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقال: يا أيّها الناس إنّ لله سرايا من الملائكة تحلّ وتقف على مجالس الذكر، فارتعوا في رياض الجنّة. قالوا: وأين رياض الجنّة؟ قال: مجالس الذكر، فاغدوا وروحوا في ذكر الله وذكّروه أنفسكم، من كان يحبّ أن يعلم منزلته عند الله فلينظر

---

(١) المصدر: ٤٩٦ / ١.

(٢) المصدر / ٢؛ وكتاب الدعاء للطبراني: ٥٣٩، بلفظ: عن جابر رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: ما من قوم اجتمعوا في مجلس ثمّ تفرّقوا ولم يذكروا الله تعالى ولم يصلّوا على نبيّهم صلى الله عليه وآله وسلم إلّا كان عليهم حسرة يوم القيامة.

(٣) الدرّ ١: ٣٦٣؛ المصنّف ٧: ٧٥ / ٢٤، باب ٥٠؛ مسند أحمد ٣: ٩٢؛ مسلم ٨: ٧٢؛ الترمذي ٥: ١٢٨ / ٣٤٣٨؛ ابن ماجة ٢: ١٢٤٥ / ٣٧٩١، باب ٥٣؛ الشعب ١: ٣٩٨ ـ ٣٩٩ / ٥٣٠؛ كنزالعمّال ١: ٤٢٥ / ١٨٢٤.

(٤) الدرّ ١: ٣٦٧؛ مجمع الزوائد ١٠: ٧٧، باب ما جاء في مجالس الذكر، ثمّ قال: هذا إسناده حسن.

كيف منزلة الله عنده، فإنّ الله ينزل العبد منه حيث أنزله من نفسه»[١].

[٢/ ٣٧٣٠] وأخرج ابن أبي الدنيا عن أبي هريرة وأبي سعيد قالا: قال رسول الله ﷺ: «إنّ لأهل ذكر الله أَرْبُعاً[٢]. تنزل عليهم السكينة، وتغشاهم الرحمة، وتحفّ بهم الملائكة، ويذكرهم الربّ في ملأ عنده»[٣].

[٢/ ٣٧٣١] وأخرج البخاري ومسلم والبيهقي في الأسماء والصفات عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إنّ لله ملائكة يطوفون في الطرق يلتمسون أهل الذكر، فإذا وجدوا قوماً يذكرون الله تنادوا: هلمّوا إلى حاجتكم، فيحفّونهم بأجنحتهم إلى السماء، فإذا تفرّقوا عرجوا وصعدوا إلى السماء، فيسألهم ربُّهم ـ وهو يعلم ـ: من أين جئتم؟ فيقولون: جئنا من عند عبادٍ لك في الأرض يسبّحونك ويكبّرونك ويهلّلونك ويحمدونك. فيقول: هل رأوني؟ فيقولون: لا. فيقول: كيف لو رأوني؟ فيقولون: لو رأوك كانوا أشدّ لك عبادةً، وأشدّ لك تمجيداً، وأكثر لك تسبيحاً. فيقول: فما يسألون؟ فيقولون: يسألونك الجنّة. فيقول: وهل رأوها؟ فيقولون: لا. فيقول: فكيف لو رأوها؟ فيقولون: لو أنّهم رأوها كانوا أشدّ عليها حرصاً وأشدّ لها طلباً وأعظم فيها رغبة. قال: فَمِمَّ يتعوّذون؟ فيقولون: يتعوّذون من النار. فيقول: وهل رأوها؟ فيقولون: لا. فيقول: فكيف لو رأوها؟ فيقولون: لو أنّهم رأوها كانوا أشدّ منها فراراً وأشدّ لها مخافة. فيقول: أُشهدكم أنّي قد غفرت لهم. فيقول ملك من الملائكة: فيهم فلان ليس منهم، إنّما جاء لحاجة. قال: هم القوم لا يشقى بهم جليسهم»[٤].

[٢/ ٣٧٣٢] وروى عدّة من المشايخ بطريق صحيح عن الصادق ﷺ أنّه قال: «إنّ الله ـ عزّ وجلّ ـ يقول لملائكته عند انصراف أهل مجالس الذكر والعلم إلى منازلهم: اكتبوا ثواب ما شاهدتموه من

(١) الدرّ ١: ٣٦٧؛ أبو يعلى ٣: ٣٩٠ ـ ٣٩١ / ١٨٦٥؛ الأوسط ٣: ٦٧؛ الحاكم ١: ٤٩٤ و ٤٩٥، كتاب الدعاء؛ مجمع الزوائد ١٠: ٧٧؛ كنز العمّال ١: ٤٣٤ ـ ٤٣٥ / ١٨٧٧. (٢) والأربُع ـ جمع رَبْع ـ: الموضع يجتمعون فيه، المنزلة.

(٣) الدرّ ١: ٣٦٣ ـ ٣٦٤؛ تاريخ بغداد ٣: ٣٤٤ / ١٤٦٢، بلفظ: عن أبي سعيد وأبي هريرة قالا: سمعنا النبيّ ﷺ يقول: مجالس الذكر تنزل عليهم السكينة وتحفّ بهم الملائكة وتغشاهم الرحمة ويذكرهم الربّ ـ تعالى ـ على عرشه.

(٤) الدرّ ١: ٣٦٤ ـ ٣٦٥؛ البخاري ٧: ١٦٨ و ١٦٩، باب فضل ذكر الله؛ مسلم ٨: ٦٨؛ الأسماء والصفات، الجزء الثاني: ٣٢٠ ـ ٣٢١، باب إسماع الربّ كلامه من شاء من ملائكته ورسله وعباده؛ شعب الإيمان ١: ٣٣٩ / ٥٣١.

أعمالهم، فيكتبون لكلّ واحد ثواب عمله، ويتركون بعض من حضر معهم فلا يكتبونه، فيقول الله ﷻ: ما لكم لم تكتبوا فلاناً؟ أليس كان معهم وقد شهدهم؟! فيقولون: يا ربّ إنّه لم يشرك معهم بحرف ولا تكلّم معهم بكلمة، فيقول الجليل جلّ جلاله: أليس كان جليسهم؟ فيقولون: بلى يا ربّ! فيقول: اكتبوه معهم إنّهم قوم لا يشقى بهم جليسهم، فيكتبوه معهم، فيقول تعالى: اكتبوا له ثواباً مثل ثواب أحدهم»[1].

[٣٧٣٣/٢] وأخرج أحمد وأبو يعلى وابن حبّان والبيهقي عن أبي سعيد الخدري: «أنّ رسول الله ﷺ قال: يقول الله يوم القيامة: سيعلم أهل الجمع اليوم من أهل الكرم. فقيل: ومن أهل الكرم يا رسول الله؟ قال: أهل مجالس الذكر»[2].

[٣٧٣٤/٢] وأخرج أحمد عن أنس قال: كان عبدالله بن رواحة إذا لقي الرجل من أصحاب رسول الله ﷺ قال: تعال نؤمن بربّنا ساعة. فقال ذات يوم لرجل فغضب الرجل، فجاء إلى النبيّ ﷺ فقال: يا رسول الله ألاترى إلى ابن رواحة يرغب عن إيمانك إلى إيمان ساعة؟ فقال النبيّ ﷺ: «يرحم الله ابن رواحة إنّه يحبّ المجالس الّتي تتباهى بها الملائكة»[3].

[٣٧٣٥/٢] وأخرج أحمد والبزّار وأبويعلى والطبراني عن أنس عن رسول الله ﷺ قال: «ما من قوم اجتمعوا يذكرون الله لا يريدون بذلك إلّا وجهه إلّا ناداهم مناد من السماء أن قوموا مغفوراً لكم، قد بُدّلت سيّئاتكم حسنات»[4].

[٣٧٣٦/٢] وأخرج أحمد عن ابن عمر قال: قلت: يا رسول الله ما غنيمة مجالس الذكر؟ قال: «غنيمة مجالس الذكر الجنّة الجنّة!»[5]

---

(١) عوالي اللآلي ٤: ٦٧ / ٢٩.

(٢) الدرّ ١: ٣٦٥؛ مسند أحمد ٣: ٧٦؛ أبويعلى ٢: ٣١٣ / ٧٣ ـ (١٠٤٦)؛ ابن حِبّان ٣: ٩٨ / ٨، باب الأذكار؛ شعب الإيمان ١: ٤٠١ / ٥٣٥.

(٣) الدرّ ١: ٣٦٥؛ مسند أحمد ٣: ٢٦٥؛ مجمع الزوائد ١٠: ٧٦، باب ما جاء في مجالس الذكر، قال الهيثمي: إسناده حسن.

(٤) الدرّ ١: ٣٦٥؛ مسند أحمد ٣: ١٤٢؛ أبويعلى ٧: ١٦٧ / ٤١٤١؛ الأوسط ٢: ١٥٤؛ مجمع الزوائد ١٠: ٧٦، باب فضل ذكر الله.

(٥) مسند أحمد ٢: ١٧٧؛ مجمع الزوائد ١٠: ٧٨.

[٣٧٣٧/٢] وأخرج أحمد والترمذي وحسَّنه عن أنس: «أنّ رسول الله ﷺ قال: إذا مررتم برياض الجنّة فارتعوا. قال: وما رياض الجنّة؟ قال: حِلَق الذكر»[١].

[٣٧٣٨/٢] وسئل ﷺ أين رياض الجنّة؟ فقال ﷺ: «مجالس الذكر فاغدوا وروحوا في ذكر الله تعالى»[٢].

[٣٧٣٩/٢] وأخرج الطبراني عن عمرو بن عبسة: «سمعت رسول الله ﷺ يقول: عن يمين الرحمان ـ وكلتا يديه يمين ـ رجال ليسوا بأنبياء ولا شهداء، يغشى بياض وجوههم نظر الناظرين، يغبطهم النبيّون والشهداء بمقعدهم وقربهم من الله. قيل: يا رسول الله من هم؟ قال: هم جُمّاع من نوازع القبائل، يجتمعون على ذكر الله تعالى فينتقون أطايب الكلام كما ينتقي آكل التمر أطايبه»[٣].

[٣٧٤٠/٢] وأخرج الطبراني عن أبي الدرداء قال: «قال رسول الله ﷺ: ليبعثنّ الله أقواماً يوم القيامة في وجوههم النور على منابر اللؤلؤ يغبطهم الناس، ليسوا بأنبياء ولا شهداء. فقال أعرابي: يا رسول الله صفهم لنا نعرفهم؟ قال: هم المتحابّون في الله من قبائل شتّى وبلاد شتّى، يجتمعون على ذكر الله يذكرونه»[٤].

[٣٧٤١/٢] وأخرج الخرائطي في الشكر عن خليد العَصَريّ قال: إنّ لكلّ بيت زينة، وزينة المساجد الرجال على ذكر الله[٥].

قوله تعالى: ﴿وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ﴾

[٣٧٤٢/٢] أخرج البيهقي في الدعوات: «أنّ رسول الله ﷺ قال: أتحبّون أيّها الناس أن تجتهدوا في الدعاء؟ قالوا: نعم. قال: قولوا: اللّهمّ أعنّا على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك»[٦].

---

(١) مسند أحمد ٣: ١٥٠؛ الترمذي ٥: ١٩٤ / ٣٥٧٧، أبواب الدعوات، باب ٨٧؛ كنز العمّال ١: ٤٣٧ / ١٨٨٥؛ ورواه الصدوق بالإسناد إلى عليّ ؑ (معاني الأخبار: ٣٢١ / ١).

(٢) مكارم الأخلاق: ٣٠٧؛ الحاكم ١: ٤٩٤.

(٣) الدرّ ١: ٣٦٨؛ مجمع الزوائد ١٠؛ كنز العمّال ١٠: ٢٤٨ / ٢٩٣٢٦.

(٤) الدرّ ١: ٣٦٨؛ مجمع الزوائد ١٠: ٧٧.

(٥) الدرّ ١: ٣٦٨؛ فضيلة الشكر لله (محمّد بن جعفر السامري م ٣٢٧): ٤٢.

(٦) مسند أحمد ٢: ٢٩٩؛ الحاكم ١: ٤٩٩؛ مجمع الزوائد ١٠: ١٧٢؛ كنز العمّال ٢: ١٩١ / ٣٧٠٠.

[٣٧٤٣/٢] وأخرج ابن أبي الدنيا في كتاب الشكر والبيهقي في شعب الإيمان عن ابن المنكدر قال: كان من دعاء رسول الله ﷺ: «اللّهمّ أعنّي على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك»(١).

[٣٧٤٤/٢] وروى الكليني بالإسناد إلى محمّد بن الفرج قال: كتب إليّ أبو جعفر ابن الرضا عليه السلام بهذا الدعاء وعلّمنيه وقال: من قال في دبر صلاة الفجر لم يلتمس حاجة إلّا تيسّرت له وكفاه الله ما أهمّه:

«بسم الله وبالله وصلّى الله على محمّد وآله، وأفوّض أمري إلى الله إنّ الله بصير بالعباد، فوقاه الله سيّئات ما مكروا، لا إلٰه إلّا أنت سبحانك إنّي كنت من الظالمين، فاستجبنا له ونجّيناه من الغمّ، وكذلك ننجي المؤمنين، حسبنا الله ونعم الوكيل، فانقلبوا بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء، ما شاء الله لا حول ولا قوّة إلّا بالله العلي العظيم، ما شاء الله لا ما شاء الناس، ما شاء الله وإن كره الناس، حسبي الربّ من المربوبين، حسبي الخالق من المخلوقين، حسبي الرازق من المرزوقين، حسبي الّذي لم يزل حسبي منذ كُنتُ(٢)، حسبي الله الّذي لا إلٰه إلّا هو، عليه توكّلت وهو ربّ العرش العظيم».

وقال: إذا انصرفتَ من صلاة مكتوبة فقل: «رضيتُ بالله ربّاً وبمحمّد نبيّاً وبالإسلام ديناً وبالقرآن كتاباً وبفلان وفلان أئمة، اللّهمّ وليّك فلان فاحفظه من بين يديه ومن خلفه وعن يمينه وعن شماله ومن فوقه ومن تحته وامدد له في عمره واجعله القائم بأمرك والمنتصر لدينك وأره ما يحبّ وما تقرّ به عينه في نفسه وذرّيته وفي أهله وماله وفي شيعته وفي عدوّه، وأرهم منه ما يحذرون، وأره فيهم ما يحبّ وتقرّ به عينه، واشف صدورنا وصدور قوم مؤمنين».

قال: وكان النبيّ ﷺ يقول: إذا فرغ من صلاته: «اللّهمّ اغفر لي ما قدّمت وما أخّرت وما أسررت وما أعلنت. وإسرافي على نفسي وما أنت أعلم به منّي، اللّهمّ أنت المقدّم وأنت المؤخّر لا إلٰه إلّا أنت بعلمك الغيب وبقدرتك على الخلق أجمعين. ما علمت الحياة خيراً لي فأحيني، وتوفّني إذا علمت الوفاة خيراً لي. اللّهمّ إنّي أسألك خشيتك في السرّ والعلانية، وكلمة الحقّ في الغضب والرضا، والقصد في الفقر والغنى، وأسألك نعيماً لا ينفذ، وقرّة عين لا ينقطع، وأسألك

---

(١) الدرّ ١: ٣٦٨؛ شعب الإيمان ٤: ١٠٠ / ٤٤١١؛ كتاب الشكر: ٦٦ / ٤.

(٢) صحّحنا على رواية الفقيه.

الرضا بالقضاء، وبركة الموت بعد العيش، وبرد العيش بعد الموت، ولذّة المنظر إلى وجهك، وشوقا إلى رؤيتك ولقائك، من غير ضرّاء مضرّة، ولا فتنة مضلّة، اللّهمّ زيّنّا بزينة الإيمان، واجعلنا هداة مهديّين، اللّهمّ اهدنا فيمن هديت، اللّهمّ إنّي أسألك عزيمة الرشاد والثبات في الأمر والرشد، وأسألك شكر نعمتك وحسن عافيتك وأداء حقّك، وأسألك يا ربّ قلباً سليماً ولساناً صادقاً، وأستغفرك لما تعلم، وأسألك خير ما تعلم، وأعوذ بك من شرّ ما تعلم، فإنّك تعلم ولا نعلم وأنت علّام الغيوب»[1].

[٣٧٤٥/٢] وأخرج أحمد في الزهد وابن أبي الدنيا والبيهقي عن أبي الجلد قال: قرأت في مساءلة موسى عليه السلام، أنّه قال: يا ربّ كيف لي أن أشكرك وأصغر نعمة وضعتها عندي من نعمك لا يجازي بها عملي كلّه؟ فأتاه الوحي: أن يا موسى الآن شكرتني[2].

[٣٧٤٦/٢] وأخرج الخرائطي عن الشيباني قال: قال موسى عليه السلام يوم الطور: يا ربّ إن أنا صلّيت فمن قِبَلك، وإن أنا تصدّقت فمن قبلك، وإن أنا بلّغت رسالاتك فمن قِبَلك، فكيف أشكرك؟ قال: يا موسى الآن شكرتني[3].

[٣٧٤٧/٢] وروى الكليني بإسناده إلى ابن أبي عمير عن أبي عبدالله صاحب السابريّ فيما أعلم أو غيره عن أبي عبدالله عليه السلام قال: «فيما أوحى الله ـ عزّ وجلّ ـ إلى موسى عليه السلام: يا موسى اشكرني حقّ شكري! فقال: يا ربّ وكيف أشكرك حقّ شكرك؟ وليس من شكر أشكرك به إلّا وأنت أنعمت به عليّ قال: يا موسى الآن شكرتني حين علمت أنّ ذلك منّي»[4].

[٣٧٤٨/٢] وعن ابن رئاب عن إسماعيل بن الفضل قال: قال أبو عبدالله عليه السلام: إذا أصبحت و أمسيت فقل عشر مرّات: «اللّهمّ ما أصبحت بي من نعمة أو عافية من دين أو دنيا فمنك وحدك لا شريك لك، لك الحمد ولك الشكر بها عليّ يا ربّ حتّى ترضى وبعد الرضا». فإنّك إذا قلت ذلك، كنت قد أدّيت شكر ما أنعم الله به عليك في ذلك اليوم وفي تلك الليلة[5].

---

(١) الكافي ٢: ٥٤٧/ ٦.

(٢) الدرّ ١: ٣٦٩؛ شعب الإيمان ٤: ١٠١/ ٤٤١٥؛ الشكر لله: ٦٧/ ٦؛ القرطبي ١: ٣٩٨.

(٣) الدرّ ١: ٣٧٤؛ فضيلة الشكر لله (محمّد بن جعفر السامري م ٣٢٧): ٤٥.

(٤) الكافي ٢: ٩٨/ ٢٧.

(٥) المصدر: ٩٩/ ٢٨.

[٣٧٤٩/٢] وعن إسماعيل بن أبي الحسن عن رجل عن أبي عبدالله عليه السلام قال: «من أنعم الله عليه بنعمة فعرفها بقلبه فقد أدّى شكرها»[١].

[٣٧٥٠/٢] وقال الصادق عليه السلام: «من أنعم الله عليه نعمة فعرفها بقلبه وعلم أنّ المنعم عليه الله فقد أدّى شكرها وإن لم يحرّك لسانه، ومن علم أنّ المعاقب على الذنوب الله فقد استغفر وإن لم يحرّك به لسانه» وقرأ: ﴿وَإِنْ تُبْدُوا مَا فِي أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ﴾ الآية[٢][٣].

[٣٧٥١/٢] وقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «ما أنعم الله ـ عزّ وجلّ ـ على عبد نعمة فعلم أنّها من الله إلّا كتب الله له شكرها قبل أن يحمده عليها، ولا أذنب عبد ذنباً فندم عليه إلّا كتب الله له مغفرة قبل أن يستغفره»[٤].

* * *

[٣٧٥٢/٢] روى الكليني بإسناده إلى سفيان بن عيينة عن عمّار الدهني قال: سمعت عليّ بن الحسين عليه السلام يقول: «إنّ الله يحبّ كلّ قلب حزين، ويحبّ كلّ عبد شكور، يقول الله تبارك وتعالى لعبد من عبيده يوم القيامة: أشكرت فلاناً؟ فيقول: بل شكرتك يا ربّ، فيقول: لم تشكرني إذ لم تشكره، ثمّ قال: أشكركم لله أشكركم للناس»[٥].

[٣٧٥٣/٢] وأخرج ابن أبي الدنيا والبيهقي عن إسحاق بن عبدالله بن أبي طلحة، أنّ رجلاً كان يأتي النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم فيسلّم عليه، فيقول النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم: «كيف أصبحت؟ فيقول الرجل: أحمد إليك الله، وأحمد الله إليك. فكان النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم يدعو له، فجاء يوماً فقال له النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم: كيف أنت يا فلان؟ قال: بخير إن شكرتُ. فسكت النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم، فقال الرجل: يا نبيّ الله كنت تسألني وتدعو لي، وإنّك سألتني اليوم فلم تدع لي؟ قال: إنّي كنت أسألك فتشكر الله، وإنّي سألتك اليوم فشككت في الشكر»[٦].

[٣٧٥٤/٢] وروى الصدوق عن الإمام أمير المؤمنين عليه السلام في حديث له قال: «وشكر كلّ نعمة

---

(١) المصدر: ٩٦/ ١٥.
(٢) البقرة ٢: ٢٨٤.
(٣) تحف العقول: ٣٦٩.
(٤) الحاكم ١: ٥١٤.
(٥) الكافي ٢: ٩٩/ ٣٠.
(٦) الدرّ ١: ٣٧٠؛ الشكر لله: ٨٣ و ٨٤/ ٣٨؛ شعب الإيمان ٤: ١٠٩/ ٤٤٤٩.

الورع عمّا حرّم الله تعالى»[١].

[٣٧٥٥/٢] وقال الصادق عليه السلام: «الزاهد في الدنيا من لم يَغلب الحرامُ صبرَه، ولم يُشغل الحلالُ شكرَه»[٢].

[٣٧٥٦/٢] وأخرج الحاكم وصحّحه والبيهقي عن ابن عبّاس قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «ثلاث من كنّ فيه آواه الله في كنفه، وستر عليه برحمته، وأدخله في محبّته. قيل: وما هنّ يا رسول الله؟ قال: من إذا أُعطي شكر، وإذا قدر غفر، وإذا غضب فتر»[٣].

[٣٧٥٧/٢] وفي الحديث عنه صلى الله عليه وآله أنّه قال: «إنّ المؤمن إذا أحسن استبشر، وإذا أساء استغفر، وإذا ابتلي صبر، وإذا أُعطي شكر، وإذا أُسيء إليه غفر»[٤].

[٣٧٥٨/٢] وأخرج البيهقي في الشعب عن عليّ عليه السلام قال: «من قال حين يصبح: الحمد لله على حسن المساء، والحمد لله على حسن المبيت، والحمد لله على حسن الصباح، فقد أدّى شكر ليلته ويومه»[٥].

[٣٧٥٩/٢] وأخرج أبو داوود والنسائي وابن أبي الدنيا في الشكر والفريابي في الذكر والمعمري في عمل اليوم والليلة والطبراني في الدعاء وابن حِبّان والبيهقي والمستغفري كلاهما في الدعوات عن عبدالله بن غنّام قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «من قال حين يصبح: اللّهمّ ما أصبح بي من نعمة أو بأحد من خلقك فمنك وحدك لا شريك لك، فلك الحمد ولك الشكر. فقد أدّى شكر يومه، ومن قال مثل ذلك حين يمسي فقد أدّى شكر ليلته»[٦].

---

(١) نورالثقلين ١: ١٤١ / ٤٣٩؛ الخصال: ١٤ / ٥٠؛ البحار ٦٧: ٣١٢ / ١١، باب ٥٨؛ الصافي ١: ٣٠٥؛ كنزالدقائق ٢: ١٩٥.

(٢) تحف العقول: ٢٠٠.

(٣) الدرّ ١: ٣٧٢؛ الحاكم ١: ١٢٥، كتاب العلم؛ شعب الإيمان ٤: ١٠٥ / ٤٤٣٣؛ كنزالعمّال ١٥: ٨٥٠ / ٤٣٣٧٩، عن أبي هريرة.

(٤) عوالي اللآلي ١: ٤٣٧ / ١٥١.

(٥) الدرّ ١: ٣٦٩؛ الشعب ٤: ٩٥ / ٤٣٨٨؛ كنزالعمّال ٢: ٦٣٥ / ٤٩٥٣.

(٦) الدرّ ١: ٣٧٢ ـ ٣٧٣؛ أبو داوود ٢: ٤٩٢ / ٥٠٧٣، باب ١١٠؛ النسائي ٦: ٥ / ٩٨٣٥، باب ٢؛ الشكر لله ١٤٩ / ١٦٥؛ كتاب الدعاء ١١٦؛ ابن حبّان ٣: ١٤٢ ـ ١٤٣، عن ابن عبّاس عن النبيّ صلى الله عليه وآله؛ الشعب ٤: ٨٩ / ٤٣٦٨؛ كنزالعمّال ٢: ١٣٦ / ٣٤٨٦.

[٣٧٦٠/٢] وروى الكليني بإسناده إلى صفوان الجمّال عن أبي عبدالله عليه السلام قال: «ما أنعم الله على عبد بنعمة صغرت أو كبرت فقال: الحمد لله، إلّا أدّى شكرها»(١).

[٣٧٦١/٢] وروى الصدوق عن أبي حمزة الثمالي عن عليّ بن الحسين عليه السلام: ومن قال: «الحمد لله فقد أدّى شكر كلّ نعم الله تعالى»(٢).

[٣٧٦٢/٢] وروى الكليني عن خالد بن نجيح عن أبي عبدالله عليه السلام قال: «إذا رأيت الرجل وقد ابتلي وأنعم الله عليك، فقل: اللّهمّ إنّي لا أسخر ولا أفخر ولكن أحمدك على عظيم نعمائك عليّ»(٣).

[٣٧٦٣/٢] وعن حفص بن عمر عن أبي عبدالله عليه السلام قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «إذا رأيتم أهل البلاء فاحمدوا الله ولا تُسمعوهم فإنّ ذلك يحزنهم»(٤).

[٣٧٦٤/٢] وبإسناده عن أبي جعفر عليه السلام: «من أراد أَنْ يُكتال بالمكيال الأوفى فليقل إذا أراد أن يقوم من مجلسه: سبحان ربّك ربّ العزّة عمّا يصفون وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين»(٥).

[٣٧٦٥/٢] وعن محمّد بن هشام عن ميسر عن أبي عبدالله عليه السلام قال: «شكر النعمة اجتناب المحارم، وتمام الشكر قول الرجل: الحمد لله ربّ العالمين»(٦).

[٣٧٦٦/٢] وعن ابن أبي عمير عن عليّ بن عيينة عن عمر بن يزيد قال: سمعت أبا عبدالله عليه السلام يقول: «شكر كلّ نعمة وإن عظمت أن تحمد الله ـ عزّ وجلّ ـ عليها»(٧).

[٣٧٦٧/٢] وعن سيف بن عميرة عن أبي بصير قال: «قلت لأبي عبدالله عليه السلام: هل للشكر حدّ إذا فعله العبد كان شاكراً؟ قال: نعم، قلت: ما هو؟ قال: يحمد الله على كلّ نعمة عليه في أهل ومال، وإن

---

(١) الكافي ٢: ٩٦/ ١٤.

(٢) نورالثقلين ١: ١٤١/ ٤٣٧، و: ١٥/ ٥٧؛ الخصال: ٢٩٩/ ٧٢، وفيه: شكر كلّ نعمة لله ـ عزّ وجلّ ـ عليه؛ الصافي ١: ٣٠٥؛ كنزالدقائق ٢: ١٩٥؛ البحار ٦٨: ٤٤/ ٤٥، باب ٦١ و ٩٠: ١٩٣/ ٥، باب ٥.

(٣) الكافي ٢: ٩٨/ ٢٢.

(٤) المصدر / ٢٣.

(٥) المصدر: ٤٩٦/ ٣.

(٦) المصدر: ٩٥/ ١٠.

(٧) المصدر / ١١.

كان فيما أنعم عليه في ماله حقٌّ أدّاه، ومنه قوله جلّ وعزّ: ﴿سُبْحانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ﴾[١] ومنه قوله تعالى: ﴿رَبِّ أَنزِلْنِي مُنْزَلاً مُبَارَكاً وَأَنْتَ خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ﴾[٢] وقوله: ﴿رَبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَلْ لِي مِنْ لَدُنْكَ سُلْطَاناً نَصِيراً﴾»[٣][٤].

[٣٧٦٨/٢] وعن معمر بن خلاد قال: سمعت أبا الحسن صلوات الله عليه يقول: «من حمد الله على النعمة فقد شكره وكان الحمد أفضل من تلك النعمة»[٥].

[٣٧٦٩/٢] وعن ابن أبي عمير عن الحسن بن عطيّة عن عُمَر بن يزيد قال: قلت لأبي عبد الله عليه السلام: إنّي سألت الله ـ عزّ وجلّ ـ أن يرزقني مالاً فرزقني، وإنـي سألت الله أن يـرزقني ولداً فـرزقني، وسألته أن يرزقني داراً فرزقني. وقد خفت أن يكون ذلك استدراجاً! فقال: «أما والله، مع الحـمد فلا»[٦].

[٣٧٧٠/٢] وعن حمّاد بن عثمان قال: «خرج أبو عبدالله عليه السلام من المسجد وقد ضاعت دابّته، فقال: لئن ردّها الله عليّ لأشكرنّ الله حقّ شكره، قال: فما لبث أن أُتي بها، فقال: الحمد لله، فقال له قائل: جعلت فداك، أليس قلت لأشكرنّ الله حقّ شكره؟ فقال أبو عبدالله عليه السلام: أ لم تسمعني قلت: الحمد لله!»[٧]

[٣٧٧١/٢] وعن الحسن بن راشد عن المـثنّى الحـنّاط عـن أبـي عـبدالله عليه السلام قـال: «كـان رسول الله صلى الله عليه وآله إذا ورد عليه أمر يسرّه قال: الحمد لله على هذه النعمة، وإذا ورد عليه أمر يغتمّ بـه قال: الحمد لله على كلّ حال»[٨].

[٣٧٧٢/٢] وعن أبي بصير قال: قال أبو عبدالله عليه السلام: «إنّ الرجل منكم ليشرب الشربة من الماء فيوجب الله له بها الجنّة، ثمّ قال: إنّه ليأخذ الإناء فيضعه على فيه فيسمّي، ثمّ يشرب فينحّيه وهو يشتهيه فيحمد الله، ثمّ يعود فيشرب ثمّ ينحّيه فيحمد الله، ثمّ يعود فيشرب ثمّ ينحّيه فـيحمد الله،

(١) الزخرف ٤٣: ١٣.
(٢) المؤمنون ٢٣: ٢٩.
(٣) الإسراء ١٧: ٨٠.
(٤) المصدر: ٩٥ـ٩٦ / ١٢.
(٥) المصدر: ٩٦ / ١٣.
(٦) المصدر: ٩٧ / ١٧.
(٧) المصدر / ١٨.
(٨) المصدر / ١٩.

فيوجب الله ـ عزّ وجلّ ـ بها له الجنّة!»[١]

[٣٧٧٣/٢] وروى العيّاشيّ بإسناده إلى سماعة بن مهران، عن أبي عبدالله عليه السلام، قال: «قلت له: للشكر حدّ إذا فعله الرجل كان شاكراً؟ قال: نعم، قلت: وما هو؟ قال: الحمد لله على كلّ نعمة أنعمها عليّ، وإن كان لكم فيما أنعم عليه حقّ أدّاه. قال: ومنه قوله تعالى: ﴿سُبْحانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنا هَذا﴾[٢] حتّى عدّ آيات»[٣].

[٣٧٧٤/٢] وروى الكليني عن عليّ بن إبراهيم عن أبيه عن النوفلي عن السكوني عن أبي عبدالله عليه السلام قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «الطاعم الشاكر، له من الأجر كأجر الصائم المحتسب. والمعافي الشاكر، له من الأجر كأجر المبتلى الصابر. والمعطى الشاكر، له من الأجر كأجر المحروم القانع»[٤].

[٣٧٧٥/٢] وعن يعقوب بن سالم عن رجل عن أبي جعفر أو أبي عبدالله عليه السلام قال: «المعافي الشاكر، له من الأجر ما للمبتلى الصابر، والمعطَى الشاكر له من الأجر كالمحروم القانع»[٥].

* * *

[٣٧٧٦/٢] أخرج الترمذي وحسّنه وابن ماجة والبيهقي عن أبي هريرة عن النبيّ صلى الله عليه وآله قال: «للطاعم الشاكر من الأجر مثل ما للصائم الصابر»[٦].

[٣٧٧٧/٢] وأخرج البيهقي عن أبي الدرداء قال: من لم يعرف نعمة الله عليه إلّا في مطعمه ومشربه، فقد قلّ عمله وحضر عذابه[٧].

[٣٧٧٨/٢] وقال الإمام أمير المؤمنين عليه السلام: «إذا وصلت إليكم أطراف النعم، فلا تنفّروا أقصاها بقلّة الشكر»[٨].

---

(١) المصدر: ٩٦ـ٩٧/ ١٦.	(٢) الزخرف ٤٣: ١٣.

(٣) البرهان ١: ٣٥٨/ ٣؛ العيّاشيّ ١: ٨٦/ ١٢١؛ الصافي ١: ٣٠٥؛ البحار ٩٠: ٢١٢/ ١٤، باب ٧.

(٤) الكافي ٢: ٩٤/ ١.	(٥) المصدر/ ٤.

(٦) الدرّ ١: ٣٧١؛ الترمذي ٤: ٦٥/ ٢٦٠٥، باب ١٥؛ ابن ماجة ١: ٥٦١/ ١٧٦٤؛ شعب الإيمان ٤: ١١١/ ٤٤٦١؛ البخاري ٦: ٢١٤؛ الحاكم ١: ٤٢٢، كتاب الصوم.

(٧) الدرّ ١: ٣٧١؛ شعب الإيمان ٤: ١١٣/ ٤٤٦٧، وفيه: قلّ علمه.

(٨) البحار ٦٨: ٥٣/ ٨٥؛ نهج البلاغة ٤: ٥، الحكمة ١٣.

[٢/٣٧٧٩] وأخرج البيهقي عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «من نظر في الدين إلى من فوقه وفي الدنيا إلى من تحته كتبه الله صابراً شاكراً، ومن نظر في الدين إلى من تحته ونظر في الدنيا إلى من فوقه، لم يكتبه الله صابراً ولا شاكراً»(١).

[٢/٣٧٨٠] وأخرج مسلم والبيهقي عن صهيب قال: قال رسول الله ﷺ: «عجباً لأمر المؤمن. إنّ أمر المؤمن كلّه خير، إن أصابته سرّاء فشكر كان خيراً، وإن أصابته ضرّاء فصبر كان خيراً»(٢).

[٢/٣٧٨١] وأخرج النسائي والبيهقي عن سعد بن أبي وقّاص قال: قال رسول الله ﷺ: «عجبت للمؤمن إن أُعطي قال: الحمد لله فشكر، وإن ابتلي قال: الحمد لله فصبر، فالمؤمن يؤجر على كلّ حال، حتّى اللقمة يرفعها إلى فيه»(٣).

[٢/٣٧٨٢] وروى الصدوق عن أبي حمزة الثُّمالي قال: سمعت أبا جعفر عليه السلام يقول: «بلاء وقضاء ونعمة، فعليه في البلاء من الله الصبر فريضة، وعليه في القضاء من الله التسليم فريضة، وعليه في النعمة من الله الشكر فريضة»(٤).

[٢/٣٧٨٣] وأخرج أبو داوود والترمذي وحسّنه وابن ماجه وابن أبي الدنيا والحاكم وصحّحه عن أبي بكرة أنّ النبيّ ﷺ كان إذا جاءه أمر يسرّه خرّ ساجداً لله ـ عزّ وجلّ ـ شكراً لله(٥).

[٢/٣٧٨٤] وأخرج ابن أبي الدنيا عن عبدالرحمان بن عوف «أنّ رسول الله ﷺ قال له: إنّي لقيت جبريل عليه السلام فبشّرني، وقال: إنّ الله يقول لك: من صلّى عليك صلّيتُ عليه، ومن سلّم عليك سلّمتُ

---

(١) الدرّ ١: ٣٧٢؛ شعب الإيمان ٤: ١٣٧ / ٤٥٧٥؛ كنز العمّال ٣: ٢٢٩ / ٦٢٨٤.

(٢) الدرّ ١: ٣٧٢؛ مسلم ٨: ٢٢٧؛ شعب الإيمان ٤: ١١٦ / ٤٤٨٧؛ كنز العمّال ١: ١٤٥ / ٧١٠.

(٣) الدرّ ١: ٣٧٢؛ شعب الإيمان ٤: ١١٦ / ٤٤٨٥ ـ ٤٤٨٦؛ النسائي ٥: ٣٨٣ / ٩٢٠٦، كتاب عشرة النساء، باب: ثواب اللقمة تجعلها في فيّ امرأتك! بلفظ: ... عن عامر بن سعد عن أبيه أنّ رسول الله ﷺ قال: «يا سعد إنّك لن تنفق نفقة تبتغي بها وجه الله إلّا أُجرت عليها حتّى اللقمة تجعلها في فيّ امرأتك».

(٤) نور الثقلين ١: ١٤١ / ٤٣٦؛ الخصال: ٨٦ / ١٧، وفيه: «سمعت أبا جعفر عليه السلام يقول: العبد بين ثلاثة: بلاء وقضاء ونعمة...»؛ الصافي ١: ٣٠٥؛ كنز الدقائق ٢: ١٩٥؛ البحار ٦٨: ٤٣ / ٤١، باب ٦١، و ٧٩: ١٢٩ / ٧، باب ١٨؛ المحاسن ١: ٦ ـ ٧ / ١٧.

(٥) الدرّ ١: ٣٧٣؛ أبو داوود ١: ٦٣٢ / ٢٧٧٤؛ الترمذي ٣: ٦٩ / ١٦٢٦؛ ابن ماجة ١: ٤٤٦ / ١٣٩٤؛ الشكر لله، لابن أبي الدنيا: ١٣٢ / ١٣٢؛ الحاكم ١: ٢٧٦؛ كنز العمّال ٧: ١٣٩ / ١٨٣٩٣.

عليه، فسجدت لله شكراً»[١].

[٣٧٨٥/٢] وروى عبدالرحمان بن عوف قال: سجد رسول الله ﷺ فأطال السجود فقلنا له: سجدت فأطلت السجود، فقال: «نعم أتاني جبرئيل فقال: من صلّى عليك مرّة صلّى الله بها عليه عشراً فسجدت لله شكراً»[٢].

[٣٧٨٦/٢] وروى الكليني عن عبدالله بن مسكان عن أبي عبدالله عليه السلام قال: «إنّ رسول الله ﷺ كان في سفر يسير على ناقة له، إذ نزل فسجد خمس سجدات، فلمّا أن ركب قالوا: يا رسول الله إنّا رأيناك صنعت شيئاً لم تصنعه! فقال: نعم استقبلني جبرئيل عليه السلام فبشّرني ببشارات من الله عزّ وجلّ فسجدت لله شكراً لكلّ بُشرى سجدة»[٣].

[٣٧٨٧/٢] وعن يونس بن عمّار عن أبي عبدالله عليه السلام قال: «إذا ذكر أحدكم نعمة الله ـ عزّ وجلّ ـ فليضع خدّه على التراب شكراً لله، فإن كان راكباً فلينزل فليضع خدّه على التراب، وإن لم يكن يقدر على النزول... فليضع خدّه على قربوسه، وإن لم يقدر فليضع خدّه على كفه، ثمّ ليحمد الله على ما أنعم عليه[٤]».

[٣٧٨٨/٢] وعن هشام بن أحمر قال: كنت أسير مع أبي الحسن عليه السلام في بعض أطراف المدينة إذ ثنّى رجله عن دابّته فخرّ ساجداً فأطال وأطال، ثمّ رفع رأسه وركب دابّته، فقلت: جعلت فداك قد أطلت السجود؟ فقال: «إنّني ذكرت نعمة أنعم الله بها عليّ فأحببت أن أشكر ربّي!»[٥]

[٣٧٨٩/٢] وعن وهيب بن حفص عن أبي بصير عن أبي جعفر عليه السلام قال: «كان رسول الله ﷺ عند عائشة ليلتها فقالت: يا رسول الله لِمَ تتعب نفسك وقد غفر الله لك ما تقدّم من ذنبك وما تأخّر؟ فقال ﷺ: يا عائشة ألا أكون عبداً شكوراً؟ قال: وكان رسول الله ﷺ يقوم على أطراف أصابع رجليه فأنزل الله سبحانه وتعالى: ﴿طه. مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى﴾[٦]»[٧].

---

(١) الدرّ ١: ٣٧٣؛ الشكر لله: ١٣٤ / ١٣٥؛ مسند أحمد ١: ١٩١؛ الحاكم ١: ٥٥٠ كتاب الدعاء، وقال: هذا حديث صحيح الإسناد؛ مجمع الزوائد ٢: ٢٨٧، باب سجود الشكر، ثمّ قال: رجاله ثقات؛ كنزالعمّال ١: ٥٠٢ / ٢٢٢٠.

(٢) عوالي اللآلي ١: ١٩٨ / ١٠.

(٣) الكافي ٢: ٩٨ / ٢٤.

(٤) المصدر / ٢٥.

(٥) المصدر / ٢٦.

(٦) طه ٢٠: ١ـ٢.

(٧) الكافي ٢: ٩٥ / ٦.

[٣٧٩٠/٢] وروى الصدوق عن حفص بن البختري أنّه قال: كان نوحﷺ يـقول: إذا أصـبح وأمسى: اللّهمّ إنّي أُشهدك أنّه ما أصبح وأمسى بي من نعمة وعافية في دين أو دنيا فمنك وحدك لا شريك لك، لك الحمد، ولك الشكر بها عليَّ حتّى ترضى وبعد الرضا، يقولها إذا أصبح عشراً وإذا أمسى عشراً، فسمّي بذلك عبداً شكوراً[١].

[٣٧٩١/٢] وروى الكليني عن ابن أبي عمير عن حفص بن البختري عن أبي عبداللهﷺ قال: «كان نوحﷺ يقول ذلك إذا أصبح فسمّي بذلك عبداً شكوراً وقال: قال رسول اللهﷺ: من صدّق الله نجا»[٢].

[٣٧٩٢/٢] وأخرج الخرائطي عن جابر بن عبدالله «سمعت رسول اللهﷺ يقول: أفضل الذكر لا إلـه إلّا الله، وأفضل الشكر الحمد لله»[٣].

[٣٧٩٣/٢] وأخرج الخرائطي والبيهقي في الدعوات عن منصور بن صفية قال: مرّ النبيّﷺ برجل وهو يقول: الحمد لله الّذي هداني للإسلام وجعلني من أمّة محمّد. فقال رسول اللهﷺ: «لقد شكرت عظيماً»[٤].

[٣٧٩٤/٢] وروى الكليني عن أحمد بن محمّد عن ابن فضّال عن حسن بن جهم عن أبي اليقظان عن عبيدالله بن الوليد قال: سمعت أبا عبداللهﷺ يقول: «ثلاث لايضرّ معهنّ شيء: الدعـاء عـند الكرب والاستغفار عند الذنب والشكر عند النعمة»[٥].

[٣٧٩٥/٢] وأخرج أحمد عن عمران بن حصين قال: إنّ رسول اللهﷺ قال: «من أنعم الله عليه نعمةً فإنّ الله يُحبّ أن يرى أثر نعمته على خلقه»[٦].

---

(١) الفقيه ١: ٣٣٥/ ٩٨١. (٢) الكافي ٢: ٩٩/ ٢٩.

(٣) الدرّ ١: ٣٧٤؛ فضيلة الشكر لله (محمّدبن جعفر السامري م ٣٢٧): ٣٥.

(٤) الدرّ ١: ٣٧٤؛ فضيلة الشكر لله (محمّدبن جعفر السامري م ٣٢٧): ٣٨.

(٥) الكافي ٢: ٩٥/ ٧.

(٦) ابن كثير ١: ٢٠٢؛ مسند أحمد ٤: ٤٣٨؛ مجمع الزوائد ٥: ١٣٢، كتاب اللباس، باب إظهار النعم، قال الهيثمي: رجال أحمد ثقات.

[٣٧٩٦/٢] وقال ﷺ: «إنّ الله يحبّ إذا أنعم على عبده أن يرى أثر نعمته عليه ويبغض البؤس والتبؤّس»[١].

[٣٧٩٧/٢] وأخرج الخرائطي عن جعفر بن محمّدبن عليّ بن حسين بن عليّ بن أبي طالب عليه السلام قال: «اشكر المنعم عليك، فإنّه لا نفاد للنعم إذا شكرت، ولا بقاء لها إذا كفرت، والشكر زيادة في النعم، وأمان من الغِيَر»[٢].

[٣٧٩٨/٢] وروى الكليني بالإسناد عن رسول الله ﷺ قال: «ما فتح الله على عبد باب شكر فخزن عنه باب الزيادة»[٣].

[٣٧٩٩/٢] وعن عبدالله بن إسحاق الجعفري عن أبي عبدالله عليه السلام قال: مكتوب في التوراة: «اشكر من أنعم عليك، وأنعم على من شكرك، فإنّه لا زوال للنعماء إذا شكرت، ولا بقاء لها إذا كفرت. الشكر زيادة في النعم وأمان من الغير»[٤].

[٣٨٠٠/٢] وروى أبو جعفر الطوسي بإسناده إلى المفضّل بن محمّد، عن مالك بن أعين الجهني، قال أوصى عليّ بن الحسين عليه السلام بعض ولده فقال: «يا بنيّ اشكر الله فيما أنعم عليك، وأنعم على من شكرك، فإنّه لا زوال للنعمة إذا شكرت عليها، ولا بقاء لها إذا كفرتها، والشاكر بشكره أسعد منه بالنعمة الّتي وجب عليه الشكر بها» وتلا ـ يعني عليّ بن الحسين عليه السلام ـ قول الله تعالى: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾[٥] إلى آخر الآية[٦].

[٣٨٠١/٢] وروى الكليني عن معاوية بن وهب عن أبي عبدالله عليه السلام قال: «من أعطي الشكر أعطي الزيادة، يقول الله ـ عزّ وجلّ ـ ﴿لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾[٧]»[٨].

---

(١) البحار ٧٤: ١٦١ / ١٥٨؛ تحف العقول: ٥٦.

(٢) الدرّ ١: ٣٧٤؛ فضيلة الشكر لله (محمّدبن جعفر السامري م ٣٢٧): ٦٦؛ الكافي ٢: ٩٤ / ٣، باب الشكر، كتاب الإيمان والكفر، باختلاف يسير.

(٣) الكافي ٢: ٩٤ / ٢.

(٤) المصدر / ٣.

(٥) إبراهيم ١٤: ٧.

(٦) الأمالي للطوسي: ٥٠١ المجلس ١٨.

(٧) إبراهيم ١٤: ٧.

(٨) الكافي ٢: ٩٥ / ٨.

[٣٨٠٢/٢] وعن صفوان عن إسحاق بن عمّار عن رجلين من أصحابنا عن أبي عبدالله عليه السلام قال: «ما أنعم الله على عبد من نعمة فعرفها بقلبه وحمد الله ظاهراً بلسانه فتمّ كلامه حتّى يؤمر له بالمزيد».(١)

[٣٨٠٣/٢] وروى محمّدبن إبراهيم النعماني في تفسيره بإسناده عن إسماعيل بن جابر عن أبي عبدالله عن أميرالمؤمنين عليه السلام ـ في خبر طويل ـ قال: «... وأمّا الوجه الخامس من الكفر فهو كفر النعم، قال الله تعالى حكاية عن سليمان: ﴿هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ﴾(٢) وقوله عليه السلام ﴿لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾(٣) وقال أيضاً: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ﴾»(٤).

[٣٨٠٤/٢] وروى الكليني بإسناده عن أبي عمرو الزبيري عن أبي عبدالله عليه السلام قال في حديث طويل: «الوجه الثالث من الكفر كفر النعم، قال: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ﴾»(٥).

[٣٨٠٥/٢] وبإسناده عن سليمان بن عمرو عن أبي المغراء الخصاف، رفعه قال: قال أميرالمؤمنين عليه السلام: «من ذكر الله ـ عزّ وجلّ ـ في السرّ فقد ذكر الله كثيراً، إنّ المنافقين كانوا يذكرون الله علانية ولا يذكرونه في السرّ فقال الله ـ عزّ وجلّ ـ: ﴿يُرَاؤُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللهَ إِلَّا قَلِيلاً﴾(٦)»(٧).

---

(١) المصدر/ ٩.
(٢) النمل ٢٧: ٤٠.
(٣) إبراهيم ١٤: ٧.
(٤) مستدرك الوسائل ١١: ٣٥١؛ الكافي ٢: ٣٩٠ / ١ (بسند آخر عن أبي عبدالله عليه السلام)، كتاب الإيمان والكفر، باب وجوه الكفر؛ البحار ٦٨: ٥٢ / ٧٨، باب ٦١.
(٥) نورالثقلين ١: ١٤٠ / ٤٣٠؛ الكافي ٢: ٣٩٠ / ١، رواه باختصار وتقطيع، كتاب الإيمان والكفر، باب وجوه الكفر؛ البرهان ١: ٣٥٨ / ٤، بلفظ: «الكفر في كتاب الله على خمسة أوجه، فمنها كفر النعم، وذلك قول الله يحكي قول سليمان: ﴿هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ﴾ الآية، وقال: ﴿لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ وقال: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ﴾؛ العيّاشيّ ١: ٨٦ / ١٢٢، بنحو ما ذكرناه عن البرهان؛ الصافي ١: ٣٠٤، بلفظ: «أراد بالكفر، كفر النعم كذا في الكافي والعيّاشيّ عن الصادق عليه السلام»؛ كنزالدقائق ٢: ١٩٤.
(٦) النساء ٤: ١٤٢.
(٧) الكافي ٢: ٥٠١ / ٢.

[٣٨٠٦/٢] وأخرج ابن جرير عن السدّي في قوله تعالى: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ﴾ قال: ليس من عبد يذكر الله إلّا ذكره الله، لا يذكره مؤمن إلّا ذكره برحمة، ولا يذكره كافر إلّا ذكره بعذاب[١].

قلت: هذا محمول على صورة المراءاة لا إرادة الجدّ في الدعاء.

[٣٨٠٧/٢] وأخرج عبد بن حميد وابن أبي حاتم عن ابن عمر. أنّه قيل له: أرأيت قاتل النفس وشارب الخمر والسارق والزاني يذكر الله وقد قال الله: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ﴾؟ قال: إذا ذكر الله هذا ذكره الله بلعنته حتّى يسكت[٢].

وهذا أيضاً كسابقه محمول على صورة المراءاة. وهكذا الخبر التالي:

[٣٨٠٨/٢] وأخرج ابن أبي شيبة في المصنّف وأحمد في الزهد والبيهقي في شعب الإيمان عن ابن عبّاس قال: أوحى الله إلى داوود: «قل للظلمة لا يذكروني فإنّ حقّاً عليّ أن أذكر من ذكرني، وإنّ ذكري إيّاهم أن ألعنهم»[٣].

---

(١) الدرّ ١: ٣٦١؛ الطبري ٢: ٥١ / ١٩١٩؛ القرطبي ٢: ١٧١؛ الثعلبي ٢: ٢١.

(٢) الدرّ ١: ٣٦٢؛ ابن أبي حاتم ١: ٢٦٠ / ١٣٩٧؛ ابن كثير ١: ٢٠٢.

(٣) الدرّ ١: ٣٦٢؛ المصنّف ٧: ٤٦٦ / ٩ باب ٩؛ كنز العمّال ٣: ٥٠٢ / ٧٦١٥، وفيه: «فإنّي أذكر من يذكرني» بدل قوله: «فإنّ حقّاً عليّ أن أذكر من ذكرني»؛ كتاب الزهد، لأحمد: ١٣١ / ٣٧٩؛ الشعب ٦: ٥٥ / ٧٤٨٣.

قال تعالى:

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴿١٥٣﴾

في هذه الآية الكريمة إلماعة إلى أكبر دعاته لبناية الإسلام الشامخة، والّتي تستهدف الاستحكام من أسسه القويمة، الآخذة في حركتها الحثيثة البنّاءة.

إنّ الصبر والتثبّت والأناة تجاه مشاكل الحياة، لمن أكبر عوامل التغلّب على عويصات الأمور. ومن ثمّ كانت الاستقامة على الطريقة والمقاومة تجاه العويصات هي الّتي تضمن النجاح في مزاولة الحياة الّتي هي التناحر في البقاء. ويكون الغالب هو الأصلب الأشدّ الأقوم. أمّا الضعيف الهزيل فنصيبه البؤس والهزيمة الفاضحة.

وقد تكرّر ذكر الصبر في القرآن كثيراً؛ ذلك أنّ الله يعلم ضخامة الجهد الّذي تقتضيه الاستقامة على الطريق بين شتّى النوازع والدوافع؛ والّذي يستدعيه القيام على دعوة الله في الأرض بين شتّى الصراعات ومتنوّع العقبات؛ والّذي يتطلّب أن تبقى النفوس مشدودة الأعصاب، مجنّدة القوى، واعية تعرف المداخل والمخارج وفي حنكة وحكمة، في ظلّ التثبّت والأناة، وبرفقة التوكّل على القادر المتعالي، الّذي بيده أزمّة، وبمشيئته تتواءم الأمور.

ومن ثَمَّ أُردفت الصلاة دعماً لركيزة الأناة. إذ لا حول ولا قوّة إلّا بالله العظيم.

نعم حينما يطول الأمد، ويشقّ الجهد، ربما يضعف العزم على الصبر أو يأخذ في النفاد، إذا لم يكن هناك زاد ومدد. فالصلاة ـ وهي الصلة الوثيقة بين العبد وربّه ـ خَيْرُ مَعينٍ لاينضب وأفخم زاد لاينفد. إنّ الدعاء والضراعة إلى الله، يجدّد الطاقة ويزوّد القلب، فيمتدّ حبل الصبر ولاينفلت. ثمّ يضيف إلى الصبر، الرضى والبشاشة، والطمأنينة، والثقة، واليقين. وبذلك تهوّن عليه المصائب والآلام.

[٣٨٠٩/٢] كان الإمام الحسين سيّد الشهداء عليه السلام يوم عاشوراء كلّما اشتدّ عليه الأمر وضاقت به العرصة، أشرق وجهه مبتهجاً بعناية الله عليه، مترنّماً قولته الكريمة: «هوّن عَلَيَّ ما نزل بي أنّه بعين

الله»[١]. ومن ثمّ فإنّه الّذي ربح المعركة لايزيد الخاسر. وقد قدّمنا الكلام في ذلك[٢].

نعم، الاتّكال على الله يجعل من الإنسان قويّاً شهماً مقداماً في الأمور، غير متراجع ولامتكاسل. ومن ثمّ فإنّ جند الله هم الغالبون.

نعم، هنا تبدو قيمة الصلاة، إنّها الصلة المباشرة بين الإنسان الفاني والقوّة الباقية، إنّها الموعد المختار لالتقاء القطرة المنعزلة بالنبع الّذي لايفيض، إنّها مفتاح الكنز الّذي يغني ويقني ويفيض، إنّها الانطلاقة من حدود الواقع الأرضي الصغير إلى مجال الواقع الكوني الكبير، إنّها الرَوْح والندى والظلال في الهاجرة، إنّها اللمسة الحانية للقلب المتعب المكدود. ومن هنا؛

[٢ / ٣٨١٠] كان رسول الله ﷺ إذا عرضت له شدّة قال: «أرحنا بها يا بلال»[٣]. ويكثر من الصلاة إذا حزّبه أمر ليكثر من اللقاء بالله[٤].

ومن ثمّ كانت الصلاة ـ وهي الصلة الوثيقة بين العبد وربّه ـ تجعل من ضعف الإنسان قوّة ومن تكاسله عزماً ونشاطاً، ويذهب باليأس والقنوط ليخلفهما الرجاء والابتهاج.

والصبر والصلاة دعامتان قويمتان لبناء الإسلام وتثبيت الإيمان في القلوب وإيجاد الثقة بالله تعالى ثمّ الثقة بالنفس المعتمدة على ركن وثيق.

ومن ثمّ ذلك التأكيد البليغ على كلّ من الصبر والصلاة في مواضع عديدة من القرآن، إذ كان الصبر دعامة لبناء مجتمع رصين، ابتداءً من بناء شخصيّة الفرد المقام المعتمد على النفس القويّة. وكانت الصلاة تستوثق عرى الاتّصال بين العبد وتلك القدرة المهيمنة على كافّة الوجود.

وإذا كان الفضاء الّذي يعيش في ظلّه أولئك المؤمنون حقًّا المستوثقون من عرى أنفسهم برابط السماء. فهكذا مجتمع يعيش في ظلّ طمأنينة وقوّة وشوكة. ولايمكن إيجاد مثل هذا الفضاء إلّا

---

(١) البحار ٤٥: ٤٦.

(٢) وذكرنا كلام سيّد قطب الفخيم في المقام. في ظلال القرآن ٢٤: ٧٧ ـ ٧٨، المجلّد ٧: ١٨٩ ـ ١٩٠ ذيل الآية ٥١ من سورة غافر.

(٣) البحار ٨٠: ١٦؛ مجمع الزوائد ١: ١٤٥؛ الكبير ٦: ٢٧٧.

(٤) جاء في حديث حذيفة بن اليمان: «كان رسول الله ﷺ إذا حزّبه أمر فزع إلى الصلاة». الطبري ١: ٣٧١ ذيل الآية ٤٥ من سورة البقرة. وهكذا كان الإمام أميرالمؤمنين ـ عليه صلوات المصلّين ـ إذا هاله أمر فزع إلى الصلاة. كما في الحديث الوارد عن الإمام الصادق ﵇ ثمّ تلا: ﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ﴾ الكافي ٣: ٤٨٠ / ١.

بفضل التوافق الجماعي على ذلك، ومن ثمّ قال تعالى: ﴿وَالْعَصْرِ. إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ. إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾.

نعم إذا لم يعمل الإنسان في ترقية نفسه، فإنّه بما يقضي من عمره باطلاً وينفد من رأس ماله هدراً، إنّه خاسر. إلّا من جدّ في عمل صالح. ولكن في جوّ من التواصي الجماعي بالحقّ. والتواصي الجماعي بالصبر.

أي بحيث كان القضاء يقضي بأن لاينطق أحد إلّا بحقّ، ولايعمل إلّا عن صدق وإخلاص. مضافاً إلى التواصي بالتصبّر تجاه مشاكل الحياة، تصبّراً تعارفه الجوّ والبيئة والمحيط.

ومن ثمّ كان الصبر من الإيمان كالرأس من الجسد.

[٣٨١١/٢] كما قال الإمام أبو عبدالله الصادق عليه السلام: «الصبر من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد، فإذا ذهب الرأس ذهب الجسد، كذلك إذا ذهب الصبر ذهب الإيمان»[١].

ذلك لأنّ لازم الإيمان الصادق، الصبر والمقاومة تجاه مكاره ربما ترفضها النفس. وتغلب هواها على نور العقل الرشيد. قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ...﴾[٢] نعم كانت الاستقامة على الإيمان والثبات على العقيدة، هي الّتي تجعل من واقع الإنسان مهبطاً لنزول بركات السماء ومنهلاً عذباً للاستذواق من روح الله الفائحة بالطيب والريحان. ومن ثمّ تأتيه البشارة بالاطمئنان في الحياة والفوز بالرضوان. ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللهِ أَلَا بِذِكْرِ اللهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾[٣].

الأمر الّذي جاءت البشارة به في ذيل الآية الأُولى: ﴿تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ. نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ...﴾. فالله نعم المولى لهم، الكافل لسعادتهم في هذه الحياة وفي الآخرة جميعاً. وهذا هو الفوز العظيم.

* * *

وإليك من أحاديث جليلة عن أئمّة أهل البيت عليهم السلام[٤] جاءت بشأن فضيلة الصبر ودوره البنّاء

---

(١) الكافي ٢: ٨٧/٢، باب الصبر. (٢) فصّلت ٤١: ٣٠.

(٣) الرعد ١٣: ٢٨.

(٤) عقد لها أبوجعفر الكليني باباً في أصول الكافي ٢: ٨٧-٩٣.

في الحياة أبديّاً.

[٣٨١٢/٢] روى أبوجعفر محمّدبن يعقوب الكليني بالإسناد إلى الحسن بن محبوب، عن عليّ بن رئاب، عن ابن أبي يعفور، عن أبي عبدالله عليه السلام قال: «الصبر رأس الإيمان».

[٣٨١٣/٢] وعن أبي عليّ الأشعري، عن أحمد بن محمّد بن عيسى، عن محمّدبن سنان، عن العلاء بن فضيل، عن أبي عبدالله عليه السلام قال: «الصبر من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد، فإذا ذهب الرأس ذهب الجسد، كذلك إذا ذهب الصبر ذهب الإيمان».

[٣٨١٤/٢] وعن عليّ بن إبراهيم، عن أبيه؛ وعليّ بن محمّد القاساني، جميعاً، عن القاسم بن محمّد الأصبهاني، عن سليمان بن داوود المنقري، عن حفص بن غياث قال: قال أبو عبدالله عليه السلام: «يا حفص إنّ من صَبَرَ صَبَرَ قليلاً، وإنّ من جَزَعَ جَزَعَ قليلاً.

ثمّ قال: عليك بالصبر في جميع أمورك، فإنّ الله -عزّ وجلّ- بعث محمّداً صلى الله عليه وآله فأمره بالصبر والرّفق، فقال: ﴿وَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَاهْجُرْهُمْ هَجْراً جَمِيلاً. وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُولِي النَّعْمَةِ﴾[1] وقال تبارك وتعالى: ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ. وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾[2].

فصبر رسول الله صلى الله عليه وآله حتّى نالوه بالعظائم ورموه بها، فضاق صدره فأنزل الله -عزّ وجلّ-: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ. فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ﴾[3] ثمّ كذّبوه ورموه، فحزن لذلك، فأنزل الله -عزّ وجلّ-: ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللهِ يَجْحَدُونَ. وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَى مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّى أَتَاهُمْ نَصْرُنَا﴾[4] فألزم النبيّ صلى الله عليه وآله نفسه الصبر، فتعدّوا فذكروا الله تبارك وتعالى وكذّبوه، فقال: قد صبرت في نفسي وأهلي وعرضي ولا صبر لي على ذكر إلهي، فأنزل الله -عزّ وجلّ-: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ. فَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ﴾[5]. فصبر النبيّ صلى الله عليه وآله في جميع أحواله.

---

(١) المزمّل ٧٣: ١٠. والهجر الجميل هو أن يجانبهم ويداريهم ولايكافيهم ويكل أمرهم إلى الله تعالى.

(٢) فصّلت ٤١: ٣٤-٣٥.

(٣) الحجر ١٥: ٩٧ و٩٨.

(٤) الأنعام ٦: ٣٣ و٣٤.

(٥) سورة ق ٥٠: ٣٨. واللغوب: التعب والإعياء.

ثمّ بُشّر في عترته بالأئمّة ووصفوا بالصبر، فقال جلّ ثناؤه: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾(١) فعند ذلك قال ﷺ: الصبر من الإيمان كالرأس من الجسد، فشكر الله ـ عزّ وجلّ ـ ذلك له: فأنزل الله ـ عزّ وجلّ ـ: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ الْحُسْنَى عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ﴾(٢) فقال ﷺ: إنّه بشرى وانتقام، فأباح الله ـ عزّ وجلّ ـ له قتال المشركين فأنزل [الله]: ﴿فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ﴾(٣) ﴿وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ﴾(٤) فقتلهم الله على يدي رسول الله ﷺ وأحبّائه وجعل له ثواب صبره مع ما ادّخره له في الآخرة.

فمن صبر واحتسب لم يخرج من الدنيا حتّى يقرّ [الله] له عينه في أعدائه، مع ما يدّخر له في الآخرة».

[٣٨١٥/٢] وعن محمّد بن يحيى، عن أحمد بن محمّد بن عيسى، عن عليّ بن الحكم، عن أبي محمّد عبدالله السرّاج، رفعه إلى عليّ بن الحسين عليه السلام قال: «الصبر من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد؛ ولا إيمان لمن لا صبر له».

[٣٨١٦/٢] وعن عليّ بن إبراهيم، عن أبيه، عن حمّاد بن عيسى، عن ربعيّ بن عبدالله، عن فضيل بن يسار، عن أبي عبدالله عليه السلام قال: «الصبر من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد، فإذا ذهب الرأس ذهب الجسد، كذلك إذا ذهب الصبر ذهب الإيمان».

[٣٨١٧/٢] وعن أحمد بن محمّد بن خالد، عن أبيه، عن عليّ بن النعمان، عن عبدالله بن مسكان، عن أبي بصير قال: سمعت أبا عبدالله عليه السلام يقول: «إنّ الحرّ حرٌّ على جميع أحواله، إن نابته نائبة(٥)

---

(١) السجدة ٣٢: ٢٤. هذا من تأويل الآية والأبياطنها، حيث كانت الرئاسة العامّة ـ سواء أكان في نبيّ أم في إمام معصوم ـ إنّما تستدعي الصبر والمقاومة تجاه دسائس المناوئين.

(٢) الأعراف ٧: ١٣٦ و ﴿دمّرنا﴾ الدمار: الهلاك. ﴿وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ﴾ أي من الأشجار والأعناب والثمار أو ما كانوا يرفعونه من البنيان.

(٣) التوبة ٩: ٥.

(٤) البقرة ٢: ١٩١. ثقفه: صادفه أو أخذه أو ظفر به أو أدركه.

(٥) النوب: نزول الأمر كالنوبة أي أصابته مصيبة.

صبر لها وإن تداكّت عليه المصائب[١] لم تكسره وإن أُسر وقُهر واستُبدل باليسر عسراً[٢] كما كان يوسف الصدّيق الأمين ـ صلوات الله عليه ـ لم يضرر حرّيّته أن استعبد وقهر وأسر ولم تضرره ظلمة الجبّ ووحشته[٣] وما ناله أن منَّ الله عليه فجعل الجبّار العاتي له عبداً بعد إذ كان [له] مالكاً، فأرسله ورحم به أمّة وكذلك الصبر يعقّب خيراً، فاصبروا ووطّنوا أنفسكم على الصبر توجروا».

[٣٨١٨/٢] وعن محمّد بن يحيى، عن أحمد بن محمّد بن عيسى، عن عليّ بن الحكم، عن عبدالله بن بكير، عن حمزة بن حمران، عن أبي جعفر عليه السلام قال: «الجنّة محفوفة[٤] بالمكاره والصبر، فمن صبر على المكاره في الدنيا دخل الجنّة. وجهنّم محفوفة باللّذات والشّهوات فمن أعطى نفسه لذّتها وشهوتها دخل النار».

[٣٨١٩/٢] وعن عليّ بن إبراهيم، عن أبيه، عن ابن محبوب، عن عبدالله بن مرحوم، عن أبي سيّار، عن أبي عبدالله عليه السلام قال: «إذا دخل المؤمن في قبره، كانت الصلاة عن يمينه والزكاة عن يساره والبرُّ مطلٌّ عليه ويتنحّى الصبر ناحية، فإذا دخل عليه الملكان اللّذان يليان مساءلته قال الصّبر للصلاة والزّكاة والبرّ: دونكم صاحبكم، فإن عجزتم عنه فأنا دونه».

[٣٨٢٠/٢] وعن جعفر بن محمّد الأشعري، عن عبدالله بن ميمون، عن أبي عبدالله عليه السلام قال: دخل أميرالمؤمنين صلوات الله عليه المسجد، فإذا هو برجل على باب المسجد، كئيب حزين، فقال له أميرالمؤمنين عليه السلام: مالك؟ قال: يا أميرالمؤمنين أصبت بأبي [وأمّي] وأخي وأخشى أن أكون قد وجلت[٥]، فقال له أميرالمؤمنين عليه السلام: «عليك بتقوى الله والصبر تَقْدُمُ عليه غداً؛ والصبر في الأمور بمنزلة الرأس من الجسد، فإذا فارق الرأس الجسد فسد الجسد وإذا فارق الصبر الأمور فسدت الأمور».

[٣٨٢١/٢] وعن محمّد بن يحيى، عن أحمد بن محمّد بن عيسى، عن عليّ بن الحكم، عن سماعة

---

(١) تداكّت: تداقّت عليه مرّة بعد أخرى. والتداكك: الازدحام. وأصل الدكّ: الكسر.

(٢) في بعض النسخ «بالعسر يسراً».

(٣) الجُبّ: البئر.

(٤) حفّه بالشيء كمدّه: أحاط به.

(٥) لعلّ المراد بخشية الوجل خوفه أن يكون قد انشقّ مرارته من شدّة ما أصابه من الألم. أو المعنى: أخشى أن يكون حزني بلغ حدّاً مذموماً شرعاً، فعبّر عنه بالوجل.

بن مهران، عن أبي الحسن عليه السلام قال: قال لي: ما حبسك عن الحجّ؟ قال: قلت: جعلت فداك وقع عليَّ دين كثير وذهب مالي، وديني الّذي قد لزمني هو أعظم من ذهاب مالي، فلولا أنَّ رجلاً من أصحابنا أخرجني ما قدرت أن أخرج، فقال لي: «إن تصبر تُغتبط[١] وإلّا تصبر يُنفذ الله مقاديره، راضياً كنت أم كارهاً».

[٣٨٢٢/٢] وعن محمّد بن يحيى، عن أحمد بن محمّد، عن ابن سنان، عن أبي الجارود، عن الأصبغ قال: قال أميرالمؤمنين صلوات الله عليه: «الصبر صبران: صبر عند المصيبة، حسن جميل وأحسن من ذلك الصبر عند ما حرَّم الله ـ عزّ وجلّ ـ عليك. والذّكر ذكران: ذكر الله ـ عزّ وجلّ ـ عند المصيبة، وأفضل من ذلك ذكرالله عند ما حرّم عليك، فيكون حاجزاً».

[٣٨٢٣/٢] وعن أبي عليّ الأشعري، عن الحسن بن عليّ الكوفي عن العبّاس بن عامر، عن العرزمي، عن أبي عبدالله عليه السلام قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «سيأتي على الناس زمان لاينال الملك فيه إلّا بالقتل والتجبّر، ولا الغنى إلّا بالغصب والبخل، ولا المحبّة إلّا باستخراج الدّين[٢] واتّباع الهوى؛ فمن أدرك ذلك الزّمان فصبر على الفقر وهو يقدر على الغنى وصبر على البغضة[٣] وهو يقدر على المحبّة، وصبر على الذلّ وهو يقدر على العزّ، آتاه الله ثواب خمسين صدّيقاً ممّن صدَّق بي».

[٣٨٢٤/٢] وعن أحمد بن أبي عبدالله، عن إسماعيل بن مهران، عن درست بن أبي منصور، عن عيسى بن بشير، عن أبي حمزة قال: قال أبو جعفر عليه السلام: لمّا حضرت أبي عليَّ بن الحسين عليه السلام الوفاة ضمّني إلى صدره وقال: «يا بنيَّ أوصيك بما أوصاني به أبي حين حضرته الوفاة وبما ذكر أنَّ أباه أوصاه به؛ يا بنيَّ اصبر على الحقّ وإن كان مرّاً!»

[٣٨٢٥/٢] وعن يونس بن عبدالرحمان رفعه، عن أبي جعفر عليه السلام قال: «الصبر صبران: صبر على البلاء، حسن جميل، وأفضل الصبرين الورع عن المحارم».

[٣٨٢٦/٢] وعن أحمد بن محمّد بن عيسى قال: أخبرني يحيى بن سليم الطائفي قال: أخبرني عمرو بن شمر اليماني، يرفع الحديث إلى عليّ عليه السلام قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «الصبر ثلاثة: صبر عند

---

(١) أي يعلو شأنك ويحسن حالك فتُحسَد، يقال: غبطه أي عَظُم في عينه وتمنّى مثلَ حاله. ولكن من دون أن يريد زوالها عنه.

(٢) أي المحاولة لإبعاد الدين عن الحياة!

(٣) أي بغضة الناس له لعدم اتّباعه أهواءهم.

المصيبة، وصبر على الطاعة، وصبر عن المعصية، فمن صبر على المصيبة حتّى يردّها بحسن عزائها كتب الله له ثلاثمائة درجة، ما بين الدرّجة إلى الدرّجة كما بين السماء إلى الأرض، ومن صبر على الطاعة كتب الله له ستّمائة درجة ما بين الدرّجة إلى الدرجة كما بين تخوم الأرض إلى العرش، ومن صبر عن المعصية كتب الله له تسعمائة درجة، ما بين الدَّرجة إلى الدرجة كما بين تخوم الأرض إلى منتهى العرش».

[٣٨٢٧/٢] وعن عليّ بن الحكم، عن يونس بن يعقوب قال: أمرني أبو عبدالله عليه السلام أن آتي المفضّل[1] وأعزّيه بإسماعيل، وقال: «اقرأ المفضّل السلام وقل له: إنّا قد أصبنا بإسماعيل فصبرنا، فاصبر كما صبرنا، إنّا أردنا أمراً وأراد الله عزّ وجلّ أمراً، فسلّمنا لأمر الله ـ عزّ وجلّ ـ».

[٣٨٢٨/٢] وعن عليّ بن إبراهيم، عن أبيه، عن ابن أبي عمير، عن سيف بن عميرة، عن أبي حمزة الثمالي قال: قال أبو عبدالله عليه السلام: «من ابتلي من المؤمنين ببلاء فصبر عليه، كان له مثل أجر ألف شهيد».

[٣٨٢٩/٢] وعن محمّد بن يحيى، عن أحمد بن محمّد بن عيسى، عن محمّدبن سنان، عن عمّار بن مروان، عن سماعة، عن أبي عبدالله عليه السلام قال: «إنَّ الله – عزَّ وجلّ ـ أنعم على قوم، فلم يشكروا، فصارت عليهم وبالاً؛ وابتلى قوماً بالمصائب فصبروا، فصارت عليهم نعمة».

[٣٨٣٠/٢] وعن عليّ بن إبراهيم، عن أبيه، ومحمّد بن إسماعيل، عن الفضل بن شاذان، جميعاً، عن ابن أبي عمير، عن إبراهيم بن عبدالحميد، عن أبان بن أبي مسافر، عن أبي عبدالله عليه السلام في قول الله ـ عزّ وجلّ ـ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا﴾[2] قال: «اصبروا على المصائب».

[٣٨٣١/٢] وفي رواية ابن أبي يعفور، عن أبي عبدالله عليه السلام قال: «صابروا على المصائب».

[٣٨٣٢/٢] وعن أحمدبن محمّدبن خالد، عن محمّد بن عيسى، عن عليّ بن محمّد بن أبي جميلة، عن جدّه أبي جميلة، عن بعض أصحابه قال: لولا أنَّ الصبر خُلق قبل البلاء لتفطّر المؤمن كما تتفطّر البيضة على الصفا[3].

[٣٨٣٣/٢] وعن محمّدبن عبدالجبّار، عن صفوان، عن إسحاق ابن عمّار وعبدالله بن سنان، عن

---

(١) الظاهر أنّه مفضّل بن عمر. (٢) آل عمران ٣: ٢٠٠.

(٣) الفطر: الشقّ. يقال: فطره فانفطر وتفطّر. والصفا: جمع الصفاة وهي الصلد الضخم.

أبي عبدالله عليه السلام قال: «قال رسول الله صلى الله عليه وآله: قال الله ـ عزّ وجلّ ـ: إنّي جعلت الدنيا بين عبادي قرضاً، فمن أقرضني منها قرضاً أعطيته بكلّ واحدة عشراً إلى سبعمائة ضعف وما شئتُ من ذلك؛ ومن لم يقرضني منها قرضاً فأخذت منه شيئاً قسراً [فصبر] أعطيته ثلاث خصال لو أعطيت واحدة منهنّ ملائكتي لرضوا بها منّي، قال: ثمّ تلا أبو عبدالله عليه السلام قول الله ـ عزّ وجلّ ـ: ﴿الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ. أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ (فهذه واحدة من ثلاث خصال) وَرَحْمَةٌ (اثنتان)[1] وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ﴾[2] ثلاث[3] ثمّ قال أبو عبدالله عليه السلام: هذا لمن أخذ الله منه شيئاً قسراً».

[٢/٣٨٣٤] وعن عليّ بن إبراهيم، عن أبيه؛ وعليّ بن محمّد القاساني، عن القاسم بن محمّد، عن سليمان بن داوود، عن يحيى بن آدم، عن شريك، عن جابربن يزيد، عن أبي جعفر عليه السلام قال: «مروّة الصبر[4] في حال الحاجة والفاقة والتعفّف والغنا[5] أكثر من مروّة الإعطاء».

[٢/٣٨٣٥] وعن محمّد بن عبدالجبّار، عن أحمد بن النضر، عن عمروبن شمر، عن جابر قال: «قلت لأبي جعفر عليه السلام يرحمك الله ما الصبر الجميل؟ قال: ذلك صبر ليس فيه شكوى إلى الناس».

[٢/٣٨٣٦] وعن حميد بن زياد، عن الحسن بن محمّد بن سماعة، عن بعض أصحابه، عن أبان، عن عبدالرحمان بن سيّابة، عن أبي النعمان، عن أبي عبدالله أو أبي جعفر عليهما السلام قال: «من لا يعدّ الصبر لنوائب الدّهر يعجز».

[٢/٣٨٣٧] وعن معلّى بن محمّد، عن الوشّاء، عن بعض أصحابه عن أبي عبدالله عليه السلام قال: «إنّا صُبّرٌ[6] وشيعتنا أصبر منّا، قلت: جعلت فداك كيف صار شيعتكم أصبر منكم؟ قال: لأنّا نصبر على ما نعلم وشيعتنا يصبرون على مالا يعلمون.[7]»[8].

---

(١) أي هذه الثانية.
(٢) البقرة ٢: ١٧٥.
(٣) أي هذه الثالثة.
(٤) في بعض النسخ: «مرارة» في الموضعين.
(٥) في بعض النسخ: «العناء» بالمهملة.
(٦) بضم الصاد وتشديد الباء المفتوحة جمع الصابر.
(٧) أي لاعلم لهم بمصالح الأمور الكامنة وراء الظواهر.
(٨) الكافي ٢: ٨٨ـ٩٣، باب الصبر.

كلام عن الصبر

بتحقيق الإمام أبي حامد الغزالي (م: ٥٠٥) في إحياء علوم الدين. وتهذيب المولى المحقّق الفيض الكاشاني (م: ١٠٩١) في المحجّة البيضاء.

قال أبو حامد: قد وصف الله تعالى الصابرين بأوصاف وذكر الصبر في القرآن في نيف وسبعين موضعاً، وأضاف أكثر الدرجات والخيرات إلى الصبر وجعلها ثمرة له فقال عزّ من قائل: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا﴾[1] وقال تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ الْحُسْنَى عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا﴾[2] وقال تعالى: ﴿وَلَنَجْزِيَنَّ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾[3] وقال تعالى: ﴿أُوْلَئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا﴾[4] وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾[5] فما من قربة إلّا وأجرها بتقدير وحساب إلّا الصبر، ولأجل كون الصوم من الصبر وأنّه نصف الصبر قال الله تعالى: «الصوم لي وأنا أجزي به»[6] فأضاف إلى نفسه من بين سائر العبادات ووعد الصابرين بأنّه معهم فقال تعالى: ﴿وَاصْبِرُوا إِنَّ اللهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾[7] وعلّق النصرة على الصبر فقال تعالى: ﴿بَلَى إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُمْ مِنْ فَوْرِهِمْ هَذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ﴾[8] وجمع للصابرين بين أمور لم يجمعها لغيرهم فقال تعالى: ﴿أُوْلَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ﴾[9] فالهدى والرحمة والصلوات مجموعة للصابرين. واستقصاء جميع الآيات في مقام الصبر يطول.

وأمّا الأخبار:

[٣٨٣٨/٢] فقد قال ﷺ: «الصبر نصف الايمان»[10] على ما سيأتي وجه كونه نصفاً.

---

(١) السجدة ٣٢: ٢٤.
(٢) الأعراف ٧: ١٣٧.
(٣) النحل ١٦: ٩٦.
(٤) القصص ٢٨: ٥٤.
(٥) الزمر ٣٩: ١٠.
(٦) البحار ٩٣: ٢٤٩ / ١٤؛ الفقيه ٢: ٧٥ / ١٧٧٣؛ مسند أحمد ١: ٤٤٦؛ البخاري ٢: ٢٢٦، وفيه بلفظ: «الصيام»؛ مسلم ٣: ١٥٧، من حديث أبي هريرة وأبي سعيد.
(٧) الأنفال ٨: ٤٦.
(٨) آل عمران ٣: ١٢٥.
(٩) البقرة ٢: ١٥٧.
(١٠) الدرّ ١: ١٦٠؛ شعب الايمان ٧: ١٢٣ / ٩٧١٦ و ٩٧١٧؛ الكبير ٩: ١٠٤؛ مجمع الزوائد ١: ٥٧، قال الهيثمي: رجاله رجال الصحيح؛ كنزالعمّال ٣: ٢٧١ / ٦٤٩٨؛ الترغيب والترهيب ٤: ٢٧٧، روى عن ابن مسعود موقوفاً ومرفوعاً.

[٣٨٣٩/٢] وقال ﷺ: «من أقلّ ما أوتيتم اليقين وعزيمة الصبر ومن أعطى حظّه منهما لم يبال بما فاته من قيام الليل وصيام النهار، ولأن تصبروا على ما أنتم عليه أحبّ إليّ من أن يوافيني كلّ امرئ منكم بمثل عمل جميعكم ولكنّي أخاف أن تفتح عليكم الدنيا بعدي فينكر بعضكم بعضاً وينكركم أهل السماء عند ذلك. فمن صبر واحتسب ظفر بكمال ثوابه، ثمّ قرأ قوله تعالى: ﴿مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ اللهِ بَاقٍ وَلَنَجْزِيَنَّ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُمْ﴾الآية[(١)]»[(٢)].

[٣٨٤٠/٢] وروى جابر أنّه سئل النبيّ ﷺ عن الإيمان فقال: «الصبر والسماحة»[(٣)].

[٣٨٤١/٢] وقال ﷺ أيضاً: «الصبر كنز من كنوز الجنّة»[(٤)].

[٣٨٤٢/٢] وسُئل مرّة: ما الإيمان؟ فقال: «الصبر»[(٥)].

[٣٨٤٣/٢] وهذا يشبه قوله ﷺ: «الحجّ عرفة»[(٦)] معناه معظم الحجّ عرفة.

[٣٨٤٤/٢] وقال أيضاً ﷺ: «أفضل الأعمال ما أكرهت عليه النفوس»[(٧)]. وقيل: أوحى الله تعالى إلى داوود ﷺ: تخلّق بأخلاقي، وإنّ من أخلاقي أنّي أنا الصبور.

[٣٨٤٥/٢] وقال ﷺ: «في الصبر على ما تكره خير كثير»[(٨)].

[٣٨٤٦/٢] وقال المسيح ﷺ: إنّكم لاتدركون ما تحبّون إلّا بصبركم على ما تكرهون[(٩)].

[٣٨٤٧/٢] وقال رسول الله ﷺ: «لو كان الصبر رجلاً لكان كريماً والله يحبّ الصابرين»[(١٠)] والأخبار في هذا لاتحصى.

[٣٨٤٨/٢] قال المولى الكاشاني: قال عليّ ﷺ: «بني الإيمان على أربع دعائم اليقين والصبر والجهاد والعدل».

---

(١) النحل ١٦: ٩٦.
(٢) البحار ٧٩: ١٣٧ / ٢٢.
(٣) أبويعلى ٣: ٣٨٠؛ مكارم الأخلاق، ابن أبي الدنيا: ٣١ / ٦١.
(٤) مسكن الفؤاد (الشهيد الثاني): ٤٧؛ البحار ٧٩: ١٣٧.
(٥) لم أجده.
(٦) الترمذي ٥: ٤١٦ / ٤١٠٥؛ النسائي ٥: ٢٥٦.
(٧) هذا الحديث لا أصل له، وإنّما هو من قول عمربن عبدالعزيز. هكذا رواه ابن أبي الدنيا في كتاب محاسبة النفس.
(٨) كنزالعمّال ١: ١٣٤ / ٦٣١؛ مسكن الفؤاد: ٤٨؛ البحار ٧٩: ١٣٧.
(٩) مسكن الفؤاد: ٤٨؛ البحار ٧٩: ١٣٧.
(١٠) مسكن الفؤاد: ٤٨؛ كنزالعمّال ٣: ٢٧١ / ٦٥٠٤.

[٣٨٤٩/٢] وقال أيضاً: «الصبر من الإيمان بمنزلة الرّأس من الجسد ولا جسد لمن لا رأس له، ولا إيمان لمن لا صبر له»(١).

وزاد: أقول: وهذا المعنى الأخير مرويٌّ من طريق أهل البيت عليهم السلام عن النبيّ صلى الله عليه وآله وأمير المؤمنين عليه السلام وعليّ بن الحسين وأبي عبدالله عليهما السلام بغير واحد من الإسناد رواه في الكافي.

[٣٨٥٠/٢] وفيه عن أبي عبدالله عليه السلام قال: «إذا دخل المؤمن قبره كانت الصلاة عن يمينه والزكاة عن يساره والبرّ مطلّ عليه ويتنحّى الصبر ناحية فإذا دخل عليه الملكان اللّذان يليان مساءلته قال الصبر للصلاة والزكاة والبرّ: دونكم صاحبكم فإن عجزتم عنه فأنا دونه»(٢).

[٣٨٥١/٢] وعنه عليه السلام «من ابتلي من المؤمنين ببلاء فصبر عليه كان له مثل أجر ألف شهيد»(٣).

[٣٨٥٢/٢] وعنه عليه السلام قال: «إنَّ الله تعالى أنعم على قوم فلم يشكروا فصارت عليهم وبالاً، وابتلي قوماً بالمصائب فصبروا فصارت عليهم نعمة»(٤).

[٣٨٥٣/٢] وعنه أو عن أبي جعفر عليه السلام قال: «من لا يعدُّ الصبر لنوائب الدهر يعجز»(٥).

[٣٨٥٤/٢] وعن أبي جعفر عليه السلام قال: «الجنّة محفوفة بالمكاره والصبر، فمن صبر على المكاره في الدنيا دخل الجنّة، وجهنّم محفوفة باللّذات والشهوات فمن أعطى نفسه لذّتها وشهوتها دخل النار»(٦).

قال أبو حامد: هذا بيان فضيلة الصبر من حيث النقل، وأمّا من حيث النظر بعين الاعتبار فلا تفهمه إلّا بعد فهم حقيقة الصبر ومعناه، إذ معرفة الفضيلة والرتبة، معرفة صفة، فلا تحصل قبل الموصوف، فلنذكر حقيقته ومعناه وبالله التوفيق:

حقيقة الصبر ومعناه

اعلم أنّ الصبر مقام من مقامات الدين ومنزل من منازل السالكين، وجميع مقامات الدين إنّما

---

(١) أورده الشريف الرضي في النهج، باب الحكم، تحت رقم ٨٢ (نهج البلاغة ٤: ١٨).

(٢) الكافي ٢: ٩٠/ ٨، باب الصبر.

(٣) المصدر: ٩٢/ ١٨.

(٤) المصدر: ٩٢/ ١٨.

(٥) المصدر: ٩٣/ ٢٤.

(٦) المصدر: ٨٩/ ٧.

تنتظم من ثلاثة أمور: معارف، وأحوال، وأعمال. فالمعارف هي الأصول، وهي تورث الأحوال، والأحوال تُثمر الأعمال! فالمعارف كالأشجار، والأحوال كالأغصان، والأعمال كالثمار. وهذا مطّرد في جميع منازل السالكين إلى الله تعالى. واسم الإيمان تارةً يختصّ بالمعارف، وتارةً يطلق على الكلّ. وكذلك الصبر لايتمّ بمعرفة سابقة وبحالة قائمة. فالصبر على التحقيق عبارة عنها، والعمل هو كالثمرة يصدر عنها، ولايعرف هذا إلّا بمعرفة كيفيّة الترتيب بين الملائكة والإنس والبهائم. فإنّ الصبر خاصّيّة الإنس، ولايتصوّر ذلك في البهائم والملائكة، أمّا في البهائم فلنقصانها، وأمّا في الملائكة فلكمالها.

وبيانه: أنّ البهائم سلّطت عليها الشهوات وصارت مسخّرة لها فلا باعث لها على الحركة والسكون إلّا الشهوة، وليس فيها قوّة تصادم الشهوة وتردّها عن مقتضاها حتّى يسمّى ثبات تلك القوّة في مقابلة مقتضى الشهوة صبراً.

وأمّا الملائكة عليهم السلام فإنّهم جرّدوا للشوق إلى حضرة الربوبيّة والابتهاج بدرجة القرب منها ولم تسلّط عليهم شهوة صارفة صادّة عنها حتّى يحتاج إلى مصادمة مايصرفها عن حضرة الجلال بجند آخر يغلب الصوارف.

وأمّا الإنسان فإنّه خلق في ابتداء الصبا ناقصاً مثل البهيمة لم يخلق فيه إلّا شهوة الغذاء الّذي هو محتاج إليه، ثمّ تظهر فيه شهوة اللعب والزينة، ثمّ شهوة النكاح، على الترتيب، وليس له قوّة الصبر البتّة؛ إذ الصبر عبارة عن ثبات جند في مقابلة جند آخر قام القتال بينهما لتضادّ مقتضياتهما ومطالبهما، وليس في الصبيّ إلّا جند الهوى كما في البهائم، ولكنّ الله تعالى بفضله وسعة جوده أكرم بني آدم ورفع درجتهم عن درجة البهائم فوكّل به عند كمال شخصه بمقاربة البلوغ ملكين؛ أحدهما يهديه، والآخر يقويه، فتميّز بمعونة الملكين عن البهائم. واختصّ بصفتين: إحداهما معرفة الله تعالى ومعرفة رسوله، ومعرفة المصالح المتعلّقة بالعواقب. وكلّ ذلك حاصل من الملك الّذي إليه الهداية والتعريف. فالبهيمة لا معرفة لها ولا هداية إلى مصلحة العواقب بل إلى مقتضى شهواتها في الحال فقط، فلذلك لا تطلب إلّا اللذيذ. وأمّا الدواء النافع مع كونه مضرّاً في الحال فلا تطلبه ولا تعرفه، فصار الإنسان بنور الهداية يعرف أنّ اتّباع الشهوات له مغبّات مكروهة في العاقبة، ولكن لم تكن هذه الهداية كافية ما لم تكن له قدرة على ترك ما هو مضرّ، فكم من مضرّ

يعرفه الإنسان كالمرض النازل به مثلاً، ولكن لا قدرة له على دفعه! فافتقر إلى قدرة وقوّة يدفع بها في نحر الشهوات فيجاهدها بتلك القوّة حتّى يقطع عداوتها عن نفسه، فوكّل الله تعالى به ملكاً آخر يسدّده ويؤيّده ويقويه بجنود لم تروها، وأمر هذا الجند بقتال جند الشهوة، فتارةً يضعف هذا الجند وتارةً يقوى ذلك بحسب إمداد الله تعالى عبده بالتأييد، كما أنّ نور الهداية أيضاً يختلف في الخلق اختلافاً لا ينحصر.

فلنسمّ هذه الصفة الّتي بها فارق الإنسان البهائم في قمع الشهوات وقهرها: باعثاً دينيّاً، ولنسمّ مطالبة الشهوات بمقتضياتها: باعث الهوى. وليفهم أنّ القتال قائم بين باعث الدين وباعث الهوى، والحرب بينهما سجال، ومعركة هذا القتال قلب العبد. ومدد باعث الدين من الملائكة الناصرين لحزب الله، ومدد باعث الشهوة من الشياطين الناصرين لأعداء الله. فالصبر عبارة عن ثبات الدين في مقابلة باعث الشهوة. فإن ثبت حتّى قهره واستمرّ على مخالفة الشهوة فقد نصر حزب الله والتحق بالصابرين، وإن تخاذل وضعف حتّى غلبته الشهوة ولم يصبر في دفعها التحق بأتباع الشياطين.

فإنّ ترك الأفعال المشتهاة عملٌ يُثمره حال يسمّى: الصبر، وهو ثبات باعث الدين الّذي هو في مقابلة باعث الشهوة. وثبات باعث الدين حال تثمرها المعرفة بعداوة الشهوات ومضادّتها لأسباب السعادات في الدنيا والآخرة. فإذا قوي يقينه ـ أعني المعرفة الّتي تسمّى إيماناً وهو اليقين بكون الشهوة عدوّاً قاطعاً لطريق الله تعالى ـ قوي ثبات باعث الدين، وإذا قوي ثباته تمّت الأفعال على خلاف ما تتقاضاه الشهوة، فلا يتمّ ترك الشهوة إلّا بقوّة باعث الدين المضادّ لباعث الشهوة. وقوّة المعرفة والإيمان تقبح مغبّة الشهوات وسوء عاقبتها. وهذا الملكان هما المتكفّلان بهذين الجندين بإذن الله تعالى وتسخيره إيّاهما وهما من الكرام الكاتبين، وهما الملكان الموكّلان بكلّ شخص من الآدميين. وإذا عرفت أنّ رتبة الملك الهادي أعلى من رتبة الملك المقوّي لم يخف عليك أنّ جانب اليمين هو أشرف الجانبين من جنبتي الدست، الّذي ينبغي أن يكون مسلماً له. فهو إذن صاحب اليمين والآخر صاحب الشمال.

وللعبد طوران في الغفلة والفكر وفي الاسترسال والمجاهدة. فهو بالغفلة معرض عن صاحب اليمين ومسيء إليه فيكتب إعراضه سيّئة، وبالفكر مقبل عليه ليستفيد منه الهداية فهو به محسن

فيكتب إقباله له حسنة. وكذا بالاسترسال هو معرض عن صاحب اليسار تارك للاستمداد منه فهو به مسيء إليه فيثبت عليه سيّئة، وبالمجاهدة مستمدّ من جنوده فيثبت له به حسنة. وإنّما ثبتت هذه الحسنات والسيّئات بإثباتهما فلذلك سميّا كراماً كاتبين. أمّا الكرام فلانتفاع العبد بكرمهما ولأنّ الملائكة كلّهم كرام بررة، وأمّا الكاتبون فلإثباتهما الحسنات والسيّئات وإنّما يكتبان في صحائف مطويّة في سرّ القلب، ومطويّة عن سرّ القلب حتّى لا يطلع عليه في هذا العالم، فإنّهما وكتبتهما وخطّهما وصحائفهما وجملة ما تعلّق بهما من جملة عالم الغيب والملكوت لا من عالم الشهادة، وكلّ شيء من عالم الملكوت لا تدركه الأبصار في هذا العالم، ثمّ تنشر هذه الصحائف المطويّة عنه مرّتين: مرّة في القيامة الصغرى، ومرّة في القيامة الكبرى، وأعني بالقيامة الصغرى حالة الموت.

إذ قال ﷺ: «من مات فقد قامت قيامته»(١) وفي هذه القيامة يكون العبد وحده وعندها يقال: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾(٢) وفيها يقال: ﴿كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيباً﴾(٣) أمّا في القيامة الكبرى الجامعة لكافّة الخلائق فلا يكون وحده بل ربما يحاسب على ملأ من الخلق، وفيها يساق المتّقون إلى الجنّة والمجرمون إلى النار زمراً لا آحاداً. والهول الأوّل هو هول القيامة الصغرى. ولجميع أهوال القيامة الكبرى نظير في القيامة الصغرى، مثل زلزلة الأرض مثلاً، فإنّ أرضك الخاصّة بك تزلزل في الموت، فإنّك تعلم أنّ الزلزلة إذا نزلت ببلدة صدق أن يقال قد زلزلت أرضهم وإن لم تزلزل البلاد المحيطة بها، بل لو زلزل مسكن لإنسان وحده فقد حصلت الزلزلة في حقّه؛ لأنّه إنّما يتضرّر عند زلزلة جميع الأرض بزلزلة مسكنه لا بزلزلة مسكن غيره، فحصّته من الزلزلة قد توفّرت من غير نقصان.

واعلم أنّك أرضي مخلوق من التراب، وحظّك الخاصّ من التراب بدنك فقط، فأمّا بدن غيرك

---

(١) حديث: «من مات فقد قامت قيامته» أخرجه ابن أبي الدنيا في كتاب الموت من حديث أنس انظر: كنزالعمّال ١٥: ٦٨٦ / ٤٢٧٤٨. قال صاحب المقاصد الحسنة (١١٨٣): له ذكر في: «أكثروا ذكر هادم اللذّات». ورواه الديلمي عن أنس مرفوعاً ولفظه: «إذا مات أحدكم فقد قامت قيامته»، وللطبراني من حديث زيادة بن علاقة عن المغيرة بن شعبة قال: «يقولون: القيامة القيامة وإنّما قيامة المرء موته»، ومن رواية سفيان بن أبي قيس قال: شهدت جنازة فيها علقمة فلمّا دفن قال: «أما هذا فقد قامت قيامته». انظر: كنزالعمّال ١٥: ٥٤٨ / ٤٢١٢٣؛ وكشف الخفاء، العجلوني ٢: ٢٧٩ / ٢٦١٨.

(٢) الأنعام ٦: ٩٤. (٣) الإسراء ١٧: ١٤.

فليس بحظّك. والأرض الّتي أنت جالس عليها بالإضافة إلى بدنك ظرف ومكان تخاف من تزلزله أن يتزلزل بدنك بسببه، وإلّا فالهواء أبداً متزلزل وأنت لا تخشاه إذ ليس يتزلزل به بدنك. فحظّك من زلزلة الأرض كلّها زلزلة بدنك فقط، فهي أرضك وترابك الخاصّ بك، وعظامك جبال أرضك، ورأسك سماء أرضك، وقلبك شمس أرضك، وسمعك وبصرك وسائر خواصّك نجوم سمائك، ومفيض العَرَق من بدنك بحر أرضك، وشعورك نبات أرضك، وأطرافك أشجار أرضك، وهكذا إلى جميع أجزائك، فإذا انهدم بالموت أركان فقد زلزلت الأرض زلزالها، فإذا انفصلت العظام من اللحوم فقد حملت الأرض والجبال فدكّتا دكّةً واحدةً، فإذا رمت العظام فقد نسفت الجبال نسفاً، فإذا أظلم قلبك عند الموت فقد كوّرت الشمس تكويراً، فإذا بطل سمعك وبصرك وسائر حواسّك فقد انكدرت النجوم انكداراً، فإذا انشقّ دماغك فقد انشقّت السماء انشقاقاً، فإذا انفجرت من هول الموت عرق جبينك فقد فجّرت البحار تفجيراً، فإذا التفّت إحدى ساقيك بالأخرى وهما مطيّتاك فقد عطّلت العشار تعطيلاً، فإذا فارقت الروح الجسد فقد حملت الأرض فمدّت حتّى ألقت ما فيها وتخلّت.

ولستُ أطوّلُ بجميع موازنة الأحوال والأهوال، ولكنّي أقول: بمجرّد الموت تقوم عليك هذه القيامة الصغرى، ولا يفوتك من القيامة الكبرى شيء ممّا يخصّك، بل ما يخصّ غيرك؛ فإنّ بقاء الكواكب في حقّ غيرك ماذا ينفعك، وقد انتشرت حواسّك الّتي بها تنتفع بالنظر إلى الكواكب، والأعمى يستوي عنده اللّيل والنهار، وكسوف الشمس وانجلاؤها، لأنّها قد كسفت في حقّه دفعةً واحدةً، وهو حصّته منها، فالانجلاء بعد ذلك حصّة غيره، ومن انشقّ رأسه فقد انشقّت سماؤه، إذ السماء عبارة عمّا يلي جهة الرأس، فمن لا رأس له لا سماء له، فمن أين ينفعه بقاء السماء لغيره؟ فهذه هي القيامة الصغرى. والخوف بعدُ أسفل، والهول بعدُ مؤخَّر، وذلك إذا جاءت الطامّة الكبرىٰ وارتفع الخصوص، وبطلت السماوات والأرض، ونسفت الجبال وتمّت الأهوال.

واعلم أنّ هذه الصغرى[1] وإن طوّلنا في وصفها فإنّا لم نذكر عشير أوصافها، وهي بالنسبة إلى القيامة الكبرى كالولادة الصغرى بالنسبة إلى الولادة الكبرى؛ فإنّ للإنسان ولادتين، إحداهما: الخروج من الصلب والترائب إلى مستودع الأرحام، فهو في الرحم في قرار مكين إلى قدر معلوم،

(١) أي القيامة الصغرى.

وله في سلوكه إلى الكمال منازل وأطوار من نطفة وعلقة ومضغة وغيرها إلى أن يخرج من مضيق الرحم إلى فضاء العالم. فنسبة عموم القيامة الكبرى إلى خصوص القيامة الصغرى كنسبة سعة فضاء العالم إلى سعة فضاء الرحم، ونسبة سعة العالم الّذي يقدم عليه العبد بالموت إلى سعة فضاء الدنيا كنسبة فضاء الدنيا أيضاً إلى الرحم، بل أوسع وأعظم. فقس الآخرة بالأُولى فما خلقكم ولا بعثكم إلّا كنفس واحدة. وما النشأة الثانية إلّا على قياس النشأة الأُولى بل أعداد النشآت ليست محصورة في اثنتين. وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿وَنُنْشِئَكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾[١] فالمقرّ بالقيامتين مؤمن بعالم الغيب والشهادة، وموقن بالملك والملكوت. والمقرّ بالقيامة الصغرى دون الكبرى ناظر بالعين العوراء إلى أحد العالمين، وذلك هو الجهل والضلال، والاقتداء بالأعور الدجّال.

فما أعظم غفلتك يا مسكين ـ وكلّنا ذلك المسكين ـ وبين يديك هذه الأهوال فإن كنت لا تؤمن بالقيامة الكبرى بالجهل والضلال أفلا تكفيك دلالة القيامة الصغرى؟ أو ما سمعت قول سيّد الأنبياء ﷺ: «كفى بالموت واعظاً»[٢] أو ما سمعت بكَرَبه ﷺ عند الموت حتّى قال ﷺ: «اللّهمّ هوّن على محمّد سكرات الموت»[٣]. أو ما تستحي من استبطائك هجوم الموت اقتداء برعاع الغافلين، الّذين لا ينظرون إلّا صيحة واحدة تأخذهم وهم يخصّمون، فلا يستطيعون توصية ولا إلى أهلهم يرجعون؟ فيأتيهم المرض نذيراً من الموت فلا ينزجرون ويأتيهم الشيب رسولاً منه فما يعتبرون، فيا حسرة على العباد ما يأتيهم من رسول إلّا كانوا به يستهزئون، أفيظنّون أنّهم في الدنيا خالدون؟ ﴿أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾[٤] أم يحسبون أنّ الموتى سافروا من عندهم فهم معدومون كلّا: ﴿وَإِنْ كُلٌّ لَمَّا جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ﴾[٥] ولكن: ﴿وَمَا تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ﴾[٦] وذلك لأنّا: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدّاً وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدّاً

---

(١) الواقعة ٥٦: ٦٠.

(٢) أخرجه البيهقي في الشعب من حديث عائشة والطبراني من حديث عقبة بن عامر من قول الفضيل بن عياض والبيهقي في الزهد الكبير (ص ٢١٦). انظر: مجمع الزوائد ١٠: ٣٠٨؛ وكشف الخفاء ٢: ١١٢ / ١٩٣٣.

(٣) أخرجه ابن ماجة (١: ٥١٩ / ١٦٢٣) والنسائي (٤: ٢٥٩ / ٧١٠١) وأبو يعلى (٨: ٩ / ٤٥١٠) كلّهم بلفظ: اللّهمّ أعنّي على سكرات الموت.

(٤) يس ٣٦: ٣١.

(٥) يس ٣٦: ٣٢.

(٦) يس ٣٦: ٤٦.

فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ. وَسَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾[١].

ولنرجع إلى الغرض فإنّ هذه تلويحات تشير إلى أمور هي أعلى من علوم المعاملة. فنقول: ظهر أنّ الصبر عبارة عن «ثبات باعث الدين في مقاومة باعث الهوى» وهذه المقاومة من خاصّة الآدميين، لما وكّل بهم من الكرام الكاتبين، ولا يكتبان شيئاً عن الصبيان والمجانين، إذ قد ذكرنا أنّ الحسنة في الإقبال على الاستفادة منهما، والسيّئة في الإعراض عنهما، وما للصبيان والمجانين سبيل إلى الاستفادة، فلا يتصوّر منهما إقبال وإعراض، وهما لا يكتبان إلّا الإقبال والإعراض من القادرين على الإقبال والإعراض. ولعمري إنّه قد تظهر مبادئ إشراق نور الهداية عند سنّ التمييز وتنمو على التدريج إلى سنّ البلوغ، كما يبدو نور الصبح إلى أن يطلع قرص الشمس، ولكنّها هداية قاصرة لا ترشد إلى مضارّ الآخرة، بل إلى مضارّ الدنيا، فلذلك يضرب على ترك الصلوات ناجزاً، ولا يعاقب على تركها في الآخرة، ولا يكتب عليه من الصحائف ما ينشره في الآخرة، بل على القيّم العدل والوليّ البرّ الشفيق -إن كان من الأبرار وكان على سمت الكرام الكاتبين البررة الأخيار- أن يكتب على الصبيّ سيّئته وحسنته على صحيفة قلبه، فيكتبه عليه بالحفظ، ثمّ ينشره عليه بالتعريف، ثمّ يعذّبه عليه بالضرب. فكلّ وليّ هذا سمته في حقّ الصبيّ فقد ورث أخلاق الملائكة واستعملها في حقّ الصبيّ. فينال بها درجة القرب من ربّ العالمين، كما نالته الملائكة، فيكون مع النبيّين والمقرّبين والصدّيقين. وإليه الإشارة بقوله ﷺ: «أنا وكافل اليتيم كهاتين في الجنّة»[٢] وأشار بأصبعيه الكريمتين يعني السبّابة والوسطى.

الصبر نصف الإيمان

اعلم أنّ الإيمان تارةً يختصّ في إطلاقه بالتصديقات بأصول الدين، وتارةً يختصّ بالأعمال الصالحة الصادرة منها، وتارةً يطلق عليهما جميعاً. وللمعارف أبواب، وللأعمال أبواب. ولاشتمال لفظ الإيمان على جميعها كان الإيمان نيفاً وسبعين باباً.[٣] أمّا كون الصبر نصفَ الإيمان فباعتبارين

---

(١) يس ٣٦: ٩-١٠.

(٢) الترمذي ٣: ٢١٥ / ١٩٨٣؛ البيهقي ٦: ٢٨٣.

(٣) روى مسلم في الصحيح عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «الايمان بضع وسبعون أو بضع وستّون شعبة»؛ (مسلم ١: ٤٦).

وعلى مقتضى إطلاقين:

أحدهما: أن يطلق على التصديقات والأعمال جميعاً، فيكون للإيمان ركنان: أحدهما اليقين، والآخر الصبر. والمراد باليقين: المعارف القطعيّة الحاصلة بهداية الله تعالى عبده إلى أصول الدين. والمراد بالصبر: العمل بمقتضى اليقين. إذ اليقين يُعرّفه أنّ المعصية ضارّة والطاعة نافعة، ولا يمكن ترك المعصية والمواظبة على الطاعة إلّا بالصبر، وهو استعمال باعث الدين في قهر باعث الهوى والكسل. فيكون الصبر نصف الإيمان بهذا الاعتبار. ولهذا جمع رسول الله ﷺ: بينهما فقال: «من أقلّ ما أوتيتم اليقين وعزيمة الصبر»[١].

الاعتبار الثاني: أن يطلق على الأحوال المثمرة للأعمال لا على المعارف، وعند ذلك ينقسم جميع ما يلاقيه العبد إلى ما ينفعه في الدنيا والآخرة أو يضرّه فيهما، وله بالإضافة إلى ما يضرّه حال الصبر، وبالإضافة إلى ما ينفعه حال الشكر. فيكون الشكر أحد شطري الإيمان بهذا الاعتبار، كما أنّ اليقين أحد الشطرين بالاعتبار الأوّل. وبهذا النظر قال ابن مسعود رضي الله عنه: «الإيمان نصفان، نصف صبر ونصف شكر». وقد يرفع أيضاً إلى رسول الله ﷺ[٢].

ولمّا كان الصبر صبراً عن باعث الهوى بثبات باعث الدين، وكان باعث الهوى قسمين، باعث من جهة الشهوة، وباعث من جهة الغضب؛ فالشهوة لطلب اللذيذ والغضب للهرب من المؤلم، وكان الصوم صبراً عن مقتضى الشهوة فقط وهي شهوة البطن والفرج دون مقتضى الغضب، قال ﷺ بهذا الاعتبار: «الصوم نصف الصبر»[٣].

لأنّ كمال الصبر بالصبر عن دواعي الشهوة ودواعي الغضب جميعاً، فيكون الصوم بهذا الاعتبار ربع الإيمان. فهكذا ينبغي أن تفهم تقديرات الشرع بحدود الأعمال والأحوال ونسبتها إلى الإيمان؛ والأصل فيه أن تعرف كثرة أبواب الإيمان، فإنّ اسم الإيمان يطلق على وجوه مختلفة.

الأسامي الّتي تتجدّد للصبر بالإضافة إلى ما عنه الصبر

اعلم أنّ الصبر ضربان؛ أحدهما: بدنيّ، كتحمّل المشاقّ بالبدن والثبات عليها. وهو إمّا بالفعل

---

(١) مسكن الفؤاد: ٤٧؛ البحار ٧٩: ١٣٧ / ٢٢. (٢) كنزالعمّال ١: ٣٦ / ٦١؛ البحار ٧٤: ١٥١ / ٩٩.

(٣) ابن ماجة ١: ٥٥٥ / ١٧٤٥، بلفظ: «الصيام نصف الصبر».

كتعاطي الأعمال الشاقّة، وإمّا من العبادات أو من غيرها. وإمّا بالاحتمال كالصبر على الضرب الشديد والمرض العظيم والجراحات الهائلة. وذلك قد يكون محموداً إذا وافق الشرع.

ولكنّ المحمود التامّ هو الضرب الآخر: وهو الصبر النفسي عن مشتهيات الطبع ومقتضيات الهوى.

ثمّ هذا الضرب إن كان صبراً على شهوة البطن والفرج سمّي عفّة، وإن كان على احتمال مكروه، واختلف أساميه عند الناس باختلاف المكروه الّذي غلب عليه الصبر، فإن كان في مصيبة اقتصر على اسم الصبر، وتضادّه حالة تسمّى الجزع والهلع، وهو إطلاق داعي الهوى ليسترسل في رفع الصوت وضرب الخدود وشقّ الجيوب وغيرها.

وإن كان في احتمال الغنى سمّي ضبط النفس، وتضادّه حالة تسمّى البطر.

وإن كان في حرب ومقاتلة سمّي شجاعة ويضادّه الجبن.

وإن كان في كظم الغيظ والغضب سمّي حلماً ويضادّه التذمّر.

وإن كان في نائبة من نوائب الزمان مُضجرة سمّي سعة الصدر ويضادّه الضجر والتبرّم وضيق الصدر.

وإن كان في إخفاء كلام سمّي كتمان السرّ وسمّي صاحبه كتوماً.

وإن كان عن فضول العيش سمّي زهداً ويضادّه الحرص.

وإن كان صبراً على قدر يسير من الحظوظ سمّي قناعة ويضادة الشَرَه.

ومن ثمّ فأكثر أخلاق الإيمان داخل في الصبر. ولذلك لما سئل ﷺ مرّةً عن الإيمان، قال: «هو الصبر» لأنّه أكثر أعماله وأعزّها كما قال: «الحجّ عرفة»[1] وقد جمع الله تعالى أقسام ذلك وسمّى الكلّ صبراً فقال تعالى: ﴿وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ﴾ أي المصيبة ﴿وَالضَّرَّاءِ﴾ أي الفقر ﴿وَحِينَ الْبَأْسِ﴾ أي المحاربة ﴿أُوْلَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾[2]. فإذن هذه أقسام الصبر باختلاف متعلّقاتها، ومن يأخذ المعاني من الأسامي يظنّ أنّ هذه الأحوال مختلفة في ذواتها وحقائقها، ثمّ يلاحظ الأسامي فإنّها وضعت دالة على المعاني، فالمعاني هي الأصول والألفاظ هي التوابع. ومن يطلب الأصول من التوابع لابدّ أن يزلّ.

---

(١) الترمذي ٥: ٤١٦/ ٤١٠٥.

(٢) البقرة ٢: ١٧٧.

وإلى الفريقين الإشارة بقوله تعالى: ﴿أَفَمَنْ يَمْشِي مُكِبّاً عَلَى وَجْهِهِ أَهْدَى أَمَّنْ يَمْشِي سَوِيّاً عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾(١) فإنّ الكفّار لم يغلطوا فيما غلطوا فيه إلّا بمثل هذه الانعكاسات. نسأل الله حسن التوفيق بكرمه ولطفه.

مراتب الصبر

اعلم أنّ باعث الدين بالإضافة إلى باعث الهوى له ثلاثة أحوال:

أحدها: أن يقهر داعي الهوى فلا تبقى له قوّة المنازعة ويتوصّل إليه بدوام الصبر، وعند هذا يقال من صبر ظفر. والواصلون إلى هذه الرتبة هم الأقلّون، فلا جرم هم الصدّيقون المقرّبون: ﴿الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا﴾(٢). فهؤلاء لازموا الطريق المستقيم واستووا على الصراط القويم واطمأنّت نفوسهم على مقتضى باعث الدين. وإيّاهم ينادي المنادي: ﴿يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ. ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً﴾(٣).

الحالة الثانية: أن تغلب دواعي الهوى وتسقط بالكلّيّة منازعة باعث الدين فيسلم نفسه إلى جند الشياطين ولا يجاهد، لبأسه من المجاهدة، وهؤلاء هم الغافلون وهم الأكثرون، وهم الّذين استرقّتهم شهواتهم وغلبت عليهم شقوتهم فحكّموا أعداء الله في قلوبهم الّتي هي سرّ من أسرار الله تعالى وأمر من أمور الله. وإليهم الإشارة بقوله تعالى: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾(٤). وهؤلاء هم الّذين اشتروا الحياة الدنيا بالآخرة فخسرت صفقتهم، وقيل لمن قصد إرشادهم: ﴿فَأَعْرِضْ عَنْ مَنْ تَوَلَّى عَنْ ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا. ذَلِكَ مَبْلَغُهُمْ مِنَ الْعِلْمِ﴾(٥).

وهذه الحالة علامتها اليأس والقنوط والغرور بالأماني، وهو غاية الحمق كما:

[٣٨٥٥/٢] قال ﷺ: «الكيّس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت، والأحمق من اتّبع نفسه هواها

(١) الملك ٦٧: ٢٢.
(٢) فصّلت ٤١: ٣٠.
(٣) الفجر ٨٩: ٢٧ ـ ٢٨.
(٤) السجدة ٣٢: ١٣.
(٥) النجم ٥٣: ٢٩ ـ ٣٠.

وتمنّى على الله»[١].

وصاحب هذه الحالة إذا وُعظ قال: أنا مشتاق إلى التوبة ولكنّها قد تعذّرت عليَّ، فلست أطمع فيها، أو لم يكن مشتاقاً إلى التوبة ولكن قال: إنّ الله غفور رحيم كريم، فلا حاجة به إلى توبتي. وهذا المسكين قد صار عقله رقيقاً[٢] لشهوته، فلا يستعمل عقله إلاّ في استنباط دقائق الحيل الّتي بها يتوصّل إلى قضاء شهوته، فقد صار عقله في يد شهواته كمسلم أسير في أيدي الكفّار، فهم يستسخرونه في رعاية الخنازير وحفظ الخمور وحملها، ومحلّه عند الله تعالى محلّ من يقهر مسلماً ويسلّمه إلى الكفّار ويجعله أسيراً عندهم؛ لأنّه بفاحش جنايته يُشبه أنّه سخر ما كان حقّه أن لايستسخر، وسلّط ما حقّه أن لايتسلّط عليه، وإنّما استحقّ المسلم أن يكون متسلّطاً لما فيه من معرفة الله وباعث الدين، وإنّما استحقّ الكافر أن يكون مسلَّطاً عليه لما فيه من الجهل بالدين وباعث الشياطين، وحقّ المسلم على نفسه أوجب من حقّ غيره عليه. فمهما سخّر المعنى الشريف الّذي هو من حزب الله وجند الملائكة للمعنى الخسيس الّذي هو من حزب الشياطين المبعدين عن الله تعالى، كان كمن أرقّ مسلماً لكافر، بل هو كمن قصد الملك المنعم عليه فأخذ أعزّ أولاده وسلّمه إلى أبغض أعدائه، فانظر كيف يكون كفرانه لنعمته واستيجابه[٣] لنقمته؛ لأنّ الهوى أبغض إلٰهٍ عُبد في الأرض عند الله تعالى، والعقل أعزّ موجود خُلق على وجه الأرض!

الحالة الثالثة: أن يكون الحرب سجالاً بين الجندين فتارةً له اليدُ عليها. وتارةً لها عليه، وهذا من المجاهدين، يُعدّ مثله لا من الظافرين، وأهل هذه الحالة هم الّذين: ﴿خَلَطُوا عَمَلاً صَالِحاً وَآخَرَ سَيِّئاً عَسَى اللهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾[٤].

هذا باعتبار القوّة والضعف. ويتطرّق إليه أيضاً ثلاثة أحوال باعتبار عدد ما يصبر عنه؛ فإنّه إمّا أن يغلب جميع الشهوات أو لا يغلب شيئاً منها، أو يغلب بعضها دون بعض. وتنزيل قوله تعالى: ﴿خَلَطُوا عَمَلاً صَالِحاً وَآخَرَ سَيِّئاً﴾ على من عجز عن بعض الشهوات دون بعض أولى. والتاركون للمجاهدة مع الشهوات مطلقاً يشبهون بالأنعام بل هم أضلّ سبيلا، إذ البهيمة لم تخلق لها المعرفة

---

(١) الترمذي ٤: ٥٤ / ٢٥٧٧؛ وفيه: «العاجز» بدل «الأحمق».

(٢) رقيقاً: عبداً.

(٣) أي استحقاقه للنقمة والسخط.

(٤) التوبة ٩: ١٠٢.

والقدرة الّتي بها تجاهد مقتضى الشهوات، وهذا قد خلق ذلك له وعطّله، فهو الناقص حقّاً المدبر يقيناً، ولذلك قيل:

ولم أر في عيوب الناس عـيبا   كنقص القادرين عـلى التـمام

وينقسم الصبر أيضاً باعتبار اليسر والعسر إلى ما يشقّ على النفس فلا يمكن الدوام عليه إلّا بجهد جهيد و تعب شديد، ويسمّى ذلك تصبُّراً. وإلى ما يكون من غير شدّة تعب بل يحصل بأدنى تحامل على النفس، ويخصّ ذلك باسم الصبر. وإذا دامت التقوى وقوي التصديق بما في العاقبة من الحسنى تيسّر الصبر، ولذلك قال تعالى: ﴿فَأَمَّا مَـنْ أَعْـطَى وَاتَّـقَى. وَصَـدَّقَ بِـالْحُسْنَى. فَسَـنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى﴾[1]. ومثال هذه القسمة قدرة المصارع على غيره، فإنّ الرجل القويّ يقدر على أن يصرع الضعيف بأدنى حملة وأيسر قوّة بحيث لا يلقاه في مصارعته إعياء ولا لغوب ولا تضطرب فيه نفسه ولا ينبهر[2]. ولا يقوى على أن يصرع الشديد إلّا بتعب ومزيد جهد وعرق جبين. فهكذا تكـون المصارعة بين باعث الدين وباعث الهوى، فإنّه على التحقيق صراع بين جنود المـلائكة وجـنود الشياطين، ومهما أذعنت الشهوات وانقمعت، وتسلّط باعث الدين واستولى وتيسّر الصبر بـطول المواظبة، أورث ذلك مقام الرضا فالرضا أعلى من الصبر.

[٣٨٥٦/٢] ولذلك قال ﷺ: «اعبد الله على الرضا فإن لم تستطع ففي الصبر على ما تكره خير كثير»[3].

وقال بعض العارفين: أهل الصبر على ثلاثة مقامات، أوّلهـا: تـرك الشـهوة، وهـذه درجـة التائبين. وثانيها: الرضا بالمقدور، وهذه درجة الزاهدين. وثالثها: المحبّة لما يصنع به مولاه، وهذه درجة الصدّيقين.

وليعلم أنّ مقام المحبّة أعلى من الرضا، كما أنّ مقام الرضا أعلى من مقام الصبر. وكأنّ هـذا الانقسام يجري في صبر خاصّ وهو الصبر على المصائب والبلايا.

واعلم أنّ الصبر أيضاً ينقسم باعتبار حكمه إلى فرض ونفل ومكروه ومحرّم. فـالصبر عـن

(١) الليل ٩٢: ٥ ـ ٧.

(٢) الانبهار: تتابع النفس على أثر الجهد والإعياء.

(٣) التحفة السنية، السيّد عبدالله الجزائري: ٤٥. ورواه الحاكم (٣: ٥٤١) بلفظ: «فإن استطعت أن تعمل بالصبر مع اليـقين فافعل فإن لم تستطع فاصبر فإنّ في الصبر على ما تكرهه خيراً كثيراً».

المحظورات فرض. وعلى المكاره نفل. والصبر على الأذى المحظور محظور كمن تقطع يده أو يد ولده وهو يصبر عليه ساكتاً. وكمن يقصد حريمه بشهوة محظورة فتهيج غيرته فيصبر عن إظهار الغيرة ويسكت على ما يجري على أهله. فهذا الصبر محرَّم. والصبر المكروه هو الصبر على أذى يناله بجهة مكروهة في الشرع فليكن الشرع محكّ الصبر. فكون الصبر نصف الإيمان لا ينبغي أن يُخيَّل إليك أنّ جميعه محمود، بل المراد به أنواع من الصبر مخصوصة.

مظانّ الحاجة إلى الصبر

اعلم أنّ جميع ما يلقى العبد في هذه الحياة لا يخلو من نوعين، أحدهما: هو الّذي يوافق هواه. والآخر: هو الّذي لا يوافقه بل يكرهه. وهو محتاج إلى الصبر في كلّ واحد منهما. وهو في جميع الأحوال لا يخلو عن أحد هذين النوعين أو عن كليهما. فهو إذن لا يستغني قطّ عن الصبر.

النوع الأوّل: ما يوافق الهوى: وهو الصحّة والسلامة والمال والجاه وكثرة العشيرة واتّساع الأسباب وكثرة الأتباع والأنصار وجميع ملاذّ الدنيا. وما أحوج العبد إلى الصبر على هذه الأمور فإنّه إن لم يضبط نفسه عن الاسترسال والركون إليها والانهماك في ملاذّها المباحة منها، أخرجه ذلك إلى البطر والطغيان، فإنّ الإنسان ليطغى أن رآه استغنى، حتّى قال بعض العارفين: البلاء يصبر عليه المؤمن، والعوافي لا يصبر عليها إلّا صدّيق. وقال سَهْل: الصبر على العافية أشدّ من الصبر على البلاء. ولمّا فتحت أبواب الدنيا على الصحابة رضي الله عنهم قالوا: ابتلينا بفتنة الضرّاء فصبرنا وابتلينا بفتنة السرّاء فلم نصبر[١]، ولذلك حذّر الله عباده من فتنة المال والزوج والولد فقال تعالى: ﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللهِ﴾[٢] وقال ﷻ: ﴿إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ﴾[٣].

[٢/٣٨٥٧] وقال ﷺ: «الولد مبخلة مجبنة محزنة»[٤]. ولمّا نظر ﷺ إلى ولده الحسن ؏ يتعثّر في قميصه نزل عن المنبر واحتضنه، ثمّ قال: «صدق الله: ﴿إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ﴾[٥] إنّي لمّا

(١) انظر: الترمذي ٤: ٥٧؛ المصنّف، الصنعاني ١١: ٢٠٩٩٧/٤٥٧.

(٢) المنافقون ٦٣: ٩.

(٣) التغابن ٦٤: ١٤.

(٤) أبويعلى ٢: ٣٠٥/٥٩ـ١٠٣٢.

(٥) التغابن ٦٤: ١٥.

رأيت ابني يتعثّر لم أملك نفسي أن أخذته»[١] ففي ذلك عبرة لأولي الأبصار.

فالرجل كلّ الرجل من يصبر على العافية، ومعنى الصبر عليها أن لا يركن إليها ويعلم أنّ كلّ ذلك مستودع عنده، وعسى أن يُسترجع على القرب. وأن لا يرسل نفسه في الفرح بها ولا ينهمك في التنعّم واللذّة واللهو واللعب، وأن يرعى حقوق الله في ماله بالإنفاق، وفي بدنه ببذل المعونة للخلق، وفي لسانه ببذل الصدق، وكذلك في سائر ما أنعم الله به عليه. وهذا الصبر متّصل بالشكر، فلا يتمّ إلّا بالقيام بحقّ الشكر.

وإنّما كان الصبر على السرّاء أشدّ لأنّه مقرون بالقدرة، ومن العصمة أن لا تقدر. والصبر على الحجامة والفصد إذا تولّاه غيرك أيسر من الصبر على فصدك نفسك وحجامتك نفسك. والجائع عند غيبة الطعام أقدر على الصبر منه إذا حضرته الأطعمة الطيّبة اللذيذة وقدر عليها، فلهذا عظمت فتنة السرّاء.

النوع الثاني: مالا يوافق الهوى والطبع، وذلك لايخلو إمّا أن يرتبط باختيار العبد كالطاعات والمعاصي، أو لايرتبط باختياره كالمصائب والنوائب. أو لا يرتبط باختياره ولكن له اختيار في إزالته كالتشفّي من المؤذي بالانتقام منه، فهذه ثلاثة أقسام:

القسم الأوّل: ما يرتبط باختياره وهو سائر أفعاله الّتي توصف بكونها طاعة أو معصية وهما ضربان:

الضرب الأوّل: الطاعة والعبد يحتاج إلى الصبر عليها، فالصبر على الطاعة شديد، لأنّ النفس بطبعها تنفر عن العبوديّة وتشتهي الربوبيّة، ولذلك قال بعض العارفين: ما من نفس إلّا وهي مُضمرة ما أظهر فرعون من قوله: ﴿أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى﴾[٢]، ولكن فرعون وجد له مجالاً وقبولاً فأظهره إذ استخفّ قومه فأطاعوه، وما من أحد إلّا وهو يدّعي ذلك مع عبده وخادمه وأتباعه وكلّ من هو تحت قهره وطاعته، وإن كان ممتنعاً من إظهاره، فإنّ استشاطته وغيظه عند تقصيرهم في خدمته واستبعاده[٣] ليس يصدر إلّا عن إضمار الكبر ومنازعة الربوبيّة في رداء الكبرياء. فإذن العبوديّة

---

(١) الموجود في الخبر: الحسن والحسين عليهما السلام وفي البعض: الحسين عليه السلام انظر: مسند أحمد ٥: ٣٥٤؛ أبو داوود ١: ٢٤٨ / ١١٠٩؛ الترمذي ٥: ٣٢٤ / ٣٨٦٣؛ النسائي ١: ٥٣٥ / ١٧٣١؛ ابن حبّان ١٣: ٤٠٣.

(٢) النازعات ٧٩: ٢٤.

(٣) أي مبالغته في استعظام نفسه.

شاقّة على النفس مطلقاً!

ثمّ من العبادات ما يكره بسبب الكسل كالصلاة، ومنها ما يكره بسبب البخل كالزكاة، ومنها ما يكره بسببهما جميعاً كالحجّ والجهاد. فالصبر على الطاعة صبر على الشدائد.

ويحتاج المطيع إلى الصبر على طاعته في ثلاث أحوال: الأُولى قبل الطاعة، وذلك في تصحيح النيّة والإخلاص، والصبر عن شوائب الرياء ودواعي الآفات، وعقد العزم على الإخلاص والوفاء. وذلك من الصبر الشديد عند من يعرف حقيقة النيّة والإخلاص وآفات الرياء ومكايد النفس. وقد نبّه عليه ﷺ إذ قال:

[٣٨٥٨/٢] «إنّما الأعمال بالنيات وإنّما لكلّ امرئ مانوى»[1] وقال تعالى: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾[2]. ولهذا قدّم الله تعالى الصبر على العمل فقال تعالى: ﴿إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾[3].

الحالة الثانية: حالة العمل، كي لايغفل عن الله في أثناء عمله ولا يتكاسل عن تحقيق آدابه وسننه ويدوم على شرط الأدب إلى آخر العمل فيلازم الصبر عن دواعي الفتور إلى الفراغ، وهذا أيضاً من شدائد الصبر ولعلّه المراد بقوله تعالى: ﴿نِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ. الَّذِينَ صَبَرُوا﴾[4] أي صبروا إلى تمام العمل.

الحالة الثالثة: بعد الفراغ من العمل، إذ يحتاج إلى الصبر عن إفشائه والتظاهر به للسمعة والرياء، والصبر عن النظر إليه بعين العجب، وعن كلّ ما يبطل عمله ويحبط أثره، كما قال تعالى: ﴿وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ﴾[5] وكما قال تعالى: ﴿لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى﴾[6] فمن لايصبر بعد الصدقة عن المنّ والأذى فقد أبطل عمله.

والطاعات تنقسم إلى فرض ونفل، وهو محتاج إلى الصبر عليهما جميعاً، وقد جمعهما الله تعالى في قوله: ﴿إِنَّ اللهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى﴾[7] فالعدل هو الفرض، والإحسان

---

(١) البخاري ١: ٢؛ ابن ماجة ٢: ١٤١٣ / ٤٢٢٧.

(٢) البيّنة ٩٨: ٥.

(٣) هود ١١: ١١.

(٤) العنكبوت ٢٩: ٥٨ ـ ٥٩.

(٥) محمّد ٤٧: ٣٣.

(٦) البقرة ٢: ٢٦٤.

(٧) النحل ١٦: ٩٠.

هو النفل. وإيتاء ذي القربى هو المروءة وصلة الرحم. وكلّ ذلك يحتاج إلى صبر.

الضرب الثاني: المعاصي: فما أحوج العبد إلى الصبر عنها، وقد جمع الله تعالى أنواع المعاصي في قوله تعالى: ﴿وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ﴾[1].

[٣٨٥٩/٢] وقال ﷺ: «المهاجر من هجر السوء، والمجاهد من جاهد هواه».[2] والمعاصي مقتضى باعث الهوى.

وأشدّ أنواع الصبر: الصبر عن المعاصي الّتي صارت مألوفة، فإنّ العادة طبيعة خامسة، فإذا انضافت العادة إلى الشهوة تظاهر جندان من جنود الشيطان على جند الله تعالى فلا يقوى باعث الدين على قمعها.

ثمّ إن كان ذلك الفعل ممّا تيسّر فعله كان الصبر عنه أثقل على النفس، كالصبر عن معاصي اللسان من الغيبة والكذب والمراء والثناء على النفس تعريضاً وتصريحاً. وأنواع المزاح المؤذي للقلوب، وضروب الكلمات الّتي يقصد بها الإزراء والاستحقار، وذكر الموتى والقدح فيهم وفي علومهم وسيرهم ومناصبهم، فإنّ ذلك في ظاهره غيبة وفي باطنه ثناء على النفس. فللنفس فيه شهوتان: إحداهما نفي الغير، والأخرى إثبات نفسه. وبها تتمّ له الربوبيّة الّتي هي في طبعه، وهي ضدّ ما أمر به من العبوديّة. ولاجتماع الشهوتين وتيسّر تحريك اللسان ومصير ذلك معتاداً في المحاورات يعسر الصبر عنها، وهي أكبر الموبقات حتّى بطل استنكارها واستقباحها من القلوب، لكثرة تكريرها وعموم الأنس بها، فترى الإنسان يلبس حريراً مَثَلاً فيستبعد غاية الاستبعاد[3] ويطلق لسانه طول النهار في أعراض الناس ولا يستنكر ذلك، مع ما ورد في الخبر من أنّ الغيبة أشدّ من الزنا[4] ومن لم يملك لسانه في المحاورات ولم يقدر على الصبر عن ذلك، فيجب عليه العُزلة

---

(١) النحل ١٦: ٩٠.

(٢) منتخب مسند عبد بن حميد: ١٣٥ / ٣٣٦، بلفظ: «أنّ رجلاً قال: يا رسول الله... فمن المهاجر؟ قال: من هجر السيّئات. قال: فمن المجاهد؟ قال: من جاهد نفسه لله ـ عزّ وجلّ ـ. وأخرجه الطبراني بالشطر الأوّل في الأوسط ١: ٨١ وبالشطر الثاني في الكبير ١٨: ٣٠٩، بلفظ: «المجاهد من جاهد نفسه في الله ـ عزّ وجلّ ـ». من حديث فضالة بن عبيدالله.

(٣) أي يستعظم نفسه غاية الاستعظام.

(٤) الأوسط ٦: ٣٤٨؛ نورالثقلين ٥: ٩٥.

والانفراد، فلا ينجيه غيره، فالصبر على الانفراد أهون من الصبر على السكوت مع المخالطة.

وتختلف شدّة الصبر في آحاد المعاصي باختلاف داعية تلك المعصية في قوّتها وضعفها. وأيسر من حركة اللسان حركة الخواطر باختلاف الوساوس، فلا جرم يبقى حديث النفس في العُزلة ولايمكن الصبر عنه أصلاً إلّا بأن يغلب على القلب همّ آخر في الدين يستغرقه، كمن أصبح وهمومه همّ واحد، وإلّا فإن لم يستعمل الفكر في شيء معيّن لم يتصوّر فتور الوسواس عنه.

القسم الثاني: ما لا يرتبط هجومه باختياره، وله اختيارٌ في دفعه، كما لو أوذي بفعلٍ أو قول وجُني عليه في نفسه أو ماله، فالصبر على ذلك بترك المكافأة تارةً يكون واجباً، وتارةً يكون فضيلة. قال بعض الصحابة رضوان الله عليهم: ما كنّا نعدّ إيمان الرجل إيماناً إذا لم يصبر على الأذى. وقال تعالى: ﴿وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَى مَا آذَيْتُمُونَا وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾[1]. وقسّم رسول الله ﷺ مرّةً مالاً، فقال بعض الأعراب من المسلمين: هذه قسمة ما أريد بها وجه الله! فأُخبر رسول الله ﷺ فاحمرّت وجنتاه.

[٣٨٦٠/٢] ثمّ قال: «يرحم الله أخي موسى لقد أوذي بأكثر من هذا فصبر»[2] وقال تعالى: ﴿وَدَعْ أَذَاهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ﴾[3] وقال تعالى: ﴿وَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَاهْجُرْهُمْ هَجْراً جَمِيلاً﴾[4] وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ. فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾[5] الآية وقال تعالى: ﴿وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذىً كَثِيراً وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾[6] أي تصبروا عن المكافأة. ولذلك مدح الله تعالى العافين عن حقوقهم في القصاص وغيره فقال تعالى: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ﴾[7].

[٣٨٦١/٢] وقال ﷺ: «صل من قطعك، وأعط من حرمك، واعف عمّن ظلمك»[8].

[٣٨٦٢/٢] ورأيت في الإنجيل: قال عيسى بن مريم ؑ: لقد قيل لكم من قبل: إنّ السنّ بالسنّ

(١) إبراهيم ١٤: ١٢.
(٢) البخاري ٥: ١٠٦؛ مسلم ٣: ١٠٩؛ البيهقي ٨: ١٦٧.
(٣) الأحزاب ٣٣: ٤٨.
(٤) المزّمّل ٧٣: ١٠.
(٥) الحجر ١٥: ٩٧ـ٩٨.
(٦) آل عمران ٣: ١٨٦.
(٧) النحل ١٦: ١٢٦.
(٨) مكارم الأخلاق، ابن أبي الدنيا: ٢٣ / ٢٠؛ مسند أحمد ٤: ١٤٨؛ كنز العمّال ٢: ٣١٢ / ٤٠٨٩.

والأنف بالأنف، وأنا أقول لكم: لاتقاوموا الشرّ بالشرّ، بل من ضرب خدّك الأيمن فحوّل إليه الخدّ الأيسر، ومن أخذ رداءك فأعطه إزارك، ومن سخّرك لتسير معه ميلاً فسر معه ميلين.[١] وكلّ ذلك أمر بالصبر على الأذى. فالصبر على أذى الناس من أعلى مراتب الصبر، لأنّه يتعاون فيه باعث الدين وباعث الشهوة والغضب جميعاً.

القسم الثالث: ما لايدخل تحت حصر الاختيار أوّله وآخره؛ كالمصائب: مثل موت الأعزّة وهلاك الأموال، وزوال الصحّة بالمرض، وعمى العين وفساد الأعضاء. وبالجملة سائر أنواع البلاء، فالصبر على ذلك من أعلى مقامات الصبر.

[٣٨٦٣/٢] قال ابن عبّاس رضي الله عنه: الصبر في القرآن على ثلاثة أوجه؛ صبر على أداء فرائض الله تعالى، فله ثلاثمائة درجة. وصبر عن محارم الله تعالى، فله ستمائة درجة. وصبر على المصيبة عند الصدمة الأُولى، فله تسعمائة درجة. وإنّما فضّلت هذه الرتبة، مع أنّها من الفضائل، على ما قبلها، وهي من الفرائض، لأنّ كلّ مؤمن يقدر على الصبر عن المحارم. فأمّا الصبر على بلاء الله تعالى فلايقدر عليه إلّا الأنبياء، لأنّه بضاعة الصدّيقين، فإنّ ذلك شديد على النفس.

[٣٨٦٤/٢] ولذلك قال ﷺ: «أسألك من اليقين ما تهوّن عليَّ به مصائب الدنيا»[٢] فهذا صبر مستنده حُسن اليقين.

وقال أبو سليمان: والله ما نصبر على ما نحبّ فكيف نصبر على ما نكره؟

قال المولى الكاشاني: كلام أبي حامد هاهنا ينافي ما ذكره في أوائل هذا الفصل من أنَّ الصبر على العافية أشدّ وأفضل من الصبر على البلاء، وذلك هو الصحيح دون هذا، وما نقله هاهنا عن ابن عبّاس يخالف ما رويناه بطريق أهل البيت عليهم السلام فقد روي في الكافي بإسناده إلى عليّ عليه السلام أنّه قال:

[٣٨٦٥/٢] قال رسول الله ﷺ: «الصبر ثلاثة: صبر عند المصيبة، وصبر على الطاعة، وصبر عن المعصية، فمن صبر على المصيبة حتّى يردّها بحسن عزائها كتب الله له ثلاثمائة درجة ما بين الدَّرجة إلى الدَّرجة كما بين السماء والأرض، ومن صبر على الطاعة كتب الله له ستّمائة درجة ما بين الدَّرجة إلى الدَّرجة كما بين تخوم الأرض إلى العرش، ومن صبر عن المعصية كتب الله له

(١) فيض القدير شرح الجامع الصغير ٤: ٢٥٩ / ٥٠٠٤. (٢) الحاكم ١: ٥٢٨؛ النسائي ٦: ١٠٦ / ١٠٢٣٤.

تسعمائة درجة ما بين الدَّرجة إلى الدَّرجة كما بين تخوم الأرض إلى منتهى العرش»(١).

[٣٨٦٦/٢] وعن أبي جعفر الباقر عليه السلام: «الصبر صبران صبر على البلاء حسن جميل وأفضل الصبرين الورع عن محارم الله»(٢) وروي هذا عن أمير المؤمنين عليه السلام أيضاً.

* * *

رجع الكلام إلى ما ذكره أبو حامد، قال:

[٣٨٦٧/٢] وقال النبيّ صلى الله عليه وآله: «قال الله ـ عزّ وجلّ ـ: إذا وجّهت إلى عبد من عبيدي مصيبة في بدنه أو ماله أو ولده ثمّ استقبل ذلك بصبر جميل، استحييت منه يوم القيامة أن أنصب له ميزاناً أو أنشر له ديواناً»(٣).

[٣٨٦٨/٢] وقال صلى الله عليه وآله: «انتظار الفرج بالصبر عبادة»(٤).

[٣٨٦٩/٢] وقال صلى الله عليه وآله: «ما من عبد مؤمن أصيب بمصيبة فقال كما أمر الله تعالى: ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾(٥) اللّهمّ اؤجرني بمصيبتي وأعقبني خيراً منها، إلّا فعل الله به ذلك»(٦).

[٣٨٧٠/٢] وقال أنس: حدّثني رسول الله صلى الله عليه وآله: «إنّ الله ـ عزّ وجلّ ـ قال: يا جبريل ما جزاء من سلبت كريمتيه؟ قال: سبحانك لا علم لنا إلّا ما علّمتنا. قال الله تعالى جزاؤه الخلود في داري والنظر إلى وجهي»(٧).

[٣٨٧١/٢] وقال صلى الله عليه وآله: «يقول الله ـ عزّ وجلّ ـ إذا ابتليت عبدي ببلاء فصبر ولم يشكني إلى عوّاده أبدلته لحماً خيراً من لحمه ودماً خيراً من دمه، فإذا أبرأته أبرأته ولا ذنب له وإن توفّيته فإلى رحمتي»(٨).

---

(١) الكافي ٢: ٩١ / ١٥، باب الصبر. (٢) المصدر / ١٤.

(٣) مسند الشهاب ٢: ٣٣٠ / ١٤٦٢؛ كنز العمّال ٣: ٢٨٢ / ٦٥٦١.

(٤) مسند الشهاب ١: ٦٢ / ٤٦ و ٤٧؛ كنز العمّال ٣: ٢٧٢ / ٦٥٠٧.

(٥) البقرة ٢: ١٥٦. (٦) مسلم ٣: ٣٧ بتفاوت.

(٧) الأوسط ٨: ٣٥٥ بتفاوت؛ ورواه أبويعلى (٤: ٢٥٢ / ٢٣٦٥) بلفظ: «قال رسول الله صلى الله عليه وآله يقول الله: إذا أخذت كريمتي عبدي فصبر واحتسب لم أرض له ثواباً دون الجنّة».

(٨) البيهقي ٣: ٣٧٥، بتفاوت؛ الجامع الصغير ١: ٥٢٨ / ٣٤٣٩؛ كنز العمّال ١٥: ٨١٢ / ٤٣٢٢٧.

[٣٨٧٢/٢] وقال داوود ﷺ: يا ربّ ما جزاء الحزين الّذي يصبر على المصائب ابتغاء مرضاتك؟ قال: جزاؤه أن ألبسه لباس الإيمان فلا أنزعه عنه أبداً[١].

وقال عمر بن عبدالعزيز في خطبته: ما أنعم الله على عبد نعمة فانتزعها منه وعوّضه منها الصبر، إلّا كان ما عوّضه منها أفضل ممّا انتزع منه. وقرأ: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾[٢].

وسئل فضيل عن الصبر فقال: هو الرضا بقضاء الله. قيل: وكيف ذلك؟ قال: الراضي لا يتمنّى فوق منزلته.

وقيل: حُبس الشبلي رحمه الله في المارستان[٣] فدخل عليه جماعة فقال: من أنتم؟ قالوا: أحبّاؤك جاءوك زائرين، فأخذ يرميهم بالحجارة فأخذوا يهربون، فقال: لو كنتم أحبّائي لصبرتم على بلائي.

وكان بعض العارفين في جيبه رقعة يخرجها كلّ ساعة ويطالعها وكان فيها: ﴿وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾[٤] ويقال إنّ امرأة فَتْح الموصلي عثرت فانقطع ظفرها فضحكت، فقيل لها: أما تجدين الوجع؟ فقالت: إنّ لذّة ثوابه أزالت عن قلبي مرارة وجعه!

[٣٨٧٣/٢] وقال داوود لسليمان ﷺ: يستدلّ على تقوى المؤمن بثلاث: حسن التوكّل فيما لم ينل، وحسن الرضى فيما قد نال، وحسن الصبر فيما قد فات.

[٣٨٧٤/٢] وقال نبيّنا ﷺ: «من إجلال الله ومعرفة حقّه أن لاتشكو وجعك ولاتذكر مصيبتك»[٥].

ويروى عن بعض الصالحين أنّه خرج يوماً وفي كمّه صرّة فافتقدها فإذا هي قد أُخذت من

---

(١) فيض القدير شرح الجامع الصغير ٤: ٦٠٤٦/٦٤٠. (٢) الزمر ٣٩: ١٠.

(٣) أي المستشفى الخاصّ بذوي الخبل والجنون (دار المجانين).

(٤) الطور ٥٢: ٤٨.

(٥) حديث: «من إجلال الله ومعرفة حقّه أن لاتشكو وجعك ولا تذكر مصيبتك» لم أجده مرفوعاً وإنّما رواه ابن أبي الدنيا في المرض والكفّارات من رواية سفيان عن بعض الفقهاء قال: «من الصبر أن لا تتحدّث بمصيبتك ولا بوجعك ولا تزّكي نفسك».

كمّه! فقال: بارك الله له فيها، لعلّه أحوج إليها منّي!

وروي عن بعضهم أنّه قال: مررت على سالم مولى أبي حذيفة في القتلى وبه رمق، فقلت له: أسقيك ماء؟ فقال: جرّني قليلاً إلى العدوّ واجعل الماء في الترس فإنّي صائم، فإن عشت إلى الليل شربته! فهكذا كان صبر سالكي طريق الآخرة على بلاء الله تعالى.

* * *

قال المولى الكاشاني:

[٣٨٧٥/٢] ومن طريق أهل البيت عليهم السلام ما رواه الكليني عن أبي جعفر عليه السلام قال: «قال رسول الله صلى الله عليه وآله: قال الله تعالى: من مرض ثلاثاً فلم يشك إلى عوّاده أبدلته لحماً خيراً من لحمه ودماً خيراً من دمه، فإن عافيته عافيته ولا ذنب له، وإن قبضته قبضته إلى رحمتي»[1] وفي معناه أخبار أُخر.

[٣٨٧٦/٢] وفي بعضها فسّر التبديل بخير بأن يبدله لحماً ودماً وبشرة لم يذنب فيها.[2] وفسّر الشكاية بأن يقول: «ابتليت بما لم يبتل به أحدٌ وأصابني ما لم يصب أحداً، قال: وليس الشكوى أن يقول: سهرت البارحة وحممت اليوم ونحو هذا»[3].

[٣٨٧٧/٢] وفي رواية عن الصادق عليه السلام: «من اشتكى ليلة فقبلها بقبولها وأدّى إلى الله شكرها كانت كعبادة ستّين سنة، سئل: ما قبولها؟ قال: يصبر عليها ولا يخبر بما كان فيها فإذا أصبح حمد الله على ما كان»[4].

[٣٨٧٨/٢] وسئل الباقر عليه السلام عن الصبر الجميل فقال: «ذاك صبر ليس فيه شكوى إلى الناس»[5].

* * *

قال أبو حامد: فإن قلت: فبماذا تُنال درجة الصبر في المصائب وليس الأمر إلى اختياره، فهو مضطرّ شاء أم أبى؟ فإن كان المراد به أن لاتكون في نفسه كراهيّة المصيبة فذلك غير داخل في الاختيار؟

---

(١) الكافي ٣: ١١٥/ ١.

(٢) المصدر: ١١٦/ ٦.

(٣) المصدر: ١١٦/ ١، باب حدّ الشكاية.

(٤) المصدر: ١١٦/ ٥.

(٥) المصدر ٢: ٩٣/ ٢٣، باب الصبر.

فاعلم أنّه إنّما يخرج عن مقام الصابرين بالجزع وشقّ الجيوب وضرب الخدود والمبالغة في الشكوى وإظهار الكآبة وتغيير العادة في الملبس والمفرش والمطعم، وهذه الأمور داخلة تحت اختياره، فينبغي أن يجتنب جميعها ويظهر الرضا بقضاء الله تعالى ويبقى مستمراً على عادته ويعتقد أنّ ذلك كان وديعة فاسترجعت.

[٣٨٧٩/٢] كما روي عن الرّميصاء أمّ سليم أنّها قالت: توفّي ابن لي وزوجي أبو طلحة غائب فقمت فسجّيته في ناحية البيت، فقدم أبو طلحة فقمت فهيّأت له إفطاره فجعل يأكل فقال: كيف الصبيّ فقلت: بأحسن حال بحمد الله ومنّه، فإنّه لم يكن منذ اشتكى خيراً منه اللّيلة. ثمّ تصنّعتُ له أحسن ما كنت أتصنّع قبل ذلك حتّى أصاب منّي حاجته، ثمّ قلت: ألا تعجب من جيراننا! قال: ما لهم؟ قلت: أعيروا عارية فلمّا طُلبت منهم واستُرجعت جزعوا! فقال: بئس ما صنعوا! فقلت: هذا ابنك كان عارية من الله تعالى وإنّ الله قد قبضه إليه، فحمد الله واسترجع، ثمّ غدا على رسول الله ﷺ فأخبره، فقال: «اللّهمّ بارك لهما في ليلتهما»[1] قال الراوي: فلقد رأيت لهم بعد ذلك في المسجد سبعة كلّهم قد قرأوا القرآن.

[٣٨٨٠/٢] وروى جابر أنّه ﷺ قال: «رأيتني دخلت الجنّة فإذا أنا بالرميصاء امرأة أبي طلحة».

وقد قيل: الصبر الجميل هو أن لايعرف صاحب المصيبة من غيره، ولا يخرجه عن حدّ الصابرين توجُّع القلب ولا فيضان العين بالدمع، إذ يكون من جميع الحاضرين لأجل الموت سواء، ولأنّ البكاء توجّع القلب على الميّت، فإنّ ذلك مقتضى البشريّة ولايفارق الإنسان إلى الموت.

[٣٨٨١/٢] ولذلك لمّا مات إبراهيم ولد النبيّ ﷺ فاضت عيناه! فقيل له: أما نهيتنا عن هذا؟ فقال: «إنّ هذه رحمة وإنّما يرحم الله من عباده الرحماء»[2].

---

(١) مسند أحمد ٣: ٢٨٧؛ الكبير ٢٥: ١١٦ والرميصاء بضم الراء صحابيّة.

(٢) رواه البزّار والطبراني من حديث عبدالرحمان بن عوف قال: بعثت ابنة لرسول الله ﷺ أنّ ابنتي مغلوبة فقال للرسول: قل لها إنّ لله ما أخذ وله ما أعطى ثمّ بعثت إليه ثانية فقال لها مثل ذلك، ثمّ بعثت إليه الثالثة فجاءها في ناس من أصحابه فأخرجت إليه الصبيّة ونفسها تقعقع (أي تضطرب) في صدرها، فرقّ عليها فذرفت عيناه ففطن به بعض أصحابه وهم ينظرون إليه حين ذرفت عيناه، فقال: «مالكم تنظرون رحمة الله يضعها حيث يشاء إنّما يرحم الله من عباده الرحماء».
راجع: مسند أحمد ٥: ٢٠٤ والبخاري ٢: ٨٠ ومجمع الزوائد ٣: ١٨. وما عثرت على لفظ ما نقله المصنّف.

بل ذلك أيضاً لا يخرج عن مقام الرضا، فالمقدم على الحجامة والفصد راض به وهو متألّم بسببه لا محالة، وقد تفيض عيناه إذا عظم ألمه.

وكتب ابن أبي نجيح يعزّي بعض الخلفاء: إنّ أحقّ من عرف حقّ الله تعالى فيما أخذ منه، من عظم حقّ الله تعالى عنده فيما أبقاه له، واعلم أنّ الماضي قبلك هو الباقي لك والباقي بعدك هو المأجور فيك. واعلم أنّ أجر الصابرين به فيما يصابون به أعظم من النعمة عليهم فيما يعافون منه.

فإذن مهما دفع الكراهة بالتفكّر في نعمة الله تعالى عليه بالثواب، نال درجة الصابرين. نعم من كمال الصبر كتمان المرض والفقر وسائر المصائب. وقد قيل: من كنوز البرّ كتمان المصائب والأوجاع والصدقة.

فقد ظهر لك بهذه التقسيمات أنّ وجوب الصبر عامّ في جميع الأحوال والأفعال، فإنّ الّذي كفى الشهوات كلّها واعتزل وحده لا يستغني عن الصبر على العزلة والانفراد ظاهراً، وعن الصبر عن وساوس الشيطان باطناً. فإنّ اختلاج الخواطر لا يسكن. وأكثر جولان الخواطر إنّما يكون في فائت لا تدارك له أو في مستقبل لابدّ أن يحصل منه ما هو مقدّر، فهو كيفما كان تضييع زمان. وآلة العبد قلبه وبضاعته عمره، فإذا غفل القلب في نفس واحدٍ عن ذكر يستفيد به أنساً بالله تعالى أو عن فكر يستفيد به معرفة بالله تعالى ليستفيد بالمعرفة محبّة الله تعالى فهو مغبون، هذا إن كان فكره ووسواسه في المباحات مقصوراً عليه، ولايكون ذلك غالباً، بل يتفكّر في وجوه الحيل لقضاء الشهوات، إذ لايزال ينازع كلّ من تحرّك على خلاف غرضه في جميع عمره، أو من يتوهّم أنّه ينازعه ويخالف أمره أو غرضه بظهور أمارة له منه، بل يقدر المخالفة من أخلص الناس في حبّه حتّى في أهله وولده، ويتوهّم مخالفتهم له، ثمّ يتفكّر في كيفيّة زجرهم، وكيفيّة قهرهم وجوابهم عمّا يتعلّلون به في مخالفته، ولا يزال في شغل دائم، فللشيطان جندان: جند يطير وجند يسير، والوسواس عبارة عن حركة جنده الطيّار، والشهوة عبارة عن حركة جنده السيّار. وهذا لأنّ الشيطان خلق من النار، وخلق الإنسان من صلصال كالفخّار، والفخّار قد اجتمع فيه مع النار الطين، والطين طبيعته السكون والنار طبيعتها الحركة، فلا يتصوّر نار مشتعلة لاتتحرّك بل لا تزال تتحرّك بطبعها. وقد كلّف المخلوق من النار أن يطمئنّ عن حركته ساجداً لما خلق الله من الطين، فأبى

واستكبر واستعصى وعبر عن سبب استعصائه بأن قال: ﴿خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ﴾[١].

فإذن حيث لم يسجد إبليس لأبينا آدمعليه السلام فلا ينبغي أن يطمع في سجوده لأولاده. ومهما كفّ عن القلب وسواسه وعدوانه وطيرانه وجولانه فقد أظهر انقياده وإذعانه. وانقياده بالإذعان سجود منه ـ فهو روح السجود ـ وإنّما وضع الجبهة على الأرض قالبه وعلامته الدالّة عليه بالاصطلاح. ولو جعل وضع الجبهة على الأرض علامة استخفاف بالاصطلاح لتصوّر ذلك، كما أنّ الانبطاح بين يدي المعظم المحترم يرى استخفافاً بالعادة، فلا ينبغي أن يدهشك صدف الجوهر عن الجوهر وقالب الروح عن الروح وقشر اللبّ عن اللبّ! فتكون ممّن قيّده عالم الشهادة بالكلّيّة عن عالم الغيب، وتحقّق أنّ الشيطان من المنظرين، فلا يتواضع لك بالكفّ عن الوسواس إلى يوم الدين إلّا أن تصبح وهمومك همّ واحد، فتشغل قلبك بالله وحده فلا يجد الشيطان مجالاً فيك، فعند ذلك تكون من عبادِ الله المخلصين الداخلين في الاستثناء عن سلطنة هذا اللعين.

ولا تظنّنّ أنّه يخلو عنه قلب فارغ، بل هو سيّال يجري من ابن آدم مجرى الدم، وسيلانه مثل الهواء في القدح، فإنّك إن أردت أن يخلو القدح عن الهواء من غير أن تشغله بالماء أو بغيره فقد طمعت في غير مطمع، بل بقدر ما يخلو من الماء يدخل فيه الهواء لا محالة، فكذلك القلب المشغول بفكر مهمّ في الدين لا يخلو عن جولان الشيطان، وإلّا فمن غفل عن الله تعالى ولو في لحظة فليس له في تلك اللّحظة قرين إلّا الشيطان. ولذلك قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَانِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَاناً فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ﴾[٢].

[٣٨٨٢/٢] وقالصلى الله عليه وآله: «إنّ الله تعالى يبغض الشابّ الفارغ»[٣] وهذا لأنّ الشابّ إذا تعطّل عن عمل يُشغل باطنه بمباح يستعين به على دينه، كان ظاهره فارغاً ولم يبق قلبه فارغاً، بل يعشّش فيه الشيطان ويبيض ويفرخ، ثمّ تزدوج أفراخه أيضاً وتبيض مرّةً أخرى وتفرخ، وهكذا يتوالد نسل الشيطان توالداً أسرع من توالد سائر الحيوانات، لأنّ طبعه من النار، وإذا وَجَدَ الحَلْفاءَ اليابسة[٤] كثر توالده، فلا يزال تتوالد النار من النار ولا تنقطع البتّة بل تسري شيئاً فشيئاً على

(١) الأعراف ٧: ١٢.
(٢) الزخرف ٤٣: ٣٦.
(٣) الكافي ٥: ٨٤ / ٢، باب كراهيّة النوم والفراغ، عن الإمام الكاظمعليه السلام بلفظ: «إنّ الله يبغض العبد النوّام الفارغ».
(٤) الحَلْفاء: نبت يشبه سعف النخل ينبت في مغايض المياه.

الاتّصال. فالشهوة في نفس الشابّ للشيطان كالحلفاء اليابسة للنار، وكما لا تبقى النار إذا لم يبق لها قوت وهو الحطب، فلا يبقى للشيطان مجال إذا لم تكن شهوة. فإذن إذا تأمّلت علمت أنّ أعدى عدوّك شهوتك وهي صفة نفسك، ولذلك قال الحسين بن منصور الحلّاج حين كان يُصلب ـ وقد سئل عن التصوّف ما هو؟ ـ فقال: هي نفسك إن لم تُشغلها شغلتك.

فإذن حقيقة الصبر وكماله: الصبر عن كلّ حركة مذمومة، وحركة الباطن أولى بالصبر عن ذلك، وهذا صبر دائم لايقطعه إلّا الموت. نسأل الله حسن التوفيق بمنّه وكرمه.

دواء الصبر

اعلم أنّ الّذي أنزل الداء أنزل الدواء ووعد الشفاء، فالصبر وإن كان شاقّاً أو ممتنعاً فتحصيله ممكن بمعجون العلم والعمل. فالعلم والعمل هما الأخلاط الّتي منها تركّب الأدوية لأمراض القلوب كلّها، ولكن يحتاج كلّ مرض إلى علم آخر وعمل آخر، وكما أنّ أقسام الصبر مختلفة فأقسام العلل المانعة منه مختلفة، وإذا اختلفت العلل اختلف العلاج، إذ معنى العلاج مضادّة العلّة وقمعها. واستيفاء ذلك ممّا يطول ولكنّا نعرف الطريق في بعض الأمثلة:

فنقول: إذا افتقر إلى الصبر عن شهوة الوقاع مثلاً وقد غلبت عليه الشهوة بحيث ليس يملك معها فرجه، أو يملك فرجه ولكن ليس يملك عينه، أو يملك عينه ولكن ليس يملك قلبه ونفسه، إذ لا تزال تحدّثه بمقتضيات الشهوات ويصرفه ذلك عن المواظبة على الذكر والفكر والأعمال الصالحة. فنقول: قد قدّمنا أنّ الصبر عبارة عن مصارعة باعث الدين مع باعث الهوى، وكلّ متصارعين أردنا أن يغلب أحدهما الآخر فلا طريق لنا فيه إلّا تقوية من أردنا أن تكون له اليد العليا وتضعيف الآخر؛ فلزمنا هاهنا تقوية باعث الدين وتضعيف باعث الشهوة.

فأمّا باعث الشهوة فسبيل تضعيفه ثلاثة أمور:

أحدها: أن ننظر إلى مادّة قوّتها وهي الأغذية الطيّبة المحرّكة للشهوة ـ من حيث نوعها ومن حيث كثرتها ـ فلابدّ من قطعها بالصوم الدائم مع الاقتصاد عند الإفطار على طعام قليل في نفسه، ضعيف في جنسه، فيحترز عن اللحم والأطعمة المهيّجة للشهوة.

الثاني: قطع أسبابه المهيّجة في الحال فإنّه إنّما يهيّج بالنظر إلى مظانّ الشهوة، إذ النظر يحرّك

القلب والقلب يحرّك الشهوة، وهذا يحصل بالعزلة والاحتراز عن مظانّ وقوع البصر على الصور المشتهاة، والفرار منها بالكلّية.

[٣٨٨٣/٢] قال رسول الله ﷺ: «النظرة سهم من سهام إبليس»[١] وهو سهم يسدّده الشيطان ولا ترس يمنع منه إلّا تغميض الأجفان أو الهرب من صوب رميه. فإنّه إنّما يرمي هذا السهم عن قوس الصور فإذا انقلبتَ عن صوب الصور لم يصبك سهمه.

الثالث: تسلية النفس بالمباح من الجنس الّذي تشتهيه وذلك بالنكاح، فإنّ كلّ ما يشتهيه الطبع ففي المباحات من جنسه ما يُغني عن المحظورات منه. وهذا هو العلاج الأنفع في حقّ الأكثر، فإنّ قطع الغذاء يضعف عن سائر الأعمال، ثمّ قد لا يقمع الشهوة في حقّ أكثر الرجال.

[٣٨٨٤/٢] ولذلك قال ﷺ: «عليكم بالباءة فمن لم يستطع فعليه بالصوم فإنّ الصوم له وجاء»[٢].

فهذه ثلاثة أسباب. فالعلاج الأوّل وهو قطع الطعام، يضاهي قطع العلف عن البهيمة الجموح وعن الكلب الضاري ليضعف فتسقط قوّته. الثاني: يضاهي تغييب اللحم عن الكلب وتغييب الشعير عن البهيمة حتّى لا تتحرّك بواطنها بسبب مشاهدتها. والثالث: يضاهي تسليتها بشيء قليل ممّا يميل إليه طبعها حتّى يبقى معها من القوّة ما تصبر به على التأديب.

وأمّا تقوية باعث الدين فإنّما تكون بطريقين، أحدهما: إطماعه في فوائد المجاهدة وثمراتها في الدين والدنيا، وذلك بأن يكثر فكره في الأخبار الّتي أوردناها في فضل الصبر وفي حسن عواقبه في الدنيا والآخرة. وفي الأثر: إنّ ثوابَ الصبر على المصيبة أكثر ممّا فات، وإنّه بسبب ذلك مغبوط بالمصيبة، إذ فاته ما لا يبقى معه إلّا مدّة الحياة، وحصل له ما يبقى بعد موته أبد الدهر. ومن أسلم خسيساً في نفيس فلا ينبغي أن يحزن لفوات الخسيس في الحال. وهذا من باب المعارف وهو من الإيمان، فتارةً يضعف وتارةً يقوى، فإن قوي قوّى باعث الدين وهيّجه تهييجاً شديداً، وإن ضعف ضعّفه. وإنّما قوّة الإيمان يعبَّر عنها باليقين، وهو المحرّك لعزيمة الصبر، وأقلّ ما أوتي الناس اليقين وعزيمة الصبر.

والثاني: أن يعوّد هذا الباعث مصارعة باعث الهوى تدريجاً قليلاً قليلاً حتّى يدرك لذّة الظفر

---

(١) الحاكم ٤: ٣١٤.

(٢) الأوسط ٨: ١٣٧؛ الكبير ١٠: ١٢٢/ ١٠١٧١.

بها، فيستجرئ عليها وتقوى مُنَّته[1] في مصارعتها، فإنّ الاعتياد والممارسة للأعمال الشاقّة تؤكّد القوى الّتي تصدر منها تلك الأعمال، ولذلك تزيد قوّة الحمّالين والفلّاحين والمُقاتلين. وبالجملة فقوّة الممارسين للأعمال الشاقّة تزيد على قوّة الخيّاطين والعطّارين والفقهاء والصالحين، وذلك لأنّ قواهم لم تتأكّد بالممارسة.

فالعلاج الأوّل: يضاهي إطماع المصارع بالخلعة عند الغلبة ووعده بأنواع الكرامة، كما وعد فرعون سحرته عند إغرائه إيّاهم بموسى حيث قال: ﴿وَإِنَّكُمْ إِذاً لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ﴾[2].

والثاني: يضاهي تعويد الصبيّ الّذي يراد منه المصارعة والمقاتلة بمباشرة أسباب ذلك منذ الصبا، حتّى يأنس به ويستجرئ عليه وتقوى فيه مُنَّته. فمن ترك بالكلّيّة المجاهدة بالصبر ضعف فيه باعث الدين ولا يقوى على الشهوة وإن ضعفت، ومن عوّد نفسه مخالفة الهوى غلبها مهما أراد.

فهذا منهاج العلاج في جميع أنواع الصبر ولا يمكن استيفاؤه، وإنّما أشدّها كفّ الباطن عن حديث النفس، وإنّما يشتدّ ذلك على من تفرّغ له، بأن قمع الشهوات الظاهرة وآثر العزلة وجلس للمراقبة والذكر والفكر، فإنّ الوسواس لا يزال يجاذبه من جانب إلى جانب. وهذا لا علاج له البتّة إلّا قطع العلائق كلّها ظاهراً وباطناً بالفرار عن الأهل والولد والمال والجاه والرفقاء والأصدقاء، ثمّ الاعتزال إلى زاوية بعد إحراز قدر يسير من القوت وبعد القناعة به. ثمّ كلّ ذلك لا يكفي ما لم تصر الهموم همّاً واحداً وهو الله تعالى. ثمّ، إذا غلب ذلك على القلب فلا يكفي ذلك ما لم يكن له مجال في الفكر وسير بالباطن في ملكوت السماوات والأرض وعجائب صنع الله تعالى وسائر أبواب معرفة الله تعالى، حتّى إذا استولى ذلك على قلبه دفع اشتغاله بذلك مجاذبة الشيطان ووسواسه، وإن لم يكن له سير بالباطن فلا ينجيه إلّا الأوراد المتواصلة المترتّبة في كلّ لحظة، من القراءة والأذكار والصلوات، ويحتاج مع ذلك إلى تكليف القلب الحضور، فإنّ الفكر بالباطن هو الّذي يستغرق القلب دون الأوراد الظاهرة. ثمّ إذا فعل ذلك كلّه لم يسلم له من الأوقات إلّا بعضها؛ إذ لا يخلو في جميع أوقاته عن حوادث تتجدّد فتشغله عن الفكر والذكر من مرض وخوف وإيذاء من إنسان وطغيان من مخالط، إذ لا يستغني عن مخالطة من يعينه في بعض أسباب المعيشة. فهذا أحد الأنواع الشاغلة.

---

(١) المُنَّة: القوّة.

(٢) الشعراء ٢٦: ٤٢.

وأمّا النوع الثاني: فهو ضروريّ أشدّ ضرورة من الأوّل، وهو اشتغاله بالمطعم والملبس وأسباب المعاش، فإنّ تهيئة ذلك أيضاً تحوج إلى شغل إن تولّاه بنفسه، وإن تولّاه غيره فلا يخلو عن شغل قلب بمن يتولّاه. ولكن بعد قطع العلائق كلّها يسلم له أكثر الأوقات إن لم تهجم به ملمّة أو واقعة، وفي تلك الأوقات يصفو القلب ويتيسّر له الفكر، وينكشف فيه من أسرار الله تعالى في ملكوت السماوات والأرض ما لايقدر على عشر عشيرة في زمان طويل لو كان مشغول القلب بالعلائق. والانتهاء إلى هذا هو أقصى المقامات الّتي يمكن أن تنال بالاكتساب والجهد. فأمّا مقادير ما ينكشف مبالغ ما يرد من لطف الله تعالى في الأحوال والأعمال فذلك يجري مجرى الصيد وهو بحسب الرزق. فقد يقلّ الجهد ويجلّ الصيد، وقد يطول الجهد ويقلّ الحظّ، والمعوّل وراء هذا الاجتهاد على جذبة من جذبات الرحمان فإنّها توازي أعمال الثقلين وليس ذلك باختيار العبد. نعم اختيار العبد في أن يتعرّض لتلك الجذبة بأن يقطع عن قلبه جواذب الدنيا، فإنّ المجذوب إلى أسفل سافلين لا ينجذب إلى أعلى علّيّين. وكلّ مهموم بالدنيا فهو منجذب إليها.

فقطع العلائق الجاذبة هو المراد بقوله ﷺ:

[٣٨٨٥/٢] «إنّ لربّكم في أيّام دهركم نفحات ألا فتعرّضوا لها»[١] وذلك لأنّ تلك النفحات والجذبات لها أسباب سماويّة إذ قال الله تعالى: ﴿وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ﴾[٢]. وهذا من أعلى أنواع الرزق. والأمور السماويّة غائبة عنّا فلا ندري متى ييسّر الله تعالى أسباب الرزق. فما علينا إلّا تفريغ المحلّ والانتظار لنزول الرحمة وبلوغ الكتاب أجله. كالّذي يصلح الأرض وينقّيها من الحشيش ويبثّ البذر فيها، وكلّ ذلك لا ينفعه إلّا بمطر ولا يدري متى يقدّر الله أسباب المطر، إلّا أنّه يثق بفضل الله تعالى ورحمته أنّه لا يخلى سنة عن مطر، فكذلك قلّما تخلو سنة وشهر ويوم عن جذبة من الجذبات ونفحة من النفحات، فينبغي أن يكون العبد قد طهّر القلب عن حشيش الشهوات وبذر فيه بذر الإرادة والإخلاص وعرّضه لمهابّ رياح الرحمة. وكما يقوى انتظار الأمطار في أوقات الربيع وعند ظهور الغيم، فيقوى انتظار تلك النفحات في الأوقات الشريفة وعند اجتماع الهمم وتساعد القلوب، كما في يوم عرفة ويوم الجمعة وأيّام رمضان، فإنّ الهمم والأنفاس أسباب.

---

(١) قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (١٠ / ٢٣١) رواه الطبراني في الأوسط ٣: ١٨٠ والكبير ١٩: ٢٣٤ بنحوه.

(٢) الذاريات ٥١: ٢٢.

بحكم تقدير الله تعالى لاستدرار رحمته حتّى تستدرّ بها الأمطار في أوقات الاستسقاء، وهي لاستدرار أمطار المكاشفات ولطائف المعارف من خزائن الملكوت أشدّ مناسبة منها لاستدرار قطرات الماء واستجرار الغيوم من أقطار الجبال والبحار، بل الأحوال والمكاشفات حاضرة معك في قلبك، وإنّما أنت مشغول عنها بعلائقك وشهواتك فصار ذلك حجاباً بينك وبينها، فلا تحتاج إلّا إلى أن تنكسر الشهوة ويرفع الحجاب فتشرق أنوار المعارف من باطن القلب. وإظهار ماء الأرض بحفر القنى أسهل وأقرب من استرسال الماء إليها من مكان بعيد منخفض عنها. ولكونه حاضراً في القلب ومنسيّاً بالشغل عنه سمّى الله تعالى جميع معارف الإيمان تذكّراً، فقال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾[1] وقال تعالى: ﴿وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُوا الأَلْبَابِ﴾[2] وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ﴾[3] فهذا هو علاج الصبر عن الوساوس والشواغل وهو آخر درجات الصبر، وإنّما الصبر عن العلائق كلّها مقدّم على الصبر عن الخواطر.

قال الجنيد رحمه الله: السير من الدنيا إلى الآخرة سهل على المؤمن، وهجران الخلق في حبّ الحقّ شديد، والسير من النفس إلى الله تعالى صعب شديد، والصبر مع الله أشدّ. فذكر شدّة الصبر عن شواغل القلب ثمّ شدّة هجران الخلق.

وأشدّ العلائق على النفس علاقة الخلق وحبّ الجاه. فإنّ لذّة الرياسة والغلبة والاستعلاء والاستتباع أغلب اللّذّات في الدنيا على نفوس العقلاء، وكيف لا تكون أغلب اللّذّات ومطلوبها صفة من صفات الله تعالى وهي الربوبيّة؟ والربوبيّة محبوبة ومطلوبة بالطبع للقلب، لما فيه من المناسبة لأمور الربوبيّة، وعنه العبارة بقوله تعالى: ﴿قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي﴾[4] وليس القلب مذموماً على حبّه ذلك وإنّما هو مذموم على غلط وقع له بسبب تغرير الشيطان المبعد عن عالم الأمر، إذ حسده، على كونه من عالم الأمر. فأضلّه وأغواه، وكيف يكون مذموماً عليه وهو يطلب سعادة الآخرة؟ فليس يطلب إلّا بقاءً لا فناءَ فيه. وعزّاً لا ذلّ فيه، وأمناً لا خوف فيه، وغنى لا فقر فيه، وكمالاً لا نقصان فيه! وهذه كلّها من أوصاف الربوبيّة. وليس مذموماً على طلب ذلك، بل حقّ كلّ عبد أن يطلب ملكاً عظيماً لا آخِر له. وطالب الملك طالب للعلوّ والعزّ والكمال لا محالة. ولكن

---

(١) الحجر ١٥: ٩.
(٢) سورة ص ٣٨: ٢٩.
(٣) القمر ٥٤: ١٧.
(٤) الإسراء ١٧: ٨٥.

الملك ملكان: ملك مشوب بأنواع الآلام وملحوق بسرعة الانصرام، ولكنّه عاجل وهو في الدنيا. وملك مخلّد دائم لا يشوبه كدر ولا ألم ولا يقطعه قاطع ولكنّه آجل... وقد خُلق الإنسان عجولاً راغباً في العاجلة، فجاء الشيطان وتوسّل إليه بواسطة العجلة ـ الّتي في طبعه ـ فاستغواه بالعاجلة وزيّن له الحاضرة، وتوسّل إليه بواسطة الحمق فوعده بالغرور في الآخرة ومنّاهُ مع مُلْك الدنيا مُلْك الآخرة.

[٣٨٨٦/٢] كما قال ﷺ: «والأحمق من اتّبع نفسه هواها وتمنّى على الله الأماني»[1] فانخدع المخذول بغروره واشتغل بطلب عزّ الدنيا وملكها على قدر إمكانه. ولم يتدلّ الموفّق بحبل غروره إذ علم مداخل مكره فأعرض عن العاجلة، فعبر عن المخذولين بقوله تعالى: ﴿كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ. وَتَذَرُونَ الْآخِرَةَ﴾[2] وقال تعالى: ﴿إِنَّ هَؤُلَاءِ يُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَاءَهُمْ يَوْماً ثَقِيلاً﴾[3] وقال تعالى: ﴿فَأَعْرِضْ عَنْ مَنْ تَوَلَّى عَنْ ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا. ذَلِكَ مَبْلَغُهُمْ مِنَ الْعِلْمِ﴾[4].

ولمّا استطار مكر الشيطان في كافّة الخلق أرسل الله الملائكة إلى الرُسُل وأوحوا إليهم ما تمّ على الخلق من إهلاك العدوّ وإغوائه، فاشتغلوا بدعوة الخلق إلى الملك الحقيقي عن الملك المجازي الّذي لا أصل له أصلاً فنادوا فيهم: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ أَرَضِيتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ﴾[5].

فالتوراة والإنجيل والزبور والفرقان وصحف موسى وإبراهيم وكلّ كتاب منزل ما أُنزل إلّا لدعوة الخلق إلى الملك الدائم المخلد، والمراد منهم أن يكونوا ملوكاً في الدنيا، ملوكاً في الآخرة. أمّا ملك الدنيا: فالزهد فيها والقناعة باليسير منها. وأمّا ملك الآخرة: فبالقرب من الله تعالى يدرك بقاءً لا فناءَ فيه وعزّاً لا ذلّ فيه وقرّة عين أُخفيت في هذا العالم لا تعلمها نفس من النفوس.

والشيطان يدعوهم إلى ملك الدنيا، لعلمه بأنّ ملك الآخرة يفوت به، إذ الدنيا والآخرة ضرّتان، ولعلمه بأنّ الدنيا لا تسلم له أيضاً، ولو كانت تسلم له لكان يحسده أيضاً، ولكن ملك الدنيا لا يخلو عن المنازعات والمكدرات وطول الهموم في التدبيرات، وكذا سائر أسباب الجاه. ثمّ مهما تسلّم

(١) فيض القدير ٢: ٤٤٥ / ٢٠٢٥.
(٢) القيامة ٧٥: ٢٠ ـ ٢١.
(٣) الإنسان ٧٦: ٢٧.
(٤) النجم ٥٣: ٢٩ ـ ٣٠.
(٥) التوبة ٩: ٣٨.

وتتمّ الأسباب ينقضي العمر: ﴿حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلاً أَوْ نَهَاراً فَجَعَلْنَاهَا حَصِيداً كَأَنْ لَمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ﴾(١) فضرب الله تعالى لها مثلاً فقال تعالى: ﴿وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيماً تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ﴾(٢) والزهد في الدنيا لمّا أن كان ملكاً حاضراً حسده الشيطان عليه فصدّه عنه.

ومعنى الزهد أن يملك العبد شهوته وغضبه فينقادان لباعث الدين وإشارة الإيمان، وهذا ملك بالاستحقاق إذ به يصير صاحبه حرّاً. وباستيلاء الشهوة عليه يصير عبداً لفرجه وبطنه وسائر أغراضه، فيكون مسخّراً مثل البهيمة مملوكاً يستجرّه زمام الشهوة آخذاً بمختنقه إلى حيث يريد ويهوى. فما أعظم اغترار الإنسان إذ ظنّ أنّه ينال الملك بأنّه يصير مملوكاً! وينال الربوبيّة بأن يصير عبداً! ومثل هذا هل يكون إلّا معكوساً في الدنيا منكوساً في الآخرة؟

ولهذا قال بعض الملوك لبعض الزهّاد: هل من حاجة؟ قال: كيف أطلب منك حاجة وملكي أعظم من ملكك؟ فقال: كيف؟ قال: من أنت عبده فهو عبد لي! فقال: كيف ذلك؟ قال: أنت عبد شهوتك وغضبك وفرجك وبطنك، وقد ملكتُ هؤلاء كلّهم فهم عبيد لي.

فهذا إذن هو الملك في الدنيا وهو الّذي يسوق إلى الملك في الآخرة. فالمخدوعون بغرور الشيطان خسروا الدنيا والآخرة جميعاً، والّذين وُفّقوا للاشتداد على الصراط المستقيم فازوا بالدنيا والآخرة جميعاً.

فإذا عرفت الآن معنى الملك والربوبيّة، ومعنى التسخير والعبوديّة، ومدخل الغلط في ذلك وكيفيّة تعمية الشيطان وتلبيسه، يسهل عليك النزوع عن الملك والجاه، والإعراض عنه والصبر عند فواته؛ إذ تصير بتركه ملكاً في الحال وترجو به ملكاً في الآخرة.

ومن كوشف بهذه الأمور بعد أن ألف الجاه وأنس به ورسخت فيه بالعادة مباشرةُ أسبابه فلا يكفيه في العلاج مجرّد العلم والكشف؛ بل لابدّ أن يضيف إليه العمل، وعمله في ثلاثة أمور:

أحدها: أن يهرب عن موضع الجاه كي لا يشاهد أسبابه فيعسر عليه الصبر مع الأسباب، كما يهرب من غلبته الشهوة من مشاهدة الصور المحرّكة، ومن لم يفعل هذا فقد كفر نعمة الله في سعة

---

(١) يونس ١٠: ٢٤. (٢) الكهف ١٨: ٤٥.

الأرض إذ قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا﴾[١].

الثاني: أن يكفّ نفسه في أعماله أفعالاً تخالف ما اعتاده، فيبدّل التكلّف بالتبذّل، وزيّ الحشمة بزيّ التواضع، وكذلك كلّ هيئة وحال وفعل، في مسكن وملبس ومطعم وقيام وقعود كان يعتاده وفاء بمقتضى جاهه، فينبغي أن يبدّلها بنقائضها حتّى يرسخ باعتياد ذلك ضدّ ما رسخ فيه من قبلُ باعتياد ضدّه، فلا معنى للمعالجة إلّا المضادّة.

الثالث: أن يراعي في ذلك التلطّف والتدريج، فلا ينتقل دفعةً واحدةً إلى الطرف الأقصى من التبذّل، فإنّ الطبع نفور، ولا يمكن نقله عن أخلاقه إلّا بالتدريج، فيترك البعض ويسلّي نفسه بالبعض، ثمّ إذا قنعت نفسه بذلك البعض ابتدأ بترك البعض من ذلك البعض، إلى أن يقنع بالبقيّة. وهكذا يفعل شيئاً فشيئاً إلى أن يقمع تلك الصفات الّتي رسخت فيه.

[٣٨٨٧/٢] وإلى هذا التدريج الإشارة بقوله ﷺ: «إنّ هذا الدين متين فأوغل فيه برفق ولا تبغض إلى نفسك عبادة الله، فإنّ المُنبتَّ[٢] لا أرضاً قطع ولا ظهراً أبقى»[٣].

[٣٨٨٨/٢] وإليه الإشارة بقوله ﷺ: «لاتشادّوا هذا الدين فإنّ من يشادّه يغلبه»[٤].

ومن راعى التدريج ترقى به الصبر إلى حال يشقّ عليه الصبر دونه، كما كان يشقّ عليه الصبر معه، فتنعكس أموره، فيصير ما كان محبوباً عنده ممقوتاً وما كان مكروهاً عنده مشرباً هنيئاً لا يصبر عنه. وهذا لا يُعرَف إلّا بالتجربة والذوق. وله نظير في العادات، فإنّ الصبيّ يُحمل على التعلّم في الابتداء قهراً. فيشقّ عليه الصبر عن اللعب والصبر مع العلم، حتّى إذا انفتحت بصيرته وأنس بالعلم انقلب الأمر، فصار يشقّ عليه الصبر عن العلم والصبر على اللعب. وإلى هذا يشير ما حكي عن بعض العارفين أنّه سأل الشبليّ عن الصبر أيّه أشدّ؟ فقال: الصبر في الله تعالى؟ فقال: لا، فقال: الصبر لله؟ فقال: لا، فقال: الصبر مع الله؟ فقال: لا، فقال: فأيش؟ قال: الصبر عن الله، فصرخ الشبليّ صرخة كادت روحه تتلف.

---

(١) النساء ٤: ٩٧.

(٢) المنبتّ: من انقطع في سفره وعطبت راحلته. أي بقي عاجزاً عن بلوغ مقصده ولم يقض حاجته.

(٣) البيهقي ٣: ١٨؛ مجمع الزوائد ١: ٦٢.

(٤) انظر: البيهقي ٣: ١٨ والحاكم ١: ٣١٢. والمشادّة: المغالبة.

وقد قيل في معنى قوله تعالى: ﴿اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا﴾[١] اصبروا في الله وصابروا بالله ورابطوا مع الله. وقيل الصبر لله غناء والصبر بالله بقاء والصبر مع الله وفاء والصبر عن الله جفاء. وقد قيل في معناه:

والصبر عنك فمذموم عواقبه   والصبر في سائر الأشياء محمودُ

وقيل أيضاً:

الصبر يجمل في المواطن كلّها   إلّا عليك فإنّه لا يجملُ[٢]

* * *

وبعد فإليك ما روي بالإسناد إلى أئمّة أهل البيت عليهم السلام زيادة على ما أسلفناه عن الكافي الشريف:

[٣٨٨٩/٢] وروى عليّ بن إبراهيم القمي بالإسناد إلى ابن أبي عمير عن ابن مسكان عن الإمام أبي عبدالله الصادق عليه السلام قال: «اصبروا على المصائب. وقال: إذا كان يوم القيامة نادى منادٍ: أين الصابرون؟ فيقوم فئام من الناس. ثمّ ينادي: أين المتصبّرون؟ فيقوم فئام من الناس. قيل له: ما الصابرون وما المتصبّرون؟ قال: الصابرون على أداء الفرائض، والمتصبّرون على اجتناب المحارم!»[٣].

[٣٨٩٠/٢] وقال الإمام أمير المؤمنين عليه السلام في خطبة خطبها:

«أمّا بعد، فإنّ الأمر ينزل من السماء إلى الأرض كقطرات المطر، إلى كلّ نفس بما قُسِمَ لها من زيادة أو نقصان، فإن راى أحدكم لأخيه غَفيرةً[٤] في أهل أو مال أو نَفْس، فلا تكوننّ له فتنة، فإنّ المرء المسلم ما لم يَغْشَ دِناءةً تَظْهَرُ، فيخشع لها إذا ذُكرت، ويُغْرىٰ بها لئامُ الناس، كان كالفالج[٥] الياسر[٦] الّذي ينتظر أوّل فوزةٍ من قداحه توجب له المغنم، ويرفع بها عنه المغرم. وكذلك المرء

(١) آل عمران ٣: ٢٠٠.

(٢) راجع: إحياء علوم الدين ٤: ٩٠ـ١١٨، والمحجّة البيضاء ٧: ١٠٥ ـ ١٤٠.

(٣) القمي ١: ١٢٩ ذيل الآية ٢٠٠ من سورة آل عمران. والفئام: الجماعة من الناس؛ البحار ٦٨: ٨٣ ـ ٨٤ / ٢٥.

(٤) أي زيادة وكثرة.

(٥) هو الظافر الفائز.

(٦) أي اللاعب بقداح الميسر، أي المقامر.

المسلم البريء من الخيانة ينتظر من الله إحدىٰ الحُسْنيين : إمّا داعِيَ الله فما عند الله خير له . وإمّا رزقَ الله فإذا هو ذو أهل ومال ، ومعه دينه وحسبه . وإنّ المال والبنين حرث الدنيا ، والعمل الصالح حرث الآخرة ، وقد يجمعهما الله تعالى لأقوام . فاحذروا من الله ما حذّركم من نفسه ، واخشوه خشية ليست بتعذير[1] واعملوا في غير رياء ولا سمعة ، فإنّه من يعمل لغير الله يكله الله لمن عمل له . نسأل الله منازل الشهداء ، ومعايشة السعداء ، ومرافقة الأنبياء»[2].

وهكذا روى عبدالله بن جعفر الحميري بالإسناد إلى بكر بن محمّد الأزدي عن الإمام الصادق عليه السلام إلى قوله : «وقد يجمعهما الله ـ عزّ وجلّ ـ لأقوام»[3].

[٣٨٩١/٢] وروى عن الحسن بن ظريف عن ابن علوان عن الإمام جعفر بن محمّد الصادق عليه السلام قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله : «إنّ الله تبارك وتعالى يُنزل المعونة على قدر المؤونة ، وينزل الصبر على قدر شدّة البلاء»[4].

[٣٨٩٢/٢] وروى بالإسناد إلى أبي عبدالله عن أبيه عن عليّ عليه السلام قال : «لا يذوق المرء من حقيقة الإيمان ، حتّى يكون فيه ثلاث خصال : الفقه في الدين ، والصبر على المصائب ، وحسن التقدير في المعيشة»[5].

[٣٨٩٣/٢] وهكذا روى أبو جعفر الصدوق بالإسناد إلى الحارث بن الأعور قال : قال أميرالمؤمنين ـ عليه صلوات المصلّين ـ : «ثلاث بهنّ يكمل المسلم : التفقّه في الدين ، والتقدير في المعيشة ، والصبر على النوائب»[6].

[٣٨٩٤/٢] وروى بالإسناد إلى أبي حمزة الثُّمالي عن الإمام أبي جعفر الباقر عليه السلام قال : «العبد بين ثلاثة : بلاء ، وقضاء ، ونعمة . فعليه في البلاء من الله ، الصبرُ فريضةٌ . وعليه في القضاء من الله ، التسليم فريضةٌ . وعليه في النعمة من الله ، الشكر فريضة»[7].

---

(١) يقال : عذّر إذا لم يثبت له عذر ، وذلك إذا لم يأت بعذر صدق .

(٢) نهج البلاغة ١ : ٦١ ، الخطبة ٢٣.

(٣) قرب الإسناد : ٣٨ / ١٢٣ ؛ البحار ٦٨ : ٨٤ / ٢٨.

(٤) قرب الإسناد : ١١٦ / ٤٠٧.

(٥) البحار ٦٨ : ٨٥ / ٢٩.

(٦) الخصال ١ : ١٢٤ / ١٢٠ ، أبواب الثلاثة ؛ البحار ٦٨ : ٣١.

(٧) الخصال ١ : ٨٦ / ١٧ ، أبواب الثلاثة ؛ البحار ٦٨ : ٣٠.

[٣٨٩٥/٢] وروى العيّاشيّ بالإسناد إلى الفُضيل عن الإمام أبي جعفر الباقر عليه السلام قال: «يا فُضيل، بلّغ من لقيت من موالينا عنّا السلام، وقل لهم: إنّي لا أُغني عنكم من الله شيئاً إلّا بورع؛ فاحفظوا ألسنتكم، وكفّوا أيديكم، وعليكم بالصبر والصلاة، إنّ الله مع الصابرين»[١].

[٣٨٩٦/٢] وبالإسناد إلى عبدالله بن طلحة عن الإمام أبي عبدالله الصادق عليه السلام قال: «الصبر هو الصوم»[٢].

قلت: يعني أنّ الصوم هو أتمّ مصداق الصبر، الواقع قرين الصلاة في الآية الكريمه هنا.

[٣٨٩٧/٢] وقال الإمام عليّ بن الحسين زين العابدين عليه السلام: «إذا جمع الله الأوّلين والآخرين ينادي منادٍ: أين الصابرون ليدخلوا الجنّة قبل الحساب؟ قال: فيقوم عُنُق[٣] من الناس فيتلقّاهم الملائكة، فيقولون: إلى أين يا بني آدم؟ فيقولون: إلى الجنّة، فيقولون: وقبل الحساب؟ قالوا: نعم، قالوا: ومن أنتم؟ قالوا: نحن الصابرون، قالوا: وما كان صبركم؟ قالوا: صبرنا على طاعة الله وصبرنا عن معصية الله حتّى توفّانا الله، قالوا: أنتم كما قلتم ادخلوا الجنّة، فنعم أجر العاملين». قال ابن كثير: ويشهد لهذا قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾[٤][٥].

[٣٨٩٨/٢] وروى الصدوق بالإسناد إلى حمّاد بن عيسى، عمّن ذكره، عن أبي عبدالله عليه السلام قال: قال أمير المؤمنين عليه السلام في وصيّته لابنه محمّد بن الحنفيّة: «إيّاك والعُجب، وسوء الخلق، وقلّة الصبر، فإنّه لايستقيم لك على هذه الخصال الثلاثة صاحبٌ، ولايزال لك عليها من الناس مجانب»[٦].

[٣٨٩٩/٢] وبالإسناد إلى الرضا، عن آبائه عليهم السلام قال: قال عليّ بن الحسين عليه السلام: «أخذوا الناس ثلاثة من ثلاثة: أخذوا الصبر عن أيّوب عليه السلام والشكر عن نوح عليه السلام، والحسد عن بني يعقوب عليه السلام»[٧].

---

(١) العيّاشيّ ١: ٨٧ / ١٢٤؛ دعائم الإسلام ١: ١٣٣؛ البحار ٦٧: ٣٠٨ / ٣٦، باب ٥٧، و ٧٩: ٢٣٢ / ٥٧، باب ١؛ نورالثقلين ١: ١٤١؛ البرهان ١: ٣٥٩ / ١؛ السرائر ٣: ٥٨٧ ـ ٥٨٨.

(٢) العيّاشيّ ١: ٦٢ / ٤٠، و٨٧ / ١٢٥؛ البحار ٩٣: ٢٥٤ / ٢٩؛ نورالثقلين ١: ٧٦ / ١٨١؛ البرهان ١: ٣٥٩.

(٣) العُنُق: الجماعة.

(٤) الزمر ٣٩: ١٠.

(٥) ابن كثير ١: ٢٠٢.

(٦) الخصال: ١٤٧ / ١٧٨.

(٧) عيون الأخبار ٢: ٤٩.

[٣٩٠٠/٢] وبالإسناد إلى عيسى بن جعفر العلويّ عن آبائه، عن عمر بن عليّ، عن أبيه عليّ بن أبي طالب عليه السلام أنّ النبيّ صلى الله عليه وآله قال: «علامة الصابر في ثلاث، أوّلها: أن لايكسل، والثانية: أن لايضجر، والثالثة: أن لايشكو من ربّه ـ عزّ وجلّ ـ؛ لأنّه إذا كسل فقد ضيّع الحقّ، وإذا ضجر لم يؤدّ الشكر، وإذا شكا من ربّه ـ عزّ وجلّ ـ فقد عصاه»(١).

[٣٩٠١/٢] وروى أبو جعفر الطوسي بالإسناد إلى أبي حمزه الثمالي، عن الإمام أبي جعفر الباقر، عن آبائه عليهم السلام قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «إذا كان يوم القيامة جمع الله ـ عزّ وجلّ ـ الخلائق في صعيد واحد، ونادى مناد من عند الله يسمع آخرُهم كما يسمع أوَّلُهم، يقول: أين أهل الصبر؟ قال: فيقوم عُنُق من الناس فتستقبلهم زمرة من الملائكة فيقولون لهم: ما كان صبرُكم هذا الّذي صبرتم؟ فيقولون: صبَّرنا أنفسنا على طاعة الله، وصبّرناها عن معصيته، قال: فينادي منادٍ من عند الله: صدق عبادي، خلّوا سبيلهم ليدخلوا الجنّة بغير حساب»(٢).

[٣٩٠٢/٢] وبالإسناد إلى أبي الحسن الثالث، عن آبائه عليهم السلام قال: قال الصادق عليه السلام في قول الله ـ عزّ وجلّ ـ: في قول يعقوب: ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾(٣) قال: بلا شكوى(٤).

[٣٩٠٣/٢] وروى الصدوق بالإسناد إلى سعد، عن البرقيّ عن أبيه رفعه قال: «سأل النبيّ صلى الله عليه وآله جبرئيل عليه السلام ما تفسير الصبر؟ قال: تصبر في الضرّاء كما تصبر في السرّاء، وفي الفاقة كما تصبر في الغنى، وفي البلاء كما تصبر في العافية، فلا يشكو خالقه عند المخلوق بما يصيبه من البلاء»(٥).

[٣٩٠٤/٢] وروى القمي بالإسناد إلى حفص قال: قال أبو عبدالله عليه السلام: «يا حفص، إنَّ من صَبَر صَبَر قليلاً وإنَّ من جَزَع جَزَع قليلاً. ثمّ قال: عليك بالصبر في جميع أمورك. فإنَّ الله بعث محمّداً صلى الله عليه وآله وأمره بالصبر والرفق فقال: ﴿وَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَاهْجُرْهُمْ هَجْراً جَمِيلاً﴾(٦) وقال: ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ السيّئة ﴿فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾(٧) فصبر رسول الله حتّى قابلوه بالعظام

(١) علل الشرائع ٢: ٤٩٨، باب ٢٥٣ (علّة علامات الصبر).
(٢) الأمالي للطوسي: ١٠٣/١٥٨ ـ ١٢.
(٣) يوسف ١٢: ١٨.
(٤) الأمالي للطوسي: ٢٩٤.
(٥) معاني الأخبار: ٢٦١.
(٦) المزّمّل ٧٣: ١٠.
(٧) فصّلت ٤١: ٣٤.

ورموه بها، فضاق صدره فأنزل الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ﴾[١] ثمّ كـذّبوه ورموه، فحزن لذلك فأنزل الله: ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللهِ يَجْحَدُونَ. وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَى مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّى أَتَاهُمْ نَصْرُنَا﴾[٢] فألزم نفسه الصبر ﷺ.

فتعدّوا وذكروا الله تبارك وتعالى وكذّبوه فقال رسول الله ﷺ: لقد صبرت في نفسي وأهـلي وعرضي ولا صبر لي على ذكرهم إلّهي، فأنزل الله: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّماوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ. فَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ﴾.[٣] فصبر ﷺ في جميع أحواله.

ثمّ بُشّر في الأئمّة عليهم السلام من عترته ووصفوا بالصّبر فقال: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَـمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُون﴾[٤] فعند ذلك قال ﷺ: «الصبر من الإيمان كالرأس من البدن»، فشكر الله له ذلك، فأنزل الله عليه: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ الْحُسْنَى عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ﴾[٥] فقال ﷺ: آية بشرى وانتقام، فأباح الله قتل المشركين حيث وُجدوا، فقتلهم على يدي رسول الله ﷺ وأحبّائه وعجّل له ثـواب صـبره مـع مـا ادّخـر له فـي الآخرة»[٦].

[٣٩٠٥/٢] وروى الصدوق بالإسناد إلى ابن سنان، عن أبي عبدالله عليه السلام قال: «إذا دخل المؤمن قبره كانت الصلاة عن يمينه، والزكاة عن يساره، والبرُّ مُطلٌ عليه ويتنحّى الصبر ناحية قال: فـإذا دخل الملكان اللّذان يليان مساءلته قال الصبر للصلاة والزكاة والبرّ: دونكم صاحبكم، فإن عجزتم عنه فأنا دونه»[٧].

[٣٩٠٦/٢] وروى البرقي عن أبيه عن النوفليّ، عن السكونيّ، عن أبي عبدالله عليه السلام قال: قال أميرالمؤمنين عليه السلام: «ثلاث من أبواب البرّ: سخاء النفس، وطيب الكلام، والصبر على الأذى»[٨].

[٣٩٠٧/٢] وروى الراوندي بالإسناد إلى الصدوق، عن أبيه، عن سعد، عن ابن عيسى، عن ابن

---

(١) الحجر ١٥: ٩٧.
(٢) الأنعام ٦: ٣٣ـ٣٤.
(٣) سورة ق ٥٠: ٣٨و٣٩.
(٤) السجده ٣٢: ٢٤.
(٥) الأعراف ٧: ١٣٧.
(٦) القمي ١: ١٩٦ـ١٩٧.
(٧) ثواب الأعمال: ١٧٠.
(٨) المحاسن ١: ٦.

أبي عمير، عن أبان بن عثمان، عن الحلبيّ، عن أبي عبدالله عليه السلام قال: «أوحى الله تعالى إلى داوود ـ صلوات الله عليه ـ أنَّ خلّادة بنت أوس بشِّرها بالجنَّة وأعلمها أنّها قرينتك في الجنّة. فانطلق إليها فقرع الباب عليها فخرجت وقالت: هل نزل فيّ شيء؟ قال: نعم، قالت: ما هو؟ قال: إنَّ الله تعالى أوحى إليّ وأخبرني أنّك قريني في الجنّة، وأن أبشّرك بالجنّة، قالت: أو يكون اسم وافق اسمي؟ قال: إنّك لأنت هي. قالت: يا نبيَّ الله ما أكذّبك، ولا والله ما أعرف من نفسي ما وصفتني به.

قال داوود عليه السلام: أخبريني عن ضميرك وسريرتك ما هو؟ قالت: أمّا هذا فسأخبرك به، أخبرك أنّه لم يصبني وجع قطّ نزل بي كائناً ما كان، ولا نزل ضُرّ بي وحاجة وجوع كائناً ما كان إلّا صبرتُ عليه، ولم أسأل الله كشفه عنّي حتّى يحوّله الله عنّي إلى العافية والسعة، ولم أطلب بها بدلاً، وشكرت الله عليها وحمدته، فقال داوود ـ صلوات الله عليه ـ: فبهذا بلغتِ ما بلغتِ.

ثمّ قال أبو عبدالله عليه السلام: وهذا دين الله الّذي ارتضاه للصالحين»(١).

[٣٩٠٨/٢] وجاء في كتاب «فقه الرضا» أنّه قال: «أروي أنَّ الصبر على البلاء حسن جميل، وأفضل منه الصبر عن المحارم.

وروي: إذا كان يوم القيامة نادى منادٍ أين الصابرون؟ فيقوم عنق من الناس فيقال لهم: اذهبوا إلى الجنّه بغير حساب، قال: فتتلقّاهم الملائكة فيقولون لهم: أيّ شيء كانت أعمالكم؟ فيقولون: كنّا نصبر على طاعة الله، ونصبر عن معصية الله، فيقولون: نِعْم أجر العاملين.

ونروي: أنَّ في وصايا الأنبياء صلوات الله عليهم: اصبروا على الحقّ وإن كان مرّاً.

وأروي: أنَّ اليقين فوق الإيمان بدرجة واحدة، والصبر فوق اليقين.

ونروي: أنّه من صبر للحقّ عوّضه الله خيراً ممّا صبر عليه.

ونروي: أنّ الله تبارك وتعالى أوحى إلى رسول الله صلى الله عليه وآله أنّي آخذك بمداراة الناس كما آخذك بالفرائض.

ونروي: أنَّ المؤمن أخذ عن الله ـ جلَّ وعزَّ ـ الكتمان، وعن نبيّه صلى الله عليه وآله مداراة الناس، وعن العالم عليه السلام(٢) الصبر في البأساء والضرّاء.

---

(١) قصص الأنبياء للراوندي: ٢٠٦ / ٢٦٨؛ البحار ٦٨: ٨٩ / ٤٢، و ٧١: ٩٧ / ٦٤؛ مشكاة الأنوار للطبرسي ١: ٥٠ ـ ٥١ / ٧٥ ـ ٢٢.

(٢) يعني به الإمام الكاظم عليه السلام كما في غيره من الأئمّة عليهم السلام.

وروي في قول الله ـ عزّ وجلّ ـ: ﴿اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا الله لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾[١] قال: ﴿اصْبِرُوا﴾ على طاعة الله وامتحانه، ﴿وَصَابِرُوا﴾ قال: ألزموا طاعة الرسول ومن يقوم مقامه ﴿وَرَابِطُوا﴾ قال: لاتفارقوا ذلك يعني الأمرين. و«لعلّ» في كتاب الله موجبة ومعناها أنّكم تفلحون.

وأروي عن العالم ﷺ: الصبر على العافية أعظم من الصبر على البلاء. يريد بذلك أن يصبر على محارم الله، مع بسط الله عليه في الرزق وتحويله النعم، وأن يعمل بما أمره به فيها.

ونروي: لايصلح المؤمن إلّا بثلاث خصال: الفقه في الدين، والتقدير في المعيشة، والصبر على النائبة»[٢].

[٣٩٠٩/٢] وجاء في كتاب «مصباح الشريعة» عن الصادق ﷺ قال: «الصبر يُظهر ما في بواطن العباد من النور والصفاء، والجزع يُظهر ما في بواطنهم من الظلمة والوحشة، والصبر يدَّعيه كلُّ أحد، ولا يثبت عنده إلّا المخبتون. والجزع ينكره كلّ أحد وهو أبين على المنافقين، لأنَّ نزول المحنة والمصيبة يُخبر عن الصادق والكاذب، وتفسير الصبر ما يستمرُّ مذاقه، وما كان عن اضطراب لايسمّى صبراً، وتفسير الجزع اضطراب القلب وتحزُّن الشخص وتغيّر السكون وتغيّر الحال. وكلّ نازلة خلت أوائلها من الإخبات والإنابة والتضرُّع إلى الله تعالى فصاحبها جزوع غير صابر.

والصبر ما أوَّله مرٌّ وآخره حلو، من دخله من أواخره فقد دخل ومن دخله من أوائله فقد خرج، ومن عرف قدر الصبر لايصبر عمّا منه الصبر، قال الله ـ عزّ وجلّ ـ في قصّة موسى والعبد الصالح: ﴿وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَى مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْراً﴾[٣] فمن صبر كرهاً ولم يشكُ إلى الخلق، ولم يجزع بهتك ستره، فهو من العامّ، ونصيبه ما قال الله ـ عزّ وجلّ ـ: ﴿وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ﴾[٤] أي بالجنّة والمغفرة، ومن استقبل البلاء بالرحب، وصبر على سكينة ووقار فهو من الخاصّ ونصيبه ما قال الله ـ عزّ وجلّ ـ: ﴿إِنَّ اللهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾[٥]»[٦].

---

(١) آل عمران ٣: ٢٠٠.
(٢) البحار ٦٨: ٨٩ـ ٩٠ / ٤٣.
(٣) الكهف ١٨: ٦٨.
(٤) البقرة ٢: ١٥٥.
(٥) الأنفال ٨: ٤٦.
(٦) مصباح الشريعة: ١٨٦؛ مسكن الفؤاد: ٥٩؛ البحار ٦٨: ٩٠ـ ٩١ / ٤٤.

[٣٩١٠/٢] وروى أبو عبدالله المفيد بالإسناد إلى آدم بن عيينة بن أبي عمران الهلالي قال: سمعت أبا عبدالله عليه السلام يقول: «كم من صبر ساعةٍ قد أورثت فرحاً طويلاً، وكم من لذّة ساعةٍ قد أورثت حزناً طويلاً»[1].

[٣٩١١/٢] وروى السبزاوي بالإسناد إلى الإمام عليّ بن موسى الرضا عليه السلام بإسناده، عن عليّ بن الحسين قال: «خمسة لو رحلتم فيهنّ لأصبتموهنّ: لا يخاف عبد إلّا ذنبه، ولا يرجو إلّا ربّه، ولايستحي الجاهل إذا سُئل عمّا لا يعلم أن يقول: لا أعلم، والصبر من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد، ولا إيمان لمن لا صبر له».

[٣٩١٢/٢] وقال عليّ عليه السلام: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «الصبر ثلاثة: صبر على المصيبة، وصبر على الطاعة، وصبر عن المعصية، فمن صبر على المصيبة أعطاه الله تعالى ثلاثمائة درجة، ما بين الدرجة إلى الدرجة ما بين السماء والأرض، ومن صبر على الطاعة كان له ستّمائة درجة، ما بين الدرجة إلى الدرجة ما بين الثرى إلى العرش، ومن صبر عن المعصية أعطاه الله سبعمائة درجة ما بين الدرجة إلى الدرجة ما بين منتهى العرش إلى الثرى مرّتين».

[٣٩١٣/٢] وقال أمير المؤمنين عليه السلام: «أيّها الناس عليكم بالصبر فإنّه لا دين لمن لا صبر له».

[٣٩١٤/٢] وقال عليه السلام: «إنّك إن صبرت جرَت عليك المقادير وأنت مأجور، وإنّك إن جزعت جرت عليك المقادير وأنت مأزور».

[٣٩١٥/٢] وعن أبي عبدالله عليه السلام قال: «الصبر رأس الإيمان».

[٣٩١٦/٢] وعنه عليه السلام قال: «الصبر من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد، فإذا ذهب الرأس ذهب الجسد، كذلك إذا ذهب الصبر ذهب الإيمان».

[٣٩١٧/٢] وقال رسول الله صلى الله عليه وآله حاكياً عن الله تعالى: «إذا وجّهتُ إلى عبدٍ من عبيدي مصيبة في بدنه أو ماله أو ولده، ثمّ استقبل ذلك بصبر جميل، استحييت منه أن أنصب له ميزاناً أو أنشر له ديواناً».

[٣٩١٨/٢] وسئل محمّد بن عليّ عليه السلام عن الصبر الجميل؟ فقال: «شيء لا شكوى فيه، ثمّ قال: وما في الشكوى من الفرج؟ فإنّما هو يحزن صديقك، ويفرح عدوّك!»

---

(١) الأمالي للمفيد: ٤١.

[٣٩١٩/٢] وقال أمير المؤمنين عليه السلام: «إنَّ الصبر وحسن الخلق والبرّ والحلم من أخلاق الأنبياء».

[٣٩٢٠/٢] وقال أيضاً: «إنّه سيكون زمان لا يستقيم لهم الملك إلّا بالقتل والجور، ولا يستقيم لهم الغنا إلّا بالبخل، ولا يستقيم لهم الصحبة في الناس إلّا باتّباع أهوائهم والاستخراج من الدين، فمن أدرك ذلك الزمان فصبر على الفقر وهو يقدر على الغنا، وصبر على الذلّ وهو يقدر على العزّ، وصبر على بِغضة الناس وهو يقدر على المحبّة، أعطاه الله ثواب خمسين صدّيقاً».

[٣٩٢١/٢] وقال النبيّ صلى الله عليه وآله: «من ابتُلي من المؤمنين ببلاء فصبر عليه كان له مثل أجر ألف شهيد».

[٣٩٢٢/٢] وقال عليه السلام: «الجزع عند البلاء تمام المحنة».

[٣٩٢٣/٢] وقال عليه السلام: «كلّ نعيم دون الجنّة حقير، وكلّ بلاء دون النار يسير»(١).

[٣٩٢٤/٢] وروى السيّد ابن طاووس في كتاب سعد السعود من تفسير أبي العبّاس ابن عقدة، عن عثمان بن عيسى، عن المفضّل [بن صالح]، عن جابر [بن يزيد الجعفي] قال: «قلت لأبي عبدالله عليه السلام: ما الصبر الجميل؟ قال: ذاك صبرٌ ليس فيه شكوى إلى الناس. إنَّ إبراهيم بعث يعقوب إلى راهب من الرهبان في حاجة، فلمّا رآه الراهب حسبه إبراهيم فوثب إليه فاعتنقه وقال: مرحباً بك يا خليل الرحمان! فقال يعقوب: لست بإبراهيم ولكنّي يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم. فقال له الراهب: فما بلغ بك ما أرى من الكبر؟ قال: الهمُّ والحزن والسقم. فما جاوز صغير الباب حتّى أوحى الله إليه، يا يعقوب شكوتني إلى العباد؟ فخرَّ ساجداً على عتبة الباب يقول: ربّ لا أعود، فأوحى الله إليه: إنّي قد غفرتها لك، فلا تعودنَّ لمثلها، فما شكى ممّا أصاب من نوائب الدُّنيا، إلّا أنّه قال: إنّما أشكو بثّي وحزني إلى الله وأعلم من الله ما لا تعلمون»(٢).

[٣٩٢٥/٢] قال الإمام أمير المؤمنين ـ عليه صلوات المصلّين ـ: «الصبر صبران: فالصبر عند المصيبة حسن جميل، وأحسن من ذلك الصبر عند ما حرّم الله عليك، والذكر ذكران: ذكر الله عزّ وجلّ عند المصيبة، وأكبر من ذلك ذكر الله عند ما حرّم الله فيكون ذلك حاجزاً»(٣).

[٣٩٢٦/٢] وروى الحسن بن شعبة الحرّاني بالإسناد إلى داوود بن فرقد، عن أبي عبدالله عليه السلام قال:

---

(١) جامع الأخبار: ٣١٥ـ٣١٧، فصل ٧١، في الصبر؛ البحار ٦٨: ٩١ـ٩٣/ ٤٦.

(٢) سعد السعود: ١١٩ ـ ١٢٠.

(٣) الكافي ٢: ٩٠/ ١١؛ الاختصاص: ٢١٨.

«أوحى الله تعالى إلى موسى بن عمران: ما خلقت خلقاً هو أحبُّ إليَّ من عبدي المؤمن. إنّي إنّما أبتليه لما هو خير له، وأزوي عنه لما هو خير له، وأعطيه لما هو خير له، وأنا أعلم بما يصلح عليه حال عبدي المؤمن، فليرض بقضائي، وليشكر نعمائي، وليصبر على بلائي أكتبه في الصدّيقين إذا عمل برضاي وأطاع لأمري».

[٣٩٢٧/٢] وأيضاً عنه عليه السلام قال: «إنَّ العبد ليكون له عند الله الدرجة لا يبلغها بعمله، فيبتليه الله في جسده أو يصاب بماله أو يصاب في ولده، فإن هو صبر بلّغه الله إيّاها».

[٣٩٢٨/٢] وعن أبي بصير، عن أبي عبدالله عليه السلام قال: «ما من مؤمن إلّا وهو مبتلى ببلاء، منتظر به ما هو أشدُّ منه، فإن صبر على البليّة الّتي هو فيها عافاه الله من البلاء الّذي ينتظر به، وإن لم يصبر وجزع نزل به من البلاء المنتظر أبداً حتّى يحسن صبره وعزاؤه».

[٣٩٢٩/٢] وعن الثُّمالي، عن أبي عبدالله عليه السلام قال: «من ابتلي من شيعتنا فصبر عليه كان له أجر ألف شهيد».

[٣٩٣٠/٢] وعن إسحاق بن عمّار، عن أبي عبدالله عليه السلام قال: «يا إسحاق لا تعدَّنَّ مصيبة أعطيت عليها الصبر واستوجبت عليها من الله ثواباً بمصيبة، إنّما المصيبة الّتي يحرم صاحبها أجرها وثوابها إذا لم يصبر عند نزولها».

[٣٩٣١/٢] وعن أحمد بن محمّد البرقي رفعه إلى أبي عبدالله عليه السلام قال: «قد عجز من لم يعدَّ لكلِّ بلاء صبراً، ولكلِّ نعمة شكراً، ولكلّ عسر يسراً، أصبر نفسك عند كلّ بلية ورزيّة في ولد أو في مال، فإنَّ الله إنّما يقبض عاريته وهبته، ليبلو شكرك وصبرك».

[٣٩٣٢/٢] وعن أبي بصير، عن أبي عبدالله عليه السلام قال: «إنَّ الله أنعم على قوم فلم يشكروا فصارت عليهم وبالاً، وابتلى قوماً بالمصائب فصبروا فصارت عليهم نعمة».

[٣٩٣٣/٢] وعنه عليه السلام قال: «لم يُستزد في محبوب بمثل الشكر ولم يُستنقص من مكروه بمثل الصبر».

[٣٩٣٤/٢] وعن ربعي، عن أبي عبدالله عليه السلام قال: «إنَّ الصبر والبلاء يستبقان إلى المؤمن فيأتيه البلاء وهو صبور، وإنَّ الجزع والبلاء يستبقان إلى الكافر فيأتيه البلاء وهو جزوع».

[٣٩٣٥/٢] وقال الإمام أمير المؤمنين عليه السلام: «إنَّ للنكبات غايات لابدَّ أن ينتهي إليها، فإذا حُكم

على أحدكم بها فليتطأطأ لها، ويصبر حتّى يجوز، فإنَّ إعمال الحيلة فيها عند إقبالها زائد في مكروهها».

[٣٩٣٦/٢] وكان يقول: «الصبر من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد، فمن لاصبر له لا إيمان له».

[٣٩٣٧/٢] وكان يقول: «الصبر ثلاثة: الصبر على المصيبة، والصبر على الطاعة، والصبر عن المعصية».

[٣٩٣٨/٢] وقال أبو عبدالله عليه السلام: «الصبر صبران: الصبر على البلاء حسن جميل، وأفضل منه الصبر على المحارم».

[٣٩٣٩/٢] وعن ابن أبي عمير قال: قال أبو عبدالله عليه السلام: «اتّقوا الله واصبروا فإنّه من لم يصبر أهلكه الجزع، وإنّما هلاكه في الجزع أنّه إذا جزع لم يؤجر».

[٣٩٤٠/٢] وعن جابر بن عبدالله أنَّ أمير المؤمنين عليه السلام قال: «من كنوز الجنّة البرّ وإخفاء العمل، والصبر على الرزايا، وكتمان المصائب»[١].

[٣٩٤١/٢] وروى قطب الدين: في كتابه الدعوات (الموسوم بسلوة الحزين) عن الإمام أمير المؤمنين ـ عليه صلوات المصلّين ـ قال: «صبرك على محارم الله أيسر من صبرك على عذاب القبر. من صبر على الله وصل إليه»[٢].

[٣٩٤٢/٢] وقال عليه السلام: الصبر صبران: «صبر على ما تكره، وصبر ممّا تحبُّ»[٣].

[٣٩٤٣/٢] وقال: «لايعدم الصبور الظفر، وإن طال به الزمان»[٤].

[٣٩٤٤/٢] وقال: «من لم ينجه الصبر أهلكه الجزع»[٥].

[٣٩٤٥/٢] وقال: «عند تناهي الشدَّة تكون الفرجة، وعند تضايق حلق البلاء يكون الرخاء»[٦].

[٣٩٤٦/٢] وروى أبو الفتح الكراجكي مرفوعاً إلى رسول الله صلى الله عليه وآله قال: «بالصبر يُتوقّع الفرج،

(١) هذه الروايات الخمس عشرة نقلها العلّامة المجلسي من كتاب التمحيص للحسن بن شعبة الحرّاني صاحب كتاب تحف العقول. أوردها في البحار ٦٨: ٩٤ ـ ٩٥.

(٢) البحار ٦٨: ٩٥ / ٦٠.

(٣) نهج البلاغة ٤: ١٤، قصار الكلم رقم ٥٥.

(٤) المصدر: ٤٠، رقم ١٥٣.

(٥) المصدر: ٤٣، قصار الكلم رقم ١٨٩.

(٦) المصدر: ٨٢، رقم ٣٥١.

ومن يُدمن قرع الباب يلج»[١].

[٣٩٤٧/٢] وقال أمير المؤمنين عليه السلام: «الصبر مطيّة لاتكبو، والقناعة سيف لاينبو»[٢].

[٣٩٤٨/٢] وقال: «أفضل العبادة الصبر والصمت وانتظار الفرج»[٣].

[٣٩٤٩/٢] وقال: «الصبر جُنّة من الفاقة»[٤].

[٣٩٥٠/٢] وقال: «من ركب مركب الصبر اهتدى إلى ميدان النصر»[٥].

[٣٩٥١/٢] وروى أبوالفضل الطبرسي مرفوعاً إلى الإمام الصادق عليه السلام قال: «إنَّ الحرَّ حرٌّ على جميع أحواله، إن نابته نائبة صبر لها، وإن تداكّت عليه المصائب لم تكسره، وإن أسر وقهر واستبدل بالعسر يسراً، كما كان يوسف الصدِّيق الأمين عليه السلام، لم يضرَّه حُزنه أن استُعبد وقُهر وأُسر، ولم تُضرِّره ظلمة الجبّ ووحشته، وما ناله أن منّ الله عليه فجعل الجبّار العاتي له عبداً، بعد أن كان مالكاً له، فأرسله فرحم به أُمّة، وكذلك الصبر يُعقب خيراً. فاصبروا تظفروا، وواظبوا على الصبر توجروا»[٦].

[٣٩٥٢/٢] وعن الإمام الباقر عليه السلام قال: «من صبر واسترجع وحمد الله عند المصيبة فقد رضي بما صنع الله، ووقع أجره على الله، ومن لم يفعل ذلك جرى عليه القضاء وهو ذميم وأحبط الله أجره»[٧].

[٣٩٥٣/٢] وعن أبي عبدالله عليه السلام قال: «المؤمن يُطبع على الصبر على النوائب»[٨].

[٣٩٥٤/٢] وعن الحلبيّ عن أبي عبدالله عليه السلام قال: «أوحى الله ـ عزّ وجلّ ـ إلى داوود عليه السلام أنَّ قرينك في الجنّة خلّادة بنت أوس فأتها وأخبرها وبشّرها بالجنّة وأعلمها أنّها قرينك في الآخرة.

فانطلق داوود عليه السلام إليها فقرع الباب عليها، فخرجت إليه. فقال: أنت خلّادة بنت أوس؟ قالت: يا نبيَّ الله لستُ بصاحبتك الّتي تطلب! قال لها داوود: ألست خلّادة بنت أوس من سبط كذا وكذا؟ قالت: بلى، قال: فأنتِ هي إذاً، فقالت: يا نبيَّ الله لعلَّ اسماً وافق اسماً؟ فقال لها داوود: ما كَذِبتُ ولاكُذبتُ، وإنّك لأنت هي، فقالت: يا نبيَّ الله ما أكذّبك ولا والله ما أعرف من نفسي ما وصفتني به.

قال لها داوود: خبّريني عن سريرتك ما هي؟ قالت: أمّا هذا فسأخبرك به: إنّه لم يصبني وجع

---

(١) كنز الفوائد: ٥٨؛ البحار ٦٨: ٩٦.

(٢) كنزالفوائد: ٥٨.

(٣) المصدر.

(٤) المصدر.

(٥) المصدر.

(٦) مشكاة الأنوار: ٥٨.

(٧) المصدر: ٥٩.

(٨) المصدر.

قطّ نزل بي من الله ـ تبارك وتعالى ـ كائناً ما كان، ولا نزل بي مرض أو جوع، إلّا صبرت عليه، ولم أسأل الله كشفه حتّى هو يكون الّذي يحوّله عنّي إلى العافية والسعة، لم أطلب بها بدلاً، وشكرتُ الله عليها وحمدته. قال لها داوود عليه السلام: فبهذا النعت بلغت ما بلغت.

ثمّ قال أبو عبدالله عليه السلام: هذا والله دين الله الّذي ارتضاه للصالحين»[١].

[٣٩٥٥/٢] وروى الحسين بن سعيد الأهوازي بإسناده، عن أحدهما عليهما السلام قال: «ما من عبد مسلم ابتلاه الله بمكروه وصبر إلّا كتب له أجر ألف شهيد»[٢].

[٣٩٥٦/٢] وعن أبي الحسن عليه السلام قال: «ما من أحد يبليه الله ـ عزّ وجلّ ـ ببليّة فصبر عليها إلّا كان له أجر ألف شهيد»[٣].

* * *

هذا وقد تقدّمت (ذيل الآية ٤٥) أكثر أحاديث السلف في الحثّ على الصبر والصلاة. ذكرناها. وإليك شذرات باقية منها:

[٣٩٥٧/٢] أخرج ابن جرير بالإسناد إلى أبي العالية، في قوله تعالى: ﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ﴾، قال: استعينوا بالصبر والصلاة على مرضاة الله، واعلموا أنّهما من طاعة الله[٤].

وعن الربيع قال: اعلموا أنّهما عون على طاعة الله[٥].

[٣٩٥٨/٢] وأخرج عن حذيفة، قال: «إنّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كان إذا حزبه أمرٌ فزع إلى الصلاة»[٦].

[٣٩٥٩/٢] وأخرج ابن أبي حاتم عن عبدالرحمان بن زيد قال: الصبر في بابين: الصبر لله بما أحبّ، وإن ثقل على الأنفس والأبدان، والصبر لله عمّا كره، وإن نازعت إليه الأهواء. فمن كان هكذا فهو من الصابرين الّذين يُسلَّم عليهم[٧] إن شاء الله تعالى[٨].

---

(١) المصدر: ٦٠. وقد مرّ الحديث برواية الراوندي من كتابه قصص الأنبياء.

(٢) كتاب المؤمن: ١٦؛ البحار ٦٨: ٩٧ / ٦٥.

(٣) البحار ٦٨: ٩٧ / ٦٥.

(٤) الطبري ٢: ٥٣ / ١٩٢٠.

(٥) المصدر / ١٩٢١.

(٦) ابن كثير ١: ٢٠٢؛ الطبري ١: ٣٧١ بعد رقم ٧١١، في تفسير سورة البقرة، الآية ٤٥. والحزّة: ألمٌ في القلب.

(٧) إشارة إلى قوله تعالى: ﴿سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ﴾، الرعد ١٣: ٢٤.

(٨) الدرّ ١: ١٥٩، ذيل الآية ٤٥ من سورة البقرة؛ ابن كثير ١: ٢٠٢.

[٢ / ٣٩٦٠] وأخرج عن سعيد بن جبير: الصبر اعتراف العبد لله بما أصاب منه، واحتسابه عند الله رجاء ثوابه، وقد يجزع الرجل وهو متجلّد لايُرى منه إلّا الصبر[١].

[٢ / ٣٩٦١] وأخرج عن مقاتل قال: استعينوا على طلب الآخرة بالصبر على الفرائض وبالصلوات الخمس في مواقيتها على تمحيص الذنوب[٢].

[٢ / ٣٩٦٢] وقال عطاء عن ابن عبّاس في قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ يقول: إنّي معكم أنصركم ولا أخذ لكم[٣].

[٢ / ٣٩٦٣] وأخرج مسلم عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: «مثل المؤمن كمثل الزرع لا تزال الريح تميله، ولا يزال المؤمن يصيبه البلاء. ومثل المنافق كمثل شجرة الأرز لا تهتزّ حتّى تستحصد»[٤].

[٢ / ٣٩٦٤] وأخرج ابن ماجة عن أنس بن مالك، عن رسول الله ﷺ، أنّه قال: «عِظَمُ الجزاء مع عِظَمِ البلاء وإنّ الله إذا أحبّ قوماً ابتلاهم، فمن رضي فله الرضا، ومن سخط فله السخط»[٥].

[٢ / ٣٩٦٥] وأخرج الترمذي عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «ما يزال البلاء بالمؤمن والمؤمنة في نفسه وولده وماله حتّى يلقى الله وما عليه خطيئة». قال: هذا حديث حسن صحيح[٦].

[٢ / ٣٩٦٦] وأخرج ابن أبي الدنيا في العزاء عن يونس بن يزيد قال: سألت ربيعة بن أبي عبدالرحمان: ما منتهى الصبر؟ قال: يكون يوم تصيبه المصيبة مثله قبل أن تصيبه[٧].

[٢ / ٣٩٦٧] وأخرج في كتاب الاعتبار عن عمربن عبدالعزيز. أنّ سليمان بن عبد الملك قال له عند موت ابنه: أيصبر المؤمن حتّى لا يجد لمصيبته ألماً؟ قال: يا أميرالمؤمنين لا يستوي عندك ما

---

(١) ابن أبي حاتم ١: ١٠٢ / ٤٨٥؛ الدرّ ١: ١٥٩، ذيل الآية ٤٥ من سورة البقرة؛ ابن كثير ١: ٢٠٢.

(٢) ابن أبي حاتم ١: ١٠٢ / ٤٨٣؛ الوسيط ١: ٢٣٥ ـ ٢٣٦. وراجع: التفسير ١: ١٥٠، وفيه بعض الاختلاف.

(٣) الوسيط ١: ٢٣٦.

(٤) مسلم ٨: ١٣٦، كتاب صفة القيامة والجنّة والنار؛ البغوي ١: ١٩٠ / ١١٤.

(٥) ابن ماجة ٢: ١٣٣٨ / ٤١٣١، باب ٢٣؛ البغوي ١: ١٨٩ / ١١٢.

(٦) الترمذي ٤: ٢٨ / ٢٥١٠، باب ٤٦؛ البغوي ١: ١٨٩ ـ ١٩٠ / ١١٣.

(٧) الدرّ ١: ٣٧٨.

أنصركم ولا أخذ لكم[١].

[٢/٣٩٦٢] وأخرج مسلم عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: «مثل المؤمن كمثل الزرع لا تزال الريح تميله، ولا يزال المؤمن يصيبه البلاء. ومثل المنافق كمثل شجرة الأُرز لا تهتزّ حتّى تستحصد»[٢].

[٢/٣٩٦٣] وأخرج ابن ماجة عن أنس بن مالك، عن رسول الله ﷺ، أنّه قال: «عِظَمُ الجزاء مع عِظَمِ البلاء وإنّ الله إذا أحبّ قوماً ابتلاهم، فمن رضي فله الرضا، ومن سخط فله السخط»[٣].

[٢/٣٩٦٤] وأخرج الترمذي عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «ما يزال البلاء بالمؤمن والمؤمنة في نفسه وولده وماله حتّى يلقى الله وما عليه خطيئة». قال: هذا حديث حسن صحيح[٤].

[٢/٣٩٦٥] وأخرج ابن أبي الدنيا في العزاء عن يونس بن يزيد قال: سألت ربيعة بن أبي عبدالرحمان: ما منتهى الصبر؟ قال: يكون يوم تصيبه المصيبة مثله قبل أن تصيبه[٥].

[٢/٣٩٦٦] وأخرج في كتاب الاعتبار عن عمربن عبدالعزيز. أنّ سليمان بن عبد الملك قال له عند موت ابنه: أيصبر المؤمن حتّى لا يجد لمصيبته ألماً؟ قال: يا أميرالمؤمنين لا يستوي عندك ما تحبّ وما تكره، ولكنّ الصبر مِعْوَل المؤمن[٦].

---

(١) الوسيط ١: ٢٣٦.

(٢) مسلم ٨: ١٣٦، كتاب صفة القيامة والجنّة والنار؛ البغوي ١: ١٩٠ / ١١٤.

(٣) ابن ماجة ٢: ١٣٣٨ / ٤١٣١، باب ٢٣؛ البغوي ١: ١٨٩ / ١١٢.

(٤) الترمذي ٤: ٢٨ / ٢٥١٠، باب ٤٦؛ البغوي ١: ١٨٩ ـ ١٩٠ / ١١٣.

(٥) الدرّ ١: ٣٧٨.

(٦) الدرّ ١: ٣٧٨؛ الاعتبار: ٤٢.

قال تعالى:

وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَكِنْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿١٥٤﴾

والآن، وعند نزول آيات القتال والمكافحة ضدّ أعداء الدين، جعلت الجماعة المسلمة تستعدّ للجهاد، جهاداً شاقّاً يستهدف إقرار منهج الله في الأرض، ولأداء دورها المقسوم لها في قدر الله. ولتسلم الراية والسير بها في الطريق الشاقّ الطويل، الآن يأخذ القرآن في تعبئتها تعبئة روحيّة، وفي تقويم تصوّرها لما يجري في أثناء هذا الجهاد من جذب ودفع، ومن تضحيات وآلام، وفي إعطائها الموازين الصحيحة الّتي تقدَّر بها القيم في هذه المعركة الطويلة المدى:

﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَاءٌ...﴾

نعم، الّذين يستشهدون في سبيل إعلاء كلمة الله في الأرض، حيث كانوا قتلى كراماً أعزّاء أزكياء. هم عادةً أكرم القلوب وأزكى الأرواح وأطهر النفوس، وأقرب إلى رضوان الله تعالى، و من ثمّ فإنّهم ليسوا أمواتاً ـ بمعنى الفناء والمحو عن صفحة الوجود ـ بل هم أحياء، حيث كانت سمة الحياة الأُولى هي الفاعليّة والنموّ والامتداد، وسمة الموت هي السلبيّة والخمول والانقطاع. وهؤلاء الّذين بذلوا نفوسهم في سبيل الله، كانت فاعليّتهم في نصرة الحقّ الّذي قتلوا من أجله فاعليّة مؤثّرة دائمة، والفكرة الّتي من أجلها قتلوا ترتوي بدمائهم على مدى الزمان. فما زالوا عنصراً فعّالاً دافعاً مؤثّراً في تكييف الحياة وتوجيهها.

[٣٩٧٢/٢] قال رسول الله ﷺ: «اغزوا تورثوا أبناءكم مجداً»[١].

[٣٩٧٣/٢] وقال عليّ ؏: «والله ما صلحت دنيا ولا دين إلّا بالجهاد»[٢].

قال سيّد قطب: وهذه هي صفة الحياة الأُولى. فهم أحياء أوّلاً بهذا الاعتبار الواقعي في دنيا الناس. ثمّ هم أحياء عند ربّهم ـ إمّا بهذا الاعتبار، وإمّا باعتبار آخر لاندري نحن كنهه. وحسبنا

---

(١) كما في حديث الإمام الصادق عنه ﷺ الوسائل ١٥: ١٥/ ١٦.

(٢) الكافي ٥: ٨/ ١١.

إخبار الله تعالى به: ﴿أَحْيَاءٌ وَلَكِنْ لَا تَشْعُرُونَ﴾. لأنّ كنه هذه الحياة فوق إدراكنا البشري القاصر المحدود. ولكنّهم أحياء. أحياء، ومن ثمّ لايُغسَّلون كما يُغسَّل الموتى، ويكفّنون في ثيابهم الّتي استشهدوا فيها. فالغسل تطهير للجسد الميّت وهم أطهار بما فيهم من حياة. وثيابهم في الأرض ثيابهم في القبر، لأنّهم بعدُ أحياء.

أحياء، فلا يشقّ استشهادهم على الأهل والأحبّاء والأصدقاء. أحياء يشاركون في حياة الأهل والأحبّاء والأصدقاء. أحياء، فلا يصعب فراقهم على القلوب الباقية خلفهم، ولايتعاظمها الأمر، ولايهولنّها عظم الفداء.

ثمّ هم بعد كونهم أحياء، مكرمون عند الله، مأجورون أكرم الأجر وأوفاه.

﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ أَمْوَاتاً بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ. فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ. يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِنَ اللهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ. الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلّهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقَوْا أَجْرٌ عَظِيمٌ. الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَاناً وَقَالُوا حَسْبُنَا اللهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ. فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِنَ اللهِ وَفَضْلٍ لَمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللهِ وَاللهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ﴾[(١)].

ولا أظنّ وصفاً أفخم ممّا وصف الله تعالى لمواضع الشهداء، بمثل ما جاءت به هذه الآيات من نعوت جميلة وحبوة من الله كريمة. فهم أحياء يتقلّبون في أحضان نعم الله الوافرة، ذكراً في هذه الحياة، وخلوداً في نعيم الآخرة.

[٣٩٧٤/٢] روى الإمام جعفر بن محمّد الصادق عن أبيه عن آبائه عليهم السلام أنّ النبيّ صلى الله عليه وآله قال: «فوق كلّ ذي برّ برّ حتّى يُقتل في سبيل الله، فإذا قُتل في سبيل الله فليس فوقه برّ»[(٢)].

[٣٩٧٥/٢] ومن ثمّ ورد في الحديث: «إنّ أفضل الخلق بعد الرسل والأوصياء هم الشهداء».[(٣)]

---

(١) آل عمران ٣: ١٦٩ ـ ١٧٥.

(٢) الوسائل ١٥: ١٦ ـ ١٧ / ١٩٩٢١ / ٢١؛ التهذيب ٦: ١٢٢ / ٢٠٩؛ الخصال: ٩ / ٣١؛ الكافي ٥: ٥٣ / ٢.

(٣) عن الإمام أمير المؤمنين عليه السلام البحار ٢٢: ٢٨٢ / ٤١ و ٣٢: ٢٧٤ / ٢١٢؛ الكافي ١: ٤٥٠ / ٣٤.

[٣٩٧٦/٢] وكانوا هم الشفعاء بعد الأنبياء والعلماء[١].

نعم كانت الشهادة في سبيل الله، فضيلة. لايدانيها فضيلة، وقد كان الأبرار يتمنّون الشـهادة، وكانوا يفضّلون ألف ضربة بالسيف على ميتة على فراش[٢].

* * *

ولكن من هو الشهيد ـ النائل بكرامة الله في الدارين ـ؟ إنّه الّذي يُقتل في سبيل، ابتغاء مرضاة الله، وإعلاءً لكلمة الله في الأرض! كما:

[٣٩٧٧/٢] روي عن النبيّ ﷺ وقد سئل عن الرجل يقاتل شجاعة، ويقاتل حميّة، ويقاتل رياءً، أيّ ذلك في سبيل الله؟ فقال: «من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا، فهو سبيل الله».

أخرجه مالك والشيخان[٣].

[٣٩٧٨/٢] وكذا قيل له ﷺ: يا رسول الله، رجل يريد الجهاد في سبيل الله وهو يبتغي عرضاً من الدنيا؟ فقال: «لا أجر له». فأعيد عليه ثلاثاً، كلّ ذلك يقول: «لا أجر له»[٤].

[٣٩٧٩/٢] وأخرج ابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير في قوله: ﴿لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللهِ﴾ قال: في طاعة الله في قتال المشركين[٥].

هل البقاء خاصّ بالشهداء؟

لا شكّ أنّ الشهادة في سبيل الله، شهادةً عن ابتغاء مرضاة الله، وإعلاءً لكلمة الله في الأرض، توجب الحياة الأبديّة، دنياً وآخرةً.

لكن هذا لايستدعي اختصاصاً بحقّه، حيث الأولياء والأصفياء أيضاً أحياء عند الله يرزقون

---

(١) البحار ٨: ٣٤ / ٢؛ الخصال ١: ١٥٦ / ١٩٧، أبواب الثلاثة.

(٢) الكافي ٥: ٥٣ / ٤، في حديث عليّ ﷺ. وقال: «إنّ الجهاد باب من أبواب الجنّة، فتحه الله لخاصّة أوليائه»، المصدر ٥: ٤ / ٦.

(٣) راجع: البخاري ١: ٤٠، و٨: ١٨٩؛ مسلم ٦: ٤٦؛ ابن ماجة ٢: ٩٣١ / ٢٧٨٤.

(٤) أبو داوود ١: ٥٦٥ / ٢٥١٦؛ الحاكم ٢: ٨٥؛ البيهقي ٩: ١٦٩.

(٥) الدرّ ١: ٣٧٥؛ ابن أبي حاتم ١: ٢٦٢ / ١٤٠٩.

ومتنعّمون برضوان الله أبديّاً.

حيث الموت ليس هو الفناء محضاً، وإنّما هو انتقال من دارٍ إلى دار. والحياة إنّما هي بالروح، والروح من أمر الله، لا فناء له، ولا سيّما من ذوي الأنفس الزكيّة. فهي باقية أبداً.

قال الشيخ أبوجعفر الصدوق ﷺ: اعتقادنا في الأرواح أنّها خُلقت للبقاء ولم تُخلق للفناء.

[٢/٣٩٨٠] لقول النبيّ ﷺ: «ما خُلِقْتُم للفناء، بل خُلِقْتُم للبقاء. وإنّما تُنْقَلون من دارٍ إلى دار»(١).

وأنّها في الأرض غريبة، وفي الأبدان مسجونة.

وأنّها إذا فارقت الأبدان فهي باقية، منها مُنعَّمة ومنها معذَّبة(٢).

* * *

والروايات بهذا الشأن كثيرة:

[٢/٣٩٨١] روى الإمام أبو محمّد العسكري عن آبائه عن الإمام موسى بن جعفر ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ لعليٍّ ﷺ: «ما خُلقت أنت ولا هم لدار الفناء، بل خلقتم لدار البقاء، ولكنّكم تنتقلون من دارٍ إلى دار»(٣).

[٢/٣٩٨٢] وقال الإمام أمير المؤمنين ـ عليه صلوات المصلّين ـ: «إنّ هذه الدنيا ـ الّتي أصبحتم تتمنّونها وترغبون فيها، وأصبحت تغضبكم وترضيكم، ليست بداركم ولا منزلكم الّذي خلقتم له»(٤).

[٢/٣٩٨٣] وقال: «إنّ الدنيا دار فناء، والآخرة دار بقاء. فخذوا من ممرّكم لمقرّكم... ففي الدنيا حُيِيتم، وللآخرة خلقتم...»(٥).

[٢/٣٩٨٤] وقال: «فللآخرة خلقتم، وفي الدنيا حبستم»(٦).

إلى غيرها من روايات و هي كثيرة.

* * *

غير أنّ الّذي ذكره الصدوق ﷺ ليس على إطلاقه إذ من الناس من يُلهىٰ عنهم كما ورد في

---

(١) البحار ٣٧: ١٤٦؛ تفسير الإمام: ١١٧ / ٦٠. (٢) الاعتقادات للصدوق: ٤٧ باب ٥١ (ج ٥ مصنّفات المفيد).

(٣) تفسير الإمام ١١٧ / ٦٠؛ البحار ٣٧: ١٤٦ / ٣٦. (٤) البحار ٣٢: ٢٠؛ نهج البلاغة ٢: ٨٧، الخطبة ١٧٣.

(٥) البحار ٧٠: ٨٨ / ٥٦؛ عيون الأخبار ١: ٢٩٧ و٢٩٨. (٦) البحار ٧٤: ٤١٨ / ٤٠؛ الإرشاد للمفيد ١: ٢٩٦.

الحديث أيضاً.

قال الشيخ أبو عبدالله المفيد: والّذي ثبت في هذا الباب، أنّ الأرواح بعد فراق الأجساد على ضربين: منها ما ينقل إلى الثواب والعقاب، ومنها مايبطل، فلايشعر بثواب ولاعقاب[١].

قلت: وبذلك ثبتت الرواية عن أئمّة أهل البيت.

[٣٩٨٥/٢] روى المفيد بالإسناد إلى أبي بكر الحضرمي عن الإمام أبي جعفر الباقر قال: «لايُسأَل في القبر إلّا من محض الإيمان محضاً، أو محض الكفر محضاً. قال الحضرمي: فقلت: فسائر الناس؟ فقال: يُلهىٰ عنهم»[٢].

[٣٩٨٦/٢] وروى الكليني بالإسناد إلى عبدالله بن سنان عن الإمام أبي عبدالله الصادق قال: «إنّما يُسأل في قبره من محض الإيمان أو الكفر محضاً. وأمّا ما سوى ذلك فيلهىٰ عنه»[٣].

وهكذا روى بالإسناد إلى الإمام أبي جعفر مثله.

[٣٩٨٧/٢] وكذا عن محمّدبن مسلم عن الصادق قال: «لايسأل في القبر إلّا من محض الإيمان محضاً، أو محض الكفر محضاً»[٤].

قال الشيخ أبو عبدالله المفيد: والّذي ثبت من الحديث في هذا الباب أنّ الأرواح بعد موت الأجساد على ضربين، منها: ما ينقل إلى الثواب والعقاب. ومنها: مايبطل فلايشعر بثواب ولا عقاب.

[٣٩٨٨/٢] قال: وقد روي عن الصادق ماذكرنا في هذا المعنى وبيّنّاه. فقد سئل عمّن مات في هذه الدار، أين تكون روحه؟ فقال: من مات وهو ماحض للإيمان محضاً أو ماحض للكفر محضاً، نقلت روحه من هيكله إلى مثله في الصورة[٥]، وجوزي بأعماله إلى يوم القيامة. فإذا بعث

(١) تصحيح الاعتقاد: ٨٨. (ج ٥ مصنّفات المفيد).

(٢) البحار ٦: ٢٣٥ / ٥٢؛ ورواه الكليني بنفس الإسناد، إلّا أنّه قال: والآخرون يلهى عنهم. الكافي ٣: ٢٣٧ / ٤٧٢٠، والبحار ٦: ٢٦٠ / ٩٧.

(٣) الكافي ٣: ٢٣٥ / ٤٧١٤؛ البحار ٦: ٢٦٠ / ٩٨.

(٤) الكافي ٣: ٢٣٦ / ٤٧١٦؛ البحار ٦: ٢٦٠ / ١٠٠.

(٥) هذا إشارة إلى الأبدان المثاليّة (المصطلح عنها بالأبدان البرزخيّة) وقد جاء ذكرها في لفيف من روايات الباب. وسنتعرّض لتفنيد هذا الرأي في مجاله إن شاء الله.

الله من في القبور أنشأ جسمه[(١)] وردّ روحه إلى جسده، وحشره ليوفّيه أعماله.

فالمؤمن تنتقل روحه من جسده [الدنيوي] إلى مثل جسده في الصورة [القالب المثالي]. فيجعل في جنّةٍ من جنان الله يتنعّم فيها إلى يوم المآب.

والكافر تنتقل روحه من جسده إلى مثله بعينه، فتجعل في نارٍ، فيعذَّب بها إلى يوم القيامة.

قال: وشاهد ذلك في المؤمن قوله تعالى: ﴿قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ. بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي﴾[(٢)]. وشاهد ذلك في الكافر قوله تعالى: ﴿وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ. النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوّاً وَعَشِيّاً وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ﴾[(٣)].

قال: فأخبر الله تعالى أنّ مؤمناً قال ـ بعد موته و قد أُدخل الجنّة ـ: يا ليت قومي يعلمون. وأخبر أنّ كافراً يعذَّب بعد موته غدوّاً وعشيّاً ويوم تقوم الساعة يخلد في النار.

قال: والضرب الآخر: من يُلهىٰ عنه وتُعْدَم نَفْسُه عند فساد جسمه[(٤)] فلا يَشْعر بشيء حتّى يُبعث، وهو: من لم يمحض الإيمان محضاً ولا الكفر محضاً.

قال: وقد بيّن الله تعالى ذلك عند قوله: ﴿إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا يَوْماً﴾[(٥)]. فبيّن أنّ قوماً عند الحشر لايعلمون مقدار لبثهم في القبور، حتّى يظنّ بعضهم أنّ ذلك كان عشراً[(٦)].

قال: وليس يجوز أن يكون ذلك عن وصف من عُذِّب إلى بعثه أو نُعِّم إلى بعثه. لأنّ من لم يزل منعَّماً أو معذَّباً لايُجهل عليه حاله فيما عومل به، ولا يلتبس عليه الأمر في بقائه بعد وفاته.

[٣٩٨٩/٢] قال: وقد روي عن الإمام أبي عبدالله عليه السلام أنّه قال: «إنّما يُسأَل في قبره من محض الإيمان محضاً أو محض الكفر محضاً. فأمّا ما سوى هذين فإنّه يُلهىٰ عنه»[(٧)].

* * *

قلت: وفي الأحاديث أيضاً شواهد على بقاء أرواح المؤمنين الأبرار، وأنّهم أحياء متنعّمون

---

(١) الّذي كان في الدنيا، وسنتكلّم عن ذلك عند الكلام عن المعاد الجسماني: ماذا يكون؟

(٢) يس ٣٦: ٢٦ـ٢٧. (٣) غافر ٤٠: ٤٥ـ٤٦.

(٤) التعبير بانعدام النَفْس يعني الفناء والفساد محضاً، الأمر الّذي يتنافى مع قوله بعد ذلك: فلايشعر بشيء حتّى يبعث. وسنذكر أنّ الصحيح هو العدم المحض بلا إعادة. (٥) طه ٢٠: ١٠٤.

(٦) ﴿يَتَخَافَتُونَ بَيْنَهُمْ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا عَشْراً﴾ طه ٢٠: ١٠٣. (٧) تصحيح الاعتقاد: ٨٨ـ ٩٠.

عند ربّهم يرزقون.

[٣٩٩٠/٢] قال رسول الله ﷺ: «من صلّى عَلَيَّ عند قبري سمعته. ومن صلّى عَلَيَّ من بعيد بُلِّغتُه»(١).

[٣٩٩١/٢] وقال: «من صلّى عَلَيَّ مرّةً صلّيت عليه عشراً. ومن صلّى عليّ عشراً صلّيت عليه مائة. فليكثر امرؤ منكم الصلاة عليّ أو يقلّ»(٢).

قال المفيد: فبيّن ﷺ أنّه بعد خروجه من الدنيا يسمع الصلاة عليه، ولايكون كذلك إلّا وهو حيّ عند الله تعالى. وكذلك أئمّة الهدى عليهم السلام يسمعون سلام المُسَلِّم عليهم من قُرب، ويبلغهم سلام من بُعد وبذلك جاءت الآثار الصادقة عنهم عليهم السلام(٣).

ذكر الشيخ تقيّ الدين الكفعمي في آداب زيارة النبيّ ﷺ أو أحد مشاهد الأئمّة عليهم السلام: قف عند الباب واستأذن للدخول بهذه الكلمات:

«اللّهمّ إنّي وقفت على باب من أبواب بيوت نبيّك ـ صلواتك عليه وآله ـ وقد منعت الناس أن يدخلوا إلّا بإذنه، فقلت: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ﴾(٤). اللّهمّ إنّي أعتقد حرمة صاحب هذا المشهد الشريف في غيبته، كما أعتقدها في حضرته، وأعلم أنّ رسولك وخلفاءك عليهم السلام أحياء عندك يرزقون، يرون مقامي ويسمعون كلامي ويردّون سلامي، وأنّك حجبت عن سمعي كلامهم وفتحت باب فهمي بلذيذ مناجاتهم...»(٥).

قوله: خلفاؤك، باعتبار أنّ خلفاء الرسول هم خلفاء الله في الأرض.

وفي كثير من الأدعية والزيارات وردت العبارة التالية:

«اللّهمّ بلّغ محمّداً منّي تحيّةً كثيرةً وسلاماً»(٦).

---

(١) المصدر: ٩١.

(٢) المصدر.

(٣) المصدر: ٩١ ـ ٩٢.

(٤) الأحزاب ٣٣: ٥٣.

(٥) المصباح: ٤٧٢ ـ ٤٧٣ فصل ٤١ في الزيارات؛ البحار ٩٧: ١٦٠/ ٤١؛ المزار للمحمّد بن المشهدي: ٥٥؛ المزار للشهيد الأوّل: ٦٤، أورده في زيارة أمير المؤمنين عليه السلام.

(٦) المزار للشيخ المفيد: ١٦١؛ إقبال الأعمال لابن طاووس ١: ٣٢٤؛ البحار ٩١: ٨٥ / ٥؛ ثواب الأعمال: ١٥٦؛ البحار ٨٣: ٩٦ / ٢.

«وأبلغ محمّداً عنّي تحيّة كثيرة طيّبة مباركةً وسلاماً»[١].

«اللّهمّ بلّغ روح محمّدٍ وآل محمّدٍ عنّي تحيّة وسلاماً»[٢].

وفي بعضها: طلب ردّ السلام منهم، باعتبار أنّهم أحياء.

روى السيّد ابن طاووس في باب الدعاء لمحمّد ﷺ لكشف المهمّات، جاء فيه: «اللّهمّ بلّغ روح محمّد وآل محمّد منّي التحيّة والسلام، واردد عليّ منهم، تحيّة كثيرةً وسلاماً»[٣].

[٣٩٩٢/٢] وهكذا روى بالإسناد إلى رسول الله ﷺ قال: «من آوى إلى فراشه ثمّ قرأ سورة الملك ثمّ قال: اللّهمّ ربّ الحلّ والحرم، بلّغ روح محمّد عنّي تحيّةً وسلاماً ـ أربع مرّات ـ وكّل الله به ملكين حتّى يأتيا محمّداً فيقولان: فلان يقرأ عليك السلام و رحمة الله. فيقول ﷺ: وعلى فلان السّلام ورحمة الله وبركاته»[٤].

[٣٩٩٣/٢] وكذا روى عليّ بن إبراهيم بالإسناد إلى عبدالرحيم القصير عن الإمام الصادق عليه السلام قال: إذا نزل بك أمر فافزع إلى رسول الله ﷺ وصلّ ركعتين تهديهما إليه، فإذا فرغت وسلّمت قلت: «اللّهمّ أنت السلام، ومنك السلام، وإليك يرجع السلام. اللّهمّ صلّ على محمّدو آل محمّد، وبلّغ روح محمّد منّي السلام، وأرواح الأئمّة الصادقين سلامي، واردد عَلَيَّ منهم السلام»[٥].

على أنّ في خطاب النبيّ عند ضريحه المقدّس بالسلام عليه، لدليلاً واضحاً على اعتقاد كونه حيّاً يرزق عند الله، يسمع الكلام ويردّ السلام.

[٣٩٩٤/٢] روى الكليني بالإسناد إلى شرحبيل الكندي عن الإمام أبي جعفر الباقر عليه السلام قال: إذا أردت أمراً تسأله ربّك، فتوضّأ وأحسن الوضوء، ثمّ صلّ ركعتين و عظّم الله وصلّ على النبيّ. وقل بعد التسليم: «اللّهمّ إنّي أسألك بأنّك مَلِك وأنت على كلّ شيء قدير مقتدر، وبأنّك ما تشاء من أمر يكون. اللّهمّ إنّي أتوجّه إليك بنبيّك محمّد نبيّ الرحمة. يا محمّد، يا رسول الله، إنّي أتوجّه بك إلى

---

(١) مصباح المتهجّد للطوسي: ٣٠١؛ جمال الأسبوع، لابن طاووس: ١٧١؛ البحار ٨٨: ١٨٠ / ٦؛ وفي الكافي ٢: ٥٤٦: «وأبلغ محمّداً عنّي تحيّة كثيرة وسلاماً».

(٢) وردت هذه العبارة في دعاء الإمام أبي عبدالله الحسين عليه السلام يوم عرفة. رواه السيّد ابن طاووس في الإقبال ٢: ١٠١؛ البحار ٩٥: ٢٣٢.

(٣) البحار ٨٣: ٨٩ / ١٢.

(٤) المصدر ٧٣: ٢١٥ / ٢٣.

(٥) الكافي ٣: ٤٧٦ / ١، باب صلاة الحوائج.

الله ربّك وربّي لينجح لي طلبتي. اللّهمّ بنبيّك أنجح لي طلبتي بمحمّد». قال: ثمّ سل حاجتك[١].

ثمّ ذكر شيخنا المفيد ﵀ أنّ أصحابنا الإماميّة اختلفوا في الّذي يُنعَّم أو يعذَّب بعد موته، فقال بعضهم هو الروح، الّذي توجّه إليه الأمر والنهي والتكليف، وسمّوه جوهراً. وقال آخرون: بل الروح الحياة، جُعلت في جَسَد كجسده في دار الدنيا!

قال: وكلا الأمرين يجوزان في العقل. والأظهر عندي قول من قال: إنّها الجوهر المخاطب، وهو الّذي يسمّيه الفلاسفة «البسيط».

وتعرّض لما دلّ على أنّ النبيّ والأئمّة ﵈ أحياء عند ربّهم يرزقون، على ما مرّ تفصيله و عقّبه بما:

[٣٩٩٥/٢] روي عن النبيّ ﷺ أنّه وقف على قليب بدر فخاطب قتلى المشركين هناك قائلاً: «لقد كنتم جيران سوءٍ لرسول الله ﷺ أخرجتموه من بلده و طردتموه، ثمّ اجتمعتم عليه فحاربتموه!! ثمّ قال: فقد وجدتُ ما وعدني ربّي حقّاً، فهل وجدتم ما وعدكم ربّكم حقّاً؟ فقال له عمر: ما خطابك لهامٍ قد صُديت؟![٢]

فقال له رسول الله ﷺ: مه يا ابن الخطّاب! فوالله ما أنت بأسمع منهم، وما بينهم وبين أن تأخذهم الملائكة بمقامع من الحديد، إلّا أن أعرض بوجهي هكذا (ولوى بوجهه الشريف) عنهم»[٣].

[٣٩٩٦/٢] وعن أمير المؤمنين ﵇ أنّه ركب بعد انفصال الأمر من حرب البصرة، فصار يتخلّل بين الصفوف حتّى مرّ على كعب بن سورة ـ وكان هذا قاضي البصرة، ولّاه إيّاها عمر بن الخطّاب، فأقام بها قاضياً بين أهلها زمن عمر و عثمان، فلمّا وقعت الفتنة بالبصرة علّق في عنقه مصحفاً وخرج بأهله وولده يقاتل أمير المؤمنين، فقتلوا بأجمعهم ـ فوقف عليه أمير المؤمنين ﵇ وهو صريع بين القتلى، فقال: «أجلسوا كعب بن سورة، فأُجلس بين نفسين. وقال له: يا كعب بن سورة، قد وجدتُ

---

(١) المصدر: ٤٧٨/٧.

(٢) الهام: الجثّة. وصُديت أي أصبحت جثّة هامدة بلا رواء.

(٣) تصحيح الاعتقاد: ٩٢؛ وانظر: البداية والنهاية لابن كثير ١: ١٣٧ ـ ١٣٨، ط: مصر.

ما وعدني ربّي حقّاً، فهل وجدت ما وعدك ربّك حقّاً؟ ثمّ قال: أضجعوا كعباً[١]. وسار قليلاً فمرّ بطلحة بن عبدالله صريعاً، فقال: أجلسوه فقال: يا طلحة، قد وجدتُ ما وعدني ربّي حقّاً، فهل وجدت ما وعدك ربّك حقّاً؟ ثمّ أمر بإضجاعه. فقال له بعض أصحابه: يا أميرالمؤمنين، ما كلامك لقتيلين لايسمعان منك؟! فقال: مه يا رجل، فوالله لقد سمعا كلامي كما سمع أهل القليب كلام رسول الله ﷺ».

قال المفيد: وهذا من الأخبار الدالّة على أنّ بعض من يموت تُرَدُّ إليه روحه لتنعيمه أو لتعذيبه، وليس بعامٍّ في كلّ من يموت[٢].

[٣٩٩٧/٢] وهكذا خطابه عليه السلام مع أهل القبور وقد رجع من صفّين فأشرف على القبور بظاهر الكوفة، قائلاً: «يا أهل الديار الموحشة، والمحالّ المقفرة، والقبور المظلمة، يا أهل التربة، يا أهل الغربة، يا أهل الوحدة، يا أهل الوحشة! أنتم لنا فَرَط[٣] سابق، ونحن لكم تَبَع لاحق، أمّا الدور فقد سُكنت، وأمّا الأزواج فقد نكُحت، وأمّا الأموال فقد قُسمت. هذا خبر ما عندنا، فما خبر ما عندكم؟»

ثمّ التفت إلى أصحابه فقال: أمَا لو أُذن لهم في الكلام لأخبروكم أنّ ﴿خير الزاد التقوى﴾»[٤].

[٣٩٩٨/٢] وروى الكليني بالإسناد إلى حبّة العرني[٥] قال: خرجت مع أميرالمؤمنين عليه السلام إلى الظّهر فوقف بوادي السلام[٦] كأنّه مخاطب لأقوام، فقمت بقيامه حتّى أعييت، فجلست وقمت عدّة مرّات، ثمّ قلت: يا أميرالمؤمنين، إنّي أشفقت عليك من طول القيام، فراحة ساعةٍ؟ فطرحت الرداء ليجلس عليه، فقال: «يا حبّة، إن هو إلّا محادثة مؤمن أو مؤانسته! قلت: يا أميرالمؤمنين، وإنّهم لكذلك؟ قال: نعم، ولو كشف لك لرأيتهم حِلَقاً حِلَقاً مُحتَبين[٧] يتحادثون! فقلت: أجسام أم أرواح؟ فقال: أرواح. وما من مؤمن يموت في بقعة من بقاع الأرض إلّا قيل لروحه: الحقي بوادي

---

(١) ذكر ابن أبي الحديد: أنّه عليه السلام خاطب كعباً بعد ما أُجلس، فقال: ويل أمّك! لقد كان لك علم لو نفعك، ولكنّ الشيطان أضلّك فأذلّك فعجّلك إلى النار. (شرح النهج ١: ٢٤١). (٢) تصحيح الاعتقاد: ٩٣.

(٣) الفَرَط: المتقدّم في الماء للارتواء. (٤) نهج البلاغة ٤: ٣١، قصار الكلم برقم ١٣٠.

(٥) هو أبو قدامة حبّة بن جوين العرني من أجلّة أصحاب عليّ عليه السلام و من شيعته النجباء.

(٦) مقبرة عظيمة بظهر الكوفة ممّا يلي النجف الأشرف. (٧) أي مجتمعين متمتّعين بالتحادث مع الأحبّاء.

السلام. وإنّها لبقعة من جنّة عدن»(١).

[٢/٣٩٩٩] و روى بالإسناد إلى أحمد بن عمر رفعه عن أبي عبدالله عليه السلام قال: قلت له: إنّ أخي ببغداد، وأخاف أن يموت بها! فقال: «ما تبالي حيثما مات، أما إنّه لايبقى مؤمن في شرق الأرض وغربها إلّا حشر الله روحه إلى وادي السلام! فقلت له: وأين وادي السلام؟ قال: ظهر الكوفة. أما إنّي كأنّي بهم حِلَق حلق قعود يتحدّثون»(٢).

* * *

وهكذا يدلّ على بقاء الروح بعد مفارقة الجسد، ما ورد من أنّ أرواح المؤمنين يزورون أهليهم صباح كلّ جمعة، ليروا ما يبتهجون به، وكذا بعض الأشقياء ليروا ما يكون حسرة عليهم(٣).

[٢/٤٠٠٠] روى الشيخ أبو جعفر الطوسي بالإسناد إلى عبدالله بن سليمان عن الإمام أبي جعفر الباقر عليه السلام قال: سألته عن زيارة القبور؟ قال: «إذا كان يوم الجمعة فزرهم، فإنّه من كان منهم في ضيق وسّع عليه ما بين طلوع الفجر إلى طلوع الشمس، يعلمون بمن أتاهم في كلّ يوم. فإذا طلعت الشمس كانوا سدى(٤). قلت: فيعلمون بمن أتاهم فيفرحون به؟ قال: نعم، ويستوحشون له إذا انصرف عنهم»(٥).

[٢/٤٠٠١] وروى الكليني بالإسناد إلى حفص بن البختري عن الإمام الصادق عليه السلام قال: «إنّ المؤمن ليزور أهله فيرى ما يحبّ، ويُستَر عنه ما يكره. وإنّ الكافر ليزور أهله فيرى ما يكره، ويُستر عنه ما يحبّ. قال: ومنهم من يزور كلّ جمعة، ومنهم من يزور على قدر عمله»(٦).

[٢/٤٠٠٢] وروى بالإسناد إلى أبي بصير عن الإمام الصادق عليه السلام قال: «ما من مؤمن ولا كافر إلّا وهو يأتي أهله عند زوال الشمس، فإذا رأى أهله بالصالحات حمد الله على ذلك. وإذا رأى الكافر

---

(١) الكافي ٣: ٢٤٣ / ٤٧٣٤، باب أرواح المؤمنين؛ البحار ٦: ٢٦٧ ـ ٢٦٨ / ١١٧.

(٢) الكافي ٣: ٢٤٣ / ٤٧٣٥؛ البحار ٦: ٢٦٨ / ١١٨. (٣) البحار ٦: ٢٥٦ ـ ٢٥٨.

(٤) يقال: إبل سُدَى وسَدَى: مسيَّبة تركت لشأنها ليكون معنى الحديث أنّ أرواح المؤمنين متقيّدة بمضاجعها إلى طلوع الشمس، وبعد ذلك يطلق سراحهم فيذهبون إلى حيث ترتاح لها نفوسهم وتطيب خاطرهم. فزائر القبور إن تأخّر إلى ما بعد طلوع الشمس لعلّه لايصادف حضور صاحب القبر ليرتاح به.

(٥) أمالي للطوسي: ٦٨٨ / ١٤٦٢ ـ ٥، المجلس ٣٩. (٦) الكافي ٣: ٢٣٠ / ٤٧٠٣ ـ ١، باب إنّ الميّت يزور أهله.

أهله يعملون الصالحات كانت حسرةً عليه»[١].

[٤٠٠٣/٢] وروى بالإسناد إلى إسحاق بن عمّار عن الإمام أبي الحسن الكاظم عليه السلام قال: «المؤمن يستأذن ربّه فيزور أهله على قدر منزلته وعلى قدر فضائله، كلّ يوم أو يومين أو ثلاثة أيّام، قال: وأدناهم منزلة يزور كلّ جمعة، عند الزوال. وربما في الشهر وفي السنة على قدر منزلته. فيرجع إلى قرّة عين»[٢].

[٤٠٠٤/٢] وروى السيّد ابن طاووس من كتاب أبي القاسم عبدالواحد بن عبدالله بن يونس الموصلي، قال: أخبرنا محمّد بن عليّ عن أبي جعفر بن عبدالجبّار عن إبراهيم بن عبدالحميد، قال: كان أبوالحسن موسى عليه السلام في دار أبيه فتحوّل منها بعياله. فقلت له: جُعلت فداك، أتحوّلت من دار أبيك؟ فقال: «إنّي أحببت أن أوسّع على عيال أبي، إنّهم كانوا في ضيق، فأحببت أن أوسّع عليهم حتّى يَعْلَمَ أنّي وسّعت على عياله!

قلت: جُعلت فداك، هذا للإمام خاصّة أو للمؤمنين؟ قال: هذا للإمام وللمؤمنين. ما من مؤمن إلّا وهو يُلمّ بأهله كلّ جمعة، فإن رأى خيراً حمد الله عزّ وجلّ وإن رأى غير ذلك استغفر واسترجع».

قال السيّد: هذا الحديث يقتضي أنّ أرواح المؤمنين بعد وفاتهم، بإذن الله ـ جلّ جلاله ـ لها أن تشاهد أهلها، ويكون ذلك من جملة كراماتهم[٣].

السواد المخترم

كان المتحصّل من كلام شيخنا المفيد رحمه الله: أنّ الضرب الآخر من الناس ممّن لم يمحض الإيمان ولا الكفر، أنّه يُلهى عنه وتُعْدَم نفسهُ عند فساد جسمه، فلايشعر بشيء حتّى يُبعث يوم القيامة[٤].

ولازم ذلك أنّ الإلهاء عنه محدود وينتهي بقيام الساعة، فيبعث ويعاد للحساب والجزاء.

---

(١) المصدر / ٤٧٠٤ـ٢.

(٢) مقتبس من ثلاث روايات كلّها عن الإمام أبي الحسن موسى عليه السلام. قوله: وأدناهم منزلة، لعلّ المراد: أوسطهم شأناً. انظر: الكافي ٣: ٢٣٠ ـ ٢٣١ / ٤٧٠٥ و ٤٧٠٦ و ٤٧٠٧؛ والبحار ٦: ٢٥٧ / ٩١ و ٩٢ و ٩٣.

(٣) سعد السعود: ٢٣٦؛ البحار ٦: ٢٥٨.

(٤) تصحيح الاعتقاد: ٨٩ (مصنّفات المفيد ٥).

ولعلّ هذا التحديد مستفاد من قوله تعالى: ﴿وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَداً﴾[1] غير أنّ الآية ناظرة إلى القوم الجحود ممّن أنكر المعاد وأعرض بجانبه عن قبول الحقّ وقد رفض شريعة السماء، فكانوا ممّن محضوا الكفر والعصيان محضاً وعاندوا وأصرّوا واستكبروا في الأرض استكباراً.

أمّا الّذي لم يمحض الإيمان ولم يمحض الكفر، فهو خارج عن محدودة الآية الكريمة.

نعم إنّ من الناس من يعيش لاهياً لايهمّه سوى بطنه وفرجه، ولايعبأ بدين ولاشريعة سوى ما حمّلته عليه بيئته الخاصّة، إن مسلماً أو غيره من سائر النحل أو لا دين له. فهو يعيش همجاً رعاعاً حسب مجرى المحيط الّذي يعيش فيه، لارأي له ولا اعتقاد، ولا عمل عن نيّة صادقة.

ولعلّ أكثرية الناس ـ من أتباع أيّ دين من الأديان ـ على هذا النمط غير الواعي، يعيشون عيشة سائر الأحياء من حيوان وبهائم وديدان. فكما يُلهى عن أولئك بالموت، كذلك يُلهى عن أناس لم يرتق مستواهم عن سائر الحيوان، فيلهى عنهم أبديّاً على غرار أشكالهم من الوحوش.

أمّا قوله تعالى: ﴿وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ﴾[2]. فلايعني البعث يوم النشور. بل هو من أشراط الساعة. قال تعالى: ﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ. وَإِذَا النُّجُومُ انكَدَرَتْ. وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ. وَإِذَا الْعِشَارُ عُطِّلَتْ. وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ. وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ﴾[3] وبقية الآيات تعني الحوادث يوم الحشر.

والمراد بحشر الوحوش: ذَعْرها ونُفُورها عند زلزلة الساعة لأنّ الحشر خروج متبعثر عن إزعاج ونفور وهكذا تذهل الوحوش عند حدوث أهوال قيام الساعة وتهيم لوجهها من شدّة الخوف. كما أنّ الجبال تدكدك وتُنْسف نسفاً من أهوالها.

قال ابن الأثير: وفي الحديث: «انقطعت الهجرة إلّا من ثلاث: جهادٍ أو نيّة أو حشر». أي جهاد في سبيل الله، أو نيّة يفارق بها الرجل الفسق والفجور إذا لم يقدر على تغييره، أو جلاء ينال الناس فيخرجون عن ديارهم.

قال: والحشر هو الجلاء عن الأوطان. وقيل: أراد بالحشر الخروج في النفير إذا عمّ[4].

قال الله بشأن بني النضير أجلاهم النبيّ ﷺ عن حصونهم: ﴿هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ مَا ظَنَنْتُمْ أَنْ يَخْرُجُوا وَظَنُّوا أَنَّهُمْ مَانِعَتُهُمْ حُصُونُهُمْ مِنَ اللهِ فَأَتَاهُمُ اللهُ مِنْ

---

(١) الكهف ١٨: ٤٧.
(٢) التكوير ٨١: ٥.
(٣) التكوير ٨١: ١ـ٦.
(٤) النهاية ١: ٣٨٨.

حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ...﴾[1].

كانوا عاهدوا النبيّ ﷺ ـ عند مقدمه إلى المدينه ـ أن لا يساندوا عـدوًّا له، فـنقضوا العـهد، فأجلاهم رسول الله ﷺ عن أوطانهم فتفرّقوا بعضاً إلى الشام وبعضاً إلى غيرها من سائر البلدان.

وعليه فحشر الوحوش تفرّقها ونفورها عن إزعاج داهمهم لدى أشراط الساعة.

وبعد فالكثرة من غوغاء الناس الهمج الرعاع. تنتهي حياتهم بالموت و تـفسد نـفوسهم مـع الأبد. إذ لا فائدة في بعثهم ولا إمكان مؤاخذتهم وهم على تلك الحالة البهيميّة العشواء.

ولعلّ ما ورد في الدُعاء المأثور من التعبير بالسواد المخترم، يعني هذا النمط من الناس.

[٢/٤٠٠٥] كما جاء في دعاء الإمام زين العابدين ﷺ كان إذا رأى جنازةً يقول: «الحمد لله الّذي لم يجعلني من السواد المخترم»[2].

والسواد من الناس عامّتهم أي من السواد الأعظم الّذين تذهب حياتهم سدى، ولا خلاق لهم في الآخرة.

قال العلّامة المجلسي ﷺ: ويمكن أن يُراد بالسَّواد عامّة الناس، أي لم يجعلني من عامّة الناس الّذين يموتون على غير بصيرة ولا استعداد للموت.

قال: والمخترم: الهالك أو المستأصل[3].

قال ابن الأثير: و في حديث ابن الحنفيّة: «كدتُ أن أكون السواد المخترم».

يقال: اخترمهم الدهر وتخرّمهم أي اقتطعهم واستأصلهم[4].

[٢/٤٠٠٦] وقال الإمام أمير المؤمنين ـ عليه صلوات المصلّين ـ: «فلا تعدَّن عيشاً منصرماً عيشاً. مالك منه إلّا لذّة تزدلف بك إلى حمامك، وتقرّبك من أجلك، فكأنّك قد صرت الحبيب المـفقود والسواد المخترم»[5].

السواد هنا: الشبح. يعني: قد صرت كالحبيب المفقود أثره. أو كالشبح يذهب عن البصر فلا شيء وراءه.

---

(١) الحشر ٥٩: ٢.

(٢) الدعوات للراوندي: ٢٦٠ / ٧٤٠؛ البحار ٧٨: ٢٦٦ / ٢٤.

(٣) البحار ٧٨: ٢٦٦ ـ ٢٦٧.

(٤) النهاية ٢: ٢٧.

(٥) تحف العقول: ٢٩٩؛ البحار ٧٥: ١٧٩ ـ ١٨٠ / ٥٩.

وإنسان هكذا ـ لابصيرة له في الحياة ـ يموت فيذهب سدى، مهملاً لا موضع له هناك أبداً. فقد انقطع أصله واستؤصل جذره.

يدلّنا على ذلك:

[٤٠٠٧/٢] ما رواه الكليني إلى أبي بكر الحضرميّ عن الإمام أبي جعفر الباقر عليه السلام قال: «قلت له: أصلحك الله، من المسؤولون في قبورهم؟ قال: من محض الإيمان و من محض الكفر! قال: قلت: فبقيّة هذا الخلق؟ قال: يُلهى ـ والله ـ عنهم، ما يُعْبَأُ بهم!»[1].

فقوله عليه السلام: «ما يُعبأ بهم!» إشارة إلى عدم الاهتمام بهم، إذ لا موضع لهم في مجال الاعتبار، بعد كونهم همج لا وزن لهم في الحياة. فلا يعتدّ بهم ولا يعتنى بشأنهم، كما لايعتنى بشأن الوحوش والبهائم والحشرات.

أبدان مثاليّة أم حواصل طيور؟

هل الأرواح، بعد مفارقتها الأجساد، تنتقل إلى أبدان برزخيّة تماثل أبدانها الدنيويّة، كما يبدو ذلك من كلام شيخنا المفيد رحمه الله؟ أم هي في حواصل طيور خضر، ترعى في الجنّة وتأوي إلى قناديل تحت العرش، كما رواه أصحاب الحديث؟

أم لا ذا ولاذاك، وأنّما الأرواح تستقلّ في تشكلّها في الحياة البرزخيّة، على هيأة أشكالها في الحياة الدنيا، من غير حاجة إلى نشأة أبدان مثاليّة ولا حواصل طيور خضر؟!

[٤٠٠٨/٢] روى الكليني عن عليّ بن إبراهيم بالإسناد إلى أبي ولّاد الحنّاط عن الإمام أبي عبدالله عليه السلام قال: قلت له: جُعلتُ فداك، يَرْوُون أنّ أرواح المؤمنين في حواصل طيور خُضْر حول العرش؟! فقال: «لا! المؤمن أكرم على الله من أن يُجعل روحه في حوصلة طير! ولكن في أبدان كأبدانهم»[2].

[٤٠٠٩/٢] و روى بالإسناد إلى يونس بن ظبيان قال: كنت عند أبي عبدالله عليه السلام فقال: «ما يقول الناس في أرواح المؤمنين؟ فقلت: يقولون: تكون في حواصل طيور خُضر في قناديل تحت العرش! فقال أبو عبدالله: سبحان الله! المؤمن أكرم على الله من أن يجعل روحه في حوصلة طير. يا

---

(١) الكافي ٣: ٢٣٧ / ٤٧٢٠؛ البحار ٦: ٢٦٢ / ١٠٤. (٢) الكافي ٣: ٢٤٤ / ٤٧٣٦؛ البحار ٦: ٢٦٨ / ١١٩.

يونس، إذا كان ذلك[1] أتاه محمّد وعليٌّ وفاطمة والحسن والحسين والملائكة المقرّبون عليهم السلام. فإذا قبضه الله، صيّر تلك الروح في قالب كقالبه في الدنيا، فيأكلون ويشربون، فإذا قدم عليهم القادم عرفوه بتلك الصورة الّتي كانت في الدنيا»[2].

[٢/٤٠١٠] وروى بالإسناد إلى زرعة عن أبي بصير قال: قلت لأبي عبدالله عليه السلام: إنّا نتحدّث عن أرواح المؤمنين أنّها في حواصل طيور خضر، ترعى في الجنّة وتأوي إلى قناديل تحت العرش؟ فقال: «لا، ما هي في حواصل طير! قلت: فأين هي؟ قال: في روضة كهيئة الأجساد في الجنّة»[3].

[٢/٤٠١١] وروى بالإسناد إلى ابن مسكان عن أبي بصير عن أبي عبدالله عليه السلام قال: «إنّ الأرواح في صفة الأجساد في شجرة في الجنّة، تعارف وتسائل، فإذا قدمت الروح على الأرواح تقول: دعوها فإنّها قد أفلتت من هولٍ عظيم.

ثمّ يسألونها: ما فعل فلان، وما فعل فلان؟ فإن قالت لهم: تركته حيّاً ارتجوه، وإن قالت لهم: قد هلك، قالوا: قد هوىٰ هوىٰ»[4].

[٢/٤٠١٢] وروى عن عليّ بن إبراهيم بالإسناد إلى محمّد بن عثمان عن أبي بصير عن أبي عبدالله عليه السلام قال: سألته عن أرواح المؤمنين؟ فقال: «في حجرات في الجنّة، يأكلون من طعامها ويشربون من شرابها، ويقولون: ربّنا، أقم لنا الساعة، وأنجزلنا ما وعدتنا، وألحق آخرنا بأوّلنا».[5] وهكذا رواه بالإسناد إلى مثنّى الحنّاط عن أبي بصير عن أبي عبدالله عليه السلام[6].

[٢/٤٠١٣] وروى بالإسناد إلى يونس بن يعقوب عن الصادق عليه السلام قال: «إذا مات المؤمن اجتمعوا [أي الأرواح] عنده يسألونه عمّن مضى وعمّن بقي، فإن كان مات ولم يرد عليهم قالوا: قد هوىٰ ويقول بعضهم لبعض: دعوه حتّى يسكن ممّا مرّ عليه من الموت»[7].

إلى غيرها من روايات وهي كثيرة في الباب. وهي تنفي أن تكون أرواح المؤمنين في حواصل طيور خُضر. لأنّه وهن بشأن المؤمن وهو أكرم على الله من أن يجعل ظرف مستقرّه طول البرزخ في

---

(١) يعني: إذا حضرته الوفاة.

(٢) الكافي ٣: ٢٤٥ / ٤٧٤١؛ البحار ٦: ٢٦٩ ـ ٢٧٠ / ١٢٤.

(٣) الكافي ٣: ٢٤٥ / ٤٧٤٢؛ البحار ٦: ٢٧٠ / ١٢٥.

(٤) الكافي ٣: ٢٤٤ / ٤٧٣٨؛ البحار ٦: ٢٦٩ / ١٢١.

(٥) الكافي ٣: ٢٤٤ / ٤٧٣٩؛ البحار ٦: ٢٦٩ / ١٢٢.

(٦) الكافي ٣: ٢٤٤ / ٤٧٣٧؛ البحار ٦: ٢٦٨ / ١٢٠.

(٧) الكافي ٣: ٢٤٤ / ٤٧٤٠؛ البحار ٦: ٢٦٩ / ١٢٣.

حوصلة طير، وهي كالمعدة للإنسان.

والّذي جاء في تعبير هذه الروايات: أنّهم في أبدان كأبدانهم[١].

أو في قالَبٍ كقالَبه في الدنيا[٢].

أو في روضة كهيئة الأجساد في الجنّة[٣].

أو في صفة الأجساد في شجرة في الجنّة[٤].

أو في حجرات في الجنة[٥].

قال العلّامة المجلسي: إنّ الّذي يظهر من الآيات الكثيرة والأخبار المستفيضة والبراهين القاطعة، هو أنّ النفس باقية بعد الموت، إمّا معذَّبة، إن كان ممّن محض الكفر، أو منعّمة إن كان ممّن محض الإيمان، أو يلهى عنه إن كان من المستضعفين.

قال: ثمّ تتعلّق الروح بالأجساد المثاليّة اللطيفة الشبيهة بأجسام الجنّ والملائكة، المضاهية في الصورة للأبدان الأصليّة، فينعَّم أو يعذَّب فيها.

قال: فالمراد بالقبر ـ في أكثر الأخبار ـ مايكون الروح فيه في عالم البرزخ. وهذا يتمّ على تجسّم الروح وتجرّده!

قال: وإن كان يمكن تصحيح بعض الأخبار بالقول بتجسّم الروح أيضاً، بدون الأجساد المثاليّة! لكن مع ورود الأجساد المثاليّة في الأخبار المعتبرة المؤيّدة بالأخبار المستفيضة، لا محيص عن القول بها[٦].

* * *

قلت: والأوفق بدليل الاعتبار وظهور اللفظ: أنّ الأرواح ـ بعد مفارقة الأجساد ـ تصبح مستقلّة في مزاولة الحياة البرزخيّة، من غير حاجة إلى أبدانٍ تحلّ فيها، ذلك لأنّها ـ كالملائكة ـ ذوات مجرّدة أو أجسام لطيفة، لها أن تتشكّل في أشكالها الدنيويّة.

وعليه فالتعبير بأنّها في روضةٍ في الجنّة كهيأة أجسادها في الدنيا، تعبير دقيق. وهكذا التعبير

(١) الكافي ٣: ٢٤٤ / ٤٧٣٦؛ البحار ٦: ٢٦٨ / ١١٩. (٢) الكافي ٣: ٢٤٥ / ٤٧٤١؛ البحار ٦: ٢٦٩ ـ ٢٧٠ / ١٢٤.

(٣) الكافي ٣: ٢٤٥ / ٤٧٤٢؛ البحار ٦: ٢٧٠ / ١٢٥. (٤) الكافي ٣: ٢٤٤ / ٤٧٣٨؛ البحار ٦: ٢٦٩ / ١٢١.

(٥) الكافي ٣: ٢٤٤ / ٤٧٣٩؛ البحار ٦: ٢٦٨ / ١٢٠. (٦) البحار ٦: ٢٧٠ ـ ٢٧١.

بأنّها في صفة الأجساد.

أمّا التعبير بأنّهم في أبدان كأبدانهم أو في قالبٍ كقالبه في الدنيا. فلعلّ المراد: أنّها في هيأة أبدانٍ كأبدانهم، وفي قالبٍ أي في تشكّل كقالبه في الدنيا. لا أنّها تحلّ في أبدانٍ أو في قوالب كما يفرّغ الفلذّ المذاب في قوالب.

فقول المجلسي ﷺ: تتعلّق الروح بأجسادٍ مثاليّة لطيفة نظير أجسام الملائكة والجنّ. لاموضع له بعد أن لم تكن للملائكة والجنّ أجسام وراء وجوداتها الذاتيّة المجرّدة.

وعليه فقوله الأخير بتجسّم الروح ذاتياً بلا حاجة إلى أجساد مثاليّة هو الأقرب والأوفق للاعتبار وظواهر التعابير الواردة في الروايات.

ويؤيّد ذلك أنّ الروايات خلو عن شأن أرواح الكفّار، بماذا تتعلّق بعد مفارقة الحياة؟!

فلابدّ أنّها تستقلّ في مزاولة حياتها البرزخيّة المعذّبة، وهكذا تستقلّ أرواح المؤمنين في حياتها البرزخيّة المنعّمة.

واستقصاء البحث بحاجة إلى مجال أوسع.

* * *

أمّا جسمانيّة المعاد، فتعني إنشاء أبدان لها من نفس العناصر الّتي كان تركّب منها أبدانهم في الحياة الدنيا، لا أنّ نفس الجسد الّذي فارقه وتركه في القبر، يعود عوداً. الأمر الّذي لا موضع له ولا هو ثابت بدليل، وسيأتي عنه الكلام مفصّلاً في مجاله المناسب.

وبذلك يمكننا دفع شبهاتٍ منها شبهة الآكل والمأكول وغيرها، ومن الله التوفيق.

وبعدُ، فإليك من روايات الباب غير الّتي سبقت:

[٤٠١٤/٢] أخرج مسلم بالإسناد إلى الأعمش عن عبدالله بن مرّة عن مسروق بن الأجدع، قال: سألنا عبدالله [ابن مسعود][(١)] عن هذه الآية: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ أَمْوَاتاً بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾[(٢)]؟ قال: أما إنّا قد سألنا عن ذلك[(٣)] فقال: «أرواحهم في جوف طير خُضر لها قناديل معلّقة بالعرش، تسرح من الجنّة حيث شاءت، ثمّ تأوي إلى تلك القناديل، فاطّلَعَ إليهم ربّهم

(١) كما صوّبه النووي في الشرح ١٣: ٣١.
(٢) آل عمران ٣: ١٦٩.
(٣) أي سألنا رسول الله ﷺ فهو حديث مرفوع.

اطّلاعةً، فقال: هل تشتهون شيئاً؟ قالوا: أيَّ شيءٍ نشتهي ونحن نسرح من الجنّة حيث شئنا! ففعل ذلك بهم ثلاث مرّات، فلمّا رأوا أنّهم لن يتركوا من أن يَسأَلوا، قالوا: يا ربّ، نريد أن يُردَّ أرواحنا في أجسادنا حتّى نُقتل في سبيلك مرّةً أخرى. فلمّا رأى أن ليس لهم حاجة تُركوا»(١).

حديث غريب ولاتخفى مواضع الغرابة منه!!

ورواه ابن كثير أيضاً بما يقرب منه:

[٤٠١٥/٢] إنّ أرواح الشهداء في حواصل طيور خُضر تسرح في الجنّة حيث شاءت، ثمّ تأوي إلى قناديل معلّقة تحت العرش، فاطّلع عليهم ربّك اطّلاعة فقال: ماذا تبغون؟ فقالوا: يا ربّنا وأيَّ شيء نبغي وقد أعطيتنا ما لم تُعط أحداً من خلقك؟ ثمّ عاد عليهم بمثل هذا، فلمّا رأوا أنّهم لايُتركون من أن يَسأَلوا، قالوا: نريد أن تردّنا إلى الدار الدنيا، فنقاتل في سبيلك حتّى نُقتل فيك مرّةً أخرى ـ لما يرون من ثواب الشهادة ـ! فيقول الربّ ـ جلّ جلاله ـ: إنّي كتبتُ أنّهم لايرجعون!

[٤٠١٦/٢] قال: وفي الحديث الّذي رواه أحمد عن الشافعي عن مالك عن الزُّهري عن عبدالرحمان بن كعب بن مالك عن أبيه، قال: قال رسول الله ﷺ: «نَسَمة المؤمن طائر تعلّق في شجر الجنّة حتّى يُرجعه الله إلى جسده يوم بعثه»، ففيه دلالة لعموم المؤمنين أيضاً، وإن كان الشهداء قد خصّصوا بالذكر في القرآن تشريفاً لهم وتكريماً وتعظيماً(٢).

وذكر النووي نقلاً عن القاضي قال: قال هنا أرواح الشهداء، وقال في حديث مالك: إنّما نَسَمة المؤمن، والنَسَمة تُطلق على ذات الإنسان جسماً وروحاً، وتطلق على الروح مفردةً، وهو المراد بها في هذا التفسير في الحديث الآخر بالروح. قال: ولعلمنا بأنّ الجسم يفنى ويأكله التراب. ولقوله في الحديث: حتّى يُرجعه الله تعالى إلى جسده يوم القيامة.

قال النووي: في هذا الحديث [الّذي رواه مسلم]: «في جوف طير خُضر». وفي غير مسلم: بطير خُضر. وفي حديث آخر: بحواصل طير. وفي الموطّأ: إنّما نَسَمة المؤمن طير. وفي حديث آخر عن قتادة: في صورة طير أبيض.

قال القاضي: قال بعض المتكلّمين: على هذا، الأشبه صحّة قول من قال: طير أو صورة

---

(١) مسلم ٦: ٣٨ـ ٣٩، باب أنّ أرواح الشهداء في الجنّة.

(٢) ابن كثير ١: ٢٠٣. والنَسَمة: نَفَس الروح.

طير[١]، وهو أكثر ما جاءت الرواية، لاسيّما مع قوله: تأوي إلى قناديل تحت العرش.

قال: واستبعد بعضهم هذا، ولم ينكره آخرون، وليس فيه ماينكر، ولافرق بين الأمرين، بل رواية طير أو جوف طير أصحّ معنىً، وليس للأقيسة والعقول في هذا حكم، وكلّه من المجوَّزات، فإذا أراد الله أن يجعل هذه الروح إذا خرجت من المؤمن أو الشهيد في قناديل أو أجواف طير أو حيث يشاء، كان ذلك ووقع ولم يبعد، لاسيّما مع القول بأنّ الأرواح أجسام[٢].

قلت: وهذا هو التحجّر الأشعري البحت، المتنافي مع شريعة العقل المتفتّحة؟!

* * *

وقال أبو عليّ الطَّبْرَسِيّ: لمّا أمر الله سبحانه بالصبر والصلاة للازدياد في القوّة (قوّة الإيمان) بهما على الجهاد، قال: ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَكِنْ لَا تَشْعُرُونَ﴾. فنهى أن يسمَّى من قُتل في الجهاد أمواتاً، بل أحياء. وفيه أقوال:

أحدها ـ وهو الصحيح ـ: أنّهم أحياء على الحقيقة إلى أن تقوم الساعة. وهو قول ابن عبّاس وقتادة ومجاهد. وإليه ذهب الحسن وعمرو بن عُبيد وواصل بن عطاء. واختاره الجبّائي والرمّاني وجميع المفسّرين.

الثاني: أنّ المشركين كانوا يقولون: إنّ أصحاب محمّد سوف يُقتلون في الحروب فيفنون عن آخرهم. فردّ الله عليهم بأنّهم سوف يحيون يوم القيامة ويثابون قاله البلخي.

الثالث: أنّهم أحياء بالطاعة والهدى، كما في قوله تعالى: ﴿أَوَمَنْ كَانَ مَيْتاً فَأَحْيَيْنَاهُ﴾[٣]. فجعل الضلال موتاً والهداية حياةً. قاله الأصمّ.

الرابع: أنّهم أحياء بجميل الذكر والثناء المتواصل.

[٢/٤٠١٧] كما قال الإمام أمير المؤمنين عليه السلام: «هلك خزّان الأموال، والعلماء باقون ما بقي الدهر؛ أعيانهم مفقودة، وآثارهم في القلوب موجودة»[٤].

قال الطبرسي: والمعتمد هو القول الأوّل، لأنّ عليه إجماع المفسّرين. ولأنّ الخطاب للمؤمنين

---

(١) أي الروح بذاتها تتشكّل بصورة طير، لاأنّها تحلّ في جوف طير. وهذا هو الّذي رجّحناه كما عرفت.

(٢) شرح النووي على مسلم ١٣: ٣١ ـ ٣٢. (٣) الأنعام ٦: ١٢٢.

(٤) نهج البلاغة ٤: ٣٦؛ قصار الحِكَم ١٤٧. وفيه «أمثالهم» بدل «آثارهم».

وكانوا يعلمون أنّ الشهداء على الحقّ والهدى، وأنّهم ينشرون يوم البعث، فلا يجوز أن يقال عنهم: ولكن لاتشعرون.

قال: ووجه تخصيص الشهداء بكونهم أحياء، وإن كان غيرهم من المؤمنين قد يكونون أحياء في البرزخ، أنّه على جهة التقديم بالبشارة.

قال: وأمّا المتنعّم بالحياة البرزخيّة، فإنّما هو الروح الّذي هو حقيقة الإنسان. فقد ذهب بعض أصحابنا إلى أنّه تعالى يجعل لهم أجساماً كأجسامهم في دار الدنيا يتنعّمون فيها، دون أجسامهم الّتي في القبور، فإنّ النعيم والعذاب إنّما يصل عنده إلى النفس الّتي هي الإنسان المكلّف عنده، دون الجثّة.

قال: ويؤيّد ذلك ما رواه الشيخ أبوجعفر في كتاب التهذيب مسنداً إلى عليّ بن مهزيار عن القاسم بن محمّد عن الحسين بن أحمد عن يونس بن ظبيان.

[٤٠١٨/٢] قال: كنت عند أبي عبدالله عليه السلام جالساً، فقال: ما يقول الناس في أرواح المؤمنين؟ قلت: يقولون: في حواصل طير خُضر في قناديل تحت العرش! فقال أبو عبدالله عليه السلام: «سبحان الله، المؤمن أكرم على الله أن يَجعل روحه في حوصلة طائر أخضر، يا يونس، المؤمن إذا قبضه الله تعالى صيّر روحه في قالَب كقالَبه في الدنيا، فيأكلون ويشربون، فإذا قدم عليهم القادم عرفوه بتلك الصورة الّتي كانت في الدنيا»[١].

[٤٠١٩/٢] وعنه عن ابن أبي عمير عن حمّاد عن أبي بصير قال: سألت أبا عبدالله عليه السلام عن أرواح المؤمنين؟ فقال: «في الجنّة على صور أبدانهم، لو رأيته لقلت: فلان»[٢].

قال: فأمّا على مذهب من قال من أصحابنا: إنّ الإنسان هذه الجملة المشاهدة، وأنّ الروح هو النَفَس المتردّد في مخارق الحيوان، وهو أجزاء الجوف، فالقول: أنّه يلطف أجزاء من الإنسان لايمكن أن يكون الحيّ حيّاً بأقلّ منها، يوصل إليها النعيم، وإن لم تكن تلك الجملة بكمالها، لأنّه لامعتبر بالأطراف وأجزاء السمن في كون الحيّ حيّاً، فإنّ الحيّ لايخرج بمفارقتها من كونه حيّاً!

قال: وربما قيل بأنّ الجثّة يجوز أن تكون مطروحة في الصورة، ولاتكون ميتة، فتصل إليها اللذّات، كما أنّ النائم حيّ وتصل إليه اللذّات، مع أنّه لايحسّ ولا يشعر بشيء من ذلك، فيرى في

---

(١) التهذيب ١: ٤٦٦/١٥٢٧ـ١٧٢. (٢) المصدر/١٥٢٦ـ١٧١.

النوم ما يجد به السرور والالتذاذ، حتّى أنّه يودّ أن يطول نومه فلاينتبه.

[٤٠٢٠/٢] وقد جاء في الحديث: «أنّه يُفسح له مدّ بصره ويقال له: نم نومة العروس»[١].

قال: وقوله: ﴿وَلَكِنْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ أي لاتعلمون أنّهم أحياء. وفي هذه الآية دلالة على صحّة مذهبنا في سؤال القبر وإثابة المؤمن فيه وعقاب العصاة، على ما تظاهرت به الأخبار[٢]. وإنّما حمل البلخي الآية على حياة الحشر، لإنكاره عذاب القبر![٣]

* * *

جاء في تفسير المنار: أنّه لابدّ أن تكون هذه الحياة (حياة الشهداء) حياةً خاصّة غير الّتي يعتقدها جميع الملّيين في جميع الموتى، من بقاء أرواحهم بعد مفارقة أشباحهم ولذلك ذهب بعض الناس إلى أنّ حياة الشهداء تتعلّق بهذه الأجساد، وإن فنيت أو احترقت أو أكلتها السباع أو الحيتان. وقالوا: إنّها حياة لانعرفها!

قال الشيخ محمّد عبده: ونحن نقول مثلهم: إنّنا لانعرفها، ونزيد أنّنا لانُثبت ما لانعرف!!

وقال بعضهم: إنّها حياة يجعل الله بها الروح في جسم آخر يتمتّع به ويرزق. ورووا في هذا روايات، منها الحديث المعروف وهو: «أنّ أرواح الشهداء عند الله في حواصل طيور خُضر تسرح في الجنّة»[٤].

---

(١) البحار ٦: ٢٠٤.

(٢) انظر: الكافي ٣: ٢٣٥ ـ ٢٤١، باب المسألة في القبر ومن يُسأل ومن لايُسأل.

(٣) مجمع البيان ١: ٤٣٧ ـ ٤٣٩.

(٤) ففي رواية مسلم (٦: ٣٨ ـ ٣٩) والترمذي (٤: ٢٩٨ ـ ٢٩٩ / ٤٠٩٨) من حديث ابن مسعود: «إنّها في حواصل طيور خضر تسرح من أنهار الجنّة حيث شاءت، ثمّ تأوي إلى قناديل تحت العرش...».

وفي رواية عبدالرزّاق (المصنّف ١: ٢٩٨ / ١٤٩) من حديث عبدالله بن كعب بن مالك: «إنّ أرواح الشهداء في صور طيور خُضر معلّقة في قناديل الجنّة حتّى يرجعها الله يوم القيامة إلى جسده»، ممّا يدلّ على أنّها محبوسة في مكان خاصّ، والأوّل يفيد أنّها مطلقة تسرح حيث تشاء. ثمّ إنّ لها مأوى تأوي إليه حين تشاء.

وفي رواية مالك (الموطّأ ١: ٢٤ / ٤٩) وأصحاب السنن، ماعدا أبا داوود: «أنّها في أجواف طيور خضر تعلف من ثمر الجنّة أو شجر الجنّة»!! (هامش المنار ٢: ٣٨).

قال الشيخ محمّد عبده ـ بعد ذكر الخلاف ـ: وقال بعض العلماء الباحثين في الروح: إنّ الروح إنّما تقوم بجسم لطيف «أثيري» في صورة هذا الجسم المركّب الّذي يكون عليه الإنسان في الدنيا، وبواسطة ذلك الجسم الأثيري تجول الروح في هذا الجسم المادّي، فإذا مات المرء وخرجت روحه، فإنّما تخرج بالجسم الأثيري، وتبقى معه، وهو جسم لايتغيّر ولا يتبدّل ولا يتحلّل. وأمّا هذا الجسم المحسوس فإنّه يتحلّل ويتبدّل في كلّ بضع سنين.

قال: ويقرب هذا القول من مذهب المالكيّة. فقد روي عن مالك أنّه قال: «أنّ الروح صورة كالجسد»، أي لها صورة، وما الصورة إلّا عرض، وجوهر هذا العرض هو الّذي سمّاه العلماء بالأثير. وإذا كان من خواصّ الأثير النفوذ في الأجسام اللطيفة والكثيفة ـ كما يقولون ـ حتّى أنّه هو الّذي ينقل النور من الشمس إلى طبقة الهواء، فلا مانع أن تتعلّق به الروح المطلقة في الآخرة، ثمّ هو يحلّ بها جسماً آخر تنعم به وترزق، سواء كان جسم طير أو غيره.

قال: وهذا القول يقرّب معنى الآية من العلم![1]

* * *

[٢ / ٤٠٢١] وهكذا أخرج ابن جرير بالإسناد إلى الربيع في قوله: ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَاءٌ﴾ قال: في صور طير خُضر، يطيرون في الجنّة حيث شاؤوا منها، يأكلون من حيث شاؤوا[2].

[٢ / ٤٠٢٢] وأخرج عبدالرزّاق في المصنّف عن عبدالله بن كعب بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «أرواح الشهداء في صُوَر طير خُضر معلّقة في قناديل الجنّة حتّى يُرجعها الله يوم القيامة»[3].

[٢ / ٤٠٢٣] وأخرج عبدالرزّاق عن معمر عن قتادة قال: بلغنا أنّ أرواح الشهداء في صور طير بيض تأكل من ثمار الجنّة، وقال الكلبي عن النبيّ ﷺ: «في صورة طير بيض تأوي إلى قناديل

---

(١) تفسير المنار ٢: ٣٨ـ٣٩. (٢) الطبري ٢: ٥٤ / ١٩٢٥.

(٣) الدرّ ١: ٣٧٦؛ المصنّف عبدالرزّاق ٥: ٢٦٤ / ٩٥٥٦؛ تفسير عبدالرزّاق ١: ٢٩٨ / ١٤٩، بلفظ: أنّ النبيّ ﷺ قال: «إنّ نسمة المؤمن طير تعلّق في شجر الجنّة حتّى يرجعها الله إلى جسده»؛ ابن كثير ١: ٢٠٣.

معلَّقة تحت العرش»[١].

[٤٠٢٤/٢] وأخرج ابن أبي شيبة والبيهقي في البعث والنشور عن كعب قال: جنّة المأوى فيها طير خُضر، ترتقي فيها أرواح الشهداء، تسرح في الجنّة[٢].

[٤٠٢٥/٢] وأخرج هنّاد بن السريّ في الزهد عن هزيل قال: أرواح الشهداء في أجواف طير خُضر، وأولاد المسلمين الّذين لم يبلغوا الحِنث عصافير من عصافير الجنّة، ترعى وتسرَح[٣].

[٤٠٢٦/٢] وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن قتادة ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَكِنْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ قال: ذكر لنا أنّ أرواح الشهداء تعارف في طير بيض تأكل من ثمار الجنّة، وأنّ مساكنهم السدرة، وأنّ الله أعطى المجاهد ثلاث خصال من الخير. من قتل في سبيل الله كان حيّاً مرزوقاً، ومن غلب آتاه الله أجراً عظيماً، ومن مات رزقه الله رزقاً حسناً[٤].

[٤٠٢٧/٢] وأخرج ابن أبي شيبة في المصنّف وابن جرير عن عكرمة في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللهِ أَمْوَاتٌ﴾ الآية. قال: أرواح الشهداء طير بيض فقاقيع في الجنّة[٥].

[٤٠٢٨/٢] وأخرج ابن أبي حاتم والبيهقي في شعب الإيمان عن أبي العالية في قوله: ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَاءٌ...﴾ قال: يقول: هم أحياء في صدور طير خُضر، يطيرون في الجنّة حيث شاؤوا، ويأكلون من حيث شاؤوا[٦].

[٤٠٢٩/٢] وأخرج مالك وأحمد والترمذي وصحّحه والنسائي وابن ماجة عن كعب بن مالك: أنّ

---

(١) الدرّ ١: ٣٧٥؛ عبدالرزّاق ١: ٢٩٨ / ١٤٧، نقلاً عن قتادة بلفظ: قال: إنّ أرواح الشهداء في صور طير بيض. و ١٤٨، نقلاً عن الكلبي بلفظ: في صور طير خضر تأكل من ثمار الجنّة وتأوي إلى قناديل تحت العرش؛ الطبري ٢: ٥٣ ـ ٥٤ / ١٩٢٤، نقلاً عن قتادة بلفظ: أرواح الشهداء في صور طير بيض.

(٢) الدرّ ١: ٣٧٥؛ المصنّف ٨: ٩٠ / ١٦٣، باب ١؛ البعث والنشور: ١٥٤ / ٢٠٦.

(٣) الدرّ ١: ٣٧٥؛ هنّاد (٣٦٦).

(٤) الدرّ ١: ٣٧٥ ـ ٣٧٦؛ الطبري ٢: ٥٣ / ١٩٢٣، وفيه: أنّ مساكنهم سدرة المنتهى.

(٥) الدرّ ١: ٣٧٥؛ المصنّف ٤: ٥٩٠ / ١٨٨، باب ١ (ماقالوا في فضل الجهاد)؛ الطبري ٢: ٥٤ / ١٩٢٦، بلفظ: أرواح الشهداء في طير خضر في الجنّة.

(٦) الدرّ ١: ٣٧٥؛ ابن أبي حاتم ١: ٢٦٣ / ١٤١٢؛ الشعب ٧: ١١٥ / ٩٦٨٦.

رسول الله ﷺ قال: «إنّ أرواح الشهداء في أجواف طير خضر تعلّق من ثمر الجنّة أو شجر الجنّة»[(١)].

[٤٠٣٠/٢] وأخرج ابن جرير عن عبدة بن سليمان بالإسناد إلى محمود بن لبيد عن ابن عبّاس قال: قال رسول الله ﷺ: «الشهداء على بارق نهر بباب الجنّة في قبّة خضراء» [أو قال عبدة: في روضة خضراء] يخرج عليهم رزقهم من الجنّة بكرة وعشيّاً»[(٢)].

[٤٠٣١/٢] وأخرج الثعلبي عن الحسن قال: إنّ الشهداء أحياء، عند الله تعالى تعرض أرزاقهم على أرواحهم فيصل الروح والفرح كما تعرض النار على أرواح آل فرعون غدوة وعشيّة فيصل إليهم الوجع[(٣)].

[٤٠٣٢/٢] وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن مجاهد في قوله ﴿بَلْ أَحْيَاءٌ﴾ قال: كان يقول: يرزقون من ثمر الجنّة، ويجدون ريحها وليسوا فيها[(٤)].

[٤٠٣٣/٢] وأخرج ابن جرير عن ابن بشّار السلمي أو أبي بشّار ـ شكّ أبو جعفر ـ قال: أرواح الشهداء في قباب بيض من قباب الجنّة في كلّ قبّة زوجتان، رزقهم في كلّ يوم طلعت فيه الشمس

---

(١) الدرّ ١: ٣٧٦؛ الموطّأ ١: ٢٤ / ٤٩، وفيه: «... كعب بن مالك كان يحدّث: أنّ رسول الله ﷺ قال: إنّما نسمة المؤمن طير يعلّق في شجر الجنّة، يرجعه الله إلى جسده يوم يبعثه»؛ مسند أحمد ٦: ٣٨٦؛ الترمذي ٣: ٩٦ / ١٦٩١، باب ١٣ (ما جاء في ثواب الشهيد)؛ النسائي ١: ٦٦٥ / ٢٢٠٠، باب ١١٧ (أرواح المؤمنين) بنحو ما رواه مالك؛ ابن ماجة ١: ٤٦٦ / ١٤٤٩، بلفظ: عن عبدالرحمان بن كعب بن مالك، عن أبيه، قال: لمّا حضرت كعباً الوفاة، أتته أمّ بشر بنت البراء بن معرور، فقالت: يا أبا عبدالرحمان، إن لقيت فلاناً فاقرأ عليه منّي السلام! قال: غفر الله لك يا أمّ بشر، نحن أشغل من ذلك. قالت: يا أبا عبدالرحمان، أما سمعت رسول الله ﷺ يقول: إنّ أرواح المؤمنين في طير خضر، تعلّق بشجر الجنّة؟؛ كنز العمّال ٤: ٣٩٩ / ١١١٠٧؛ الثعلبي ٢: ٢١ ـ ٢٢ بلفظ: إنّ أرواح الشهداء في أجواف طير خضر تسرح في ثمار الجنّة وتشرب من أنهارها وتأوي بالليل إلى قناديل من نور معلّقة تحت العرش.

(٢) الطبري ٢: ٥٥ / ١٩٢٧؛ مسند أحمد ١: ٢٦٦؛ الحاكم ٢: ٧٤، كتاب الجهاد؛ أبو الفتوح ٢: ٢٣٧، بتفاوت.

(٣) الثعلبي ٢: ٢٢؛ البغوي ١: ١٨٥.

(٤) الدرّ ١: ٣٧٦؛ الطبري ١: ٥٣ / ١٩٢٢؛ ابن أبي حاتم ٣: ٨١٣ / ٤٤٩٥، ذيل الآية ١٦٩ من آل عمران؛ أبو الفتوح ٢: ٢٣٧؛ القرطبي ٤: ٢٦٩، ذيل الآية ١٦٩ من سورة آل عمران.

ثور وحوت، فأمّا الثور ففيه طعم كلّ ثمرة في الجنّة، وأمّا الحوت ففيه طعم كلّ شراب في الجنّة[1].

[٤٠٣٤/٢] وأخرج أحمد عن شهر بن حوشب عن أبي هريرة أنّه قال: ذُكر الشهيد عند النبيّ ﷺ فقال: «لاتجفّ الأرض من دم الشهيد حتّى تبتدره زوجتاه كأنّهما ظئران أضلّتا فصيليهما ببراح من الأرض، بيد كلّ واحدة منهما حلّة خير من الدنيا وما فيها»[2].

[٤٠٣٥/٢] وعن مكحول عن كثير بن مرّة عن قيس الجدامي [رجل كانت له صحبة] قال: قال النبيّ ﷺ: «يعطى الشهيد ستّ خصال: عند أوّل قطرة من دمه يكفّر عنه كلّ خطيئة، ويرى مقعده من الجنّة، ويزوّج من الحور العين، ويؤمن من الفزع الأكبر، ومن عذاب القبر، ويحلّى حلّة الإيمان»[3].

[٤٠٣٦/٢] وأخرج النسائي والحاكم وصحّحه عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «يؤتى بالرجل من أهل الجنّة فيقول الله له: يا ابن آدم كيف وجدت منزلك؟ فيقول: أي ربّ خير منزل. فيقول: سل وتمنّ. فيقول: وما أسألك وأتمنّى؟ أسألك أن تردّني إلى الدنيا فأُقتل في سبيل الله عشر مرّات! لما يرى من فضل الشهادة»[4].

[٤٠٣٧/٢] وأخرج أحمد ومسلم والنسائي والحاكم عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «يؤتى بالرجل من أهل الجنّة فيقول الله له: يا ابن آدم كيف وجدت منزلك؟ فيقول: أي ربّ خير منزل. فيقول: سل و تمنّه. فيقول: ما أسألك وأتمنّى؟ أسألك أن تردّني إلى الدنيا فأُقتل في سبيلك عشر مرّات. لما رأى من فضل الشهادة.

قال: ويؤتى بالرجل من أهل النار، فيقول الله: يا ابن آدم! كيف وجدت منزلك؟ فيقول: أي ربّ، شرّ منزل. فيقول: فتفتدي منه بطلاع الأرض ذهباً؟ فيقول: نعم. فيقول: كذبت قد سألتك

(١) الطبري ٢: ١٩٢٨/٥٥؛ الدرّ ١: ٣٧٤، سورة آل عمران.

(٢) مسند أحمد ٢: ٢٩٧؛ أبوالفتوح ٢: ٢٣٨.

(٣) مسند أحمد ٤: ٢٠٠؛ الثعلبي ٢: ٢٢؛ أبوالفتوح ٢: ٢٣٨، عن عبادة بن الصامت عن النبيّ ﷺ، بزيادة فيه.

(٤) الدرّ ١: ٣٧٦؛ النسائي ٣: ٢٤ ـ ٤٣٦٨/٢٥؛ الحاكم ٢: ٧٥، كتاب الجهاد؛ كنزالعمّال ٤: ١١١٣٥/٤٠٦؛ ابن كثير ١: ٣٨٨ ذيل الآية ٩١ من آل عمران.

دون ذلك فلم تفعل»[١].

[٤٠٣٨/٢] وروى الشيخ أبو جعفر الطوسي بالإسناد إلى يونس بن ظبيان قال: كنت عند أبي عبدالله عليه السلام جالساً فقال: ما يقول الناس في أرواح المؤمنين؟ قلت: يقولون: تكون في حواصل طيور خُضر في قناديل تحت العرش! فقال أبو عبدالله عليه السلام: «سبحان الله! المؤمن أكرم على الله من أن يجعل روحه في حوصلة طائر أخضر، يا يونس، المؤمن إذا قبضه الله تعالى صيّر روحه في قالب كقالبه في الدنيا فيأكلون ويشربون، فإذا قدم عليهم القادم عرفوه بتلك الصورة الّتي كانت في الدنيا»[٢].

[٤٠٣٩/٢] وعن ابن أبي عمير عن حمّاد عن أبي بصير قال: سألت أبا عبدالله عليه السلام عن أرواح المؤمنين؟ فقال: «في الجنّة على صُوَر أبدانهم لو رأيته لقلت فلان»[٣].

[٤٠٤٠/٢] وفي الحديث: أنّه يُفسَح له مَدَّ بصره، ويقال له: نم نومة العروس![٤]

---

(١) مسند أحمد ٣: ١٣١، إلى قوله: فضل الشهادة، والباقي في الصفحة ٢٠٨؛ النسائي ٣: ٢٥ / ٤٣٦٨؛ الحاكم ٢: ٧٥؛ البرهان ١: ٣٦٠ / ٣؛ الدُّر ١: ٣٧٦، إلى قوله: فضل الشهادة؛ الدُّر ٢: ٣٧٧، ذيل الآية ١٧١ من سورة آل عمران.

(٢) التهذيب ١: ٤٦٦ / ١٥٢٦ ـ ١٧١، باب ٢٣ (تلقين المحتضرين)؛ الكافي ٣: ٢٤٥ / ٤٧٤١ ـ ٦، كتاب الجنائز، باب آخر في أرواح المؤمنين؛ نورالثقلين ١: ١٤٢ و ٣: ٥٥٩ / ١٣٨، سورة المؤمنون؛ مجمع البيان ١: ٤٣٨ ـ ٤٣٩؛ البرهان ١: ٣٥٩ ـ ٣٦٠ / ١؛ البحار ٦: ٢٢٩ / ٣٢، أبواب الموت، باب ٨؛ الزهد للحسين بن سعيد الكوفي: ٨٩ / ٢٤١.

(٣) نورالثقلين ١: ١٤٢ / ٤٤٤؛ مجمع البيان ١: ٤٣٩؛ البرهان ١: ٣٦٠ / ٢؛ الصافي ١: ٣٠٦؛ التهذيب ١: ٤٦٦ / ١٥٢٧ ـ ١٧٢، باب ٢٣.

(٤) مجمع البيان ١: ٤٣٩؛ الكافي ٣: ١٣١ / ٤، كتاب الجنائز، باب مايعاين المؤمن والكافر. ولها صدر وذيل طويل، بلفظ: «ثمّ يفسح له عن أمامه مسيرة شهر وعن يمينه وعن يساره ثمّ يقال له: نم نومة العروس»؛ الزهد للحسين بن سعيد الكوفي: ٨٢ / ٢١٩، (بلفظ الكافي)؛ البحار ٦: ١٩٨ / ٥١، باب ٧. عن الكافي وبلفظه. وعن كتاب الحسين بن سعيد؛ فتح الباري ٣: ١٨٩.

قال تعالى:

وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ ﴿١٥٥﴾ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ ﴿١٥٧﴾

وإذ جاء ذكر الشهداء ورفيع منزلتهم عند الله كانت المناسبة تستدعي المضيّ في بيان التعبئة لمواجهة الأحداث ـ وهي متوافرة في هذه الحياة ـ وفي تقويم التصوّر لحقيقة الأحداث ـ و لعلّ وراءها مصلحة وحكمة ومن ثمّ فإنّ البلاء موكّل بالأنبياء ثمّ الأمثل فالأمثل[1] فلابدّ من تربية النفوس بالبلاء، ومن امتحان التصميم على معركة الحقّ بالمخاوف والشدائد، وبالجوع ونقص الأموال والأنفس والثمرات لابدّ من هذا البلاء ليؤدّي المؤمنون تكاليف العقيدة، كي تعزّ على نفوسهم بمقدار ما أدّوا في سبيلها من تكاليف. أمّا العقائد الرخيصة الّتي لايؤدّي أصحابها تكاليفها لايعزّ عليهم التخلّي عنها عند الصدمة الأُولى. فالتكاليف هنا هي الثمن النفسي الّذي تعزّ به العقيدة في نفوس أهلها قبل أن تعزّ في نفوس الآخرين.

نعم، لابدّ من البلاء، ليصلب عود أصحاب العقيدة ويقوى. فالشدائد تستجيش مكنون القوى ومذخور الطاقة، وتفتح في القلب منافذ ومسارب ماكان ليعلمها المؤمن في نفسه إلّا تحت مطارق الشدائد. والقيم والموازين والتصوّرات ماكانت لتصحّ وتدقّ وتستقيم إلّا في جوّ المحنة الّتي تزيل الغبش عن العيون والران عن القلوب!

وأهمّ من هذا كلّه، أو القاعدة الأساسيّة لهذا كلّه، الالتجاء إلى الله وحده، حين تهتزّ الأسناد كلّها، وتتوارى الأوهام وهي شتّى، ويخلو القلب إلى الله وحده، لايجد سنداً إلّا سنده. وفي هذه اللحظة فقط تنجلي الغشاوات، وتنفتح البصيرة، وينجلي الأفق على مدّ البصر، لاشيء إلّا الله، لاقوّة

(١) البحار ١١: ٦٩ / ٢٩؛ مسند أحمد ١: ١٧٢؛ الكافي ٢: ٢٥٩ / ٢٩؛ النسائي ٤: ٣٥٢ / ٧٤٨١؛ علل الشرائع ١: ٤٤ / ١، باب ٤٠.

إلّا قوّته، لاحول إلّا حوله، لا إرادة إلّا إرادته، لا ملجأ إلّا إليه وعندئذٍ تلتقي الروح بالحقيقة الواحدة الّتي يقوم عليها تصوّر صحيح!

والنصّ القرآني هنا يصل بالنفس إلى هذه النقطة على الأفق:

﴿وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ. الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾.

إنّا لله، كلّنا، كلّ ما فينا، كلّ كياننا وذاتيّتنا لله وإليه المرجع والمآب في كلّ أمر، وفي كلّ مصير، التسليم، التسليم المطلق، تسليم الالتجاء الأخير المنبثق من الالتقاء وجهاً لوجه بالحقيقة الوحيدة، وبالتصوّر الصحيح.

هؤلاء هم الصابرون، الّذين يبلغهم الرسول الكريم بالبشرى من المنعم الجليل وهؤلاء هم الّذين يُعلن المنعم الجليل مكانهم عنده جزاءً بالصبر الجميل:

﴿أُوْلَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ﴾.

صلوات من ربّهم، يرفعهم بها إلى المشاركة في نصيب نبيّه الّذي يصلّي عليه هو وملائكته سبحانه، وهو مقام كريم، ورحمة، وشهادة من الله بأنّهم هم المهتدون وكلّ أمر من هذه هائل عظيم!![1]

وهكذا جاء في الآثار عن السلف الصالح:

[٢/٤٠٤١] أخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والطبراني والبيهقي في شعب الإيمان عن ابن عبّاس في قوله: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم﴾ الآية. قال: أخبر الله المؤمنين أنّ الدنيا دار بلاء، وأنّه مبتليهم فيها وأمرهم بالصبر، وبشّرهم فقال: ﴿وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ﴾. وأخبر أنّ المؤمن إذا سلّم لأمر الله ورجّع واسترجع عند المصيبة كتب الله له ثلاث خصال من الخير: الصلاة من الله، والرحمة، وتحقيق سبل الهدى.

وقال رسول الله ﷺ: «من استرجع عند المصيبة جبر الله مصيبته، وأحسن عقباه، وجعل له خَلَفاً صالحاً يرضاه»[2].

---

(١) راجع: في ظلال القرآن ١: ٢٠٢ ـ ٢٠٤.

(٢) الدرّ ١: ٣٧٦ ـ ٣٧٧؛ الطبري ٢: ٥٦ و ٥٨ ـ ٥٩ / ١٩٢٩ و ١٩٣٢؛ ابن أبي حاتم ١: ٢٦٣ و ٢٦٤ ـ ٢٦٥ / ١٤١٦ و ←

[٤٠٤٢/٢] وأخرج عن الربيع في قوله: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ﴾ قال: قد كان ذلك وسيكون ما هو أشدّ من ذلك[١].

[٤٠٤٣/٢] وأخرج أحمد عن مصعب بن سعد عن أبيه قال قلت: يا رسول الله! أيّ الناس أشدّ بلاء؟ قال: الأنبياء، ثمّ الصالحون، ثمّ الأمثل فالأمثل من الناس، يبتلى الرجل على حسب دينه فإن كان في دينه صلابة زيد في بلائه، وإن كان في دينه رقّة، خفّف عنه. وما يزال البلاء بالعبد حتّى يمشي على ظهر الأرض ليس عليه خطيئة[٢].

[٤٠٤٤/٢] وروى ابن بابويه الصدوق بإسناده إلى سماعة بن مهران عن أبي عبدالله عليه السلام قال: إنّ في كتاب عليّ عليه السلام: «أنّ أشدّ الناس بلاءً النبيّون ثمّ الوصيّون ثمّ الأمثل فالأمثل، وإنّما يبتلي المؤمن على قدر أعماله الحسنة، فمن صحّ دينه وصحّ عمله اشتدّ بلاؤه، وذلك ـ أنّ الله ـ عزّ وجلّ ـ لم يجعل الدنيا ثواباً لمؤمن، ولاعقوبة لكافر. ومن سخف دينه وضعف عمله قلّ بلاؤه، والبلاء أسرع إلى المؤمن المتّقي من المطر إلى قرار الأرض»[٣].

قال العلّامة المجلسي توضيحاً لما في ذيل الحديث: هذا دفع لما يتوهّم من أنّ المؤمن لكرامته عند الله كان ينبغي أن يكون بلاؤه أقلّ!!

لكنّ المؤمن لمّا كان محلّ ثوابه الآخرة، حيث الدنيا دار فناء وانقطاع، لم يصحّ أن تكون ثواباً له، فينبغي أن لايكون له في الدنيا إلّا ما يوجب المزيد من ثواب الآخرة. وأمّا الكافر فلمّا كانت عقوبته في الآخرة، لعدم صلاحيّة الدنيا الزائلة عقوبةً له، فلا يبتلي فيها إلّا قليلاً، بل إنّما تكون

← ١٤١٩ و ١٤٢١؛ الكبير ١٢: ١٩٧ ـ ١٩٨ / ١٣٠٢٧، من قوله: «وأخبر أنّ المؤمن ...»؛ الشعب ٧: ١١٦ / ٩٦٨٧ و ٩٦٨٩؛ الثعلبي ٢: ٢٣، من قوله: وقال رسول الله صلى الله عليه وآله: من استرجع ...؛ أبوالفتوح ٢: ٢٣٩ و ٢٤١ و ٢٤٢؛ مجمع الزوائد ٢: ٣٣٠، باب الاسترجاع ومايسترجع عنده، و ٦: ٣١٧، في سورة البقرة.

(١) الطبري ٢: ٥٧ / ١٩٣١.

(٢) مسند أحمد ١: ١٧٢؛ البغوي ١: ١٨٨ ـ ١٨٩ / ١١١؛ النسائي ٤: ٣٥٢ / ٧٤٨١، باب ٤.

(٣) نور الثقلين ١: ١٤٣ / ٤٤٧؛ علل الشرائع ١: ٤٤ / ١، باب ٤٠؛ كنز الدقائق ٢: ١٩٨؛ الكافي ٢: ٢٥٩ / ٢٩، كتاب الإيمان والكفر، باب شدّة ابتلاء المؤمن، وفيه: «حسن عمله» بدل «صحّ عمله» و«وإنّ البلاء» بدل «والبلاء» و «التقي» بدل «المتّقي»؛ جامع الأخبار: ١١٣ ـ ١١٤، فصل ٧٠.

ثوابَه إذا صحّ له عملٌ في الدنيا، بدفع البلاء والسعة في النعماء[١].

[٤٠٤٥/٢] وقال الإمام أميرالمؤمنين ـ عليه صلوات المصلّين ـ: «إنّ الله يبتلي عباده عند الأعمال السيّئة بنقص الثمرات وحبس البركات وإغلاق خزائن الخيرات، ليتوب تائب ويقلع مقلع، ويتذكّر متذكّر، ويزدجر مزدجر»[٢].

[٤٠٤٦/٢] وعن الإمام الصادق عليه السلام في كلام له عن الصبر على البلايا، قال: «فمن سترها ولم يشكُ إلى الخلق، ولم يجزع بهتك ستره، فهو من العامّ ونصيبه ما قال الله: ﴿وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ﴾ أي بالجنّة والمغفرة»[٣].

تعزية على مصاب للإمام جعفربن محمّد الصادق عليه السلام

روى السيّد عليّ بن موسى، رضيّ الدين ابن طاووس رحمه الله:

وسأذكر تعزية لمولانا جعفربن محمّد الصادق عليه السلام، كتبها إلى بني عمّه ـ رضوان الله عليهم ـ لمّا حُبسوا، ليكون مضمونها تعزية عن الحسين عليه السلام وعترته وأصحابه ـ رضوان الله عليهم ـ.

[٤٠٤٧/٢] رويناها بإسنادنا من عدّة طرق إلى جدّي أبي جعفر الطوسي عن المفيد والحسين بن عبيدالله عن أبي جعفر ابن بابويه الصدوق عن محمّدبن الحسن بن الوليد عن الصفّار عن محمّدبن الحسين بن أبي الخطّاب عن محمّدبن أبي عمير عن إسحاق بن عمّار.

ورويناها أيضاً بإسنادنا عن أبي جعفر عن أحمد بن محمّد الأهوازي رفعه إلى عطيّة بن نجيح بن المطهّر الرازي وإسحاق بن عمّار، قالا معاً: إنّ أبا عبدالله جعفر بن محمّد عليهما السلام كتب إلى عبدالله بن الحسن ـ رضي الله عنه ـ حين حُمل هو أهل بيته. يعزّيه عمّا صار إليه:

«بسم الله الرحمان الرحيم، إلى الخلف الصالح، والذريّة الطيّبة، من وُلد أخيه وابن عمّه: أمّا

---

(١) البحار ٦٤: ٢٢٢ ـ ٢٢٣.

(٢) نهج البلاغة ٢: ٢٥، الخطبة رقم ١٤٣؛ البحار ٨٨: ٣١٢ ـ ٣١٣ / ٣ باب ١، والخطبة طويلة، وللمجلسي لها شرح موجز لطيف فراجع.

(٣) نور الثقلين ١: ١٤٣ / ٤٤٩؛ مصباح الشريعة: ١٨٦، باب ٨٨، (في الصبر)؛ البحار ٦٨: ٩١ / ٤٤، باب ٦٢، عن مصباح الشريعة؛ البرهان ١: ٣٦٥ / ١٥؛ الصافي ١: ٣٠٥، (ذيل الآيه ١٥٣).

بعد: فلئن كنت قد تفرّدت أنت وأهل بيتك، ممّن حُمل معك بما أصابكم، فـما انـفردت بـالحزن والغبطة والكآبة وأليم وجع القلب دوني، فلقد نالني من ذلك من الجزع والقلق وحرّ المصيبة، مثل ما نالك، ولكن رجعت إلى ما أمر الله ـ جلّ جلاله ـ به المتّقين، من الصبر وحسن العزاء.

حين يقول لنبيّه ﷺ: ﴿وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾(١).

وحين يقول: ﴿فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُنْ كَصَاحِبِ الْحُوتِ﴾(٢).

وحين يقول لنبيّه ﷺ، حين مُثّل بحمزة: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ﴾(٣) وصبر رسول الله، ولم يعاقب.

وحين يقول: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا نَسْأَلُكَ رِزْقاً نَحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى﴾(٤).

وحين يقول: ﴿الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ. أُوْلَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ﴾(٥).

وحين يقول: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾(٦).

وحين يقول لقمان لابنه: ﴿وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾(٧).

وحين يقول عن موسى: ﴿قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللهِ وَاصْبِرُوا إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾(٨).

وحين يقول: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾(٩).

وحين يقول: ﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ﴾(١٠).

وحين يقول: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ﴾(١١).

---

(١) الطور ٥٢: ٤٨.
(٢) القلم ٦٨: ٤٨.
(٣) النحل ١٦: ١٢٦.
(٤) طه ٢٠: ١٣٢.
(٥) البقرة ٢: ١٥٦ـ١٥٧.
(٦) الزمر ٣٩: ١٠.
(٧) لقمان ٣١: ١٧.
(٨) الأعراف ٧: ١٢٨.
(٩) العصر ١٠٣: ٣.
(١٠) البلد ٩٠: ١٧.
(١١) البقرة ٢: ١٥٥.

وحين يقول: ﴿وَكَأَيِّنْ مِنْ نَبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ﴾[١].

وحين يقول: ﴿وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ﴾[٢].

وحين يقول: ﴿وَاصْبِرْ حَتَّى يَحْكُمَ اللهُ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾[٣]. وأمثال ذلك من القرآن كثير.

واعلم أي عمّ وابن عمّ، أنّ الله ـ جلّ جلاله ـ لم يبال بضُرّ الدنيا لوليّه ساعة قطّ، ولا شيء أحبّ إليه من الضرّ والجهد والبلاء مع الصبر، وأنّه ـ تبارك وتعالى ـ لم يبال بنعيم الدنيا لعدوّه ساعة قطّ.

ولو لا ذلك، ما كان أعداؤه يقتلون أولياءه ويخيفونهم ويمنعونهم، وأعداؤهم آمنون مطمئنّون عالون ظاهرون.

ولولا ذلك، لما قتل زكريّا، واحتجب يحيى ظلماً وعدواناً، في بغيّ من البغايا.

ولو لا ذلك، ما قُتل جدّك عليّ بن أبي طالب عليه السلام لمّا قام بأمر الله ـ عزّ وجلّ ـ ظلماً. وعمّك الحسين بن فاطمة عليهما السلام، اضطهاداً وعدواناً.

ولولا ذلك، ما قال الله ـ عزّ وجلّ ـ في كتابه: ﴿وَلَوْلَا أَنْ يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَجَعَلْنَا لِمَنْ يَكْفُرُ بِالرَّحْمانِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفاً مِنْ فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ﴾[٤].

ولولا ذلك لما قال في كتابه: ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُمْ بِهِ مِنْ مَالٍ وَبَنِينَ. نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَل لَا يَشْعُرُونَ﴾[٥].

ولولا ذلك لما جاء في الحديث: «لولا أن يحزن المؤمن، لجعلت للكافر عصابة من حديد، لايصدع رأسه أبداً»[٦]

ولولا ذلك، لما جاء في الحديث: «إنّ الدنيا لاتساوى عند الله جناح بعوضة»[٧].

ولولا ذلك، ما سقىٰ كافراً منها شربة من ماء.

ولولا ذلك، لما جاء في الحديث: «لو أنّ مؤمناً على قُلّة جبل، لبعث الله له كافراً أو منافقاً يؤذيه»[٨].

---

(١) آل عمران ٣: ١٤٦.
(٢) الأحزاب ٣٣: ٣٥.
(٣) يونس ١٠: ١٠٩.
(٤) الزخرف ٤٣: ٣٣.
(٥) المؤمنون ٢٣: ٥٦.
(٦) مسكن الفؤاد: ١١٨؛ الكامل لابن عدي ٢: ٣٣٢.
(٧) مسكن الفؤاد: ١١٨.
(٨) إقبال الأعمال ٣: ٨٥.

ولولا ذلك، لما جاء في الحديث: «إذا أحبّ الله قوماً أو أحبّ عبداً، صبّ عليه البلاء صبّاً، فلايخرج من غمّ إلّا وقع في غمّ»(١).

ولولا ذلك، لما جاء في الحديث: «ما من جُرعتين أحبّ إلى الله ـعزّ وجلّ ـأن يجرعهما عبده المؤمن في الدنيا: من جرعة غيظ كظم عليها، أو جرعة حزن عند مصيبة صبر عليها، بحسن عزاء واحتساب»(٢).

ولولا ذلك، لما كان أصحاب رسول الله ﷺ، يدعون على من ظلمهم، بطول العمر، وصحّة البدن، وكثرة المال والولد(٣).

ولولا ذلك ما بلغنا، أنّ رسول الله ﷺ، كان إذا خصّ رجلاً بالترحّم عليه والاستغفار، استشهد(٤).

فعليكم يا عمّ وابن عمّ وبني عمومتي وإخوتي، بالصبر والرضا والتسليم والتفويض إلى الله ـعزّ وجلّ ـوالرضا والصبر على قضائه، والتمسّك بطاعته، والنزول عند أمره. أفرغ الله علينا وعليكم الصبر، وختم لنا ولكم بالأجر والسعادة، وأنقذكم وإيّانا من كلّ هلكة بحوله وقوّته، إنّه سميع قريب، وصلّى الله على صفوته من خلقه محمّدٍ النبيّ وأهل بيته»(٥).

[٤٠٤٨/٢] وروى الطبرسي بالإسناد إلى عبدالله بن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «يا ابن مسعود، قول الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾(٦) ﴿أُولَـٰئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا﴾(٧) ﴿إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا أَنَّهُمْ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾(٨) يا ابن مسعود، قول الله تعالى: ﴿وَجَزَاهُمْ بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيراً﴾(٩) ﴿أُولَـٰئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا﴾(١٠) يقول الله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ﴾ إلى قوله ﴿الضَّراء﴾(١١) ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ﴾ إلى قوله

---

(١) مسكن الفؤاد: ١١٨.
(٢) انظر: الكافي ٢: ١١٠، باب كظم الغيظ.
(٣) إقبال الأعمال ٣: ٨٥.
(٤) مسكن الفؤاد: ١١٨.
(٥) الإقبال لابن طاووس ٣: ٨٢ـ٨٥؛ البحار ٧٩: ١٤٥ / ٣٢، باب ١٨؛ مستدرك الوسائل ٢: ٤١٥ـ٤٢٠ / ٢٣٤٣ـ٦، باب ٦٤.
(٦) الزمر ٣٩: ١٠.
(٧) الفرقان ٢٥: ٧٥.
(٨) المؤمنون ٢٣: ١١١.
(٩) الإنسان ٧٦: ١٢.
(١٠) القصص ٢٨: ٥٤.
(١١) البقرة ٢: ٢١٤.

﴿الصابرين﴾[1] قلنا: يا رسول الله فمن الصابرون؟ قال: الّذين يصبرون على طاعة الله، و عن معصيته، الّذين كسبوا طيّباً، وأنفقوا قصداً، وقدّموا فضلاً، فأفلحوا ونَجَحوا. يا ابن مسعود، عليهم الخشوع والوقار والسكينة والتفكّر واللين والعدل والتعليم والاعتبار والتدبير والتقوى والإحسان والتحرّج والحبّ في الله والبغض في الله وأداء الأمانة، والعدل وإقامة الشهادة، ومعاونة أهل الحقّ والبقيّة[2] على المسيء، والعفو لمن ظلم، يا ابن مسعود، إذا ابتلوا صبروا، وإذا أُعطوا شكروا، وإذا حكموا عدلوا، وإذا قالوا صدقوا، وإذا عاهدوا وفوا، وإذا أساؤوا استغفروا، وإذا أحسنوا استبشروا، ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَاماً﴾[3] ﴿وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَاماً﴾[4] ﴿وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّداً وَقِيَاماً﴾[5] ﴿وَيَقُولُونَ لِلنَّاسِ حُسْناً﴾[6] يا ابن مسعود: والّذي بعثني بالحقّ إنّ هؤلاء هم الفائزون»[7].

[٤٠٤٩/٢] وروى ابن بابويه الصدوق بالإسناد إلى يونس بن عبدالرحمان عن عمرو بن أبي المقدام عن الإمام أبي عبدالله الصادق عن أبيه عليه السلام قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «أربع من كنّ فيه كان في نور الله الأعظم: من كانت عصمة أمره شهادة أن لا إله إلّا الله وأنّي رسول الله. ومن إذا أصابته مصيبة قال: إنّا لله وإنّا إليه راجعون. ومن إذا أصاب خيراً قال: الحمد لله ربّ العالمين. ومن إذا أصاب خطيئة قال: أستغفر الله وأتوب إليه»[8].

وروى العيّاشيّ[9] والبرقي[10] مثله.

[٤٠٥٠/٢] وروى العيّاشيّ عن إسماعيل بن زياد السكوني، عن جعفر بن محمّد، عن أبيه، عن آبائه عليهم السلام، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «أربع من كنّ فيه كتبه الله من أهل الجنّة: من كانت عصمته شهادة أن لا إله إلّا الله، ومن إذا أُنعم عليه النعمة قال: الحمد لله، ومن إذا أصاب ذنباً قال: أستغفر

---

(١) البقرة ٢: ١٥٥.
(٢) البقية: الرحمة والشفقة.
(٣) الفرقان ٢٥: ٦٣.
(٤) الفرقان ٢٥: ٧٢.
(٥) الفرقان ٢٥: ٦٤.
(٦) البقرة ٢: ٨٣. والآية: ﴿وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْناً﴾.
(٧) مكارم الأخلاق: ٤٤٦، الباب الثاني عشر، الفصل الرابع؛ البحار ٧٤: ٩٢ و ٩٣، باب ٥. أثبتناه من المصدر والبحار؛ مستدرك الوسائل ١١: ٢٦١ ـ ٢٦٢ / ١٢٩٤٠ ـ ٩، باب ١٩.
(٨) الخصال: ٢٢٢ / ٤٩ باب الأربعة؛ ثواب الأعمال: ١٦٦؛ الفقيه ١: ١١١ / ٥١٤؛ البحار ٦٦: ٣٧١ / ١٤ و ٩٠: ٢١٣.
(٩) العيّاشيّ ١: ٨٨ / ١٢٨.
(١٠) المحاسن ١: ٧ ـ ٨ / ١٩.

الله، ومن إذا أصابته مصيبة قال: إنا لله وإنا إليه راجعون»(١).

[٤٠٥١/٢] وروى الكليني بالإسناد إلى جابر، عن أبي جعفر عليه السلام ـ في حديث ـ قال: «من صبر واسترجع وحمد الله ـ عزّ وجلّ ـ فقد رضي بما صنع الله ووقع أجره على الله، ومن لم يفعل ذلك جرى عليه القضاء وهو ذميم وأحبط الله أجره».

وعن عليّ بن إبراهيم، عن أبيه، عن عمرو بن عثمان، عن أبي جميلة مثله(٢).

[٤٠٥٢/٢] وروى الصدوق بالإسناد إلى سيف بن عميرة، عن أبي عبدالله عليه السلام قال: «من ألهم الاسترجاع عند المصيبة وجبت له الجنّة»(٣).

[٤٠٥٣/٢] وقال: قال أبو جعفر عليه السلام: «ما من مؤمن يصاب بمصيبة في الدنيا فيسترجع عند مصيبته ويصبر حين تفجأه المصيبة إلّا غفر الله له ما مضى من ذنوبه إلّا الكبائر الّتي أوجب الله عليها النار.

قال: وكلّما ذكر مصيبة فيما يستقبل من عمره فاسترجع عندها وحمد الله ـ عزّ وجلّ ـ عندها غفر الله له كلّ ذنب اكتسبه فيما بين الاسترجاع الأوّل إلى الاسترجاع الأخير إلّا الكبائر من الذنوب»(٤).

[٤٠٥٤/٢] وقال الطبرسي: قال عليّ عليه السلام: «من أصيب بمصيبة فأحدث استرجاعاً وإن تقادم عهدها إلّا كتب الله من الأجر مثل يوم أصيب»(٥).

[٤٠٥٥/٢] وروى الثعلبي بالإسناد إلى فاطمة بنت الحسين عليه السلام عن أبيها قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «من أصيب بمصيبة فأحدث استرجاعاً وإن تقادم عهدها كتب الله له من الأجر مثل يوم أصيب»(٦).

---

(١) العيّاشيّ ١: ٨٨ / ١٢٨؛ البرهان ١: ٣٦٤؛ الأمالي للمفيد: ٧٦ / ١، المجلس ٩، وزاد بعد قوله: إلّا الله: وأنّي محمّداً رسول الله.

(٢) الكافي ٣: ٢٢٢ ـ ٢٢٣ / ١ و ٢؛ وسائل الشيعة ٣: ٢٤٨ / ٣٥٣٨ ـ ٧.

(٣) ثواب الأعمال: ١٩٨؛ وسائل الشيعة ٣: ٢٤٨ / ٣٥٤٠ ـ ٩.

(٤) الفقيه ١: ١٧٥ / ٥١٥؛ ثواب الأعمال: ١٩٧؛ وسائل الشيعة ٣: ٢٤٩ / ٣٥٤٣ ـ ٣.

(٥) مجمع البيان ١: ٢٣٨؛ الصافي ١: ٣٠٧؛ البحار ٧٩: ١٢٦، باب ١٨.

(٦) الثعلبي ٢: ٢٣. والحديث صحّحناه على نسخة القرطبي ٢: ١٧٥ وكذا ابن كثير ١: ٢٠٤. وغيرهما على ما يأتي.

[٤٠٥٦/٢] وأخرج ابن أبي الدنيا والبيهقي من طريق عمرو بن شعيب عن أبيه عن عبدالله بن عمرو قال: أربع من كنّ فيه بنى الله له بيتاً في الجنّة: من كان عصمة أمره لا إلـه إلّا الله، وإذا أصابته مصيبة قال: إنّا لله وإنّا إليه راجعون، وإذا أعطي شيئاً قال: الحمد لله، وإذا أذنب ذنباً قال: أستغفر الله[١].

[٤٠٥٧/٢] وأخرج ابن أبي الدنيا في العزاء عن سعيد بن المسيّب رفعه: «من استرجع بعد أربعين سنة أعطاه الله ثواب مصيبته يوم أصيبها»[٢].

[٤٠٥٨/٢] وأخرج عن كعب قال: ما من رجل تصيبه مصيبة فيذكرها بعد أربعين سنة فيسترجع إلّا أجرى الله له أجرها تلك الساعة، كما أنّه لو استرجع يوم أصيب[٣].

[٤٠٥٩/٢] وأخرج أحمد وابن ماجة والبيهقي في شعب الإيمان عن الحسين بن عليّ عليه السلام عن النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم قال: «ما من مسلم يصاب بمصيبة فيذكرها وإن طال عهدها، فيحدث لذلك استرجاعاً إلّا جدّد الله له عند ذلك، فأعطاه مثل أجرها يوم أصيب».

وأخرج سعيد بن منصور والعقيلي في الضعفاء من حديث عائشة. مثله[٤].

[٤٠٦٠/٢] وأخرج أحمد والبيهقي في شعب الإيمان عن أمّ سلمة قالت: أتاني أبو سلمة يوماً من عند رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقال: لقد سمعت من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قولاً سُرِرتُ به، قال: «لا يصيب أحداً من المسلمين مصيبة فيسترجع عند مصيبته، ثمّ يقول: اللّهمّ أجُرني في مصيبتي وأخلف لي خيراً منها، إلّا فُعل ذلك به». قالت أمّ سلمة: فحفظت ذلك منه، فلمّا توفّي أبو سلمة استرجعت، فقلت: اللّهمّ أجُرني في مصيبتي وأخلف لي خيراً منها، ثمّ رجعت إلى نفسي وقلت: من أين لي خيرٌ من أبي سلمة؟ فأبدلني الله بأبي سلمة خيراً منه: رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم[٥].

---

(١) الدرّ ١: ٣٧٨؛ الشكر لله ١٦٩ / ٢٠١؛ الشعب ٧: ١١٧ / ٩٦٩٢؛ أبو الفتوح ٢: ٢٤١ ـ ٢٤٢.

(٢) الدرّ: ٣٧٨. (٣) المصدر: ٣٧٩.

(٤) الدرّ ١: ٣٧٨؛ مسند أحمد ١: ٢٠١؛ ابن ماجة ١: ٥١٠ / ١٦٠٠، باب ٥٥ (ما جاء في الصبر على المصيبة)؛ الشعب ٧: ١١٧ ـ ١١٨ / ٩٦٩٥، بلفظ: «من أصابته مصيبة فقال: إذا ذكرها: ﴿إنّا لله وإنّا إليه راجعون﴾ جدّد الله له أجرها مثل ما كان له يوم أصابته»؛ ضعفاء العقيلي ١: ٦٤، باب ٦٠ (إبراهيم بن محمّد الثقفي)؛ القرطبي ٢: ١٧٥؛ ابن كثير ١: ٢٠٤؛ مجمع البيان ١: ٤٤٢؛ أبو الفتوح ٢: ٢٤١.

(٥) الدرّ ١: ٣٧٩؛ مسند أحمد ٤: ٢٧ و ٢٨ بزيادة؛ الشعب ٧: ١١٨ / ٩٦٩٧؛ الوسيط ١: ٢٣٩؛ ابن كثير ١: ٢٠٣ ـ ٢٠٤؛ أبو الفتوح ٢: ٢٤٢.

[٤٠٦١/٢] وأخرج مسلم عن أمّ سلمة قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ما من عبد تصيبه مصيبة فيقول: إنّا لله وإنّا إليه راجعون، اللّهمّ أجُرني في مصيبتي وأخلف لي خيراً منها إلّا آجره الله في مصيبته وأخلف له خيراً منها.» قالت: فلمّا توفّي أبو سلمة قلت كما أمرني رسول الله ﷺ، فأخلف الله لي خيراً منه، رسول الله ﷺ(١).

[٤٠٦٢/٢] قال الطبرسي: وفي الحديث: من استرجع عند المصيبة جبر الله مصيبته وأحسن عقباه وجعل له خلفاً صالحاً يرضاه(٢).

[٤٠٦٣/٢] وروى الكليني بالإسناد إلى معروف بن خربوذ عن أبي جعفر عليه السلام قال: «ما من عبد يصاب بمصيبة فيسترجع عند ذكره المصيبة ويصبر حين تفجأه إلّا غفر الله له ما تقدّم من ذنبه، وكلّما ذكر مصيبة فاسترجع عند ذكره المصيبة، غفر الله له كلّ ذنب اكتسب فيما بينهما»(٣).

[٤٠٦٤/٢] وأخرج الحكيم الترمذي عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «ما من نعمة وإن تقادم عهدها فيجدّد لها العبد الحمد، إلّا جدّد الله له ثوابها، وما من مصيبة وإن تقادم عهدها، فيجدّد لها العبد الاسترجاع إلّا جدّد الله له ثوابها وأجرها»(٤).

[٤٠٦٥/٢] وروى الكليني عن عليّ بن إبراهيم عن أبيه عن ابن أبي عمير عن داوود بن رزين عن أبي عبدالله عليه السلام قال: «من ذكر مصيبته ولو بعد حين فقال: إنّا لله وإنّا إليه راجعون، والحمد لله ربّ العالمين، اللّهمّ أجرني على مصيبتي، وأخلف عليّ أفضل منها، كان له من الأجر مثل ما كان عند أوّل صدمة».(٥)

[٤٠٦٦/٢] وروى عليّ بن جعفر بالإسناد إلى الإمام جعفربن محمّد عليه السلام يرفعه إلى الإمام

---

(١) الدرّ ١: ٣٧٩؛ مسلم ٣: ٣٧ و ٣٨، كتاب الجنائز، باب مايقال عند المصيبة؛ البغوي ١: ١٨٦ ـ ١٨٧ / ١٠٧؛ ابن كثير ١: ٢٠٤.

(٢) نورالثقلين ١: ١٤٥؛ مجمع البيان ١: ٤٤٢؛ الصافي ١: ٣٠٧؛ كنزالدقائق ٢: ٢٠١؛ البحار ٧٩: ١٢٦، باب ١٨.

(٣) نورالثقلين ١: ١٤٤؛ الكافي ٣: ٢٢٤ / ٥؛ الفقيه ١: ١٧٥ / ٥١٥؛ ثواب الأعمال: ١٩٧؛ البحار ٧٩: ١٢٧ـ١٢٨ / ١، باب ٢٨.

(٤) الدرّ ١: ٣٧٨؛ نوادر الأصول ٢: ٢٠٣، الأصل: ١٥٢، وفيه: «فيجدّدها العبد بالحمد» بدل قوله «فيجدد لها العبد الحمد؛ كنزالعمّال ٣: ٢٦٤ / ٦٤٧١.

(٥) الكافي ٣: ٢٢٤ / ٦؛ البحار ٧٩: ١٤٣، باب ١٨.

أمير المؤمنين عليه السلام قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «إذا بلغ أحدكم وفاة أخيه المسلم فليقل: ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ اللّهمّ اكتبه عندك في المحسنين، واجعل كتابه في علّيين، واخلف على تركته في الغابرين، واغفر لنا يا ربّ العالمين، ولاتحرمنا أجره، ولا تفتنّا بعده. فإنّه يستكمل الأجر في المصيبة إن شاء الله، والحمد لله ربّ العالمين»(١).

[٤٠٦٧/٢] وقال الراوندي: ويستحبّ أن يقال عند سماع وفاة كلّ مؤمن: ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾، وإنّا إلى ربّنا لمنقلبون، اللّهمّ اكتبه في المحسنين، واخلفه في عقبه الغابرين، واجعل كتابه في علّيين، اللّهمّ لاتحرمنا أجره، ولا تفتنّا بعده(٢).

[٤٠٦٨/٢] وروى الشريف الزاهد أبو عبدالله محمّد بن عليّ بن الحسن بن عبدالرحمان العلويّ الحسينيّ في كتاب التعازي، عن عبدالله بن عليّ الزهري، عن أبي هاشم، عن سعيد بن جبير، عن ابن عبّاس قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «الموت صرع، فإذا بلغ أحدكم وفاة أخيه، فليقل: إنّا لله وإنّا إليه راجعون، وإنّا إلى ربّنا لمنقلبون، اللّهمّ اكتبه عندك من المحسنين، واجعل كتابه في علّيين، واخلف على عقبه في الآخرين، ولا تحرمنا أجره ولا تفتنّا بعده»(٣).

[٤٠٦٩/٢] وروى الكليني، عن عليّ بن إبراهيم، عن أبيه، عن النوفلي، عن السكوني، عن أبي عبدالله عليه السلام قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «إذا قبض ولد المؤمن ـ والله أعلم بما قال العبد ـ قال الله تبارك وتعالى لملائكته: قبضتم ولد فلان؟ فيقولون: نعم ربّنا. قال: فيقول: فما قال عبدي؟ قالوا: حمدك واسترجع، فيقول الله تبارك وتعالى: أخذتم ثمرة قلبه و قرّة عينه، فحمدني واسترجع، ابنوا له بيتاً في الجنّة وسمّوه بيت الحمد»(٤).

ورواه الصدوق مرسلاً نحوه(٥).

[٤٠٧٠/٢] وروى الصدوق بالإسناد إلى عبدالله بن سنان قال: سمعت أبا عبدالله عليه السلام يقول: «قال

---

(١) مستدرك الوسائل ٢: ٤٧٦ / ٢٥٠٦ ـ ٥؛ الجعفريات: ٢٢٩، كتاب الدعاء باب الدعاء في النعي.

(٢) مستدرك الوسائل ٢: ١٦٢ / ١٦٩٥ ـ ٤٤؛ دعوات الراوندي: ٢٥٨ / ٧٣٢؛ البحار ٧٩: ١٤١ / ٢٤، باب ١٢.

(٣) مستدرك الوسائل ٢: ٤٨٧ / ٢٥٣٣ ـ ٣٢؛ البحار ٧٩: ١٤١ / ٢٤، باب ١٨.

(٤) الكافي ٣: ٢١٨ / ٤، كتاب الجنائز، باب المصيبة بالولد؛ وسائل الشيعة ٣: ٢٤٦ / ٣٥٣٢ ـ ١.

(٥) الفقيه ١: ١٧٧ / ٥٢٣، آداب الدفن، باب ثواب المصيبة بالولد.

رسول الله ﷺ: قال الله تعالى: إنّي أعطيت الدنيا بين عبادي فيضاً، فمن أقرضني منها قرضاً، أعطيته بكلّ واحدة منهنّ عشراً إلى سبعمائة ضعف وما شئت من ذلك، ومن لم يقرضني منها قرضاً فأخذت منه قسراً أعطيته ثلاث خصال، لو أعطيت واحدة منهنّ ملائكتي لرضوا: الصلاة والهداية والرحمة، إنّ الله يقول: ﴿الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ. أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ﴾ واحدة من الثلاث: ﴿وَرَحْمَةٌ﴾ اثنتين ﴿وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ﴾ ثلاث. ثمّ قال أبو عبدالله عليه السلام: هذا لمن أخذ الله منه شيئاً فصبر»[1].

[٤٠٧١/٢] وفي حديث إسحاق بن عمّار: قال أبو عبدالله عليه السلام: «هذا إن أخذ الله منه شيئاً فصبر واسترجع»[2].

[٤٠٧٢/٢] وروى العيّاشيّ بالإسناد إلى عبدالله بن صالح الخثعمي، عن أبي عبدالله عليه السلام، قال: قال رسول الله ﷺ: «قال الله: عبدي المؤمن إن خوّلتُه وأعطيتُه ورزقتُه واستقرضتُه، فإن أقرضني عفواً أعطيته مكان الواحد مائة ألف فما زاد، وإن لا يفعل أخذتُه قسراً بالمصائب في ماله، فإن يصبر أعطيته ثلاث خصال، إن أُخيِّر الواحدة منهنّ ملائكتي اختاروها، ثمّ تلا هذه الآية: ﴿الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ﴾، إلى قوله: ﴿الْمُهْتَدُونَ﴾»[3].

[٤٠٧٣/٢] وأخرج ابن أبي الدنيا في العزاء عن عليّ عليه السلام قال: قال رسول الله ﷺ: «من صبر على المصيبة حتّى يردّها بحسن عزائها كتب الله له ثلثمائة درجة، ما بين الدرجة إلى الدرجة كما بين السماء والأرض»[4].

[٤٠٧٤/٢] وأخرج البخاري وأحمد عن أبي هريرة وعن أبي سعيد الخدري عن النبيّ ﷺ قال: «ما يصيب المسلم من نَصَبٍ ولا وَصَبٍ ولا همّ ولا حُزن ولا أذىً ولا غمٍّ حتّى الشوكة يشاكها إلّا كفّر الله بها من خطاياه»[5].

---

(١) نورالثقلين ١: ١٤٣/ ٤٥٠، و ٥: ٢٣٩/ ٥١؛ الخصال: ١٣٠/ ١٣٥، باب الثلاثة؛ البرهان ١: ٣٦٢/ ٤؛ الكافي ٢: ٩٢ـ٩٣/ ٢١؛ البحار ٧١: ٣٩٥/ ٢١، باب ٢٨؛ العيّاشي ١: ٨٧ـ٨٨/ ١٢٧، عن إسحاق بن عمّار.

(٢) البرهان ١: ٣٦٤؛ العيّاشيّ ١: ٨٨/ ١٣١.

(٣) العيّاشيّ ١: ٨٨/ ١٣٠؛ البرهان ١: ٣٦٤.

(٤) الدرّ ١: ٣٧٨؛ كنزالعمّال ٣: ٢٧٣/ ٦٥١٥.

(٥) البخاري ٧: ٢، كتاب المرضى والطبّ؛ مسند أحمد ٢: ٢٣٥؛ ابن كثير ١: ٥٧٢؛ البغوي ١: ١٨٧ـ١٨٨/ ١٠٩؛ القرطبي ٢: ١٧٥.

[٤٠٧٥/٢] وأخرج الطبراني عن ابن عبّاس قال: قال رسول الله ﷺ: «إنّ للموت فزعاً، فإذا أتى أحدكم وفاة أخيه فليقل: إنّا لله وإنّا إليه راجعون وإنّا إلى ربّنا لمنقلبون»(١).

[٤٠٧٦/٢] وروى الكليني عن عليّ بن محمّد عن صالح بن أبي حمّاد رفعه، قال: جاء أمير المؤمنين عليه السلام إلى الأشعث بن قيس يعزّيه بأخ له يقال له: عبدالرحمان، فقال له امير المؤمنين عليه السلام: «إن جزعت فحقّ الرحم أتيت، وإن صبرت فحقّ الله أدّيت، على أنّك إن صبرت جرى عليك القضاء وأنت محمود، وإن جزعت جرى عليك القضاء وأنت مذموم! فقال الأشعث: إنّا لله وإنّا إليه راجعون، فقال أمير المؤمنين عليه السلام: أتدري ما تأويلها؟ فقال الأشعث: لا، أنت غاية العلم ومنتهاه، فقال له: أمّا قولك: «إنّا لله» فإقرار منك بالمُلك، وأمّا قولك: «وإنّا إليه راجعون» فإقرار منك بالهُلك»(٢).

[٤٠٧٧/٢] وأخرج ابن أبي الدنيا في العزاء عن أبي بكر بن أبي مريم سمعت أشياخنا يقولون: إنّ رسول الله ﷺ قال: «إنّ أهل المصيبة لتنزل بهم فيجزعون وتسوء رِعَتُهم(٣) فيمرّ بها مارّ من الناس، فيقول: إنّا لله وإنّا إليه راجعون، فيكون فيها أعظم أجراً من أهلها»(٤).

[٤٠٧٨/٢] وأخرج ابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير في قوله: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم﴾ قال: ولنبتلينّكم يعني المؤمنين ﴿وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ﴾ قال: على أمر الله في المصائب، يعني بشّرهم بالجنّة ﴿أُوْلَـئِكَ عَلَيْهِمْ﴾ يعني على من صبر على أمر الله عند المصيبة ﴿صَلَوَاتٌ﴾ يعني مغفرة ﴿مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ﴾ يعني رحمة لهم وأَمَنة من العذاب ﴿وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ﴾ يعني من المهتدين بالاسترجاع عند المصيبة(٥).

[٤٠٧٩/٢] وأخرج ابن سعد عن خيثمة قال: لمّا جاء عبدالله بن مسعود نعي أخيه عتبة دمعت

---

(١) الدرّ ١: ٣٧٩؛ الكبير ١٢: ٤٧؛ مجمع الزوائد ٢: ٣٣١.

(٢) نورالثقلين ١: ١٤٤؛ الكافي ٣: ٢٦١ / ٤٠، كتاب الجنائز، باب النوادر؛ البرهان ١: ٣٦٣ / ٦؛ كنزالدقائق ٢: ٢٠٠؛ البحار ٤٢: ١٥٩ ـ ١٦٠ / ٢٩، باب ١٢٤؛ وجاء ذيل الحديث في النهج قصار الكلم، رقم ٩٩.

(٣) الرِّعَة: الحالة والشأن، يقال: فلان حسن الرِّعة أو سيّء الرِّعة. مأخوذ من الوَرَع كالعِدَة من الوَعْد.

(٤) الدرّ ١: ٣٧٩.

(٥) الدرّ ١: ٣٧٧؛ ابن أبي حاتم ١: ٢٦٣ ـ ٢٦٦ / ١٤١٣ و ١٤٢٠ و ١٤٢٥ و ١٤٢٦ و ١٤٢٩.

عيناه فقال: إنّ هذه رحمة جعلها الله، لا يملكها ابن آدم[١].

[٤٠٨٠/٢] وأخرج عبد بن حميد عن قتادة في قوله: ﴿الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ. أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ﴾ قال: من استطاع أن يستوجب لله في مصيبته ثلاثاً، الصلاة والرحمة والهدى فليفعل، ولا قوّة إلّا بالله، فإنّه من استوجب على الله حقّاً بحقٍّ أحقّه الله له، ووجد الله وفيّاً[٢].

[٤٠٨١/٢] وأخرج ابن أبي الدنيا في العزاء والبيهقي عن أنس قال: توفّي ابن لعثمان بن مظعون فاشتدّ حزنه عليه، فقال له النبيّ ﷺ: «إنّ للجنّة ثمانية أبواب وللنار سبعة أبواب، أفما يسرّك أن لا تأتي باباً منها إلّا وجدت ابنك إلى جنبك، آخذاً بحجزتك يشفع لك إلى ربّك؟ قال: بلى. قال المسلمون: يا رسول الله ولنا في أفراطنا ما لعثمان؟ قال: نعم، لمن صبر منكم واحتسب»[٣].

[٤٠٨٢/٢] وأخرج النسائي عن ابن عَمرو قال: قال رسول الله ﷺ: «إنّ الله لا يرضى لعبده المؤمن إذا ذهب بصفيّه من أهل الأرض فصبر واحتسب، بثواب دون الجنّة»[٤].

[٤٠٨٣/٢] وأخرج أحمد عن سعد بن أبي وقّاص قال: قال رسول الله ﷺ: «عجبت من قضاء الله ـ عزّ وجلّ ـ للمؤمن إن أصابه خير حمد ربّه وشكر وإن أصابته مصيبة حمد ربّه وصبر، المؤمن يؤجر في كلّ شيء حتّى في اللقمة يرفعها إلى فيّ امرأته»[٥].

[٤٠٨٤/٢] وأخرج عبد بن حميد عن كُرَيب بن حسان قال: توفّي رجل منّا، فوجد به أبوه أشدّ الوجد، فقال له رجل من أصحاب النبيّ ﷺ يقال له حوشب: ألا أحدّثكم بمثلها شهدتها من النبيّ ﷺ، كان رجل يأتي النبيّ ﷺ ومعه ابن له، توفّي، فوجد به أبوه أشدّ الوجد. قال النبيّ ﷺ: «ما فعل فلان؟ قالوا: يا رسول الله توفّي ابنه الّذي كان يختلف معه إليك. فلقيه النبيّ ﷺ فقال: يا فلان أيسرّك أنّ ابنك عندك كأجْرَى الغلمان جرياً؟ يا فلان أيسرّك أنّ ابنك

(١) الدرّ ١: ٣٨١؛ الطبقات ٤: ١٢٧.
(٢) الدرّ ١: ٣٧٧ـ٣٧٨.
(٣) الدرّ ١: ٣٨٣؛ شعب الايمان ٧: ١٣٧ـ١٣٨ / ٩٧٦١ـ٩٧٦٢؛ كنزالعمّال ٣: ٧٥٨ / ٨٦٧٣؛ أبوالفتوح ٢: ٢٤٤ـ ٢٤٥.
(٤) الدرّ ١: ٣٨٣؛ النسائي ١: ٦١٣ و ٦١٤ / ١٩٩٨؛ كنزالعمّال ٣: ٢٨٢ / ٦٥٦٢.
(٥) مسند أحمد ١: ١٧٣؛ البغوي ١: ١٩٠ / ١١٥؛ مجمع الزوائد ١٠: ٩٥.

عندك كأنشط الغلمان نشاطاً؟ يا فلان أيسرّك أنّ ابنك عندك كأجود الكهول كهلاً، أو يقال لك: ادخل الجنّة ثواب ما أخذ منك»[١].

[٤٠٨٥/٢] وأخرج سفيان بن عيينة وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم والبيهقي في شعب الإيمان عن جويبر قال: كتب رجل إلى الضحّاك يسأله عن هذه الآية ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ أخاصّة هي أم عامّة؟ فقال: هي لمن أخذ بالتقوى، وأدّى الفرائض[٢].

[٤٠٨٦/٢] وأخرج وكيع وعبد بن حميد وابن جرير والبيهقي في شعب الإيمان عن سعيد بن جبير قال: لقد أُعطيت هذه الأمّة عند المصيبة شيئاً لم يعطه الأنبياء قبلهم، ولو أُعطيها الأنبياء لأُعطيها يعقوب إذ يقول: ﴿يَا أَسَفَى عَلَى يُوسُفَ﴾[٣] ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ ولفظ البيهقي قال: لم يعط أحد من الأمم الاسترجاع غير هذه الأمّة، أما سمعت قول يعقوب: ﴿يَا أَسَفَى عَلَى يُوسُفَ﴾[٤]؟

* * *

في هذا الحديث والّذي يليه نكارة، نظراً لعدم اختصاص المكارم بأمّة دون أخرى، فضلاً عمّا فيهما من إزراء بشأن نبيّ كريم.

[٤٠٨٧/٢] وقال عليّ بن إبراهيم: «وسئل أبو عبدالله ﷺ ما بلغ من حزن يعقوب على يوسف؟ قال: حزن سبعين ثكلى بأولادها، وقال: إنّ يعقوب لم يعرف الاسترجاع ومن هاهنا قال: ﴿يَا أَسَفَى عَلَى يُوسُفَ﴾ (٣)!»[٥].

---

(١) الدرّ ١: ٣٨١ ـ ٣٨٢؛ مسند أحمد ٣: ٤٦٧.

(٢) الدرّ ١: ٣٧٧؛ ابن أبي حاتم ١: ٢٦٥ / ١٤٢٣؛ الشعب ٧: ١١٦ / ٩٦٩٠.

(٣) يوسف ١٢: ٨٤.

(٤) الدرّ ١: ٣٧٧؛ الطبري ٢: ٥٩ / ١٩٣٤، بلفظ: عن سعيد بن جبير قال: ما أُعطى أحد ما أُعطيت هذه الأمّة: ﴿الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ... صَلَوَاتٌ مِن رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ﴾ ولو أُعطيها أحد لأُعطيها يعقوب ﷺ ألم تسمع إلى قوله: ﴿يَا أَسَفَى عَلَى يُوسُفَ﴾؛ الشعب ٧: ١١٧ / ٩٦٩١؛ البغوي ١: ١٨٧؛ القرطبي ٢: ١٧٦، بلفظ: لم تعط هذه الكلمات نبيّاً قبل نبيّنا ولو عرفها يعقوب لما قال: ﴿يَا أَسَفَى عَلَى يُوسُفَ﴾؛ الثعلبي ٢: ٢٣، بنحو ما رواه الطبري؛ الوسيط ١: ٢٣٩؛ أبو الفتوح ٢: ٢٤١.

(٥) نورالثقلين ١: ١٤٤ / ٤٥٦، و٢: ٤٥٢ / ١٤٩، ذيل الآية ٨٤ من سورة يوسف؛ القمّي ١: ٣٥٠، ذيل الآية ٨٤ من سورة يوسف؛ البحار ١٢: ٢٤٢ / ١٠، باب ٩.

[٤٠٨٨/٢] وأخرج الطبراني عن أبي أمامة قال: «انقطع قِبَال[١] النبيّ ﷺ فاسترجَع فقالوا: مصيبة يا رسول الله؟ فقال: ما أصاب المؤمن ممّا يكره فهو مصيبة!»[٢].

[٤٠٨٩/٢] وأخرج البزّار والبيهقي في شعب الإيمان عن أبي هريرة عن النبيّ ﷺ قال: «إذا انقطع شِسْع أحدكم فليسترجع فإنّها من المصائب»[٣].

[٤٠٩٠/٢] وأخرج ابن السني في عمل يوم وليلة عن أبي إدريس الخولاني قال: «بينا النبيّ ﷺ يمشي هو وأصحابه إذ انقطع شسعه فقال: إنّا لله وإنّا إليه راجعون. قالوا: أو مصيبة هذه؟! قال: نعم، كلّ شيء ساء المؤمن فهو مصيبة»[٤].

[٤٠٩١/٢] وأخرج ابن أبي شيبة وابن أبي الدنيا عن عوف بن عبدالله قال: كان ابن مسعود يمشي فانقطع شسعه فاسترجع فقيل: تسترجع على مثل هذا؟ قال: مصيبة![٥]

[٤٠٩٢/٢] وأخرج ابن أبي الدنيا في العزاء عن شهر بن حوشب رفعه قال: «من انقطع شسعه فليقل: إنّا لله وإنّا إليه راجعون، فإنّها مصيبة»[٦].

[٤٠٩٣/٢] وأخرج عبد بن حميد و ابن أبي الدنيا في العزاء عن عكرمة قال: «طُفِئ سراج النبيّ ﷺ فقال: إنّا لله وإنّا إليه راجعون. فقيل: يا رسول الله أمصيبة هي؟ قال: نعم، وكلّ ما يؤذي المؤمن فهو له مصيبة وأجر»[٧].

[٤٠٩٤/٢] وأخرج ابن أبي الدنيا عن عبدالعزيز بن أبي روّاد قال: «بلغني أنّ المصباح طُفِئ

---

(١) القِبَال من النعال زمامها.

(٢) الدرّ ١: ٣٧٩؛ الكبير ٨: ٢٠٤؛ مجمع الزوائد ٢: ٣٣١؛ أبوالفتوح ٢: ٢٤٢_٢٤٣.

(٣) الدرّ ١: ٣٨٠ مسند البزّار ٨: ٤٠٠ / ٣٤٧٥؛ الشعب ٧: ١١٧ / ٩٦٩٣؛ مجمع الزوائد ٢: ٣٣١؛ كنزالعمّال ٣: ٢٩٧ / ٦٦٣٥.

(٤) الدرّ ١: ٣٨٠_٣٨١؛ عمل اليوم والليلة: ١٢٥_١٢٦ / ٣٥٥.

(٥) الدرّ ١: ٣٨٠؛ المصنّف ٦: ٢٥٩ / ١، باب ٢١٨، كتاب الأدب، باب في الرجل ينقطع شسعه فيسترجع، بلفظ: عن عوف بن عبدالله قال: كان عبدالله يمشي مع أصحابه ذات يوم فانقطع شسع نعله فاسترجع، فقال له بعض القوم: يا أبا عبدالرحمان، تسترجع على سير؟ قال: مابي إلاّ أن تكون السيور كثيرة! ولكنّها مصيبة!

(٦) الدرّ ١: ٣٨٠.

(٧) الدرّ ١: ٣٨٠؛ الثعلبي ٢: ٢٣؛ القرطبي ٢: ١٧٥؛ أبوالفتوح ٢: ٢٤١.

فاسترجع النبيّ ﷺ قال: كلّ ما ساءك مصيبة»[١].

[٤٠٩٥/٢] وأخرج الديلمي عن عائشة قالت: «أقبل رسول الله ﷺ يمشي هو وأصحابه وقد لدغته شوكة في إبهامه، فجعل يسترجع منها ويمسحها، فلمّا سمعتُ استرجاعه دنوتُ منه فنظرتُ، فإذا أثر حقير، فضحِكتُ، فقلت: يا رسول الله! بأبي أنت وأمّي، أكلّ هذا الاسترجاع من أجل هذه الشوكة؟! فتبسَّم، ثمّ ضرب على منكبي وقال: يا عائشة إنّ الله ـ عزّ وجلّ ـ إذا أراد أن يجعل الصغير كبيراً جعله، وإذا أراد أن يجعل الكبير صغيراً جعله»[٢].

[٤٠٩٦/٢] وأخرج عبدبن حميد عن الحسن قال: إذا فاتتك صلاة في جماعة فاسترجع، فإنّها مصيبة[٣].

[٤٠٩٧/٢] وأخرج عبدبن حميد عن سواد بن داوود أنّ سعيد بن المسيّب جاء وقد فاتته الصلاة في الجماعة، فاسترجع حتّى سُمِع صوته خارجاً من المسجد[٤].

[٤٠٩٨/٢] وأخرج أحمد عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «من يرد الله به خيراً يصب منه»[٥].

[٤٠٩٩/٢] وأخرج الدارمي عن عطاء بن أبي رباح قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا أصاب أحدكم مصيبة فليذكر مصابه بي فإنّها من أعظم المصائب»[٦].

---

(١) الدرّ ١: ٣٨٠.

(٢) الدرّ ١: ٣٨١؛ الفردوس بمأثور الخطاب ٥: ٤٢٦ / ٨٦٢٨.

(٣) الدرّ ١: ٣٨١.

(٤) الدرّ ١: ٣٨١.

(٥) مسند أحمد ٢: ٢٣٧؛ البغوي ١: ١٨٧ / ١٠٨.

(٦) القرطبي ٢: ١٧٦؛ الدارمي ١: ٤٠؛ الوسيط ١: ٢٣٨.

قال تعالى:

﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا وَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْراً فَإِنَّ اللهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ﴾ (١٥٨)

في هذه الآية الكريمة دفع لوسواس كان قد يعرض نفوساً مؤمنة، عندما تتشابك الأمور وتتداخل بعضها مع بعض، فقد يشتبه حقّ بباطل في بادئ النظر، ولكنّه مع التعمّق في صميم الواقع، تراه واضحاً جليّاً لاغبار عليه.

وقد تظافرت الروايات بشأن نزول الآية، ممّا يزول أيّ شكّ أو شبهة في واقع الأمر وأنّ نفي الجناح إنّما هو باعتبار ماتوهّمه البعض من الإثم حينذاك. قال الطبرسي ﷺ: كان المسلمون يرون أنّ الصفا والمروة ممّا ابتدعه أهل الجاهليّة، لصنمين كانا على الصفا والمروة يطوفون بينهما ويمسحونهما.

[٤١٠٠/٢] قال: وفي رواية عن الإمام الصادق ﷺ: أنّه كان ذلك في عمرة القضاء ـ بعد صلح الحديبيّة سنة سبع للهجرة ـ وذلك أنّ رسول الله ﷺ شرط على المشركين أن يرفعوا الأصنام لمدّة ثلاثة أيّام، فتشاغل بعض أصحابه حتّى انقضت المدّة وأعيدت الأصنام، ومن ثمّ تحرّجوا من الشوط بينهما حينذاك. فنزلت الآية دفعاً لتوهّم الحظر، وأن لاجناح في الطواف بينهما مادام القصد هو التطوّع لله سبحانه، ولا موضع للأصنام هناك، ولا تأثير لها في صحّة أداء فريضة السعي[١].

[٤١٠١/٢] وقال عليّ بن إبراهيم: إنّ قريشاً كانت وضعت أصنامهم بين الصفا والمروة وكانوا يتمسّحون بها إذا سعوا، فلمّا كان من أمر رسول الله ﷺ ما كان في غزاة الحديبيّة وصدّوه عن البيت وشرطوا له أن يخلوا له البيت في عام قابل حتّى يقضي عمرته ثلاثة أيّام ثمّ يخرج عنها، فلمّا كانت عمرة القضاء في سنة سبع من الهجرة دخل مكّة وقال لقريش: «ارفعوا أصنامكم من بين الصفا

(١) مجمع البيان ١: ٢٤٠.

والمروة حتّى أسعى»، فرفعوها، فسعى رسول الله ﷺ بين الصفا والمروة وقد رفعت الأصنام، وبقي رجل من المسلمين من أصحاب رسول الله ﷺ لم يطف، فلمّا فرغ رسول الله ﷺ من الطواف ردّت قريش الأصنام بين الصفا والمروة، فجاء الرجل الّذي لم يسع إلى رسول الله ﷺ، فقال: قد ردّت قريش الأصنام بين الصفا والمروة ولم أسع، فأنزل الله ـ عزّ وجلّ ـ: ﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا﴾ والأصنام فيهما[1].

والّذي يستفاد من هذا الحادث، أنّ الأعمال الصالحة لا تضرّها الأكدار المبتدعة، إذا خلصت النيّة لله تعالى واريد بها وجه الله سبحانه.

ومن ثمّ فإنّ من يعمل صالحاً ويُخلص نيّته لله، فإنّ الله شاكر لعمله، عليم بنيّته، فيجازيه حسبما نوى.

[٤١٠٢/٢] وروى الكليني بإسناده إلى محمّد بن أبي عمير عن الحسن بن عليّ الصيرفي عن بعض أصحابنا قال: «سُئل أبو عبدالله ﷺ عن السعي بين الصفا والمروة فريضة أم سنّة؟ فقال: فريضة، قلت: أو ليس قال الله ـ عزّ وجلّ ـ: ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا﴾؟ قال: كان ذلك في عمرة القضاء، إنّ رسول الله ﷺ شرط عليهم أن يرفعوا الأصنام من الصفا والمروة، فتشاغل رجل عن السعي حتّى انقضت الأيّام وأعيدت الأصنام، فجاؤوا إليه فقالوا: يا رسول الله، إنّ فلاناً لم يسع بين الصفا والمروة، وقد أعيدت الأصنام! فأنزل الله ـ عزّ وجلّ ـ: ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا﴾ أي وعليهما الأصنام!»[2]

[٤١٠٣/٢] وقال ابن بابويه الصدوق: روي عن زرارة ومحمّدبن مسلم أنّهما قالا: «قلنا لأبي جعفر ﷺ: ما تقول في الصلاة في السفر كيف هي وكم هي؟ فقال: إنّ الله ـ عزّ وجلّ ـ يقول: ﴿وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ﴾[3] فصار التقصير في السفر واجباً

(١) القمي ١: ٦٤؛ البحار ٩٦: ٢٣٥ / ٩، باب ٤٣.

(٢) الكافي ٤: ٤٣٥ / ٨؛ نورالثقلين ١: ١٤٨ / ٤٧١؛ التهذيب ٥: ١٤٩ / ٤٩٠ ـ ١٥؛ العيّاشيّ ١: ٨٩ / ١٣٤؛ البحار ٢٠: ٣٦٥.

(٣) النساء ٤: ١٠١.

كوجوب التمام في الحضر. قالا: قلنا: إنّما قال الله: ﴿فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ﴾، ولم يقل: افعلوا، فكيف أوجب ذلك كما أوجب التمام في الحضر؟ فقال عليه السلام: أو ليس قد قال الله ـ عزّ وجلّ ـ في الصفا والمروة: ﴿فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا﴾، ألا ترون أنّ الطواف بهما واجب مفروض! لأنّ الله ذكره في كتابه وصنعه نبيّه صلى الله عليه وآله وسلم، فكذلك التقصير في السفر صنعه النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم وذكره الله تعالى في كتابه»[1].

[٤١٠٤/٢] وأخرج الشافعي وابن سعد وأحمد وابن المنذر وابن قانع والبيهقي عن حبيبة بنت أبي تِجراة قالت: رأيت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يطوف بين الصفا والمروة، والناس بين يديه وهو وراءهم وهو يسعى حتّى أرى ركبتيه من شدّة السعي يدور به إزاره وهو يقول: «اسعوا، فإنّ الله ـ عزّ وجلّ ـ كتب عليكم السعي»[2].

[٤١٠٥/٢] وروى الكليني بالإسناد إلى حمّاد عن الحلبي عن أبي عبدالله عليه السلام قال: رسول الله قال: «أبدأ بما بدأ الله تعالى به، فأتى الصفا فبدأ بها»[3].

[٤١٠٦/٢] وروى بالإسناد إلى صفوان بن يحيى وابن أبي عمير عن معاوية بن عمّار عن أبي عبدالله عليه السلام: أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم حين فرغ من طوافه وركعتيه قال: «أبدأ بما بدأ الله ـ عزّ وجلّ ـ به من إتيان الصفا، إنّ الله ـ عزّ وجلّ ـ يقول: ﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللهِ﴾»[4].

[٤١٠٧/٢] وأخرج أحمد عن جعفر بن محمّد عن أبيه، أنّ جابر بن عبدالله قال: سمعت

---

(١) الفقيه ١: ٤٣٤ / ١٢٦٥؛ نورالثقلين ١: ١٤٨ / ٤٧٢؛ العيّاشيّ ١: ٢٩٧ / ٢٥٣، ذيل الآية ١٠١ من سورة النساء؛ البحار ٢: ٢٧٦ / ٢٦، باب ٣٣.

(٢) الدرّ ١: ٣٨٧؛ الأمّ ٢: ٢٣١؛ الطبقات ٨: ٢٤٧؛ مسند أحمد ٦: ٤٢١ـ ٤٢٢؛ معجم الصحابة ١: ١٧٩؛ البيهقي ٥: ٩٨؛ الحاكم ٤: ٧٠؛ البغوي ١: ١٩١ـ١٩٢ / ١١٦؛ ابن كثير ١: ٢٠٥، ثمّ قال: وقد استدلّ بهذا الحديث على مذهب من يرى أنّ السعي بين الصفا والمروة ركن في الحجّ.

(٣) نورالثقلين ١: ١٤٦ـ ١٤٧ / ٤٦٥؛ الكافي ٤: ٢٤٩ و ٢٥٠ / ٦ و ٧؛ علل الشرائع ٢: ٤١٣ / ١، باب ١٥٣، فيه: «ابدأوا» بدل «ابدء»؛ البحار ٢١: ٣٩٥ / ١٨، باب ٣٦، عن الكافي وبنحوه.

(٤) نورالثقلين ١: ١٤٧ / ٤٦٨؛ الكافي ٤: ٤٣١ / ١؛ التهذيب ٥: ١٤٥ـ ١٤٦ / ٤٨١ـ ٦؛ البحار ٢١: ٤٠٢ / ٣٩.

رسول الله ﷺ حين خرج من المسجد وهو يريد الصفا و هو يقول: «نبدأ بما بدأ الله ـ عزّ وجلّ ـ به»(١).

[٤١٠٨/٢] وأخرج مسلم والترمذي وابن جرير والبيهقي في سننه عن جابر، قال: لمّا دنا رسول الله ﷺ من الصفا في حجّته قال: «﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللهِ﴾ ابدأوا بما بدأ الله به. فبدأ بالصفا فرقِي عليه»(٢).

[٤١٠٩/٢] وروى الكليني بالإسناد إلى سهل بن زياد رفعه قال: ليس لله منسك أحبّ إليه من السعي، وذلك أنّه يُذلّ فيه الجبّارين!(٣)

[٤١١٠/٢] وأخرج الطبراني عن ابن عبّاس قال: «سُئل رسول الله ﷺ فقال: إنّ الله كتب عليكم السعي فاسعوا»(٤).

[٤١١١/٢] وروى الكليني بالإسناد إلى أحمد بن محمّد عن التيملي عن الحسين بن أحمد الحلبي عن أبيه عن رجل عن أبي عبدالله ؑ قال: «جعل السعي بين الصفا والمروة مذلّةً للجبّارين»(٥).

[٤١١٢/٢] وأخرج الأزرقي عن أبي هريرة قال: السنّة في الطواف بين الصفا والمروة أن ينزل من الصفا، ثمّ يمشي حتّى يأتي بطن المسيل، فإذا جاءه سَعىٰ حتّى يظهر منه، ثمّ يمشي حتّى يأتي المروة(٦).

(١) مسند أحمد ٣: ٣٨٨؛ البغوي ١: ١٩٣ / ١١٨.

(٢) الدرّ ١: ٣٨٧؛ مسلم ٤: ٣٨ ـ ٤٣، رواه مطوّلاً؛ الترمذي ٢: ١٧٦ / ٨٦٣، باب ٣٧؛ الطبري ٢: ٦٩ / ١٩٥٩؛ البيهقي ٥: ٧ ـ ٩؛ النسائي ٢: ٤١٣ / ٣٩٦٨؛ أبو داوود ١: ٤٢٤ ـ ٤٢٨ / ١٩٠٥، باب ٥٧؛ ابن ماجة ٢: ١٠٢٢ ـ ١٠٢٧ / ٣٠٧٤، باب ٨٤؛ أبو الفتوح ٢: ٢٥٦؛ ابن كثير ١: ٢٠٥؛ الثعلبي ٢: ٢٨.

(٣) نورالثقلين ١: ١٤٧ / ٤٦٩؛ الكافي ٤: ٤٣٤ / ٤؛ علل الشرائع ٢: ٤٣٣ / ١، باب ١٦٨، رواه بالإسناد إلى معاوية بن عمّار قال: قال أبو عبدالله ؑ: ما لله تعالى منسك أحبّ إليه من موضع المسعى، وذلك أنّه يُذلّ فيه كلّ جبّار عنيد؛ البحار ٩٦: ٢٣٤ / ٦، باب ٤٣.

(٤) الدرّ ١: ٣٨٧؛ الأوسط ٥: ١٨٨؛ مجمع الزوائد ٣: ٢٣٩؛ الوسيط ١: ٢٤٣؛ أبوالفتوح ٢: ٢٥٥.

(٥) نورالثقلين ١: ١٤٨ / ٤٧٠؛ الكافي ٤: ٤٣٤ / ٥؛ الصافي ١: ٣١٠؛ كنزالدقائق ٢: ٢٠٦.

(٦) الدرّ ١: ٣٨٨.

وذكر محمّدبن إسحاق في كتاب السيرة أنّ إسافاً ونائلة كانا بشرين فزنيا داخل الكعبة فمُسخا حَجَرين فنصبتهما قريش تجاه الكعبة ليعتبر بهما الناس، فلمّا طال عهدهما عُبِدا، ثـمّ حُـوِّلا إلى الصفا والمروة فنُصبا هنالك، فكان من طاف بالصفا والمروة يستلمهما، ولهذا يقول أبو طالب في قصيدته المشهورة:

وحـيث يـنيخ الأشـعرون ركـابهم لمفضى السيول من أساف ونـائل[1]

[٤١١٣/٢] وقال الطبرسي ﷺ: وفي هذه الآية دلالة على أنّ السعي بين الصفا والمروة عبادة، ولا خلاف في ذلك، وهو عندنا فرض واجب في الحجّ وفي العمرة، وبه قال الحسن وعـائشة، وهـو مذهب الشافعي وأصحابه[2].

قال مالك: من نسي السعي بين الصفا والمروة، في عمرة فلم يذكر حتّى يستبعد من مكّة أنّه يرجع فيسعى، وإن كان قد أصاب النساء، فليرجع فليسع بين الصفا والمروة حتّى يتمّ ما بقي عليه من تلك العمرة، ثمّ عليه عمرة أُخرى والهدي. وسئل مالك، عن الرجل يلقاه الرجـل بـين الصـفا والمروة، فيقف معه يحدّثه؟ فقال: لا أحبّ له ذلك. قال مالك: ومن نسي من طوافه شيئاً، أو شكّ فيه، فلم يذكر إلّا وهو يسعى بين الصفا والمروة[3] فإنّه يقطع سعيه. ثمّ يتمّ طوافه بالبيت، على ما يستيقن، ويركع ركعتي الطواف، ثمّ يبتدئ سعيه بين الصفا والمروة[4].

[٤١١٤/٢] وأخرج مالك في الموطّأ وأحمد والبخاري ومسلم وأبو داوود والنسائي وابن ماجة وابن جرير وابن أبي داوود وابن الأنباري في المصاحف معاً وابن أبي حاتم والبيهقي في السنن عن عائشة، أنّ عروة قال لها: أرأيت قول الله تعالى: ﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللهِ فَمَنْ حَجَّ الْـبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا﴾ فما أرى على أحد جناحاً أن لا يطوّف بهما؟ فقالت عـائشة: بئسما قلت يا ابن أختي، إنّها لو كانت على ما أوّلتها كانت فلا جناح عليه أن لا يطوّف بهما، ولكنّها إنّما نزلت أنّ الأنصار قبل أن يسلموا كانوا يُهِلّون لمناة الطاغية الّتي كانوا يعبدونها، وكان من أَهَلَّ

(١) ابن كثير ١: ٢٠٥.

(٢) مجمع البيان ١: ٤٤٦؛ التبيان ٢: ٤٤؛ الثعلبي ٢: ٢٧، ما بمعناه عن الشافعي ومالك؛ البغوي ١: ١٩١.

(٣) أي تذكّر أنّه نقص من طوافه.

(٤) الموطّأ ١: ٣٧٤، باب ٤٢.

لها يتحرَّج أن يطوف بالصفا والمروة، فسألوا عن ذلك رسول الله ﷺ فقالوا: يا رسول الله إنّا كنّا نتحرَّج أن نطوف بالصفا والمروة في الجاهليّة، فأنزل الله: ﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللهِ﴾ الآية. قالت عائشة: ثمّ قد سنَّ رسول الله ﷺ الطواف بهما، فليس لأحد أن يدع الطواف بهما[1].

[٤١١٥/٢] وأخرج عبد بن حميد والبخاري والترمذي وابن جرير وابن أبي داوود في المصاحف وابن أبي حاتم وابن السكن والبيهقي عن أنس، أنّه سُئِل عن الصفا والمروة قال: كنّا نرى أنّهما من أمر الجاهليّة، فلمّا جاء الإسلام أمسكنا عنهما، فأنزل الله: ﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللهِ﴾[2].

[٤١١٦/٢] وقال مقاتل بن حيّان: إنّ الناس كانوا قد تركوا الطواف بين الصفا والمروة غير الحمس وهم قريش وكنانة وخزاعة وعامربن صعصعة سُمُّوا حُمساً لتشدّدهم في دينهم، والحماسة الشجاعة والصلابة. فسألتِ الحمسُ رسول الله ﷺ عن السعي بين الصفا والمروة أمن شعائر الله أم لا؟ فإنّه لايطوف بهما غيرنا؟ فنزلت هذه الآية[3].

[٤١١٧/٢] وأخرج الحاكم وصحّحه وابن مردويه عن عائشة قالت: نزلت هذه الآية في الأنصار، كانوا في الجاهليّة إذا أحرموا لا يحلّ لهم أن يطّوّفوا بين الصفا والمروة، فلمّا قدمنا ذكروا ذلك لرسول الله ﷺ، فأنزل الله: ﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللهِ﴾[4].

[٤١١٨/٢] وأخرج الطبراني في الأوسط عن ابن عبّاس قال: قالت الأنصار: إنّ السعي بين الصفا

---

(١) الدرّ ١: ٣٨٤؛ الموطّأ ١: ٣٧٣ / ١٢٩، باب ٤٢؛ مسند أحمد ٦: ١٤٤؛ البخاري ٢: ١٦٩؛ مسلم ٤: ٦٩ ـ ٧٠؛ النسائي ٢: ٤١٠ـ ٤١١ / ٣٩٦٠؛ ابن ماجة ٢: ٩٩٤ـ ٩٩٥ / ٢٩٨٦؛ الطبري ٢: ٦٥ـ ٦٦ / ١٩٤٧ و ٧٠ / ١٩٦١؛ أبو داوود ١: ٤٢٤ / ١٩٠١، باب ٥٦؛ ابن أبي حاتم ١: ٢٦٦ ـ ٢٦٧ / ١٤٣١؛ البيهقي ٥: ٩٦ ـ ٩٧؛ الحاكم ٢: ٢٧٠، ثمّ قال: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين؛ ابن كثير ١: ٢٠٤؛ الثعلبي ٢: ٢٧.

(٢) الدرّ ١: ٣٨٤؛ البخاري ٥: ١٥٣، كتاب التفسير؛ الترمذي ٤: ٢٧٧ ـ ٢٧٨ / ٤٠٤٦، باب ٣ من أبواب تفسير القرآن؛ الطبري ٢: ٦٤ ـ ٦٥ بعد ١٩٤٠ و ١٩٤٥؛ ابن أبي حاتم ١: ٢٦٧ / ١٤٣٢؛ البيهقي ٥: ٩٧، كتاب الحجّ، جماع أبواب دخول مكّة؛ الحاكم ٢: ٢٧٠، كتاب التفسير؛ الثعلبي ٢: ٢٦؛ الوسيط ١: ٢٤٢؛ ابن كثير ١: ٢٠٥؛ البغوي ١: ١٩٣، بلفظ: قال عاصم: قلت لأنس بن مالك: أكنتم تكرهون السعي بين الصفا والمروة؟ قال: نعم لأنّها كانت من شعائر الجاهليّة حتّى أنزل الله تعالى: ﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ...﴾؛ القرطبي ٢: ١٧٩.

(٣) الثعلبي ٢: ٢٧؛ أبوالفتوح ٢: ٢٥٤ ـ ٢٥٥.

(٤) الدرّ ١: ٣٨٤؛ الحاكم ٢: ٢٧٠.

والمروة من أمر الجاهليّة، فأنزل الله: ﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللهِ﴾ الآية(١).

[٤١١٩/٢] وأخرج ابن جرير عن عمرو بن حبيش قال: سألت ابن عمر عن قوله: ﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ﴾ الآية؟ فقال: انطلق إلى ابن عبّاس فاسأله، فإنّه أعلم من بقي بما أُنزل على محمّد. فأتيته فسألته فقال: إنّه كان عندهما أصنام، فلمّا أسلموا أمسكوا عن الطواف بينهما حتّى أُنزلت: ﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ﴾ الآية(٢).

[٤١٢٠/٢] وأخرج ابن جرير عن ابن عبّاس في قوله: ﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللهِ﴾ الآية. وذلك أنّ ناساً تحرَّجوا أن يطوّفوا بين الصفا والمروة، فأخبر الله أنّهما من شعائره والطواف بينهما أحبّ إليه، فمضت السنة بالطواف بينهما(٣).

[٤١٢١/٢] وأخرج سعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن عامر الشعبي قال: كان وثن بالصفا يدعى إسافاً ووثن بالمروة يدعى نائلة، فكان أهل الجاهليّة إذا طافوا بالبيت يسعون بينهما ويمسحون الوثنين، فلمّا قدم رسول الله ﷺ قالوا: يا رسول الله إنّ الصفا والمروة إنّما كان يطاف بهما من أجل الوثنين وليس الطواف بهما من الشعائر! فأنزل الله: ﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ﴾ الآية. فذُكِّر الصفا من أجل الوثن الّذي كان عليه، وأُنِّثت المروة من أجل الوثن الّذي كان عليه مؤنّثاً(٤).

[٤١٢٢/٢] وأخرج سعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن جرير عن مجاهد قال: قالت الأنصار إنّما السعي بين هذين الحجرين من عمل أهل الجاهليّة، فأنزل الله: ﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللهِ﴾ قال: من الخير الّذي أخبرتكم عنه فلم يحرّج من لم يَطُف بهما ومن تطوّع خيراً فهو خير له، فتطوّع

---

(١) الدرّ ١: ٣٨٥؛ الأوسط ٨: ١٧٨؛ مجمع الزوائد ٣: ٢٤٨.

(٢) الدرّ ١: ٣٨٥؛ الطبري ٢: ٦٤ / ١٩٤١؛ الثعلبي ٢: ٢٦؛ أبو الفتوح ٢: ٢٥٤.

(٣) الدرّ ١: ٣٨٥؛ الطبري ٢: ٦٤ / ١٩٤٢.

(٤) الدرّ ١: ٣٨٥؛ الطبري ٢: ٦٣ / ١٩٣٧ و ١٩٣٨؛ القرطبي ٢: ١٧٩؛ ابن كثير ١: ٢٠٥، بلفظ: وقال الشعبي: كان إساف على الصفا وكانت نائلة على المروة وكانوا يستلمونهما فتحرّجوا بعد الإسلام من الطواف بينهما فنزلت هذه الآية؛ مجمع البيان ١: ٤٤٥؛ الوسيط ١: ٢٤٢ ـ ٢٤٣.

رسول الله ﷺ فكانت من السنن(١).

[٤١٢٣/٢] وأخرج ابن جرير عن قتادة قال: كان ناس من أهل تهامة في الجاهليّة لا يطوفون بين الصفا والمروة، فأنزل الله: ﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللهِ﴾ وكان من سنّة إبراهيم وإسماعيل الطواف بينهما(٢).

[٤١٢٤/٢] وأخرج عبد بن حميد ومسلم والترمذي وابن جرير وابن مردويه والبيهقي في سننه من طريق الزهري عن عروة عن عائشة قالت: كان رجال من الأنصار ممّن كان يهلّ لمناة في الجاهليّة ـ ومناة صنم بين مكّة والمدينة ـ قالوا: يا نبيّ الله إنّا كنّا لا نطوف بين الصفا والمروة تعظيماً لمناة، فهو علينا من حرج أن نطوف بهما؟ فأنزل الله: ﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللهِ﴾ الآية. قال عروة: فقلت لعائشة: ما أبالي أن لا أطوف بين الصفا والمروة!، قال الله: ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا﴾ فقالت يا ابن أختي ألا ترى أنّه يقول: ﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللهِ﴾ قال الزهري: فذكرت ذلك لأبي بكر بن عبدالرحمان بن الحرث بن هشام فقال: هذا العلم. قال أبوبكر: ولقد سمعت رجالاً من أهل العلم يقولون: لمّا أنزل الله الطواف بالبيت ولم ينزل الطواف بين الصفا والمروة، قيل للنبيّ ﷺ: إنّا كنّا نطوف في الجاهليّة بين الصفا والمروة، وإنّ الله قد ذكر الطواف بالبيت ولم يذكر الطواف بين الصفا والمروة، فهل علينا من حرج أن لا نطوف بهما؟ فأنزل الله: ﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللهِ...﴾. قال أبوبكر: فأسمع هذه الآية نزلت في الفريقين كليهما، في من طاف وفي من لم يطُف(٣).

---

(١) الدرّ ١: ٣٨٥؛ الطبري ٢: ٦١ ـ ٧٢ / ١٩٤٤ وبعده و ١٩٣٥ وبعده بلفظ: ﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ...﴾ قال من الخير الّذي أخبركم عنه، قال ابن جرير: فكأنّ مجاهداً كان يرى أنّ الشعائر إنّما هو جمع شعيرة من إشعار الله عباده أمر الصفا والمروة وما عليهم في الطواف بهما، فمعناه إعلامهم ذلك؛ وذلك تأويل من المفهوم بعيد. و ١٩٥٧ بلفظ ﴿...فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا﴾ قال: فلم يحرّج من لم يطف بهما و١٩٦٢؛ الثعلبي ٢: ٢٥ و ٢٧ و ٢٨؛ البغوي ١: ١٩٣.

(٢) الدرّ ١: ٣٨٦؛ الطبري ٢: ٦٥ و ٦٧ / ١٩٤٦ و ١٩٤٩؛ أبو الفتوح ٢: ٢٥٤؛ الثعلبي ٢: ٢٦، بلفظ: «كان ناس من تهامة في الجاهليّة لا يسعون بين الصفا والمروة فلمّا جاء الإسلام تحوّبوا السعي بينهما كما كانوا يتحوّبونه في الجاهليّة فأنزل الله تعالى هذه الآية». والتحوّب: التأثم. أي كانوا يرون السعي بينهما إثماً.

(٣) الدرّ ١: ٣٨٦؛ مسلم ٤: ٩٩، كتاب الحجّ؛ الترمذي ٤: ٢٧٧ / ٤٠٤٥، باب ٣، أبواب تفسير القرآن؛ الطبري ٢: ٦٦ / ←

[٤١٢٥/٢] وأخرج ابن ماجة عن أمّ ولدٍ لشيبة قالت: رأيت رسول الله ﷺ يسعى بين الصفا والمروة وهو يقول: «لا يقطع الأبطح إلّا شَدّاً (أي عدواً)»(١).

[٤١٢٦/٢] وأخرج ابن جرير وابن أبي داوود في المصاحف وابن أبي حاتم والحاكم وصحّحه عن ابن عبّاس قال: كانت الشياطين في الجاهليّة تعزف الليل أجمع بين الصفا والمروة، فكانت فيهما آلهة لهم أصنام، فلمّا جاء الإسلام قال المسلمون: يا رسول الله ألا نطوف بين الصفا والمروة فإنّه شيء كنّا نصنعه في الجاهليّة؟ فأنزل الله: ﴿فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا﴾ يقول: ليس عليه إثم ولكن له أجر(٢).

← ١٩٤٨؛ البيهقي ٥: ٩٧، كتاب الحجّ؛ القرطبي ٢: ١٧٨، ثم قال: «هذا حديث حسن صحيح». أخرجه البخاري بمعناه وفيه ـ بعد قوله: فأنزل الله تعالى: ﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللهِ﴾ ـ «قالت عائشة: وقد سنّ رسول الله ﷺ الطواف بينهما، فليس لأحد أن يترك الطواف بينهما. ثمّ أخبرت أبابكر بن عبدالرحمان، فقال: إنّ هذا لَعِلْمٌ ما كنتُ سمعته، ولقد سمعت رجالاً من أهل العلم يذكرون أنّ الناس ـ إلّا من ذَكَرَتْ عائشة ـ ممّن كان يُهلّ بمناة، كانوا يطوفون كلّهم بالصفا والمروة، فلمّا ذكر الله تعالى الطواف بالبيت ولم يذكر الصفا والمروة في القرآن. قالوا: يا رسول الله كنّا نطوف بالصفا والمروة وإنّ الله أنزل الطواف بالبيت فلم يذكر الصفا، فهل علينا من حرج أن نطوف بالصفا والمروة؟ فأنزل الله ـ عزّ وجلّ ـ: ﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللهِ﴾ الآية.

قال أبوبكر: فأسمع هذه الآية نزلت في الفريقين كليهما. في الّذين كانوا يتحرّجون أن يطوفوا في الجاهليّة بالصفا والمروة، والّذين يطوفون ثمّ تحرّجوا أن يطوفوا بهما في الإسلام، من أجل أنّ الله أمر بالطواف بالبيت ولم يذكر الصفا حتّى ذكر ذلك بعد الطواف بالبيت»؛ ابن كثير ١: ٢٠٤ ـ ٢٠٥، بلفظ: عن الزهري أنّه قال: فحدّثت بهذا الحديث أبابكر بن عبدالرحمان بن الحارث بن هشام فقال: إنّ هذا العلم ما كنت سمعته ولقد سمعت رجالاً من أهل العلم يقولون: إنّ الناس، إلّا من ذكرت عائشة كانوا يقولون: إنّ طوافنا بين هذين الحجرين من أمر الجاهليّة، وقال آخرون من الأنصار: إنّما أُمرنا بالطواف بالبيت ولم نؤمر بالطواف بين الصفا والمروة فأنزل الله تعالى: ﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ...﴾ قال أبوبكر بن عبدالرحمان: فلعلّها نزلت في هؤلاء وهؤلاء. ورواه البخاري من حديث مالك عن هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة بنحو ما تقدّم.

(١) ابن ماجة ٢: ٩٩٥ / ٢٩٨٧؛ القرطبي ٢: ١٨٣؛ مسند أحمد ٦: ٤٠٤؛ مجمع الزوائد ٣: ٢٤٨.

(٢) الدرّ ١: ٣٨٥؛ الطبري ٢: ٦٤ / ١٩٤٣؛ المصاحف: ٩٩ ـ ١٠٠؛ ابن أبي حاتم ١: ٢٦٧ / ١٤٣٥؛ الحاكم ٢: ٢٧١، كتاب التفسير؛ الثعلبي ٢: ٢٦؛ ابن كثير ١: ٢٠٥، بلفظ: «كانت الشياطين تفرق بين الصفا والمروة الليل كلّه وكانت بينهما آلهة فلمّا جاء الإسلام سألوا رسول الله ﷺ عن الطواف بينهما فنزلت هذه الآية».

[٤١٢٧/٢] وأخرج ابن جرير عن عاصم، قال: سمعت أنساً يقول: الطواف بينهما تطوّع[١].

[٤١٢٨/٢] وعن عبدالله بن الزبير، قال: هما[٢] تطوّع[٣].

[٤١٢٩/٢] وعن السدّي في قوله: ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا﴾ يقول: ليس عليه إثم ولكن له أجر[٤].

* * *

[٤١٣٠/٢] أخرج أبو عبيد في فضائله وعبد بن حميد وابن جرير وابن أبي داوود في المصاحف وابن المنذر وابن الأنباري عن ابن عبّاس أنّه كان يقرأ: «فلا جناح عليه أن لا يطوف بهما»[٥].

[٤١٣١/٢] وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن عطاء قال: في مصحف ابن مسعود «فلا جناح عليه أن لا يطوف بهما»[٦].

[٤١٣٢/٢] وأخرج ابن أبي داوود في المصاحف عن حمّاد قال: وجدت في مصحف أبيّ «فلا جناح عليه أن لا يطوف بهما»[٧].

[٤١٣٣/٢] وأخرج عن مجاهد أنّه كان يقرأ: «فلا جناح عليه أن لا يطوف بهما»[٨].

[٤١٣٤/٢] وأخرج الطبراني في الأوسط عن ابن عبّاس أنّه قرأ: ﴿فلا جناح عليه أن يطوّف بهما﴾ مثقّلة، فمن ترك فلا بأس[٩].

قال القرطبي: فإن قيل: فقد روى عطاء عن ابن عبّاس أنّه قرأ: «فلا جناح عليه أن لا يطوف بهما» وهي قراءة ابن مسعود، ويروى أنّها في مصحف أبيّ كذلك، ويروى عن أنس مثل هذا.

---

(١) الطبري ٢: ٦٨ ـ ٦٩ / ١٩٥٥.

(٢) أي السعي إلى كلّ من الصفا والمروة.

(٣) الطبري ٢: ٦٩ / ١٩٥٨؛ أبوالفتوح ٢: ٢٥٥.

(٤) الطبري ٢: ٦٣ / ١٩٣٦.

(٥) الدرّ ١: ٣٨٦؛ فضائل القرآن: ١٦٣ / ٣، باب ٥٠؛ الطبري ٢: ٦٨ / ١٩٥٤؛ الثعلبي ٢: ٢٨؛ أبوالفتوح ٢: ٢٥٥؛ مجمع البيان ١: ٤٤٢.

(٦) الدرّ ١: ٣٨٧؛ الطبري ٢: ٦٨ / ١٩٥٣؛ أبوالفتوح ٢: ٢٥٥؛ الثعلبي ٢: ٢٨.

(٧) الدرّ ١: ٣٨٧؛ المصاحف: ٥٣؛ مجمع البيان ١: ٤٤٢.

(٨) الدرّ ١: ٣٨٧.

(٩) الدرّ ١: ٣٨٧؛ الأوسط ٥: ٤٨؛ مجمع الزوائد ٣: ٢٤٨.

والجواب: أنّ ذلك خلاف ما في المصحف، ولا يترك ما قد ثبت في المصحف إلى قراءة لا يُدرى أصحّت أم لا، وكان عطاء يكثر الإرسال عن ابن عبّاس من غير سماع. والرواية في هذا عن أنس قد قيل إنّها ليست بالمضبوطة، أو تكون «لا» زائدة للتوكيد، كما قال:

وما ألوم البيض ألا تسخرا   لما رأين الشَّمَط القفندرا[١]

وقال الشيخ الطوسي ﷺ: وفي الناس من قال ـ وهو الجبّائي وغيره ـ: إنّ التقدير فلا جناح عليه ألّا يطوف بهما كما قال: ﴿يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ أَنْ تَضِلُّوا﴾[٢] ومعناه ألّا تضلّوا وكما قال: ﴿أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾[٣] ومعناه ألّا تقولوا.

وقال آخرون: إنّ ذلك لايجوز. وهو اختيار الرمّاني. وهو الصحيح، لأنّ الحذف يحتاج إلى دليل[٤].

[٤١٣٥/٢] وقال مقاتل والكلبي: ﴿فَمَنْ تَطَوَّعَ﴾ أي: زاد في الطواف بعد الواجب[٥].

[٤١٣٦/٢] وقال الحسن وغيره: أراد سائر الأعمال، يعني: فعل غير المفترض عليه من زكاة وصلاة وطواف وغيرها من أنواع الطاعات[٦].

[٤١٣٧/٢] وهكذا ذكر الأصم: إنّ معناه من تطوّع بالحجّ والعمرة بعد أداء الحجّ والعمرة المفروضين[٧].

[٤١٣٨/٢] وعن ابن عبّاس وغيره: معناه من تبرّع بالطواف والسعي بين الصفا والمروة[٨] بعد ما أدّى الواجب من ذلك[٩].

---

(١) القرطبي ٢: ١٨٢.

(٢) النساء ٤: ١٧٤.

(٣) الأعراف ٧: ١٧٢.

(٤) التبيان ٢: ٤٤ ـ ٤٥.

(٥) البغوي ١: ١٩٣؛ أبوالفتوح ٢: ٢٥٨، بلفظ: فمن زاد على الواجب في الطواف؛ الثعلبي ٢: ٢٩، بلفظ: ومن تطوّع زاد في الطواف بعد الواجب.

(٦) الثعلبي ٢: ٢٩؛ البغوي ١: ١٩٣؛ مجمع البيان ١: ٤٤٥، بلفظ: ﴿وَمَنْ تَطَوَّعَ خيراً﴾ إنّ معناه من تطوّع بالخيرات وأنواع الطاعات، عن الحسن؛ أبوالفتوح ٢: ٢٥٨؛ ابن كثير ١: ٢٠٥ ـ ٢٠٦، بلفظ: وقيل: المراد تطوّع خيراً في سائر العبادات؛ الوسيط ١: ٢٤٣.

(٧) مجمع البيان ١: ٤٤٥؛ الثعلبي ٢: ٢٩، مع عدم ذكر الراوي.

(٨) يعني بعمرة أخرى.

(٩) مجمع البيان ١: ٤٤٥.

[٤١٣٩/٢] وأخرج وكيع وعبد الرزّاق وعبد بن حميد ومسلم وابن ماجة وابن جرير عن عائشة قالت: لعمري ما أتمّ الله حجَّ من لم يسع بين الصفا والمروة ولا عمرته، لأنّ الله قال: ﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ﴾[١].

[٤١٤٠/٢] وأخرج ابن جرير عن مالك بن أنس: من نسي السعي بين الصفا والمروة حتّى يستبعد من مكّة فليرجع فليسع، وإن كان قد أصاب النساء فعليه العمرة والهدي.

وكان الشافعي يقول على من ترك السعي بين الصفا والمروة حتّى رجع إلى بلده: العود إلى مكّة حتّى يطوف بينهما لايجزيه غير ذلك. حدّثنا بذلك عنه الربيع[٢].

قال القرطبي: اختلف العلماء في وجوب السعي بين الصفا والمروة:

وقال أبو حنيفة وأصحابه والثوري والشعبي ليس بواجب، فإن تركه أحد من الحاجّ حتّى يرجع إلى بلاده جبره بالدم، لأنّه سنّة من سنن الحجّ. وهو قول مالك في العتبيّة[٣].

[٤١٤١/٢] وأخرج ابن جرير عن أبي حنيفة، وأبي يوسف، ومحمّد: إن عاد تارك الطواف بينهما لقضائه فحسن، وإن لم يعد فعليه دم[٤].

---

(١) الدرّ ١: ٣٨٦؛ مسلم ٤: ٦٨؛ ابن ماجة ٢: ٩٩٤ ـ ٩٩٥ / ٢٩٨٦؛ الطبري ٢: ٦٧ / ١٩٥٠ وفيه: «لعمري ما حجّ من لم يسع ...».

(٢) الطبري ٢: ٦٨ / ١٩٥١.

(٣) القرطبي ٢: ١٨٣.

(٤) الطبري ٢: ٦٨ / ١٩٥٢.

قال تعالى:

إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُوْلَئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللاَّعِنُونَ ﴿١٥٩﴾ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنُوا فَأُوْلَـئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿١٦٠﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ أُوْلَـئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١٦١﴾ خَالِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿١٦٢﴾

ولقد كان أهل الكتاب يعرفون مدى ما في رسالة الإسلام من حقّ، وقد بيّنه الله فيما بأيديهم من كتاب. فهم وأمثالهم في أيّ فترة من زمان وفي أيّ بقعة من مكان، ممّن يكتمون الحقّ الصراح، أو يسكتون عن الحقّ وهم يعرفونه ﴿أُوْلَئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللاَّعِنُونَ﴾ فإنّهم خبثاء جبناء، يرون مصالحهم في إخفاء الحقّ وإخماد الحقيقة، ومن ثمّ فهم بعداء عن جادّة الشريعة البيضاء، محايدون عن صريح الفطرة ونداء العقل الرشيد. بل أعداء الإنسانية في شتّى مجالاتها، ومن ثمّ فهم ملعونون منبوذون، يلفظهم الحقّ وتطردهم الحقيقة في واقعها الصريح.

نعم، الساكت عن الحقّ شيطان أخرس، فقد تحوّلوا إلى ملعنة ينصبّ عليهم اللعنة من كلّ صوب ويشملهم لعن كلّ لاعن.

واللعن: الطرد في غضب وزجر. وأولئك يلعنهم الله فيطردهم من رحمته، ويطاردهم اللاعنون من كلّ جهة. فهم هكذا مطاردون من الله ومن عباده في كلّ دور و كور.

﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا﴾ رجعوا عن غيّهم ﴿وَأَصْلَحُوا﴾ ما كانوا أفسدوه ﴿وَبَيَّنُوا﴾ ما كانوا كتموه ﴿فَأُوْلَئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾، إنّها نافذة لهم مضيئة يفتحها الله لهم، فتنسم نسمة الأمل في الصدور و تقود القلوب إلى مصدر النور، فلا تيأس من روح الله ولاتقنط من رحمة الله. فمن شاء فليرجع إلى الحمى الآمن. وآية الصدق: التوبة والإصلاح في العمل والتبيين في القول، وإعلان الحقّ والاعتراف به والعمل بمقتضاه. ثمّ ليثق برحمة الله وقبوله للتوبة وهو يقول: ﴿وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ وهو أصدق القائلين.

فأمّا الّذين يصرّون على باطلهم ولايؤبون إلى الحقّ، حتّى تفلت الفرصة وتنتهي المهلة،

فأولئك ملاقون ما أوعد الله من قبل به، بزيادة وتفصيل وتوكيد:

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ أُوْلَئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ. خَالِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ﴾.

ذلك أنّهم أغلقوا على أنفسهم باب الرحمة، وعافوا الفرصة حتّى انقضت المهلة، وأصرّوا على الكتمان والكفر والضلال، فجاءتهم اللعنة مطبقة لاملجأ منها ولا راحم.. وهذا هو العذاب الأليم المهين.

[٤١٤٢/٢] أخرج ابن إسحاق وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عبّاس قال: سأل معاذ بن جبل أخو بني سلمة، وسعد بن معاذ أخو بني الأشهل، وخارجة بن زيد أخو الحرث بن الخزرج، نفراً من أحبار يهود عن بعض ما في التوراة، فكتموهم إيّاه وأبوا أن يخبروهم عنه. فأنزل الله فيهم: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى﴾ الآية(١).

[٤١٤٣/٢] وأخرج ابن سعد وعبد بن حميد وابن جرير عن قتادة في قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى﴾ الآية. قال: أولئك أهل الكتاب كتموا الإسلام وهو دين الله، وكتموا محمّداً، وهم يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل، ﴿وَيَلْعَنُهُمُ اللاَّعِنُونَ﴾ قال: من ملائكة الله ومن المؤمنين(٢).

[٤١٤٤/٢] وأخرج ابن أبي حاتم عن أبي العالية في الآية قال: هم أهل الكتاب كتموا محمّداً ونعته، وهم يجدونه مكتوباً عندهم حسداً وبغياً، وكتموا ما أنزل الله من أمره وصنعته(٣).

[٤١٤٥/٢] وأخرج ابن جرير عن السديّ في الآية قال: زعموا أنّ رجلاً من اليهود كان له صديق من الأنصار يقال له ثعلبة بن غنمة، قال له: هل تجدون محمّداً عندكم؟ قال: لا. قال: محمّد البيّنات(٤).

---

(١) الدرّ ١: ٣٩٠؛ الطبري ٢: ٧٢ـ٧٣ / ١٩٦٤؛ ابن أبي حاتم ١: ٢٦٨ / ١٤٣٩؛ التبيان ٢: ٤٦؛ أبوالفتوح ٢: ٢٥٩.

(٢) الدرّ ١: ٣٩٠؛ الطبري ٢: ٧٣ / ١٩٦٧؛ مجمع البيان ١: ٤٤٦، نقلاً عن ابن عبّاس ومجاهد والحسن وقتادة وأكثر أهل العلم بنحو ما رواه التبيان؛ الثعلبي ٢: ٣٠؛ أبوالفتوح ٢: ٢٦١؛ عبدالرزّاق ١: ٣٠٠ / ١٥٢.

(٣) الدرّ ١: ٣٩٠؛ ابن أبي حاتم ١: ٢٦٨ / ١٤٤١؛ الطبري ٢: ٧٣ / ١٩٦٦، نقلاً عن الربيع.

(٤) الدرّ ١: ٣٩٠؛ الطبري ٢: ٧٣ / ١٩٦٨.

[٤١٤٦/٢] وروي عن الإمام العسكري عليه السلام: قال: «قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بالله في ردّهم نبوّة محمّد صلى الله عليه وآله وسلم وولاية عليّ بن أبي طالب عليه السلام:[١] ﴿وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ﴾ على كفرهم ﴿أُوْلَئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللهِ﴾ يوجب الله تعالى لهم البُعد من الرحمة، والسحق من الثواب[٢] ﴿وَالْمَلَائِكَةِ﴾ وعليهم لعنة الملائكة يلعنونهم ﴿وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ ولعنة الناس أجمعين كلّ يلعنهم، لأنّ كلّ المأمورين المنهيين[٣] يلعنون الكافرين، والكافرون أيضاً يقولون: لعن الله الكافرين، فهم في لعن أنفسهم أيضاً ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾ في اللعنة، في نار جهنم ﴿لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ﴾ يوماً ولا ساعةً ﴿وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ﴾ لا يؤخّرون ساعةً إلّا يَحُلُّ بهم العذابُ»[٤]

[٤١٤٧/٢] وأخرج عبد بن حميد والترمذي و ابن ماجة والحاكم عن أبي هريرة، أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: «من سُئل عن علم عنده فكتمه ألجمه الله بلجام من نار يوم القيامة»[٥].

قال القرطبي ـ في تفسير الآية ـ: أخبر الله تعالى أنّ الّذي يكتم ما أنزل الله من البيّنات والهدى ملعون. واختلفوا مَنِ المراد بذلك؟ فقيل: أحبار اليهود ورهبان النصارى، الّذين كتموا أمر محمّد صلى الله عليه وآله وسلم وقد كتم اليهود أمر الرجم.

وقيل: المراد كلّ من كتم الحقّ، فهي عامّة في كلّ من كتم علماً من دين الله يُحتاج إلى بثّه، وذلك مفسَّر في قوله صلى الله عليه وآله وسلم: من سُئل عن علم يعلمه فكتمه.... رواه أبو هريرة و عمرو بن العاص. أخرجه إبن ماجه.

ويعارضه قول عبدالله بن مسعود: «ما أنت بمحدّث قوماً حديثاً لاتبلغه عقولهم، إلّا كان لبعضهم فتنة». وقال صلى الله عليه وآله وسلم: «حدّث الناس بما يفهمون أتحبّون أن يكذَّب الله ورسوله؟»

وهذا محمول على بعض العلوم كعلم الكلام أو ما لايستوى في فهمه جميع العوامّ، فحكم

(١) إذ ولاية عليّ عليه السلام امتداد لولاية رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بنصّ حديث الغدير.

(٢) السحق، المحق والإبادة.

(٣) أي كلّ متعبّد بأوامر الله ونواهيه.

(٤) البرهان ١: ٣٧٠؛ تفسير الإمام: ٥٧٢ / ٣٣٤؛ البحار ٦: ١٨٩ـ ١٩٠ / ٣٣.

(٥) الدرّ ١: ٣٩٢؛ الترمذي ٤: ١٣٨ / ٢٧٨٧؛ ابن ماجة ١: ٩٨ / ٢٦٦؛ الحاكم ١: ١٠١، كتاب العلم؛ أبو داوود ٢: ١٧٩ / ٣٦٥٨؛ كنزالعمّال ١٠: ١٩٠ـ ١٩١ / ٢٩٠٠١؛ مسند أحمد ٢: ٣٠٥؛ أبوالفتوح ٢: ٢٦٠ عبدالرزّاق ١: ٢٩٩ / ١٥١؛ ابن كثير ١: ٢٠٦.

العالم أن يحدّث بما يُفهم عنه، وينزل كلّ إنسان منزلته، والله تعالى أعلم[١].

وسيأتي حديث سلمان بهذا الشأن. وللعلّامة المجلسي بيان في ذلك يأتي.

[٤١٤٨/٢] وقال الطبرسيّ: وروي عن النبيّ ﷺ إنّه قال: «من سئل عن علم يعلمه فكتمه أُلجم يوم القيامة بلجام من نار»[٢].

[٤١٤٩/٢] وأخرجه ابن ماجة عن أنس بن مالك: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من سُئل عن علم فكتمه ألجم يوم القيامة بلجام من نار»[٣].

[٤١٥٠/٢] وأخرج ابن ماجة والمرهبيّ في فضل العلم عن أبي سعيد الخُدري قال: قال رسول الله ﷺ: «من كتم علماً ممّا ينفع الله به الناس في أمر الدين، ألجمه الله يوم القيامة بلجام من نار»[٤].

[٤١٥١/٢] وروى الإمام أبو محمّد العسكري عن آبائه عن الإمام أمير المؤمنين عليه السلام قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من سُئل عن علم فكتمه حيث يجب إظهاره، وتزول عنه التقيّة، جاء يوم القيامة ملجماً بلجام من النار»[٥].

[٤١٥٢/٢] قال الإمام أمير المؤمنين: «إذا كتم العالم العلم من أهله، وزَها الجاهلُ في تعلّم ما لابدّ منه[٦] وبخل الغنيّ بمعروفه، وباع الفقير دينه بدنيا غيره، جَلَّ البلاءُ وعظم العقاب»[٧].

قال العلّامة المجلسي: هذا إذا توفّرت الشرائط لإظهار غوامض العلوم، أمّا إذا لم يكن المستمع على استعداد للاستفاضة بنور العلم، إمّا لضعف في العقل أو الفهم، فعندئذ يجب مراعاة

---

(١) القرطبي ٢: ١٨٤ ـ ١٨٥.

(٢) نورالثقلين ١: ١٤٩؛ مجمع البيان ١: ٤٤٧؛ البرهان ١: ٣٦٩ / ٨؛ الصافي ١: ٣١١؛ كنزالدقائق ٢: ٢٠٨؛ الأمالي للطوسي: ٣٧٧ / ٨٠٨ ـ ٥٩، المجلس ١٣، بإسناده إلى عبدالله بن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «أيّما رجل آتاه الله علماً فكتمه وهو يعلمه، لقى الله (عزو جل) يوم القيامة ملجماً بلجام من نار»؛ التبيان ٢: ٤٦؛ البحار ٢: ٦٨ / ١٩، باب ١٣. (عن الأمالي وبلفظه).

(٣) الدرّ ١: ٣٩٢؛ ابن ماجة ١: ٩٧ / ٢٦٤؛ أبوالفتوح ٢: ٢٦٠.

(٤) الدرّ ١: ٣٩٢؛ ابن ماجة ١: ٩٧ / ٢٦٥، باب ٢٤؛ كنزالعمّال ١٠: ١٩٦ / ٢٩٠٣١.

(٥) تفسير الإمام: ٤٠٢ / ٢٧٣.

(٦) زها: تبختر وأعجب بنفسه وتاه في غياهب جهله.

(٧) تفسير الإمام: ٤٠٢ / ٢٧٣.

الظروف، إذ يجب حمل الناس على ما تطيقه عقولهم وتقبله أحلامهم[١].

[٤١٥٣/٢] وروى الكليني مرفوعاً إلى النبيّ ﷺ قال: «إذا ظهرت البدع في أمّتي، فليُظهر العالم علمه، فمن لم يفعل فعليه لعنة الله»[٢].

[٤١٥٤/٢] وروى العيّاشيّ بالإسناد إلى زيد الشحّام، قال: سُئل أبو عبدالله عليه السلام عن عذاب القبر، فقال: «إنّ أبا جعفر عليه السلام حدّثنا أنّ رجلاً أتى سلمان الفارسي فقال: حدّثني، فسكت عنه، ثمّ عاد فسكت، فأدبر الرجل وهو يقول ويتلو هذه الآية: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى مِن بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ﴾، فقال له: أقبل، إنّا لو وجدنا أميناً لحدّثناه، ولكن أعدَّ لمنكر ونكير إذا أتياك في القبر فسألاك عن رسول الله ﷺ، فإن شككت أو التويت، ضرباك على رأسك بمطرقة معهما تصير منها رماداً! فقال له: ثمّ مه، قال: تعود ثمّ تعذّب، قال: وما منكر و نكير؟ قال: هما قعيدا[٣] القبر، قال: أملكان يعذّبان الناس في قبورهم؟ فقال: نعم»[٤].

[٤١٥٥/٢] وروى الطبرسي صاحب الاحتجاج بإسناد رفعه إلى الإمام أبي محمّد العسكري عليه السلام في حديث طويل وفيه: «قيل لأمير المؤمنين عليه السلام: مَن خير خلق الله بعد أئمّة الهدى؟ قال: العلماء إذا صلحوا. قيل، فمن شرّ خلق الله بعد إبليس؟ قال: العلماء إذا فسدوا؛ هم المظهرون للأباطيل، الكاتمون للحقائق، وفيهم قال الله عزّ وجلّ: ﴿أُوْلَئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللاَّعِنُونَ. إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا﴾» نقلاً بتلخيص[٥].

[٤١٥٦/٢] وروي عن رسول الله ﷺ قال: «علماء هذه الأمّة رجلان، رجل آتاه الله علماً، فطلب به وجه الله والدار الآخرة وبذله للناس، ولم يأخذ عليه طُعْما، ولم يشتر به ثمناً قليلاً. فذلك يستغفر له من في البحور ودوابّ البرّ والبحر والطير في جوّ السماء، ويقدم على الله سيّداً شريفاً. ورجل

---

(١) البحار ٢: ٧٢ـ٧٣/ ٣٧. نقلاً بالمضمون.

(٢) الكافي ١: ٥٤/ ٢، كتاب فضل العلم، باب البدع والرأي والمقائيس؛ دعائم الإسلام ١: ٢؛ البحار ٥٤: ٢٣٤ و ٢: ٧٢/ ٣٥ عوالي اللئالي ٤: ٧٠ـ ٧١/ ٣٩؛ المحاسن ١: ٢٣١/ ١٧٦، باب ١٧، وفيه: (البدعة) بدل (البدع).

(٣) القعيد: الذي يصاحبك في قعودك.

(٤) العيّاشيّ ١: ٩٠/ ١٣٩؛ الصافي ١: ٣١١ـ ٣١٢، إلى قوله: لحدّثناه.

(٥) الاحتجاج ٢: ٢٦٤ ـ ٢٦٥ نقلاً بتلخيص؛ نورالثقلين ١: ١٤٩/ ٤٧٩؛ تفسير الإمام: ٣٠٢/ ١٤٤؛ البحار ٢: ٨٩/ ١٢؛ البرهان ١: ٣٦٩/ ٧؛ الصافي ١: ٣١١؛ كنزالدقائق ٢: ٢٠٧ـ٢٠٨.

آتاه الله علماً فبخل به على عباد الله وأخذ عليه طعما، واشترى به ثمناً قليلاً، فذلك يُلجم يوم القيامة بلجام من نار، وينادي ملك من الملائكة على رؤوس الأشهاد: هذا فلان ابن فلان، آتاه الله علماً في دار الدنيا فبخل به على عباده حتّى يفرغ من الحساب!»(١)

[٤١٥٧/٢] وأخرج الطبراني في الأوسط عن أبي هريرة: أنّ رسول الله ﷺ قال: «مثل الّذي يتعلّم العلم ثمّ لا يحدّث به كمثل الّذي يكنز الكنز فلا ينفق منه»(٢).

[٤١٥٨/٢] وأخرج ابن أبي شيبة وأحمد في الزهد عن سلمان قال: علمٌ لا يقال به ككنزٍ لا ينفق منه(٣).

قوله تعالى: ﴿وَيَلْعَنُهُمُ اللاَّعِنُونَ﴾

[٤١٥٩/٢] أخرج عبد بن حميد عن عطاء في قوله: ﴿أُوْلَئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللاَّعِنُونَ﴾ قال: الجنّ والإنس، وكلّ دابّة(٤).

[٤١٦٠/٢] وعن الربيع بن أنس قال: اللّاعنون هم ملائكة الله والمؤمنون(٥).

[٤١٦١/٢] وقال ابن عبّاس: جميع الخلائق إلّا الجنّ والإنس(٦).

---

(١) روضة الواعظين: ١١؛ أبوالفتوح ٢: ٢٦٠؛ البحار ٢: ٥٤ ـ ٥٥ / ٢٥، باب ١١؛ كنزالعمّال ١٠: ٢٠٤ / ٢٩٠٨٢؛ جاء في النسخ: طَمَعاً. غير أنّ الصحيح: طُعْماً. والطُّعمة: المأكلة، أي لم يستأكل بعلمه، كما في سائر الأحاديث. قال الإمام أميرالمؤمنين ﷺ: «المستأكل بدينه حظّه من دينه ما يأكله». (البحار ٧٥: ٦٣ / ١٥٢) وفي حديث الإمام الصادق ﷺ: «من استأكل بعلمه افتقر». (البحار ٢: ١١٦ـ١١٧ / ١٤) (معاني الأخبار: ١٧٥).

(٢) الدرّ ١: ٣٩٢؛ الأوسط ١: ٢١٣؛ مجمع الزوائد ١: ١٦٤، كتاب العلم، باب فيمن كتم علماً؛ كنزالعمّال ١٠: ١٩٠ / ٢٨٩٩٥.

(٣) الدرّ ١: ٣٩٢؛ المصنّف ٨: ١٧٩ / ١١، كتاب الزهد، باب كلام سلمان؛ الدارمي ١: ١٣٨، باب البلاغ عن رسول الله ﷺ وتعليم السنن؛ كنزالعمّال ١٠: ١٨٩ / ٢٨٩٩٣.

(٤) الدرّ ١: ٣٩٠؛ الثعلبي ٢: ٣٠، البغوي ١: ١٩٤؛ أبوالفتوح ٢: ٢٦١.

(٥) الطبري ٢: ٧٧ / ١٩٧٦؛ الثعلبي ٢: ٣٠، نقلاً عن قتادة.

(٦) البغوي ١: ١٩٤؛ القرطبي ٢: ١٨٧، عن البراء بن عازب وابن عبّاس؛ قال القرطبي: وذلك أنّ النبيّ ﷺ قال: «الكافر إذا ضُرب في قبره فصاح، سمعه الكلّ إلّا الثقلين، ولعنه كلّ سامع».

[٤١٦٢/٢] وأخرج ابن جرير عن الضحاك في قوله: ﴿وَيَلْعَنُهُمُ اللاَّعِنُونَ﴾ قال: الكافر إذا وضع في حفرته ضرب ضربة بمطرق، فيصيح صيحة يسمع صوته كلّ شيء إلّا الثقلين الجنّ والإنس، فلا يسمع صيحته شيء إلّا لعنه[١].

[٤١٦٣/٢] وأخرج ابن جرير عن السديّ في قوله: ﴿وَيَلْعَنُهُمُ اللاَّعِنُونَ﴾ قال: قال البراء بن عازب: إنّ الكافر إذا وُضع في قبره أتته دابّة كأنّ عينيها قِدران من نحاس، معها عمود من حديد، فتضربه ضربة بين كتفيه فيصيح، لا يسمع أحد صوته إلّا لعنه، ولا يبقى شيء إلّا سمع صوته إلّا الثقلين الجنّ والإنس[٢].

[٤١٦٤/٢] وأخرج سعيد بن منصور وابن جرير عن مجاهد في قوله: ﴿وَيَلْعَنُهُمُ اللاَّعِنُونَ﴾ قال: إنّ البهائم إذا اشتدّت عليهم السنة قالت: هذا من أجل عصاة بني آدم، لعن الله عصاة بني آدم[٣].

[٤١٦٥/٢] وأخرج عبدالرزّاق وعبدبن حميد عن مجاهد في قوله: ﴿وَيَلْعَنُهُمُ اللاَّعِنُونَ﴾ قال: إذا أجدبت البهائم دعت على فجّار بني آدم، فقالت: تحبس عنّا الغيث بذنوبهم[٤].

[٤١٦٦/٢] وقال الطبرسيّ: فإن قيل: كيف قال: ﴿وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ وفي الناس من لا يلعن الكافر؟ فالجواب من وجوه: أحدها أنّ كلّ أحد من الناس يلعن الكافر، إمّا في الدنيا، وإمّا في الآخرة، أو فيهما جميعاً، كما قال: ﴿يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُمْ بَعْضاً﴾[٥]، عن أبي العالية[٦].

[٤١٦٧/٢] وأخرج البيهقي في شعب الإيمان من طريق محمّد بن مروان، أخبرني الكلبيّ عن أبي

---

(١) الدرّ ١: ٣٩١؛ الطبري ٢: ٧٧ / ١٩٧٨؛ أبوالفتوح ٢: ٢٦١؛ الثعلبي ٢: ٣٠.

(٢) الدرّ ١: ٣٩١؛ الطبري ٢: ٧٧ / ١٩٧٧؛ الثعلبي ٢: ٣٠؛ القرطبي ٢: ١٨٧، بلفظ: وقال البراء بن عازب وابن عبّاس: (اللاعنون) كلّ المخلوقات ما عدا الثقلين: الجنّ والإنس؛ وذلك أنّ النبيّ ﷺ قال: «الكافر إذا ضرب في قبره فصاح، سمعه الكلّ إلّا الثقلين ولعنه كلّ سامع».

(٣) الدرّ ١: ٣٩١؛ الطبري ٢: ٧٥ ـ ٧٦ / ١٩٧١؛ أبوالفتوح ٢: ٢٦٢.

(٤) الدرّ ١: ٣٩٠ ـ ٣٩١؛ عبدالرزّاق ١: ٢٨٩ / ١١٧، بلفظ: قال: البهائم. إذا اشتدّت الأرض، قالت البهائم: هذا من أجل عصاة بني آدم، لعن الله عصاتهم؛ الثعلبي ٢: ٣٠، بلفظ: وقال مجاهد: اللاعنون: البهائم تلعن عصاة بني آدم إذا اشتدّت السنة وأمسك المطر، وقالت: هذا من شؤم ذنوب بني آدم؛ البغوي ١: ١٩٤.

(٥) العنكبوت ٢٩: ٢٥.

(٦) مجمع البيان ١: ٤٥٠.

صالح عن ابن مسعود في هذه الآية قال: هو الرجل يلعن صاحبه في أمر يرى أنّه قد أتى إليه، فترتفع اللعنة في السماء سريعاً، فلا تجد صاحبها الّتي قيلت له أهلاً، فترجع إلى الّذي تكلّم بها فلا تجده لها أهلاً، فتنطلق فتقع على اليهود فهو قوله: ﴿وَيَلْعَنُهُمُ اللاَّعِنُونَ﴾ فمن تاب منهم ارتفعت عنه اللعنة، فكانت في من بقي من اليهود وهو قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تابوا ...﴾ الآية[1].

[٤١٦٨/٢] وروي عن الإمام أبي محمّد العسكري عليه السلام: ثمّ قال الله عزّ وجلّ: ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا﴾ من كتمانه ﴿وَأَصْلَحُوا﴾ أعمالهم، وأصلحوا ما كانوا أفسدوه بسوء التأويل، فجحدوا به فضل الفاضل واستحقاق المُحقّ، ﴿وَبَيَّنُوا﴾ ما ذكره الله تعالى من نعت محمّد صلى الله عليه وآله وصفته، ومن ذكر علي عليه السلام وحليته، وما ذكره رسول الله صلى الله عليه وآله ﴿فَأُوْلَئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ﴾ أقبل توبتهم ﴿وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾[2].

[٤١٦٩/٢] وأخرج سعيد بن منصور وابن أبي حاتم وأبو نعيم في الحلية عن أبي زرعة بن عمرو ابن جرير قال: إنّ أوّل شيء كُتِب بالقلم: أنا التوّاب أتوب على من تاب[3].

[٤١٧٠/٢] وأخرج ابن جرير عن أبي العالية في قوله: ﴿خالدين فيها﴾ يقول: خالدين في جهنّم في اللعنة. وفي قوله: ﴿وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ﴾ ويقول: لا ينظرون فيعتذرون[4].

[٤١٧١/٢] وأخرج إبن أبي حاتم عن ابن عبّاس في قوله: ﴿وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ﴾ قال: لا يؤخّرون[5].

---

(١) الدرّ ١: ٣٩١ـ٣٩٢؛ الشعب ٤: ٣٠٣/٥١٩٢؛ الثعلبي ٢: ٣٠؛ أبوالفتوح ٢: ٢٦١ـ٢٦٢؛ القرطبي ٢: ١٨٧، نقلاً عن ابن مسعود والسدّي.

(٢) البرهان ١: ٣٦٩ـ٣٧٠/١؛ تفسير الإمام: ٥٧١ـ٥٧٢/ضمن رقم ٣٣٣؛ البحار ٣٦: ١٠٨ـ١٠٩.

(٣) الدرّ ١: ٣٩٣؛ ابن أبي حاتم ١: ٢٧٠/١٤٥٣؛ الحلية ٩: ١٩، بلفظ: أوّل ما كتب بالقلم: إنّي أنا التوّاب أتوب على من تاب.

(٤) الدرّ ١: ٣٩٤؛ الطبري ٢: ٨١ـ٨٢/١٩٨٥، و ١٩٨٦ وزاد بعد قوله «فيعتذرون»: كقوله: ﴿هَذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ. وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ﴾ المرسلات ٧٧: ٣٥/٣٦؛ الثعلبي ٢: ٣١؛ البغوي ١: ١٩٤؛ التبيان ٢: ٥١، بلفظ: «والهاء في قوله «فيها» عائدة على اللعنة في قول الزجاج وقال أبو العالية: هي عائدة إلى النار ومعنى قوله ﴿وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ﴾ على قول أبي العالية: رفع لإيهام الاعتذار، كما قال: ﴿وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ﴾ لئلّا يُتوهّم أنّ التوبة والإنابة هناك تنفع»؛ مجمع البيان ١: ٤٥٠، وفيه: في تفسير قوله: ﴿وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ﴾: أي لا يُمهلون للاعتذار كما قال سبحانه: ﴿وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ﴾ قطعاً لطمعهم في التوبة.

(٥) الدرّ ١: ٣٩٤؛ ابن أبي حاتم ١: ٢٧٢/١٤٥٩؛ الوسيط ١: ٢٤٥، بلفظ: لا يمهلون للرجعة ولا للتوبة ولا للمعذرة.

قال تعالى:

وَإِلَـٰهُكُمْ إِلَـٰهٌ وَاحِدٌ لَا إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَـٰنُ الرَّحِيمُ ﴿١٦٣﴾ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٦٤﴾

وهنا يمضي السياق لإراءة التصوّر الإيماني، المبتني على قاعدته الكبيرة، قاعدة التوحيد، ذلك التوحيد الربوبيّ المتجسّد في توحيد الصنع والتدبير. وبعد ملاحظة ذلك الإنسجام في الخلق والتقدير. ومن ثمّ فلا إلّه يشركه في التدبير والتقدير. فلا موضع لاتّخاذ آلهة أخرى سوى الله الواحد الصانع المتعالي والجامع لصفات الخير كلّه، المتجمّعة في الرحمانيّة العامّة، إلى جنب الرحيميّة الخاصّة بذوي الإيمان القويم.

وبعدُ ﴿وَإِلَـٰهُكُمْ﴾ خطاب لعامّة الناس ﴿إِلَـٰهٌ وَاحِدٌ لَا إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ لا شريك له ولانظير ﴿هُوَ الرَّحْمَـٰنُ﴾ بجميع خلقه ﴿الرَّحِيمُ﴾ بالمؤمنين. كما قال سبحانه: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ وهي الرحمة العامّة ﴿فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾[1] وهي الرحمة الخاصة.

والشاهد على تلك الرحمة الواسعة، هي مشاهد هذا الكون الفسيح، بما فيه من آيات وبيّنات، ودلائل وشواهد لائحة.

﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ في ذلك النظم البديع ﴿وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾ تعاقب النور والظلمة، توالي الإشراق والعتمة، ذلك الفجر والغروب ﴿وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ﴾ بتلك السهولة، والّتي تقطع بها مسافات شاسعة بما لايمكن بغيرها حينذاك. وقد أضيف إليها المراكب الهوائية السابحة في الفضاء في يسر وطمأنينة.

---

(١) الأعراف ٧: ١٥٦.

﴿وَمَا أَنزَلَ اللهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ في أدوار متعاقبة وفي رتيب جميل ﴿وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ﴾ من نافعة وضارّة، كلّ لمصلحة يراها اللبيب الحكيم جليلة ﴿وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ﴾ دون هدوئها فتفسد ﴿وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ تحمل بركاتها إلى الخلائق أجمعين، كلّ ذلك ﴿لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾.

فهذا الكون بجملته شاهد بالوحدانيّة وبالرحمة في كلّ مجالاته وفي كلّ مجاليه.

إنّ السرّ الأعمق هو سرّ هذه الأسباب، سرّ خلقة الكون بهذه الطبيعة المنسجمة، وبهذه النسب المتوائمة، وبهذه الأوضاع البديعة، الّتي تسمح بنشأة الحياة ونموّها وتوفير الأسباب الملائمة لها، من رياح وسحب وأمطار وتراب. سرّ هذه الموافقات التي يُعدّ المعروف منها بالآلاف، والّتي لو اختلّت واحدة منها، ما نشأت الحياة أو ما سارت هذه السيرة المنتظمة. كما هو سرّ التدبير الدقيق الذي يشي بالعلم والإرادة والحكمة، كما يشي بوحدة التصميم والتقدير.

* * *

[٤١٧٢/٢] أخرج ابن أبي شيبة وأحمد والدارمي وأبو داوود والترمذي وصحّحه وابن ماجة وأبو مسلم الكجّيّ في السنن وابن الضريس وابن أبي حاتم والبيهقي في شعب الإيمان عن أسماء بنت يزيد بن السكن عن رسول الله ﷺ أنّه قال: «اسم الله الأعظم في هاتين الآيتين: ﴿وَإِلَـٰهُكُمْ إِلَـٰهٌ وَاحِدٌ لَا إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَـٰنُ الرَّحِيمُ﴾ و ﴿الٓمٓ. اللهُ لَا إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾[(١)]»[(٢)].

[٤١٧٣/٢] وأخرج الديلمي عن أنس: أنّ النبيّ ﷺ قال: «ليس شيء أشدّ على مردة الجنّ من هؤلاء الآيات الّتي في سورة البقرة: ﴿وَإِلَـٰهُكُمْ إِلَـٰهٌ وَاحِدٌ...﴾ الآيتين»[(٣)].

[٤١٧٤/٢] وروى الطبرسي مرفوعاً إلى النبيّ ﷺ لمّا نزلت هذه الآية، قال: «ويل لمن لاكها بين

(١) آل عمران ٣: ١-٢.

(٢) الدرّ ١: ٣٩٤؛ المصنّف ٨: ٣٠٨ / ٨٥؛ مسند أحمد ٦: ٤٦١؛ الدارمي ٢: ٤٥٠؛ أبو داوود ١: ٣٣٥ / ١٤٩٦، باب ٣٥٨؛ الترمذي ٥: ١٧٨-١٧٩ / ٣٥٤٣، باب ٦٥؛ ابن ماجة ٢: ١٢٦٧ / ٣٨٥٥؛ ابن أبي حاتم ١: ٢٧٢ / ١٤٦٠؛ الشعب ٢: ٤٥٥ / ٢٣٨٣؛ كنزالعمّال ١: ٤٥١ / ١٩٤١؛ ابن كثير ١: ٢٠٧؛ البغوي ١: ١٩٤-١٩٥ / ١١٩؛ الوسيط ١: ٢٤٦؛ أبوالفتوح ٢: ٢٦٥؛ القرطبي ٤: ٣.

(٣) الدرّ ١: ٣٩٤؛ الفردوس بمأثور الخطاب ٣: ٣٨٥ / ٥١٧٧؛ كنزالعمّال ١: ٥٦٧ / ٢٥٥٦.

فكّية ولم يتأمّل مافيها»[1].

[٤١٧٥/٢] وكذا روي عن النبيّ ﷺ أنّه قال: «ويل لمن قرأ هذه الآية فمجّ بها» أي لم يتفكّر فيها ولم يعتبرها[2].

[٤١٧٦/٢] وروى الكليني بالإسناد إلى هشام بن الحكم قال: قال لي أبوالحسن موسى بن جعفر عليه السلام: «يا هشام إنّ الله ـ تبارك وتعالى ـ أكمل للناس الحُجَج بالعقول، ونصر النبيين بالبيان، ودلّهم على ربوبيّته بالأدلّة، فقال: ﴿وَإِلَـٰهُكُمْ إِلَـٰهٌ وَاحِدٌ لَا إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَـٰنُ الرَّحِيمُ. إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾»[3].

[٤١٧٧/٢] وروى ابن بابويه الصدوق بالإسناد إلى الإمام الرضا عليه السلام في حديث طويل يقول فيه: «إنّي لمّا نظرت إلى جسدي فلم يمكنّي فيه زيادة ولا نقصان في العرض والطول، ودفع المكاره عنه، وجرّ المنفعة إليه، علمت أنّ لهذا البنيان بانياً فأقررتُ به، مع ما أرى من دوران الفلك بقدرته، وإنشاء السحاب وتصريف الرياح، ومجرى الشمس والقمر والنجوم وغير ذلك من الآيات العجيبات المتقنات، علمتُ أنّ لهذا مُقدِّراً ومُنشئاً»[4].

[٤١٧٨/٢] وروى بالإسناد إلى هشام قال: «فكان من سؤال الزنديق ـ في مسألة التوحيد ـ أن قال: فما الدليل عليه؟ فقال أبو عبدالله عليه السلام: وجود الأفاعيل الّتي دلّت على أنّ صانعاً صنعها، ألا

(١) مجمع البيان ٢: ٥٥٤.

(٢) القرطبي ٢: ٢٠١؛ أبوالفتوح ٢: ٢٧٥؛ الثعلبي ٢: ٣٣؛ كنزالعمّال ١: ٥٧٠ / ٢٥٧٦، بلفظ: ويل لمن قرأ هذه الآية ثمّ لم يتفكّر فيها، يعني إنّ في خلق السماوات...؛ الفردوس بمأثور الخطاب ٤: ٤٠٠ / ٧١٥٨، بنحو ما رواه الهندي.

(٣) الكافي ١: ١٣ / ١٢، كتاب العقل والجهل، لها صدر وذيل؛ نورالثقلين ١: ١٤٩ ـ ١٥٠؛ البرهان ١: ٣٧١ / ١؛ كنزالدقائق ٢: ٢١١؛ تحف العقول: ٣٨٤. ما روي عن أبي إبراهيم الإمام الكاظم عليه السلام، وصيّته عليه السلام لهشام وصفته للعقل؛ البحار ١: ١٣٢ / ٣٠، كتاب العقل والعلم والجهل، باب ٤. وللعلّامة المجلسي هنا بيانٌ وافٍ بشرح الحديث وتوضيح مشكله.

(٤) نورالثقلين ١: ١٥٠؛ العيون ١: ١٢٠ ـ ١٢١ / ٢٨، باب ١١؛ التوحيد: ٢٥١ / ٣، باب ٣٦؛ كنزالدقائق ٢: ٢١٣؛ الكافي ١: ٧٨ ـ ٧٩ / ٣؛ البحار ٣: ٣٧ / ١٢ باب ٣؛ الاحتجاج ٢: ١٧١ ـ ١٧٢.

ترى أنّك إذا نظرت إلى بناء مشيَّد مبنيّ، علمت أنّ له بانياً وإن كنت لم ترالباني ولم تشاهده»(١).

[٤١٧٩/٢] وروى بالإسناد إلى المقدام بن شريح بن هاني، عن أبيه، قال: «إنّ أعرابيّاً قام يوم الجمل إلى أميرالمؤمنين عليه السلام، فقال: يا أميرالمؤمنين أتقول إنّ الله واحد؟! قال: فحمل الناس عليه، وقالوا: يا أعرابيّ أماترى ما فيه أميرالمؤمنين من تقسّم القلب؟! فقال أميرالمؤمنين عليه السلام: دعوه فإنّ الّذي يريده الأعرابيّ هو الّذي نريده من القوم، ثمّ قال: يا أعرابيّ إنّ القول في أنّ الله واحد على أربعة أقسام، فوجهان منها لايجوزان على الله ـ عزّ وجلّ ـ ووجهان يَثْبُتان فيه؛ فأمّا اللّذان لايجوزان عليه، فقول القائل: واحد يقصد به باب الأعداد، فهذا ما لايجوز، لأنّ ما لا ثاني له لايدخل في باب الأعداد، أماترى أنّه كفر من قال: ثالث ثلاثة!

وقول القائل: هو واحد من الناس يريد به النوع من الجنس، فهذا ما لايجوز عليه لأنه تشبيهٌ، جلّ ربّنا عن ذلك وتعالى.

وأمّا الوجهان اللّذان يَثْبُتان فيه، فقول القائل: هو واحد ليس له في الأشياء شبه. كذلك ربُّنا، وقول القائل: إنّه ربّنا أحديّ المعنى، يعني به أنّه لا ينقسم في وجود، ولا عقل، ولا وهم. وكذلك ربّنا عزّ وجلّ»(٢).

[٤١٨٠/٢] وروى بالإسناد إلى أبي هاشم الجعفري، قال: «سألت أبا جعفر محمّد بن علي الثاني عليه السلام ما معنى الواحد؟ فقال: المجتمع عليه جميع الألسن بالوحدانيّة»(٣).

[٤١٨١/٢] وهكذا روى الكليني بالإسناد إلى أبي هاشم الجعفري، قال: «سألت أبا جعفر الثاني عليه السلام ما معنى الواحد؟ فقال: إجماع الألسن عليه بالوحدانيّة، كقوله: ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ

---

(١) نورالثقلين ١: ١٥٠؛ التوحيد: ٢٤٤/ ١، باب ٣٦. الكافي ١: ٨١/ ٥؛ الاحتجاج ٢: ٦٩ ـ ٧٠؛ البحار ٣: ٢٩/ ٣، باب ٣؛ و ١٠: ١٩٥/ ٣، باب ١٣.

(٢) البرهان ١: ٣٧٢؛ التوحيد: ٨٣ ـ ٨٤/ ٣، باب ٣؛ الخصال: ٢/ ١، باب الواحد؛ معاني الأخبار: ٥ ـ ٦/ ٢، باب معنى الواحد؛ البحار ٣: ٢٠٦ ـ ٢٠٧/ ١، باب ٦، وللعلامة المجلسي رحمه الله ذيل الرواية بيان؛ نورالثقلين ٤: ٤٧٥ ـ ٤٧٦/ ٥ و ٥: ٧٠٩/ ٦٠.

(٣) البرهان ١: ٣٧١؛ معاني الأخبار: ٥/ ١، باب معنى الواحد؛ التوحيد: ٨٢/ ١، باب ٣، فيه: «بجميع» بدل «جميع»؛ المحاسن ٢: ٣٢٨/ ٨٣، كتاب العلل؛ البحار ٣: ٢٠٨/ ٢ باب ٦.

﴿لَيَقُولُنَّ اللهُ﴾[(١)]»[(٢)].

[٤١٧٩/٢] وأخرج عبدبن حميد وابن جرير عن سعيد بن جبير قال: سألت قريش اليهود فقالوا: حدِّثونا عمّا جاءكم به موسى من الآيات، فحدَّثوهم بالعصا، وبيده البيضاء للناظرين. وسألوا النصارى عمّا جاءهم به عيسى من الآيات، فأخبروهم أنّه كان يبرىء الأكمه والأبرص ويحيى الموتى بإذن الله. فقالت قريش عند ذلك للنبيﷺ: «ادع الله أن يجعل لنا الصفا ذهباً فنزداد به يقيناً ونتقوّى به على عدوّنا، فسأل النبيّﷺ ربّه. فأوحى الله إليه: إنّي معطيكم[(٣)] ذلك، ولكن إن كذَّبوا بعدُ عذّبتهم عذاباً لم أعذِّبه أحداً من العالمين! فقال: ذرني وقومي فأدعوهم يوماً بيوم، فأنزل الله عليه: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّماوَاتِ وَالْأَرْضِ...﴾ الآية. فخلق السماوات والأرض، واختلاف الليل والنهار أعظم من أن أجعل الصفا ذهباً»[(٤)].

[٤١٨٠/٢] وأخرج وكيع والفريابي وآدم بن أبي إياس وسعيد بن منصور وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ في العظمة والبيهقي في شعب الإيمان عن أبي الضحى قال: لمّا نزلت ﴿وَإِلَـهُكُمْ إِلَـهٌ وَاحِدٌ﴾ عجب المشركون، وقالوا: إنّ محمّداً يقول: ﴿وَإِلَـهُكُمْ إِلَـهٌ وَاحِدٌ﴾ فليأتنا بآية إن كان من الصادقين! فأنزل الله ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّماوَاتِ وَالْأَرْضِ...﴾ الآية يقول: إنّ في هذه الآيات ﴿لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾[(٥)].

[٤١٨١/٢] وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن عطاء قال: نزل على النبيّﷺ بالمدينة: ﴿وَإِلَـهُكُمْ إِلَـهٌ وَاحِدٌ لَا إِلَـهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمانُ الرَّحِيمُ﴾ فقال كفّار قريش بمكّة: كيف

---

(١) الزخرف ٤٣: ٨٧.

(٢) البرهان ١: ٣٧٢؛ الكافي ١: ١١٨ / ١٢، كتاب التوحيد، باب معاني الأسماء واشتقاقها؛ التوحيد: ٨٣ / ٢، باب ٣، وفيه: اجتماع الألسن عليه بالتوحيد؛ البحار ٣: ٢٠٨ / ٤، باب ٦، عن التوحيد وبنحوه، وللعلّامة المجلسي؛ ذيل الرواية بيان فراجع!؛ نورالثقلين ٤: ٦١٨ / ١٠٣.

(٣) في بعض النسخ: إنّي معطيهم.

(٤) الدرّ ١: ٣٩٥؛ الطبري ٢: ٨٥ / ١٩٩٠، أبوالفتوح ٢: ٢٦٧ ـ ٢٦٨.

(٥) الدرّ ١: ٣٩٥؛ سنن سعيد بن منصور ٢: ٦٣٩ / ٢٣٩؛ الطبري ٢: ٨٤-٨٥؛ العظمة ١: ٢٥٢-٢٥٣ / ٣١، وفيه: «نقم المشركون» بدل «عجب المشركون»؛ الشعب ١: ١٣٠ / ١٠٤؛ أسباب النزول للواحدي: ٢٩؛ الوسيط ١: ٢٤٦؛ البغوي ١: ١٩٥.

يسع الناس إلـه واحد؟! فأنزل الله ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّماوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ إلى قوله: ﴿لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ فبهذا يعلمون أنّه إلـه واحد، وأنّه إلـه كلّ شيء، وخالق كلّ شيء(١).

قوله تعالى: ﴿وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ﴾

[٤١٨٥/٢] أخرج عبدبن حميد وابن جرير وابن أبي حاتم عن قتادة في قوله: ﴿وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ﴾ قال: قادر ـ والله ـ ربّنا على ذلك إذا شاء جعلها رحمة، لواقح للسحاب، ونشراً بين يدي رحمته، وإذا شاء جعلها عذاباً ريحاً عقيماً لا تُلقِح، إنّما هي عذاب على من أُرسلت عليه(٢).

[٤١٨٦/٢] وأخرج ابن جرير بالإسناد إلى معمر عن قتادة في قوله: ﴿وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ﴾ قال: تصريفها إن شاء جعلها رحمةً وإن شاء جعلها عذاباً(٣).

وأخرج ابن أبي حاتم عن أُبيّ بن كعب قال: كلّ شيء في القرآن من الرياح فهي رحمة، وكلّ شيء في القرآن من الريح فهو عذاب(٤).

[٤١٨٧/٢] وعن ابن عبّاس ـ أيضاً ـ قال: الريّاح للرحمة، والريح للعذاب(٥).

[٤١٨٨/٢] وبهذا المعنى ـ أيضاً ـ روي عن النبيّ ﷺ كان إذا هاجت الريح يقول: «اللّهمّ اجعلها رياحاً ولا تجعلها ريحاً»(٦).

[٤١٨٩/٢] وهكذا أخرج الشافعي وأبو الشيخ والبيهقي في المعرفة عن ابن عبّاس قال: ما هبّت ريح قطّ إلّا جثا النبيّ ﷺ على ركبتيه، وقال: «اللّهمّ اجعلها رحمةً ولا تجعلها عذاباً، اللّهمّ اجعلها

---

(١) الدرّ ١: ٣٩٥؛ الطبري ٢: ٨٤ / ١٩٨٧؛ ابن أبي حاتم ١: ٢٧٢ / ١٤٦٢؛ العظمة ١: ٤١٤ ـ ٤١٥ / ١١٦ ـ ٣٦، بخلاف يسير.

(٢) الدرّ ١: ٣٩٦؛ الطبري ٢: ٨٨ / ١٩٩٢؛ ابن أبي حاتم ١: ٢٧٥ / ١٤٧٤؛ مجمع البيان ١: ٤٥٧، بلفظ: قيل: تصريفها بأن جعل بعضها يأتي بالرحمة وبعضها يأتي بالعذاب؛ الوسيط ١: ٢٤٧.

(٣) الطبري ١٣: ١٨٣ / ٢٤١١٧، في سورة الجاثية ٤٥: ٥؛ التبيان ٢: ٦٠؛ مجمع البيان ١: ٤٥٧.

(٤) الثعلبي ٢: ٣٣؛ أبوالفتوح ٢: ٢٧٤؛ مجمع البيان ١: ٤٥٣؛ ابن أبي حاتم ١: ٢٧٥ / ١٤٧٥.

(٥) الثعلبي ٢: ٣٢؛ أبو الفتوح ٢: ٢٧٤؛ مجمع البيان ١: ٤٥٣.

(٦) الثعلبي ٢: ٣٣؛ الكبير ١١: ١٧٠ ـ ١٧١؛ كنزالعمّال ٧: ٧٥ / ١٨٠٣٣؛ مجمع البيان ١: ٤٥٣.

رياحاً ولا تجعلها ريحاً». قال ابن عبّاس: والله إنّ تفسير ذلك في كتاب الله ﴿أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحاً صَرْصَراً﴾[1]. ﴿أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ﴾[2] وقال: ﴿وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ﴾[3] ﴿أَنْ يُرْسِلَ الرِّيَاحَ مُبَشِّرَاتٍ﴾[4][5].

قلت: وينقضه قوله تعالى: ﴿وَجَرَيْنَ بِهِمْ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ﴾[6]. وقوله: ﴿وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِ﴾[7]. وقوله: ﴿فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ﴾[8].

[٤١٩٠/٢] وأخرج ابن أبي شيبة والحاكم وصحّحه والبيهقي في شعب الإيمان عن أبيّ بن كعب قال: لا تسبّوا الريح فإنّها من نفس الرحمان قوله: ﴿وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسحاب المسخر﴾ ولكن قولوا: اللّهمّ إنّا نسألك من خير هذه الريح وخير ما فيها وخير ما أُرسلَتْ به، ونعوذ بك من شرّها وشرّ ما أُرسلَتْ به[9].

[٤١٩١/٢] وأخرج ابن أبي حاتم عن عبدالله بن شدّاد بن الهاد قال: الريح من روح الله، فإذا رأيتموها فاسألوا الله من خيرها وتعوّذوا بالله من شرّها[10].

[٤١٩٢/٢] وأخرج ابن أبي حاتم عن عبدة عن أبيها قال: إنّ من الرياح رحمة ومنها رياح عذاب، فإذا سمعتم الرياح فقولوا: اللّهمّ اجعلها رياح رحمة ولا تجعلها رياح عذاب[11].

[٤١٩٣/٢] وأخرج الشافعي عن صفوان بن سليم قال: قال رسول الله ﷺ: «لاتسبّوا الريح،

---

(١) فصّلت ٤١: ١٦. (٢) الذاريات ٥١: ٢٨.

(٣) الحجر ١٥: ٢٢. (٤) الروم ٣٠: ٤٦.

(٥) الأمّ ١: ٢٨٩، كتاب الاستسقاء، باب القول في الإنصات عن رؤية السحاب والريح؛ الدرّ ١: ٣٩٩؛ العظمة ٤: ١٣٥١ـ ١٣٥٢ / ٨٧١ـ٧٥. (٦) يونس ١٠: ٢٢.

(٧) الأنبياء ٢١: ٨١. (٨) سورة ص ٣٨: ٣٦.

(٩) الدرّ ١: ٣٩٦؛ المصنّف ٧: ٣١ / ٢، كتاب الدعاء، باب ١٣ (ما يدعى به للريح إذا هبّت)، بلفظ: عن أبيّ قال: لاتسبّوا الريح فإذا رأيتم منها ما تكرهون فقولوا: اللّهمّ إنّا نسألك خير هذه الريح وخير ما فيها وخير ما أرسلت به ونعوذ بك من شرّ هذه الريح وشرّ ما فيها وشرّ ما أرسلت به؛ الحاكم ٢: ٢٧٢؛ وفيه: «ونعوذ بك من شرّها وشرّما فيها وشر ما أرسلت به»؛ الشعب ٤: ٣١٥ / ٥٢٣٤؛ الترمذي ٣: ٣٥٥ / ٢٣٥٣، باب ٥٦؛ النسائي ٦: ٢٣١ / ١٠٧٦٩؛ كنزالعمّال ٣: ٦٠١ / ٨١٠٩؛ القرطبي ٢: ١٩٧، بلفظ: روي عن النبيّ ﷺ أنّه قال: «لاتسبّوا الريح فإنّها من نفس الرحمان».

(١٠) الدرّ ١: ٣٩٦. (١١) الدرّ ١: ٣٩٦ـ٣٩٧.

وعوذوا بالله من شرّها»(١).

[٤١٩٤/٢] وأخرج البيهقي في شعب الإيمان عن ابن عبّاس: أنّ رجلاً لعن الريح، فقال له النبيّ ﷺ: «لا تلعن الريح فإنّها مأمورة، وإنّه من لعن شيئاً ليس له بأهل رجعت اللعنة عليه»(٢).

[٤١٩٥/٢] وأخرج الترمذي والنسائي وعبدالله بن أحمد في زوائد المسند عن أبيّ بن كعب قال: قال رسول الله ﷺ: «لاتسبّوا الريح فإنّها من روح الله تعالى، وسلوا الله خيرها وخير ما فيها وخير ما أُرسِلت به، وتعوّذوا بالله من شرّها وشرّ ما فيها وشرّ ما أُرسِلت به»(٣).

[٤١٩٦/٢] وأخرج ابن أبي شيبة عن مجاهد قال: هاجت ريح فسَبُّوها. فقال ابن عبّاس: لاتسبّوها فإنّها تجيء بالرحمة وتجيء بالعذاب، ولكن قولوا: اللّهمّ اجعلها رحمة ولا تجعلها عذاباً(٤).

[٤١٩٧/٢] وأخرج ابن أبي شيبة عن عبدالرحمان بن أبي ليلى قال: قال رسول الله ﷺ: «لاتسبّوا الليل والنهار ولا الشمس ولا القمر ولا الريح، فإنّها تبعث عذاباً على قوم ورحمة على آخرين»(٥).

[٤١٩٨/٢] وأخرج أبو الشيخ في العظمة عن ابن عبّاس قال: الماء والريح جندان من جنود الله،

---

(١) الدرّ ١: ٣٩٩؛ الأمّ ١: ٢٨٩ ـ ٢٩٠، كتاب الاستسقاء، باب القول في الإنصات عن رؤية السحاب والريح.

(٢) الدرّ ١: ٣٩٩؛ الشعب ٤: ٣١٦ / ٥٢٣٥؛ الترمذي ٣: ٢٣٦ / ٢٠٤٤، أبواب البرّ والصلة، باب ٤٨ (ما جاء في اللعنة)؛ كنزالعمّال ٣: ٦٠١ / ٨١١١.

(٣) الدرّ ١: ٣٩٩؛ الترمذي ٣: ٣٥٥ / ٢٣٥٣، باب ٥٦، أبواب الفتن عن رسول الله ﷺ، باب ما جاء في النهي عن سبّ الرياح، بلفظ: عن أبيّ بن كعب قال: قال رسول الله ﷺ: «لاتسبّوا الريح فإذا رأيتم ما تكرهون فقولوا: اللّهمّ إنّا نسألك من خير هذه الريح وخير ما فيها، وخير ما أمرت به، ونعوذ بك من شرّ هذه الريح وشرّ ما فيها وشرّ ما أمرت به»؛ النسائي ٦: ٢٣١ / ١٠٧٦٩؛ كتاب عمل اليوم والليلة، باب ٢١٩؛ كنزالعمّال ٣: ٦٠١ / ٨١١٠.

(٤) الدرّ ١: ٣٩٩؛ المصنّف ٧: ٣١ / ٣، كتاب الدعاء، باب ١٣ (ما يدعى به للريح إذا هبّت)؛ مجمع البيان ١: ٤٥٧؛ بلفظ: روي أنّ الريح هاجت على عهد ابن عبّاس، فجعل بعضهم يسبّ الريح فقال: لاتسبّوا الريح ولكن قولوا: اللّهمّ اجعلها رحمةً ولاتجعلها عذاباً؛ كنزالعمّال ٨: ٤٤١ / ٢٣٥٥٩؛ الوسيط ١: ٢٤٨.

(٥) الدرّ ١: ٤٠٠؛ المصنّف ٦: ٢١٢ / ١، كتاب الأدب، باب ١٥٢، (مايُنهى عنه الرجل أن يسبّه).

والريح جند الله الأعظم.[1].

[٤١٩٩/٢] وأخرج أبو عبيد وابن أبي الدنيا في كتاب المطر وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ في العظمة عن ابن عمرو قال: الرياح ثمان: أربع منها رحمة، وأربع عذاب، فأمّا الرحمة فالناشرات والمبشِّرات والمرسلات والذاريات. وأمّا العذاب فالعقيم والصرصر وهما في البرّ، والعاصف والقاصف، وهما في البحر[2].

[٤٢٠٠/٢] وأخرج ابن أبي الدنيا وأبو الشيخ عن ابن عبّاس قال: الريح ثمان: أربع رحمة وأربع عذاب. الرحمة: المنتشرات والمبشِّرات والمرسلات والرخاء. والعذاب: العاصف والقاصف، وهما في البحر، والعقيم والصرصر وهما في البرّ[3].

[٤٢٠١/٢] وأخرج أبو الشيخ عن عيسى بن أبي عيسى الخيّاط قال: بلغنا أنّ الرياح سبع: الصبا والدبور والجنوب والشمال والخروق والنَكباء وريح القائم. فأمّا الصبا فتجيء من المشرق، وأمّا الدبور فتجيء من المغرب، وأمّا الجنوب فتجيء عن يسار القبلة، وأمّا الشمال فتجيء عن يمين القبلة، وأمّا النكباء فبين الصبا والجنوب، وأمّا الخروق فبين الشمال والدبور، وأمّا ريح القائم فأنفاس الخلق[4].

[٤٢٠٢/٢] وأخرج أبو الشيخ عن الحسن قال: جُعلت الرياح على الكعبة، فإذا أردت أن تعلم ذلك فأسند ظهرك إلى باب الكعبة، فإنّ الشمال عن شمالك وهي ممّا يلي الحِجْر، والجنوب عن يمينك وهو ممّا يلي الحَجَر الأسود، والصبا مقابلك وهي مستقبل باب الكعبة، والدبور من دُبُر الكعبة[5].

---

(١) الدرّ ١: ٣٧٩؛ العظمة ٤: ١٣٣٦ـ١٣٣٧ / ٨٤٣ـ٤٧؛ البغوي ١: ١٩٦، بلفظ: أعظم جنود الله الريح والماء.

(٢) الدرّ ١: ٣٩٧؛ ابن أبي الدنيا، كتاب الريح: ١٦٣ / ١٧٤؛ العظمة ٤: ١٣٠٥ / ٧٩٨ـ٢؛ ابن كثير ٣: ٤٤٦، سورة الروم، الآية ٤٨.

(٣) الدرّ ١: ٢٩٧؛ ابن أبي الدنيا، كتاب الريح: ١٦٢ / ١٧٢؛ العظمة ٤: ١٣٣٤ / ٨٣٨ـ٤٢، وفيه: الرحمة المبشرات والمنتشرات.

(٤) الدرّ ١: ٣٩٧؛ العظمة ٤: ١٣٢٤ـ١٣٢٦ / ٨٢٣ـ٢٧، وفيه: ابن أبي عيسى الحنّاط.

(٥) الدرّ ١: ٣٩٧؛ العظمة ٤: ١٣٢٦ / ٨٢٤ـ٢٨.

[٤٢٠٣/٢] وأخرج ابن أبي حاتم عن حسين بن عليّ الجعفي قال: سألت إسرائيل بن يونس عن أيّ شيء سمّيت الريح؟ قال: على القبلة؛ شماله الشمال، وجنوبه الجنوب، والصبا: ما جاء من قبل وجهها، والدبور: ما جاء من خلفها(١).

[٤٢٠٤/٢] وأخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن ضمرة بن حبيب قال: الدّبور: الريح الغربيّة، والقبول الشرقيّة، والشمال الجنوبيّة، واليمان القبليّة، والنكباء تأتي من الجوانب الأربع(٢).

[٤٢٠٥/٢] وأخرج أبو الشيخ عن ابن عبّاس قال: الشمال ما بين الجدي ومطلع الشمس، والجنوب: ما بين مطلع الشمس وسهيل، والصبا: ما بين مغرب الشمس إلى الجدي، والدبور ما بين مغرب الشمس إلى سُهيل(٣).

[٤٢٠٦/٢] وأخرج أبو الشيخ عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «الجنوب من ريح الجنّة»(٤).

[٤٢٠٧/٢] وأخرج ابن أبي الدنيا في كتاب السحاب، وابن جرير وأبو الشيخ وابن مردويه عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «ريح الجنوب من الجنّة وهي من اللواقح وفيها منافع للناس، والشمال من النار تخرج فتمرّ بالجنّة، فتصيبها نفحة من الجنّة فبردها من ذلك»(٥).

[٤٢٠٨/٢] وأخرج ابن أبي شيبة وإسحاق بن راهويه في مسندَيْهما والبخاري في تاريخه والبزّار وأبو الشيخ عن أبي ذرّ عن النبيّ ﷺ قال: «إنّ الله خلق في الجنّة ريحاً بعد الريح بسبع سنين من دونها باب مغلَق، وإنّما يأتيكم الروح من خلل ذلك الباب، ولو فتح ذلك الباب لأذرت ما بين

---

(١) الدرّ ١: ٣٩٧.

(٢) الدرّ ١: ٣٩٧؛ العظمة ٤: ١٣٣٢ / ٨٣٥ ـ ٣٩، وفيه: الدبور الريح الغربيّة... الريح الشرقيّه... الريح الجنوبيّة... الريح القبليّة.

(٣) الدرّ ١: ٣٩٨؛ العظمة ٤: ١٣٣٦ / ٨٤٢ ـ ٤٦.

(٤) الدرّ ١: ٣٩٨؛ العظمة ٤: ١٣٠٥ / ٧٩٩ ـ ٣.

(٥) الدرّ ١: ٣٩٨؛ الطبري ٨: ٣٠ / ١٥٩٥٤، سورة الحجر الآية ٢٢؛ العظمة ٤: ١٣٠٥ ـ ١٣٠٦ / ٨٠٠ ـ ٤، بلفظ: عن أبي هريرة قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «الريح الجنوب من الجنّة، وهي من الرياح اللواقح، وهي الّتي ذكر الله ﷻ في كتابه: ﴿وفيها منافع للناس﴾ والشمال من النار، تخرج فتمرّ بالجنّة فيصيبها نفحة من الجنّة فبردها من ذلك»؛ كنز العمّال ٣: ٦٠٢ / ٨١١٧.

السماء والأرض، وهي عند الله الأزيب وعندكم الجنوب»[١].

[٤٢٠٩/٢] وأخرج أبو الشيخ عن ابن عبّاس قال: الجنوب سيّدة الأرواح واسمها عند الله الأزيب، ومن دونها سبعة أبواب، وإنّما يأتيكم منها ما يأتيكم من خللها، ولو فتح منها باب واحد لأذرَت ما بين السماء والأرض[٢].

[٤٢١٠/٢] وأخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن خالد بن معدان قال: إنّ في الجنّة شجرة تُثمِر السحاب، فالسوداء منها الثمرة الّتي قد نضجت الّتي تحمل المطر، والبيضاء الثمرة الّتي لم تنضج لا تحمل المطر[٣].

[٤٢١١/٢] وأخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ في العظمة والبيهقي في الأسماء والصفات وابن عساكر عن معاذ بن عبدالله بن حبيب الجُهَنيّ قال: رأيت ابن عبّاس سأل تُبَيْع ابن امرأة كعب: هل سمعت كعباً يقول في السحاب شيئاً؟ قال: نعم، سمعته يقول: إنّ السحاب غِربال المطر، لولا السحاب حين ينزل الماء من السماء لأفسد ما يقع عليه من الأرض. قال: وسمعت كعباً يذكر أنّ الأرض تنبت العام نباتاً وتنبت عاماً قابلاً غيره. وسمعته يقول: إنّ البذر ينزل من السماء مع المطر فيخرج في الأرض. قال ابن عبّاس: صدقت، وأنا قد سمعت ذلك من كعب[٤].

قلت: هذا حديث مكذوب على ابن عبّاس ياالله ما شأن كعب وكذا ابن امرأته؟!

[٤٢١٢/٢] وأخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن عطاء قال: السحاب تخرج من الأرض[٥].

---

(١) الدرّ ١: ٣٩٨؛ التاريخ الكبير ٥: ٣٤٧ / ١١٠٢، باختصار؛ مسند البزّار ٩: ٤٥١ـ٤٥٢ / ٤٠٦٣؛ العظمة ٤: ١٣٣٨ / ٨٤٥ـ٤٩؛ البيهقي ٣: ٣٦٤، كتاب صلاة الاستسقاء، باب أيّ ريح يكون بها المطر؛ كنزالعمّال ٦: ١٥٥ / ١٥٢٠٦؛ ابن كثير ٢: ٥٦٩، سورة الحجر، الآية: ٢٢.

(٢) الدرّ ١: ٣٩٨؛ العظمة ٤: ١٣٣٩ / ٨٤٧ـ٥١، وفيه: «وإنّما يأتيكم من خللها ولو فتح» بدل قوله: «إنّما يأتيكم منها ما يأتيكم من خللها ولو فتح»؛ عبدالرزّاق ٢: ٢٥٤ / ١٤٣٨، سورة الحجر الآية: ٢٢، وزاد: وهو ريح الجنّة.

(٣) الدرّ ١: ٤٠٠؛ العظمة ٤: ١٢٣٩ / ٧١٤ـ٧.

(٤) الدرّ ١: ٤٠٠؛ ابن أبي حاتم ١: ٢٧٥ / ١٤٧٦؛ العظمة ٤: ١٢٣٨ / ٧١٣ـ٦؛ الأسماء والصفات، الجزء الثالث: ٥٤٩؛ ابن عساكر ١١: ٣١، باب ٩٨٨، (تبيع بن عامر)؛ القرطبي ٢: ٢٠١.

(٥) الدرّ ١: ٤٠٠؛ العظمة ٤: ١٢٣٥ / ٧٠١ـ١، باب ٢٣.

[٤٢١٣/٢] وأخرج أبو الشيخ عن ابن عبّاس قال: الشمال ملح الأرض، ولولا الشمال لأنتنت الأرض[١].

[٤٢١٤/٢] وأخرج عبدالله بن أحمد بن حنبل في زوائد الزهد وأبو الشيخ في العظمة عن كعب قال: لو احتبست الريح عن الناس ثلاثة أيّام لأنتن ما بين السماء والأرض[٢].

[٤٢١٥/٢] وأخرج أبو الشيخ عن الحسن أنّه كان إذا نظر إلى السحاب قال: فيه والله رزقكم ولكنّكم تحرمونه بذنوبكم[٣].

[٤٢١٦/٢] وروى مسلم بالإسناد إلى عطاء بن أبي رباح عن عائشة زوج النبيّ ﷺ أنّها قالت: كان النبيّ ﷺ إذا عصفت الريح قال: «اللّهمّ إنّي أسألك خيرها وخير مافيها و خير ما أرسلت به، وأعوذبك من شرّها وشرّ ما فيها وشرّ ما أرسلت به». قالت: وإذا تخيّلت السماء[٤] تغيّر لونه وخرج ودخل، وأقبل وأدبر، فإذا مَطَرت سرى عنه، فعرفت ذلك في وجهه. قالت عائشة: فسألته؟ فقال: «لعلّه ـ يا عائشة ـ كما قال قوم عاد، فلمّا رأوه عارضاً مستقبل أوديتهم، قالوا: هذا عارض ممطرنا!»[٥]

[٤٢١٧/٢] وفي رواية أخرى عن عطاء بن أبي رباح أنّه سمع عائشة زوج النبيّ ﷺ تقول: كان رسول الله ﷺ إذا كان يوم الريح والغيم، عُرف ذلك في وجهه وأقبل وأدبر، فإذا مَطَرت سُرَّ به وذهب عنه ذلك. قالت عائشة: فسألته؟ فقال: «إنّي خشيتُ أن يكون عذاباً سُلّط على أمّتي، ويقول ـ إذا رأى المطر ـ: رحمة!»[٦]

---

(١) الدرّ ١: ٣٩٨؛ العظمة ٤: ١٣٣٧ / ٨٤٤ـ٤٨.

(٢) الدرّ ١: ٣٩٨؛ العظمة ٤: ١٣١٨ / ٨١٧ـ ٢١، بلفظ: قال كعب: لو احتبست الريح ثلاثة أيّام لأنتنت الأرض.

(٣) الدرّ ١: ٤٠١؛ العظمة ٤: ١٢٥٦ـ١٢٥٧ / ٧٣٣ـ٦، وفيه: ولكنّكم تحرمونه بخطاياكم وأعمالكم.

(٤) تخيّلت السحابةُ: ظهرت وفيها دلائل المطر.

(٥) مسلم ٣: ٢٦؛ القرطبي ٢: ٢٠٢.

(٦) مسلم ٣: ٢٦؛ القرطبي ٢: ٢٠٢، أشار إليه.

قال تعالى:

وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللهِ أَنداداً يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبّاً لِلّهِ وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلّهِ جَمِيعاً وَأَنَّ اللهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ ﴿١٦٥﴾ إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ ﴿١٦٦﴾ وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّأُوا مِنَّا كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ ﴿١٦٧﴾

كانت الآية السابقة تستلفت النظر إلى جانب الإيمان المنبعث من العقل الرشيد، فلو كان الإنسان ألقى عن عقله بلادة الألفة والغفلة، واستقبل مشاهد الكون بحسّ متجدّد ونظرة مستطلعة، وقلبٍ نوّره الإيمان الصادق، وزيّنه العمل الصالح.. فلو سار في هذا الكون كالرائد الّذي يهبط إليه أوّل مرّة، تلفّت عينَه كلُّ ومضةٍ[1]، وتلفت سمعَه كلُّ نأمة[2]، وتلفّت حسّه كلّ حركة، وتهزّ كيانه تلك الأعاجيب الّتي ما تنيٰ[3] تتوالىٰ على الأبصار والقلوب والمشاعر.

نعم، هذا ما يصنعه الإيمان، هذا التفتّح، هذه الحسّاسيّة، هذا التقدير للجمال والتناسق والكمال. إنّ الإيمان رؤية جديدة للكون، وإدراك جديد للجمال، وحياة على الأرض في مهرجان من صنع الله، آناء الليل وأطراف النهار.

ولكن، مع هذا فإنّ هناك من لاينظر بنور بصيرة، ولايتعقّل بقلب حكيم، فيحيد عن الفطرة، وعن التوحيد الّذي يُوحي به تصميم الوجود، والتعمّق في وحدة الناموس الكوني العجيب:

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللهِ أَندَاداً﴾ نظراء في مثل الحجر والشجر، أو الكواكب والنجوم، أو ملائكة وشياطين، وماهي في عهد الجاهليّة سوى أشياء أو أشخاص أو شارات أو اعتبارات واهية.

---

(١) تلفّت: التفت وتوجّه إليه. والومضة: لمعة خفيفة (٢) النأمة: أنّة خفيفة.

(٣) ما تنيٰ: ما لبث.

وكلّها شرك، خفيّ أو ظاهر، إذا ذكرت إلى جنب اسم الله، وإذا أشركها المرء في قلبه مع حبّ الله، فكيف إذا نزع حبّ الله من قلبه وأفرد هذه الأنداد بالحبّ الّذي لايكون إلّا لله.

نعم، إنّ المؤمنين لا يحبّون شيئاً حبَّهم لله، لا أنفسهم ولا سواهم، لا أشخاصاً ولا اعتبارات ولا شارات، ولا قيماً من قيم هذه الأرض الّتي يجري وراءها غوغاء الناس:

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبّاً لِلَّهِ﴾ حيث نشأته من صميم الوجود، وعن تعمّق في التفكير الصحيح، وليس عن تقليد أعمى، لا أساس له ولا جذور.

والتعبير هنا بالحبّ تعبير جدّ جميل، فوق أنّه تعبير صادق. فإنّ الصلة بين المؤمن وبين الله هي صلة الحبّ، صلة الوشيجة القلبيّة، والتجاذب الروحي العميق. ألا وهي صلة الوجدان المشدود بعاطفة الحبّ والولاء الوثيق.

* * *

هذا من جانب، وأمّا جانب أولئك الّذين حادوا عن الطريقة المثلى وتاهوا في غياهب الضلالة والردى، فإنّهم في تفتّتٍ وانهيار وحسرة دائمة.

﴿وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ الحقّ وظلموا أنفسهم بالحياد عن الفطرة ﴿إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ﴾ القاهرة ﴿لِلَّهِ جَمِيعاً﴾ لاشركاء ولا أنداد، ﴿وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ﴾ بالقهر عليهم وإبعادهم عن ساحة رحمته وعن شمول مغفرته.

وتلك الفضاحة والّتي تعقبها فضاعة أوجبت تبرُّأ الأتباع والمتبوعين لسوء المشهد ووعورة الموقف: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ﴾ وسُقط ما بأيديهم.

نعم حينذاك لاخلّة ولا شفاعة ولا إمكان التخلّص بالحيل والمعاذير وغيرها من الأسباب الّتي كانوا يتداولونها قبل ذلك. ﴿وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً﴾ عودة[1] إلى الدنيا وإلى عيشة مشابهة لعيشتهم الأُولى ﴿فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّأُوا مِنَّا﴾! وبذلك تبدّى الحنق والغيظ من التابعين الأغبياء، وتمنّوا لو كان بإمكانهم تدارك ما فات، وهيهات! ﴿كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ﴾.

* * *

(١) أخرج ابن جرير عن قتادة قال: رجعةً إلى الدنيا. الطبري ٢: ١٠١ / ٢٠١٢.

[٤٢١٨/٢] أخرج عبد بن حميد وابن جرير عن مجاهد في قوله: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللهِ أَنْدَاداً يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللهِ﴾ قال: مباهاة ومضاهاةً للحقّ بالأنداد ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبّاً لِلهِ﴾ قال: من الكفّار لأوثانهم(١).

[٤٢١٩/٢] وأخرج ابن جرير عن السدّي في الآية قال: الأنداد من الرجال يطيعونهم كما يطيعون الله، إذا أمروهم أطاعوهم وعصوا الله(٢).

[٤٢٢٠/٢] وأخرج عن الربيع في قوله: ﴿وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ قال: ولو ترى يا محمّد الّذين ظلموا أنفسهم، فاتّخذوا من دوني أنداداً يحبّونهم كحبّكم إيّاي، حين يعاينون عذابي يوم القيامة الّذي أعدَدْت لهم، لعلمتم أنّ القوّة كلّها لي دون الأنداد والآلهة، وأنّ الأنداد والآلهة لاتغني عنهم هنالك شيئاً ولا تدفع عنهم عذاباً أحللتُ بهم، وأيقنتهم أنّي شديد عذابي لمن كفر بي وادّعى معي إلـٰهاً غيري(٣).

[٤٢٢١/٢] وروي عن ابن مسعود قال: قلت: «يا رسول الله أيّ الذنب أعظم؟ قال: أن تجعل لله ندّاً وهو خلقك!»(٤)

[٤٢٢٢/٢] وعن ابن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ كلمةً وأنا أقول أخرى، قال: «من مات وهو يجعل لله تعالى ندّاً دخل النار». وأنا أقول: من مات وهو لايجعل لله نِدّاً دخل الجنّة!(٥)

[٤٢٢٣/٢] وقال ابن عبّاس والحسن في قوله: ﴿كحبّ الله﴾: أي كحبّكم لله، أي كحبّ المؤمنين لله(٦).

[٤٢٢٤/٢] وقال ابن عبّاس في قوله: ﴿أَشَدُّ حُبّاً﴾: أي أثبت وأدوم، لأنّ المشرك ينتقل من صنم إلى صنم(٧).

---

(١) الدرّ ١: ٤٠١؛ الطبري ٢: ٩١ / ١٩٩٤.

(٢) الدرّ ١: ٤٠١؛ الطبري ٢: ٩٢ / ١٩٩٧؛ الثعلبي ٢: ٣٣، بلفظ: ساداتهم وقادتهم الّذين كانوا يطيعونهم في معصية الله فيحبّونهم.

(٣) الدرّ ١: ٤٠٢؛ الطبري ٢: ٩٦ / ١٩٩٨.

(٤) مسند أحمد ١: ٤٣٤؛ البخاري ٥: ١٤٨، كتاب التفسير، سورة البقرة؛ و ٧: ٧٥ كتاب الأدب، باب ٢٠؛ ابن كثير ١: ٢٠٨.

(٥) الوسيط ١: ٢٥٠.

(٦) مجمع البيان ١: ٤٦٢؛ أبو الفتوح ٢: ٢٧٦، عن الأصمّ.

(٧) مجمع البيان ١: ٤٦٢؛ أبو الفتوح ٢: ٢٧٦؛ الثعلبي ٢: ٣٣.

[٤٢٢٥/٢] وقال قتادة: إنّ الكافر يعرض عن معبوده في وقت البلاء، ويقبل على الله تعالى، كما أخبر الله -عزّ وجلّ- عنهم فقال: ﴿فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾(١) والمؤمن لا يعرض عن الله [كما أخبر الله عنهم] في السرّاء والضرّاء والشدّة والرخاء(٢).

[٤٢٢٦/٢] وأخرج أبو نعيم في الحلية عن الإمام جعفر بن محمّد عليه السلام قال: «كان في نقش خاتم أبي: ﴿أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعاً﴾»(٣).

[٤٢٢٧/٢] وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن قتادة في قوله: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا﴾ قال: هم الجبابرة والقادة والرؤوس في الشرّ والشرك ﴿مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا﴾ وهم الأتباع والضعفاء(٤).

[٤٢٢٨/٢] وأخرج ابن جرير عن السدّي في قوله: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا﴾ قال: هم الشياطين تبرّأوا من الإنس(٥).

قلت: وكلا القولين صحيح، نظراً لقوله تعالى -حكاية عن مشهد القيامة وبرزوا لله جميعاً-: ﴿فَقَالَ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعاً فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللهِ مِنْ شَيْءٍ قَالُوا لَوْ هَدَانَا اللهُ لَهَدَيْنَاكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجَزِعْنَا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِنْ مَحِيصٍ وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِي مِنْ قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾(٦).

---

(١) العنكبوت ٢٩: ٦٥.

(٢) البغوي ١: ١٩٦؛ أبوالفتوح ٢: ٢٧٦؛ الثعلبي ٢: ٣٤؛ الوسيط ١: ٢٤٩.

(٣) الدرّ ١: ٤٠٢؛ الحلية ٣: ١٤٠ و ١٨٦؛ ابن عساكر ٥٤: ٢٧٧، باب ٦٧٨١، (باب محمّد بن عليّ بن الحسين بن عليّ بن أبي طالب عليه السلام).

(٤) الدرّ ٢: ٤٠٢؛ الطبري ٢: ٩٦ / ١٩٩٩؛ القرطبي ٢: ٢٠٦، نقلاً عن قتادة والربيع وعطاء، بلفظ: قوله تعالى: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا﴾ يعني السادة والرؤساء تبرأوا ممّن اتّبعهم على الكفر؛ مجمع البيان ١: ٤٦٤ ـ ٤٦٥، بلفظ: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا﴾ وهم القادة والرؤساء من مشركي الإنس، نقلا عن الربيع وعطاء ايضاً.

(٥) الدرّ ١: ٤٠٢؛ الطبري ٢: ٩٧ / ٢٠٠٢؛ البغوي ١: ١٩٧؛ القرطبي ٢: ٢٠٦، نقلاً عن قتادة والسدّي؛ مجمع البيان ١: ٤٦٥، بلفظ: هم الشياطين الّذين اتبعوا بالوسوسة من الجنّ؛ أبوالفتوح ٢: ٢٨٢؛ الثعلبي ٢: ٣٦.

(٦) إبراهيم ١٤: ٢١ ـ ٢٢.

[٤٢٢٩/٢] وأخرج وكيع وعبد بن حميد وابن جرير وأبو نعيم في الحلية عن مجاهد في قوله: ﴿وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ﴾ قال: الأوصال الّتي كانت بينهم في الدنيا والمودّة[١].

[٤٢٣٠/٢] وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن قتادة في قوله: ﴿وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ﴾ قال: هي الأسباب المواصلة الّتي كانت بينهم في الدنيا يتواصلون بها ويتحابّون بها، فصارت عداوة يوم القيامة يلعن بعضُهم بعضاً[٢].

[٤٢٣١/٢] وعن ابن عبّاس قال: هي العهود الّتي كانت بينهم يتوادّون عليها[٣].

[٤٢٣٢/٢] وعن الجبّائي قال: هي أسباب النجاة[٤].

* * *

[٤٢٣٣/٢] وأخرج ابن جرير عن ابن زيد في قوله: ﴿أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ﴾ قال: أو ليس أعمالهم الخبيثة الّتي أدخلهم الله بها النار حسرات عليهم؟ قال: وجعل أعمال أهل الجنّة لهم، وقرأ قول الله: ﴿بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ﴾[٥][٦].

[٤٢٣٤/٢] وأخرج ابن جرير عن السدّي في قوله: ﴿كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ﴾ زعم أنّه يرفع لهم الجنّة فينظرون إليها وإلى صفحة بيوتهم فيها، لو أنّهم أطاعوا الله، فيقال لهم: تلك مساكنكم لو أطعتم الله، ثمّ تقسم بين المؤمنين، فيرثونهم، فذلك حين يندمون ويتحسّرون[٧].

[٤٢٣٥/٢] وأخرج ابن جرير عن عبدالله في قصّة ذكرها فقال: فليس نفس إلّا وهي تنظر إلى

---

(١) الدرّ ١: ٤٠٢؛ الطبري ٢: ٩٧ ـ ٩٨ / ٢٠٠٣؛ الحلية ٣: ٢٨٥، وليس فيه قوله «والمودّة»؛ البخاري ٧: ١٩٦، بلفظ: قال ابن عبّاس: ﴿وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ﴾ قال: الوَصَلات في الدنيا، ابن عساكر ٤٨: ٤٣٥، باب ٥٦٣٠، بلفظ: قال: الأوصال الّتي كانت بينهم في الدنيا؛ التبيان ٢: ٦٦، نقلاً عن قتادة والربيع وابن عبّاس أيضاً، بلفظ: هي الوَصَلات الّتي كانوا يتواصلون عليها؛ أبوالفتوح ٢: ٢٨٣؛ الثعلبي ٢: ٣٦.

(٢) الدرّ ١: ٤٠٢ ـ ٤٠٣؛ الطبري ٢: ٩٨ / ٢٠٠٥، بلفظ: ﴿وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ﴾: قال هو الوصل الّذي كان بينهم في الدنيا؛ عبدالرزّاق ١: ٣٠٠ / ١٥٣؛ مجمع البيان ١: ٤٦٥؛ التبيان ٢: ٦٦؛ أبوالفتوح ٢: ٢٨٣. الثعلبي ٢: ٣٦؛ الوسيط ١: ٢٥١.

(٣) مجمع البيان ١: ٤٦٥.

(٤) التبيان ٢: ٦٦؛ مجمع البيان ١: ٤٦٥.

(٥) الحاقّة ٦٩: ٢٤.

(٦) الطبري ٢: ١٠٣ / ٢٠١٧.

(٧) الطبري ٢: ١٠٢ ـ ١٠٣ / ٢٠١٤؛ الثعلبي ٢: ٣٧؛ البغوي ١: ١٩٧ ـ ١٩٨؛ أبوالفتوح ٢: ٢٨٤.

بيت في الجنّة وبيت في النار، وهو يوم الحسرة. قال فيرى أهل النار الّذين في الجنّة، فيقال لهم: لو عملتم، فتأخذهم الحسرة. قال: فيرى أهل الجنّة البيت الّذي في النار، فيقال: لولا أن منّ الله عليكم[1].

[٤٢٣٦/٢] وقال الطبرسي في قوله تعالى: ﴿وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ﴾: أي يخلدون فيها. بيّن سبحانه في الآية أنّهم يتحسّرون في وقت لاتنفعهم فيه الحسرة وذلك ترغيب في التحسّر في وقت تنفع فيه الحسرة. وأكثر المفسّرين على أنّ الآية واردة في الكفّار، كابن عبّاس وغيره.[2] وذلك لما ثبت أنّ الخلود في النار إنّما يخصّ من لم يمت عن إيمان.

[٤٢٣٧/٢] وعن الإمام أمير المؤمنين عليه السلام قال: «إنّ أعظم الحسرات يوم القيامة حسرة رجل كسب مالاً في غير طاعة الله، فورّثه رجلاً فأنفقه في طاعة الله سبحانه فدخل به الجنّة ودخل به الأوّل النار»[3].

وهكذا روي عن أبي جعفر الباقر عليه السلام[4].

[٤٢٣٨/٢] وروى الكليني بإسناده إلى عثمان بن عيسى عمّن حدّثه عن أبي عبدالله عليه السلام في قول الله ـ عزّ و جلّ ـ: ﴿كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ اللهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ﴾ قال: «هو الرجل يدع ماله لا يُنفقه في طاعة الله بُخلاً، ثمّ يموت فيدعه لمن يعمل فيه بطاعة الله أو في معصية الله، فإن عمل به في طاعة الله رآه في ميزان غيره فرآه حسرة وقد كان المال له، وإن كان عمل به في معصية الله قوّاه بذلك المال حتّى عمل به في معصية الله ـ عزّ وجلّ ـ»[5].

---

(١) الطبري ٢: ١٠٣ / ٢٠١٥ و ٩: ١١٠ / ١٧٨٨٦، سورة مريم؛ الحاكم ٤: ٤٩٧ ـ ٤٩٨. الرواية مطوّلة. وكذا جاءت في تفسير ابن كثير ٣: ١٢٩.

(٢) مجمع البيان ١: ٤٦٥.

(٣) نورالثقلين ١: ١٥٢؛ نهج البلاغة ٤: ١٠٠، الحكمة ٤٢٩؛ كنزالدقائق ٢: ٢١٥؛ البحار ١٠٠: ١٢ / ٥٧.

(٤) مجمع البيان ١: ٤٦٥؛ التبيان ٢: ٦٩؛ أمالي المفيد: ٢٠٥ / ٣٥، المجلس ٢٣؛ البحار ٧٠: ١٤٣ / ٢٥، باب ١٢٣.

(٥) نورالثقلين ١: ١٥١ ـ ١٥٢؛ الكافي ٤: ٤٢ ـ ٤٣ / ٢، أبواب الصدقة، باب الإنفاق؛ الفقيه ٢: ٦٢ / ١٧١٣، كتاب الخمس، باب ١٦ (فضل السخاء والجود)؛ العيّاشيّ ١: ٩١ ـ ٩٢ / ١٤٥؛ البحار ٧٠: ١٤٢ / ٢٠، باب ١٢٢.

قال تعالى:

يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلَالاً طَيِّباً وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴿١٦٨﴾ إِنَّمَا يَأْمُرُكُمْ بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٦٩﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئاً وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٧٠﴾ وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٧١﴾

وهنا يمضي السياق لترسيم منهج الحياة الكريمة، التمتّع بالحياة في شتّى أنحائها، لكن على قيد أن يكون على الوجه الطيّب الحلال، لا الوجهة الخبيثة الممنوعة في شريعة العقل الرشيد.

ففي هذه الآيات الكريمة بيان عام: أنّ ما خلقه الله على هذه البسيطة وجعله في متناول الإنسان، فهو من الحلال الذاتي في أصله، الأمر الّذي يدلّنا على أصالة الحلّيّة وأصل إباحة الأشياء، ما لم يُنْهَ عنه، وقد بحثنا عن هذا الأصل فيما سبق (ذيل الآية ٢٢) واستوفينا الكلام فيه حسب مباني علم الأصول.

[٤٢٣٩/٢] أخرج أحمد والنسائي عن عياض بن حمّاد، قال: قال رسول الله ﷺ: يقول الله تعالى: «إنّ كلّ مال منحتُه عبادي فهو لهم حلال»(١).

أمّا القيد، فهو الانتهاج على المنهج السويّ، من غير حيادٍ عن جادّة الحقّ والعدل والإنصاف.. فليكن الانتهاج وفق ما ترسمه شريعة الله، لا ما يرسمه الشيطان وهوى النفس، والنفس أمّارة بالسوء، وباعثة على التعدّي والتجاوز بحقوق الآخرين، وربما في تلوٍّ خبيث يرفقه التجديف على الله والافتراء عليه، تبريراً لمواقفه السوء.

﴿وَ﴾ من ثمّ ﴿إِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللهُ﴾ أي ما رسمته شريعة الله ﴿قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا﴾ أي نتبع طريقة أسلافنا باعتبارهم قدوة للأخلاف، وهذا من التقليد الأعمى، بل محاولة

(١) مسند أحمد ٤: ١٦٢؛ النسائي ٥: ٢٦ / ٨٠٧٠.

لاستعذار غير وجيه، بعد أن عرفوا أنّ آباءهم كانوا على طريقة جهلاء: ﴿أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئاً وَلَا يَهْتَدُونَ؟!﴾ إن هذا إلّا جمود فكريّ ورفض لشريعة العقل.

ومن ثمّ يمضى السياق ليرسم لهم صورة رزيّة تليق بهذا التقليد وهذا الجمود، صورة البهيمة السارحة الّتي لا تفقه شيئاً، بل حتّى إذا صاح بها راعيها إنّما سمعت مجرّد صوت ولا تفقه ماذا يعني؟! بل هم أضلّ من هذه البهيمة، فالبهيمة ترى وتسمع وتصيح، وهم صمّ بكم عمي:

﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾.

نعم لهم آذان وألسنة وعيون، ولكن حيث لاينتفعون بها فكأنّها لا تؤدّي وظيفتها الّتي خلقت لأجلها، وكأنّهم لم توهب لهم آذان وأسماع وأبصار، وهذا منتهى الزراية بمن يعطّل مشاعره ويغلق منافذ تفكيره، ويتلقّى طريقته في الحياة من غير منابعها الأصل الرويّ، فيترك المنبع الصافي الزلال، ويلجأ إلى عفن المياه الراكدة من غير وعي ولا شعور. فيالها من تعاسة وسوء الحال في العاجل والمآل.

ملحوظة

قال الزمخشري: لابدّ ـ هنا في الآية ـ من مضاف محذوف تقديره: ومثل داعي الّذين كفروا كمثل الّذي ينعق بما لايسمع، أو ومثل الّذين كفروا كبهائم الّذي ينعق، والمعنى: ومثل داعيهم إلى الإيمان ـ في أنّهم لايسمعون من الدعاء إلّا جرس النغمة ودويّ الصوت، من غير إلقاء أذهانٍ ولا استبصار ـ كمثل الناعق بالبهائم، الّتي لاتسمع إلّا دعاء الناعق ونداءه الّذي هو تصويت بها وزجر لها، ولا تفقه شيئاً آخر ولا تعي، كما يفهم العقلاء ويعون.

قال: ويجوز أن يراد بما لايسمع: الأصمّ الأصلخ[1]، الّذي لايسمع من كلام الرافع صوته بكلامه إلّا النداء والتصويت لا غير، من غير فهم للحروف.

وقيل: معناه: ومثلهم في اتّباع آبائهم وتقليدهم لهم، كمثل البهائم الّتي لاتسمع إلّا ظاهر الصوت ولاتفهم ما تحته، فكذلك هؤلاء يتّبعونهم على ظاهر حالهم ولا يفقهون أهم على حقّ أم باطل؟!

---

(١) الأصمّ: الّذي انسدّت منافذ أذنه وثقل عليه السماع. أمّا الأصلخ فهو الّذي ذهب سمعه نهائياً.

وقيل: معناه: ومثلهم في دعائهم الأصنام كمثل الناعق بما لا يسمع. قال: إلّا أنّ قوله: ﴿إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً﴾ لا يُساعد عليه، لأنّ الأصنام لاتسمع شيئاً.

قال: والنعيق: التصويت. يقال: نعق الراعي بالضأن. قال الأخطل:

فانعق بضأنك يا جرير فإنّما مَنَّتْكَ نفسُك في الخلاء ضلالا[1].

[٤٢٤٠/٢] قال الطبرسي: قد اختلف في تقدير الكلام وتأويله على وجوه:

أوّلها: أنّ المعنى: مثل الّذين كفروا في دعائك إيّاهم، أي مثل الداعي لهم إلى الإيمان كمثل الناعق في دعائه المنعوق به من البهائم الّتي لاتفهم، وإنّما تسمع الصوت، فكما أنّ الأنعام لايحصل لهم من دعاء الداعي إلّا السماع دون تفهّم المعنى، فكذلك الكفّار لايحصل لهم من دعائك إيّاهم إلى الإيمان إلّا السماع، دون تفهّم المعنى؛ لأنّهم يعرضون عن قبول قولك وينصرفون عن تأمّله، فيكونون بمنزلة من لم يعقله ولم يفهمه.

وهذا كما تقول العرب: فلان يخافك كخوف الأسد، والمعنى كخوفه من الأسد، فأضاف الخوف إلى الأسد وهو في المعنى مضاف إلى الرجل كما قال الشاعر:

فلستُ مسلما مادمتُ حيّاً على زيدٍ بتسليم الأمير

أراد بتسليمي على الأمير، وهذا معنى قول ابن عبّاس والحسن ومجاهد وقتادة[2].

[٤٢٤١/٢] وروى أبو جعفر الطوسي بإسناده إلى أبي خالد الكوفي رفعه عن الإمام أبي جعفر الباقر عليه السلام قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «العبادة سبعون جزءاً، أفضلها طلب الحلال»[3].

[٤٢٤٢/٢] وأخرج مسلم بالإسناد إلى قتادة عن مطرّف عن عياض المجاشعي: أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله قال ذات يوم في خطبته: «ألا إنّ ربّي أمرني أن أعلّمكم ما جهلتم ممّا علّمني، يومي هذا: كلُّ مالٍ نَحَلْتُه عبداً حلالٌ. وإنّي خلقتُ عبادي حُنَفاءَ كلَّهم، وإنّهم أتتهم الشياطين فاجتالتهم

---

(١) الكشّاف ١: ٢١٤.

(٢) نورالثقلين ١: ١٥٢ ـ ١٥٣؛ مجمع البيان ١: ٤٧١؛ التبيان ٢: ٧٧؛ كنزالدقائق ٢: ٢١٨؛ البحار ٩: ٦، باب ١.

(٣) التهذيب ٦: ٣٢٤ / ٨٩١ ـ ١٢، كتاب المكاسب، باب ٩٣؛ الكافي ٥: ٧٨ / ٦؛ ثواب الأعمال: ١٨٠؛ معاني الأخبار: ٣٦٥ باب ١ (معنى أفضل أجزاء العبادة)؛ البحار ١٠٠: ٢٥ و ٢٩؛ نورالثقلين ١: ٤٠ / ٤٧؛ البرهان ١: ٣٧٥ / ١.

عن دينهم وحرّمَتْ عليهم ما أحللتُ لهم»[١].

[٤٢٤٣/٢] وأخرج ابن مردويه عن ابن عبّاس قال: «تُليت هذه الآية عند النبيّ ﷺ ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلَالاً طَيِّباً﴾ فقام سعد وقال: يا رسول الله، أدع الله أن يجعلني مستجاب الدعوة؛ فقال: يا سعد أطِب مطعمك تكن مستجاب الدعوة؛ والّذي نفس محمّدٍ بيده إنّ الرجل ليقذف اللّقمة الحرام في جوفه، فما يُتَقَبَّل منه أربعين يوماً، وأيّما عبد نبت لحمة من السحت والربا فالنار أولى به»[٢].

[٤٢٤٤/٢] وأخرج عبد بن حميد وابن أبي حاتم عن عكرمة في قوله: ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ﴾ قال: نزغات الشيطان[٣].

[٤٢٤٥/٢] وعن سعيد بن جبير قال: تزيين الشيطان[٤].

[٤٢٤٦/٢] وروى الثعلبي بالإسناد إلى عطاء عن ابن عبّاس قال: زلّاته وشهواته[٥].

[٤٢٤٧/٢] وعنه قال: ما خالف القرآن فهو من خطوات الشيطان[٦].

[٤٢٤٨/٢] وعن قتادة قال: كلّ معصية لله فهي من خطوات الشيطان[٧].

[٤٢٤٩/٢] وأخرج عبد بن حميد وأبو الشيخ عن أبي مجلز في قوله: ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ﴾ قال: النذور في المعاصي[٨].

[٤٢٥٠/٢] وروى الطبرسي بالإسناد إلى أبي جعفر وأبي عبدالله ﷺ: «إنّ من خطوات الشيطان

---

(١) مسلم ٨: ١٥٩، باب الصفات الّتي يعرف بها في الدنيا أهل الجنّة وأهل النار. قوله: كلّ مال نحلتُه...: هذا كلامه تعالى الّذي أمر نبيّه بتبليغه. ونحلتُه: أي منحته له. قوله: حنفاء: أي أطياب مطهّرون عن الآثام. قوله: اجتالتهم: أي استخفّت بهم الشياطين. يقال: اجتال القوم أي حوّل بهم عن قصدهم، كمن يسوق البهائم الّتي لاقصد لها.

(٢) الدرّ ١: ٤٠٣؛ الأوسط ٦: ٣١٠ ـ ٣١١؛ مجمع الزوائد ١٠: ٢٩١؛ ابن كثير ١: ٢٠٩.

(٣) الدرّ ١: ٤٠٣؛ ابن أبي حاتم ١: ٢٨٠ / ١٥٠٦؛ ابن كثير ١: ٢٠٩.

(٤) الدرّ ١: ٤٠٤.

(٥) الثعلبي ٢: ٣٨.

(٦) الدرّ ١: ٤٠٣.

(٧) ابن أبي حاتم ١: ٢٨١ / ١٥٠٨؛ ابن كثير ١: ٢٠٩ و ٣: ٢٨٦، نقلاً عن قتادة والسدّي.

(٨) الدرّ ١: ٤٠٤؛ الطبري ٢: ١٠٦ / ٢٠٢٣؛ ابن كثير ١: ٢٠٩، و ٣: ٢٨٦؛ القرطبي ٢: ٢٠٨؛ التبيان ٢: ٧٢، بلفظ: قال قوم: هي النذور في المعاصي.

الحلف بالطلاق، والنذور في المعاصي، وكلّ يمين بغير الله»[(١)].

[٢/٤٢٥١] وروى العيّاشي بالإسناد إلى محمّد بن مسلم قال: سمعت الإمام أبا جعفر عليه السلام يقول: «كلّ يمين بغير الله تعالى فهي من خطوات الشيطان»[(٢)].

[٢/٤٢٥٢] وأخرج عبد بن حميد عن ابن عبّاس قال: ما كان من يمين أو نذر في غضب فهو من خطوات الشيطان، وكفّارته كفّارة يمين[(٣)].

[٢/٤٢٥٣] وقال الشعبي: نذر رجل أن ينحر ابنه، فأفتاه مسروق بذبح كبش، وقال: هذا من خطوات الشيطان[(٤)].

[٢/٤٢٥٤] وروى أبوجعفر الطوسي بإسناده عن الحسين بن سعيد، عن القاسم بن محمّد وفضالة، عن أبان بن عثمان، عن عبد الرحمان بن أبي عبدالله، قال: «سألت الإمام أبا عبدالله عليه السلام عن رجل حلف أن ينحر ولده، قال: ذلك من خطوات الشيطان»[(٥)].

[٢/٤٢٥٥] وروى ثقة الإسلام الكليني بإسناده إلى الإمام جعفر بن محمّد الصادق عليه السلام قال: «إذا حلف الرجل على شيء[(٦)]، والّذي حلف عليه إتيانُه خيرٌ من تركه، فليأت الّذي هو خير، ولا كفّارة عليه. وإنّما ذلك من خطوات الشيطان»[(٧)].

---

(١) نورالثقلين ١: ١٥٢؛ مجمع البيان ١: ٤٦٨؛ كنزالدقائق ٢: ٢١٦؛ البحار ٦٢: ٩٩، فيه: «إنّ خطوات» بدل «إنّ من خطوات». وقال العلّامة ذيل الرواية: «يحتمل أن يكون المراد الحلف والنذر على تحريم المحلّلات بقرينة صدر الآية».

(٢) العيّاشيّ ١: ٩٣ / ١٥١؛ نورالثقلين ١: ١٥٢؛ البرهان ١: ٣٧٦ـ٣٧٧ / ١٠؛ الصافي ١: ٣١٨؛ كنزالدقائق ٢: ٢١٦؛ البحار ١٠١: ٢٢٣ / ٣٣.

(٣) الدرّ ١: ٤٠٤؛ ابن كثير ١: ٢١٠؛ أبوالفتوح ٢: ٢٨٧، إلى قوله: من خطوات الشيطان.

(٤) ابن كثير ١: ٢٠٩؛ المصنّف لابن أبي شيبة ٣: ٥٠٢ / ١، كتاب الأيمان والنذور، باب ٦٨.

(٥) البرهان ١: ٣٧٥ / ٢؛ التهذيب ٨: ٢٨٨ / ١٠٦٣ ـ ٥٥؛ و ٣١٧ـ١٨ / ١١٨٢ ـ ٥٩، كتاب الأيمان والنذور والكفارات باب ٤ و ٥؛ الاستبصار ٤: ٤٨ / ١٦٤ ـ ٢، باب ٢٩؛ العيّاشيّ ١: ٩٣ / ١٥٠؛ البحار ١٠١: ٢٢٣ و ٢٣٥.

(٦) أي على ترك شيء أي حلف إن أُتي به فعليه كذا وكان الّذي حلف عليه، كان فعله خيراً من تركه، فإنّ يمينه تلك تنحلّ ويجوز له إتيانه، من غير كفّارة. وذلك لأنّ حلفه ذاك كان من إغواء الشيطان.

(٧) الكافي ٧: ٤٤٣ / ١، و٤٤٦ / ٦؛ التهذيب ٨: ٢٨٤؛ البحار ١٠١: ٢٣٦؛ النوادر: ٣٦ / ٤٤، باب ٣ عن زرارة عن أبي عبدالله عليه السلام؛ نورالثقلين ١: ٢٠٦ / ٧٧٤؛ البرهان ١: ٣٧٦ / ٤.

[٤٢٥٦/٢] وروى ابن بابويه الصدوق بالإسناد إلى محمّدبن مسلم عن أحدهما عليه‌السلام «أنّه سُئل عن امرأةٍ جعلت مالها هدياً وكلّ مملوك لها حرّاً، إن كلّمت أختها أبداً؟ قال: تكلّمها، وليس هذا بشيء، إنّما هذا وشبهه من خطوات الشيطان»(١).

[٤٢٥٧/٢] وعن الصادق عليه‌السلام: «من حلف على يمين فرأى ما هو خير منها فليأت الّذي هو خير منها وله زيادة حسنة»(٢).

[٤٢٥٨/٢] وقال عليه‌السلام «في رجل حلف إن كلّم أباه أو أمّه فهو يُحرم بحجّة؟ قال: ليس بشيء»(٣).

[٤٢٥٩/٢] «وسئل عن الرجل يقول: عليَّ ألف بدنة وهو محرم بألف حجّة؟ قال: تلك خطوات الشيطان»(٤).

[٤٢٦٠/٢] وقال: «وأمّا الّتي لاكفّارة عليه ولا أجر له، فهو أن يحلف الرجل على شيء ثمّ يجد ما هو خير من اليمين، فيترك اليمين ويرجع إلى الّذي هو خير»(٥).

[٤٢٦١/٢] وقال العالم عليه‌السلام: «لاكفّارة عليه، وذلك من خطوات الشيطان»(٦).

[٤٢٦٢/٢] وروى أبوجعفر الطوسي بالإسناد إلى منصور بن حازم قال: قال لي أبو عبدالله عليه‌السلام: «أما سمعت بطارق ـ وكان نخّاساً بالمدينة ـ فأتى أباجعفر عليه‌السلام وقال: يا أباجعفر، إنّي هالك؛ إنّي حلفت بالطلاق والعتاق والنذور؟! فقال له أبوجعفر: يا طارق، إنّ هذه من خطوات الشيطان»(٧).

[٤٢٦٣/٢] وروى العيّاشيّ بالإسناد إلى محمّد بن مسلم أنّ امرأة من آل المختار حلفت على أختها أو ذات قرابة لها، قالت: ادني يا فلانة فكلي معي، فقالت: لا، فحلفت عليها بالمشي إلى بيت الله وعتق ما تملك إن لم تدني فتأكلي معي، أن لا يُظلّني وإيّاك سقف بيت أو أكلت معك على خواني أبداً؟ قال: فقالت الأُخرى مثل ذلك، فحمل عمر بن حنظلة إلى أبي جعفر عليه‌السلام مقالتهما، فقال: «أنا

---

(١) الفقيه ٣: ٣٦٠ / ٤٢٧٤، باب الأيمان والنذور والكفّارات.

(٢) المصدر / ٤٢٧٥.   (٣) المصدر: ٣٦١ / ٤٢٧٧.

(٤) الفقيه ٣: ٢٦٦ / ٤٢٩٥؛ الكافي ٧: ٤٤١ / ١٢؛ التهذيب ٨: ٣١٣؛ البحار ١٠١: ٢٣٧ / ١١٨.

(٥) الفقيه ٣: ٢٦٧ / ٤٢٩٦.   (٦) فقه الرضا: ٢٧٣؛ البحار ١٠١: ٢٢١ / ٢٤ و ٢٥.

(٧) التهذيب ٨: ٢٨٧ ـ ٢٨٨ / ١٠٥٨ ـ ٥٠؛ النوادر: ٣١ / ٢٧ باب ٣؛ البحار ١٠١: ٢٣٤ / ٨٨؛ العيّاشيّ ١: ٩٢ / ١٤٩؛ البرهان ١: ٣٧٥ و ٣٧٦.

أقضي في ذا، قل لها: فلتأكل معها وليظلّها وإيّاها سقف بيت، ولا تمشي، ولا تعتق، ولتتق الله ربَّها، ولا تعود إلى ذلك، فإنّ هذا من خطوات الشيطان»(١).

[٤٢٦٤/٢] وروى أحمد بن محمّد، عن ابن بكير بن أعين قال إنّ: أخت عبدالله بن حمدان المختار، دخلت على أخت لها وهي مريضة، فقالت لها أختها: أفطري فأبت، فقالت أختها: جاريتي حرّة إن لم تفطري، إن كلّمتك أبداً، فقالت: فجاريتي حرّة إن أفطرت، فقالت الأخرى: فعليّ المشي إلى بيت الله، وكلّ مالي في المساكين إن لم تفطري، فقالت: عليّ مثل ذلك إن أفطرت، فسئل أبوجعفر عليه السلام، عن ذلك فقال: «فلتكلّمها، إنّ هذا كلّه ليس بشيء، وإنّما هو من خطوات الشيطان»(٢).

[٤٢٦٥/٢] وأخرج ابن أبي حاتم بالإسناد إلى أبي رافع: أنّه غضب على امرأته فقال: كلّ مملوك لها حرّ إن لم أطلّقها، فأتى زينب بنت أمّ سَلَمة ـ وهي يومئذٍ أفقه امرأة في المدينة ـ وسألها عن ذلك، فقالت: إنّما هذه من خطوات الشيطان(٣).

[٤٢٦٦/٢] وأخرج عبد بن حميد عن عثمان بن غياث قال: سألت جابر بن زيد عن رجل نذر أن يجعل في أنفه حلقة من ذهب. فقال: هي من خطوات الشيطان، ولا يزال عاصياً لله فليكفِّر عن يمينه(٤).

[٤٢٦٧/٢] وأخرج عبدالرزّاق وسعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن أبي حاتم والطبراني والحاكم وصحّحه عن ابن مسعود، أنّه أتي بضرع وملح فجعل يأكل، فاعتزل رجل من القوم فقال ابن مسعود: ناولوا صاحبكم. فقال: لا أريد. فقال: أصائم أنت؟ قال: لا. قال: فما شأنك؟ قال: حرَّمتُ أن آكل ضرعاً أبداً. فقال ابن مسعود: هذا من خطوات الشيطان، فاطعَم وكفِّر عن

(١) العيّاشيّ ١: ٩٢ / ١٤٨؛ البرهان ١: ٣٧٦؛ البحار ١٠١: ٢٢٣ / ٣٠؛ الكافي ٧: ٤٤٠ ـ ٤٤١ / ٨؛ النوادر: ٢٧ ـ ٢٨ / ١٩، باب ٣.

(٢) مستدرك الوسائل ١٦: ٤٣، النوادر: ٢٩ و ٣٠ / ٢٢، باب ٣(ما لا يلزم من النذر والأيمان...)؛ البحار ١٠١: ٢٣٣ / ٨٣.

(٣) راجع: ابن أبي حاتم ١: ٢٨٠ / ١٥٠٢؛ وابن كثير ١: ٢١٠. والحديث كان مشوّشاً، أخذنا المتلخّص منه.

(٤) الدرّ ١: ٤٠٤.

يمينك(١).

[٤٢٦٨/٢] وأخرج عبد بن حميد عن عيسى بن عبد الرحمان السلمي قال: جاء رجل إلى الحسن فسأله وأنا عنده فقال له: حلفت إن لم أفعل كذا وكذا أن أحجّ حَبْواً. فقال: هذا من خطوات الشيطان، فحُجَّ واركب وكفِّر عن يمينك(٢).

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَأْمُرُكُمْ بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾

أمّا أمره بالسوء، فهي وسوسته بارتكاب المآثم. وأمّا الفحشاء، فهي المعاصي ذوات آثار فاحشة، بحيث يحيق سيّؤها بالجمع بعد محق الفرد، فيكدر زلال الفضاء ويعكر المحيط، فضلاً عن سحق شخصيّة الآثم بالذات.

نعم، إنّ المعاصي على نمطين، منها ما يزلّ بالنفس ويحطّ من شأنها فحسب، ومنها ما يتجاوز النفس وتتسرّب آثاره السيّئة إلى الغير، ويلوّث المجتمع الّذي يعيش فيه الآثم.

ملحوظة

(ثلاث نقاط، هي أخطر ما يهدّد حياة المؤمن الفرديّة والاجتماعيّة، ليجعله على مشارف الانهيار).

قوله تعالى: **﴿إِنَّمَا يَأْمُرُكُمْ بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾**، في هذه الآية الكريمة إشارة إلى أهمّ ركائز يستغلها الشيطان لإضلال العباد وإفساد الحياة عليهم، واستبدال

---

(١) الدرّ ١: ٤٠٤؛ عبدالرزّاق ١: ٣٣ / ٧٥٥، سورة المائدة، الآية ٨٧؛ سنن سعيدبن منصور ٤: ١٥١٩ / ٧٧٢، بتفاوت؛ ابن أبي حاتم ١: ٢٨٠ / ١٥٠٣؛ الكبير ٩: ١٨٤؛ الحاكم ٢: ٣١٣ ـ ٣١٤، كتاب التفسير، سورة المائدة؛ المصنّف لعبدالرزّاق ٨: ٤٩٨ / ١٦٠٤٢، كتاب الأيمان والنذور، باب من حلف على يمين فرأى غيرها خيراً منها بلفظ: ... عن مسروق قال: كنّا عند ابن مسعود فأتي بضرع، فتنحّى رجل، فقال عبدالله: أدن، فقال: إنّي حرّمت الضرع، قال: فتلا: **﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللهُ لَكُمْ﴾** كل وكفِّر، سورة المائدة ٥: ٨٧؛ ابن كثير ١: ٢٠٩ ـ ٢١٠؛ مجمع الزوائد ٤: ١٩٠، كتاب الأيمان والنذور، باب فيمن حرّم على نفسه شيئاً، قال الهيثمي: رواه الطبراني في الكبير ورجاله رجال الصحيح.

(٢) الدرّ ١: ٤٠٤.

السعادة عليهم شقاء:

١ ـ ترغيبهم في هتك حريم المعاصي والتشويق على ارتكاب الإثم، يأمرهم بالسوء، والسوء: كلّ إثم يعود وباله على مرتكبه بالذات فيسيء حاله ويجعله في غيهب الضلال وهذا قد ظلم نفسه بالابتعاد عن ساحة ربّه.

وهذا في كلّ معصية توجب زلّة الإنسان عن مقام كرامته العليا وحطّ شأنه عند خالقه الكريم.

٢ ـ حثّهم على ارتكاب الفواحش، وهي المعاصي الّتي تعود وباله على المجتمع، ولا تخصّ مرتكبها بالذات، بل تتعدّاه إلى غيره ممّن يعيش معه في الحياة العامّة ليكون تهديداً للحياة العامّة وخطراً عليها، وكان ظلماً للناس، فضلاً عن ظلم نفسه وظلم ربّه.

وهذا في كلّ معصية أوجبت هتك حريم المآثم لدى العامّة، وهدّدت أركان المجتمع دون صيانتها عن التضعضع والانهيار.

والفحشاء: ما عظم قبحه وفشى سيّئه وكان خرقاً لحريم الجماعة في صيانتها العامّة. ولذلك ورد التأكيد على قبحها وتقبيح مرتكبها.

قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾[١]. أي ما عمّ أثره السيّء، سواء المعلَن به، كالغيبة والتهمة والوقوع في أعراض الناس. أم الإخفاء به، كالزنا وما كان من نمطه، والنميمة والدسائس الخفيّة.

قال تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾[٢].

وقال في مدح المتورّعين المتعهدين. ﴿الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلَّا اللَّمَمَ﴾[٣].

واللمم: الوقوع في أمر من غير اعتياد ولا إصرار، بل ربما لا عن قصد سابق.

وقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ﴾[٤].

وسيأتي في مجاله المناسب، الكلام عن الفاحشة، وهو كلّ إثم عدّ كبيرة موبقة وعظيمة خارقة للحرمات.

وجاء في الروايات تفسير الفحشاء بمختلف الكبائر والآثام:

---

(١) الأعراف ٧: ٣٣.
(٢) الأنعام ٦: ١٥١.
(٣) النجم ٥٣: ٣٢.
(٤) الشورى ٤٢: ٣٧.

[٤٢٦٩/٢] فعن ابن عبّاس قال: الفحشاء من المعاصي، ما يجب فيه الحدّ. والسوء من الذنوب، ما لا حدّ له[١].

[٤٢٧٠/٢] وعن طاووس عنه قال: الفحشاء، البخل[٢].

[٤٢٧١/٢] وأيضاً عنه عن ابن عبّاس قال: الفحشاء، فهو ما لا يعرف في شريعة ولا سنّة[٣]

[٤٢٧٢/٢] وأخرج ابن جرير عن السدّي قال: أمّا السوء فالمعصية، وأمّا الفحشاء فالزنا[٤].

[٤٢٧٣/٢] وقال مقاتل: إنّ كلّ ما في القرآن من ذكر الفحشاء فإنّه الزنا، إلّا قوله: ﴿الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشَاءِ﴾[٥] فإنّه منع الزكاة[٦].

٣ ـ والثالثة: البدع الّتي تحوّر من وجه شريعة الله الغرّاء، وربّما تمسخه إلى ظاهرة شكليّة جوفاء، عديمة الأثر، لا تضرّ ولا تنفع.

والبدعة إذا تسرّبت في الحياة الدينيّة، فإنّها لا تُبقي ولا تذر، وهي من أخطر ما يهدّد سلامة الحياة الدينيّة ويجعلها على أفول وخمول.

والنهي اللاذع عن الابتداع في الدين، لعلّه من ضروريات الدين والمتواتر من أحاديث السلف (نذكرها في مجاله المناسب) ولنقتطف منها نماذج:

[٤٢٧٤/٢] روى أبوجعفر الطوسي بإسناده إلى الإمام أمير المؤمنين عليه السلام قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول: «عملٌ قليلٌ في سُنّةٍ، خيرٌ من عملٍ كثير في بدعةٍ»[٧].

قلت: والتفصيل غير مراد هنا، ومعناه: أنّ في العمل القليل في سنّة خيراً، ولا خير في عمل كثير في بدعة. فهو نظير قوله تعالى: ﴿قَوْلٌ مَعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِنْ صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذىً﴾[٨]. إذ الصدقة الّتي فيها المنّ والأذى باطلة من أساس. قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى كَالَّذِي يُنفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ

---

(١) الثعلبي ٢: ٣٩؛ البغوي ١: ١٩٨؛ مجمع البيان ١: ٤٦٩.

(٢) الثعلبي ٢: ٣٩؛ الوسيط ١: ٢٥٣، بلفظ: «السوء: عصيان الله، والفحشاء: البخل».

(٣) الثعلبي ٢: ٣٩.

(٤) الطبري ٢: ١٠٦/ ٢٠٢٤.

(٥) البقرة ٢: ٢٦٨.

(٦) القرطبي ٢: ٢١٠؛ أبوالفتوح ٢: ٢٨٨؛ الثعلبي ٢: ٣٩.

(٧) أمالي الطوسي: ٣٨٥/ ٨٣٨ ـ ٨٩؛ البحار ٢: ٢٦١.

(٨) البقرة ٢: ٢٦٣.

وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْداً لَا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِمَّا كَسَبُوا﴾[١].

[٤٢٧٥/٢] وروى أبو عبدالله المفيد بإسناده إلى منصور بن أبي يحيى قال: سمعت أبا عبدالله الصادق عليه السلام يقول: صعد رسول الله صلى الله عليه وآله المنبر وقد التمع لونه[٢] وتغيّرت وجنتاه، فقال: «يا معشر المسلمين، إنّما بُعثت أنا والساعة كهاتين[٣]. وقد ضمّ سبّاحتيه[٤]، ثمّ قال: يا معشر المسلمين، إنّ أفضل الهدى هدى محمّد، وخير الحديث كتاب الله، وشرّ الأمور مُحْدَثاتُها. ألا وكلّ بدعة ضلالة، ألا وكلّ ضلالة في النار...»[٥].

قال العلّامة المجلسي: البدعة كلّ رأي أو دين أو حكم أو عبادة لم يرد من الشارع بخصوصها ولا في ضمن حكم عامّ.

قال: ومن ثمّ يظهر بطلان ما ذهب إليه البعض من انقسام البدعة بانقسام الأحكام الخمسة[٦].

[٤٢٧٦/٢] وقال الإمام أمير المؤمنين ـ عليه صلوات المصلّين ـ: «ما أُحدثت بدعة إلّا تُرك بها سنّة، فاتّقوا البدع وألزموا المهيع. إنّ عوازم الأمور أفضلها، وإنّ محدثاتها شرارها»[٧].

[٤٢٧٧/٢] وقال عليه السلام: «إنّما الناس رجلان: متّبع شِرعةً، ومبتدع بدعةً، ليس معه من الله ـ سبحانه ـ برهان سنّة ولا ضياء حجّة»[٨].

قوله عليه السلام: «ليس معه من الله برهان...» تفسير للبدعة، كما بيّنه المجلسيّ العظيم.

[٤٢٧٨/٢] وقال عليه السلام في ذمّ أهل البدع: «إنّ شرّ الناس عند الله إمام جائر، ضَلَّ وضُلَّ به، فأمات سنّة مأخوذة، وأحيا بدعة متروكة»[٩].

[٤٢٧٩/٢] وقال عليه السلام ـ في تعداد الخصال الموجبة للهلاك ـ: «أن يشرك بالله... أو يستنجح حاجة

---

(١) البقرة ٢: ٢٦٤.
(٢) أي برق لونه وتوهّج.
(٣) كناية عن امتداد دينه حتّى قيام الساعة.
(٤) الإصبع السبّاحة هي الإصبع السبّابة. أي ضم سبّابتيه من كلتا اليدين جنباً إلى جنب.
(٥) مجالس المفيد: ١٨٧ ـ ١٨٨ / ١٤، المجلس ٢٣.
(٦) البحار ٢: ٢٦٤.
(٧) نهج البلاغة ٢: ٢٨، الخطبة: ١٤٥. والمهيع: الطريق اللائح والمحجّة الواضحة. وعوازم الأمور: ثوابتها، ذوات المنبت الوثيق.
(٨) المصدر: ٩٥، الخطبة ١٧٦.
(٩) المصدر: ٦٩، الخطبة ١٦٤.

إلى الناس، بإظهار بدعة في دينه»[١].

[٢/ ٤٢٨٠] وقال الإمام الصادق عليه السلام: «إيّاك وخصلتين، ففيهما هلك من هلك: إيّاك أن تُفتي الناس برأيك، أو تدين بما لا تعلم»[٢].

[٢/ ٤٢٨١] وعن الإمام الباقر عليه السلام: أنه «سئل عن حقّ الله تعالى على العباد؟ قال: أن يقولوا ما يعلمون، ويقفوا عند ما لا يعلمون»[٣].

[٢/ ٤٢٨٢] وقال ابن عبّاس في قوله تعالى: ﴿وَأَنْ تَقولوا عَلَى اللهِ ما لا تَعْلَمون﴾ في رواية عطاء: يريد المشركين وكفّار أهل الكتاب، يعني في نسبتهم أشياء ـ ممّا شرّعوها ـ إلى الله تعالى، كما ذكر الله عنهم في قوله: ﴿وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللهُ أَمَرَنَا بِهَا﴾[٤][٥].

[٢/ ٤٢٨٣] وعنه برواية أبي صالح في قوله تعالى: ﴿وَأَنْ تَقولوا عَلَى اللهِ ما لا تَعْلَمون﴾ قال: هو تحريم الحرث والأنعام[٦].

[٢/ ٤٢٨٤] وروي عن عبدالله بن عمر قال: إنّ إبليس مُوثقٌ في الأرض السفلى، فإذا تحرّك فإنّ كلّ شرٍّ في الأرض بين اثنين فصاعداً من تحرّكه[٧].

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا...﴾

[٢/ ٤٢٨٥] أخرج ابن إسحاق وابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عبّاس قال: «دعا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم اليهود إلى الإسلام ورغّبهم فيه وحذّرهم عذاب الله ونقمته. فقال له أبو رافع بن

---

(١) المصدر: ٤٣، الخطبة ١٥٣. وهذا يستميل العامّة لاستدرار ما بأيديهم، بابتداع سنن تُعجبهم وتستميح جانبهم، وإن كان فيه خلاف ما يرتضيه الله سبحانه.

(٢) الصافي ١: ٣١٨؛ الخصال: ٥٢ / ٦٦، باب الاثنين، بإسناده إلى عبدالرحمان بن الحجّاج قال: قال لي أبو عبدالله عليه السلام ...؛ الكافي ١: ٤٢ / ٢، كتاب فضل العلم، باب النهي عن القول بغير علم؛ البحار ٢: ١١٤ / ٦، باب ١٦؛ نورالثقلين ٢: ٢٦ ـ ٢٧ / ٩٦.

(٣) الكافي ١: ٤٣ / ٧، كتاب فضل العلم، باب النهي عن القول بغير علم، بإسناده إلى زرارة بن أعين قال: سألت أبا جعفر عليه السلام ما حقّ الله على العباد؟...؛ الأمالي للصدوق: ٥٠٦ / ٧٠١ ـ ١٤، المجلس ٦٥؛ البحار ٢: ١١٣ / ٢، باب ١٦.

(٤) الأعراف ٧: ٢٨.

(٥) الوسيط ١: ٢٥٤.

(٦) المصدر.

(٧) القرطبي ٢: ٢٠٩.

خارجة، ومالك بن عوف: بل نتّبع يا محمّد! ما وجدنا عليه آباءنا، فهم كانوا أعلم وخيراً منّا، فأنزل الله في ذلك: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا﴾الآية»[1].

[٤٢٨٦/٢] وأخرج الثعلبي عن الضحّاك عن ابن عبّاس قال: يعني هم كفّار قريش من بني عبد الدار، قالوا: بل نتّبع ما ألفينا عليه آباءنا من عبادة الأصنام![2]

[٤٢٨٧/٢] وقال الكلبي: يعني الّذين حرَّموا على أنفسهم من الحرث والأنعام. وإذا قيل لهم: اعملوا بما أنزل الله في القرآن قالوا...[3].

[٤٢٨٨/٢] وأخرج الطستيّ عن ابن عبّاس: أنّ نافع بن الأزرق سأله عن قوله: ﴿ما ألفينا﴾ قال: يعني وجدناهم عليه من الدين. قال: وهل تعرف العرب ذلك؟ قال: نعم، أما سمعت قول نابغة بن ذبيان:

فحسَّبوه فألفوه كما زعمت ... تسعاً وتسعين لم ينقص ولم يزد[4]

[٤٢٨٩/٢] وأخرج ابن جرير عن الربيع وقتادة في قوله: ﴿ألفينا﴾ قالا: وجدنا[5].

قوله تعالى: ﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً﴾

[٤٢٩٠/٢] أخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عبّاس في قوله: ﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ﴾ قال: كمثل البقر والحمار والشاة؛ إن قلت لبعضهم كلاماً لم يعلم ما تقول، غير أنّه يسمع صوتك، وكذلك الكافر إن أمرته بخير أو نهيته عن شرٍّ أو وعظته، لم يعقل ما تقول، غير أنّه يسمع صوتك![6]

---

(١) الدرّ ١: ٤٠٥؛ الطبري ٢: ١٠٧ـ١٠٨ / ٢٠٢٥؛ ابن أبي حاتم ١: ٢٨١ / ١٥١١؛ التعلبي ٢: ٣٩؛ البغوي ١: ١٩٨ / ١٢٠؛ التبيان ٢: ٧٦؛ أبوالفتوح ٢: ٢٨٨، نقلاً عن الضحّاك.

(٢) التعلبي ٢: ٤٠؛ الوسيط ١: ٢٥٤. (٣) الوسيط ١: ٢٥٤.

(٤) الدرّ ١: ٤٠٥؛ الوسيط ١: ٢٥٤.

(٥) الدرّ ١: ٤٠٥؛ الطبري ٢: ١٠٨ / ٢٠٢٦ـ٢٠٢٧؛ ابن أبي حاتم ١: ٢٨١ / ١٥١٢؛ التبيان ٢: ٧٦.

(٦) الدرّ ١: ٤٠٥؛ الطبري ٢: ١٠٩ / ٢٠٣٠؛ ابن أبي حاتم ١: ٢٨٢ / ١٥١٣، وزاد: وروي عن أبي العالية ومجاهد ←

[٤٢٩١/٢] وأخرج الطستيّ عن ابن عبّاس: أنّ نافع بن الأزرق قال له: أخبرني عن قوله ﷻ: ﴿كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ﴾ قال: شبّه الله أصوات المنافقين والكفّار بأصوات البَهْم، أي بأنّهم لا يعقلون. قال: وهل تعرف العرب ذلك؟ قال: نعم، أما سمعت بشر بن أبي حازم وهو يقول:

هضيم الكشح لم يُغمز ببؤس ... ولم يُنعق بناحية الرباق[١]

[٤٢٩٢/٢] وقال عليّ بن إبراهيم في الآية: فإنّ البهائم إذا زجرها صاحبها فإنّها تسمع الصوت ولا تدري ما يريد، وكذلك الكفّار إذا قرأت عليهم وعرضت عليهم الإيمان لا يعلمون، مثل البهائم[٢].

[٤٢٩٣/٢] وأخرج عبدالرزّاق عن معمر عن قتادة قال: هذا مثل ضربه الله تعالى للكافر، يقول: مثل هذا الكافر كمثل البهيمة الّتي تسمع الصوت ولا تدري ما يقال لها، فكذلك الكافر، يقال له ولا ينتفع بما يقال له[٣].

[٤٢٩٤/٢] وأخرج ابن جرير عن قتادة في قوله تعالى: ﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ﴾ يقول: صمّ عن الحقّ فلايسمعونه ولا ينتفعون به ولايعقلونه، عميٌ عن الحقّ والهدى فلايبصرونه، بُكم عن الحقّ فلا ينطقون به[٤].

[٤٢٩٥/٢] وأخرج عن ابن عبّاس في قوله: ﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ﴾ يقول: لا يسمعون الهدى ولا يبصرونه ولا يعقلونه[٥].

* * *

← وعكرمة وعطاء بن أبي رباح والحسن وقتادة وعطاء الخراساني والربيع بن أنس نحو ذلك؛ مجمع البيان ١: ٤٧١؛ الثعلبي ٢: ٤١، نقلاً عن ابن عبّاس وعكرمة ومجاهد وقتادة وعطاء والربيع والسدّي وأكثر المفسرين. وعن الحسن بلفظ: مثلهم فيها قبلوا من آباءهم وفيما آتيتهم به حيث لايسمعونه ولايعقلونه كمثل راعي الغنم الّذي نعق بها فإذا سمعت الصوت رفعت رؤوسها فاستمعت إلى الصوت والدعاء ولاتعقل منه شيئاً.

(١) الدرّ ١: ٤٠٥. والرباق: جمع الربقة، بكسر الراء وفتحها، وهي الحبل والحلقة تُشَدّ بها البهائم.

(٢) القمي ١: ٦٤؛ البرهان ١: ٣٧٧؛ البحار ٩: ١٨٧ / ١٧، باب ١.

(٣) عبدالرزاق ١: ٣٠٠ / ١٥٤؛ مجمع البيان ١: ٤٧١، بمعناه؛ الثعلبي ٢: ٤١، بمعناه؛ الطبري ٢: بعد رقم ٢٠٣٢.

(٤) الطبري ٢ / ٢٠٣٨.

(٥) المصدر / ٢٠٤٠.

[٤٢٩٦/٢] ومن كلام لمولانا أمير المؤمنين عليه السلام عندما دخل على العلاء[1] بن زياد الحارثي، وهو من أصحابه يعوده. فلمّا رأى سعة داره قال:

«ما كنت تصنع بسعة هذه الدار في الدنيا، أما أنت إليها في الآخرة كنت أحوج! بَلَى إن شئت بلغت بها الآخرة: تقري فيها الضيف، وتصل فيها الرحم، وتُطلع منها الحقوقَ مطالعها. فإذن أنت قد بلغت بها الآخرة!».

فقال له العلاء: يا أمير المؤمنين، أشكو إليك أخي عاصم بن زياد! قال: وماله؟ قال: لبس العباء وتخلّى من الدنيا!

قال: عَلَيَّ به، فلمّا جاء، قال:

«يا عُدَيَّ[2] نَفْسِهِ! لقد استهام بك الخبيث[3]! أما رحمت أهلك وولد لك! أترى الله أحلّ لك الطيّبات، وهو يكره أن تأخذها! أنت أهون على الله من ذلك!

قال عاصم: يا أمير المؤمنين، هذا أنت في خشونة ملبسك وجشوبة مأكلك!

قال عليه السلام: «ويحك، إنّي لستُ كأنت، إنّ الله تعالى فرض على أئمّة الحقّ أن يقدّروا أنفسهم بضعفة الناس، كي لا يتبيَّغ بالفقير فقرُه!»[4]

* * *

ولابن أبي الحديد كلام عن مقامات العارفين نذكره بنصّه:

[٤٢٩٧/٢] قال: وروي أنّ قوماً من المتصوّفة (وهم أصحاب التقشّف في الحياة) دخلوا على الإمام عليّ بن موسى الرضا عليه السلام وهو بخراسان، فقالوا له: إنّ أمير المؤمنين ـ يعنون مأمون العباسيّ ـ فكّر فيما ولّاه الله من الأمور، فرآكم ـ أهل البيت ـ أولى الناس أن تؤمُّوا الناس. فنظر فيك من أهل البيت، فرآك أولى الناس بالناس، فرأى أن يردّ هذا الأمر إليك. والإمامة تحتاج إلى من يأكل الجشب ويلبس الخشن ويركب الحمار ويعود المريض!

---

(١) ولعلّ الصحيح: الربيع بن زياد. على ما ذكره ابن أبي الحديد ١١: ٣٧. إذ لم يُعرف العلاء بن زياد، هذا.

(٢) عُدَيَّ: مصغَّر عدوّ.

(٣) أي استحوذ عليك الشيطان فجعلك تهيم في ضلال.

(٤) شرح النهج ١١: ٣٢ / ٢٠٢. والتبيّغ: الهياج. يقال: تبيّغ الدم بصاحبه إذا هاج به.

فقال لهم الإمام: «إنّ يوسف كان نبيّاً، يلبس أقبية الديباج المزرّرة بالذهب[١] ويجلس على متّكآت آل فرعون! وَيْحكم؛ إنّما يُراد من الإمام قسطُه وعدلُه؛ إذا قال صدق، وإذا حكم عدل، وإذا وعد أنجز. إنّ الله لم يحرّم لبوساً ولا مطعماً. ثمّ قرأ: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ﴾»[٢].

قال ابن أبي الحديد: وهذا الّذي ذكره الرضاؑ مخالف ـ في ظاهره ـ للقانون الّذي أشار إليه أميرالمؤمنين ـ عليه صلوات المصلّين ـ!

لكنّه، نظراً لاختلاف الظروف والأحوال، حاول الجمع بين الكلامين، قال: وللفلاسفة في هذا الباب كلام لابأس به، وقد أشار إليه أبو عليّ بن سينا في كتاب «الإشارات». وعليه يتخرّج قولا أميرالمؤمنين وعليّ بن موسى الرضاؑ:

قال أبو عليّ ـ في مقامات العارفين ـ: العارفون قد يختلفون في الهمم بحسب ما يختلف فيهم الخواطر، على حسب ما يختلف عندهم من دواعي العبر. فربما استوى عند العارف القَشَف والتَرَف، بل ربما آثر القَشَف. وكذلك ربما سوّى عنده التَّفْل والعِطْر، بل ربما آثر التفل. وذلك عندما يكون الهاجس بباله، استحقار ما عدا الحقّ، وربما صغا إلى الزينة وأحبّ من كلّ شيء عقيلته[٣] وكره الخِداج والسَّقَط، وذلك عند ما يعتبر عادته من صحبة الأحوال الظاهرة، فهو يرتاد إليها في كلّ شيء، لأنّه مزيّة خطوة من العناية الأولى، وأقرب أن يكون من قبيل ماعكف عليه بهواه. وقد يختلف هذا في عارفَيْن، وقد يختلف في عارف بحسب وَقتين[٤].

* * *

ثمّ ذكر ابن أبي الحديد نسخة أُخرى لكلام الإمام أميرالمؤمنين الآنف، قال:

[٤٢٩٨/٢] «واعلم أنّ الّذي رويتُه عن الشيوخ ورأيته بخطّ عبدالله بن أحمد بن الخشّاب: أنّ الربيع بن زياد الحارثي أصابته نشّابة في جبينه فكانت تنتقض عليه في كلّ عام، فأتاه عليّؑ عائداً، فقال: كيف تجدك أبا عبدالرحمان؟ قال: أجدني ـ يا أميرالمؤمنين ـ لو كان لا يذهب ما بي إلّا بذهاب بصري لتمنّيت ذهابه. قال: وما قيمة بصرك عندك؟ قال: لو كانت لي الدنيا لفديته بها!

---

(١) أي المطليّة أزرارها بالذهب.

(٢) الأعراف ٧: ٣٢.

(٣) العقيلة من كلّ شيء أكرمه وأغلاه.

(٤) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ١١: ٣٤ـ٣٥.

قال: لا جرم ليعطينّك الله على قدر ذلك؛ إنّ الله يُعطي على قدر الألم والمصيبة، وعنده تضعيفٌ كثيرٌ. قال الربيع: يا أميرالمؤمنين، ألا أشكو إليك عاصم بن زياد أخي؟ قال: ما له؟ قال: لبس العباء وترك المُلاء[1] وغمّ أهلَه وحَزَن وُلدَه! فقال عليه السلام: أُدعوا لي عاصماً، فلمّا أتاه عبس في وجهه، وقال: ويحك ـ يا عاصم ـ أترى الله أباح لك اللذّات وهو يكره ما أخذت منها؟ لأنت أهون على الله من ذلك، أوَما سمعته يقول: ﴿مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ﴾[2] ثمّ قال: ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ﴾[3] وقال: ﴿وَمِنْ كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْماً طَرِيّاً وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا﴾[4]. أما والله، إنّ ابتذال نِعَم الله بالفعال أحبّ إليه من ابتذالها بالمقال، وقد سمعتم الله يقول: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾[5]، وقوله: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ﴾[6]. إنّ الله خاطب المؤمنين بما خاطب به المرسلين، فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾[7]، وقال: ﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحاً﴾»[8]. وقال رسول الله صلى الله عليه وآله لبعض نسائه: «مالي أراكِ شَعْثاء ومَرْهاء سَلْتاء!»[9].

قال عاصم: فَلِمَ اقتصرت يا أميرالمؤمنين على لبس الخشن وأكل الجشب؟ قال: إنّ الله تعالى افترض على أئمّة العدل أن يقدِّروا لأنفسهم بالقوام، كي لا يتبيّغ بالفقير فقرُه».

فماقام عليٌّ عليه السلام حتّى نزع عاصم العباء ولبس ملاءة.

* * *

قال ابن أبي الحديد: والربيع بن زياد هو الّذي افتتح بعض خراسان، على عهد عمر، وكان خيّراً متواضعاً متقشّفاً في ملبسه ومأكله.

وكان على عهد معاوية على قطعة من خراسان، فكتب إليه زياد بن أبيه: أنّ معاوية كتب إليّ يأمرك أن تُحرز الصفراء والبيضاء، وتقسّم الخُرْثيّ[10] وما أشبهه على أهل الحرب! فأجابه الربيع:

---

(١) المُلاء: ثوب ضفضاف، يلبسه ذوو الشرف.
(٢) الرحمان ٥٥: ١٩.
(٣) الرحمان ٥٥: ٢٢.
(٤) فاطر ٣٥: ١٢.
(٥) الضحى ٩٣: ١١.
(٦) الأعراف ٧: ٣٢.
(٧) البقرة ٢: ١٧٢.
(٨) المؤمنون ٢٣: ٥١.
(٩) الشعثاء: المغبرّة الشعر، لاتمتشط. والمرهاء: التي لاتكتحل. والسلتاء: الّتي لاتختضب.
(١٠) الخُرثيّ: أردأ المتاع وسَقَطُه.

إنّي وجدتُ كتاب الله قبل كتاب معاوية.. ثمّ نادى في الناس: أن اغدوا على غنائمكم، فأخذ الخمس وقسّم الباقي على المسلمين، ثمّ دعا الله أن يُميته، فما جمع حتّى مات ـ رحمة الله عليه ـ[1].

قلت: ولعلّك ـ أيّها القارىء النبيه في غنىً عن مقايسة موضع معاوية هذا الهابط، مع موضع الإمام أميرالمؤمنين عليه السلام المتصاعد إلى قمّة الكمال! نعم، وكلّ إناء بالذي فيه ينضح!

هناك مِنَ الأئمّة، أئمّة هدىً يهدون بأمره تعالى[2]. وأئمّة ضلال يدعون إلى النار[3]. ﴿قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلَتِهِ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَى سَبِيلاً﴾[4].

موضع العقل من الشريعة الغرّاء

هناك عقد ثقة الإسلام محمّد بن يعقوب الكليني باباً[5] ـ في الكافي الشريف ـ جمع فيه غرراً ودرراً من كلام أئمّة أهل البيت عليهم السلام تنبؤك عن شرف العقل ومنزلته الرفيعة في الشريعة الغرّاء، نذكر منها:

[٤٢٩٩/٢] روى بإسناده إلى محمّد بن مسلم عن الإمام أبي جعفر الباقر عليه السلام قال: «لمّا خلق الله العقل استنطقه ثمّ قال له: أقبل فأقبل ثمّ قال له: أدبر فأدبر، ثمّ قال: وعزّتي وجلالي ما خلقت خلقاً هو أحبُّ إليَّ منك، ولا أكملتك إلّا فيمن أحبّ، أما إنّي إيّاك آمر وإيّاك أنهى وإيّاك أعاقب وإيّاك أثيب».

تلك مسرحيّة تبدّى فيها موضع العقل من حياة الإنسان الدينيّة الكريمة، وقد كان العقل (القدرة على التفكير والاستنتاج والإبداع) هي ميزة الإنسان الّتي فصلته عن سائر الحيوان، وكانت هي ملاك التكليف والاعتبار والاختبار في حياة الإنسان الرفيعة أو الوضيعة. ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا. فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا. قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا. وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا﴾[6].

---

(١) شرح النهج لابن أبي الحديد ١١: ٣٢ ـ ٣٧.
(٢) الأنبياء ٢٢: ٧٣.
(٣) القصص ٢٨: ٤١.
(٤) الإسراء ١٧: ٨٤.
(٥) كتاب العقل والجهل من الكافي ١: ١٠ ـ ٢٩.
(٦) الشمس ٩١: ٧ ـ ١٠.

[٤٣٠٠/٢] وعن الأصبغ بن نباتة، عن عليّ عليه السلام قال: «هبط جبرئيل على آدم عليه السلام فقال: يا آدم إنّي أُمرت أن أخيّرك واحدة من ثلاث فاخترها ودع اثنتين، فقال له آدم: يا جبرئيل وما الثلاث؟ فقال: العقل والحياء والدين، فقال آدم: إنّي قد اخترت العقل، فقال جبرئيل للحياء والدين: انصرفا ودعاه فقالا: يا جبرئيل إنّا أُمرنا أن نكون مع العقل حيث كان، قال: فشأنكما وعرج».

[٤٣٠١/٢] وعن محمّد بن عبدالجبّار، عن بعض أصحابنا رفعه إلى أبي عبدالله عليه السلام قال: «قلت له: ما العقل؟ قال: ما عُبد به الرحمان واكتسب به الجنان. قال: قلت: فالّذي كان في معاوية؟ فقال: تلك النكراء! تلك الشيطنة، وهي شبيهة بالعقل، وليست بالعقل».

[٤٣٠٢/٢] وعن ابن فضّال، عن الحسن بن الجهم قال: سمعت الرضا عليه السلام يقول: «صديق كلّ امرءٍ عقله، وعدوّه جهله».

[٤٣٠٣/٢] وعن ابن فضّال وعن الحسن بن الجهم أيضاً قال: قلت لأبي الحسن عليه السلام: «إنّ عندنا قوماً لهم محبّة، وليست لهم تلك العزيمة يقولون بهذا القول؟ فقال: ليس أُولئك ممّن عاتب الله، إنّما قال الله: فاعتبروا يا أُولي الأبصار».

[٤٣٠٤/٢] وعن إسحاق بن عمّار قال: قال أبو عبدالله عليه السلام: «من كان عاقلاً كان له دين، ومن كان له دين دخل الجنّة».

[٤٣٠٥/٢] وعن أبي الجارود، عن أبي جعفر عليه السلام قال: «إنّما يداقّ الله العباد في الحساب يوم القيامة على قدر ما آتاهم من العقول في الدنيا».

[٤٣٠٦/٢] وعن محمّد بن سليمان الديلمي، عن أبيه قال: قلت لأبي عبدالله عليه السلام: فلان من عبادته ودينه وفضله؟ فقال: كيف عقله؟ قلت: لاأدري، فقال: «إنّ الثواب على قدر العقل، إنّ رجلاً من بني إسرائيل كان يعبد الله في جزيرة من جزائر البحر، خضراء نضرة، كثيرة الشجر ظاهرة الماء وإن ملكاً من الملائكة مرَّ به فقال: يا ربّ أرني ثواب عبدك هذا، فأراه الله ذلك، فاستقلّه الملك، فأوحى الله إليه: أن اصحبه! فأتاه الملك في صورة إنسيّ فقال له: من أنت؟ قال: أنا رجل عابد بلغني مكانك وعبادتك في هذا المكان فأتيتك لأعبد الله معك، فكان معه يومه ذلك فلمّا أصبح قال له المَلَك: إنّ مكانك لنزه وما يصلح إلّا للعبادة. فقال له العابد: إنّ لمكاننا هذا عيباً. فقال له: وما هو؟ قال: ليس لربّنا بهيمة فلو كان له حمار رعيناه في هذا الموضع، فإنّ هذا الحشيش يضيع، فقال له المَلَك: وما

لربّك حمار؟ فقال: لو كان له حمار ما كان يضيع مثل هذا الحشيش، فأوحى الله إلى الملك: إنّما أثيبه على قدر عقله».

[٢/٤٣٠٧] وعن النوفليّ، عن السكونيّ، عن أبي عبدالله عليه السلام قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «إذا بلغكم عن رجل حسن حال فانظروا في حسن عقله، فإنّما يجازى بعقله».

[٢/٤٣٠٨] وعن عبدالله بن سنان قال: ذكرت لأبي عبدالله عليه السلام رجلاً مبتلىً بالوضوء والصلاة[١] وقلت: هو رجل عاقل، فقال: أبو عبدالله وأيُّ عقل له وهو يطيع الشيطان؟ فقلت له: وكيف يطيع الشيطان؟ فقال سله: هذا الّذي يأتيه من أيّ شيء هو؟ فإنّه يقول لك من عمل الشيطان[٢].

[٢/٤٣٠٩] وعن أحمد بن محمّد بن خالد، عن بعض أصحابه، رفعه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «ما قسّم الله للعباد شيئاً أفضل من العقل، فنوم العاقل أفضل من سهر الجاهل، وإقامة العاقل أفضل من شخوص الجاهل[٣] ولا بعث الله نبيّاً ولا رسولاً حتّى يستكمل العقل، ويكون عقله أفضل من جميع عقول أمّته، وما يضمر النبيّ صلى الله عليه وآله في نفسه أفضل من اجتهاد المجتهدين، وما أدّى العبد فرائض الله حتّى عقل عنه، ولا بلغ جميع العابدين في فضل عبادتهم ما بلغ العاقل، والعقلاء هم أُولو الألباب، الّذين قال الله تعالى: ﴿وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُوْلُوا الْأَلْبَابِ﴾»[٤].

[٢/٤٣١٠] وعن هشام بن الحكم قال: قال لي أبو الحسن موسى بن جعفر عليهما السلام: «يا هشام إنّ الله تبارك وتعالى بشّر أهل العقل والفهم في كتابه فقال: ﴿فَبَشِّرْ عِبَادِي الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللهُ وَأُوْلَئِكَ هُمْ أُوْلُوا الْأَلْبَابِ﴾[٥].

يا هشام إنّ الله تبارك وتعالى أكمل للناس الحجج بالعقول، ونصر النبيّين بالبيان، ودلّهم على ربوبيّته بالأدلّة، فقال: ﴿وَإِلَـهُكُمْ إِلَـهٌ وَاحِدٌ لَا إِلَـهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَانُ الرَّحِيمُ. إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ

---

(١) أي بالوسواس في نيّتهما أو أفعالهما أو شرائطهما، وسببه فساد العقل أو الجهل بالشرع.

(٢) فهو يعلم أنّ الوسوسة من عمل الشيطان لما في قوله تعالى ﴿مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ. الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ﴾ ولكنّه لايتمكّن من طرده حين العمل.

(٣) أي خروجه من بلده طلباً للخير والثواب كالحجّ والجهاد أو تحصيل العلم ونحو ذلك.

(٤) البقرة ٢: ٢٦٩. (٥) الزمر ٣٩: ١٧ ـ ١٨.

مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾(1).

يا هشام قد جعل الله ذلك دليلاً على معرفته بأنّ لهم مدبّراً، فقال: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾(2). وقال: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا شُيُوخاً وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى مِنْ قَبْلُ وَلِتَبْلُغُوا أَجَلاً مُسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾(3) وقال: ﴿إِنَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِلْمُؤْمِنِينَ. وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِنْ دَابَّةٍ آيَاتٌ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ. وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا أَنْزَلَ اللهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ رِزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ آيَاتٌ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾(4). وقال: ﴿يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾(5). وقال: ﴿وَجَنَّاتٌ مِنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾(6). وقال: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفاً وَطَمَعاً وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُحْيِي بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا. إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾(7). وقال: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾(8). وقال: ﴿هَلْ لَكُمْ مِنْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ فَأَنْتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾(9).

يا هشام ثمّ وعظ أهل العقل ورغّبهم في الآخرة فقال: ﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَلَلدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾(10).

يا هشام ثمّ خوّف الّذين لايعقلون عقابه فقال تعالى: ﴿ثُمَّ دَمَّرْنَا الْآخَرِينَ. وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِمْ

---

(1) البقرة ٢: ١٦٣ ـ ١٦٤.
(2) النحل ١٦: ١٢.
(3) المؤمن ٤٠: ٦٧.
(4) الجاثية ٤٥: ٢ ـ ٥.
(5) الحديد ٥٧: ١٧.
(6) الرعد ١٣: ٤.
(7) الروم ٣٠: ٢٤.
(8) الأنعام ٦: ١٥١.
(9) الروم ٣٠: ٢٨.
(10) الأنعام ٦: ٣٢.

مُصْبِحِينَ. وَبِاللَّيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾[1]. وقال: ﴿إِنَّا مُنزِلُونَ عَلَى أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ رِجْزاً مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ. وَلَقَد تَرَكْنَا مِنْهَا آيَةً بَيِّنَةً لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾[2].

يا هشام إنّ العقل مع العلم فقال: ﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ﴾[3]. يا هشام ثمّ ذمّ الّذين لا يعقلون فقال: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئاً وَلَا يَهْتَدُونَ﴾[4]. وقال: ﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾[5]. وقال: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا لَا يَعْقِلُونَ﴾[6] وقال: ﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلاً﴾[7]. وقال: ﴿لَا يُقَاتِلُونَكُمْ جَمِيعاً إِلَّا فِي قُرًى مُحَصَّنَةٍ أَوْ مِنْ وَرَاءِ جُدُرٍ بَأْسُهُمْ بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعاً وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ﴾[8]. وقال: ﴿وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾[9].

يا هشام ثمّ ذمّ الله الكثرة فقال: ﴿وَإِنْ تُطِعْ أَكْثَرَ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ﴾[10]. وقال: ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾[11]. وقال: ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾[12].

ياهشام ثمّ مدح القلّة فقال: ﴿وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾[13]. وقال: ﴿وَقَلِيلٌ مَا هُمْ﴾[14]. وقال: ﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلاً أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللهُ﴾[15]. وقال: ﴿وَمَنْ آمَنَ وَمَا

---

(١) الصافات ٣٧: ١٣٦ ـ ١٣٨.
(٢) العنكبوت ٢٩: ٣٤ ـ ٣٥.
(٣) العنكبوت ٢٩: ٤٣.
(٤) البقرة ٢: ١٧٠.
(٥) البقرة ٢: ١٧١.
(٦) يونس ١٠: ٤٣.
(٧) الفرقان ٢٥: ٤٤.
(٨) الحشر ٥٩: ١٤.
(٩) البقرة ٢: ٤٤.
(١٠) الأنعام ٦: ١١٦.
(١١) لقمان ٣١: ٢٥.
(١٢) العنكبوت ٢٩: ٦٣.
(١٣) سبأ ٣٤: ١٣.
(١٤) سورة ص ٣٨: ٢٤.
(١٥) المؤمن ٤٠: ٢٨.

آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ﴾[١]. وقال: ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾[٢]. وقال: ﴿وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾[٣].

يا هشام ثمّ ذكر أُولي الألباب بأحسن الذكر وحلّاهم بأحسن الحلية، فقال: ﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْراً كَثِيراً وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾[٤] وقال: ﴿وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾[٥] وقال ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾[٦]. وقال: ﴿أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَى إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُوا الْأَلْبَابِ﴾[٧]. وقال: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِداً وَقَائِماً يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُوا الْأَلْبَابِ﴾[٨]. وقال: ﴿كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُوا الْأَلْبَابِ﴾[٩]. وقال: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْهُدَى وَأَوْرَثْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ. هُدىً وَذِكْرَى لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾[١٠]. وقال: ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنفَعُ الْمُؤْمِنِينَ﴾[١١].

يا هشام إنّ الله تعالى يقول في كتابه: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ﴾[١٢] يعني: عقل: وقال: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ﴾[١٣]. قال: الفهم والعقل.

يا هشام إنّ لقمان قال لابنه: تواضع للحقّ تكن أعقل الناس، وإنّ الكيّس لدى الحقّ يسير، يا بنيّ إنّ الدنيا بحر عميق، قد غرق فيها عالَم كثير فلتكن سفينتك فيها تقوى الله، وحشوها الإيمان وشراعها التوكّل، وقيّمها العقل، ودليلها العلم، وسكّانها الصبر.

يا هشام إنّ لكلّ شيء دليلاً ودليل العقل التفكّر، ودليل التفكّر الصمت، ولكلّ شيء مطيّة ومطيّة العقل التواضع وكفى بك جهلاً أن تركب مانهيت عنه.

يا هشام ما بعث الله أنبياءه ورسله إلى عباده إلّا ليعقلوا عن الله، فأحسنهم استجابة أحسنهم

---

(١) هود ١١: ٤٠.
(٢) الأنعام ٦: ٣٧.
(٣) المائدة ٥: ١٠٣.
(٤) البقرة ٢: ٢٦٩.
(٥) آل عمران ٣: ٧.
(٦) آل عمران ٣: ١٩٠.
(٧) الرعد ١٣: ١٩.
(٨) الزمر ٣٩: ٩.
(٩) سورة ص ٣٨: ٢٩.
(١٠) المؤمن ٤٠: ٥٣ ـ ٥٤.
(١١) الذاريات ٥١: ٥٥.
(١٢) سورة ق ٥٠: ٣٧.
(١٣) لقمان ٣١: ١٢.

معرفة، وأعلمهم بأمر الله أحسنهم عقلاً، وأكملهم عقلاً أرفعهم درجة في الدنيا والآخرة.

يا هشام إنّ لله على الناس حجّتين: حجّة ظاهرة وحجّة باطنة، فأمّا الظاهرة فالرسل والأنبياء والأئمّة عليهم السلام وأمّا الباطنة فالعقول.

يا هشام إنّ العاقل الّذي لا يشغل الحلال شكره، ولا يغلب الحرام صبره.

يا هشام من سلّط ثلاثاً على ثلاث فكأنّما أعان على هدم عقله: من أظلم نور تفكّره بطول أمله، ومحى طرائف حكمته بفضول كلامه، وأطفأ نور عبرته بشهوات نفسه، فكأنّما أعان هواه على هدم عقله، ومن هدم عقله، أفسد عليه دينه ودنياه.

يا هشام كيف يزكو عند الله عملك، وأنت قد شغلت قلبك عن أمر ربّك وأطعت هواك على غلبة عقلك.

يا هشام الصبر على الوحدة علامة قوّة العقل، فمن عقل عن الله اعتزل أهل الدنيا والراغبين فيها، ورغب فيما عند الله، وكان الله أُنسه في الوحشة، وصاحبه في الوحدة، وغناه في العيلة، ومعزّه من غير عشيرة.

يا هشام نُصب الحقّ لطاعة الله، ولا نجاة إلّا بالطاعة، والطاعة بالعلم، والعلم بالتعلّم، والتعلّم بالعقل يعتقد[1]، ولا علم إلّا من عالم ربّانيّ، ومعرفة العلم بالعقل.

يا هشام قليل العمل من العالم مقبول مضاعف، وكثير العمل من أهل الهوى والجهل مردود.

يا هشام إنّ العاقل رضي بالدون من الدنيا مع الحكمة، ولم يرض بالدون من الحكمة مع الدنيا، فلذلك ربحت تجارتهم.

يا هشام إنّ العقلاء تركوا فضول الدّنيا فكيف الذنوب، وترك الدنيا من الفضل، وترك الذنوب من الفرض.

يا هشام إنّ العاقل نظر إلى الدنيا وإلى أهلها فعلم أنّها لا تنال إلّا بالمشقّة، ونظر إلى الآخرة فعلم أنّها لاتنال إلّا بالمشقّة، فطلب بالمشقّة أبقاهما.

يا هشام إنّ العقلاء زهدوا في الدنيا ورغبوا في الآخرة، لأنّهم علموا أنّ الدنيا طالبة مطلوبة

---

(١) أي يشدّ ويستحكم وفي بعض النسخ «يعتقل».

والآخرة طالبة ومطلوبة، فمن طلب الآخرة طلبته الدنيا حتّى يستوفي منها رزقه، ومن طلب الدنيا طلبته الآخرة فيأتيه الموت، فيفسد عليه دنياه وآخرته.

يا هشام من أراد الغنى بلا مال، وراحة القلب من الحسد، والسلامة في الدين فليتضرّع إلى الله ـعزّ وجلّ ـفي مسألته بأن يكمّل عقله، فمن عقل قنع بما يكفيه، ومن قنع بما يكفيه استغنى، ومن لم يقنع بما يكفيه لم يدرك الغنى أبداً:

يا هشام إنّ الله حكى عن قوم صالحين: أنّهم قالوا: ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ﴾ حين علموا أنّ القلوب تزيغ وتعود إلى عماها ورداها.

إنّه لم يخف الله من لم يعقل عن الله، ومن لم يعقل عن الله لم يعقد قلبه على معرفة ثابتة يبصرها ويجد حقيقتها في قلبه، ولا يكون أحد كذلك إلّا من كان قوله لفعله مصدّقاً، وسرّه لعلانيته موافقاً، لأنّ الله تبارك اسمه لم يدلّ على الباطن الخفيّ من العقل إلّا بظاهر منه، وناطق عنه.

يا هشام كان أميرالمؤمنين عليه السلام يقول: ما عُبد الله بشيء أفضل من العقل، وما تمّ عقل امرء حتّى يكون فيه خصال شتّى: الكفر والشرّ منه مأمونان، والرشد والخير منه مأمولان، وفضل ماله مبذول، وفضل قوله مكفوف، ونصيبه من الدنيا القوت، لايشبع من العلم دهره، الذلُّ أحبُّ إليه مع الله من العزّ مع غيره، والتواضع أحبّ إليه من الشرف، يستكثر قليل المعروف من غيره، ويستقلّ كثير المعروف من نفسه، ويرى الناس كلّهم خيراً منه، وأنّه شرّهم في نفسه، وهو تمام الأمر.

يا هشام إنّ العاقل لايكذب وإن كان فيه هواه.

يا هشام لا دين لمن لا مروّة له، ولا مروّة لمن لا عقل له، وإنّ أعظم الناس قدراً الّذي لا يرى الدنيا لنفسه خطراً. أما إنّ أبدانكم ليس لها ثمن إلّا الجنّة فلا تبيعوها بغيرها.

يا هشام إنّ أميرالمؤمنين عليه السلام كان يقول: إنّ من علامة العاقل أن يكون فيه ثلاث خصال: يجيب إذا سُئل، وينطق إذا عجز القوم عن الكلام، ويشير بالرأي الّذي يكون فيه صلاح أهله، فمن لم يكن فيه من هذه الخصال الثلاث شيء فهو أحمق.

إنّ أميرالمؤمنين عليه السلام قال: لايجلس في صدر المجلس إلّا رجل فيه هذه الخصال الثلاث أو واحدة منهنّ، فمن لم يكن فيه شيء منهنّ فجلس فهو أحمق.

وقال الحسن بن عليّ عليه السلام: إذا طلبتم الحوائج فاطلبوها من أهلها، قيل يا ابن رسول الله ومن

أهلها؟ قال: الّذين قصّ الله في كتابه وذكرهم، فقال: ﴿إنّما يتذكّر أُولوالألباب﴾ قال: هم أُولو العقول.

وقال عليّ بن الحسين عليه السلام: مجالسة الصالحين داعية إلى الصلاح، وآداب العلماء زيادة في العقل، وطاعة ولاة العدل تمام العزّ، واستثمار المال تمام المروّة، وإرشاد المستشير قضاءٌ لحقّ النعمة، وكفّ الأذى من كمال العقل، وفيه راحة البدن عاجلاً وآجلاً.

يا هشام إنَّ العاقل لا يحدّث من يخاف تكذيبه، ولا يسأل من يخاف منعه، ولا يَعِد ما لايقدر عليه، ولا يرجو ما يعنَّف برجائه، ولايقدم على ما يخاف فوته بالعجز عنه».

[٤٣١١/٢] وعن سهل بن زياد رفعه قال: قال أميرالمؤمنين عليه السلام: «العقل غطاء ستير، والفضل جمال ظاهر، فاستر خلل خلقك بفضلك وقاتل هواك بعقلك، تسلم لك المودّة، وتظهر لك المحبّة».

[٤٣١٢/٢] وعن سماعة بن مهران قال: كنت عند أبي عبدالله عليه السلام وعنده جماعة من مواليه فجرى ذكر العقل والجهل فقال أبو عبدالله عليه السلام: «اعرفوا العقل وجنده والجهل وجنده تهتدوا، قال سماعة: فقلت: جعلت فداك لا نعرف إلّا ما عرّفتنا، فقال أبو عبدالله عليه السلام: إنّ الله ـ عزّ وجلّ ـ خلق العقل وهو أوّل خلق من الروحانيّين[1] عن يمين العرش من نوره فقال له: أدبر فأدبر؛ ثمّ قال له: أقبل فأقبل؛ فقال الله تبارك وتعالى: خلقتك خلقاً عظيماً وكرّمتك على جميع خلقي، قال: ثمّ خلق الجهل من البحر الأُجاج ظلمانيّاً فقال له: أدبر فأدبر؛ ثمّ قال له: أقبل فلم يقبل. فقال له: استكبرت فلعنه، ثمّ جعل للعقل خمسة وسبعين جنداً فلمّا رأى الجهل ما أكرم الله به العقل وما أعطاه، أضمر له العداوة فقال الجهل: يا ربّ هذا خلق مثلي خلقته وكرَّمته وقوّيته وأنا ضدّه ولا قوّة لي به فأعطني من الجند مثل ما أعطيته فقال: نعم فإن عصيت بعد ذلك أخرجتك وجندك من رحمتي قال: قد رضيت فأعطاه خمسة وسبعين جنداً فكان ممّا أعطى العقل من الخمسة والسبعين، والجند[2]:

الخير وهو وزير العقل وجعل ضدّه الشرّ وهو وزير الجهل؛ والايمان وضدُّه الكفر؛ والتصديق وضدّه الجحود؛ والرجاء وضدّه القنوط؛ والعدل وضدّه الجور؛ والرضا وضدّه السخط؛ والشكر وضدّه الكفران؛ والطمع وضدّه اليأس؛ والتوكّل وضدّه الحرص؛ والرأفة وضدّها القسوة؛ والرحمة

(١) يطلق الروحاني على الأجسام اللطيفة وعلى الجواهر المجرّدة إن قيل بها.

(٢) المذكور هنا ثمانية وسبعون جنداً ولكن قد تكرّر ذكر بعض الجنود.

وضدّها الغضب ؛ والعلم وضدّه الجهل ؛ والفهم وضدّه الحمق ؛ والعفّة وضدّها التهتّك ؛ والزهد وضدّه الرغبة ؛ والرفق وضدّه الخرق ؛ والرهبة وضدّها الجرأة ؛ والتواضع وضدّه الكبر ؛ والتؤدة وضدّها التسرُّع ؛ والحلم وضدّها السفه ؛ والصمت وضدّه الهذر ؛ والاستسلام وضده الاستكبار ؛ والتسليم وضدّه الشك ؛ والصبر وضدّه الجزع ؛ والصفح وضدّه الانتقام ؛ والغنى وضدّه الفقر ؛ والتذكّر وضدّه السهو ؛ والحفظ وضدّه النسيان ؛ والتعطّف وضدّه القطيعة ؛ والقنوع وضدّه الحرص ؛ والمؤاساة وضدّها المنع ؛ والمودّة وضدُّها العداوة ؛ والوفاء وضدّه الغدر ؛ والطاعة وضدّها المعصية ؛ والخضوع وضدّه التطاول ؛ والسلامة وضدّها البلاء ؛ والحبّ وضدّه البغض ؛ والصدق وضدّه الكذب ؛ والحقّ وضدّه الباطل ؛ والأمانة وضدّها الخيانة ؛ والإخلاص وضدّه الشوب ؛ والشهامة وضدّها البلادة ؛ والفهم وضدّه الغباوة ؛ والمعرفة وضدّها الإنكار ؛ والمداراة وضدّها المكاشفة ؛ وسلامة الغيب وضدّها المماكرة ؛ والكتمان وضدّه الإفشاء ؛ والصلاة وضدّها الإضاعة ، والصوم وضدّه الإفطار ، والجهاد وضدّه النكول ؛ والحجُّ وضدّه نبذ الميثاق ؛ وصون الحديث وضدّه النميمة ؛ وبرّ الوالدين وضدّه العقوق ؛ والحقيقة وضدّها الرياء ؛ والمعروف وضدّه المنكر ؛ والستر وضدّه التبرّج ، والتقيّة وضدّها الإذاعة ؛ والإنصاف وضدّه الحميّة ؛ والتهيئة[1] وضدُّها البغي ؛ والنظافة وضدّها القذر ؛ والحياء وضدّها الخلع ؛ والقصد وضدّه العدوان ؛ والراحة وضدّها التعب ؛ والسهولة وضدّها الصعوبة ؛ والبركة وضدّها المحق ؛ والعافية وضدّها البلاء ؛ والقوام وضدّه المكاثرة ، والحكمة وضدّها الهواء ؛ والوقار وضدّه الخفّة ، والسعادة وضدّها الشقاوة ؛ والتوبة وضدّها الإصرار ؛ والاستغفار وضدّه الاغترار ؛ والمحافظة وضدّها التهاون ؛ والدعاء وضدُّه الاستنكاف ، والنشاط وضدّه الكسل ؛ والفرح وضدُّه الحزن ؛ والأُلفة وضدُّها الفرقة ؛ والسخاء وضدُّه البخل .

فلا تجتمع هذه الخصال كلّها من أجناد العقل إلّا في نبيّ أو وصيّ نبي ، أو مؤمن قد امتحن الله قلبه للإيمان ، وأمّا سائر ذلك من موالينا فإنّ أحدهم لايخلو من أن يكون فيه بعض هذه الجنود حتّى يستكمل ، وينقى من جنود الجهل فعند ذلك يكون في الدرجة العليا مع الأنبياء والأوصياء ، وإنّما يدرك ذلك بمعرفة العقل وجنوده ، وبمجانبة الجهل وجنوده ؛ وفّقنا الله وإيّاكم لطاعته ومرضاته» .

---

(١) التهيئة : الموافقة والمصالحة .

[٤٣١٣/٢] وعن الحسن بن عليّ بن فضّال، عن بعض أصحابنا، عن أبي عبدالله عليه السلام قال: «ما كلّم رسول الله صلى الله عليه وآله العباد بكنه عقله قطّ؛ وقال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: إنّا معاشر الأنبياء أُمرنا أن نكلّم الناس على قدر عقولهم».

[٤٣١٤/٢] وعن النوفليّ، عن السكوني، عن جعفر، عن أبيه عليهما السلام قال: قال أمير المؤمنين عليه السلام: «إنّ قلوب الجهّال تستفزّها الأطماع، وترتهنها المنى، وتستعلقها الخدائع».

[٤٣١٥/٢] وعن إبراهيم بن عبد الحميد قال: قال أبو عبدالله عليه السلام: «أكمل الناس عقلاً أحسنهم خُلقاً».

[٤٣١٦/٢] وعن أبي هاشم الجعفريّ قال: كنّا عند الرضا عليه السلام فتذاكرنا العقل والأدب، فقال: «يا أبا هاشم العقل حباء من الله والأدب كلفة، فمن تكلّف الأدب قدر عليه، ومن تكلّف العقل لم يزدد بذلك إلّا جهلاً».

[٤٣١٧/٢] وعن إسحاق بن عمّار، عن أبي عبدالله عليه السلام قال: «قلت له: جعلت فداك إنّ لي جاراً كثير الصلاة، كثير الصدقة، كثير الحجّ لا بأس به، قال: فقال: يا إسحاق كيف عقله؟ قال: قلت له: جعلت فداك ليس له عقل، قال: فقال: لا يرتفع بذلك منه».

[٤٣١٨/٢] وعن أبي يعقوب البغداديّ قال: قال ابن السكّيت لأبي الحسن عليه السلام: لماذا بعث الله موسى بن عمران عليه السلام بالعصا ويده البيضاء وآلة السحر؟ وبعث عيسى بآلة الطبّ؟ وبعث محمّداً صلى الله عليه وآله بالكلام والخطب؟ فقال أبو الحسن عليه السلام: «إنّ الله لمّا بعث موسى عليه السلام كان الغالب على أهل عصره السحر، فأتاهم من عند الله بما لم يكن في وسعهم مثله، وما أبطل به سحرهم، وأثبت به الحجّة عليهم، وإنّ الله بعث عيسى عليه السلام في وقت قد ظهرت فيه الزمانات(١) واحتاج الناس إلى الطبّ، فأتاهم من عند الله بما لم يكن عندهم مثله، وبما أحيى لهم الموتى، وأبرء الأكمه والأبرص بإذن الله، وأثبت به الحجّة عليهم.

وإنّ الله بعث محمّداً صلى الله عليه وآله في وقت كان الغالب على أهل عصره الخطب والكلام ـ وأظنّه قال:

(١) «الزمانات» الآفات الواردة على بعض الأعضاء فيمنعها عن الحركة كالفالج واللقوة، ويطلق المزمن على مرض طال زمانه.

الشعر ـ فأتاهم من عند الله من مواعظه وحكمه ما أبطل به قولهم، وأثبت به الحجّة عليهم؛ قال: فقال ابن السكّيت: تالله ما رأيت مثلك قطُّ فما الحجّة على الخلق اليوم؟ قال: فقال عليه السلام: العقل، يعرف به الصادق على الله فيصدّقه والكاذب على الله فيكذّبه»؛ قال: فقال ابن السكّيت: هذا والله هو الجواب.

[٤٣١٩/٢] وعن ابن أبي يعفور، عن مولى لبني شيبان، عن أبي جعفر عليه السلام قال: «إذا قام قائمنا وضع الله يده على رؤوس العباد فجمع بها عقولهم وكملت به أحلامهم».

[٤٣٢٠/٢] وعن عليّ بن إبراهيم عن عبدالله بن سنان، عن أبي عبدالله عليه السلام قال: «حجّة الله على العباد النبيّ، والحجّة فيما بين العباد وبين الله العقل».

[٤٣٢١/٢] وعن أحمد بن محمّد مرسلاً قال: قال أبو عبدالله: «دعامة الإنسان العقل، والعقل منه الفطنة والفهم والحفظ والعلم؛ وبالعقل يكمّل، وهو دليله ومبصره ومفتاح أمره، فإذا كان تأييد عقله من النور كان عالماً، حافظاً، ذاكراً فطناً، فهماً، فعلم بذلك كيف ولم وحيث، وعرف من نَصَحه ومن غشّه، فإذا عرف ذلك عرف مجراه وموصوله ومفصوله، وأخلص الوحدانيّة لله، والإقرار بالطاعة، فإذا فعل ذلك كان مستدركاً لما فات، وواردأ على ما هو آت، يعرف ما هو فيه، ولأيّ شيء هو ههنا، ومن أين يأتيه، وإلى ما هو صائر؛ وذلك كلّه من تأييد العقل».

[٤٣٢٢/٢] وعن إسماعيل بن مهران، عن بعض رجاله، عن أبي عبدالله عليه السلام قال: «العقل دليل المؤمن».

[٤٣٢٣/٢] وعن السريّ بن خالد، عن أبي عبدالله عليه السلام قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «يا عليُّ لا فقر أشدُّ من الجهل، ولا مال أعود من العقل».

[٤٣٢٤/٢] وعن إسحاق بن عمّار قال: قلت لأبي عبدالله عليه السلام: «الرجل آتيه وأُكلّمه ببعض كلامي فيعرفه كلّه، ومنهم من آتيه فأُكلّمه بالكلام فيستوفي كلامي كلّه ثمّ يردُّه عليَّ كما كلّمته، ومنهم من آتيه فأُكلّمه فيقول: أعد عليَّ؟! فقال: يا إسحاق! وما تدري لِمَ هذا؟ قلت: لا؛ قال: الّذي تكلّمه ببعض كلامك فيعرفه كلّه فذاك من عجنت نطفته بعقله، وأمّا الّذي تكلّمه فيستوفي كلامك ثمّ يجيبك على كلامك، فذاك الّذي ركّب عقله فيه في بطن أُمّه، وأمّا الّذي تكلّمه بالكلام فيقول: أعد

عليّ، فذاك الّذي ركّب عقله فيه بعد ما كبر، فهو يقول لك: أعد عليّ».

[٤٣٢٥/٢] وعن أحمد بن محمّد، عن بعض من رفعه، عن أبي عبدالله عليه السلام قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «إذا رأيتم الرجل كثير الصلاة كثير الصيام فلا تباهوا به حتّى تنظروا كيف عقله؟»

[٤٣٢٦/٢] وعن مفضّل بن عمر، عن أبي عبدالله عليه السلام قال: «يا مفضّل لا يفلح من لا يعقل، ولا يعقل من لا يعلم، وسوف ينجب من يفهم، ويظفر من يحلم، والعلم جُنّة، والصدق عزٌّ، والجهل ذلٌّ، والفهم مجدٌ، والجود نجح، وحسن الخُلق مجلبة للمودّة، والعالم بزمانه لا تهجم عليه اللوابس، والحزم مسائة الظنّ، وبين المرء والحكمة نعمة العالم، والجاهل شقي بينهما، والله وليٌّ من عرفه وعدوٌّ من تكلّفه، والعاقل غفور والجاهل ختور. وإن شئت أن تكرم فَلِنْ وإن شئت أن تهان فاخشن، ومن كرم أصله لان قلبه، ومن خشن عنصره غلظ كبده، ومن فرَّط تورَّط، ومن خاف العاقبة تثبّت عن التوغُّل فيما لا يعلم، ومن هجم على أمر بغير علم جدع أنف نفسه، ومن لم يعلم لم يفهم، ومن لم يفهم لم يسلم، ومن لم يسلم لم يكرم، ومن لم يكرم يُهضم، ومن يُهضم كان ألوم، ومن كان كذلك كان أحرى أن يندم».

[٤٣٢٧/٢] وعن محمّدبن يحيى، رفعه، قال: قال أمير المؤمنين عليه السلام: «من استحكمت فيه خصلة من خصال الخير احتملتُهُ عليها واغتفرتُ فَقْد ما سواها، ولا أغتفر فَقْد عقل ولا دين، لأنّ مفارقة الدين مفارقة الأمن فلا يتهنّأ بحياةٍ مع مخافةٍ، وفَقدُ العقل فَقدُ الحياة، ولا يقاس إلّا بالأموات».

[٤٣٢٨/٢] وعن ميمون بن عليّ، عن أبي عبدالله عليه السلام قال: قال أمير المؤمنين عليه السلام: «إعجاب المرء بنفسه دليل على ضعف عقله».

[٤٣٢٩/٢] وعن الحسن بن الجهم، عن أبي الحسن الرضا عليه السلام قال: ذُكر عنده أصحابنا وذكر العقل قال: فقال عليه السلام: «لا يُعبأ بأهل الدين ممّن لا عقل له، قلت: جُعلت فداك إنّ ممّن يصف هذا الأمر قوماً لابأس بهم عندنا وليست لهم تلك العقول. فقال: ليس هؤلاء ممّن خاطب الله، إنّ الله خلق العقل فقال له: أقبل فأقبل، وقال له: أدبر فأدبر، فقال: وعزّتي وجلالي ما خلقت شيئاً أحسن منك أو أحبّ إليّ منك، بك آخذ وبك أُعطي».

[٤٣٣٠/٢] وعن أحمد بن محمّدبن خالد، عن أبيه، عن بعض أصحابنا، عن أبي عبدالله عليه السلام قال: «ليس بين الايمان والكفر إلّا قلّة العقل. قيل: وكيف ذاك يا ابن رسول الله؟ قال: إنَّ العبد يرفع رغبته إلى مخلوق فلو أخلص نيّته لله لأتاه الّذي يريد في أسرع من ذلك».

[٤٣٣١/٢] وعن يحيى بن عمران، عن أبي عبدالله عليه السلام قال: كان أمير المؤمنين عليه السلام يقول: «بالعقل استُخرج غور الحكمة، وبالحكمة استُخرج غور العقل، وبحسن السياسة يكون الأدب الصالح. قال: وكان يقول: التفكّر حياة قلب البصير كما يمشي الماشي في الظلمات بالنور بحسن التخلّص وقلّة التربّص».

[٤٣٣٢/٢] وعن الحسن بن عمّار، عن أبي عبدالله عليه السلام في حديث طويل: «أنَّ أوّل الأُمور ومبدأها وقوّتها وعمارتها الّتي لاينتفع شيء إلّا به، العقل الّذي جعله الله زينة لخلقه ونوراً لهم، فبالعقل عرف العباد خالقهم، وأنّهم مخلوقون، وأنّه المدبّر لهم، وأنّهم المدبَّرون، وأنّه الباقي وهم الفانون؛ واستدلّوا بعقولهم على ما رأوا من خلقه، من سمائه وأرضه، وشمسه وقمره، وليله ونهاره، وبأنَّ له ولهم خالقاً ومدبّراً لم يزل ولا يزول، وعرفوا به الحسن من القبيح، وأنَّ الظلمة في الجهل، وأنَّ النور في العلم، فهذا ما دلّهم، عليه العقل.

قيل له: فهل يكتفي العباد بالعقل دون غيره؟ قال: إنَّ العاقل لدلالة عقله الّذي جعله الله قوامه وزينته وهدايته، علم أنَّ الله هو الحقّ، وأنّه هو ربّه، وعلم أنَّ لخالقه محبّة، وأنَّ له كراهية، وأنَّ له طاعة، وأنَّ له معصية، فلم يجد عقله يدلّه على ذلك، وعلم أنّه لايوصل إليه إلّا بالعلم وطلبه، وأنّه لاينتفع بعقله، إن لم يصب ذلك بعلمه، فوجب على العاقل طلب العلم والأدب الّذي لا قوام له إلّا به».

[٤٣٣٣/٢] وعن حمران وصفوان بن مهران الجمّال قالا: سمعنا أبا عبدالله عليه السلام يقول: «لا غنى أخصب من العقل، ولا فقر أحطّ من الحمق، ولا استظهار في أمر بأكثر من المشورة فيه»[١].

(١) الكافي ١: ١٠ ـ ٢٩، كتاب العقل والجهل من رقم ١، إلى ٣٤.

قال تعالى:

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِنْ كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿١٧٢﴾ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٧٣﴾

هنا وبعد أن وجّه دعوته إلى الناس جميعاً، ليتمتّعوا بالحلال من العيشة الطيّبة، وأن يبتعدوا عن اتّباع خطوات الشيطان الآخذة في مسيرة الضلال.. بعد ذلك يأتي دور توجيه الخطاب إلى الجماعة المسلمة، فليعلموا أنّ الحلال من العيش ما أحلّته الشريعة، والحرام ما حرّمه الله بالنصّ والتعيين، لا الأهواء والمعاذير الكاذبة الّتي كان يرتكبها اليهود ومن حذا حذوهم من المشركين.

يقول تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ خاطبهم بالصفة الّتي تربطهم بالله سبحانه، وتوحي إليهم أن يتلقّوا منه الشرائع، ويذكّرهم بما أنعم عليهم من طيّبات الرزق، ولم يمنعهم طيّباً من الطيّبات، وأنّه إذا حرّم عليهم شيئاً فلأنّه غير طيّب، لا لشيء سواه. وعليه، فكلوا من رزق الله واشكروا له. لأنّ الله يحبّ أن يُؤخَذ بِرُخَصِه، كما يُحبّ أن يُؤْخَذ بعزائمه.. كما في الحديث[1]. والأخذ بالرُّخَص والعزائم، دليل على الإيمان الصادق والاستسلام لوجهه تعالى الكريم.

ومن ثمّ قال: ﴿إِنْ كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ يعني: هذا دليل صدق نيّاتكم.

نعم ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللهِ﴾ أي قُدِّم قرباناً لغير الله من الأصنام وغيرها.

والميتة هي: كلّ حيوان مات من غير تذكية شرعيّة.

والدم المتميّز عن اللحم، فإنّ مايختلط باللحم معفوّ عنه.

ولحم الخنزير وشحمه أيضاً وجميع أجزائه، وخصّ اللحم بالذكر، لأنّه أظهر الأجزاء الّتي

---

(١) المرويّ عن رسول الله ﷺ قال: «إنّ الله يُحبّ أن يُؤخذ برخصه كما يحبّ أن يؤخذ بعزائمه». رواه النعماني في باب ما ورد من صنوف آيات القرآن. (راجع: البحار ٩٠: ٢٩ ـ ٣٠).

ينتفع بها.

وتحريم هذه الأشياء ليس عن اعتباط، وإنّما هو عن مضرّة فادحة تؤثّر على النفس فضلاً عن إضرارها للجسم. كما:

[٤٣٣٤/٢] قال الإمام عليّ بن موسى الرضا ﷺ: «وكلّ أمر يكون فيه الفساد ممّا قد نُهي عنه من جهة أكله وشربه ولبسه ونكاحه وإمساكه لوجه الفساد، مثل الميتة والدم ولحم الخنزير، والربا وجميع الفواحش ولحوم السباع والخمر وما أشبه ذلك، فحرامٌ ضارٌّ للجسم وفسادٌ للنفس»(١).

نعم ليس يقتصر ضرر ما حرّم الله على خسائر ماديّة دنيويّة فحسب، بل يعمّ جانب النفس الروحي والفكري العقلاني، ولعلّه الأهمّ لمن يحاول الصعود على مدارج الكمال، والحصول على سلامة القلب وطهارة الروح وخلوص الضمير، والتوجّه إلى الباريء الحكيم.

ومن هنا تتجلّىٰ علاقة التحليل والتحريم في هذه الآيات، بالحديث عن وحدانيّة الله وخلوص عبادته عن الشوائب والأكدار.

* * *

ومع ذلك فإنّ الإسلام يحسب حساب الضرورات ـ حسب مبدء رحمته الواسعة ـ ﴿فَمَنِ اضْطُرَّ﴾ إلى تناول شيء ممّا حرّمه الله ﴿غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾.

نعم، الاضطرار إلى تناول الحرام إنّما يرفع العقاب، إذا لم يكن عن ابتغاء للحرام، ولا تجاوز عن مقدار الضرورة.

أمّا الباغي الّذي مهّد السبيل للوقوع في الاضطرار، المبيح لارتكاب الحرام، فهو وإن كان قد أُجيز له التناول، ولكن من غير أن ترتفع عنه عقوبة ارتكاب الحرام، لأنّه اضطرار عن اختيار وعن ابتغاء للحرام.

وكذلك العادي، الّذي تجاوز حدّ الضرورة في تناول الحرام. فالمغفرة والرحمة لا تشملان هذين، بعد سوء نيّتهما.

[٤٣٣٥/٢] أخرج أحمد ومسلم والترمذي وابن المنذر وابن أبي حاتم عن أبي هريرة قال: قال

---

(١) فقه الرضا: ٢٥٠؛ مستدرك الوسائل ١٣: ٦٥.

رسول الله ﷺ: «إنّ الله طيّب لايقبل إلّا طيّبا، وإنّ الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين، فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحاً إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾[1] وقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾. ثمّ ذكر: الرجلُ يطيل السفر، أشعث أغبرَ يمدُّ يديه إلى السماء: يا ربِّ يا ربِّ، ومطعمه حرام، ومشربه حرام، وملبسه حرام، وغُذِّي بالحرام، فأنّى يُستجاب لذلك؟!»[2].

[٤٣٣٦/٢] وأخرج ابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير: ﴿كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ﴾ قال: من الحلال[3].

[٤٣٣٧/٢] وأخرج ابن جرير عن الضحاك في قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ يقول: صدَّقوا ﴿كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾ يعني: اطعموا من حلال الرزق الّذي أحللناه لكم، فطاب لكم بتحليلي إيّاه لكم ممّا كنتم تحرِّمونه أنتم، ولم أكن حرَّمته عليكم من المطاعم والمشارب ﴿وَاشْكُرُوا لِلَّهِ﴾ يقول: أثنوا على الله بما هو أهل له على النعم الّتي رزقكم وطيّبها لكم[4].

[٤٣٣٨/٢] وأخرج عبد بن حميد عن أبي أمية في قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾ قال: فلم يوجد من الطيّبات شيء أحلّ ولا أطيب من الولد وماله[5].

[٤٣٣٩/٢] وأخرج ابن أبي شيبة وأحمد ومسلم عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «إنّ الله ليرضى عن العبد أن يأكل الأكلة أو يشرب الشربة فيحمد الله عليها»[6].

[٤٣٤٠/٢] وروي عن النبيّ ﷺ قال: «يقول الله: إنّي والجنّ والإنس في نبأٍ عظيم؛ أَخْلُقُ ويُعْبَدُ

---

(١) المؤمنون ٢٣: ٥١.

(٢) الدرّ ١: ٤٠٦؛ مسند أحمد ٢: ٣٢٨؛ مسلم ٣: ٨٥ ـ ٨٦، كتاب الزكاة، باب قبول الصدقه من الكسب الطيّب وتربيتها؛ الترمذي ٤: ٢٨٨ / ٤٠٧٤، تفسير سورة البقرة؛ أبوالفتوح ٢: ٢٩٣؛ الثعلبي ٢: ٤٣، البغوي ١: ٢٠٠ / ١٢١؛ كنزالعمّال ٢: ٨١ / ٣٢٣٦؛ القرطبي ٢: ٢١٥.

(٣) الدرّ ١: ٤٠٦؛ الوسيط ١: ٢٥٥ ـ ٢٥٦، قال الواحدي: قال المفسّرون هذا أمر إباحة، وأراد بالطيّبات: الحلالات من الحرث والأنعام.

(٤) الدرّ ١: ٤٠٦ ـ ٤٠٧؛ الطبري ٢: ١١٤ / ٢٠٤١.

(٥) الدرّ ١: ٤٠٧.

(٦) الدرّ ١: ٤٠٧؛ المصنَّف ٥: ٥٦٣ / ١، كتاب الأطعمة، باب ٢٦ (في التسمية على الطعام)؛ مسند أحمد ٣: ١١٧؛ مسلم ٨: ٨٧، كتاب الذكر والدعاء؛ الترمذي ٣: ١٧٢ / ١٨٧٦، باب ١٨؛ النسائي ٤: ٢٠٢ / ٦٨٩٩.

غيري وأرزق ويُشكَر غيري؟!»[(١)]

[٤٣٤١/٢] وأخرج الترمذي عن أبي حسان، قال سمعت سعيد بن المسيب يقول: إنّ الله طيّب يحبّ الطيّب، نظيف يحبّ النظافة، كريم يحبّ الكرم، جواد يحبّ الجود، فنظّفوا، ولا تشبّهوا باليهود. قال: فذكرت ذلك لمهاجر بن مسمار، فقال حدّثنيه عامر بن سعد عن أبيه، عن النبيّ ﷺ مثله، إلّا أنّه قال: نظّفوا أفنيتكم![(٢)]

[٤٣٤٢/٢] وأخرج ابن سعد عن عمر بن عمر بن عبدالعزيز أنّه قال يوماً: إنّي أكلت حِمَّصاً وعدساً فنفخني. فقال له بعض القوم: يا أميرالمؤمنين إنّ الله يقول في كتابه: ﴿كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾ فقال عمر: هيهات، ذهبت به إلى غير مذهبه، إنّما يريد به طيّب الكسب ولا يريد به طيّب الطعام[(٣)]

* * *

[٤٣٤٣/٢] وروى ابن بابويه الصدوق بإسناده إلى محمّد بن عذافر عن بعض رجاله عن أبي جعفر عليه السلام قال: قلت له: لِمَ حرّم الله الخمر والميتة والدم ولحم الخنزير؟ فقال: إنّ الله تبارك وتعالى لم يحرّم ذلك على عباده وأحلّ لهم ما سوى ذلك من رغبة فيما أحلّ لهم، ولا زهد فيما حرّم عليهم، ولكنّه خلق الخلق فعلم ما يقوم به أبدانهم وما يُصلحهم، فأحلّ لهم وأباحه، وعلم ما يضرّهم فنهاهم عنه وحرّمه عليهم. ثمّ أحلّ للمضطرّ في الوقت الّذي لايقوم بدنه إلّا به، فأمره أن ينال منه بقدر البلغة لا غير ذلك، ثمّ قال: أمّا الميتة فإنّه لم ينل أحد منها إلّا ضعف بدنه، وأوهنت قوّته، وانقطع نسله، ولايموت آكل الميتة إلّا فجأة، وأمّا الدم فإنّه يورث أكله الماءَ الأصفر ويورث الكَلَب وقساوة القلب وقلّة الرأفة والرحمة، حتّى لا يُؤمن على حميمه ولا يؤمن على من صحبه..[(٤)].

[٤٣٤٤/٢] وروى بالإسناد إلى الإمام أبي عبدالله الصادق عليه السلام قال: «عشرة أشياء من الميتة ذكيّة:

---

(١) الثعلبي ٢: ٤٣؛ أبوالفتوح ٢: ٢٩٣؛ كنزالعمّال ١٦: ٣ / ٤٣٦٧٤؛ الشعب ٤: ١٣٤ / ٤٥٦٣، عن أبي الدرداء عن النبيّ ﷺ؛ نوادر الأصول ٢: ٣٠١.

(٢) الترمذي ٤: ١٩٨ / ٢٩٥١، باب ٧٤؛ أبوالفتوح ٢: ٢٩٣.

(٣) الدرّ ١: ٤٠٦؛ الطبقات ٥: ٣٦٧، باب عمربن عبدالعزيز.

(٤) العلل ٢: ٤٨٣ ـ ٤٨٤ / ١ و ٢، باب ٢٣٧؛ الأمالي للصدوق: ٧٦٣ ـ ٧٦٤ / ١٠٢٧ ـ ١، المجلس ٩٥؛ البحار ٦٢: ١٣٤ ـ ١٣٥ و ١٦٣ ـ ١٦٤.

العظم والشعر والصوف والريش والقرن والحافر والبيض والأنفحة واللبن والسنّ»[١].

[٤٣٤٥/٢] وروى الكليني بالإسناد إلى عليّ بن أبي المغيرة قال: قلت لأبي عبدالله عليه السلام: «جعلت فداك، الميتة ينتفع منها بشيء؟ قال: لا، قلت: بلغنا أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله مرّ بشاة ميتة، فقال: ما كان على أهل هذه الشاة إذ لم ينتفعوا بلحمها أن ينتفعوا بإهابها؟[٢] قال: تلك شاة كانت لسودة بنت زمعة زوج النبيّ صلى الله عليه وآله وكانت شاة مهزولة لاينتفع بلحمها، فتركوها حتّى ماتت، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله: ما كان على أهلها إذ لم ينتفعوا بلحمها أن ينتفعوا بإهابها أي تذكى»[٣].

[٤٣٤٦/٢] وأخرج أحمد وابن ماجة والدار قطني والحاكم وابن مردويه عن ابن عمر قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «أُحلَّت لنا ميتتان ودمان: السمك والجراد، والكبد والطحال»[٤].

* * *

[٤٣٤٧/٢] وأخرج ابن المنذر عن ابن عبّاس في قوله: ﴿وَمَا أُهِلَّ﴾ قال: ذُبح[٥].

[٤٣٤٨/٢] وأخرج ابن أبي حاتم عن مجاهد: ﴿وَمَا أُهِلَّ﴾ قال: ما ذُبح لغير الله[٦].

[٤٣٤٩/٢] وأخرج ابن جرير عن ابن عبّاس قال: يعني ما أُهلّ للطواغيت[٧].

[٤٣٥٠/٢] وعن قتادة في قوله: ﴿وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللهِ﴾ قال: ما ذبح لغير الله ممّا لم يسمّ عليه[٨].

---

(١) الخصال: ٤٣٤ / ١٩، باب العشرة؛ الفقيه ٣: ٣٤٧ / ٤٢١٧؛ البحار ٦٣: ٤٨ / ١.

(٢) الإهاب: الجلد.

(٣) الكافي ٣: ٣٩٨ / ٦، و ٦: ٢٥٩ / ٧.

(٤) الدرّ ١: ٤٠٧؛ مسند أحمد ٢: ٩٧، بلفظ: عن ابن عمر قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «أحلّت لنا ميتتان ودمان، فأمّا الميتتان فالحوت والجراد، وأمّا الدمان فالكبد والطحال»؛ ابن ماجة ٢: ١١٠٢ / ٣٣١٤، باب ٣١؛ الدار قطني ٤: ١٨٤؛ الثعلبي ٢: ٤٤؛ البغوي ١: ٢٠٠ / ١٢٢؛ كنزالعمّال ١٥: ٢٧٧ / ٤٠٩٧٢.

(٥) الدرّ ١: ٤٠٧؛ الطبري ٢: ١١٧ / ٢٠٤٦، بلفظ: ﴿وَما أُهِلّ بِهِ لِغَيرِ الله﴾ يعني ما أُهلّ للطواغيت كلّها يعني ماذبح لغير الله من أهل الكفر غير اليهود والنصارى؛ أبوالفتوح ٢: ٢٩٨؛ الثعلبي ٢: ٤٤، نقلاً عن مجاهد وقتادة والضحّاك أيضاً؛ الوسيط ١: ٢٥٧، عن ابن عبّاس وجميع المفسرين، بلفظ: ما ذبح للأصنام وذكر عليه غير اسم الله.

(٦) ابن أبي حاتم ١: ٢٨٣ / ١٥١٩، وزاد: وروي عن الحسن وقتادة والضحّاك والزهري، نحو ذلك؛ الطبري ٢: ١١٧ / ٢٠٤٣؛ التبيان ٢: ٨٥؛ مجمع البيان ١: ٤٧٦؛ الثعلبي ٢: ٤٤.

(٧) الدرّ ١: ٤٠٧؛ الطبري ٢: ١١٧ / ٢٠٤٤؛ الثعلبي ٢: ٤٤؛ البيهقي ٩: ٢٤٩، وفيه: الطواغيت كلّها.

(٨) عبدالرزّاق ١: ٣٠١ / ١٥٥؛ التبيان ٢: ٨٥؛ مجمع البيان ١: ٤٧٦.

[٤٣٥١/٢] وأخرج ابن أبي حاتم عن أبي العالية : ﴿وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللهِ﴾ يقول : ما ذكر عليه اسم غير الله[١].

[٤٣٥٢/٢] وعن الزهري قال : الإهلال أن يقولوا : باسم المسيح[٢].

* * *

[٤٣٥٣/٢] وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عبّاس في قوله : ﴿فَمَنِ اضْطُرَّ﴾ يعني إلى شيء ممّا حرِّم ﴿غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ﴾ يقول : من أكل شيئاً من هذه وهو مضطرّ فلا حرج ، ومن أكله وهو غير مضطرّ فقد بغى واعتدى[٣].

[٤٣٥٤/٢] وأخرج ابن أبي حاتم وابن المنذر عن ابن عبّاس في قوله : ﴿غَيْرَ بَاغٍ﴾ قال : في الميتة . ﴿وَلَا عَادٍ﴾ قال : في الأكل[٤].

[٤٣٥٥/٢] وأخرج سفيان بن عيينة وآدم بن أبي إياس وسعيد بن منصور وابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبوالشيخ والبيهقي في المعرفة وفي السنن عن مجاهد في قوله : ﴿غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ﴾ قال : غير باغ على المسلمين ولا متعدّ عليهم ، من خرج يقطع الرحم ، أو يقطع السبيل ، أو يفسد في الأرض ، أو مفارقاً للجماعة والأئمّة ، أو خرج في معصية الله ، فاضطرّ إلى الميتة لم تحِلّ له[٥].

[٤٣٥٦/٢] وهكذا روى ابن بابويه بإسناده إلى البزنطي عمّن ذكره عن أبي عبدالله عليه السلام في قول

---

(١) الدرّ ١ : ٤٠٧ ؛ ابن أبي حاتم ١ : ٢٨٣ / ١٥١٨ ؛ وزاد : وروي عن الربيع نحو ذلك ؛ الثعلبي ٢ : ٤٤ ؛ البغوي ١ : ٢٠١ ؛ أبوالفتوح ٢ : ٢٩٨.

(٢) عبدالرزّاق ١ : ٣٠١ / ١٥٦ ؛ الثعلبي ٢ : ٤٤ ـ ٤٥.

(٣) الدرّ ١ : ٤٠٧ ؛ ابن أبي حاتم ١ : ٢٨٣ / ١٥٢٠.

(٤) الدرّ ١ : ٤٠٧ ؛ ابن أبي حاتم ١ : ٢٨٤ بعد رقم ١٥٢٧ ؛ ابن كثير ١ : ٢١١ ؛ البيهقي ٣ : ١٥٦.

(٥) الدرّ ١ : ٤٠٨ ؛ ابن أبي حاتم ١ : ٢٨٣ و ٢٨٤ / ١٥٢٢ ؛ الطبري ٢ : ١١٨ / ٢٠٥٢ ؛ الثعلبي ٢ : ٤٥ ـ ٤٦ ؛ القرطبي ٢ : ٢٣١ ، نقلاً عن مجاهد وسعيدبن جبير وغيرهما . بلفظ : ﴿غَيْرَ بَاغٍ﴾ على المسلمين ﴿وَلَا عَادٍ﴾ عليهم ؛ مجمع البيان ١ : ٤٧٦ ، بلفظ : ﴿غَيْرَ بَاغٍ﴾ على إمام المسلمين ﴿وَلَا عَادٍ﴾ بالمعصية طريق المحقّين وهو المرويّ عن أبي جعفر وأبي عبدالله وعن مجاهد وسعيدبن جبير ؛ البغوي ١ : ٢٠١ ، بلفظ : ﴿غَيْرَ بَاغٍ﴾ أي : غير خارج على السلطان ﴿وَلَا عَادٍ﴾ أي : ولا متعدّ عاص بنسفره بأن خرج لقطع الطريق أو الفساد في الأرض وهو قول ابن عبّاس ومجاهد وسعيد بن جبير .

الله ﷻ: ﴿فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ﴾ قال: الباغي، الّذي يخرج على الإمام، والعادي الّذي يقطع الطريق، لا يحلّ لهما الميتة[1].

[٤٣٥٧/٢] وروى بالإسناد إلى عبدالعظيم بن عبدالله الحسني عن أبي جعفر الجواد عليه السلام قال: «قلت: يا ابن رسول الله فما معنى قوله عزّ وجلّ: ﴿فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ﴾؟ قال: العادي السارق، والباغي الّذي يبغي الصيد بطراً أو لهواً لا ليعود به على عياله، ليس لهما أن يأكلا الميتة إذا اضطرّا، هي حرام عليهما في حال الاضطرار كما هي حرام عليهما في حال الاختيار»[2].

[٤٣٥٨/٢] وروى الكليني بالإسناد إلى حمّاد بن عثمان عن أبي عبدالله عليه السلام في قول الله ﷻ: ﴿فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ﴾ قال: «الباغي باغي الصيد، والعادي السارق، ليس لهما أن يأكلا الميتة إذا اضطرّا إليها، هي حرام عليهما، ليس هي عليهما كما هي على المسلمين، وليس لهما أن يقصرا في الصلاة»[3].

[٤٣٥٩/٢] وعن حمّاد بن عثمان عن أبي عبدالله عليه السلام قال: «الباغي الخارج على الإمام، والعادي اللصّ»[4].

[٤٣٦٠/٢] وروى العيّاشيّ عن محمّد بن إسماعيل رفعه إلى أبي عبدالله عليه السلام في قوله: ﴿فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ﴾ قال: «الباغي الظالم، والعادي الغاصب»[5].

---

(١) المعاني: ٢١٣ ـ ٢١٤ / ١، باب معنى الباغي والعادي؛ البرهان ١: ٣٨٠ / ٢. وزاد: ويروى أنّ العادي اللصّ والباغي الّذي يبغي الصيد لايجوز لهما التقصير في السفر ولا أكل الميتة في حال الاضطرار؛ الكافي ٦: ٢٦٥ / ١، كتاب الأطعمة، باب ذكر الباغي والعادي؛ البحار ٦٢: ١٣٦ و ١٠٤، أبواب الصيد والذبائح و.... باب ١.

(٢) الفقيه ٣: ٣٤٤ / ٤٢١٣؛ التهذيب ٩: ٨٣ ـ ٨٤ / ٣٥٤ ـ ٨٩. البحار ٦٢: ١٤٨ / ١٩، أبواب الصيد والذبائح و....

(٣) نورالثقلين ١: ١٥٥؛ الكافي ٣: ٤٣٨ / ٧؛ التهذيب ٣: ٢١٧ ـ ٢١٨ / ٥٣٩ ـ ٤٨.

(٤) البرهان ١: ٣٨٠ / ٦؛ العيّاشيّ ١: ٩٣ / ١٥٥؛ البحار ٦٢: ١٣٧ / ٩، أبواب الصيد والذبائح و.... باب ١. قال العلّامة المجلسي في ذيل الرواية: «الّذي يتلخّص من مجموع الأخبار هو: أنّ السفر الّذي لايجوز فيه قصر الصلاة والصوم للمعصية والعدوان، لايحلّ أكل الميتة إذا اضطرّ فيه إليها».

(٥) البرهان ١: ٣٨٠ / ٣؛ العيّاشيّ ١: ٩٣ / ١٥٢.

وقفة قصيرة

[٤٣٦١/٢] قال الطبرسي : هنا ثلاثة أقوال ، أحدها : ﴿غَيْرَ بَاغٍ﴾ اللذّة ﴿وَلَا عَادٍ﴾ سدّ الجوعة . عن الحسن وقتادة ومجاهد .

[٤٣٦٢/٢] وثانيهما : غير باغ في الإفراط ولا عادٍ في التقصير . عن الزجّاج .

[٤٣٦٣/٢] وثالثها : غير باغ على إمام المسلمين ولا عادٍ بالمعصية طريق المحقّين .

قال : وهذا القول الأخير هو المرويّ عن الإمامين الباقر والصادق عليهما السلام وعن مجاهد وسعيد بن جبير .

واعترض عليّ بن عيسى الرمّاني : وهذا القول ـ الأخير ـ لا يسوغ ، لأنّه تعالى لم يُبح لأحد قتل نفسه ، بل حظر عليه ذلك . والتعريض للقتل قتلٌ في حكم الدين . ولأنّ الرخصة إنّما كانت لأجل المجاعة المتلفة ، لا لأجل الخروج في طاعة وفعل إباحة .

قال الشيخ الطوسي : وهذا الّذي ذكره غير صحيح لأنّ من بغى على إمام عادل فأدّى ذلك إلى تلفه ، فهو المعرّض نفسه للقتل ، كما لو قُتل في المعركة ، فإنّه المهلك لها ، فلا يجوز لذلك استباحة ما حرّم الله ، كما لا يجوز له أن يستبقي نفسه بقتل غيره من المسلمين ، وما قاله من أنّ الرخصة لمكان المجاعة ، لا يسلم إطلاقه ، بل يقال : إنّما ذلك للمجاعة الّتي لم يكن هو المعرّض نفسه لها ، فأمّا إذا عرّض نفسه لها ، فلا يجوز له استباحة المحرّم ، كما قلنا في قتل نفس الغير ، ليدفع عن نفسه القتل[١] .

* * *

وقال الشيخ محمّد عبده : لا خلاف بين المسلمين في أنّ العاصي كغيره يحرم عليه إلقاء نفسه في التهلكة ، ويجب عليه توقّي الضرر ، ويجب علينا دفعه عنه إن استطعنا ، فكيف لا تتناوله إباحة الرخص! ثمّ إنّ المناسب للسياق أن تحدّد الضرورة الّتي تجيز أكل المحرّم ، وتفسير الباغي والعادي بما ذكرنا[٢] هو المحدّد لها ، وهو الموافق للّغة ، كقوله تعالى حكاية عن إخوة يوسف : ﴿مَا نَبْغِي﴾[٣] .

---

(١) التبيان ٢ : ٨٦ ؛ مجمع البيان ١ : ٤٧٦ .

(٢) فسّر الباغي بالطالب له ، الراغب فيه لذاته . والعادي بالمتجاوز قدر الضرورة (المنار ٢ : ٩٨) .

(٣) يوسف ١٢ : ٦٥ .

وفي الحديث: «يا باغي الخير هلمّ». وفي التنزيل ﴿وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ﴾[1] أي لاتتجاوزهم إلى غيرهم. فالكلام في تحديد الضرورة وتمام بيان حكم ما يحلّ ويحرم من الأكلّ، لا في السياسة وعقوبة الخارجين على الدولة والمؤذين للأمّة. وإنّما كان هذا التحديد لازماً لئلّا يتّبع الناس أهواءهم في تفسير الاضطرار، إذا هو وُكِلَ إليهم بلاحدٍّ ولاقيدٍ، فيزعم هذا أنّه مضطرّ وليس بمضطرّ، ويذهب ذلك بشهوته إلى ما وراء حدّ الضرورة.

فعلم من قوله: ﴿غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ﴾ كيف تقدّر الضرورة بقدرها. والأحكام عامّة يخاطب بها كلّ مكلّف، لايصحّ استثناء أحد إلّا بنصٍّ صريح من الشارع[2].

وحاول سيّدنا العلّامة الطباطبائي الجمع بين الأقوال ومختلف الروايات، بأنّها من قبيل عدّ المصاديق، نظراً لعموم مفهوم الآية حسب استفادته ﷺ قال: والجميع من قبيل عدّ المصاديق، وهي تؤيّد ما استفدناه من ظاهر اللفظ. فقد فسّر قوله تعالى: ﴿فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ﴾ بكونه غير ظالم ولا متجاوز حدّه، بمفهومهما العام.. قال: وأمّا لو اضطرّ في حال البغي والعُدُوّ، كأن يكونا هما الموجبين للاضطرار، فلايجوز له ذلك[3].

وهكذا ذكر المحدّث الشيخ حرّ العاملي: أن لامنافاة بين التفسيرات، ولا بُعد في دخول المعاني في الآية[4].

قلت: لوكنّا نحن وظاهر سياق الآية، فالمستفاد منها: أنّه مبدأ عامّ ينصبّ على هذه المحرّمات، ولكنّه بإطلاقه يصحّ أن يتناول سواها في سائر المقامات؛ فأيّما ضرورة ملجئة يُخشى منها على الحياة، فلصاحبها أن يتفادى هذا الحرج بتناول المحظور في الحدود الّتي تدفع هذه الضرورة ولا زيادة[5].

أمّا الّذي جاء في الروايات وفي سائر الأقوال، فلا يُشبه أن يكون تفسيراً للآية في سياقها العامّ، اللّهمّ إلّا أن يراد الاستطراد وبيان وجه الاشتراك في الحكم، لاتفسير الآية بالذات.

---

(١) الكهف ١٨: ٢٨.
(٢) المنار ٢: ٩٩.
(٣) الميزان ١: ٤٣٤ ـ ٤٣٥.
(٤) وسائل الشيعة ٢٤: ٢١٧.
(٥) راجع: في ظلال القرآن، المجلّد الأوّل: ٢٢٢.

وقد عرفت من حديث مفضّل بن عمر عن الإمام الصادق عليه السلام تفسير الآية بما ذكرنا. قال: «ثمّ أباحه للمضطرّ وأحلّه له في الوقت الّذي لايقوم بدنُه إلّا به، فأمره أن ينال منه بقدر البلغة، لا غير ذلك»[1].

وأمّا الروايات الّتي جاءت بغير هذا المعنى، ففي أسنادها ضعف أو إرسال[2].

[٤٣٦٤/٢] وأخرج وكيع عن إبراهيم والشعبي قالا: إذا اضطرّ إلى الميتة أكل منها قدر ما يُقيمه[3].

[٤٣٦٥/٢] وأخرج الثعلبي عن السدّي قال: غير باغٍ في أكله شهوةً فيأكلها ملذّذاً، ولا عادٍ يأكل حتّى يشبع منه، ولكن يأكل منها قوتاً مقدار مايمسك رمقاً[4].

[٤٣٦٦/٢] وأخرجه الطبري بلفظ: أمّا الباغي فيبغي فيه شهوته. وأمّا العادي فيتعدّى في أكله، يأكل حتّى يشبع. ولكن يأكل منه بقدر ما يُمسك به نفسه حتّى يبلغ به حاجته[5].

[٤٣٦٧/٢] وأخرج عبد بن حميد عن قتادة قال: غير باغ في أكله ولا عاد أن يتعدّى الحلال إلى الحرام، وهو يجد عنه بُلْغةً ومندوحة[6].

[٤٣٦٨/٢] وقال مقاتل بن حيّان: ﴿غَيْرَ بَاغٍ﴾: أي مستحلّ لها ﴿وَلَا عَادٍ﴾ أي متزوِّد منها[7].

[٤٣٦٩/٢] وعن الحسن في قوله تعالى قال: غير باغ فيها ولا يتعدّى فيها بأكلها وهو غنيّ عنها[8].

---

(١) وسائل الشيعة ٢٤: ١٠٠ باب ١ / ١، من أبواب الأطعمة المحرّمة.

(٢) الوسائل ٢٤: ٢١٤ـ٢١٧.

(٣) الدرّ ١: ٤٠٨؛ المصنّف لابن أبي شيبة ٥: ٥٧٧ / ١، كتاب الأطعمة، باب ٤٦ (الرجل يضطرّ إلى الميتة) بلفظ: عن إبراهيم: في المضطرّ إلى الميتة قال: يأكل ما يقيمه.

(٤) التعلبي ٢: ٤٦.

(٥) الطبري ٢: ١٢٠ / ٢٠٥٩؛ القرطبي ٢: ٢٣١ بلفظ: غير باغٍ في أكلها شهوةً وتلذّذاً. ولاعادٍ باستيفاء الأكل.

(٦) الدرّ ١: ٤٠٨؛ الطبري ٢: ١١٩ / ٢٠٥٤؛ القرطبي ٢: ٢٣١، نقلاً عن قتادة والحسن والربيع وابن زيد وعكرمة، بلفظ: ﴿غَيْرَ بَاغٍ﴾ في أكله فوق حاجته و ﴿وَلَا عَادٍ﴾ بأن يجد عن هذه المحرّمات مندوحة ويأكلها؛ الثعلبي ٢: ٤٦، نقلاً عن الحسن وقتادة والربيع وابن زيد بلفظ: ﴿غَيْرَ بَاغٍ﴾: يأكله من غير اضطرار ﴿وَلَا عَادٍ﴾: متعدٍ يتعدّى الحلال إلى الحرام فيأكلها وهو غنيّ عنها.

(٧) البغوي ١: ٢٠٢؛ الثعلبي ٢: ٤٦.

(٨) عبدالرزّاق ١: ٣٠١ / ١٥٧.

[٢/٤٣٧٠] وروى ابن بابويه الصدوق عن كتاب «نوادر الحكمة» لمحمد بن أحمد بن يحيى، عن الإمام الصادق عليه السلام قال: «من اضطرّ إلى الميتة والدم ولحم الخنزير، فلم يأكل شيئاً من ذلك حتّى يموت، فهو كافر»[1] يعني: كفران نعمة الرخصة، بل تعمّد في إلقاء النفس في التهلكة المؤدّي إلى قتل النفس المحرّم شرعاً.

[٢/٤٣٧١] وأخرج وكيع وعبد بن حميد وأبو الشيخ عن مسروق قال: من اضطرّ إلى الميتة والدم ولحم الخنزير فتركه تقذُّراً ولم يأكل ولم يشرب ثمّ مات، دخل النار[2].

[٢/٤٣٧٢] وروى الكليني بإسناده إلى محمّد بن مسلم قال: سألت الإمام أباعبدالله عليه السلام عن الرجل يذهب بصره، يأتيه الأطبّاء فيقولون: نداويك شهراً أو أربعين ليلة مستلقياً، كذلك يصلّي؟ فرخّص في ذلك، وقال: ﴿فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلا إثمّ عليه﴾[3].

ورواه العيّاشيّ عن الإمام أبي جعفر عليه السلام[4].

[٢/٤٣٧٣] وروى الشيخ بإسناده إلى سماعة قال: «سألت الإمام عليه السلام عن الرجل يكون في عينه الماء فينزع الماء منها فيستلقي على ظهره الأيّام الكثيرة أربعين يوماً أو أقلّ أو أكثر، فيمتنع من الصلاة (أي قائماً وراكعاً وساجداً) الأيّام وهو على تلك الحال؟ فقال: لابأس بذلك، وليس شيء ممّا حرّم الله إلّا وقد أحلّه لمن اضطرّ إليه»[5].

ملحوظة

ما ورد من عموم الترخيص في تناول الحرام عند الاضطرار، نراه قد خصّص بما عدا المسكرات ولاسيّما الخمر، إذ ليست بالتي ترفع الضرورة، بل تزيد في اشتدادها.

---

(١) الوسائل ٢٤: ٢١٦ / ٣٠٣٧٦ـ٣؛ الفقيه ٣: ٣٤٥ / ٤٢١٤.

(٢) الدرّ ١: ٤٠٨؛ الثعلبي ٢: ٤٦؛ البغوي ١: ٢٠٢.

(٣) الكافي ٣: ٤١٠ / ٤؛ البرهان ١: ٣٨٠ / ٥؛ نورالثقلين ١: ١٥٤.

(٤) العيّاشيّ ١: ٩٣ / ١٥٤؛ البحار ٥٩: ٦٦ / ١١، باب ٤٩.

(٥) التهذيب ٣: ٣٠٦ / ٩٤٥ـ٢٣.

[٤٣٧٤/٢] فقد روى ابن بابويه الصدوق بإسناده إلى أبي بصير عن الإمام أبي عبدالله الصادق عليه السلام قال: «المضطرّ لايشرب الخمر، لأنّها لاتزيده إلّا شرّاً (وفي روايةٍ: لاتزيده إلّا عطشاً)، ولأنّه إن شربها قتلته، فلا يشرب منها قطرةً»(١).

[٤٣٧٥/٢] وروى الكليني بإسناده إلى أبي بصير قال: دخلت أمّ خالد العبديّة على الإمام أبي عبدالله الصادق عليه السلام وأنا عنده، فقالت: جُعلت فداك، إنّه يعتريني قراقر في بطني، وقد وصف لي أطبّاء العراق النبيذ بالسويق، وقدوقفتُ وعرفتُ كراهتك له، فأحببتُ أن أسألك عن ذلك؟ فقال لها: وما يمنعكِ عن شربه؟ قالت: قد قلّدتك ديني، فألقى الله ـعزّ وجلّ ـ حين ألقاه فأُخبره أنّ جعفر بن محمّد عليه السلام أمرني ونهاني! فقال ـ مخاطباً لأبي بصير ـ: «يا أبا محمّد، ألا تسمع إلى هذه المرأة وهذه المسائل!! لا والله لا آذن لكِ في قطرةٍ منه ولا تذوقي منه قطرة؛ فإنّما تندمين إذا بلغت نفسُك هاهنا ـ وأومأ بيده إلى حنجرته ـ يقولها ثلاثاً: أفهمت؟ قالت: نعم. ثمّ قال أبو عبدالله عليه السلام ما يبلّ الميل ينجّس حبّاً من ماءٍ، يقولها ثلاثاً»(٢).

[٤٣٧٦/٢] وروى بالإسناد إلى عمربن أذينة قال: كتبت إلى أبي عبدالله عليه السلام أسأله عن الرجل يُبعث له الدَواء من ريح البواسير، فيشربه بقدر أُسكرّجة من نبيذ صلب، ليس يريد به اللّذة، وإنّما يريد به الدواء؟ فقال: «لا ولا جرعة! ثمّ قال: إنّ الله ـعزّ وجلّ ـ لم يجعل في شيء ممّا حرّم الله شفاءً ولادواءً»(٣).

[٤٣٧٧/٢] وروى بالإسناد إلى عليّ بن أسباط قال: أخبرني أبي قال: كنت عند أبي عبدالله عليه السلام فقال له رجل: إنّ بي أرياح البواسير وليس يوافقني إلّا شرب النبيذ؟ فقال له: «ما لَكَ ولِما حرّم الله ورسوله؟! يقول له ذلك ثلاثاً»(٤).

[٤٣٧٨/٢] وروى بالإسناد إلى الحلبي قال: «سألت أبا عبدالله عليه السلام عن دواء عجن بالخمر؟ فقال:

---

(١) العلل: ٤٧٨/ ١؛ الوسائل ٢٥: ٣٧٨/ ٣؛ البحار ٥٩: ٨٣/ ٥. و٦٢: ١٥٧/ ٣٣؛ العيّاشي ١: ٩٣/ ١٥٣.

(٢) الكافي ٦: ٤١٣/ ١.

(٣) المصدر/ ٢. والأسكرّجة إناء صغير لشرب القليل من اللبن أو الماء، يشبه الفنجانة.

(٤) المصدر/ ٣.

لا والله، ما أحبّ أن أنظر إليه، فكيف أتداوى به، إنّه بمنزلة شحم الخنزير»[١].

[٤٣٧٩/٢] وروى بالإسناد إلى عبدالله بن عبدالحميد عن عمرو عن ابن الحرّ[٢]، قال: «دخلتُ على أبي عبدالله عليه السلام أيّام قدم العراق، فقال لي: ادخل على إسماعيل (يعني ابنه) فإنّه شاكٍ فانظر ما وجعه؟... قال: فدخلت عليه وسألته عن وجعه، فوصفت له دواءً فيه نبيذ! فقال إسماعيل: النبيذ حرام، وإنّا أهل بيت لانستشفي بالحرام!»[٣]

[٤٣٨٠/٢] وروى بالإسناد إلى معاوية بن عمّار قال: سأل رجل أبا عبدالله عليه السلام عن دواء عُجن بالخمر نكتحل منها؟ فقال أبو عبدالله عليه السلام: «ما جعل الله ـ عزّ وجلّ ـ فيما حرّم شفاءً!»[٤]

[٤٣٨١/٢] وبالإسناد إلى قايد بن طلحة أنّه سأل أباعبدالله عليه السلام عن النبيذ، يُجعل في الدواء؟ فقال: «لا، ليس ينبغي لأحد أن يستشفي بالحرام»[٥].

[٤٣٨٢/٢] وعن عليّ بن جعفر عن أخيه أبي الحسن عليه السلام قال: سألته عن الكحل يُعجن بالنبيذ، أيصلح ذلك؟ فقال: لا[٦].

[٤٣٨٣/٢] وعن الحلبي قال: سُئل أبو عبدالله عليه السلام عن دواء يُعجن بخمر؟ فقال: «ما أحبّ أن أنظر إليه ولا أشمّه، فكيف أتداوى به؟!»[٧]

قلت: ولعلّ ذلك فيما إذا أمكن رفع الضرورة بعلاج آخر، وإن كان أصعب أو أكثر مؤنة. إذ لو كان العلاج منحصراً لما جاز تركه، بعد ضرورة وجوب حفظ النفس عن التلف أو نقصٍ في الطرف.

ولذلك نجد الصدوق رحمه الله أطلق القول بجواز شرب الخمر عند الضرورة. قال ـ بعد أن ذكر حديث المنع ـ: جاء هذا الحديث هكذا، كما أوردته. وشربُ الخمر في حال الاضطرار مباح مطلق، مثل الميتة والدم ولحم الخنزير.. قال: وإنّما أوردتُه لما فيه من العلّة، ولا قوّة إلّا بالله[٨].

(١) المصدر: ٤١٤ / ٤.
(٢) كان طبيباً معالجاً.
(٣) المصدر / ٥.
(٤) المصدر / ٦.
(٥) المصدر / ٨.
(٦) المصدر / ٩.
(٧) المصدر / ١٠.
(٨) العلل: ٤٧٨ ذيل الحديث رقم ١، باب ٢٢٧.

قال تعالى:

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلَ اللهُ مِنَ الْكِتَابِ وَيَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَناً قَلِيلاً أُوْلَئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا النَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (١٧٤) أُوْلَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَى وَالْعَذَابَ بِالْمَغْفِرَةِ فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ (١٧٥) ذَلِكَ بِأَنَّ اللهَ نَزَّلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِي الْكِتَابِ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ (١٧٦)﴾

نعم، كان صعباً على أرباب النحل وأصحاب المذاهب المبتدعة أن يرضخوا للحقّ، مهما بلغ صراحة ووضوحاً حيث يرونه معاكساً لمصالحهم المزعومة. الأمر الّذي شكّل معضلة في طريق نشر الدعوة دون بلوغها إلى عامّة الناس، حيث الحجز القائمة دون سماع الحقّ والسعي وراء كتمانه مهما بلغ الأمر.

ومن ثمّ نجد هنا حملة قويّة على الّذين يكتمون ما أنزل الله من الكتاب، يكتمون الحقّ الّذي يعلمونه، ويشترون به ثمناً قليلاً، منافع خاصّة يحرصون عليها والّتي يتحرّونها بهذا الكتمان ويخشون عليها من البيان، وماهي إلّا الدنيا العاجلة، ألا وهي ثمن بخس تجاه ما يخسرونه من رضى الله وثوابه الجزيل.

وهذا الّذي يتقاضونه من حطام الدنيا ليس سوى حرّ الدنيا يصلونها في بطونهم ﴿مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا النَّارَ﴾ وكأنّما هذا الّذي يأكلونه من ثمن الكتمان والبهتان نار في بطونهم! وإنّها لحقيقة حينما يلمسونها في الآخرة، ولبئس العذاب.

وجزاء ماكتموا من آيات الله، أن يُهملهم الله يوم القيامة ويدعهم في مهانة وازدراء ﴿وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ﴾ لاكلام ولا اهتمام ولاتطهير ولاغفران ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ مولم يحزّ في النفس حزّه الشديد.

وتصوير آخر يشي بفشلهم وفضحهم أكثر: ﴿أُوْلَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَى وَالْعَذَابَ بِالْمَغْفِرَةِ﴾. ألا وهي صفقة خاسرة يدفعون فيها الهدى ويقبضون الضلال، ويؤدّون المغفرة

ويأخذون فيها العذاب، فما أخسرها من صفقة وأغباها!

وكفايةً عن فضاعة شأنهم قال: ﴿فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ﴾؟! فيا لطول صبرهم على النار، الّتي اختاروها وعهدوا إليها عن قصد لئيم. فيا للتهكّم الساخر من صفاقتهم الشائنة.

وهذا التعاطي الخاسر إنّما كان نتيجة العمه في اختيار الطريق. ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللهَ نَزَّلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ﴾ فمن فاء إليه فهو على الهدى، وهو في وفاق مع الحقّ، وفي وفاق مع المهتدين، وفي وفاق مع الفطرة وناموس الكون الأصيل. ﴿وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِي الْكِتَابِ﴾ في شريعة الله النازلة بحقّ ﴿لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ﴾ شقاق مع الحقّ وشقاق مع ناموس الفطرة، وشقاق فيما بينهم وبين أنفسهم، ولقد كانوا كذلك ولايزالون، وعد الله الّذي يتحقّق على مدار الزمان واختلاف الأقوام. ونرى مصداقه واقعاً في كلّ دور وكور على مدى الأيّام.

* * *

[٤٣٨٤/٢] أخرج الثعلبي عن ابن عبّاس قال: نزلت هذه الآية في رؤساء اليهود وعلمائهم، كانوا يصيبون من سفلتهم الهدايا والفضل، وكانوا يرجون أن يكون النبيّ المبعوث منهم، فلمّا بعث الله محمّداً ﷺ من غيرهم خافوا ذهاب مأكلتهم وزوال رياستهم، فعمدوا إلى صفة محمّد فغيّروها، ثمّ أخرجوها إليهم وقالوا: هذا نعت النبيّ الّذي يخرج في آخر الزمان لايُشبه نعت هذا النبيّ، فإذا نظرت السفلة إلى النعت المغيّر وجدوه مخالفاً لصفة محمّد فلم يتّبعوه، فأنزل الله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلَ اللهُ مِنَ الْكِتَابِ﴾[1].

[٤٣٨٥/٢] وقال الشيخ في تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَا يُكَلِّمُهُمْ﴾: قيل في معناه قولان: أحدهما: لايكلّمهم بما يحبّون وإنّما هو دليل على الغضب عليهم وليس فيه دليل على أنّه لايكلّمهم بما يسوءهم لأنّه قد دلّ في موضع آخر فقال: ﴿فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ﴾ وقال: ﴿رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ. قَالَ اخْسَأُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾ وهذا قول الحسن وواصل وأبي عليّ.

---

(١) الدرّ ١: ٤٠٩؛ الثعلبي ٢: ٤٧؛ أسباب النزول للواحدي: ٢٩ ـ ٣٠؛ أبوالفتوح ٢: ٣٠١ ـ ٣٠٢؛ مجمع البيان ١: ٤٧٧.

الثاني: لايكلّمهم أصلاً. فتحمل آيات المسائلة على أنّ الملائكة تسألهم بأمر الله ويتأوّل قوله: ﴿اخْسَأُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾[1] على أنّ الحال دالّة على ذلك[2].

[٤٣٨٦/٢] وأخرج ابن أبي حاتم عن أبي العالية في قوله: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَى﴾ الآية. قال: اختاروا الضلالة على الهدى، والعذاب على المغفرة ﴿فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ﴾قال: ما أجرأهم على عمل النار[3].

[٤٣٨٧/٢] وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، عن الحسن في قوله: ﴿فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ﴾ قال: والله ما لهم عليها من صبر، ولكن يقول: ما أجرأهم على النار[4].

[٤٣٨٨/٢] وأخرج ابن جرير عن قتادة ﴿فَمَا أَصْبَرَهُمْ﴾ قال: ما أجرأهم على العمل الّذي يُقرّبهم إلى النار[5].

[٤٣٨٩/٢] وروى الكليني بإسناده إلى عبدالله بن مسكان عمّن ذكره عن أبي عبدالله عليه السلام في قول الله ـ عزّ وجلّ ـ: ﴿فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ﴾ قال: ما أصبرهم على فعل ما يعلمون أنّه يُصيّرهم إلى النار[6].

قال الطبرسي رحمه الله في تفسير الآية: فيه أقوال:

[٤٣٩٠/٢] أحدها: أنّ معناه، ما أجرأهم على النار. ذهب إليه الحسن وقتادة، ورواه عليّ بن إبراهيم بإسناده عن الإمام أبي عبدالله الصادق عليه السلام[7].

[٤٣٩١/٢] والثاني: ما أعملهم بأعمال أهل النار، عن مجاهد، وهو المرويّ ـ أيضاً ـ عن أبي عبدالله عليه السلام[8].

---

(١) المؤمنون ٢٣: ١٠٨.
(٢) التبيان ٢: ٨٩؛ مجمع البيان ١: ٤٧٩.
(٣) الدرّ ١: ٤٠٩؛ ابن أبي حاتم ١: ٢٨٦ / ١٥٣٧. وزاد: وروي عن قتادة والربيع بن أنس نحو ذلك.
(٤) الدرّ ٢: ١٣٦. (ط: هجر).
(٥) الدرّ ١: ٤١٠؛ الطبري ٢: ١٢٣ / ٢٠٦٦.
(٦) الكافي ٢: ٢٦٨ ـ ٢٦٩ / ٢، كتاب الايمان والكفر، باب الذنوب؛ العيّاشيّ ١: ٩٤ / ١٥٨؛ البرهان ١: ٣٨٢ / ١؛ نورالثقلين ١: ١٥٦.
(٧) البرهان ١: ٣٨٢ / ٣.
(٨) الكافي ٢: ٢٦٨ـ٢٦٩ / ٢.

[٤٣٩٢/٢] والثالث: ما أبقاهم على النار، كما يقال: ما أصبر فلاناً على الحبس، عن الزجّاج.

[٤٣٩٣/٢] والرابع: ما أدومهم على النار، أي ما أدومهم على العمل بعمل أهل النار. كما يقال: ما أشبه سخاءك بحاتم، أي بسخاء حاتم. وعلى هذا الوجه فظاهر الكلام التعجّب، والتعجّب لا يجوز على القديم سبحانه، لأنّه عالم بجميع الأشياء لا يخفى عليه شيء. والتعجّب إنّما يكون ممّا لا يعرف سببه. وإذ ثبت ذلك فالغرض أن يدلّنا على أنّ الكفّار حلّوا محلّ من يُتَعجَّب منه، فهو تعجّب لنا منهم.

[٤٣٩٤/٢] والخامس: ما روي عن ابن عبّاس، أنّ المراد: أيّ شيء أصبرهم على النار؟ أي حبسهم عليها، فتكون ما استفهاميّة.

قال: ويجوز حمل الوجوه الثلاثة الأُوَل على الاستفهام أيضاً، ليكون المعنى: أيّ شيء أجرأهم على النار، وأعملهم بأعمال أهل النار، وأبقاهم على النار؟

قال: وقال الكسائي: هو استفهام على وجه التعجّب. وقال المبرّد: هذا حسن، لأنّه كالتوبيخ لهم، والتعجّب لنا. كما يقال لمن وقع في ورطةٍ: ما اضطرّك إلى هذا، إذا كان غنيّاً عن التعرّض للوقوع في مثلها. والمراد به الإنكار والتقريع على اكتساب سبب الهلاك وتعجّب الغير منه. ومن قال: معناه، ما أجرأهم على النار، فإنّه عنده من الصبر الّذي هو الحبس أيضاً، لأنّ بالجرأة يصبر على الشدّة[1].

---

(١) مجمع البيان ١: ٤٨٠. وراجع: البحار ٧٠: ٣١٤ـ٣١٥.

قال تعالى:

لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾

هنا وفي هذه الآية الكريمة يضع القرآن قواعد التصوّر الإيماني الصحيح، وقواعد السلوك الإيماني الصحيح، ويحدّد صفة الصادقين المتّقين. وفي ضمنه ردّ رصين على أولئك المتزمّتين أصحاب القشور، رضوا بأنفسهم الالتهاء بشعائر أسلافهم، وحسبوها الحقّ الوحيد وليس فيما عداها. ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئاً وَلَا يَهْتَدُونَ﴾[1]. و ﴿قَالُوا أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا؟!﴾[2].

إلى غيرهما من آيات تنبؤك عن التجمّد العقلي والتقليد الأعمى، كان يصدّهم عن الانصياع للحقّ الصراح. بل كان لايمنعهم عن الافتراء على الله كذباً، في تزمّتهم هذا الغريب. ﴿وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّ اللهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ أَتَقُولُونَ عَلَى اللهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾[3] والقول الحقّ هو: ﴿قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾[4].

* * *

وهكذا هنا في هذه الآية يعنّف أهل الكتاب في مزعومتهم أنّ طريقتهم هي طريقة الحقّ، ولا سيّما بشأن القبلة، وأنّها جهة المغرب عند اليهود وجهة المشرق عند النصارى، فلا ذا ولا ذاك. لايغنيان شيئاً إذا لم يكن عن أمره تعالى، والمتمثّل فيما جاء به الإسلام وصرّح به القرآن الكريم.

---

(١) المائدة ٥: ١٠٤.
(٢) يونس ١٠: ٧٨.
(٣) الأعراف ٧: ٢٨.
(٤) الأعراف ٧: ٢٩.

وبذلك يصل السياق إلى تقرير الحقيقة الكبرى حول أمر القبلة والقضايا الجدليّة الّتي أثارتها اليهود بالذات حول شكليّات الشعائر والعبادات وكثيراً ما كانوا يثيرون الجدل حول هذه الأمور.

نعم، ليس القصد من تحويل القبلة، ولا من شعائر العبادة ـ على الإطلاق ـ أن يولّي الناس وجوههم قبل المشرق أو المغرب، نحو بيت المقدس أو المسجد الحرام، وليست غاية البرّ ـ وهو الخير جملةً ـ هي تلك الشعائر الظاهرة ـ إذا كانت مجرّدة عمّا يصاحبها في القلب من الشعور وفي العمل من السلوك ـ إنّما البرّ هو تصوّر وشعور وأعمال وسلوك. تصوّر يُنشيء أثره في ضمير الفرد والجماعة، وعمل يُنشيء أثره في حياة الفرد والجماعة. ولا يغني عن هذه الحقيقة العميقة مجرّد تولية الوجه قبل المشرق والمغرب، سواء في التوجّه إلى القبلة هذه أم تلك، أو التسليم من الصلاة يميناً وشمالاً، أو في سائر الحركات الظاهرة الّتي يزاولها الناس في الشعائر.

﴿ولكنّ البرّ﴾ الّذي هو جماع الخير كلّه ﴿مَنْ آمَنَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ﴾ إخبار عن المصدر باسم الذات للمبالغة كعكسه في قوله: «فإنّما هي إقبال وإدبار»[1]. والمقصود: أنّ من اجتمعت فيه هذه الصفات، صار كأنّه متجسّد منها وقد تجسّدت في وجوده تلك النعوت والفضائل.

وبعدُ فماذا في تلك الصفات من قيمٍ تجعل لها هذا الوزن في ميزان الله؟ إنّ الإيمان بالله هو نقطة التحوّل في حياة البشريّة من العبوديّة لشتّى القوى وشتّى الأشياء وشتّى الاعتبارات، إلى عبوديّة خالصة لله تحرّر بها النفس من كلّ علائقها المثبّطة لها عن الحركة نحو الكمال، كما هي نقطة التحوّل كذلك من الفوضى إلى النظام، ومن التيه إلى القصد، ومن التفكّك إلى وحدة الاتّجاه.

فهذه البشريّة، دون الإيمان بالله وحده لاشريك له، لاتعرف لها قصداً مستقيماً في الحياة ولا غاية مطّردة، ولا تعرف لها نقطة ارتكاز تتجمّع حولها في جدٍّ وفي مساواة وفي طمأنينة وسلام.

---

(١) من قصيدة قالها الخنساء في رثاء أخيها صخر:

فما عجولٌ على بوٍّ تطيف بـه ... لها حنينانِ إصغارٌ وإكبارٌ
لاتسأمُ الدهرَ منه كلّما ذكَرَتْ ... فـإنّما هـي إقبالٌ وإدبارٌ
يوماً بأَوْجَدَ منّي حين فارقني ... صخرٌ وللدهر إحلاءٌ وإمرارٌ

(الكشّاف ١: ٢١٨).

والإيمان باليوم الآخر، هو الإيمان بالعدالة الإلٓهية المطلقة في الجزاء وبأنّ الحياة على هذه الأرض ليست سدىً ولا فوضى بغير ميزان، وبأنّ الخير لايُعدَم جزاؤه ولو بدا أنّه في هذه الأرض لايلقى الجزاء. كما أنّها ليست محدودة بأمد قصير، وإنّما هي حركة دائبة في طول مسير.

والإيمان بالملائكة طرف من الإيمان بالغيب، الّذي هو مفرق الطريق بين إدراك الإنسان وإدراك الحيوان. كما أنّه إيمان بأنّ هناك وراء الحسّ المشهود، عالماً ملؤه الحيويّة الفعّالة، وربما كانت هي الّتي تمدّ الحياة هذه على وجه الأرض! فلا غنا للحياة هذه إذا لم تستمدّ من تلك الحياة العليا، وملؤها القوى العاملة تحت رعاية الله ربّ العالمين.

والإيمان بالكتاب والنبيّين هو الإيمان بالرسالات جميعاً وبالرسل جميعاً. وإذعان بتحقّق الوعد الّذي وعد الله هذا الإنسان منذ هبط إلى الأرض أن لايتركه هَمَلاً بلا رعاية ولا عناية ليئنّ تحت هواجسه خائفاً وجلاً؛ بل عطف عليه بفضله وإحسانه، وأرسل إليه رسله تترى بالآيات والبيّنات، وأوضح له الطريق والهدى إلى السعادة والسلام.

﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدىً فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾[1].

* * *

تلك ناحية الإيمان وموضعها الخطير في حياة الإنسان.

وهناك ناحية أخرى تلازم الإيمان الخالص لله تعالى شأنه وهو الإيثار في سبيله تعالى بالمال والإسعاف بحاجة الآخرين، وفي ذلك إشعار بالتضامن والتكافل في محيط الجماعة المسلمة.

وفي قوله تعالى: ﴿عَلَى حبّه﴾ دلالة على مبلغ أهميّة هذا الإيثار، حيث مع تمكّن حبّ المال في النفوس والاعتزاز به، مع ذلك يبسط المؤمن يده في البذل في سبيل حبّ الإنسانيّة العليا، والّتي هي أرقى من حبّ الذات شخصيّاً.

نعم قيمة إيتاء المال والإيثار به هي الانعتاق من ربقة الحرص والشحّ والضعف والأثرة. انعتاق الروح من حبّ المال الّذي يكاد يقبض الأيدي عن الإنفاق، ويقبض النفوس عن الأرْيَحيّة، ويقبض الأرواح عن الانطلاق، فهي قيمة روحيّة يشير إليها ذلك النصّ على حبّ المال!!

ثمّ هي قيمة إنسانيّة عليا في محيط الجماعة.

(١) البقرة ٢: ٣٨.

هذه الصلة لذوي القربى فيها تحقيق لمروءة النفس وكرامة الأسرة، ووشائج القربى. والأسرة هي النواة الأُولى للجماعة، ومن ثمّ هذه العناية وهذا التقديم.

وهي لليتامي، وهو تكافل بين الأقوياء والضعفاء، وتعويض لهؤلاء الصغار عن فقدان الحماية والرعاية الأبويّتين، وحماية للأمّة من تشرّد صغارها وتعرّضهم للفساد.

وهي للمساكين الّذين سكن بهم الفقر، ومع ذلك فهم ساكنون لايُقدمون للسؤال، ضنًّا بماء وجوههم، فليحتفظ لهم بكرامة نفوسهم والصون بهم عن البوار والانهيار، وفي ذلك إشعار لهم بالتضامن والتكافل في محيط الجماعة المسلمة، الّتي لا يُهْمَلُ فيها فردٌ ولايضيع فيها عضو.

وهي لابن السبيل ـ المنقطع عن المال والأهل ـ فريضة واجبة للنجدة في ساعة العسرة وإشعار له بأنّ الإنسانيّة كلّها أهل.

وهي للسائلين إسعاف لعوزهم وكفّ لهم عن المسألة الّتي يكرهها الإسلام. وفي الإسلام، لايسأل من يجد الكفاية أو من يجد عملاً، فهو مأمور من دينه أن يعمل ولا يسأل، وأن يقنع ولا يتذلّل، فلا سائل إلّا حيث يعييه العمل والكفاية.

وهي في الرقاب: إعتاق وتحرير لمن أوقعه سوء تصرّفه في الرقّ، بحمل السيف في وجه الإسلام. ويتحقّق هذا النصّ إمّا بشراء الرقيق وعتقه، وإمّا بإعطائه ما يؤدّي به ما كاتب عليه سيّده في نظير عتقه، وذلك ليسارع في فكّ رقبته واسترداد حرّيته وإنسانيّته الكريمة، والإسلام يعلن حرّيّة الرقيق في اللحظة الّتي يطلب فيها الحرّيّة، إذا توفّرت فيه الشرائط.

* * *

وناحية ثالثة أهمّ وهي ناحية العبادة في الإسلام، وشاخصها الصلاة الّتي هي عمود الدين، والمحور الّذي يدور عليه رحى الإسلام، من جانبيه الروحي ـ اتّصالاً بالملكوت الأعلى[1] ـ والظاهري ـ اتّزاناً في السلوك والمعاشرة العامّة: ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللهِ أَكْبَرُ﴾[2]. ولعلّ ذيل الآية إشارة إلى الجهة الأُولى: الاتّصال الروحي.

ورابعة: إيتاء الزكاة، هي فريضة ماليّة متعيّنة في جانب مصرفها، وهي تؤمّن جانباً من مؤونة واجب النظام المالي في الحكم الإسلامي. ووفاء بطرف من ضريبة الإسلام الاجتماعية، الّتي

---

(١) الصلاة معراج المؤمن. (٢) العنكبوت ٢٩: ٤٥.

جعلها الله حقّاً في أموال الأغنياء للفقراء والمعوزين. ومن ثَمَّ فهو يقابل إيتاء المال المذكور أوّلاً، حيث إنّه على الندب وهذا على الفرض، فليست الزكاة بديلة منه، وإنّما الزكاة ضريبة مفروضة، والإنفاق تطوّع طليق. والبرّ لايتمّ إلّا بهذه وتلك، وكلتاهما من مقوّمات الإسلام.

وخامسة: الوفاء بالعهد، إنّه سمة الإسلام الّتي يحرص عليها ويؤكّد عليها القرآن في مواضع، ويعدّها آية الإيمان وآية الآدميّة وآية الإحسان. وهي ضروريّة لإيجاد جوٍّ من الثقة المتبادلة في العلاقات: علاقات الأفراد وعلاقات الجماعات وعلاقات الأمم والدول. تقوم أوّلاً على الوفاء بالعهد مع الله. وبغير هذه السمة يعيش كلّ فرد منعزلاً عن غيره، فزعاً قلقاً لايركن إلى وعد ولايطمئنّ إلى عهد ولايثق بإنسان، الأمر الّذي يوجب تفكّكاً في هيكل الجماعة الفاقدة للإيمان.

وسادسة: الصبر في البأساء والضرّاء وحين البأس. إنّها تربية للنفوس وإعداد، كي لاتطير شُعاعاً مع كلّ نازلة، ولاتذهب حسرةً مع كلّ فاجعة، ولا تنهار جزعاً أمام كلّ شدّة. إنّه التجمّل والتماسك والثبات حتّى تنقشع الغاشية وترحل النازلة، ويجعل الله بعد عسرٍ يُسراً. إنّه الرجاء في الله والثقة بالله والاعتماد على الله. ولابدّ لأمّة تناط بها القوامة على البشريّة، والعدل في الأرض وبسط الصلاح، أن تُهيّأ لمشاقّ الطريق ووعثائه بالصبر في البأساء والضرّاء وحين الشدّة. الصبر في البؤس والفقر، الصبر في القلّة والنقص، الصبر في الجهاد والحصار، والصبر على كلّ حال كي تتمكّن من النهوض بواجبها الضخم، وتؤدّي دورها الفخم، في ثبات وفي ثقة وفي طمأنينة وفي اعتدال واتّزان.

والملحوظ: أنّ السياق هنا وفي هذه الصفة ـ صفة الصبر في البأساء والضرّاء وحين البأس ـ يُبرزها بإعطاء كلمة ﴿الصابرين﴾ ـ بنصبٍ ـ وصفاً في العبارة يدلّ على الاختصاص. فما قبلها من الصفات مرفوع، أمّا هي فمنصوبة على الاختصاص بتقدير «وأخصّ الصابرين» وهي لفتة خاصّة لها وزنها في معرض صفات البِرّ، لفتة خاصّة تبرز الصابرين وتميّزهم بالذات من بين سائر السمات.

وهو مقام للصابرين عظيم، وتقدير لصفة الصبر في ميزان الله يُلفت الأنظار، وقد سبق[1] بعض الكلام عن الصبر وأهمّيته في بناء بنية الفرد والجماعة، والّتي هي آخذة في درجات الكمال.

---

(١) عند تفسير الآية: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ﴾.

وهكذا جمعت آية واحدة بين أصول الاعتقاد، وتكاليف النفس والمال، وجعلتها كلاً لايتجزّأ، ووحدة لاتنفصم. ووضعت على هذا كلّه عنواناً واحداً هو: «البرّ» أو هو «جماع الخير» أو هو «الإيمان كلّه» كما ورد في الأثر. والحقّ أنّها خلاصة كاملة للتصوّر الإسلامي، ولمبادىء المنهج الإسلامي المتكامل، لايستقيم بدونها إسلام.

ومن ثمّ تُعقّب الآية على من هذه صفاتهم بأنّهم: ﴿أُوْلَـئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُوْلَـئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾.

أولئك الّذين صدقوا ربّهم في إسلامهم. صدقوا في إيمانهم واعتقادهم، صدقوا في ترجمة هذا الإيمان والاعتقاد في مدلولاته الواقعة في الحياة. وأولئك هم المتّقون الّذين يخشون ربّهم ويتّصلون به، ويؤدّون واجبهم له في حسّاسيّة وفي إشفاق. ومن ثمّ فإنّهم ـوفي ظلّ عناية الله ـ يُحبرون ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ﴾[١].

* * *

والآن فلنعرض الروايات عن السلف بشأن الآية:

[٤٣٩٥/٢] أخرج عبدالرزّاق وابن جرير عن قتادة قال: كانت اليهود تصلّي قِبَلَ المغرب والنصارى تصلّي قِبَلَ المشرق[٢].

وهكذا رواها عن أبي العالية وعن الربيع[٣].

[٤٣٩٦/٢] وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن قتادة في قوله: ﴿لَيْسَ الْبِرَّ...﴾ الآية. قال: ذُكر لنا أنّ رجلاً سأل النبيّ ﷺ عن البرّ، فأنزل الله هذه الآية، فدعا الرجل فتلاها عليه، وقد كان الرجل قبل الفرائض إذا شهد أن لا إلـهَ إلّا الله وأنّ محمّداً عبده ورسوله، ثمّ مات على ذلك يُرجى له في خير، فأنزل الله: ﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ﴾ وكانت

(١) فصّلت ٤١: ٣٠.

(٢) عبدالرزّاق ١: ٣٠٢ / ١٦٠؛ الطبري ٢: ١٢٨ / ٢٠٨١؛ الثعلبي ٢: ٤٩، نقلاً عن الربيع ومقاتل بن حيّان أيضاً.

(٣) الطبري ٢: ١٢٨ / ٢٠٨٣؛ ابن أبي حاتم ١: ٢٨٧ / ١٥٤١.

اليهود توجّهت قِبَلَ المغرب والنصارى قِبَلَ المشرق ﴿وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللهِ﴾ الآية[١].

[٤٣٩٧/٢] وروى الإمام أبو محمّد العسكري عن جدّه الإمام زين العابدين عليه السلام قال: «قالت اليهود: قد صلّينا على قبلتنا هذه، الصلاةَ الكثيرةَ وفينا من يُحيي الليل صلاةً إليها، وهي قبلة موسى الّتي أُمرنا بها. وقالت النصارى: قد صلّينا على قبلتنا هذه، الصلاةَ الكثيرةَ وفينا من يُحيي الليل صلاةً إليها، وهي قبلة عيسى الّتي أُمرنا بها. وقال كلُّ واحد من الفريقين: أترى ربَّنا يُبطل أعمالنا هذه الكثيرة، وصلاتنا إلى قبلتنا، لأنّا لا نتّبع محمّداً صلى الله عليه وآله على هواه...؟! فأنزل الله: يا محمّد قل: ﴿لَيْسَ الْبِرَّ﴾ [أي] الطاعة الّتي تنالون بها الجنان وتستحقّون بها الغفران والرضوان ﴿أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ﴾ بصلاتكم ﴿قِبَلَ الْمَشْرِقِ﴾ ،يا أيّها النصارى، وقِبَلَ ﴿وَالْمَغْرِبِ﴾، يا أيّها اليهود، وأنتم لأمر الله مخالفون وعلى وليّ الله مغتاظون»[٢].

[٤٣٩٨/٢] وأخرج ابن جرير عن ابن عبّاس قال: هذه الآية نزلت بالمدينة: ﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ﴾ يعني الصلاة، يقول: ليس البرّ أن تصلّوا ولاتعملوا غير ذلك، ولكنّ البرّ ما ثبت في القلب من طاعة الله![٣]

[٤٣٩٩/٢] وأخرج ابن أبي حاتم والحاكم وصحّحه عن أبي ذرّ، أنّه سأل رسول الله صلى الله عليه وآله عن الإيمان، فتلا: ﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ﴾ حتّى فرغ منها، ثمّ سأله أيضاً فتلاها، ثمّ سأله فتلاها. وقال: «وإذا عملت حسنة أحبَّها قلبُك، وإذا عملت سيّئةً أبغضها قلبُك»[٤].

[٤٤٠٠/٢] وأخرج إسحاق بن راهويه في مسنده وعبد بن حميد وابن مردويه عن القاسم بن

---

(١) الدرّ ١: ٤١١؛ الطبري ٢: ١٢٨ / ٢٠٨٢؛ القرطبي ٢: ٢٣٧، بلفظ: «قال قتادة: ذُكر لنا أنّ رجلاً سأل نبيّ الله صلى الله عليه وآله عن البرّ، فأنزل الله هذه الآية. قال: وقد كان الرجل قَبْلَ [نزول] الفرائض إذا شهد أن لا إلٰهَ إلّا الله وأنّ محمّداً عبده ورسوله، ثمّ مات على ذلك وجبت له الجنّة. فأنزل الله هذه الآية. وقال الربيع وقتادة أيضاً: الخطاب لليهود والنصارى، لأنّهم اختلفوا في التوجّه والتولّي؛ فاليهود إلى المغرب قِبَلَ بيت المقدس، والنصارى إلى المشرق مطلع الشمس. فتكلّموا في تحويل القبلة وفضّلت كلّ فرقة توليتها؛ فقيل لهم: ليس البرّ ما أنتم فيه، ولكن البرّ من آمن بالله...».

(٢) الصافي ١: ٣٢٤ ـ ٣٢٥؛ التفسير الإمام عليه السلام: ٥٩١ ـ ٥٩٢ / ٣٥٣؛ البحار ٩: ١٨٨ ـ ١٩ باب ١.

(٣) الدرّ ١: ٤١١؛ الطبري ٢: ١٢٨ / ٢٠٧٩؛ مجمع البيان ١: ٤٨٥، نقلاً عن ابن عبّاس و مجاهد واختاره أبومسلم بلفظ: ليس البرّ كلّه في التوجّه إلى الصلاة حتّى يُضاف إلى ذلك غيره من الطاعات الّتي أمر الله بها.

(٤) الدرّ ١: ٤١٠؛ ابن أبي حاتم ١: ٢٨٧ / ١٥٣٩؛ الحاكم ٢: ٢٧٢.

عبدالرحمان قال: جاء رجل إلى أبي ذرّ فقال: ما الإيمان؟ فتلا عليه هذه الآية: ﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ﴾ حتّى فرغ منها. فقال الرجل: ليس عن البرّ سألتك. فقال أبوذرّ: جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فسأله عمّا سألتني، فقرأ عليه هذه الآية فأبى أن يرضى كما أبيت أن ترضى، فقال له رسول الله ﷺ: ادن، فدنا فقال: «المؤمن إذا عمل الحسنة سرّته ورجا ثوابها، وإذا عمل السيّئة أحزنته وخاف عقابها»[1].

[٤٤٠١/٢] وأخرج وكيع وابن أبي شيبة وابن المنذر عن أبي ميسرة قال: من عمل بهذه الآية فقد استكمل الإيمان: ﴿لَيْسَ الْبِرَّ...﴾ الآية[2].

[٤٤٠٢/٢] وأخرج عبد بن حميد عن مجاهد ﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ﴾ ما ثبت في القلوب من طاعة الله[3].

[٤٤٠٣/٢] وأخرج أحمد والبزّار عن ابن عبّاس قال: «جلس رسول الله ﷺ مجلساً، فأتاه جبريل فجلس بين يدي رسول الله ﷺ واضعاً كفّيه على ركبتي رسول الله ﷺ قال: يا رسول الله حدّثني عن الإسلام؟ قال: الإسلام أن تُسلم وجهك لله عزّ وجلّ، وأن تشهد أن لا إلـهَ إلّا الله وحده لاشريك له، وأنّ محمّداً عبده ورسوله! قال: فإذا فعلت ذلك فقد أسلمت. قال: يا رسول الله حدّثني عن الإيمان؟ قال: الإيمان أن تؤمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيّين والموت والحياة بعد الموت، وتؤمن بالجنّة والنار والحساب والميزان، وتؤمن بالقَدَر كلّه خيره وشرّه! قال: فإذا فعلت ذلك فقد آمنت. قال: يا رسول الله حدّثني ما الإحسان؟ قال: الإحسان أن تعمل لله كأنّك تراه فإن لا تراه فإنّه يراك»[4].

[٤٤٠٤/٢] وأخرج البزّار عن أنس قال: «بينا رسول الله ﷺ جالس مع أصحابه إذ جاءه رجل

---

(١) الدرّ ١: ٤١١؛ ابن كثير ١: ٢١٣؛ الثعلبي ٢: ٥٣، إلى قوله: فأبى أن يرضى...؛ الوسيط ١: ٢٦٣ ـ ٢٦٤.

(٢) الدرّ ١: ٤١٢؛ المصنّف ٨: ٢١٦ / ١٥، باب ٣٩.

(٣) الدرّ ١: ٤١٢؛ الطبري ٢: ١٢٨، ذيل رقم ٢٠٧٩، بلفظ: قال ابن جريج: وقال مجاهد: ﴿لَيْسَ الْبِرَّ...﴾ يعني السجود ﴿وَلَكِنَّ الْبِرَّ﴾ ما ثبت في القلوب من طاعة الله.

(٤) الدرّ ١: ٤١٢ ـ ٤١٣؛ مسند أحمد ١: ٣١٩؛ ابن كثير ٣: ٤٦٣؛ سورة لقمان، الآية ٣٤؛ مجمع الزوائد ١: ٣٨، كتاب الإيمان.

ليس عليه ثياب السفر يتخلّل الناس حتّى جلس بين يدي رسول الله ﷺ، فوضع يده على ركبة رسول الله ﷺ فقال: يا محمّد ما الإسلام؟ قال: شهادة أن لا إلـهَ إلّا الله وحده لاشريك له وأنّ محمّداً عبده ورسوله، وإقام الصلاة، وايتاء الزكاة، وصوم شهر رمضان، وحجّ البيت إن استطعت إليه سبيلاً. قال: فإذا فعلت ذلك فأنا مسلم؟ قال: نعم. قال: صدقتَ. ثمّ قال: يا محمّد ما الإيمان؟ قال: الإيمان بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيّين وبالموت وبالبعث وبالحساب وبالجنّة وبالنار وبالقَدَر كلّه. قال: فإذا فعلت ذلك فأنا مؤمن؟ قال: نعم. قال: صدقتَ. قال: يا محمّد ما الإحسان؟ قال: أن تخشى الله كأنّك تراه فإن لم تره فإنّه يراك. قال: فإذا فعلت ذلك فأنا محسن؟ قال: نعم. قال: صدقت. قال: يا محمّد متى الساعة؟ قال: ما المسؤول عنها بأعلم من السائل! وأدبر الرجل فذهب. فقال رسول الله ﷺ: عليّ بالرجل، فاتّبعوه يطلبونه فلم يروا شيئاً. فقال رسول الله ﷺ: ذاك جبريل جاءكم ليعلّمكم دينكم»(١).

قوله تعالى: ﴿وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ﴾

[٤٤٠٥/٢] أخرج ابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير في قوله: ﴿وَآتَى الْمَالَ﴾ يعني أعطى المال ﴿عَلَى حُبِّهِ﴾ يعني على حبِّ المال(٢).

[٤٤٠٦/٢] وأخرج ابن المبارك في الزهد ووكيع وسفيان بن عيينة وعبدالرزّاق والفريابي وسعيد بن منصور وابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن جرير والطبراني والحاكم وصحّحه وابن مردويه والبيهقي في سننه عن ابن مسعود: ﴿وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ﴾ قال: يعطي وهو صحيح شحيح يأمل العيش ويخاف الفقر. وأخرج الحاكم عن ابن مسعود مرفوعاً مثله(٣).

[٤٤٠٧/٢] وأخرج البيهقي في شعب الإيمان عن المطّلب «أنّه قيل: يا رسول الله ما ﴿وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ﴾ فكلّنا نحبّه؟ قال رسول الله ﷺ: تؤتيه حين تؤتيه ونفسك تحدّثك بطول العمر

(١) الدرّ ١: ٤١٣؛ مختصر زوائد مسند البزّار ١: ٦٨ ـ ٦٩ / ١٤، وفيه: «فأنا مسلم» بدل قوله «فأنا مؤمن»؛ مجمع الزوائد ١: ٤٠.

(٢) الدرّ ١: ٤١٤؛ ابن أبي حاتم ١: ٢٨٨ / ١٥٤٧.

(٣) الدرّ ١: ٤١٤؛ عبدالرزّاق ١: ٣٠٢ / ١٦١؛ المصنّف لابن أبي شيبة ٨: ١٦٣ / ٣٨؛ الطبري ٢: ١٢٩ ـ ١٣١؛ الحاكم ٢: ٢٧٢؛ البيهقي ٤: ١٩٠؛ الثعلبي ٢: ٥١.

والفقر».[(١)]

[٤٤٠٨/٢] وأخرج أحمد وأبو داوود والترمذي وصحّحه والنسائي والحاكم وصحّحه والبيهقي عن أبي الدرداء قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «مثل الّذي ينفق[(٢)] أو يتصدّق عند الموت مثل الّذي يهدي إذا شبع»[(٣)].

[٤٤٠٩/٢] وأخرج أحمد والبخاري ومسلم وأبو داوود والنسائي وابن حِبّان عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «أفضل الصدقة أن تَصَّدَّقَ وأنت صحيح شحيح تأمل البقاء وتخشى الفقر، ولا تُمهل حتّى إذا بلغت الحلقوم قلت لفلان كذا لفلان كذا ألا وقد كان لفلان»[(٤)].

* * *

قال الشيخ أبو عليّ الطبرسي ـ في قوله تعالى: ﴿عَلَى حُبِّهِ﴾: فيه وجوه:

[٤٤١٠/٢] أحدها: أنّ الكناية راجعة إلى المال، أي على حبّ المال، فيكون المصدر مضافاً إلى المفعول. وهو معنى قول ابن عبّاس وابن مسعود.

ثانيها: أن تكون الهاء راجعة إلى الموصول ﴿مَنْ آمَنَ﴾، فيكون المصدر مضافاً إلى الفاعل، ولم يذكر المفعول، لظهور المعنى ووضوحه. قال: وهو مثل الوجه الأوّل سواء في المعنى.

ثالثها: أن تكون الهاء راجعة إلى الإيتاء، الّذي دلّ عليه قوله ﴿وَآتى الْمَالَ﴾. والمعنى: على حبّه الإعطاءَ. ويجري ذلك مجرى قول القطامي:

هُمُ الملوكُ وأبناءُ الملوكِ لَهُمْ   والآخذون به والساسة الأُوَلُ

فكنّى بالهاء عن الملك، لدلالة قوله: «الملوك» عليه.

رابعها: أنّ الهاء راجعة إلى الله تعالى، لأنّ ذكره سبحانه قد تقدّم. أي يعطون المال على حبّ

---

(١) الدرّ ١: ٤١٤؛ الشعب ٣: ٢٥٦ / ٣٤٧١.
(٢) وفي أكثر المصادر: يعتق.

(٣) الدرّ ١: ٤١٤؛ أبوالفتوح ٢ / ٣١٢؛ مسند أحمد ٦: ٤٤٨؛ أبو داوود ٢: ٢٤٢ / ٣٩٦٨، باب ١٥؛ الترمذي ٣: ٢٩٤ ـ ٢٩٥ / ٢٢٠٦؛ النسائي ٣: ١٧٢ / ٤٨٩٣؛ الحاكم ٢: ٢١٣؛ الشعب ٤: ٧٢ ـ ٧٣ / ٤٣٤٧؛ كنزالعمّال ١٠: ٣١٩ / ٢٩٥٩٦.

(٤) الدرّ ١: ٤١٤؛ مسند أحمد ٢: ٤٤٧؛ البخاري ٢: ١١٥؛ كتاب الزكاة، باب ١١؛ مسلم ٣: ٩٣ و ٩٤، كتاب الزكاة؛ أبو داوود ١: ٦٥٥ / ٢٨٦٥، باب ٣؛ النسائي ٤: ٩٩ / ٦٤٣٨؛ ابن حبّان ٨: ١٢٥ / ٣٣٣٥؛ كنزالعمّال ٦: ٤٠٠ / ١٦٢٥١.

الله وخالصاً لوجهه. قال المرتضى ـ قدس الله روحه ـ: لم نُسبَق إلى هذا الوجه في هذه الآية. وهو أحسن ما قيل فيها؛ لأنّ تأثير ذلك أبلغ من تأثير حبّ المال، لأنّ المحبّ للمال الضنين به متى بذله وأعطاه ولم يقصد به القربة إلى الله تعالى، لم يستحقّ شيئاً من الثواب، وإنّما يؤثّر حبُّه للمال في زيادة الثواب متى حصل قصد القربة والطاعة. ولو تقرّب بالعطيّة وهو غير ضنين بالمال ولامحبّ له لايستحقّ الثواب[1].

* * *

وهذا الّذي ذكره أبو عليّ الطبرسيّ؆ مقتبس من تحقيق جامع حول الآية، أورده السيد المرتضى علم الهدى ـ قدّس الله روحه ـ في أماليه، فلنذكره بنصّه:

قال: إن سأل سائل عن قوله تعالى: ﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ﴾ إلى قوله: ﴿وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ فقال:

كيف ينفي كون تولية الوجوه إلى الجهات، من البرّ؟ وإنّما يُفعل ذلك في الصلاة، وهي برٌّ لا محالة، وكيف خبّر عن البرّ بِمَنْ؟ والبرّ كالمصدر، ومَنْ اسم محض!

وعن أيّ شيء كنّى بالهاء في قوله: ﴿وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ﴾. وما المخصوص بأنّها كناية عنه، وقد تقدّمت أشياء كثيرة؟

وعلى أيّ شيء ارتفع ﴿الموفون﴾؟ وكيف نُصب ﴿الصَّابِرِينَ﴾ وهو معطوف على ﴿الْمُوفُونَ﴾.

وكيف وَحَّد الكناية في موضع وجَمَعها في آخر، فقال: من آمن، وآتى المال، وأقام الصلاة. ثمّ قال: والموفون، والصابرين؟

فقال في الجواب: يقال له فيما ذكرته أوّلاً جوابان:

أحدهما: أنّه أراد تعالى، ليس الصلاة هي البرّ كلّه، ولكنّه عدَّد ما في الآية من ضروب الطاعات وصنوف الواجبات، فلا تظنّوا أنّكم إذا توجّهتم إلى الجهات بصلاتكم، فقد أحرزتم البرّ بأسره وحُزتموه بكماله، بل يبقى عليكم بعد ذلك معظمه وأكثره.

والجواب الثاني: أنّ النصارى لمّا توجّهوا إلى المشرق، واليهود إلى بيت المقدس، واتّخذوا هاتين الجهتين قبلتين، واعتقدوا في الصلاة إليها أنّهما برّ وطاعة، خلافاً على الرسول ﷺ أكذبهم

---

(١) مجمع البيان ١: ٤٨٧.

الله في ذلك، وبيّن أنّ ذلك ليس من البرّ؛ إذ كان منسوخاً بشريعة النبيّ ﷺ الّتي تلزم الأسود والأبيض والعربيّ والعجميّ وأنّ البرّ هو ما تضمّنته الآية.

فأمّا إخباره بِمَنْ، ففيه وجوه ثلاثة:

أوّلها: أن يكون البرّ هاهنا البارّ أو ذا البرّ، وجعل أحدهما في مكان الآخر، والتقدير: ولكنّ البارّ من آمن بالله ويجري ذلك مجرى قوله تعالى: ﴿أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْراً﴾[1] يريد غائراً ومثل قول الشاعر:

تَرْتَعُ ما رَتَعَتْ حتّى إذا ادَّكَرَتْ ... فإنّما هي إقبالٌ وإدبارُ

أراد أنّها مقبلة مدبرة. ومثله:

تظلّ جيادهم نوحاً عليهم ... مقلدة أعنتها صفونا

أراد نائحة عليهم. ومثله قول الشاعر:

هَرِيقِي مِنْ دُمُوعِهِمُ سِجاماً ... ضباعُ وجاوَبي نوحاً قِياماً

والوجه الثاني: أنّ العرب قد تُخبر عن الاسم بالمصدر والفعل، وعن المصدر بالإسم، فأمّا إخبارهم عن المصدر بالإسم فقوله تعالى: ﴿وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللهِ﴾[2] وقول العرب: إنّما البرّ الّذي يصل الرحم ويفعل كذا وكذا. وأمّا إخبارهم عن الاسم بالمصدر والفعل فمثل قول الشاعر:

لعمرك ما الفتيان أن تَنْبُتَ اللّحىٰ ... ولكنّما الفتيان كلّ فتىً ندّ

فجعل أن تنبت، وهو مصدر، خبراً عن الفتيان.

والوجه الثالث: أن يكون المعنى: ولكنّ البرّ برّ من آمن، فحذف البرّ الثاني وأقام الأوّل مقامه، كقوله تعالى: ﴿وَأُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ﴾[3] أراد حبّ العجل. قال الشاعر:

وكيف تُواصلُ من أَصْبَحَتْ ... خِلالَتُهُ كأبي مَرْحَبِ

أراد: كخلالة أبي مرحب. وقال النابغة:

وقد خِفْتُ حتّى ما تزيد مخافتي ... على وَعِلٍ في ذي المَطَارَةِ عاقِلِ

أراد على مخافة وَعِلٍ. وتقول العرب: بنو فلان يطؤهم الطريق أي أهل الطريق. وحُكي عن

(١) الملك ٦٧: ٣٠. (٢) البقرة ٢: ١٧٧.

(٣) البقرة ٢: ٩٣.

بعضهم: أطيب الناس الزبد، أي أطيب ما يأكل الناس الزبد. وكذلك قولهم: حسبت صباحي زيداً، أي صباح زيد.

[٤٤١١/٢] وروي عن ابن عبّاس في قوله تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ﴾[1] أي ليس على من أكل مع الأعمى حرج. وفي قوله تعال: ﴿رَابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ﴾[2] وذكروا أنّه كان راعياً تبعهم.

فأمّا ما كنّى عنه بالهاء في قوله تعالى: ﴿وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى﴾ ففيه وجوه أربعة:

أوّلها: أن تكون الهاء راجعةً على المال الّذي تقدّم ذكره، ويكون المعنى: وآتى المال على حبّ المال، وأضيف الحبّ إلى المفعول، ولم يذكر الفاعل، كما يقول القائل: اشتريت طعامي كاشتراء طعامك، والمعنى كاشترائك طعامَك.

والوجه الثاني: أن تكون الهاء راجعةً إلى ﴿مَنْ آمَنَ بِاللهِ﴾ فيكون المصدر مضافاً إلى الفاعل، ولم يُذكر المفعول لظهور المعنى ووضوحه.

والوجه الثالث: أن ترجع الهاء إلى الإيتاء الّذي دلّ عليه آتى، والمعنى: وأعطى المال على حبّ الإعطاء، ويجري ذلك مجرى قول القطامي:

هم الملوك وأبناء الملوك لهم   والآخذون به والساسة الأوَل

فكنّى بالهاء عن الملك، لدلالة قوله «وأبناء الملوك» عليه.. ومثله قول الشاعر:

إذا نُهِي السفيه جرى إليه   وخَالَفَ والسفيهُ إلى خلاف

أراد جرى إلى السفه الّذي دلّ ذكر السفيه عليه.

والوجه الرابع: أن تكون الهاء راجعة إلى الله، لأنّ ذكره تعالى قد تقدّم، فيكون «وآتى المال على حبّ الله، ذوي القربى واليتامى».

فإن قيل: وأيّ فائدة في ذلك، وقد علمنا الفائدة في إيتاء المال مع محبّته والضنّ به، وأنّ العطيّة تكون أشرف وأمدح، فما الفائدة فيما ذكرتموه، وما معنى محبّة الله، والمحبّة عندكم هي الإرادة، والقديم لايصحّ أن يراد؟

قلنا: أمّا المحبّة عندنا فهي الإرادة، إلّا أنّهم يستعملونها كثيراً مع حذف متعلّقها مجازاً وتوسّعاً، فيقولون: فلان يحبّ زيداً إذا أراد منافِعَه، ولايقولون: زيداً يريد عمراً بمعنى أنّه يريد منافعه، لأنّ

(١) النور ٢٤: ٦١.
(٢) الكهف ١٨: ٢٢.

التعارف جرى في استعمال الحذف والاختصار في المحبّة دون الإرادة، وإن كان المعنى واحداً، وقد ذكر أنّ لقولهم: زيد يحبّ عمراً مزيةً على قولهم: يريد منافعه، لأنّ اللّفظ الأوّل ينبىء عن أنّه لايريد إلّا منافعه، وأنّه لايريد شيئاً من مضارّه. والثاني لا يدلّ على ذلك، فجعلت له مزية. وعلى هذا المعنى نصف الله بأنّه يحبّ أولياءه المؤمنين من عباده، والمعنى فيه: أنّه يريد لهم ضروب الخير من التعظيم والإجلال والنعم، فأمّا وصف أحدنا بأنّه يحبّ الله، فالمعنى فيه: أنّه يريد تعظيمه وعبادته والقيام بطاعته، ولا يصحّ المعنى الّذي ذكرناه في محبّة بعضهم بعضاً، لاستحالة المنافع عليه تعالى. ومن جوّز عليه تعالى الانتفاع لايصحّ أيضاً أن يكون محبّاً له على هذا المعنى، لأنّه باعتقاده ذلك فيه قد خرج من أن يكون عارفاً به، فمحبّته في الحقيقة لاتتعلّق ولا تتوجّه إليه، كما نقول في أصحاب التشبيه: إنّهم إذا عبدوا من اعتقدوه إلّهاً فقد عبدوا غير الله تعالى.

فأمّا الفائدة في إعطاء المال مع محبّة الله، فهي ظاهرة، لأنّ إعطاء المال متى قارنته إرادة وجه الله وعبادته وطاعته، استحقّ به الثواب، ومتى لم يقترن به ذلك لم يستحقّ الفاعل به ثواباً وكان ضائعاً. وتأثير ما ذكرناه أبلغ من تأثير حبّ المال والضنّ به، لأنّ المحبّ للمال الضنين به متى بذله وأعطاه ولم يقصد به الطاعة والعبادة والقربة لم يستحق به شيئاً من الثواب، وإنّما يؤثّر حبّه للمال في زيادة الثواب متى حصل ما ذكرناه من قصد القربة والعبادة. ولو تقرّب بالعطيّة وهو غير ضنين بالمال ولا محبّ له لايستحق الثواب.

وهذا الوجه لم نُسْبَق إليه في هذه الآية، وهو أحسن ما قيل فيها.

وقد ذكر وجه آخر وهو أن يكون الهاء راجعة إلى ﴿مَنْ آمَنَ﴾ أيضاً وينتصب ذوي القربى بالحبّ، ولايجعل لآتى منصوباً، لوضوح المعنى، ويكون تقدير الكلام: وأعطى المال في حال حبّه ذوي القربي واليتامى، على محبّته إيّاهم.

وهذا الوجه ليس فيه مزيّة في باب رجوع الهاء الّتي وقع عليها السؤال، وإنّما يتبيّن ممّا تقدّم، بتقدير انتصاب ذوي القربى بالحبّ، وذلك غير ما وقع السؤال عنه والأجوبة الأُوَل أقوى وأولى.

فأمّا قوله: ﴿وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ﴾ ففي رفعه وجهان؛ أحدهما: أن يكون مرفوعاً على المدح، لأنّ النعت إذا طال وكثر رُفع بعضُه ونُصب بعضُه على المدح، ويكون المعنى: وهم الموفون بعهدهم. قال الزجّاج: وهذا أجود الوجهين.

والوجه الآخر: أن يكون معطوفاً على ﴿مَنْ آمَنَ﴾ ويكون المعنى: ولكنّ ذا البرّ وذوي البرّ المؤمنون والموفون بعهدهم.

فأمّا نصب الصابرين ففيه وجهان؛ أحدهما: المدح، لأنّ مذهبهم في الصفات والنعوت إذا طالت، أن يعترضوا بينهما بالمدح والذمّ، ليميّزوا الممدوح أو المذموم ويُفردوه، فيكون غير متّبع لأوّل الكلام. من ذلك قول الخرنق بنت بدر بن هفّان:

لَايَبْعُدَنْ قومي الّذينَ هُمُ   سُمُّ العُدَاةِ وآفةُ الجُزْرِ
النّازِلينَ بكُلِّ مُعتَرَكٍ   والطّيِّبينَ مَعاقِدَ الأُزْرِ

فنصبت ذلك على المدح وربما رفعوهما جميعاً على أن يتّبع آخر الكلام أوّله. ومنهم من ينصب النازلين ويرفع الطيّبين، وآخرون يرفعون النازلين وينصبون الطيّبين. والوجه في النصب والرفع ما ذكرناه. ومن ذلك قول الشاعر أنشده الفرّاء:

إلى المَلِكِ القرم وابن الهُمامِ   وليث الكَتيبةِ في المُزدَحم
وذا الرّأي حين تَغُمُّ الأُمو   رُ بذاتِ الصّليلِ وذاتِ اللُّجَم

فنصب ليث الكتيبة وذا الرأي على المدح.. وأنشد الفرّاء أيضاً:

فَليتَ الّتي فيها النجومُ تواضَعتْ   عَلى كُلّ غثٍّ منهُمُ وسمينِ
غُيوثُ الحَيا في كُلِّ محَلٍ وَلَزبةٍ   أُسودُ الشَّرا يَحمينَ كُلَّ عَرينِ

وممّا نصب على الذمّ قوله:

سقوني الخمرَ ثُمَّ تَكَنَّفوني   عُداةَ اللهِ مِن كَذِبٍ وزورِ

والوجه الآخر في نصب الصابرين: أن يكون معطوفاً على ذوي القربى، ويكون المعنى: وآتى المال على حبّه ذوي القربى والصابرين. قال الزجاج: وهذا لايصلح إلّا أن يكون الموفون رفعاً على المدح للمضمرين، لأنّ ما في الصلة لايعطف عليه بعد العطف على الموصول، وكان يقوّي الوجه الأوّل.

وأمّا توحيد الذكر في موضع وجمعه في آخر، فلأنّ ﴿مَنْ آمَنَ﴾ لفظه لفظ الوحدة، وإن كان في المعنى للجمع، فالذكر الّذي أتى بعده موحَّداً يجري على اللفظ، وما جاء من الوصف بعد ذلك على سبيل الجمع مثل قوله تعالى: ﴿وَالْمُوفُونَ﴾ و ﴿الصابرين﴾، فعلى المعنى.

وقد اختلفت قراءة القرّاء السبعة في رفع الراء ونصبها من قوله تعالى: ﴿لَيْسَ البرّ﴾ فقرأ حمزة و عاصم في رواية حفص: ليس البرَّ، بنصب الراء وروى هبيرة عن حفص عن عاصم أنّه كان يقرأ بالنصب والرفع، وقرأ الباقون البرُّ بالرفع، والوجهان حسنان، لأنّ كلّ واحد من الاسمين اسم ليس وخبرها معرفة، فإذا اجتمعا في التعريف تكافآ في جواز كون أحدهما اسماً والآخر خبراً، كما تتكافأ النكرات.

وحجّة من رفع البرّ: أنّه لأن يكون البرّ الاسم، لشبهه الفاعل أولى، لأنّ ﴿لَيْسَ﴾ يشبه الفعل، وكون الفاعل بعد الفعل أولى من كون المفعول بعده، ألاترى أنّك إذا قلت قام زيد، فإنّ الاسم يلي الفعل، وتقول: ضرب غلامَه زيدٌ، فيكون النقدير في الغلام التأخير، فلولا أنّ الفاعل أخصّ بهذا الموضع، لم يجز هذا كما لم يجز في الفاعل ضرب غلامُه زيداً، حيث لم يجز في الفاعل تقدير التأخير، كما جاز في المفعول به، لوقوع الفاعل موقعه المختصّ به.

وحجّة من نصب البرّ أن يقول: كون الإسم أن وصلتها أولى لِشَبَهِها بالمضمر في أنّها لاتوصف، كما لايوصف المضمر، فكأنّه اجتمع مضمر ومظهر والأولى إذا اجتمعا أن يكون المضمر الاسم من حيث كان أذهب في الاختصاص من المظهر(١).

قوله تعالى: ﴿ذَوِي القُربى﴾

[٤٤١٢/٢] أخرج ابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير في قوله: ﴿ذَوِي الْقُرْبَى﴾ يعني قرابته(٢).

[٤٤١٣/٢] وأخرج الطبراني والحاكم وصحّحه والبيهقي في سننه عن أمّ كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «أفضل الصدقة على ذي الرحم الكاشح»(٣).

[٤٤١٤/٢] وأخرج أحمد والدارمي والطبراني عن حكيم بن حزام أنّ رجلاً سأل رسول الله ﷺ

---

(١) أمالي المرتضى ١: ٢٠٠ ـ ٢٠٨.

(٢) الدرّ ١: ٤١٤؛ ابن أبي حاتم ١: ٢٨٩ / ١٥٤٩.

(٣) الدرّ ١: ٤١٤؛ الكبير ٢٥: ٨٠؛ الحاكم ١: ٤٠٦؛ البيهقي ٧: ٢٧؛ مجمع الزوائد ٣: ١١٦، قال الهيثمي: رواه الطبراني في الكبير ورجاله رجال الصحيح؛ الثعلبي ٢: ٥١.

عن الصدقات أيّها أفضل؟ قال: «على ذي الرحم الكاشح»(١).

[٤٤١٥/٢] وأخرج ابن أبي شيبة وأحمد والترمذي وحسَّنه والنسائي وابن ماجة والحاكم والبيهقي في سننه عن سلمان بن عامر الضبّي قال: قال رسول الله ﷺ: «الصدقة على المسكين صدقة، وعلى ذي الرحم اثنتان: صَدَقةٌ وصِلَةٌ»(٢).

[٤٤١٦/٢] وأخرج أحمد والبخاري ومسلم والنسائي وابن ماجة عن زينب امرأة عبدالله بن مسعود قالت: سألت رسول الله ﷺ أتجزيء عنّي من الصدقة النفقة على زوجي وأيتام في حجري؟ قال: «لك أجران: أجر الصدقة وأجر القرابة»(٣).

[٤٤١٧/٢] وأخرج ابن المنذر عن فاطمة بنت قيس أنّها قالت: يا رسول الله إنّ لي سبعين مثقالاً من ذهب! قال: «اجعليه في قرابتك»(٤).

ملحوظة

قال الشيخ أبو جعفر الطوسي في قوله تعالى: ﴿ذَوِي الْقُرْبَى﴾: قيل: أراد به قرابة المعطي. اختاره الجبّائي. نظراً لحديث فاطمة بنت قيس.. قال: ويُحتمل أن يكون أراد به قرابة النبيّ ﷺ كما في آية ﴿الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى﴾(٥) قال: وهو قول أبي جعفر وأبي عبدالله عليهما السلام(٦).

وتبعه الطبرسي أيضاً قال: ويُحتمل أن يكون أراد قرابة النبيّ ﷺ كما في آية المودّة. وهو

---

(١) الدرّ ١: ٤١٤؛ مسند أحمد ٣: ٤٠٢؛ الدارمي ١: ٣٩٧؛ الكبير ٣: ٢٠٢ ـ ٢٠٣ / ٣١٢٦؛ مجمع الزوائد ٣: ١١٦، قال الهيثمي: رواه أحمد والطبراني في الكبير وأسناده حسن؛ التبيان ٢: ٩٧، بلفظ: «جهد المقلّ على ذي القرابة الكاشح»؛ مجمع البيان ١: ٤٨٧.

(٢) الدرّ ١: ٤١٥؛ المصنّف ٣: ٨٣ / ١٢؛ مسند أحمد ٤: ١٧، وفيه «ذي القرابة» بدل «ذي الرحم»؛ الترمذي ٢: ٨٤ / ٦٥٣؛ النسائي ٢: ٤٩ / ٢٣٦٣؛ ابن ماجة ١: ٥٩١ / ١٨٤٤، وفيه «القرابة» بدل «الرحم»؛ الحاكم ١: ٤٠٧، كتاب الزكاة؛ البيهقي ٤: ١٧٤؛ البغوي ١: ٢٠٤ ـ ٢٠٥ / ١٢٤؛ ابن كثير ١: ٢١٤، وزاد: فهم أولى الناس بك ببرّك وإعطائك.

(٣) الدرّ ١: ٤١٥؛ مسند أحمد ٦: ٣٦٣؛ البخاري ٢: ١٢٨؛ مسلم ٣: ٨٠؛ النسائي ٥: ٣٨٠ ـ ٣٨١ / ٩٢٠٠؛ ابن ماجة ١: ٥٨٧ / ١٨٣٤؛ الحاكم ٤: ٦٠٣؛ مجمع الزوائد ٣: ١١٧؛ أبوالفتوح ٢: ٣١٣.

(٤) الدرّ ١: ٤١٥؛ الطبري ٢: ١٣٠ / ٢٠٨٦؛ التبيان ٢: ٩٧؛ مجمع البيان ١: ٤٨٧؛ أبوالفتوح ٢: ٣١٣.

(٥) الشورى ٤٢: ٢٣.

(٦) التبيان ٢: ٩٦.

المرويّ عن أبي جعفر وأبي عبدالله عليهما السلام[١].

قلت: ولعلّه من خلطٍ بين الروايات؛ إذ المرويّ عنهما عليهما السلام تفسير لآيتي الخمس والفيء من سورتي الأنفال[٢] والحشر[٣]، للمناسبة هناك، ولا مناسبة هنا!

قوله تعالى: ﴿وابن السَّبِيلِ﴾

[٤٤١٨/٢] روي عن مجاهد قال: أنّه المسافر المنقطع به عن أهله، يمرّ عليك[٤].

[٤٤١٩/٢] وقد عبّر عنه بعضهم بالضيف[٥].

قوله تعالى: ﴿وَالسَّائِلِين﴾

[٤٤٢٠/٢] عن عكرمة: أنّه السائل الّذي يسألك[٦].

[٤٤٢١/٢] وأخرج أحمد وأبو داوود وابن أبي حاتم عن الإمام الحسين بن عليّ عليه السلام قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «للسائل حقّ، وإن جاء على فرس»[٧].

وأخرجه الثعلبي عن عبدالله بن الحسن عليه السلام عن أمّه فاطمة بنت الحسين عليه السلام قالت: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «للسائل حقّ وإن جاء على فرس»[٨].

وأخرجه ابن كثير عن فاطمة بنت الحسين عن أبيها ـ الحسين بن عليّ عليهما السلام ـ قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم... قال: ورواه أبو داوود[٩].

[٤٤٢٢/٢] وأخرج ابن أبي شيبة عن سالم بن أبي الجعد قال: قال عيسى بن مريم: للسائل حقّ

---

(١) مجمع البيان ١: ٤٨٧.
(٢) الأنفال ٨: ٤١.
(٣) الحشر ٥٩: ٧.
(٤) الطبري ٢: ١٣٢ و ٤: ١١٧؛ الثعلبي ٢: ٥١؛ عبدالرزّاق ١: ٤٥٥ـ٤٥٦.
(٥) ابن أبي حاتم ١: ٢٨٩، عن ابن عبّاس وقتادة وسعيدبن جبير.
(٦) الطبري ٢: ١٣٣.
(٧) مسند أحمد ١: ٢٠١. ابن أبي حاتم ١: ٢٩٠؛ أبو داوود ١: ٣٧٥ / ١٦٦٥؛ البيهقي ٧: ٢٣.
(٨) الثعلبي ٢: ٥٢.
(٩) ابن كثير ١: ٢١٤.

وإن جاء على فرسٍ مطوَّقٍ بالفضّة[١].

[٤٤٢٣/٢] وأخرج سعيدبن منصور وابن سعد من طريق عمرو بن معاذ الأنصاري عن جدّته حوّاء قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ردّوا السائل ولو بظِلفٍ مُحرَّق»[٢].

[٤٤٢٤/٢] وأخرج ابن أبي شيبة عن حميد بن عبدالرحمان قال: كان يقال: ردّوا السائل ولو بمثل رأس القطاة[٣].

[٤٤٢٥/٢] وأخرج أبو نعيم والثعلبي والديلمي والخطيب عن ابن عمر مرفوعاً: «هدية الله للمؤمن، السائل على بابه»[٤].

[٤٤٢٦/٢] وأخرج ابن شاهين وابن النجّار في تاريخه عن أبيّ بن كعب قال: قال رسول الله ﷺ: «ألا أدلّكم على هدايا الله عزّ وجلّ إلى خلقه؟ قلنا: بلى! قال: الفقير هو هدية الله، قُبِل ذلك أو تُرِك»[٥].

[٤٤٢٧/٢] وأخرج ابن سعد والترمذي وصحّحه وابن خزيمة وابن حبّان من طريق عبد الرحمان بن بجيد عن جدّته أمّ بجيد وكانت ممّن تابع رسول الله ﷺ، أنّها قالت: «يا رسول الله إنّ المسكين ليقوم على بابي فما أجد شيئاً أعطيه إيّاه؟! فقال لها: إن لم تجدي إلّا ظِلفاً محرَّقاً فادفعيه إليه». ولفظ ابن خزيمة: «ولا تَردّي سائلك ولو بظِلف»[٦].

[٤٤٢٨/٢] وقال الإمام أمير المؤمنين ؑ: «ما أحسن تواضع الأغنياء للفقراء طلباً لما عند الله، وأحسن منه تيه الفقراء على الأغنياء اتكالاً على الله»[٧].

---

(١) الدرّ ١: ٤١٥؛ المصنّف ٣: ٧/ ٢٣.

(٢) الدرّ ١: ٤١٦؛ الطبقات ٨: ٤٦٠، وفيه «محترق» بدل قوله «محرَّق»؛ ابن كثير ٤: ٥٧٧، سورة الزلزلة، الآية ٧ ـ ٨.

(٣) الدرّ ١: ٤١٦؛ المصنّف ٣: ٥٦/ ٣.

(٤) الدرّ ١: ٤١٦؛ الثعلبي ٢: ٥٢؛ الفردوس بمأثور الخطاب ٤: ٣٢٤/ ٦٩٤٤؛ كنز العمّال ٦: ٣٦٣/ ١٦٠٧٨.

(٥) الدرّ ١: ٤١٦؛ كنز العمّال ٦: ٣٩١ و ٦١٥/ ١٦٢٠٣ و ١٧١٠٨.

(٦) الدرّ ١: ٤١٥ ـ ٤١٦؛ الطبقات ٨: ٤٥٩، بتفاوت؛ الترمذي ٢: ٨٧ ـ ٨٨/ ٦٦٠، باب ٢٩؛ ابن خزيمة ٤: ١١١؛ ابن حبّان ٨: ١٦٦ ـ ١٦٧/ ٣٣٧٣؛ النسائي ٢: ٤٥/ ٢٣٥٥، كتاب الزكاة، باب ٧٨ (تفسير المسكين)؛ الحاكم ١: ٤١٧؛ أبو الفتوح ٢: ٣١٥.

(٧) نهج البلاغة ٤: ٩٥، الحكمة ٤٠٦؛ البحار ٧٢: ١٢٣/ ٢١، باب ٥١.

[٢/٤٤٢٩] وأخرج البخاري ومسلم عن أبي هريرة أنّ رسول الله ﷺ قال: «ليس المسكين الّذي يطوف على الناس، تردّه اللقمة واللقمتان والتمرة والتمرتان، ولكنّ المسكين، الّذي لا يجد غنىً يغنيه ولا يُفطَن به فيتصدّق عليه ولا يقوم فيسأل الناس!»(١)

[٢/٤٤٣٠] وأخرج ابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير ﴿وَفِي الرِّقَابِ﴾ يعني فكاك الرقاب(٢).

قوله تعالى: ﴿وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا﴾

[٢/٤٤٣١] أخرج ابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير في قوله: ﴿وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا﴾ يعني فيما بينهم وبين الناس(٣).

[٢/٤٤٣٢] وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن أبي العالية في قوله: ﴿وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا﴾ قال: فمن أعطى عهد الله ثمّ نقضه فالله ينتقم منه، ومن أعطى ذمّة رسول الله ﷺ ثمّ غدر بها فرسول الله ﷺ خصمه يوم القيامة(٤).

قوله تعالى: ﴿وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ﴾

[٢/٤٤٣٣] روي عن عبدالله بن مسعود قال: البأساء، الفقر. والضرّاء، السقم. وحين البأس، حين القتال.

وروي ذلك أيضاً عن ابن عبّاس وأبي العالية ومرّة وأبي مالك والحسن ومجاهد والربيع ومقاتل بن حيّان والضحّاك وسعيدبن جبير والسدّي وغيرهم(٥).

[٢/٤٤٣٤] وأخرج عبدبن حميد وابن جرير عن قتادة قال: كنّا نحدّث أنّ البأساء، البؤس

---

(١) البخاري ٢: ١٣٢؛ مسلم ٣: ٩٥ـ٩٦؛ ابن كثير ١: ٢١٤؛ أبوالفتوح ٢: ٣١٤؛ كنزالعمّال ٦: ٤٦٢ / ١٦٥٥٣.

(٢) الدرّ ١: ٤١٦؛ ابن أبي حاتم ١: ٢٩٠ / ١٥٥٨.

(٣) الدرّ ١: ٤١٧؛ ابن أبي حاتم ١: ٢٩١ / ١٥٦٢.

(٤) الدرّ ١: ٤١٧؛ الطبري ٢: ١٣٤ / ٢٠٩٤، نقلاً عن الربيع بن أنس؛ ابن أبي حاتم ١: ٢٩١ / ١٥٦١، وزاد: وروي عن الربيع بن أنس نحو ذلك.

(٥) ابن أبي حاتم ١: ٢٩١ـ٢٩٢؛ الطبري ٢: ١٣٤ـ١٣٥؛ الحاكم ٢: ٢٧٢.

والفقر. وأنّ الضرّاء، السقم والوَجَع. وحين البأس، عند مواطن القتال[١].

[٤٤٣٥/٢] وأخرج عبدالرزّاق عن مَعْمَر في قوله: ﴿وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ﴾. قال: البأساء: البؤس. والضرّاء: الزمانة في الجسد. وحين البأس قال: حين القتال[٢].

[٤٤٣٦/٢] وروى عليّ بن إبراهيم في قوله تعالى: ﴿وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ﴾ قال: في الجوع والخوف والعطش والمرض ﴿وَحِينَ الْبَأْسِ﴾ قال: عند القتال[٣].

[٤٤٣٧/٢] وأخرج الطستي عن ابن عبّاس، أنّ نافع بن الأزرق سأله عن ﴿الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ﴾ قال: البأساء الخِصب، والضرّاء الجَدْب. قال: وهل تعرف العرب ذلك؟ قال: نعم، أما سمعت قول زيد بن عمرو:

إنّ الإلـه عـزيز واسـع حَكَـمُ   بكفّه الضُرُّ والبأساء والنـعم[٤]

قلت: لم يُعهد تفسير البأساء بالخصب. قالت عائشة بنت الشاطىء: أمّا تفسير البأساء بالخِصب، كما في الإتقان[٥] من قول ابن عبّاس، فلاندري ما وجهه! فإن يكن نظر فيه إلى فتنة الخصب، كما في آيات: ﴿وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً﴾[٦]. ﴿إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ﴾[٧] فإنّ سياق آيات البأساء الأربع[٨] لايُعيِّن عليه، مع الأخذ والتضرّع في آيتي الأنعام والأعراف، ومع الصبر والمسّ في آيتي البقرة. كما لا أجد فيما بين يديَّ من كتب اللغة ما يؤنس إلى معنى الخصب في البأساء، من قريب أو بعيد، على الحقيقة أو المجاز. بل تدور في الاستعمال على الشدّة والعذاب والداهية والحزن. ومن مادّتها: البؤس والبأس والبؤسىٰ والابتئاس.

---

(١) الدرّ ١: ٤١٧؛ الطبري ٢: ١٣٥ / ٢٠٩٦، بلفظ: عن قتادة: قال كنّا نحدّث أنّ البأساء: البؤس والفقر وأنّ الضرّاء: السقم. وقد قال النبيّ أيّوب ﷺ: ﴿أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾. ورقم ٢٠٩٨ بلفظ: البأساء البؤس والضرّاء: الزمانة في الجسد. ورقم ٢١٠٤ بلفظ: حين البأس: أي عند مواطن القتال.

(٢) عبدالرزّاق ١: ٣٠٣ / ١٦٢.

(٣) نورالثقلين ١: ١٥٦؛ القمي ١: ٦٤؛ البرهان ١: ٣٨٥ / ٦؛ كنزالدقائق ٢: ٢٢٦.

(٤) الدرّ ١: ٤١٧.

(٥) الإتقان ٢، ٦٥.

(٦) الأنبياء ٢١: ٣٥.

(٧) التغابن ٦٤: ١٥.

(٨) الأنعام ٦: ٤٢. والأعراف ٧: ٩٤.

وبيت زيد بن عمرو لا يتعيّن شاهداً على الخصب، بل يحتمل من قرب أن تكون البأساء فيه مع الضرّ، ثمّ قال: «والنعم» ناظراً إلى نقيض الضرّ والباساء[1].

قوله تعالى: ﴿أُوْلَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾

[٤٤٣٨/٢] أخرج ابن جرير عن الربيع في قوله: ﴿أُوْلَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا﴾ قال: تكلّموا بكلام الإيمان، فكانت حقيقته العمل، صدقوا الله. قال: وكان الحسن يقول: هذا كلام الإيمان وحقيقته العمل، فإن لم يكن مع القول عمل فلا شيء[2].

[٤٤٣٩/٢] وأخرج ابن أبي حاتم عن الربيع عن أبي العاليه في قوله: ﴿أُوْلَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا﴾ يقول: تكلّموا بكلام الإيمان وحققوا بالعمل. قال الربيع: فكان الحسن يقول: الإيمان كلام، فحقيقته العمل، فإن لم يحقّق القول بالعمل لم ينفعه القول. و روي عن الربيع بن أنس نحو ذلك[3].

[٤٤٤٠/٢] وأخرج الحكيم الترمذي عن أبي عامر الأشعريّ قال: قلت: يا رسول الله ما تمام البرّ؟ قال: «تعمل في السرّ عمل العلانية»[4].

(١) الإعجاز البياني للقرآن، مسائل ابن الأزرق رقم ٥٢: ٣٣٨ ـ ٣٣٩.

(٢) الطبري ٢: ١٣٩ / ٢١٠٧؛ الدرّ ١: ٤١٧.

(٣) ابن أبي حاتم ١: ٢٩٢ / ١٥٧٠.

(٤) الدرّ ١: ٤١٨؛ نوادر الأصول ٢: ٢٧٠ / ١٧٣؛ الكبير ٢٢: ٣١٧؛ كنزالعمّال ٣: ٢٤ / ٥٢٦٥؛ مجمع الزوائد ١٠: ٢٩٠.

قال تعالى:

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأُنثَى بِالْأُنثَى فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ ذَٰلِكَ تَخْفِيفٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ فَمَنِ اعْتَدَى بَعْدَ ذَٰلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٨﴾ وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٧٩﴾

هذا الدرس جانب من التنظيمات الاجتماعيّة للمجتمع المسلم، منذ نشأته الأُولى في المدينة. جاءت منظّمة إلى تكاليف عباديّة ومعامليّة، ومتعقّبة لآية البرّ الّتي استوعبت قواعد التصوّر الإيماني وقواعد السلوك العملي في محاوريها السداسيّة الآنفة.

و في هذا الدرس حديث عن القصاص في القتلى وتشريعاته وفيها ضمان للحفاظ على الحياة في وجه عامّ.

تبدأ الآية بالنداء للذين آمنوا، بهذه الصفة الّتي تستدعي التلقّي من الله الّذي آمنوا به، فلاينبغي التهاون بشأنه مادام الإيمان راسخاً في القلوب وينتهي النداء ببيان حكمة هذا التشريع، ويوقظ فيهم التعقّل والتدبّر لهذه الحكمة، كما يستجيش في قلوبهم شعور التقوى، وهو صمّام الأمن في مجال القتلى والقصاص.

* * *

وهذا التشريع الّذي بيّنته الآية بشأن القصاص في القتلى ـ في حالة العمد ـ أنّه يقتل الحرّ بالحرّ، والعبد بالعبد، والأنثى بالأنثى، هو الّذي يقتضيه العدل في رعاية الحقوق وحفظ الدماء.

لكن هناك ظاهرة إنسانيّة نبيلة، ظاهرة العفو والسماح، في مجال الفضل والإحسان، قد تؤثّر في أريحيّة كلّ إنسان شَعُر بالتعالي عن خسائس النفس و متطلّباتها الوقتيّة المحدودة.

إذن فليشعر الإنسان ـ مهما أغذّته ثورة الغضب ودعته إلى الانتقام، وهو حقّ وعدل ـ فليشعر من وراء هذا الغبار الغليظ، أنّ الّذي ظلمه وتعدّى الحدود المضروبة دونه، أخوه ومن بني جلدته

وقد يستوجب السماح عنه رجاء إصلاحه والتعاضد معه في مسيرة الحياة، فهناك مجال العفو والإغماض عمّا جنى.

وهكذا فليشعر الّذي جنى ـ مهما سفه وحمق في عمله هذا البغيض ـ أنّ وليّ الدم الّذي هتك حريمه، هو أخوه الّذي تفرّط بشأنه، وعليه فليَرْعَوِ ويُجدّد العهد بشأنه ويحفظ حريمه أكثر وأوفر.

إذن ﴿فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ﴾ وهذا العفو يكون ـ أكثريّاً ـ بقبول الدية من أولياء الدم بدلاً من قتل الجاني. ومتى قبل وليّ الدم هذا و رضيه، فينبغي إذن أن يطالبه بالمعروف والرضا والمودّة ولايشدّد عليه بما يوجب حرجاً عليه. كما ويجب على الجاني أو وليّه أن يقوم بوظيفته بوجه حسن، فيؤدّي المال بإحسان وإجمال وإكمال، تحقيقاً لصفاء القلوب، وشفاءً لجراح النفوس، وتقوية لأواصر الأخوّة بين البقيّة الأحياء.

وقد امتنّ الله على المؤمنين بتشريع الدية هذه بما فيها من تخفيف ورحمة: ﴿ذَٰلِكَ تَخْفِيفٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ فَمَنِ اعْتَدَى بَعْدَ ذَٰلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾. إذ قد تمرّد عن قانون الفضل والإحسان، إضافة على تمرّده عن قانون العدل والانصاف ومن ثمّ فإنّ له فوق العذاب ـ يتوعده به ـ في الآخرة، تعيّن قتله وأن لاتقبل منه الدية البتّة. لأنّ الاعتداء بعد التراضي والقبول، نكث للعهد، وإهدار للتراضي، وإثارة للشحناء بعد صفاء القلوب. ومتى قبل وليّ الدم الدية، فلا يحقّ له أن يعود فينتقم ويعتدي.

قال سيّد قطب: ومن ثمّ ندرك سعة آفاق الإسلام، وبصره بحوافز النفس البشريّة عند التشريع لها، ومعرفته بما فطرت عليه من النوازع.. إنّ الغضب للدم فطرة وطبيعة، فالإسلام يلبّيها بتقرير شريعة القصاص. فالعدل الجازم هو الّذي يكسر شرة النفوس، ويفثأ حنق الصدور. ويردع الجاني كذلك عن التمادي. ولكن الإسلام في الوقت ذاته يحبّب في العفو، ويفتح له الطريق، ويرسم له الحدود؛ فتكون الدعوة إليه بعد تقرير القصاص، دعوة إلى التسامي في حدود التطوّع، لا فرضاً يكبت فطرة الإنسان ويحملها على ما لاتطيق![1]

و في الرواية عن ابن عبّاس ـ كما يأتي ـ أنّ شريعة التصالح على الدية، تخفيف على هذه الأمّة، لم تكن في شرائع سالفة[2]، سوى القود أو التعذيب إمّا بنفي البلد أو الحبس في السجون

(١) في ظلال القرآن ١: ٢٣٣.
(٢) الطبري ٢: ١٥١.

ونحو ذلك، على ما ورد في التلمود[١].

* * *

ثمّ يكمل السياق الحديث عن شريعة القصاص بما يكشف عن حكمتها العميقة وأهدافها المبتغاة: ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُوْلِي الأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾.

إنّه ليس الانتقام وليس إرواء الأحقاد، إنّما هو أجلّ من ذلك وأعلا، إنّه للحياة وفي سبيل الحياة، بل هو في ذاته حياة. ثمّ إنّه للتعقّل والتدبّر في حكمة هذا التشريع ولاستحياء القلوب واستجاشتها لتقوى الله.

والحياة الّتي في القصاص تنبثق من كفّ الجُناة عن الاعتداء ساعة الابتداء. فالذي يوقن أنّه يدفع حياته ثمناً لحياة من يَقتُل، جدير به أن يتروّى ويفكّر و يتردّد كما تنبثق من شفاء صدور أولياء الدم عند وقوع القتل بالفعل، شفائها من الحقد والرغبة في الثأر. الثأر الّذي لم يكن يقف عند حدّ في القبائل، حتّى لتدوم معاركه المتناوبة طيلة أحقاب.

ثمّ ـ و هو الأهمّ والعامل المؤثّر الأوّل في حفظ الحياة ـ استجاشة شعور التدبّر لحكمة الله، ولتقواه: ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾. هذا هو الرابط الّذي يعقل النفوس عن الاعتداء؛ الاعتداء في القتل ابتداءً، والاعتداء في الثأر أخيراً. التقوى، حسّاسيّة القلب وشعوره بالخوف من الله، وتحرّجه من غضبه، وتطلّبه لرضاه.

إنّه بغير هذا الترابط لاتقوم شريعة، ولايفلح قانون، ولايتحرّج متحرّج، ولاتكفي التنظيمات الخاوية من الروح والحسّاسيّة والخوف، والطمع في قوّة أكبر من قوّة الإنسان!

وبعد، فالآية هنا بصدد بيان تكافؤ الدم بشأن الأصناف الثلاثة، فيُقاد من أحدهما للآخر من غير تفاضل، فالحرّ يُقتل بالحرّ سواء. والعبد بالعبد سواء. والمرأة بالمرأة سواء، وهذا لايستدعي عدم القود من أحد الأصناف لصنف آخر مطلقاً، بأن لايقتل الرجل بالمرأة، حيث عدم التكافؤ!؟ نعم لايقتصّ منه بلا ردّ فاضل الديّة. فلو طلب أولياء المرأة أن يقتصّوا من الرجل الّذي قتلها، فعليهم أن يدفعوا فاضل ديته إلى أوليائه فيقتصّوا منه، كما ورد به النصّ، وتفصيل الكلام فيه موكول

---

(١) راجع تلخيص التلمود للدكتور «كهن» بترجمة أمير فريدون گرگاني: ٣١٩ـ٣٢٢.

إلى مجاله في الفقه.

ومن ثمّ فلا نسخ هنا، لعدم المنافاة بينه وبين تفاصيل قانون القصاص.

* * *

وتذكر الروايات أنّ آية القصاص هنا ـ باعتبار ـ معادلة الحرّ بالحرّ والعبد بالعبد والأنثى بالأنثى ـ نزلت بشأن حيّين من العرب اقتتلوا في الجاهليّة ـ قبل الإسلام بقليل ـ فكان بينهم قتل وجراحات، حتّى قتلوا العبيد والنساء، فلم يأخذ بعضهم من بعض حتّى أسلموا، فكان أحد الحيّين يتطاول على الآخر في العدّة والأموال، فحلفوا أن لا يرضوا حتّى يقتلوا بالعبد منّا الحرّ منهم، وبالمرأة منّا الرجل منهم، فنزل فيهم: ﴿الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأُنثَى بِالْأُنثَى﴾ منهما. ثمّ نُسخت، نسختها: ﴿النَّفْسَ بِالنَّفْسِ﴾[1].

وقال أبو عليّ الطبرسي: هذه الآية نزلت في حيّين من العرب لأحدهما طَوْلٌ على الآخر، وكانوا يتزوّجون نساءً بغير مهور، وأقسموا لنقتلنّ بالعبد منّا الحرّ منهم، وبالمرأة منّا الرجل منهم، وبالرجل منّا الرجلين منهم. وجعلوا جراحاتهم على الضعف من جراح أولئك، حتّى جاء الإسلام، فأنزل الله هذه الآية[2].

* * *

قلت: لا يمكننا الموافقة على هذا الرأي، باعتباره الآيةَ نازلةً لتعديل عادة جاهليّة، ولكن تعديلاً لا يتناسب ومنهج العدل الّذي يسير عليه الإسلام، إذ كانت العرب تقتل من قبيلة القاتل أيّاً كان من غير أن يعمدوا إلى القاتل خاصّة، وهكذا كانوا يأخذون ثأرهم بغير هوادة، ولا تزال العادة جارية حتّى اليوم، ممّا سبّب مشكلة عويصة في أوساط عربيّة قاحلة إلى حدّ بعيد.

نعم كانت العادة أسوأ ـ في الجاهليّة الأُولى ـ حيث كانوا يقتلون بالواحد عشرات وبالعبيد الأحرار، وبالأناثي الذكور، من غير رعاية قانون القصاص، بل مجرّد انتقام والأخذ بالثأر في شكل فظيع.

---

(١) المائدة ٥: ٤٥. راجع: ابن أبي حاتم ١: ٢٩٣ ـ ٢٩٤. (٢) مجمع البيان ٢: ٢٦٤ ـ ٢٦٥.

فلو كانت الآية نازلة لتعديل هذا النظام الجاهل، فمعناه: الترخيص في قتل البريء ـ إرواءً لحسّ الانتقام ـ على شرط الاقتصار بالمماثلة في العدد والجنس(١)، الأمر الّذي ترفضه شريعة العقل ومنهج العدل الإسلاميّ الحكيم.

هذا المعنى غير معقول، فكيف القول بأنّه شُرّع ثمّ فُسخ. إذ لا يمكن القول بتشريع قانون إلهيّ يخالف شريعة العقل، ولو للحظة!؟

ومن ثمّ فمن المستغرب ما فهمه سيّد قطب من هذه الآية، بأنّ مجالها مجال الاعتداء الجماعي ـ كحالة ذينك الحيّين من العرب ـ حيث تعدّى أسرة على أسرة، أو قبيلة على قبيلة، أو جماعة على جماعة. فتصيب منها من الأحرار والعبيد والنساء. فإذا أقيم ميزان القصاص، كان الحرّ من هذه بالحرّ من تلك، والعبد من هذه بالعبد من تلك، والأنثى من هذه بالأنثى من تلك.(٢) أي إذا قتل منهم عبد فليقتلوا عبداً من عبيدهم، ولو كان غير القاتل!؟ هذا رأي غريب جدّاً، ويتنافى مع روح الإسلام العادلة.

قال الشيخ محمّدعبده: تعني الآية أنّ الحرّ إذا قتل حرّاً يُقتل هو به لا غيره من سادات القبيلة ولا أكثر من واحد. وإذا قتل عبدٌ عبداً يُقتل هو به لا سيّده، ولا أحد الأحرار من قبيلته. وكذلك المرأة إذا قتلت تُقتل هي، ولا يُقتل أحد فداءً عنها. خلافاً لما كانت عليه الجاهليّة في ذلك كلّه. فالقصاص على القاتل نفسه أيّاً كان لا على أحد من قبيلته. فما كانت عليه العرب في الثأر يبيّن هذا المعنى من الآية(٣).

* * *

بقي هنا شيء لابدّ من التنبّه له، وهو أنّ ظاهر سياق الآية في مقابلة الأصناف بالأصناف أن لايُقتل فريق بفريق آخر، فلايُقتل رجل بامرأة ولاحرّ بعبد، فلا يجري القصاص لو تخالف الصنفان.

وهذا غير مراد البتّة، لأنّه من الأخذ بمفهوم الخطاب لا بمنطوقه، ولاحجيّة في الدلالة

(١) بأن يقتلوا إزاء العبد عبداً، وإزاء الأنثى أنثى، حتّى ولو كان غير القاتل... وهذا غير معقول ولا مقبول البتّة.

(٢) في ظلال القرآن ٢: ٢٣٤.
(٣) المنار ٢: ١٢٦.

بالمفهوم في مقابلة النصّ، ولا سيّما إذا كان من مفهوم التفصيل، الّذي هو من قبيل مفهوم الوصف، ولا حجيّة فيه عند الأصوليّين.

هذا وقد ورد النصّ بخلافه، فالرجل يُقتل بالمرأة ـ وإن كان على أولياء المرأة أن يدفعوا فاضل الدية إلى أولياء القاتل[١] ـ وكذا الحرّ يقتل بالعبد، فيما رواه الترمذي بالإسناد إلى رسول الله ﷺ.

[٢/٤٤٤١] قال ﷺ: «من قتل عبده قتلناه، ومن جدع عبده جدعناه».

[٢/٤٤٤٢] وعن سفيان الثوري: من قتل عبد غيره قُتل به.[٢]

[٢/٤٤٤٣] وعن إبراهيم النخعي قال: أَقْتُلُ الحُرَّ بالعبد، سواء أكان عبده أم عبد غيره[٣].

[٢/٤٤٤٤] وهكذا روى الشيخ أبو جعفر الطوسي بإسناد فيه وثاقة عن الإمام الصادق عن آبائه ﵈ عن الإمام أمير المؤمنين ﵇ أنّه قَتَلَ حُرّاً بعبدٍ قتله عمداً[٤].

وقد استوفينا الكلام هنا في مجاله في الفقه، وفيه الغنى إن شاء الله.

وعلى أيّ تقدير، فلا موضع للقول بالنسخ في الآية، بعد عدم منافاتها لآية ﴿النَّفْسَ بِالنَّفْسِ﴾!

قال الشيخ: والّذي أقوله: أنّ هذه الآية ليست منسوخة، لأنّ ما تضمّنته معمول عليه. ولا ينافي قوله تعالى: ﴿النَّفْسَ بِالنَّفْسِ﴾[٥] لأنّ تلك عامّة، ويمكن بناء تلك على هذه، ولا تناقض ولا يحتاج إلى أن تُنسخ إحداهما بالأخرى[٦].

ومع ذلك فقد أخرج أبو جعفر الطبري وغيره عن ابن عبّاس. قال: نسختها آية ﴿النَّفْسَ بِالنَّفْسِ﴾[٧].

* * *

(١) راجع: كتاب الجنايات من كتاب الخلاف للشيخ أبي جعفر الطوسي ٥: ١٤٥. والجواهر ٤٢ / ٨٢.

(٢) الترمذي ٤: ٢٦، باب ١٨، كتاب الديات.

(٣) الخلاف للطوسي ٥: ١٤٨ ـ ٤٢.

(٤) التهذيب ١٠: ١٩٢ / ٧٥٧ ـ ٤٥؛ الاستبصار ٤: ٢٧٣ / ٧؛ الوسائل ٢٩: ٩٨ / ٣٥٢٤٨ ـ ٩.

(٥) المائدة ٥: ٤٥.

(٦) التبيان ٢: ١٠٢.

(٧) الطبري ٢: ١٤٢ / ٢١١٣.

ولأبي جعفر الطبري هنا كلامٌ ضافٍ يشتمل على فوائد وفرائد نذكره بنصّه:

قال: يعني تعالى ذكرُه بقوله: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى﴾ فُرض عليكم!

فإن قال قائل: أفرض على وليّ القتيل القصاص من قاتل وليّه؟ قيل: لا؛ ولكنّه مباح له ذلك، والعفو، وأخذ الدية!

فإن قال قائل: وكيف قال: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ﴾ قيل: إنّ معنى ذلك على خلاف ما ذهبتَ إليه، وإنّما معناه: يا أيها الّذين آمنوا كتب عليكم القصاص في القتلى، الحرّ بالحرّ، والعبد بالعبد، والأنثى بالأنثى. أي أن الحرّ إذا قَتَل الحرَّ، فدم القاتل كفء لدم القتيل، والقصاص منه دون غيره من الناس، فلا تجاوزوا بالقتل إلى غيره ممّن لم يَقْتُلْ، فإنّه حرام عليكم أن تقتلوا بقتيلكم غير قاتله! والفرض الّذي فرض الله علينا في القصاص هو ما وصفتُ من ترك المجاوزة بالقصاص قتلَ القاتل بقتيله إلى غيره، لا أنّه وجب علينا القصاص فرضاً وجوبَ فرض الصلاة والصيام، حتّى لايكون لنا تركه. ولو كان ذلك فرضاً لايجوز لنا تركه لم يكن لقوله: ﴿فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ﴾ معنى مفهوم، لأنّه لا عفو بعد القصاص؛ فيقال: فمن عفي له من أخيه شيء!

وقد قيل: إنّ معنى القصاص في هذه الآية مقاصّة ديات بعض القتلى بديات بعض؛ وذلك أنّ الآية عندهم نزلت في حزبين تحاربوا على عهد رسول الله ﷺ، فقتل بعضُهم بعضاً، فأمر النبيّ ﷺ أن يصلح بينهم، بأن تسقط ديات نساء أحد الحزبين بديات نساء الآخرين، وديات رجالهم بديات رجالهم، وديات عبيدهم بديات عبيدهم قصاصاً، فذلك عندهم معنى القصاص في هذه الآية.

فإن قال قائل: فإنّه ـ تعالى ـ ذكره قال: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأُنثَى بِالْأُنثَى﴾ فما لنا أن نقتصّ للحرّ إلّا من الحرّ، ولا للأنثي إلّا من الأنثى؟ قيل: بل لنا أن نقتصّ للحرّ من العبد وللأنثى من الذكر، بقول الله تعالى ذكره: ﴿وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُوماً فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَاناً﴾[1] و

---

(١) الإسراء ١٧: ٣٣.

بالنقل المستفيض عن رسول الله ﷺ أنّه قال: «المسلمون تتكافأ دماؤُهُمْ»[1].

فإن قال: فإذ كان ذلك، فما وجه تأويل هذه الآية؟

قيل: اختلف أهل التأويل في ذلك، فقال بعضهم: نزلت هذه الآية في قوم كانوا إذا قتل الرجل منهم عبد قوم آخرين لم يرضوا من قتيلهم بدم قاتله من أجل أنّه عبد، حتّى يقتلوا به سيّده، وإذا قتلت المرأة من غيرهم رجلاً لم يرضوا من دم صاحبهم بالمرأة القاتلة، حتّى يقتلوا رجلاً من رهط المرأة وعشيرتها، فأنزل الله هذه الآية، فأعلمهم أنّ الّذي فُرض لهم من القصاص أن يقتلوا بالرجل الرجل القاتل دون غيره، وبالأنثى الأنثى القاتلة دون غيرها من الرجال، وبالعبد العبد القاتل دون غيره من الأحرار، فنهاهم أن يتعدّوا القاتل إلى غيره في القصاص. ذكر من قال ذلك:

[٤٤٤٥/٢] فقد رُوي بالإسناد إلى الشعبي قال: نزلت في قبيلتين من قبائل العرب اقتتلتا قتال عُمِّيَّة[2]، فقالوا: نقتل بعبدنا فلان ابن فلان، وبفلانة فلان ابن فلان، فأنزل الله: ﴿الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالأُنثَى بِالأُنثَى﴾.

[٤٤٤٦/٢] وعن قتادة قال: كان أهل الجاهليّة فيهم بغيٌ وطاعة للشيطان، فكان الحيّ إذا كان

---

(١) رواه هنا معلقاً دون إسناد. والحديث رواه أبو داوود في الجهاد باب ١٤٧ من حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جدّه قال: قال رسول الله ﷺ: «المسلمون تتكافأ دماؤهم يسعى بذمّتهم أدناهم ويجير عليهم أقصاهم، وهم يدٌ على من سواهم، يردّ مشدّهم على مضعفهم ومتسرّيهم على قاعدهم. لايقتل مؤمن بكافر ولا ذو عهد في عهده». ورواه بنحوه مطوّلاً أو مختصراً من حديث عبدالله بن عمروبن العاص: ابن ماجة في الديات باب ٣١. وأحمد في المسند (٢: ٢١٥) ورواه أبو داوود في الديات باب ١١ من حديث عليّ، وفيه: «... فأخرج كتاباً من قراب سيفه فإذا فيه: المؤمنون تتكافأ دماؤهم وهم يد على من سواهم ويسعى بذمّتهم أدناهم ...». ورواه بنحوه مطوّلاً أو مختصراً والنسائي في القسامة باب ١٠ و ١٣. وأحمد في المسند (١: ١١٩).

(٢) العُمِّيَّة (بضم العين وتكسر وتشديد الميم والياء): هي الأمر الأعمى لايستبين وجهه؛ كذا قاله أحمد بن حنبل والجمهور، قال إسحاق بن راهوية: هذا كتقاتل القوم للعصبيّة. وروى مسلم في صحيحه (كتاب الإمارة حديث ٥٣) عن أبي هريرة عن النبيّ ﷺ أنّه قال: «من خرج من الطاعة وفارق الجماعة فمات مات ميتةً جاهليةً. ومن قاتل تحت راية عَمّية يغضب لعصبة أو يدعو إلى عصبيّة أو ينصر عصبة فقتل فَقِتْلَةٌ جاهليّة...» ورواه غير أيضاً. قال ابن الأثير: وفي الحديث «من قُتل تحت راية عِمِّيَّة فَقِتْلَتُه جاهليّة». قيل: هو فِعِّيلَة من العماء: الضلالة، كالقتال في العصبيّة والأهواء. وحُكي عن بعضهم فيها ضمّ العين. (النهاية ٣: ٣٠٤).

فيهم عدّة ومنعة ، فقتل عبدُ قوم آخرين عبداً لهم ، قالوا : لا نقتل به إلّا حُراً ؛ تعزّزاً لفضلهم على غيرهم في أنفسهم ، وإذا قُتلت لهم امرأةٌ قتلتها امرأةُ قوم آخرين ، قالوا : لا نقتل بها إلّا رجلاً! فأنزل الله هذه الآية يُخبرهم أنّ العبد بالعبد والأنثى بالأنثى ، فنهاهم عن البغي . ثمّ أنزل الله تعالى ذكره في سورة المائدة بعد ذلك فقال : ﴿وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالْأَنفَ بِالْأَنفِ وَالْأُذُنَ بِالْأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ﴾(١).

[٢/٤٤٤٧] وعنه أيضاً قال : لم يكن لمن قبلنا دية ، إنّما هو القتل أو العفو إلى أهله ، فنزلت هذه الآية في قوم كانوا أكثر من غيرهم ، فكانوا إذا قُتل من الحي الكثير عبدٌ ، قالوا : لا نقتل به إلّا حرّاً ، وإذا قُتلت منهم امرأة قالوا : لانقتل بها إلّا رجلاً ، فأنزل الله : ﴿الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأُنثَى بِالْأُنثَى﴾.

[٢/٤٤٤٨] وبالإسناد إلى عامر قال : إنّما ذلك في قتال عِمِّيّة إذا أصيب من هؤلاء عبد ومن هؤلاء عبد تكافآ ، وفي المرأتين كذلك ، وفي الحرّين كذلك ، هذا معناه إن شاء الله .

[٢/٤٤٤٩] وعن ابن أبي نُجيح ، عن مجاهد ، قال : دخل في قول الله تعالى ذكره : ﴿الْحُرُّ بِالْحُرِّ﴾ الرجل بالمرأة ، والمرأة بالرجل . وقال عطاء : ليس بينهما فضل .

وقال آخرون : بل نزلت هذه الآية في فريقين كان بينهم قتال على عهد رسول الله ﷺ فقُتل من كلا الفريقين جماعة من الرجال والنساء ، فأمر النبيّ ﷺ أن يصلح بينهم بأن يجعل ديات النساء من كلّ واحد من الفريقين قصاصاً بديات النساء من الفريق الآخر ، وديات الرجال بالرجال ، وديات العبيد بالعبيد ؛ فذلك معنى قوله : ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى﴾ . ذكر من قال ذلك :

[٢/٤٤٥٠] فقد روى بالإسناد إلى أسباط ، عن السدّي قال : اقتتل أهل ملّتين من العرب أحدهما مسلم والآخر معاهد في بعض ما يكون بين العرب من الأمر ، فأصلح بينهم النبيّ ﷺ ، وقد كانوا قتلوا الأحرار والعبيد والنساء على أن يُؤدىٰ الحرّ دية الحرّ ، والعبد دية العبد ، والأنثى دية الأنثى ، فقاصّهم بعضهم من بعض .

---

(١) المائدة ٥: ٤٥.

[٤٤٥١/٢] وبالإسناد إلى سفيان عن السدّي عن أبي مالك قال: كان بين حيَّين من الأنصار قتال، كان لأحدهما على الآخر الطَّول[1]، فكأنّهم طلبوا الفضل، فجاء النبيّ ﷺ ليصلح بينهم، فنزلت هذه الآية: ﴿الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأُنثَى بِالْأُنثَى﴾ فجعل النبيّ ﷺ الحرّ بالحرّ والعبد بالعبد، والأنثى بالأنثى.

[٤٤٥٢/٢] وبالإسناد إلى أبي بشر، قال: سمعت الشعبي يقول: نزلت في قتالٍ عِمِّيَّة ـ قال شعبة: كأنّه في صلح ـ قال: اصطلحوا على هذا.

* * *

وقال آخرون: بل ذلك أمر من الله تعالى ذكرُه بمقاصّة دية الحرّ ودية العبد ودية الذكر ودية الأنثى في قتل العمد إن اقتصّ للقتيل من القاتل، والراجع بالفضل والزيادة بين ديتي القتيل والمقتصّ منه. ذكر من قال ذلك:

[٤٤٥٣/٢] فقد روى بالإسناد إلى ابن أبي جعفر، عن أبيه، عن الربيع قال: حُدّثنا عن عليّ بن أبي طالب عليه السلام أنّه كان يقول: «أيّما حرّ قتل عبداً فهو قَوَدٌ به، فإن شاء موالي العبد أن يقتلوا الحرّ قتلوه، وقاصّوهم بثمن العبد من دية الحرّ، وأدّوا إلى أولياء الحرّ بقيّة ديته. وأيّ عبد قتل حرّاً فهو به قود، فإن شاء أولياء الحرّ قتلوا العبد، وقاصّوهم بثمن العبد وأخذوا بقيّة دية الحرّ[2]، وإن شاؤوا أخذوا الدية كلّها واستحيوا العبد. وأيّ حرّ قتل امرأة فهو بها قود، فإن شاء أولياء المرأة قتلوه وأدّوا نصف الدية إلى أولياء الحرّ. وإن امرأة قتلت حرّاً فهي به قود، فإن شاء أولياء الحرّ قتلوها، وأخذوا نصف الدية[3]، وإن شاؤوا أخذوا الدية كلّها واستحيوها وإن شاؤوا عفوا».

[٤٤٥٤/٢] وعن حمّاد بن سلمة، عن قتادة، عن الحسن أنّ علياً عليه السلام قال في رجل قتل امرأته: «إن شاؤوا قتلوه وغرموا نصف الدية».

---

(١) الطول: الفضل والعلوّ.

(٢) هذا خلاف ما ذهب إليه أصحابنا الإماميّة من عدم الردّ هنا. و به وردت رواياتهم عن أئمّة أهل البيت عليهم السلام، إذ لا يجني الجاني أكثر من نفسه. راجع: الجواهر ٤٢: ١٠٠.

(٣) هذا أيضاً مخالف لمذهب أهل البيت وأن لا ردّ بعد قتلها قصاصاً. الجواهر ٤٢: ٨٣. ومن ثمّ فالرواية عندنا غير مقبولة.

[٢/٤٤٥٥] وعن سعيد عن عوف عن الحسن، قال: لايقتل الرجل بالمرأة حتّى يعطوا نصف الدية.

[٢/٤٤٥٦] وعن سماك عن الشعبي، قال في رجل قتل امرأته عمداً، فأتوا به عليّاً، فقال: «إن شئتم فاقتلوه، وردّوا فضل دية الرجل على دية المرأة».

وقال آخرون: بل نزلت هذه الآية في حال ما نزلت والقوم لايقتلون الرجل بالمرأة، ولكنّهم كانوا يقتلون الرجل بالرجل والمرأة بالمرأة، حتّى سوّى الله بين حكم جميعهم بقوله: ﴿وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ﴾(١) فجعل جميعهم قود بعضهم ببعض. ذكر من قال ذلك:

[٢/٤٤٥٧] فقد روى أبو صالح، عن معاوية بن صالح، عن عليّ بن أبي طلحة، عن ابن عبّاس قوله: ﴿وَالْأُنثَى بِالْأُنثَى﴾ وذلك أنّهم كانوا لايقتلون الرجل بالمرأة، ولكن يقتلون الرجل بالرجل والمرأة بالمرأة، فأنزل الله تعالى: ﴿النَّفْسَ بِالنَّفْسِ﴾(٢) فجعل الأحرار في القصاص، سواء فيما بينهم في العمد رجالهم ونساؤهم في النفس وما دون النفس، وجعل العبيد مستوين فيما بينهم في العمد في النفس وما دون النفس، رجالهم ونساؤهم.

وقال أبو جعفر: فإذ كان مختلفاً الاختلاف الّذي وصفتُ فيما نزلت فيه هذه الآية، فالواجب علينا استعمالها فيما دلّت عليه من الحكم، بالخبر القاطع العذر. وقد تظاهرت الأخبار عن رسول الله ﷺ بالنقل العامّ أنّ نفس الرجل الحرّ قود قصاصاً بنفس المرأة الحرّة. فإذ كان ذلك كذلك، وكانت الأمّة مختلفة في التراجع بفضل ما بين دية الرجل والمرأة على ما قد بيّنّا من قول عليّ وغيره، وكان واضحاً فساد قول من قال بالقصاص في ذلك، والتراجع بفضل ما بين الديتين، بإجماع جميع أهل الإسلام، على أنّ حراماً على الرجل أن يتلف من جسده عضواً بعوض يأخذه على إتلافه، فدع جميعه، وعلى أنّ حراماً على غيره إتلاف شيء منه مثل الّذي حرم من ذلك بعوض يعطيه عليه، فالواجب أن تكون نفس الرجل الحرّ بنفس المرأة الحرّة قوداً، وإذا كان ذلك كذلك كان بيّناً بذلك أنّه لم يرد بقوله تعالى ذكره: ﴿الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأُنثَى بِالْأُنثَى﴾ أن لايقاد العبد بالحرّ، وأن لاتقتل الأنثى بالذكر، ولا الذكر بالأنثى. وإذا كان ذلك كذلك كان بيّناً أنّ الآية معنيّ بها أحد المعنيين الآخرين: إمّا قولنا من أن لايتعدّى بالقصاص إلى غير القاتل والجاني،

---

(١) المائدة ٥: ٤٥.
(٢) المائدة ٥: ٤٥.

فيؤخذ بالأنثى الذكر، وبالعبدِ الحرّ. وإمّا القول الآخر، وهو أن تكون الآية نزلت في قوم بأعيانهم خاصّة، أُمر النبيّ ﷺ أن يجعل ديات قتلاهم قصاصاً بعضها من بعض، كما قاله السدّي ومن ذكرنا قوله. وقد أجمع الجميع لاخلاف بينهم على أنّ المقاصّة في الحقوق غير واجبة، وأجمعوا على أنّ الله لم يقض في ذلك قضاء ثمّ نسخه، وإذا كان كذلك وكان قوله تعالى ذكره: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ﴾ ينبيء عن أنّه فرض كان معلوماً أنّ القول خلاف ما قاله قائل هذه المقالة، لأنّ ما كان فرضاً على أهل الحقوق أن يفعلوه، فلاخيار لهم فيه والجميع مجمعون على أنّ لأهل الحقوق الخيار في مقاصّتهم حقوقهم بعضها من بعض. فإذا تبيّن فساد هذا الوجه الّذي ذكرنا، فالصحيح من القول في ذلك هو ماقلنا!

فإن قال قائل ـ إذ ذكرت أنّ معنى قوله: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ﴾ بمعنى: فرض عليكم القِصاص ـ: لايعرف لقول القائل «كُتب» معنى إلّا معنى خط ذلك فرسم خطاً وكتاباً، فما برهانك على أنّ معنى قوله: «كتب» فرض؟ قيل: إنّ ذلك في كلام العرب موجود، وفي أشعارهم مستفيض، ومنه قول الشاعر[١]:

كُتبَ القتلُ والقتالُ علينا وعَلى المُحصناتِ جرُّ الذيولِ[٢]

وقول نابغة بني جعدة:

يا بنت عَمّي كتابُ الله أخرَجَني عنكم فهل أمنعَنَّ اللهَ ما فعلا[٣]

وذلك أكثر في أشعارهم وكلامهم من أن يحصى. غير أنّ ذلك وإن كان بمعنى فرض، فإنّه

---

(١) هو عمر بن أبي ربيعة، والبيت في ديوانه (ص ٤٦٤ ـ طبع القاهرة، السعادة) من ثلاثة أبيات هي:

إنّ من أعظم الكبائر عندي قتل حسناء غادة عُطبول

قُتلت باطلاً على غير ذنب إنّ لله درّها من قتيل

كتب القتل والقتال علينا وعلى المحصّنات جرُّ الذيول

(٢) المحصنات: النساء المتزوّجات.

(٣) البيت في اللسان (مادّة كتب) أورده شاهداً على أنّ الكتاب بمعنى الفرض، كما استشهد به المؤلّف. وفيه «يا ابنة» مكان «يا بنت».

عندي مأخوذ من الكتاب الّذي هو رسم وخطّ، وذلك أنّ الله تعالى ذكره قد كتب جميع ما فرض على عباده وما هم عاملوه في اللوح المحفوظ، فقال تعالى ذكره في القرآن: ﴿بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَجِيدٌ. فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ﴾(١) وقال: ﴿إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ. فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ﴾(٢) فقد تبيّن بذلك أنّ كلّ ما فرضه علينا ففي اللوح المحفوظ مكتوب.

فمعنى قوله ـ إذْ كان ذلك كذلك ـ: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ﴾: كتب عليكم في اللوح المحفوظ القصاص في القتلى فرضاً أن لاتقتلوا بالمقتول غير قاتله.

وأمّا القصاص فإنّه من قول القائل: قاصصت فلاناً حقيٍّ قِبَله من حقّه قِبَلي، قصاصاً ومقاصّةً فقتل القاتل بالذي قتله قصاص، لأنّه مفعول به، مثل الّذي فعل بمن قتله، وإن كان أحد الفعلين عدواناً والآخر حقّاً، فهما وإن اختلفا من هذا الوجه، فهما متّفقان في أنّ كلّ واحد قد فعل بصاحبه مثل الّذي فعل صاحبه به، وجعل فعل وليّ القتيل الأوّل إذا قتل قاتل وليّه قصاصاً، إذ كان بسبب قتله استحقّ قتل من قتله، فكأنّ وليّه المقتول هو الّذي ولّي قتل قاتله فاقتصّ منه.

وأمّا القتلى، فإنّها جمع قتيل، كما الصرعى جمع صريع، والجرحى جمع جريح. وإنّما يجمع الفعيل على الفعلى، إذا كان صفة للموصوف به بمعنى الزمانة والضرر الّذي لا يقدر معه صاحبه على البراح من موضعه ومصرعه، نحو القتلى في معاركهم، والصرعى في مواضعهم، والجرحى وما أشبه ذلك.

فتأويل الكلام إذن: فُرض عليكم أيّها المؤمنون القصاص في القتلى أن يقتصّ الحرّ بالحرّ، والعبد بالعبد، والأنثى بالأنثى. ثمّ ترك ذكر «أن يقتصّ» اكتفاء بدلالة قوله: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ﴾ عليه.

* * *

وقال في تأويل قوله تعالى: ﴿فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ﴾: اختلف أهل التأويل في ذلك، فقال بعضهم: تأويله: فمن ترك له من القتل ظلماً من الواجب كان لأخيه عليه من القصاص، وهو الشيء الّذي قال الله: ﴿فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتِّبَاعٌ﴾ من العافي

(١) البروج ٨٥: ٢١، ٢٢.

(٢) الواقعة ٥٦: ٧٧ و ٧٨.

للقاتل بالواجب له قِبَله من الدية، وأداء من المعفوّ عنه ذلك إليه بإحسان. ذكر من قال ذلك:

[٤٤٥٨/٢] فقد روى أحمد بن حمّاد الدولابي، قال: حدّثنا سفيان بن عيينة عن عمرو عن مجاهد عن ابن عبّاس: ﴿فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ﴾ فالعفو أن يقبل الدية في العمد، واتّباع بالمعروف أن يطلب هذا بمعروف ويؤدّي هذا بإحسان.

[٤٤٥٩/٢] وبالإسناد إلى جابربن زيد، عن ابن عبّاس أنّه قال في قوله: ﴿فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ﴾: هو العمد يرضى أهله بالدية ﴿فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ﴾ أمر به الطالب ﴿وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ﴾ من المطلوب.

[٤٤٦٠/٢] وعن محمّد بن عليّ بن الحسن بن سفيان بالإسناد إلى مجاهد، عن ابن عبّاس، قال: الّذي يقبل الدية، ذلك منه عفو، واتّباع بالمعروف، ويؤدّي إليه الّذي عفي له من أخيه بإحسان.

[٤٤٦١/٢] وعن محمّد بن سعد بالإسناد إلى ابن عبّاس قوله: ﴿فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ﴾ وهي الدية أن يحسن الطالب الطلب ﴿وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ﴾ وهو أن يحسن المطلوب الأداء.

[٤٤٦٢/٢] وعن محمّد بن عمرو بالإسناد إلى مجاهد: ﴿فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ﴾ والعفوّ الّذي يعفو عن الدم، ويأخذ الدية.

[٤٤٦٣/٢] وعن سفيان عن ابن أبي نجيح عن مجاهد: ﴿فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ﴾ قال: الدية.

[٤٤٦٤/٢] وعن ابن وكيع، بالإسناد إلى الحسن: ﴿وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ﴾ قال: على هذا الطالب أن يطلب بالمعروف، وعلى هذا المطلوب أن يؤدّي بإحسان.

[٤٤٦٥/٢] وعن المثنّى، بالإسناد إلى مجاهد: ﴿فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ﴾ والعَفُوٌّ: الّذي يعفو عن الدم، ويأخذ الدية.

[٤٤٦٦/٢] وعن حمّاد عن داوود بن أبي هند عن الشعبي في قوله: ﴿فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ﴾ قال: هو العمد يرضى أهله بالدية.

[٤٤٦٧/٢] وعن بشر بن معاذ، عن يزيد، قال: حدّثنا سعيد عن قتادة قوله: ﴿فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ﴾ يقول: قتل عمداً فعفي عنه، وقبلت منه الدية، يقول:

﴿فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ﴾ فأمر المتّبع أن يتّبع بالمعروف، وأمر المؤدّي أن يؤدّي بإحسان، والعمد قود إليه قصاص، لا عَقْل[1] فيه إلّا أن يرضوا بالدية، فإن رضوا بالدية فمائة خَلِفة[2]. فإن قالوا: لانرضى إلّا بكذا وكذا؛ فذاك لهم.

[٤٤٦٨/٢] وعن الحسن بن يحيى، قال: أخبرنا عبدالرزّاق، قال: أخبرنا معمر، عن قتادة في قوله: ﴿فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ﴾ قال: يتّبع به الطالب بالمعروف، ويؤدّي المطلوب بإحسان.

[٤٤٦٩/٢] وعن عمّار، عن ابن أبي جعفر، عن أبيه، عن الربيع في قوله: ﴿فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ﴾ يقول: فمن قتل عمداً فعفي عنه وأخذت منه الدية، يقول: ﴿فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ﴾: أمر صاحب الدية الّتي يأخذها أن يتّبع بالمعروف، وأمر المؤدّي أن يؤدّي بإحسان.

[٤٤٧٠/٢] وعن القاسم، بالإسناد إلى ابن جُريج، قال: قلت لعطاء قوله: ﴿فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ﴾ قال: ذلك إذا أخذ الدية فهو عفو.

[٤٤٧١/٢] وعن الحسن، قال: حدّثني حجاج، عن ابن جُريج، قال: أخبرني القاسم بن أبي بزّة، عن مجاهد قال: إذا قبل الدية فقد عفا عن القصاص، فذلك قوله: ﴿فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ﴾. قال ابن جُريج: وأخبرني الأعرج عن مجاهد مثل ذلك، وزاد فيه: فإذا قبل الدية فإنّ عليه أن يتّبع بالمعروف، وعلى الّذي عُفي عنه أن يؤدّي بإحسان.

[٤٤٧٢/٢] وعن أبي عقيل؛ قال: قال الحسن: أخذ الدية عفو حسن.

[٤٤٧٣/٢] وعن ابن زيد: ﴿وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ﴾ قال: أنت أيّها المعفوّ عنه.

[٤٤٧٤/٢] وعن محمّد بن سعد، بالإسناد إلى ابن عبّاس قوله: ﴿فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ﴾ وقال: وهو الدية أن يُحسن الطالب، وأداء إليه بإحسان: هو أن يُحسن المطلوب الأداء.

---

(١) العقل: الدية.

(٢) الخلفة: الحامل من النوق.

وقال آخرون: معنى قوله: ﴿فَمَنْ عُفِيَ﴾ فمن فَضُل له فَضْل وبقيت له بقيّة. وقالوا: معنى قوله ﴿مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ﴾ من دية أخيه شيء، أو من أَرْش[1] جراحته، فاتّباع من القاتل أو الجارح الّذي بقي ذلك قبله بمعروف، وأداء من القاتل أو الجارح إليه ما بقي قبله له من ذلك بإحسان.

وهذا قول من زعم أنّ الآية نزلت في الّذين تحاربوا على عهد رسول الله ﷺ، فأمر رسول الله ﷺ أن يصلح بينهم فيقاصّ ديات بعضهم من بعض، ويردّ بعضهم على بعض بفضل، إن بقي لهم قبل الآخرين. وأحسب أن قائلي هذا القول وجّهوا تأويل العفو في هذا الموضع إلى الكثرة من قول الله تعالى ذكره: ﴿حتّى عَفَوْا﴾[2]، فكان معنى الكلام عندهم: فمن كثر له قِبَل أخيه القاتل! ذكر من قال ذلك:

[٤٤٧٥/٢] فقد روى موسى بن هارون، عن عمرو بن حمّاد، عن أسباط، عن السدّي: ﴿فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ﴾ يقول: بقي له من دية أخيه شيء أو من أرش جراحته، فليتّبع بمعروف، وليؤدّ الآخر إليه بإحسان.

* * *

قال أبو جعفر: والواجب على تأويل القول الّذي روينا عن عليّ والحسن ـ في قوله: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ﴾ أنّه بمعنى مقاصّة دية النفس الذَكَر من دية النفس الأنثى، والعبد من الحرّ، والتراجع بفضل ما بين ديتي أنفسهما ـ أن يكون معنى قوله: ﴿فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ﴾: فمن عفي له من الواجب لأخيه عليه من قصاص دية أحدهما بدية نفس الآخر إلى الرضى بدية نفس المقتول، فاتّباع من الوليّ بالمعروف، وأداء من القاتل إليه ذلك بإحسان.

وقال: وأولى الأقوال عندي بالصواب في قوله: ﴿فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ﴾: فمن صفح له من الواجب كان لأخيه عليه من القود عن شيء من الواجب على دية يأخذها منه، فاتّباع بالمعروف من العافي عن الدم الراضي بالدية من دم وليّه، وأداء إليه من القاتل ذلك بإحسان؛ لما قد بيّنّا من العلل فيما مضى قبلُ من أنّ معنى قول الله تعالى ذكره: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ﴾ إنّما هو القصاص من

---

(١) الأرش: دية الجنايات والجراحات.

(٢) الأعراف، ٧: ٩٥.

النفوس القاتلة أو الجارحة والشاجّة عمداً، كذلك العفو أيضاً عن ذلك.

وأمّا معنى قوله: ﴿فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ﴾ فإنّه يعني: فاتّباع على ما أوجبه الله له من الحقّ قِبَل قاتل وليّه، من غير أن يزداد عليه ما ليس له عليه، في أسنان الفرائض أو غير ذلك، أو يكلّفه ما لم يوجبه الله له عليه. كما:

[٤٤٧٦/٢] روى بشر بن معاذ، عن يزيد، عن سعيد، عن قتادة، قال: بلغنا عن نبيّ الله ﷺ أنّه قال: «مَن زاد أو ازداد بعيراً» يعني في إبل الديات وفرائضها «فمن أمر الجاهلية».

وأمّا إحسان الآخر في الأداء، فهو أداء ما لزمه بقتله لوليّ القتيل على ما ألزمه الله وأوجبه عليه من غير أن يبخسه حقّاً له قِبَله بسبب ذلك، أو يُحوجه إلى اقتضاء ومطالبة.

فإن قال لنا قائل: وكيف قيل: ﴿فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ﴾ ولم يقل: فاتّباعاً بالمعروف وأداءً إليه بإحسان، كما قال: ﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ﴾[1]؟ قيل: لو كان التنزيل جاء بالنصب، وكان: فاتّباعاً بالمعروف وأداءً إليه بإحسان، كان جائزاً في العربيّة صحيحاً على وجه الأمر، كما يقال: ضرباً ضرباً، وإذا لقيت فلاناً فتبجيلاً وتعظيماً، غير أنّه جاء رفعاً، وهو أفصح في كلام العرب من نصبه، وكذلك ذلك في كلّ ما كان نظيراً له ممّا يكون فرضاً عامّاً فيمن قد فعل وفيمن لم يفعل إذا فعل، لاندباً وحَتّاً. ورفعه على معنى: فمن عفي له من أخيه شيء فالأمر فيه اتّباع بالمعروف، وأداء إليه بإحسان، أو فالقضاء والحكم فيه اتّباع بالمعروف. وقد قال بعض أهل العربيّة: رفع ذلك على معنى: فمن عفي له من أخيه شيء فعليه اتّباع بالمعروف. وهذا مذهبي، والأوّل الّذي قلناه هو وجه الكلام، وكذلك كلّ ما كان من نظائر ذلك في القرآن فإنّ رفعه على الوجه الّذي قلناه، وذلك مثل قوله: ﴿وَمَنْ قَتَلَهُ مِنْكُمْ مُتَعَمِّداً فَجَزَاءٌ مِثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ﴾[2] وقوله: ﴿فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ﴾[3].

وأمّا قوله: ﴿فَضَرْبَ الرِّقَابِ﴾ فإنّ الصواب فيه النصب، وهو وجه الكلام؛ لأنّه على وجه الحث من الله ـ تعالى ذكرُه ـ عبادَه على القتل عند لقاء العدوّ، كما يقال: إذا لقيتم العدوّ فتكبيراً وتهليلاً،

---

(١) محمّد ٤٧: ٤.
(٢) المائدة ٥: ٩٥.
(٣) البقرة ٢: ٢٢٩.

على وجه الحضّ على التكبير لا على وجه الإيجاب والإلزام.

وقال ـ في تأويل قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ تَخْفِيفٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ﴾ ـ: يعني بقوله ذلك: هذا الّذي حكمتُ به وسننته لكم من إباحتي لكم أيّتها الأمّة العفو عن القصاص من قاتل قتيلكم على دية تأخذونها فتملكونها ملككم سائر أموالكم الّتي كنتُ منعتها مَن قبلكم من الأمم السالفة، ﴿تَخْفِيفٌ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ يقول: تخفيف منّي لكم ممّا كنت ثقّلته على غيركم بتحريم ذلك عليهم، ورحمة منّي لكم. كما:

[٤٤٧٧/٢] روى أبو كريب وأحمد بن حمّاد الدولابي، قالا: حدّثنا سفيان عن عمرو بن دينار عن مجاهد عن ابن عبّاس، قال: كان في بني إسرائيل القصاصُ ولم تكن فيهم الدية، فقال الله في هذه الآية: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى الْحُرُّ بِالْحُرِّ﴾ إلى قوله: ﴿فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ﴾ فالعفو أن يقبل الدية في العمد، ﴿ذَٰلِكَ تَخْفِيفٌ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ يقول: خفّف عنكم ما كان على من كان قبلكم، أن يطلب هذا بمعروف، ويؤدّي هذا بإحسان[1].

[٤٤٧٨/٢] وروى محمّد بن عليّ بن الحسن بن شقيق، بالإسناد إلى ابن عبّاس، قال: كان من قبلكم يقتلون القاتل بالقتيل لا تقبل منهم الدية، فأنزل الله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى الْحُرُّ بِالْحُرِّ﴾ إلى آخر الآية؛ ﴿ذَٰلِكَ تَخْفِيفٌ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ يقول: خفّف عنكم، وكان على من قبلكم أنّ الدية لم تكن تُقبل، فالذي يقبل الدية ذلك منه عفو.

[٤٤٧٩/٢] وروى المثنّى بالإسناد إلى جابر بن زيد عن ابن عبّاس: ﴿ذَٰلِكَ تَخْفِيفٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَرَحمةٌ﴾ ممّا كان على بني إسرائيل، يعني من تحريم الدية عليهم.

[٤٤٨٠/٢] وعن ابن أبي نجيح عن مجاهد، عن ابن عبّاس قال: كان على بني إسرائيل قصاص في القتل ليس بينهم دية في نفس ولا جرح، وذلك قول الله: ﴿وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ﴾[2] الآية كلّها. وخفّف الله عن أمّة محمّد ﷺ فقبل منهم الدية في النفس وفي الجراحة، وذلك قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ تَخْفِيفٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَرَحمةٌ﴾ بينكم.

---

(١) رواه البخاري في تفسير سورة البقرة باب ٢، والديات باب ٨. والنسائي في القسامة باب ٢٨. وقد قدّمنا ذلك عن كتاب تلخيص التلمود: ٣١٩ ـ ٣٢٢.

(٢) المائدة ٥: ٤٥.

[٤٤٨١/٢] وعن قتادة قوله: ﴿ذَٰلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ﴾ وإنّما هي رحمة رحم الله بها هذه الأمّة أطعمهم الدية وأحلّها لهم، ولم تحلّ لأحد قبلهم. فكان أهل التوراة إنّما هو القصاص أو العفو، وليس بينهما أرش. وكان أهل الإنجيل إنّما هو عفو أُمروا به، فجعل الله لهذه الأمّة القود والعفو والدية ـ إن شاؤوا ـ أحلّها لهم ولم تكن لأمّة قبلهم.

وأمّا على قول من قال: القصاص في هذه الآية معناه: قصاص الديات بعضها من بعض على ما قاله السدّي، فإنّه ينبغي أن يكون تأويله: هذا الّذي فعلتُ بكم أيّها المؤمنون من قصاص ديات قتلى بعضكم بديات بعض وترك إيجاب القود على الباقين منكم بقتيله الّذي قتله وأخذه بديته، تخفيف منّي عنكم ثقل ما كان عليكم من حكمي عليكم بالقود أو الدية ورحمة منّي لكم.

* * *

وقال ـ في تأويل قوله تعالى: ﴿فَمَنِ اعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ ـ: يعني تعالى ذكره بقوله: ﴿فَمَنِ اعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ﴾ فمن تجاوز ما جعله الله له بعد أخذه الدية اعتداءً وظلماً إلى ما لم يجعل له من قتل قاتل وليّه وسفك دمه، فله بفعله ذلك وتعدّيه إلى ما قد حرّمتهُ عليه عذاب أليم. وقد بيّنتُ معنى الاعتداء فيما مضى بما أغنى عن إعادته[1]. وبنحو الّذي قلنا في ذلك قال أهل التأويل. ذكر من قال ذلك:

[٤٤٨٢/٢] روى محمّد بن عمرو عن أبي عاصم عن عيسى، عن ابن أبي نُجيح عن مجاهد: ﴿فَمَنِ اعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ﴾ فقتل ﴿فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

[٤٤٨٣/٢] وعن سعيد عن قتادة قوله: ﴿فَمَنِ اعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ يقول: فمن اعتدى بعد أخذه الدية فقتل، فله عذاب أليم. قال: وذُكر لنا أنّ رسول الله ﷺ كان يقول: «لا أُعافي رجلاً قتل بعد أخذه الدية»[2].

[٤٤٨٤/٢] وعن عبدالرزّاق عن معمر عن قتادة في قوله: ﴿فَمَنِ اعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ﴾ قال: هو القتل

---

(١) انظر ما قاله في تفسير قوله تعالى: ﴿تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِم بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾ الآية ٨٥ من سورة البقرة.

(٢) هذا الحديث مرسل عن قتادة. ورواه أبو داوود مرفوعاً عن جابر بن عبدالله في الديات باب ٥. وأحمد في المسند (٣: ٣٦٣) بلفظ: «لا أُعفي من قتل بعد أخذه الدية».

بعد أخذ الدية، يقول: من قتل بعد أن يأخذ الدية فعليه القتل، لا تُقبل منه الدية.

[٢/٤٤٨٥] وعن الحسن، قال: كان الرجل إذا قَتَل قتيلاً في الجاهليّة فرّ إلى قومه، فيجيء قومه فيصالحون عنه بالدية. قال: فيخرج الفارّ وقد أمن على نفسه. قال: فيُقتل ثمّ يُرمى إليه بالدية، فذلك الاعتداء!

[٢/٤٤٨٦] وأيضاً عنه قال: القاتل إذا طُلب فلم يقدر عليه وأخذ من أوليائه الدية ثمّ أمن فأخذ فقتل، كان ما أكل عدواناً.

[٢/٤٤٨٧] وعن هارون بن سليمان، قال: قلت لعكرمة: من قتل بعد أخذه الدية؟ قال: إذن يقتل، أما سمعت الله يقول: ﴿فَمَنِ اعْتَدَى بَعْدَ ذَٰلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

* * *

وقال أبو جعفر: واختلفوا في معنى العذاب الأليم الّذي جعله الله لمن اعتدى بعد أخذه الدية من قاتل وليّه، فقال بعضهم: ذلك العذاب هو القتل بمن قتله بعد أخذ الدية منه وعفوه عن القصاص منه بدم وليّه. ذكر من قال ذلك:

[٢/٤٤٨٨] روى يعقوب بن إبراهيم الدورقي بالإسناد إلى الضحّاك في قوله: ﴿فَمَنِ اعْتَدَى بَعْدَ ذَٰلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ قال: يقتل، وهو العذاب الأليم، يقول: العذاب الموجع.

[٢/٤٤٨٩] وعن عكرمة: ﴿فَمَنِ اعْتَدَى بَعْدَ ذَٰلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ قال: القتل.

وقال بعضهم: ذلك العذاب عقوبة يعاقبه بها السلطان على قدر ما يرى من عقوبته. ذكر من قال ذلك:

[٢/٤٤٩٠] روى القاسم بن الحسن عن الحسين عن حجّاج، قال: قال ابن جريج: أخبرني إسماعيل بن أميّة، عن الليث ـ غير أنّه لم ينسبه، وقال: ثقة ـ: أنّ النبيّ ﷺ أوجب بقسم أو غيره أن لا يُعفى عن رجل عفا عن الدم وأخذ الدية ثمّ عدا فقتل.

[٢/٤٤٩١] وقال ابن جُريج: وأخبرني عبدالعزيز بن عمر بن عبد العزيز، قال: في كتاب لعمر عن النبيّ ﷺ قال: «والاعتداء» الّذي ذكر الله، أنّ الرجل يأخذ العقل أو يقتصّ، أو يقضي السلطان فيما بين الجراح، ثمّ يعتدي بعضهم من بعد أن يستوعب حقّه، فمن فعل ذلك فقد اعتدى، والحكم فيه

إلى السلطان بالذي يرى فيه من العقوبة . قال : ولو عفا عنه لم يكن لأحد من طلبة الحقّ أن يعفو ، لأنّ هذا من الأمر الّذي أنزل الله فيه قوله : ﴿فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللهِ وَالرَّسُولِ وَأُوْلِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾[1] .

[٤٤٩٢/٢] وعن الحسن في رجل قتل فأخذت منه الدية ، ثمّ إن وليّه قتل به القاتل ، قال الحسن : تؤخذ منه الدية الّتي أخذ ولا يقتل به .

قال أبو جعفر: وأولى التأويلين بقوله : ﴿فَمَنِ اعْتَدَى بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ تأويل من قال : فمن اعتدى بعد أخذه الدية ، فقتل قاتل وليّه ، فله عذاب أليم في عاجل الدنيا وهو القتل ؛ لأنّ الله تعالى جعل لكلّ وليّ قتيل قُتل ظلماً سلطاناً على قاتل وليّه ، فقال تعالى ذكره : ﴿وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُوماً فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَاناً فَلَا يُسْرِفْ فِي الْقَتْلِ﴾[2] . فإذ كان ذلك كذلك وكان الجميع من أهل العلم مجمعين على أنّ من قتل قاتل وليّه بعد عفوه عنه وأخذه منه دية قتيله أنّه بقتله إيّاه له ظالم في قتله ، كان بيّناً أن لا يولّي من قتله ظلماً كذلك السلطان عليه في القصاص والعفو وأخذ الدية ، أيّ ذلك شاء . وإذا كان ذلك كذلك كان معلوماً أنّ ذلك عذابه ، لأنّ من أقيم عليه حدّه في الدنيا كان ذلك عقوبته من ذنبه ولم يكن به متّبعاً في الآخرة ، على ما قد ثبت به الخبر عن رسول الله ﷺ[3] .

وأمّا ما قاله ابن جريج من أنّ حكم من قتل قاتل وليّه بعد عفوه عنه وأخذه دية وليّه المقتول إلى الإمام دون أولياء المقتول ، فقول خلاف لما دلّ عليه ظاهر كتاب الله وأجمع عليه علماء الأمّة . وذلك أنّ الله جعل لوليّ كلّ مقتول ظلماً السلطان دون غيره من غير أن يخصّ من ذلك قتيلاً دون قتيل ، فسواء كان ذلك قتيل ولي من قتله أو غيره . ومن خصّ من ذلك شيئاً سئل البرهان عليه من

---

(١) النساء ٤: ٥٩.　(٢) الإسراء ١٧: ٣٣.

(٣) كالّذي رواه الإمام أحمد في المسند (٥: ٣٢٣) عن عبادة بن الصامت قال: «كنت فيمن حضر العقبة الأُولى وكنّا اثني عشر رجلاً، فبايعنا رسول الله ﷺ على بيعة النساء وذلك قبل أن يفترض الحرب؛ على أن لانشرك بالله شيئاً ولا نسرق ولا نزني ولا نقتل أولادنا ولا نأتي ببهتان نفتريه بين أيدينا وأرجلنا ولا نعصيه في معروف، فإن وفيتم فلكم الجنّة، وإن غشيتم في ذلك شيئاً فأمركم إلى الله إن شاء عذّبكم وإن شاء غفر لكم». ورواه بنحوه البخاري في الحدود باب ١٤، ومناقب الأنصار باب ٤٣، والإيمان باب ١١، والأحكام باب ٤٩، والتوحيد باب ٣١. والنسائي في البيعة باب ٩ و ١٧ و ١٨. ومالك في البيعة حديث ٢.

أصل أو نظير وعكس عليه القول فيه، ثمّ لن يقول في شيء من ذلك قولاً إلّا ألزم في الآخر مثله. ثمّ في إجماع الحجّة على خلافه ما قاله في ذلك مكتفى في الاستشهاد على فساده بغيره.

* * *

وقال ـ في تأويل قوله تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُوْلِي الأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ ـ: يعني ـ تعالى ذكره ـ بقوله: ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُوْلِي الأَلْبَابِ﴾: ولكم يا أولي العقول فيما فرضتُ عليكم وأوجبتُ لبعضكم على بعض من القصاص في النفوس والجراح والشجاج ما منع به بعضكم من قتل بعض وقَدَعَ[1] بعضكم عن بعض فحييتم بذلك فكان لكم في حكمي بينكم بذلك حياة.

واختلف أهل التأويل في معنى ذلك، فقال بعضهم في ذلك نحو الّذي قلنا فيه. ذكر من قال ذلك:

[٤٤٩٣/٢] روى ابن أبي نجيح، عن مجاهد في قوله: ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُوْلِي الأَلْبَابِ﴾ قال: نكالٌ، تناهٍ.

[٤٤٩٤/٢] وكذا عن قتادة: ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ﴾ قال: جعل الله هذا القصاص حياة ونكالاً وعظة لأهل السفه والجهل من الناس. وكم من رجل قد همّ بداهيةٍ لولا مخافة القصاص لوقع بها، ولكنّ الله حجز بالقصاص بعضهم عن بعض. وما أمر الله بأمر قطّ إلّا وهو أمر صلاح في الدنيا والآخرة ولا نهى الله عن أمر قطّ إلّا وهو أمر فساد في الدنيا والدين، والله أعلم بالّذي يصلح خلقه.

[٤٤٩٥/٢] وعنه أيضاً قال: قد جعل الله في القصاص حياة، إذا ذكره الظالم المتعدّي كفّ عن القتل.

[٤٤٩٦/٢] وعن الربيع قوله: ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ﴾ الآية، يقول: جعل الله هذا القصاص حياة وعبرة لكم، كم من رجل قد همّ بداهية فمنعه مخافة القصاص أن يقع بها، وإن الله قد حجز عباده بعضهم عن بعضٍ بالقصاص.

[٤٤٩٧/٢] وقال ابن جريج: حياة: منعة.

[٤٤٩٨/٢] وقال ابن زيد حياة: بقية[2]؛ إذا خاف هذا أن يقتل بي كفّ عنّي، لعلّه يكون عدوّاً لي يريد قتلي، فيتذكّر أن يقتل في القصاص، فيخشى أن يقتل بي، فيكفّ بالقصاص الّذي خاف أن

---

(١) قَدَع: كفّ. (٢) بقية: إبقاء.

يقتل؛ لولا ذلك قتل هذا.

وقال آخرون: معنى ذلك: ولكم في القصاص من القاتل بقاء لغيره، لأنّه لا يقتل بالمقتول غير قاتله في حكم الله. وكانوا في الجاهليّة يقتلون بالأنثى الذكر، وبالعبد الحرّ. ذكر من قال ذلك:

[٤٤٩٩/٢] روى موسى بن هارون عن عمرو بن حمّاد عن أسباط عن السدّي: ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ﴾ يقول: بقاء، لا يقتل إلّا القاتل بجنايته.

وتأويل قوله: ﴿يَا أُولِي الْأَلْبَابِ﴾: يا أولي العقول. والألباب جمع اللبّ، واللبّ العقل. وخصّ الله تعالى ذكره بالخطاب أهل العقول، لأنّهم هم الّذين يعقلون عن الله أمره ونهيه ويتدبّرون آياته وحججه دون غيرهم.

وتأويل قوله: ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ أي تتّقون القصاص فتنتهون عن القتل كما:

[٤٥٠٠/٢] روى ابن وهب عن ابن زيد، قال: لعلّك تتّقي أن تقتله فتُقتل به[١].

* * *

[٤٥٠١/٢] وأخرج الثعلبي عن الشعبي والكلبي وقتادة قالوا: نزلت هذه الآية في حيّين من أحياء العرب اقتتلوا في الجاهليّة قُبَيل الإسلام بقليل، وكانت بينهما قتلى وجراحات لم يأخذها بعضهم من بعض، حتّى جاء الإسلام. قال قتادة ومقاتل بن حيّان: كانت بين بني قُريظة وبني النضير[٢]. وقال سعيد بن جُبير: كانت بين الأوس والخزرج.. قالوا جميعاً: وكان لأحد الحيّين على الآخر طول في الكثرة والشرف، وكانوا ينكحون نساءهم بغير مهور[٣]. فأقسموا لنقتلنّ بالعبد منّا الحرّ منهم. وبالمرأة منّا الرجل منهم، وبالرجل منّا الرجلين منهم، وبالرجلين منّا أربعة رجال منهم. وجعلوا جراحاتهم ضعفي جراحات أولئك. فرفعوا أمرهم إلى النبي ﷺ فأنزل الله تعالى هذه الآية وأمر بالمساواة بينهم، فرضوا وسلّموا[٤].

---

(١) الطبري ٢: ١٣٩ ـ ١٥٧.

(٢) لاشأن لقبيلتين من اليهود (نكثا العهد مع رسول الله ﷺ فنفاهم وصادر أموالهم) في نزول آية تخصّ أحكام الإسلام. في حين أنّ الخطاب فيها أيضاً مع المؤمنين!

(٣) وهذا يبيّن أنّ الحيّين لم يكونا من الأنصار لا من الأوس ولا من الخزرج، بعد أن لم يعهد ذلك التفاضل بينهم في شيء.

(٤) البغوي ١: ٢٠٧؛ الثعلبي ٢: ٥٣؛ أبو الفتوح ٢: ٣٢٩.

[٤٥٠٢/٢] وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم، والبيهقي في سننه عن ابن عبّاس قال: كانوا لايقتلون الرجل بالمرأة، ولكن يقتلون الرجل بالرجل والمرأة بالمرأة، فأنزل الله: ﴿النفس بالنفس﴾. فجعل الأحرار في القصاص سواءً فيما بينهم في العهد رجالهم ونساؤهم، في النفس وما دون النفس. وجعل العبيد مستوين في العمد، في النفس وما دون النفس، رجالهم ونساؤهم[١].

[٤٥٠٣/٢] وروى الطبرسي صاحب كتاب الاحتجاج بإسناده إلى عليّ بن الحسين عليه السلام في تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ﴾ قال: ولكم يا أمّة محمّد في القصاص حياة، لأنّ من همّ بالقتل فعرف أنّه يقتصّ منه كفّ لذلك عن القتل، كان حياة للذي كان همّ بقتله، وحياة لهذا الجاني الّذي أراد أن يقتل، وحياة لغيرهما من الناس، إذ علموا أنّ القصاص واجب لايجسرون على القتل مخافة القصاص ﴿يَا أُوْلِي الأَلْبَابِ﴾ أولي العقول ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾[٢].

[٤٥٠٤/٢] وروى الكليني بالإسناد إلى الحلبي، عن أبي عبدالله عليه السلام، قال: «سألته عن قول الله عزّ وجلّ: ﴿فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ﴾، فقال: ينبغي للذي له الحقّ أن لايعسر أخاه إذا كان قد صالحه على دية، وينبغي للذي عليه الحقّ أن لايمطل أخاه إذا قدر على ما يعطيه، ويؤدّي إليه بإحسان. وسألته عن قول الله عزّ وجلّ: ﴿فَمَنِ اعْتَدَى بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾، فقال: هو الرجل يقبل الدية أو يعفو أو يصالح ثمّ يعتدي فيقتل ﴿فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ كما قال الله عزّ وجلّ»[٣].

[٤٥٠٥/٢] وروى أيضاً عنه عن أبي عبدالله عليه السلام، في قول الله عزّ وجلّ: «﴿فَمَنِ اعْتَدَى بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾، قال: الرجل يعفو أو يأخذ الدية ثمّ يجرح صاحبه أو يقتله ﴿فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾»[٤].

[٤٥٠٦/٢] وأخرج النسائي عن أبي سعيد الخُدري قال: بينا رسول الله صلى الله عليه وآله يقسّم شيئاً، أقبل رجل فأكبّ عليه، فطعنه رسول الله صلى الله عليه وآله بعرجون كان معه، فخرج الرجل، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله: تعال فاستقد! فقال: بل قد عفوت يا رسول الله![٥]

---

(١) الدرّ ٢: ١٥٣. (ط: هجر)؛ ابن أبي حاتم ١: ٢٩٤ / ١٥٧٨.

(٢) نورالثقلين ١: ١٥٨ / ٥٢٢؛ الاحتجاج ٢: ٥٠؛ البرهان ١: ٣٨٧ ـ ٣٨٨ / ١؛ البحار ٦٩: ٢٢٠ ـ ٢٢١ / ٧.

(٣) الكافي ٧: ٣٥٨ / ١.

(٤) الكافي ٧: ٣٥٩ / ٣؛ التهذيب ١٠: ١٧٨ / ٦٩٨ ـ ١٣؛ البرهان ١: ٣٨٦.

(٥) النسائي ٤: ٢٢٦ / ٦٩٧٥؛ القرطبي ٢: ٢٥٦ ـ ٢٥٧.

قال تعالى:

كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِنْ تَرَكَ خَيْراً الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ حَقّاً عَلَى الْمُتَّقِينَ ﴿١٨٠﴾ فَمَنْ بَدَّلَهُ بَعْدَ مَا سَمِعَهُ فَإِنَّمَا إِثْمُهُ عَلَى الَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُ إِنَّ اللهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٨١﴾ فَمَنْ خَافَ مِنْ مُوصٍ جَنَفاً أَوْ إِثْماً فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٨٢﴾

هنا وفي هذه الآيات جاء تشريع الوصيّة عند الموت فريضة، إن كان سيترك وراءه خيراً، وفُسّر بالثروة الطائلة.

والروايات في تفسير الخير هنا مختلفة، فقد جاء تفسيره بالمال، على إطلاقه:

[٤٥٠٧/٢] كما في الرواية عن أبي جعفر وأبي عبدالله عليهما السلام أنّهما قالا: «الخير هاهنا المال»[١].

وكذا عن ابن عبّاس[٢] ومجاهد[٣] وقتادة[٤]. والربيع[٥]. وعطاء[٦]. وعن أسباط عن السدّي[٧]. وغيرهم.

[٤٥٠٨/٢] وفسرّه الضحّاك بالمال الوفير. حيث قال أوّلاً: الخير المال. ثمّ استشهد بقول شعيب: ﴿إِنِّي أَرَاكُمْ بِخَيْرٍ﴾[٨]، قال: يعني الغنى.[٩]

[٤٥٠٩/٢] وروي عن الإمام أميرالمؤمنين عليه السلام «أنّه دخل على مولىً له في مرضه، وله سبعمأة درهم أو تسعمأة، فقال: ألا أوصي؟ فقال له الإمام: لا، إنّما قال الله سبحانه ﴿إن ترك خيراً﴾، وليس

(١) دعائم الإسلام ٢: ٣١٠ / ١١٦٩؛ مستدرك الوسائل ١٦: ١١.

(٢) الطبري ٢: ١٦٤ و ١٦٥؛ ابن أبي حاتم ١: ٢٩٩.

(٣) الطبري ٢: ١٦٤. قال مجاهد: الخير في القرآن كلّه المال: ﴿لحبّ الخير﴾ العاديات ١٠٠: ٨. ﴿أحببتُ حبّ الخير﴾ سورة ص ٣٨: ٣٢. ﴿إن علمتم فيهم خيراً﴾ النور ٢٤: ٣٣.

(٤) المصدر.

(٥) المصدر.

(٦) المصدر.

(٧) المصدر.

(٨) هود ١١: ٨٤.

(٩) الطبري ٢: ١٦٥.

لك كثير مال»[١].

[٢/٤٥١٠] وروي أنّه حضره رجلٌ مُقلٌّ، فقال: ألا أوصي ـ يا أمير المؤمنين؟ ـ فقال: «أوص بتقوى الله، وأمّا المال فدعه لورثتك، فإنّه طفيف يسير. وإنّما قال الله ـ عزّ وجلّ ـ: ﴿إن ترك خَيراً﴾ وأنت لم تترك خيراً توصي فيه»[٢].

[٢/٤٥١١] وأخرج عبد بن حميد عن ابن عبّاس ـ أيضاً ـ قال: من لم يترك ستّين ديناراً لم يترك خيراً[٣].

[٢/٤٥١٢] وأخرج سعيد بن منصور وابن أبي شيبة وابن المنذر والبيهقي عن عائشة. قال لها رجل: إنّي أريد أن أوصي! قالت: كم مالك؟ قال: ثلاثة آلاف. قالت: كم عيالك؟ قال: أربعة. قالت: قال الله: ﴿إن ترك خَيراً﴾ وهذا يسير فاتركه لعيالك فهو أفضل[٤].

[٢/٤٥١٣] وأخرج عبدالرزّاق وسعيد بن منصور والبيهقي عن ابن عبّاس قال: إن ترك الميّت سبعمائة درهم فلا يُوصي[٥].

[٢/٤٥١٤] وعن أبان بن إبراهيم النخعي في قوله تعالى: ﴿إِنْ تَرَكَ خَيْراً﴾ قال: ألف درهم إلى خمسمائة[٦].

[٢/٤٥١٥] وأخرج ابن جرير بالإسناد إلى همّام بن يحيى، عن قتادة في هذه الآية: ﴿إِنْ تَرَكَ خَيْراً الْوَصِيَّةُ﴾ قال: الخير: ألف فما فوقه[٧].

[٢/٤٥١٦] وروي عن طاووس قال: لم يترك خيراً من لم يترك ثمانين ديناراً[٨].

---

(١) عوالي اللئالي ٢: ١١٦ / ٣٢١؛ التبيان ٢: ١٠٩؛ مجمع البيان ١: ٤٩٣؛ أبو الفتوح ٢: ٣٤٢ ـ ٣٤٣.

(٢) دعائم الإسلام ٢: ٣٥٦ / ١٢٩٨؛ مستدرك الوسائل ١٤: ١٤١.

(٣) الدرّ ١: ٤٢٢؛ الوسيط ١: ٢٧٠؛ ابن كثير ١: ٢١٨.

(٤) سنن سعيد ٢: ٦٥٦ / ٢٤٨. قال: سنده صحيح؛ الثعلبي ٢: ٥٨، بلفظ عن أبي مليكة أنّ رجلاً قال لعائشة...، أبو الفتوح ٢: ٣٤٣؛ الدرّ ١: ٤٢٣.

(٥) سنن سعيد ٢: ٦٥٨ / ٢٥٠؛ أبو الفتوح ٢: ٣٤٣، بلفظ: ثمانمأة درهم؛ مجمع البيان ١: ٤٩٣، بلفظ: إلى ثمانمأة درهم.

(٦) الطبري ٢: ١٦٦ / ٢٢٠٥؛ عبدالرزّاق ١: ٣٠٨ / ١٧٧؛ التبيان ٢: ١٠٩.

(٧) الطبري ٢: ١٦٥.

(٨) ابن كثير ١: ٢١٨؛ الوسيط ١: ٢٧٠.

[٤٥١٧/٢] وأخرج ابن جرير عن عبدالله بن عُيينة ـ أو عتبة ، الشكّ من الطبري ـ : أنّ رجلاً أراد أن يوصي وله وُلد كثير ، وترك أربعمائة دينار! فقالت عائشة : ما أرى فيه فضلاً[١].

قوله تعالى: ﴿الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ﴾

والمعروف هو الّذي تألفه العقول ولاتنكره النفوس . فهو الأمر المحبوب المرضيّ لدى الجميع . وسمّي معروفاً لكثرة تداوله والتأنّس به وتعارفه بين الناس .

غير أنّ المراد بالمعروف هنا : العدل الّذي لامضارّة فيه ولا تفاضل فيما يوجب تحاسداً وتباغضاً بين الأقارب . ومن ثَمَّ فمن المستحسن في الوصيّة أن لاتكون لقصد الإضرار والامتهان بشأن زوج أو قريب من الأقرباء .

[٤٥١٨/٢] نعم روي عن الإمام أبي عبدالله الصادق عن آبائه عليهم السلام ، أنّ من لم يُوص عند موته لذوي قرابته ممّن لا يرثه ، فقد ختم عمله بمعصية[٢].

[٤٥١٩/٢] وأخرج ابن جرير عن الضحّاك أنّه كان يقول : من مات ولم يوصِ لذوي قرابته فقد ختم عمله بمعصية[٣].

[٤٥٢٠/٢] وروى محمّد بن قيس عن أبي جعفر عليه السلام قال : «من أوصىٰ بوصيّة لغير الوارث من صغير أو كبير بالمعروف غير المنكر فقد جازت وصيّته»[٤].

[٤٥٢١/٢] وأخرج عبدالرزّاق وعبد بن حميد عن قتادة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله : «أيّها الناس ابتاعوا أنفسكم من ربّكم ، ألا إنّه ليس لامرىء شيء ، ألا لا أعرفنَّ امرءاً بخل بحقّ الله فيه ، حتّى إذا حضره الموت أخذ يوزّع ماله هاهنا وهاهنا» ثمّ قال قتادة : ويلك يا ابن آدم كنت بخيلاً ممسكاً حتّى إذا حضرك الموت أخذت تُدَغْدِغُ مالك وتُفَرِّقه . يا ابن آدم اتّق الله ولاتجمع إساءتين في مالك ، إساءةً في الحياة وإساءةً عند الموت ، انظر إلى قرابتك الّذين يحتاجون ولا يرثون فأوص لهم

(١) الطبري ٢ : ١٦٦ / ٢٢٠٤ .

(٢) التهذيب ٩ : ١٧٤ ؛ الفقيه ٤ : ١٨٢ ؛ العيّاشيّ ١ : ٩٦ ؛ أبوالفتوح ٢ : ٣٤٤ ؛ البحار ١٠٠ : ٢٠٠ .

(٣) الطبري ٢ : ١٥٩ ؛ الثعلبي ٢ : ٥٧ .

(٤) البرهان ١ : ٣٨٩ / ٥ ؛ العيّاشيّ ١ : ٩٥ ـ ٩٦ / ١٦٦ .

من مالك بالمعروف[١].

[٤٥٢٢/٢] وأخرج ابن جرير عن مسروق: أنّه حضر رجلاً فوصّى بأشياء لاتنبغي، فقال له مسروق: إنّ الله قد قسم بينكم فأحسن القسم، وإنّه من يرغب برأيه عن رأي الله يضلّه، أوص لذي قرابتك ممّن لايرثك، ثمّ دع المال على ما قسمه الله عليه[٢].

* * *

قوله تعالى: ﴿حَقّاً عَلَى الْمُتَّقِينَ﴾ تأكيد لفرض الوصيّة بالمعروف، إذ كانت عادة العرب في الجاهليّة ـ ولاتزال اليوم وكذا عند غيرهم من أهل الجفاء ـ أنّ الميّت إذا كان له ولد أو أولاد ذكور، استأثروا بماله كلّه، بما يوجب حرمان الإناث، سواء الأولاد والأزواج، وحتّى إذا لم يكن له ولد ذكر استأثر بماله أقرب الذكور له من أب أو عمّ أو ابن عمّ الأدنين فالأدنين، وكان الميّت ربما أوصى ببعض ماله أو بجميعه لبعض أولاده أو قرابته أو أصدقائه، ليَحرِمَ الباقين فضل ماله.

ولمّا استقرّ المسلمون بدار الهجرة واختصّوا بجماعتهم، شرع الله لهم تشريك بعض القرابة في تركتهم، ممّن كانوا يُهمَلون توريثه أحياناً، أو لا يرثون، لأنّهم من الطبقات التالية[٣].

قد يقال: إنّ الآية بشأن فرض الوصيّة للوالدين والأقربين، أصبحت منسوخة بآية المواريث. ولقوله ﷺ: «لاوصيّة لوارث»[٤].

قال سيّد قطب: «أمّا الأقربون ـ ممّن لايرثون ـ فقد بقي النصّ بالقياس إليهم على عمومه. فمن ورّثته آيات الميراث فلا وصيّة له، ومن لم يرث بقي نصّ الوصيّة هنا يشمله. قال: هذا هو رأي بعض الصحابة والتابعين، نأخذ به»[٥].

قال الشيخ أبو جعفر الطوسي: فأمّا من قال: إنّ الآية منسوخة بآية الميراث، فقوله بعيد عن الصواب، لأنّ الشيء إنّما ينسخ غيره إذا لم يمكن الجمع بينهما، فأمّا إذا لم يكن بينهما تنافٍ ولا تضادّ، بل أمكن الجمع بينهما، فلا يجب حمل الآية على النسخ. ولا تنافي بين ذكر ما فرض الله للوالدين وغيرهم من الميراث، وبين الأمر بالوصيّة لهم على جهة الخصوص، فلم يجب حمل الآية

---

(١) الدرّ ١: ٤٢٣. (الدرّ ٢: ١٦٣، ط: هجر)؛ المصنّف لعبدالرزّاق / ١٦٣٦٨.

(٢) الطبري ٢: ١٥٩.

(٣) راجع: التحرير والتنوير لابن عاشور ٢: ١٤٥.

(٤) وسنتكلّم عن هذا الحديث.

(٥) في ظلال القرآن ٢: ٢٣٧.

على النسخ(١).

والإجماع على أنّ الوصيّة للوالدين والأقربين الوارثين ليست فرضاً ، لا يدلّ على نسخ الآية ، بل غايته الدلالة على أنّها ممّا فرضه الله ندباً مؤكّداً ، لأنّها غير مشروعة بعد فرض المواريث .

نعم لاتجوز ـ أي لاتنفذ ـ الوصيّة بما يزيد على الثلث ، وتبقى موقوفة على إذن الورثة ، فتؤدّى من حصّتهم إن رضوا، على ما يفصّله الفقهاء .

* * *

والوصيّة إلى مقدار الثلث نافذة ولايجوز لأحد تبديلها أو التحوير بمحتواها ، ﴿فَمَنْ بَدَّلَهُ بَعْدَ مَا سَمِعَهُ﴾ أي ثبتت عنده صحّة الوصيّة ﴿فَإِنَّمَا إِثْمُهُ﴾ أي المآثم الّتي تترتّب على هذا التبديل ﴿عَلَى الَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُ إِنَّ اللهَ سَمِيعٌ﴾ لأقوالكم ﴿عَلِيمٌ﴾ بنيّاتكم فهو الشهيد عليكم ليأخذكم في نهاية المطاف .

نعم سوى حالة واحدة يجوز للوصيّ أن لا ينفّذ الوصيّة ، وذلك إذا عرف أنّ الموصي إنّما قصد الإجحاف بشأن الورثة أو بعضهم ، فيحابي بعضاً وينكي بعضاً، لا لجهة فضيلة يقبلها الشرع والعقل ، بل لمجرّد هوى النفس وتسويلات الشيطان الخبيثة، فعند ذلك ـ وإذ قد ثبت ذلك بوضوح ـ فلا حرج في تعديل الوصيّة بما يتلافى به ذلك الجنف أي الحيف والميل عن جادّة الحقّ، وليردّ الأمر إلى العدل والنصف .

﴿فَمَنْ خَافَ مِنْ مُوصٍ جَنَفاً﴾ أي حيفاً وميلاً عن الحقّ ﴿أَوْ إِثْماً﴾ أي إضراراً بشأن ذي حقّ ﴿فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ﴾ أي أخذ بالتعادل ورعاية الحقّ ﴿فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ .

نظرة في حديث «لا وصيّة لوارث»

وأمّا حديث «لاوصيّة لوارث» فليس ممّا اتّفق عليه أصحاب الحديث . ولم يخرجه الشيخان (مسلم والبخاري) نظراً لوهن إسناده . كما وضعّفه الإمام الشافعي سوى ما يحكى عن أصحاب المغازي . فإنّه يرى إسناده من طُرُق أهل الحديث ضعيفاً لايصحّ الاعتماد عليه .

وأَجْمَعُ من نقد الحديث نقداً فنّيّاً هو الإمام الحافظ أحمدبن الحسين البيهقي في سننهالكبرى.

---

(١) التبيان ٢: ١٠٨.

[٤٥٢٣/٢] فقد أخرج الحديث بالإسناد إلى ابن جُريج عن عطاء[١] عن ابن عبّاس، قال: قال رسول الله ﷺ: «لاتجوز الوصيّة لوارث، إلّا إن شاء الورثة».

قال البيهقي: عطاء هذا هو الخراساني، لم يدرك ابن عبّاس ولم يره. قاله أبو داوود السجستاني وغيره.

[٤٥٢٤/٢] قال: وقد روي من وجه آخر عنه عن عكرمة عن ابن عبّاس، قال: قال رسول الله ﷺ: «لاتجوز وصيّة لوارث، إلّا أن يشاء الورثة».

وعقّبه بقوله: عطاء الخراساني غير قويّ.

[٤٥٢٥/٢] وأخرج بالإسناد إلى الإمام الشافعي عن ابن عُيَينة عن سليمان [بن أبي مسلم] الأحول عن مجاهد: أنّ رسول الله ﷺ قال: «لا وصيّة لوارث»[٢].

[٤٥٢٦/٢] وقال الإمام الشافعي: وروى بعضُ الشاميّين حديثاً[٣] ليس ممّا يثبته أهل الحديث، بأنّ بعض رجاله مجهولون، فرويناه عن النبيّ ﷺ منقطعاً[٤] واعتمدنا على حديث أهل المغازي عامّة: أنّ النبيّ ﷺ قال عام الفتح[٥]: «لا وصيّة لوارث». و [مضافاً إلى] إجماع العامّة[٦] على القول به.

[٤٥٢٧/٢] ثمّ أخرج البيهقي بالإسناد إلى إسماعيل بن عيّاش[٧] عن شرحبيل بن مسلم[٨]، قال: سمعتُ أبا أُمامة قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «إنّ الله ـ جلّ ثناؤه ـ قد أعطى كلّ ذي حقٍّ حقّه، ولا وصيّة لوارث».

---

(١) هو عطاء بن أبي مسلم الخراساني أبو أيّوب، البلخي نزيل الشام. روى عن الصحابة مرسلاً. وذكره البخاري في الضعفاء ولم يخرّج له. روى حديثاً عن سعيد بن المسيَّب، فقال: كذب عَلَيَّ عطاء، ما حدثتُه هكذا. قال الطبراني لم يسمع من أحد من الصحابة إلّا من أنس. (تهذيب التهذيب لابن حجر ٧: ٢١٢ـ٢١٥ / ٣٩٤).

(٢) والحديث كما ترى مرسل غير متّصل الإسناد إلى رسول الله ﷺ.

(٣) أي مسنداً، ولكنّه ليس ذات اعتبار عند المحدّثين. (٤) يعنى به: مرسلة مجاهد.

(٥) في السنة الثامنة للهجرة في شهر رمضان. (٦) أي عامّة الفقهاء.

(٧) لم يكن أحد أروى منه لحديث الشاميّين. وكان العراقيّون يكرهون حديثه. (تهذيب التهذيب ١: ٣٢٠ / ٥٨٤).

(٨) الخولاني الشامي. ضعّفه ابن معين (تهذيب التهذيب ٤: ٣٢٥ / ٥٦٠).

قال البيهقي: وهذا الحديث إنّما رواه إسماعيل عن شاميّ[١].

[٤٥٢٨/٢] وأخرج بالإسناد إلى عبدالوهّاب بن عطاء عن سعيد عن قتادة عن شهر بن حوشب[٢] عن عبدالرحمان بن غَنْم عن عمرو بن خارجة قال: خطبنا رسول الله ﷺ بمنى وهو على راحلته، فقال: «إنّ الله قسم لكلّ إنسان نصيبه من الميراث، فلايجوز لوارث وصيّة».

قال البيهقي: ورواه أيضاً حمّاد بن سلمة عن قتادة.

قال: ورُوي من وجه آخر ضعيف عن عمرو بن خارجة:

[٤٥٢٩/٢] وروى أبوالحسين بن الفضل القطّان بالإسناد إلى إسماعيل بن مسلم[٣] عن الحسن عن عمرو بن خارجة: أنّ رسول الله ﷺ قال: «لاوصيّة لوارث إلّا أن يجيز الورثة».

[٤٥٣٠/٢] وروى أبوبكر بن الحارث الفقيه بالإسناد إلى سعيد بن أبي سعيد[٤] عن أنس بن مالك، قال: إنّي لتحت ناقة رسول الله ﷺ يسيل عليّ لعابُها، فسمعته يقول: «إنّ الله ـ عزّ وجلّ ـ قد أعطى كلّ ذي حقٍّ حقّه، ولا وصيّة لوارث».

ورواه الوليد بن مزيد البيروتي عن عبدالرحمان بن يزيد بن جابر عن سعيد بن أبي سعيد شيخ بالساحل، قال: حدّثني رجل من أهل المدينة، قال: إنّي لتحت ناقة رسول الله ﷺ فذكر الحديث.

قال البيهقي: وقد رُوي هذا الحديث من أوجهٍ أُخَر كلّها غير قويّة.

قال: والاعتماد على الحديث الأوّل، وهو رواية ابن أبي نُجيح عن عطاء عن ابن عبّاس. وعلى ما ذكره الشافعي من نقل أهل المغازي. مع إجماع العامّة على القول به! والله أعلم[٥].

---

(١) يعني به شرحبيل بن مسلم الخولاني. الّذي ضعّفه ابن معين. وإن كان وثّقه أحمد توثيقاً عامّاً، قال: ما رواه ابن عيّاش عن الشاميّين صحيح. وهذا توثيق عامّ لايتصادم مع تضعيف ابن معين لشخصه. ولعلّ أحمد عرف من وجه آخر أنّ ما يرويه عن الشاميّين صحيح الإسناد إليهم، الأمر الّذي لايوجب توثيق شخصه بالذات.

(٢) شهربن حوشب أيضاً شاميّ متروك الحديث. كثير الإرسال والأوهام. (تهذيب التهذيب ٤: ٣٧٠ / ٦٢٥ وتقريب التهذيب ١: ٣٥٥ / ١١٢).

(٣) كان مخلّطاً كثير الخطأ، ما كان يدري شيئاً عند ما يُسأل عن الحديث. وله أحاديث مناكير ومن ثمّ ضعّفوه (تهذيب التهذيب ١: ٣٣٢ / ٥٩٨).

(٤) الساحلي البيروتي، مجهول. (تقريب التهذيب ١: ٢٩٧ / ١٨٠).

(٥) البيهقي ٦: ٢٦٣ ـ ٢٦٥.

قلت: لا اعتماد على الحديث الأوّل، بعد كون الراوي عن ابن عبّاس بلا واسطة أو مع واسطة عكرمة، هو عطاء الخراساني نزيل الشام، وكان نسيّاً قد ينسب الحديث إلى شخص لم يقله. وقد ذكره البخاري في الضعفاء، وذكر حديثه عن سعيد بن المسيّب عن أبي هريرة عن النبيّ ﷺ: أنّ من واقع في شهر رمضان فعليه كفّارة ظهار. وساق الإسناد إلى سعيد، لكنّ سعيداً لمّا سمع ذلك أنكره وقال: كذب عليّ عطاء، ما حدّثته هكذا. ومن ثمّ لم يخرّج له البخاري شيئاً. قال ابن حِبّان: كان رديء الحفظ: يُخطئ وهو لايعلم. قال: ومن ثمّ بطل الاحتجاج بحديثه[1].

هذا فضلاً عن أنّه لم يدرك ابن عبّاس ولم يره، فقد دلّس في الإسناد إليه. أمّا روايته بواسطة عكرمة، ففي السند أبو عُلاثة محمّد بن عمرو بن خالد، وهو مجهول.

إذن فقد صحّ قول الإمام الشافعي: إنّ رواية بعض الشاميّين لهذا الحديث، ليست ممّا يُثبته أئمّة الحديث، نظراً لجهالة بعض من وقع في الإسناد.

ومن ثمّ لجأ الشافعي إلى حديث منقطع ـ غير متّصل الإسناد إلى النبيّ ـ وهو حديث مجاهد عنه ﷺ واعتمد أيضاً على رواية الأخباريّين من أهل المغازي.

وحيث لايصحّ الاعتماد على حديث منقطع الإسناد، ولا على رواية الأخباريّين ممّن همّهم جمع الأخبار ـ وحشد حقائبهم بغرائب الآثار ـ نراه اعتمد الإجماع وعملِ العامّة عليه.

ومشى على أثره الإمام البيهقي وغيره من الفقهاء، زاعمين فيه الكفاية!

قال: والاعتماد على رواية عطاء الخراساني عن ابن عبّاس، وعلى ما ذكره الشافعي من نقل أهل المغازي، مع إجماع العامّة على القول به[2].

وأغرب من ذلك دعوى تواتر الحديث، كما يأتي عن ابن حجر في الشرح. وإليك إخراج الحديث في سائر المسانيد:

[٤٥٣١/٢] أخرج الدارمي بالإسناد إلى قتادة عن شهر بن حوشب، عن عبدالرحمان بن غَنْم عن عمرو بن خارجة، قال: كنت تحت ناقة النبيّ ﷺ وهي تقصع بِجِرَّتِها ولعابُها ينوص بين كتفيّ،

---

(١) تهذيب التهذيب ٧: ٢١٢ ـ ٢١٥ / ٣٩٤.

(٢) البيهقي ٦: ٢٦٥.

سمعته يقول: «ألا إنّ الله أعطى كلّ ذي حقّ حقّه، فلايجوز وصيّة لوارث»[١].

[٤٥٣٢/٢] وأخرج أبو عيسى الترمذي بنفس الإسناد عن عمرو بن خارجة قال: إنّ النبيّ ﷺ خطب على ناقته وأنا تحت جرانها[٢] وهي تقصع بجِرَّتها وإنّ لعابها يسيل بين كتفيّ، فسمعته يقول: «إنّ الله أعطى كلّ ذي حقّ حقّه، ولا وصيّة لوارث...»[٣].

[٤٥٣٣/٢] وأخرج عن إسماعيل بن عيّاش عن شرحبيل بن مسلم الخَوْلانيّ عن أبي أُمامة الباهليّ قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول في خطبته عام حجّة الوداع[٤]: «إن الله قد أعطى لكلّ ذي حقّ حقّه، فلا وصيّة لوارث...»[٥].

وأخرجه أبو داوود أيضاً بنفس الإسناد[٦].

وأخرجهما ابن ماجة في سننه وكذا حديث أنس[٧].

وأخرج النسائي حديث عمرو بن خارجة بثلاثة أسانيد[٨].

هذا، وقد عرفت تضعيف الإمام الشافعي لأسناد الحديث فيما رواه أصحاب السنن.

ومن ثمّ فإنّ البخاري ومسلم لم يخرّجاه، لمكان الضعف وقد عقد البخاري باباً وترجمه بنفس العنوان: «باب لا وصيّة لوارث»، لكنّه لم يأت بالحديث، بل عوّضه بحديث آخر، قد يؤدّي هذا المعنى ـ فيما فرض ـ:

[٤٥٣٤/٢] أخرج بالإسناد إلى ابن أبي نُجيح عن عطاء عن ابن عبّاس، قال: كان المال للولد، وكانت الوصيّة للوالدين. فنسخ الله من ذلك ما أحبّ، فجعل للذَّكر مثل حظّ الأنثيين، وجعل

---

(١) الدارمي ٢: ٤١٩، باب الوصيّة للوارث. قوله: وهي تَقْصَعُ بِجِرَّتها، أراد شدّة المضغ وضمّ بعض الأسنان على البعض. وقيل قصع الجِرَّة: خروجها من الجوف إلى الشِدْق ومتابعة بعضها بعضاً. وإنّما تفعل الناقة ذلك إذا كانت مطمئنة، وإذا خافت شيئاً لم تخرجها. والجِرَّة: مايخرجه البعير من كرشه إلى الفم ليمضغه ثمّ يبلعه. والقصع: شدّة المضغ. ولعابها يَنُوص أي يسيل. كما في الحديث التالي.

(٢) جران: هو من العنق مابين المذبح إلى المنحر.

(٣) الترمذي ٤: ٤٣٤ / ٢١٢١.

(٤) في السنة العاشرة للهجرة، في ذي الحجّ. ولاتنافي بين ذلك وما سبق عن أهل المغازي أنّه كان عام الفتح سنة ثمان من الهجرة، ولعلّه تكرّر منه ذلك في الموردين.

(٥) الترمذي ٤: ٤٣٣ / ٢١٢٠.

(٦) أبو داوود ٣: ١١٤ / ٢٨٧٠.

(٧) ابن ماجة ٢: ١٥٩، باب ٩٤٠ / ٢٧٥٧ و ٢٧٥٨ و ٢٧٥٩.

(٨) سنن النسائي ٦: ٢٠٧، باب إبطال الوصيّة للوارث.

للأبوين لكلّ واحد منهما السدس. وجعل للمرأة الثمن والربع، وللزوج الشطر والربع[١].

قال ابن حجر: هذه الترجمة لفظ حديث مرفوع، كأنّه لم يثبت على شرط البخاري، فترجم به كعادته، واستغنى بما يعطى حكمه. قال: وقد أخرجه أبو داوود والترمذي وغيرهما من حديث أبي أُمامة. وفي الباب عن عمرو بن خارجة عند الترمذي والنسائي. وعن أنس عند ابن ماجة. وعن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جدّه عند الدارقطني[٢]. وعن جابر عند الدارقطني أيضاً وقال: الصواب إرساله. وعن عليّ عليه السلام عند ابن أبي شيبة.

قال: ولا يخلو أسناد كلٍّ منها عن مقال! لكن مجموعها يقتضي أنّ للحديث أصلاً، بل جنح الشافعي ـ في الأمّ[٣] ـ إلى أنّ هذا المتن متواتر، فقال: وجدنا أهل الفتيا ومن حفظنا عنهم من أهل العلم بالمغازي من قريش وغيرهم لا يختلفون في أنّ النبيّ ﷺ قال عام الفتح: «لا وصيّة لوارث». ويؤثرون عمّن حفظوه عنه ممّن لَقَوْه من أهل العلم فكان نقل كافّةٍ عن كافّةٍ، فهو أقوىٰ من نقل واحدٍ!

قال: وقد نازع الفخر الرازي في كون هذا الحديث متواتراً. وعلى تقدير تسليم ذلك فالمشهور من مذهب الشافعي أنّ القرآن لا يُنسخ بالسنّة! قال: لكنّ الحجّة في هذا، الإجماع على مقتضاه، كما صرّح به الشافعيّ وغيره.

قال: والمراد بعدم صحّة وصيّةٍ لوارث، عدم اللزوم، لأنّ الأكثر على أنّها موقوفة على إجازة الورثة.

---

(١) البخاري ٤: ٤، كتاب الوصايا، باب لا وصيّة لوارث. (٢) راجع: الدار قطني ٤: ١٥٢ / ١٠.

(٣) قال الشافعي: أخبرنا سفيان عن سليمان الأحول عن مجاهد، يعني في حديث «لا وصيّة لوارث». قال: ورأيت متظاهراً عند عامّة من لقيت من أهل العلم بالمغازي أنّ رسول الله ﷺ قال ـ في خطبته عام الفتح ـ: «لا وصيّة لوارث». ولم أر بين الناس في ذلك اختلافاً... (الأمّ ٤: ١١٤). قال: فوجدنا الدلالة على أنّ الوصيّة للوالدين والأقربين الوارثين منسوخة بآي المواريث من وجهين: أحدهما أخبارٌ ليست بمتّصلة عن النبيّ ﷺ من جهة الحجازيّين، منها: أنّ سفيان بن عُيينة أخبرنا عن سليمان الأحول عن مجاهد: أنّ النبيّ ﷺ قال: «لا وصيّة لوارث»... وقال ـ في الوجه الثاني ـ: ثمّ لم نعلم أهل العلم في البلدان اختلفوا في أنّ الوصيّة للوالدين منسوخة بآي المواريث. واحتمل إذا كانت منسوخة أن تكون الوصيّة للوالدين ساقطة، حتّى لو أوصى لهما لم تجز الوصيّة. وبهذا نقول. قال: وإن كان يحتمل أن يكون وجوبها منسوخاً، وإذا أوصى لهم جاز. (الأمّ ٤: ١١٨).

[٤٥٣٥/٢] وقد روى الدارقطني من طريق ابن جُريج عن عطاء عن ابن عبّاس ـ مرفوعاً ـ: «لاتجوز وصيّة لوارث إلّا أن يشاء الورثة». قال: ورجاله ثقات، إلّا أنّه معلول؛ فقد قيل: إنّ عطاء هو الخراساني[1].

* * *

قال أبو عبدالله الأنصاري القرطبي: اختلف العلماء في هذه الآية، هل هي منسوخة أو محكمة؟ فقيل: هي محكمة، ظاهرها العموم ومعناها الخصوص [وأنّها] في الوالدين اللذين لايرثان، كالكافرين أو المملوكين. وفي القرابة غير الورثة. قاله الضحّاك وطاووس والحسن، واختاره الطبري[2].

وعن الزهري: أنّ الوصيّة واجبة فيما قلّ أو كثر. وقال ابن المنذر: أجمع كلّ من يُحفظ عنه من أهل العلم، على أنّ الوصيّة للوالدين اللّذين لايرثان والأقرباء الّذين لايرثون جائزة.

[٤٥٣٦/٢] وقال ابن عبّاس والحسن أيضاً وقتادة: الآية عامّة، وتقرّر الحكم بها بُرهةً من الدهر، ونسخ منها كلّ من كان يرث بآية الفرائض.

وقد قيل: إنّ آية الفرائض لم تستقلّ بنسخها، بل بضميمة قوله ﷺ: «لا وصيّة لوارث». فَنَسْخُ الآية إنّما كان بالسنّة الثابتة لا بآية المواريث، على الصحيح من مذهب العلماء.

قال القرطبي: ولولا هذا الحديث لأمكن الجمع بين الآيتين؛ بأن يأخذوا المال عن المورِّث بالوصيّة [إن أوصىٰ]، وبالميراث إن لم يُوص، أو ما بقي بعد الوصيّة. لكن مَنَعَ من ذلك هذا الحديث والإجماع!

قال: والشافعيّ وأبو الفرج وإن كانا منعا من نسخ الكتاب بالسنّة، فالصحيح جوازه، بدليل أنّ الكلّ حكم الله ومن عنده وإن اختلفت في الأسماء! قال: ونحن وإن كان هذا الخبر بلغنا آحاداً، لكن قد انضمّ إليه إجماع المسلمين أنّه لاتجوز وصيّة لوارث!

قال: فقد ظهر أنّ وجوب الوصيّة للأقربين الوارثين منسوخ بالسنّة، وأنّها مستند المجمعين[3].

---

(١) فتح الباري ٥: ٢٧٨. وقد سبق ذلك عن البيهقي في الكبرى ٦: ٢٦٣ ـ ٢٦٤.

(٢) الطبري ٢: ١٦١ ـ ١٦٢.

(٣) القرطبي ٢: ٢٦٢ ـ ٢٦٣.

وقد أنكر أبومسلم الأصبهاني نسخ الآية، لوجوه قرّرها الإمام الرازي كمايلي: قال: اختلفوا في هذه الآية أنّها منسوخة أم لا، واختار أبو مسلم الأصبهاني عدم النسخ لوجوه:

أحدها: أن لاتنافي بين هذه الآية وآية المواريث، إذ يمكن أن يقال ـ في الجمع بين الآيتين ـ: كتب عليكم ما أوصى الله به من توريث الوالدين والأقربين حسب آية المواريث. أو كتب عليكم بتوفير ما أوصى الله بشأن الوالدين والأقربين، وأن لا ينقص من سهامهم شيء.

وثانيها: أنّه لا منافاة بين ثبوت الميراث للأقرباء مع ثبوت الوصيّة بالميراث عطيّة من الله. والوصيّة عطيّة ممّن حضره الموت. فالوارث يجمع ـ بحكم الآيتين ـ بين الوصيّة الّتي هي عطيّة، وبين الميراث الّذي هو فرض من الله.

وثالثها: لو فرضنا التنافي بين الآيتين لأمكن الجمع بجعل آية الميراث مخصِّصةً لآية الوصيّة. حيث هذه الآية توجب الوصيّة للأقربين، وآية الميراث تُخرج القريب الوارث، ويبقى القريب غير الوارث داخلاً تحت الآية، وذلك لأنّ من الوالدين من يرث ومن لايرث، بسبب اختلاف الدين أو الرقّيّة أو القتل. ومن الأقربين من لايحجب عن الإرث ومن كان يحجب عن الميراث، فكلّ من كان من هؤلاء وارثاً لم تجز الوصيّة له، ومن لم يكن وارثاً جازت بشأنه ولأنّه صلة رحم وقد أكّد الله عليه بقوله: ﴿وَاتَّقُوا اللهَ الَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ﴾[1]. وبقوله: ﴿إِنَّ اللهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى﴾[2].

قال الرازي: فهذا تقرير مذهب أبي مسلم في هذا الباب[3].

واعترض عليه الحافظ ابن كثير في التفسير قائلاً: والعجب من أبي عبدالله محمّد بن عمر الرازي، كيف حكى في تفسيره الكبير عن أبي مسلم الأصبهاني أنّ هذه الآية غير منسوخة، وإنّما هي مفسَّرة بآية المواريث؛ ومعناه: كتب عليكم ما أوصى الله به من توريث الوالدين والأقربين، من قوله: ﴿يُوصِيكُمُ اللهُ فِي أَوْلَادِكُمْ﴾. قال ـ أي الفخر الرازي ـ: وهو قول أكثر المفسِّرين والمعتبرين من الفقهاء[4].

قلت: ولا عجب بعد عدم توفّر شرائط النسخ هنا، حسبما تقرّر الكلام فيه.

---

(١) النساء ٤: ١.
(٢) النحل ١٦: ٩٠.
(٣) التفسير الكبير ٥: ٦١ـ٦٢.
(٤) ابن كثير ١: ٢١٧ـ٢١٨.

ولنقدّم أحاديث السلف بشأن نسخ الآية :

[٤٥٣٧/٢] أخرج البيهقي بالإسناد إلى ابن سيرين عن ابن عبّاس أنّه قام خطيباً في البصرة فقرأ عليهم سورة البقرة يبيّن ما فيها ، فأتى على هذه الآية : ﴿إِنْ تَرَكَ خَيْراً الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ﴾ فقال : نسخت هذه الآية .

[٤٥٣٨/٢] وأخرج بالإسناد إلى عكرمة عن ابن عبّاس ، قال : كانت الوصيّة كذلك حتّى نسختها آية المواريث .

[٤٥٣٩/٢] وأخرج بالإسناد إلى وكيع عن سفيان عن جهضم عن عبدالله بن بدر عن عبدالله بن عمر ، قال : نسختها آية المواريث .

[٤٥٤٠/٢] وكذلك عن النخعي ، قال : نسختها آية المواريث .

[٤٥٤١/٢] وأخرج بالإسناد إلى الربيع بن سليمان قال : قال الشافعيّ وكذلك قال أكثر العامّة ، إلّا أنّ طاووساً وقليلاً معه قالوا : ثبتت للقرابة غير الوارثين ، فمن أوصى لغير قرابة لم تجز(١) .

[٤٥٤٢/٢] وأخرج ابن جرير بالإسناد إلى ابن عبّاس قال : نُسخ من يرث ، ولم يُنسخ الأقربين الّذين لايرثون(٢) .

[٤٥٤٣/٢] وأخرج أيضاً عن ابن عبّاس قال : كان لايرث مع الوالدين غيرهما إلّا وصيّة للأقربين . فأنزل الله آية المواريث ، فبيّن ميراث الوالدين ، وأقرّ الوصيّة للأقربين في ثلث المال(٣) .

[٤٥٤٤/٢] وأخرج عن قتادة ، قال : نسخ الوالدان منها ، وترك الأقربون ممّن لايرث(٤) .

[٤٥٤٥/٢] وأخرج بالإسناد إلى أسباط عن السدّي قال : أمّا الوالدان والأقربون فيوم نزلت هذه الآية كان الناس ليس لهم ميراث معلوم ، إنّما يوصي الرجل لولده ولأهله فيقسم بينهم حتّى نسختها آية المواريث في سورة النساء(٥) .

[٤٥٤٦/٢] وأخرج ابن أبي حاتم بالإسناد إلى الربيع عن أبي العالية قال : نسخ للوالدين ، فأُلحقا بأهل الميراث ، وصارت الوصيّة لأهل القرابة الّذين لايرثون .. وكذلك روى عن سعيد بن جبير

(١) البيهقي ٦ : ٢٦٥.
(٢) الطبري ٢ : ١٦١ ـ ١٦٢ / ٢١٧٥.
(٣) المصدر : ١٦١ / ٢١٧٨.
(٤) المصدر / ٢١٧٤.
(٥) الطبري ٢ : ١٦٣ / ٢١٩٠.

والحسن والربيع بن أنس والضحّاك ومقاتل بن حيّان والزهري وقتادة[١].

[٤٥٤٧/٢] وأخرج عبد بن حميد عن مجاهد في الآية قال: كان الميراث للولد، والوصية للوالدين والأقربين، فهي منسوخة[٢].

* * *

[٤٥٤٨/٢] ومن روايات الخاصّة ما رواه العيّاشيّ بالإسناد إلى ابن مسكان عن أبي بصير عن أحدهما (الباقر أو الصادق عليهما السلام) في قوله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِنْ تَرَكَ خَيْراً الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ﴾ قال: «هي منسوخة، نسختها آية الفرائض الّتي هي المواريث ...»[٣].

وهكذا قال عليّ بن إبراهيم القمّي في تفسيره للآية: فإنّما هي منسوخة بآية المواريث[٤].

[٤٥٤٩/٢] وروى الشيخ أبوجعفر الطوسي بالإسناد إلى القاسم بن سليمان، قال: «سألت أبا عبدالله عليه السلام عن رجل اعترف لوارث بدين في مرضه؟ فقال: لاتجوز وصيّته لوارث ولا اعتراف له بدين»[٥].

[٤٥٥٠/٢] وذكر الحسن بن عليّ بن شعبة خطبة النبيّ صلى الله عليه وآله في حجّة الوداع، قال فيها: «أيّها الناس، إنّ الله قد قسّم لكلّ وارث نصيبه من الميراث، ولاتجوز وصيّة لوارث بأكثر من الثلث»[٦].

[٤٥٥١/٢] وروى القاضي النعمان المغربي بالإرسال عن عليّ وأبي جعفر وأبي عبدالله عليهم السلام أنّهم قالوا: «لاوصيّة لوارثٍ». قال: وهذا إجماع فيما علمناه.

[٤٥٥٢/٢] قال: وقد رُوينا عن رسول الله صلى الله عليه وآله أنّه قال: «لا وصيّة لوارث، قد فرض الله لأهل المواريث فرائضهم».

---

(١) ابن أبي الحاتم ١: ٣٠٠ / ١٦٠٥.

(٢) الدرّ ١: ٤٢٤؛ الطبري ٢: ١٦٣ / ٢١٨٩. وفيه: ... وهي منسوخة نسختها آية (١١) في سورة النساء؛ أبو الفتوح ٢: ٣٤٥.

(٣) العيّاشيّ ١: ٩٦ / ١٦٨؛ البحار ١٠٠: ٢٠٠ / ٣٣؛ البرهان ١: ٣٣٠.

(٤) القمي ١: ٦٥.

(٥) التهذيب ٩: ٢٠٠ / ٧٩٩؛ الاستبصار ٤: ١٢٧ / ٤٧٩؛ الوسائل ١٩: ٢٨٩ / ١٢.

(٦) تحف العقول: ٣٤؛ الوسائل ١٩: ٢٩٠ / ١٤.

[٤٥٥٣/٢] قال: وقد جاء عن جعفر بن محمّد عليه السلام أنّه قال في العطيّة للوارث والهبة في المرض الّذي يموت فيه: إنّها غير جائزة. قال: وهذا ممّا يؤيّد ما ذكرناه[1].

* * *

لكن هناك روايات صحاح[2] تخالف ذلك، وأن لا بأس بالوصيّة للوارث.

[٤٥٥٤/٢] روى ثقة الإسلام الكليني بالإسناد إلى أبي ولّاد الحنّاط عن الإمام أبي عبدالله الصادق عليه السلام «سأله عن الميّت يُوصي للوارث بشيء؟ قال: نعم، أو قال: جائز له»[3].

[٤٥٥٥/٢] وبالإسناد إلى محمّد بن مسلم عن الإمام أبي جعفر الباقر عليه السلام «سأله عن الوصيّة للوارث؟ فقال: تجوز. ثمّ تلا الآية»[4]. ورواه الصدوق والشيخ بالإسناد إلى ابن أبي بكير[5].

[٤٥٥٦/٢] وبالإسناد إلى أبي بصير المرادي عن أبي عبدالله عليه السلام «سأله عن الوصيّة للوارث؟ فقال: تجوز».[6]

[٤٥٥٧/٢] وبالإسناد إلى محمّد بن مسلم عن أبي جعفر عليه السلام قال: «الوصيّة للوارث لا بأس بها»[7].

[٤٥٥٨/٢] وأيضاً عن محمّد بن مسلم عن أبي عبدالله عليه السلام «في الوصيّة للوارث؟ فقال: تجوز»[8]. ورواه الشيخ بالإسناد إلى عبدالله بن بكير مثله[9].

[٤٥٥٩/٢] وبالإسناد إلى محمّد بن قيس قال: «سألت أباجعفر عليه السلام عن الرجل يفضّل بعض ولده على بعض؟ فقال: نعم، ونساءه!»[10]. ورواه الصدوق بالإسناد إلى ثعلبة بن ميمون مثله[11].

[٤٥٦٠/٢] وروى الشيخ أبو جعفر الطوسي بالإسناد إلى أبي ولّاد الحنّاط قال: «سألت أباعبدالله عليه السلام عن الميّت يوصي للوارث بشيء؟ قال: جائز»[12].

---

(١) دعائم الإسلام ٢: ٣٥٨ ـ ٣٥٩ / ١٣٠٥ و ١٣٠٦ و ١٣٠٧.

(٢) ذكرها صاحب الوسائل في الباب ١٥ من كتاب الوصايا (الوسائل ١٩: ٢٨٧ ـ ٢٨٩).

(٣) الكافي ٧: ٩ / ٢.

(٤) المصدر: ١٠ / ٥.

(٥) الفقيه ٤: ١٤٤ / ٤٩٣؛ التهذيب ٩: ١٩٩ / ٧٩٣.

(٦) الكافي ٧: ٩ / ١.

(٧) المصدر / ٣ و ١٠ / ذيل ٣.

(٨) المصدر: ١٠ / ٤.

(٩) التهذيب ٩: ١٩٩ / ٧٩١؛ الاستبصار ٤: ١٢٦ / ٤٧٦.

(١٠) الكافي ٧: ١٠ / ٦.

(١١) الفقيه ٤: ١٤٤ / ٤٩٥.

(١٢) التهذيب ٩: ٢٠٠ / ٧٩٨.

[٤٥٦١/٢] وبهذا الإسناد قال: «سألت أبا عبدالله ﷺ عن الميّت يوصي للبنت بشيء؟ قال: جائز»[١].

[٤٥٦٢/٢] وبالإسناد إلى ابن بُكير عن محمّد بن مسلم قال: «سألت أبا عبدالله ﷺ عن الوصيّة للوارث؟ فقال: تجوز»[٢].

[٤٥٦٣/٢] وبالإسناد إلى أبي المغرا عن أبي بصير قال: «قلت لأبي عبدالله ﷺ: تجوز للوارث وصيّة؟ قال: نعم»[٣].

[٤٥٦٤/٢] وبالإسناد إلى عبدالرحمان بن أبي عبدالله قال: «سألت أبا عبدالله ﷺ عن امرأة قالت لأمّها: إن كنتِ بعدي فجاريتي لك. فقضى ﷺ أنّ ذلك جائز»[٤].

* * *

قال الشيخ أبو جعفر الطوسي ﷺ: والترجيح مع روايات الجواز، نظراً لموافقتها للكتاب[٥].

قلت: مضافاً إلى إمكان حمل روايات المنع على صورة الاتّهام بإرادة الإضرار بسائر الورثة، أو زيادة على مقدار الثلث، فإن رضي الورثة جازت. كما لاتجوز المِنَحُ ـ أي العطايا المنجّزة حالة المرض قبل الموت ـ إلّا مع موافقة الورّاث.

[٤٥٦٥/٢] روى الشيخ بالإسناد إلى السكوني عن جعفر عن أبيه عن عليّ ﷺ: أنّه كان يردّ النحلة في الوصيّة، وما أقرّ به عند موته بلا ثبت ولا بيّنة ردّه[٦].

ورواه الصدوق أيضاً بنفس الإسناد[٧].

قال الشيخ: يعني إذا كان الميّت غير مرضيّ وكان متّهماً على الورثة.

[٤٥٦٦/٢] وكذلك روى بالإسناد إلى مسعدة بن صدقة عن جعفر بن محمّد عن أبيه ﷺ قال: قال عليّ ﷺ: «لا وصيّة لوارث ولا إقرار له بدين». يعني: إذا أقرّ المريض لأحد من الورثة بدين له،

---

(١) الاستبصار ٤: ١٢٧ / ٤٧٨.

(٢) التهذيب ٩: ١٩٩ / ٧٩٢.

(٣) المصدر / ٧٩٤؛ الاستبصار ٤: ١٢٧ / ٤٧٧.

(٤) التهذيب ٩: ٢٠٠ / ٧٩٧؛ الوسائل ١٩: ٢٨٩.

(٥) الاستبصار ٤: ١٢٧.

(٦) التهذيب ٩: ١٦١ / ٦٦٣؛ الاستبصار ٤: ١١٢ / ٤٣٢.

(٧) الفقيه ٤: ١٨٤ / ٦٤٦.

فليس له ذلك[1].

[٤٥٦٧/٢] وروى بالإسناد إلى سماعة قال: «سألت أبا عبدالله عليه السلام عن عطيّة الوالد لولده؟ فقال: أمّا إذا كان صحيحاً فهو ماله يصنع به ماشاء. وأمّا في مرضه فلا يصلح»[2].

[٤٥٦٨/٢] وروى بالإسناد إلى جرّاح المدائني قال: «سألت أبا عبدالله عليه السلام عن عطيّة الوالد لولده ببيّنة؟ قال: إذا أعطاه في صحّته جاز»[3].

[٤٥٦٩/٢] وبالإسناد إلى سماعة قال: «سألته ـ يعني الصادق عليه السلام ـ عن المرأة تُبرىء زوجها من صداقها في مرضها؟ فقال: لا. ولكنّها إن وهبت له جاز ما وهبت له من ثلثها»[4].

والمتلخّص من هذه الروايات أنّ المنع من الوصيّة للوارث، إنّما يراد به صورة الإضرار بسائر الورّاث، أو كونها زيادة على الثلث، فتقع موقوفة على رضى الورثة.

[٤٥٧٠/٢] كما جاء التصريح به في خطبة النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم على ما رواه ابن شعبة وغيره... جاء فيها: «إنّ الله قد قسم لكلّ وارث نصيبه من الميراث، فلا تجوز وصيّة لوارث بأكثر من الثلث»[5].

[٤٥٧١/٢] وفي حديث ابن عبّاس: «لاتجوز وصيّة لوارث إلّا أن يشاء الورثة»[6].

[٤٥٧٢/٢] وفي حديث عمرو بن خارجة: «لاوصيّة لوارث إلّا أن يجيز الورثة»[7].

إذن فليس لدينا دليل على المنع بصورة مطلقة.

ومن ثمّ فإنّ أصحابنا الإماميّة ـ تبعاً لمذهب أهل البيت عليهم السلام أطبقوا على جواز الوصيّة للوارث، بشرط عدم التهمة وعدم زيادتها على الثلث، وإلّا تقع موقوفة على إذن الورثة ورضاهم، فتكون الزيادة من حصّتهم محاباةً.

قال المحقّق الحلّي في كتاب الوصايا من شرائع الإسلام: وتصحّ الوصيّة للأجنبيّ والوارث. قال الشهيد الثاني في الشرح: اتّفق أصحابنا على جواز الوصيّة للوارث، كما تجوز لغيره من

---

(١) التهذيب ٩: ١٦٢ / ٦٦٥؛ الاستبصار ٤: ١١٣ / ٤٣٤؛ الوسائل ١٩: ٢٩٥ / ١٢ و ١٣.

(٢) التهذيب ٩: ١٥٦ / ٦٤٢؛ الاستبصار ٤: ١٢٧ / ٤٨١؛ الوسائل ١٩: ٣٠٠ / ١١.

(٣) التهذيب ٩: ٢٠١ / ٨٠١؛ الاستبصار ٤: ١٢٧ / ٤٨٠؛ الوسائل ١٩: ٣٠١ / ١٤.

(٤) التهذيب ٩: ٢٠١ / ٨٠٣؛ الوسائل ١٩: ٣٠١ / ١٦. (٥) تحف العقول: ٣٤؛ الوسائل ١٩: ٢٩٠ / ١٤.

(٦) البيهقي ٦: ٢٦٤. (٧) المصدر.

الأقارب والأجانب. وأخبارهم الصحيحة به واردة ـ وذكر الأخبار. ثمّ قال ـ: وفي الآية الكريمة مايدلّ على الأمر به، فضلاً عن جوازه. قال: ومعنى «كتب» فرض، وهو هنا بمعنى الحثّ والترغيب دون الفرض. ثمّ تعرّض لمذهب سائر الفقهاء وناقشها مناقشة فنّيّة وفق الأصول[١].

وقال المحقّق بشأن تصرّفات المريض: هي نوعان: مؤجّلة ومنجّزة. فالمؤجّلة، حكمها حكم الوصيّة إجماعاً، وقد سلف. وكذا تصرّفات الصحيح إذا قُرنت بما بعد الموت.

أمّا منجّزات المريض إذا كانت تبرّعاً، كالمحاباة في المعاوضات والهبة والعتق والوقف، فقد قيل: إنّها من أصل المال. وقيل: من الثلث.

قال الشهيد الثاني ـ في الشرح ـ: اختلف الأصحاب في تصرّفات المريض المنجّزة المتبرَّع بها، فذهب الأكثر ـ ومنهم الشيخ في المبسوط[٢]، والصدوق[٣]، وابن الجنيد[٤]، وسائر المتأخّرين[٥] إلى أنّها من الثلث كغير المنجّزة.. وقال المفيد[٦]، والشيخ في النهاية[٧]، وابن البرّاج[٨]، وابن إدريس[٩]، والآبي[١٠] تلميذ المصنّف: إنّها من الأصل. والمصنّف لم يرجّح هنا أحد القولين، لكنّه رجّح الأوّل في مواضع متعدّدة من الكتاب[١١].

ثمّ أخذ في بيان منشأ الاختلاف وأنّه من اختلاف الروايات ظاهراً، فذكرها وناقشها مناقشة فنيّة، كما وتعرّض لأقوال سائر الفقهاء من العامّة وعالجها على مستوى دلائلهم في قياس المساواة وغيرها، وتخرّج أخيراً إلى ترجيح القول الأوّل، كما عليه الأكثر، وكان في ذلك كفاية ووفاء. فجزاه عن الإسلام خير جزاء[١٢].

وهكذا نجد صاحب الجواهر تبع أثره في حسن الأداء والاستيفاء[١٣].

---

(١) مسالك الأفهام ٦: ٢١٦ـ٢١٨.
(٢) المبسوط ٤: ٤٤.
(٣) المُقنع: ١٦٥.
(٤) راجع: المختلف ٢: ٥١٤.
(٥) راجع: إيضاح الفوائد ٢: ٥٩٣ وجامع المقاصد ١١: ٩٤.
(٦) المُقنعة: ٦٧١.
(٧) النهاية: ٦٢٠.
(٨) المهذّب ١: ٤٢٠.
(٩) السرائر ٣: ١٩٩ و ٢٢١.
(١٠) كشف الرموز ٢: ٩١.
(١١) راجع: الجزء الرابع من الكتاب (شرائع الإسلام): ١٥٦.
(١٢) مسالك الأفهام ٦: ٣٠٤ـ٣١٥.
(١٣) جواهر الكلام ٢٨: ٣٦٤.

قوله تعالى: ﴿فَمَنْ خَافَ مِنْ مُوصٍ جَنَفاً أَوْ إِثْماً فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾

[٤٥٧٣/٢] أخرج الطستي عن ابن عبّاس أنّ نافع بن الأزرق سأله عن قوله: ﴿جَنَفاً﴾ قال: الجور والميل في الوصيّة قال: وهل تعرف العرب ذلك؟ قال: نعم، أما سمعت قول عديّ بن زيد وهو يقول:

وأمّك يا نعمان في أخواتها   يأتين ما يأتينه جنفاً[١]

[٤٥٧٤/٢] وروى الصدوق بإسناده إلى يونس بن عبدالرحمان رفعه إلى أبي عبدالله عليه السلام في قول الله عزّ وجلّ: ﴿فَمَنْ خَافَ مِنْ مُوصٍ جَنَفاً أَوْ إِثْماً فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ قال: «يعني إذا اعتدى في الوصية إذا زاد على الثلث»[٢].

[٤٥٧٥/٢] وأخرج ابن جرير عن سعيد بن مسروق، عن إبراهيم، قال: سألته عن رجل أوصى بأكثر من الثلث، قال: ارددها، ثمّ قرأ: ﴿فَمَنْ خَافَ مِنْ مُوصٍ جَنَفاً أَوْ إِثْماً﴾[٣].

[٤٥٧٦/٢] وروى الكليني عن عليّ بن إبراهيم عن أبيه عن رجاله قال: قال: إنّ الله عزّ وجلّ أطلق للموصىٰ إليه أن يغيّر الوصية إذا لم تكن بالمعروف وكان فيها حيف، ويردّها إلى المعروف، لقوله تعالى: ﴿فَمَنْ خَافَ مِنْ مُوصٍ جَنَفاً أَوْ إِثْماً فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ﴾[٤].

[٤٥٧٧/٢] وأخرج سفيان بن عُيينة وسعيد بن منصور والبيهقي في سننه عن ابن عبّاس عن رسول الله صلّى الله عليه وآله قال: الجنف في الوصيّة والإضرار فيها من الكبائر[٥].

---

(١) الدرّ ١: ٤٢٥.

(٢) العلل ٢: ٥٦٧ / ٤، باب ٣٦٩؛ العيّاشيّ ١: ٩٧ / ١٧٤؛ البحار ١٠٠: ١٩٨ و ٢٠٤؛ البرهان ١: ٣٩٢ ـ ٣٩٣.

(٣) الطبري ٢: ١٨٠ / ٢٢١٨.

(٤) نورالثقلين ١: ١٦١ ـ ١٦٢؛ الكافي ٧: ٢٠ ـ ٢١ / ١، كتاب الوصايا؛ البرهان ١: ٣٩٢ / ١٢.

(٥) الدرّ ١: ٤٢٦؛ البيهقي ٦: ٢٧١؛ القرطبي ٢: ٢٧١.

قال تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٨٣﴾ أَيَّاماً مَعْدُودَاتٍ فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضاً أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ فَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْراً فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ وَأَنْ تَصُومُوا خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٨٤﴾ شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدىً لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ وَمَنْ كَانَ مَرِيضاً أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ يُرِيدُ اللهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٨٥﴾

تلك فريضة الصيام فُرضت على المسلمين فرضاً يُقرّبهم إلى الله من جهة، ومن جهة أخرى، فيها حكمة وتربية عميقة للنفس، لتراوض على المقاومة والصبر على مكان النفس وعند الشدائد والهزاهز، والّتي قد تنجرف بالإنسان عن سبل السلام، لولا الطمأنينة والأناة، الأمر الّذي يتروّض عليه المسلم عند القيام بفريضة الصيام، عن جدّ وإخلاص.

وهكذا تبرز الغاية الكبيرة من الصوم، إنّها التقوى: التزام بتعهّد نفسيّ جادّ، تجاه التكليف والمسؤوليّة الّتي فرضتها الفطرة في جبلّة كلّ إنسان.

ومن ثمّ يبدأ التكليف بمثل هذا النداء الحبيب إلى المؤمنين، المذكّر لهم بحقيقتهم الأصيلة. ثمّ يقرّر لهم: أنّ الصوم فريضة قديمة على المؤمنين بالله في كلّ دين وشريعة، وأنّ الغاية الأولى هي إعداد النفوس للتقوى والشفّافيّة والحسّاسيّة والخشية من الله، عزّ شأنه.

ثمّ يثني بتقرير أنّ الصوم أيّام معدودات (شهر الصيام) وليس تكليفاً دائماً طول السنة، ومع ذلك فقد أعفى من أدائه المرضى ومن كان على متن سفر، تخفيفاً وتيسيراً على العباد: ﴿أَيَّاماً مَعْدُودَاتٍ فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضاً أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾ فيقضيه متى صحّ بدنه واستقرّ في بلده.

وظاهر النصّ في المرض والسفر يطلق ولا يحدّد فأيّ مرض وأيّ سفر، فإنّه يسوّغ الفطر،

على أن يقضي المريض حين يصحّ، والمسافر حين يقيم. وهذا هو الأولى في فهم هذا النصّ القرآني المطلق، والأقرب إلى المفهوم الإسلامي في رفع الحرج ومنع الضرر. فليست شدّة المرض ولا مشقّة السفر بالتي يتعلّق بها الحكم، إنّما هي المرض والسفر إطلاقاً، لإرادة اليسر بالناس لاالعسر.

قال سيّد قطب: ونحن لاندري حكمة الله كلّها في تعليقه بمطلق المرض ومطلق السفر، وقد تكون هناك اعتبارات أخرى يعلمها الله ويجهلها البشر في المرض والسفر، وقد تكون مشقّات أخرى لاتظهر للحظتها، أو لاتظهر للتقدير البشري.. ومادام الله لم يكشف عن علّة الحكم فنحن لانتأوّلها، ولكن نطيع النصوص ولو خفيت علينا حكمتها فوراءها قطعاً حكمة، وليس من الضروريّ أن نكون نحن ندركها[1].

ومن ثمّ فتقييد الرخصة في المرض بحالة الإضرار، والسفر بالمشقّة، تأويل للنصّ من غير مبرّر، فإنّ الله يُحبّ أن يُؤخذ بِرُخَصِه كما يُحبّ أن يُؤخذ بعزائمه[2]. وهذا مطلق في جميع الرخص والعزائم.

[٤٥٧٨/٢] قال الإمام جعفر بن محمّد الصادق عليه السلام: «الصائم في السفر في شهر رمضان كالمفطر في الحضر. ثمّ قال: إنّ رجلاً أتى النبيّ صلى الله عليه وآله فقال: يا رسول الله، أصوم شهر رمضان في السفر؟ فقال: لا، فقال: يا رسول الله، إنّه عليّ يسير! فقال رسول الله صلى الله عليه وآله: إنّ الله عزّ وجلّ تصدّق على مرضى أمّتي ومسافريها بالإفطار في شهر رمضان، أيعجب أحدكم لو تصدّق بصدقةٍ أن تُرَدَّ عليه؟!»[3]

[٤٥٧٩/٢] وروى الصدوق بالإسناد إلى الإمام جعفربن محمّد عن أبيه عليهما السلام قال: «قال رسول الله صلى الله عليه وآله: إنّ الله ـ تبارك وتعالى ـ أهدى إليّ وإلى أمّتي هديّة، لم يُهدها إلى أحد من الأمم،

---

(١) في ظلال القرآن ١: ٢٣٩ ـ ٢٤٠.

(٢) كما في الحديث المأثور عن رسول الله صلى الله عليه وآله (البحار ٦٦: ٣٦٠ و ٩٠: ٢٩ ـ ٣٠) وراجع: الأوسط ٦: ٢٣٦؛ وسيأتي نقل الحديث.

(٣) الكافي ٤: ١٢٧ / ٣؛ الفقيه ٢: ٩٠ / ٤٠٣؛ العلل: ٣٨٢ / ٣. فضائل الأشهر الثلاثة، للصدوق: ٩٤ / ٧٧؛ التهذيب ٤: ٢١٧ / ٦٣٠؛ الوسائل ١٠: ١٧٥ / ٥.

كرامةٌ من الله لنا! قالوا: وما ذاك يا رسول الله؟ قال: الإفطار في السفر والتقصير في الصلاة؛ فمن لم يفعل ذلك فقد ردّ على الله هديّته»(١).

[٤٥٨٠/٢] وأخرج البيهقي عن عبدالله بن عمر أنّ رسول الله ﷺ قال: «إنّ الله يحبّ أن تؤتى رُخَصُه كما يُحبّ أن تؤتى عزائمه»(٢).

[٤٥٨١/٢] وأخرج البزّار والطبراني وابن حِبّان عن ابن عبّاس عن النبيّ ﷺ قال: «إنّ الله يُحبّ أن تؤتى رخصُه كما يُحبّ أن تؤتى عزائمه»(٣).

[٤٥٨٢/٢] وأخرج أحمد والبزّار وابن خزيمة وابن حِبّان والطبراني في الأوسط والبيهقي عن عبدالله بن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «إنّ الله يحبّ أن تؤتى رخصُه كما لايحبّ أن تؤتى معصيته»(٤).

[٤٥٨٣/٢] وأخرج الطبراني عن عبدالله بن يزيد بن آدم قال: حدَّثني أبو الدرداء، وواثلة بن الأسقع، وأبو أمامة، وأنس بن مالك أنّ رسول الله ﷺ قال: «إنّ الله يحبّ أن تُقبل رخصه كما يُحبّ العبدُ مغفرةَ ربّه»(٥).

---

(١) الخصال: ١٣ / ٤٣؛ العلل ٢: ٣٨٣ / ١، باب ١١٣؛ دعائم الإسلام ١: ١٩٥؛ البحار ٨٦: ٥٨ / ٢٤.

(٢) الدرّ ١: ٤٦٦؛ البيهقي ٣: ١٤٠؛ شعب الإيمان ٣: ٤٠٣ / ٣٨٨٩؛ كنزالعمّال ٣: ٣٤ / ٥٣٣٤.

(٣) الدرّ ١: ٤٦٦؛ مختصر زوائد مسند البزّار ١: ٤٢٠ / ٧٠١؛ الكبير ١١: ٢٥٥ ـ ٢٥٦، وفيه: «يؤتى» بدل «تؤتى»؛ ابن حِبّان ٢: ٦٩ / ٣٥٤، كتاب البرّ والإحسان، باب ٢ (ما جاء في الطاعات وثوابها)؛ مجمع الزوائد ٣: ١٦٢، كتاب: الصيام، باب الصيام في السفر. قال الهيثمي: رواه الطبراني في الكبير والبزّار ورجال البزّار ثقات وكذلك رجال الطبراني؛ كنزالعمّال ٣: ٣٤ / ٥٣٣٤.

(٤) الدرّ ١: ٤٦٦؛ مسند أحمد ٢: ١٠٨، وفيه «كما يكره» بدل قوله «كما لايحبّ»؛ صحيح ابن خزيمة ٣: ٢٥٩، وفيه: «كما يحبّ أن تُترك معصيته» بدل قوله: «كما لايحبّ أن تؤتى معصيته»؛ ابن حِبّان ٦: ٤٥١ / ٢٧٤٢، بنحو ما رواه أحمد؛ الأوسط ٥: ٢٧٥، بلفظ: «... إنّ الله يحبّ أن تؤتى عزائمه كما يكره أن تؤتى معصيته»؛ (رقم ٥٣٠٢ ـ ط: بيضون)؛ شعب الإيمان ٣: ٤٠٣ / ٣٨٩٠؛ مجمع الزوائد ٣: ١٦٢، بنحو ما رواه أحمد. قال الهيثمي: رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح والبزّار والطبراني في الأوسط وإسناده حسن؛ كنزالعمّال ٣: ٣٤ / ٥٣٣٥.

(٥) الدرّ ١: ٤٦٦؛ الكبير ٨: ١٥٤، (برقم ٤٩٢٧ ـ ط: بيضون)؛ مجمع الزوائد ٣: ١٦٢ ـ ١٦٣.

[٤٥٨٤/٢] وأخرج عن علقمة بن قيس عن عبدالله بن مسعود، قال: قال رسول الله ﷺ: «إنّ الله يُحبّ أن تُعمل رُخَصُه كما يحبّ أن تُعمل عزائمه»[١].

[٤٥٨٥/٢] وأخرج عن هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة، قالت: قال النبيّ ﷺ: «إنّ الله يُحبّ أن تؤتىٰ رُخَصُه كما يحبّ ان تُؤتىٰ عزائمه»[٢].

[٤٥٨٦/٢] وأخرج عن حفص بن عبدالله عن عُمَر بن عُبَيد البصري ـ صاحب الخُمُر ـ عن هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة، قالت: قال رسول الله ﷺ: «إنّ الله يُحبّ أن يُؤْخَذَ بِرُخَصِه كما يُحبّ أن يُؤخَذ بعزائمه». قلت: وما عزائمه؟ قال: فرائضه![٣]

* * *

[٤٥٨٧/٢] وأخرج مسلم بالإسناد إلى الزُّهريّ قال: وكان الفطر آخر الأمرين. وإنّما يؤخذ من أمر رسول الله ﷺ بالآخر فالآخر[٤].

[٤٥٨٨/٢] وأيضاً عن ابن شهاب الزُّهريّ قال: كانوا ـ أي الصحابة ـ يتّبعون الأحدث فالأحدث من أمره ﷺ ويرونه الناسخَ المُحْكَمَ[٥].

[٤٥٨٩/٢] وأخرج مسلم والترمذي والنسائي بالإسناد إلى جابر بن عبدالله الأنصاري ـ واللفظ لمسلم ـ قال: خرج رسول الله ﷺ عام الفتح إلى مكّة في رمضان، حتّى بلغ «كراع الغميم»[٦] فصام الناس ـ أي كانوا داوموا على صيامهم ـ ثمّ دعا بقدحٍ من ماءٍ فرفعه حتّى نظر الناس إليه، ثمّ شرب. فقيل له بعد ذلك: إنّ بعض الناس قد صام! فقال: «أُولئك العصاة، أولئك العُصاة»[٧].

[٤٥٩٠/٢] وروى الكليني بإسناده عن أبي عبدالله ؛ قال: «إذا خرج الرجل في شهر رمضان مسافراً أفطر. وقال: إنّ رسول الله ﷺ خرج من المدينة إلى مكّة في شهر رمضان ومعه الناس وفيهم المشاة. فلمّا انتهى إلى «كُراع الغميم» دعا بقدح من ماء، فيما بين الظهر والعصر فشربه وأفطر، وأفطر معه الناس. وتمَّ أناسٌ على صومهم، فسمّاهم: العصاة! قال: وإنّما يؤخذ بآخر أمر

(١) الأوسط ٣: ٨٩.
(٢) المصدر ٨: ٨٢.
(٣) المصدر ٦: ٢٣٦.
(٤) مسلم ٣: ١٤١.
(٥) المصدر.
(٦) كُراع الغميم: وادٍ بين الحرمين على مرحلتين من مكّة.
(٧) مسلم ٣: ١٤١ـ١٤٢؛ الترمذي ٣: ٨٩، باب ١٨ من كتاب الصوم (٧١٠)؛ النسائي ٢: ١٠١ / ٢٥٧١، باب ٤٩.

رسول الله ﷺ»[١].

قوله: «وإنّما يؤخذ بآخر أمر رسول الله» يعني: أنّ المعتبر من شرايع الدين ماشُرّع متأخّراً، فيكون ناسخاً لما قبله. فيجب الأخذ بهذا الأخير وهو الحجّة الباقية.

[٤٥٩١/٢] وهكذا روى مسلم بالإسناد إلى ابن شهاب عن عبيدالله بن عبدالله بن عُتبة عن ابن عبّاس، أنّه أخبره أنّ رسول الله ﷺ خرج عام الفتح في رمضان فصام حتّى بلغ الكَدِيد[٢] ثمّ أفطر. قال: وكان صحابةُ رسول الله ﷺ يتّبعون الأحدث فالأحدث من أمره ﷺ[٣].

قوله: فصام حتّى بلغ الكَدِيد: أي داوم على صومه هو وأصحابه حتّى بلغوا ذلك الموضع.

[٤٥٩٢/٢] وروى العيّاشيّ بالإسناد إلى محمّدبن مسلم عن الإمام أبي عبدالله ؑ قال: «لم يكن رسول الله ﷺ يصوم في السفر تطوّعاً ولا فريضةً. منذ نزلت هذه الآية، ورسول الله ﷺ بكُراع الغميم، عند صلاة الهجير. فدعا رسول الله ﷺ بإناء فشرب، فأمر الناس أن يُفطروا. وقال قوم: قد توجّه النهار، ولو تمّمنا يومنا هذا! فسمّاهم رسول الله ﷺ العصاة، فلم يزالوا يُسَمَّون بذلك الاسم حتّى قُبض رسول الله ﷺ»[٤].

[٤٥٩٣/٢] وروى الكليني عن عليّ بن إبراهيم عن أبيه عن ابن أبي عمير عن حمّاد عن الحلبي عن الإمام أبي عبدالله ؑ قال: قلت له: رجل صام في السفر؟ فقال: «إن بلغه أنّ رسول الله ﷺ نهى عن ذلك فعليه القضاء، وإن لم يكن بلغه فلا شيء عليه»[٥].

[٤٥٩٤/٢] وعن أبي عليّ الأشعري عن محمّد بن عبدالجبّار عن صفوان بن يحيى عن العيص بن القاسم عن أبي عبدالله ؑ قال: «من صام في السفر بجهالة لم يقضه»[٦].

---

(١) الكافي ٤: ١٢٧ / ٥؛ الفقيه ٢: ٩١ / ٤٠٧؛ الوسائل ١٠ / ١٧٦ / ٧.

(٢) الكَدِيد، هو موضع على اثنين وأربعين ميلاً من مكة. بين عُسفان وأمج. قال ابن إسحاق: سار النبيّ ﷺ إلى مكّة في رمضان فصام وصام أصحابه حتّى إذا كان بالكَدِيد بين عُسفان وأمج، أفطر. (معجم البلدان ٤: ٤٤٢). قال البخاري (٣: ٤٣): الكَديد: ماءٌ بين عُسفان و قُدَيد. (٣) مسلم ٣: ١٤٠ ـ ١٤١.

(٤) العيّاشيّ ١: ١٠٠ / ١٩١. وصحّحناه على مجمع البيان ٢: ١٠. وراجع: البحار ٩٣: ٣٢٥. والبرهان ١: ٣٩٥. ونورالثقلين ١: ١٦٤ ـ ١٦٥.

(٥) الكافي ٤: ١٢٨ / ١؛ الفقيه ٢: ١٤٤ / ١٩٨٧؛ التهذيب ٤: ٢٢٠ ـ ٢٢١ / ٦٤٣ ـ ١٨.

(٦) نورالثقلين ١: ١٦٥؛ الكافي ٤: ١٢٨ / ٢.

[٤٥٩٥/٢] وعن صفوان بن يحيى عن عبدالله بن مسكان عن ليث المرادي عن أبي عبدالله عليه السلام قال: «إذا سافر الرجل في شهر رمضان أفطر، وإن صامه بجهالة لم يقضه»[١].

[٤٥٩٦/٢] وعن جميل بن درّاج عن الوليد بن صبيح قال حُممت بالمدينة يوماً في شهر رمضان، فبعث إليّ أبو عبدالله عليه السلام بقصعة فيها خلّ وزيت وقال لي: «أفطر، وصلّ وأنت قاعد!»[٢]

ومن ثمّ فقد تظافر الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: «ليس من البرّ الصيام في السفر».

[٤٥٩٧/٢] أخرج الشيخان والترمذي والنسائي عن جابر بن عبدالله الأنصاري ـ واللفظ للبخاري ـ أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كان في سفر، فرأى زُحاماً ورجلاً قد ظُلّل عليه. فقال: ما هذا؟ فقالوا: صائم! فقال: «ليس من البرّ الصوم في السفر». وفي لفظ النسائي: «ليس من البرّ الصيام في السفر». وهكذا لفظ الترمذي. وفي لفظ مسلم: «ليس من البرّ أن تصوموا في السفر»[٣].

* * *

[٤٥٩٨/٢] وكذلك أخرج مسلم بعدّة أسانيد عن أمّ الفضل بنت الحارث، أنّ ناساً تماروا يوم عرفة في صيام رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فزعم بعضهم أنّه صائم. وآخرون: غير صائم. قالت: فأرسلتُ إليه بقدح لبن وهو بعرفة فشربه.

[٤٥٩٩/٢] وفي رواية أُخرى عن ميمونة أنّها أرسلت إليه بِحِلاْب اللبن وهو واقف في الموقف فشرب منه والناس ينظرون إليه[٤].

[٤٦٠٠/٢] وأخرج النسائي بعدّة أسانيد عن الأوزاعي، قال: حدّثني يحيى بن أبي كثير رفعه إلى عمرو بن أميّة الضَّمْريّ قال: قدمت على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فسلّمتُ عليه، فلمّا ذهبتُ لأخرج قال: «انتظرِ الغداءَ يا أبا أميّة! قلت: إنّي صائم، يا نبيّ الله! قال: تعالَ أخبرك عن المسافر، إنّ الله تعالى وضع عنه الصيام ونصف الصلاة»[٥]. وهكذا رواه مسلم في الصحيح[٦].

[٤٦٠١/٢] وأخرج عن الزُّهْريّ عن حُمَيْد بن عبدالرحمان عن أبيه، وكذا عن غيره عنه، قال:

---

(١) نورالثقلين ١: ١٦٥؛ الكافي ٤: ١٢٨/ ٣.
(٢) الكافي ٤: ١١٨/ ١؛ الفقيه ٢: ١٣٢/ ١٩٤٢.
(٣) البخاري ٣: ٤٤؛ مسلم ٣: ١٤٢؛ النسائي ٤: ١٤٨.
(٤) مسلم ٣: ١٤٥ و ١٤٦.
(٥) سنن النسائي ٤: ١٧٩.
(٦) مسلم ٣: ١٤٦.

الصائم في السفر كالمفطر في الحضر[١].

[٤٦٠٢/٢] وأخرج أبو داوود عن جعفربن جبر، قال: كنت مع أبي بصرة الغفاري صاحب النبيّ ﷺ في سفينة من الفُسطاط[٢] في رمضان، فرُفع، ثمّ قرب غداه فدعا بالسُّفرة، قال: اقترب. قلت: ألست ترى البيوت؟ قال أبو بصرة: أترغب عن سنّة رسول الله ﷺ؟ فأكل[٣].

[٤٦٠٣/٢] وأخرج عن منصور الكلبي أنّ دحية بن خليفة خرج من قرية من دمشق مرّةً إلى قدر قرية عقبة من الفُسطاط، وذلك ثلاثة أميال، في رمضان، ثمّ أفطر وأفطر معه ناس وكره آخرون أن يفطروا. فلمّا رجع إلى قريته قال: والله لقد رأيت اليوم أمراً ما كنتُ أظنّ أنّي أراه؛ إنّ قوماً رغبوا عن هدى رسول الله ﷺ وأصحابه!![٤].

[٤٦٠٤/٢] وأخرج الترمذي عن أنس بن مالك (رجلٌ من بني عبدالله بن كعب) قال: أغارت علينا خيل رسول الله ﷺ فأتيت رسول الله ﷺ فوجدته يتغدَّى، فقال: «ادن فكل. فقلت: إنّي صائم. فقال: ادن أحدّثك عن الصوم، إنّ الله تعالى وضع عن المسافر الصوم وشطر الصلاة، وعن الحامل والمرضع».

قال: حديث أنس بن مالك الكعبي حديث حسن[٥].

قال: واختلف أهل العلم في الصوم في السفر، فرأى بعض أهل العلم من أصحاب النبيّ ﷺ وغيرهم: أنّ الفطر في السفر أفضل، حتّى رأى بعضهم أنّ عليه الإعادة إذا صام في السفر[٦]. حسبما يأتي في كلام أبي جعفر الطبري.

* * *

وبعد فهناك روايات كانت ترخّص الصوم والإفطار ـ حسبما يأتي ـ جاءت مردفة مع الّتي سردناها، ولكن العمل على أحدث الأحاديث، كما مرّ في كلام الإمام جعفربن محمّد الصادق عليه السلام وعرفت من كلام أبي بصرة الغفاري ودحية بن خليفة، وأنّه عمل الصحابة، واستغرابهم رغبة

(١) المصدر ٤: ١٥٤.

(٢) الفُسطاط: أوّل مدينة أسّسها العرب في مصر بالقرب من بَابَلْيُون على الضفة الشرقيّة للنيل.

(٣) أبو داوود ٢: ٢٤١٢/٣١٨.

(٤) المصدر: ٢٤١٣/٣١٩.

(٥) الترمذي ٣: ٧١٥/٩٤، باب ٢١.

(٦) المصدر: ٩٠، باب ١٨.

البعض عن هدي رسول الله وصحابته الكبار.

قال سيّد قطب: والأحاديث بجملتها تشير إلى تقبّل رخصة الإفطار في السفر في سماحة ويسر وترجّح الأخذ بها، وثابت من حديث جابر أنّهﷺ أفطر وقال عن الّذين لم يُفطروا: أولئك العُصاة، أولئك العصاة.

قال: وهذا الحديث متأخّر ـ في سنة الفتح ـ فهو أحدث من الأحاديث الأخرى وأكثر دلالةً على الاتّجاه المختار[1]. وقد اختار ترجيح الفطر على الصوم في كلتا حالتي السفر والمرض بإطلاقهما.

[٤٦٠٥/٢] أخرج أبو جعفر الطبري بالإسناد إلى جابر بن زيد عن ابن عبّاس قال: الإفطار في السفر عزمة.

[٤٦٠٦/٢] وعن يوسف بن الحكم قال سألت ابن عمر، أو سُئل عن الصوم في السفر، فقال: أرأيت لو تصدّقت على رجل بصدقة فردّها عليك، ألم تغضب؟ فإنّها صدقة من الله تصدّق بها عليكم.

[٤٦٠٧/٢] وعن عبدالملك بن حميد قال: قال أبو جعفر: كان أبي لا يصوم في السفر وينهى عنه.

[٤٦٠٨/٢] وعن الضحّاك أنّه كره الصوم في السفر.

قال أبو جعفر: قال أهل هذه المقالة: من صام في السفر فعليه القضاء إذا أقام!

[٤٦٠٩/٢] فقد روى نصر بن عليّ الخثعمي بالإسناد إلى ربيعة بن كلثوم رفعه عن عمر بن الخطّاب أنّه أمر الّذي صام في السفر أن يعيد.

[٤٦١٠/٢] وكذا روى محمّد بن المثنّى بالإسناد إلى سعيد بن عمرو بن دينار عمّن ذكر له من تميم أنّ عمر أمر رجلاً صام في السفر أن يعيد صومه.

[٤٦١١/٢] وعن ربيعة بن كلثوم عن أبيه: أنّ قوماً قدموا على عمر بن الخطّاب وقد صاموا رمضان في سفر! فقال لهم عمر: والله لكأنّكم كنتم تصومون!! فقالوا: والله يا أمير المؤمنين، لقد صمنا! قال: فأطقتموه؟ قالوا: نعم! قال: فاقضوه فاقضوه فاقضوه!!

[٤٦١٢/٢] وعن المحرّر بن أبي هريرة قال: كنت مع أبي في سفر في رمضان، فكنت أصوم

---

(١) في ظلال القرآن ١: ٢٤٣.

ويُفطر! فقال لي أبي: أما إنّك إذا أقمت قضيت!

[٤٦١٣/٢] وبالإسناد إلى شعبة عن عاصم قال: سمعت عروة يأمر رجلاً صام في السفر أن يقضي!

قال: وعلّة من قال هذه المقالة: أنّ الله تعالى جعل فرض المريض والمسافر صوم عدّة من أيّام أُخر غير شهر رمضان، فكما أنّ المقيم لايجوز له الإفطار أيّام رمضان والصيام عدّة أيّام أُخر، كذلك لا يجوز للمسافر الصيام في رمضان. لأنّ فرضه أيّام أخر.

[٤٦١٤/٢] مضافاً إلى ما روي عن ابن عوف قال: قال رسول الله ﷺ: «الصائم في السفر كالمفطر في الحضر».

* * *

قال أبو جعفر: وقال آخرون: إباحة الإفطار في السفر رخصة. والفرض الصوم. فمن صام فقد أدّى فرضه. ومن أفطر فقد أخذ بالرخصة.

[٤٦١٥/٢] وأخرج بالإسناد إلى أيّوب قال: كان عروة وسالم عند عمر بن عبدالعزيز أيّام كان أميراً على المدينة، فتذاكروا الصوم في السفر. قال سالم: كان ابن عمر لايصوم في السفر، وقال عروة: كانت عائشة تصوم. فقال سالم: إنّما أخذت عن ابن عمر! وقال عروة: إنّما أخذت عن عائشة! حتّى ارتفعت أصواتهما. فقال عمر بن عبدالعزيز: اللّهمّ عفواً، إذا يُسراً فصوموا، وإذا عسراً فأفطروا.

[٤٦١٦/٢] وأخرج بالإسناد إلى الزُّهريّ عن سالم بن عبدالله. قال: خرج عمر في بعض أسفاره في ليالٍ بقيت من رمضان، فقال: إنّ الشهر قد تَشَعْشَعَ ـ أو تَسَعْسَعَ ـ[1] فلو صمنا ـ أي لعلّنا نصوم هذه البقيّة ـ فصام وصام الناس معه.

قال سالم: ثمّ أقبل مرّة قافلاً حتّى إذا كان بالروحاء[2] أهلّ هلال شهر رمضان، فقال عمر: إنّ الله قد قضى السفر، فلو صمنا ولم نثلم شهرنا! فصام وصام الناس معه.

[٤٦١٧/٢] وبالإسناد إلى خيثمة قال: سألت أنس بن مالك عن الصوم في السفر؟ فقال: قد أمرتُ

(١) تشعشع: أي رقّ وبقيت منه بقيّة يسيرة. أمّا تسعسع فمعناه: أدبر وفَنِيَ إلّا أقلّه.

(٢) موضع على بُعد ستة وثلاثين ميلاً من المدينة.

غلامي أن يصوم فأبىٰ! قلت: فأين هذه الآية.. قال: نزلت ونحن يومئذٍ نرتحل جياعاً وننزل على غير شبع، وإنّا اليوم نرتحل شباعاً وننزل على شَبَع.

[٤٦١٨/٢] وعن عاصم عن أنس وقد سئل عن الصوم في السفر؟ فقال: من أفطر فبرخصةٍ، ومن صام فالصوم أفضل.

[٤٦١٩/٢] وعن محمّدبن عثمان بن أبي العاص قال: الفطر في السفر رخصة، والصوم أفضل.

[٤٦٢٠/٢] وعن عطاء قال: إن صُمتم أجزأ عنكم، وإن أفطرتم فرخصة. وهكذا روى عن سالم بن عبدالله. وقريب منه عن الحسن.

[٤٦٢١/٢] وعن رجل من بني ليث ـ ربما قيل: إنّه واثلة بن الأسقع ـ قال: لو صُمت في السفر ما قضيتُ!

[٤٦٢٢/٢] وعن العوّام بن حوشب قال: قلت لمجاهد: الصوم في السفر؟ قال: كان رسول الله ﷺ يصوم فيه ويفطر. قلت: فأيّهما أحبّ إليك؟ قال: هي رخصة وأن تصوم رمضان أحبّ إليّ!

[٤٦٢٣/٢] وهكذا روي عن سعيدبن جبير وإبراهيم. وزاد مجاهد: ما منهما إلّا حلال: الصوم والإفطار، وما أراد الله بالإفطار إلّا التيسير لعباده.

[٤٦٢٤/٢] وعن شعبة عن الأشعث بن سليم قال: صحبت أبي والأسودبن يزيد وعمروبن ميمون وأبا وائل إلى مكّة، وكانوا يصومون رمضان وغيره في السفر.

[٤٦٢٥/٢] وعن محمّدبن صالح قال: قلت للقاسم بن محمّد: إنّا نسافر في الشتاء في رمضان، فإن صمتُ فيه كان أهون عَلَيّ من أن أقضيه في الحرّ! فقال: قال الله: يريد بكم اليسر ولا يريد بكم العسر، ما كان أيسر عليك فافعل(١).

قال أبو جعفر الطبري: وهذا القول عندنا أولى بالصواب، لإجماع الجميع على أنّ مريضاً لو صام شهر رمضان وهو ممّن له الإفطار لمرضه، أنّ صومه ذلك مجزىءٌ عنه ولا قضاء عليه. قال: فكان معلوماً بذلك حكم المسافر، أن لا قضاء عليه إذا صام في سفره، قال: وفي الآية دلالة على ذلك، لأنّه تعالى رخّص في الإفطار إرفاقاً لأجل اليسر ولا يريد بهم العسر.

---

(١) انظر: الطبري ٢: ٢٠٥ ـ ٢١١ / ٢٣٤١ ـ ٢٣٦٥.

قال: فإن ظنّ ذو غباوةٍ[1] أنّ الّذي صامه لم يكن فرضه الواجب، فإنّ عموم الآية يخالفه، وكان معنى قوله تعالي: ﴿فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضاً أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾ أنّ من أفطر عن رخصة فعليه صوم عدّة أيّام أُخر مكان الأيّام الّتي أفطر في سفره أو مرضه[2].

قال: وقد تظاهرت الأخبار عن رسول الله ﷺ أنّه رخّص الصوم والفطر كليهما في السفر:

[٤٦٢٦/٢] فقد روي أنّ حمزة الأسلمي كان يسرد الصوم ـ أي يتابع فيه ـ فسأل رسول الله ﷺ عن الصوم في السفر. فقال رسول الله ﷺ: «إنّما هي رخصة من الله لعباده، فمن فعلها فحسن جميل ومن تركها فلا جناح عليه». فكان حمزة يصوم الدهر، فيصوم في السفر والحضر. وكان عروة بن الزبير يصوم الدهر في السفر والحضر، حتّى أن كان ليمرض فلا يفطر. وكان أبو مراوح يصوم الدهر سفراً وحضراً.

قال أبو جعفر: ففي هذا مع نظائره من الأخبار الّتي يطول باستيعابها الكتاب، الدلالة الدالّة على صحّة ما قلنا من أنّ الإفطار رخصة لاعزم.

قال: وأمّا حديث «ليس من البرّ الصيام في السفر» فمورده ما إذا أضرّه الصوم وهكذا قوله: الصائم في السفر كالمفطر في الحضر، كان لمن أضرّه الصوم[3].

* * *

ووافقه على ذلك أبو إسحاق الثعلبي قال: قال قوم: الإفطار في السفر عزيمة واجبة وليس برخصة، فمن صام في السفر فعليه القضاء إذا أقام. وهو قول عمربن الخطّاب وأبي هريرة وابن عبّاس وعليّ بن الحسين وعروة بن الزبير والضحّاك.

[٤٦٢٧/٢] واستندوا إلى رواية أمّ الدرداء عن كعب بن عاصم قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ليس من البرّ الصيام في السفر»[4].

[٤٦٢٨/٢] وروى الزُّهري بالإسناد إلى عبدالرحمان بن عوف، قال: الصائم في السفر كالمفطر في الحضر.

---

(١) تعبير متجافٍ بالنسبة إلى من ذكر عنهم أنّهم أوجبوا القضاء لمن صام في السفر!؟

(٢) الطبري ٢: ٢١٠.

(٣) الطبري ٢: ٢١١ ـ ٢١٢.

(٤) الأمّ ٢: ١١٢؛ مسند الحميدي ٢: ٣٨١.

قال: وقال آخرون: الإفطار في السفر رخصة من الله ـ عزّ وجلّ ـ والفرض الصوم، فمن صام نفرضَه أدّىٰ، ومن أفطر فبرخصة الله أخذ!

قال: وهذا هو الصحيح وعليه عامّة الفقهاء. واستدلّ بمايلي:

[٤٦٢٩/٢] روى عاصم بن الأحول عن أبي نضرة عن جابر قال: كنّا مع النبيّ ﷺ في سفر، فمنّا الصائم ومنّا المفطر، فلم يكن بعضُنا يعيب على بعض.

[٤٦٣٠/٢] وروى يحيى بن سعيد عن هشام عن أبيه عن عائشة: أنّ حمزة بن عمرو قال: يا رسول الله ﷺ إنّي كنت أتعوّد الصيام، أفأصوم في السفر؟ قال: «إن شئت فصم وإن شئت فأفطر»[١]

[٤٦٣١/٢] وعن عروة بن أبي قراح عن حمزة بن عمرو أنّه قال: يا رسول الله ﷺ أجد بي قوّة على الصيام في السفر، فهل عليّ جناح؟ قال: «هي رخصة من الله ـ عزّ وجلّ ـ: فمن أخذها فحسن، ومن أحبّ أن يصوم فلا جناح عليه»[٢].

قال: والجامع لهذه الأخبار، والمؤيّد لما قلنا ما روى أيّوب عن عروة وسالم، أنّهما كانا عند عمربن عبدالعزيز، إذ هو أمير على المدينة، فتذاكروا الصوم في السفر.

فقال سالم: كان ابن عمر لايصوم في السفر! وقال عروة: كانت عائشة تصوم في السفر!

فقال سالم: إنّما أحدّث عن عبدالله بن عمر! وقال عروة: إنّما أحدّث عن عائشة! فارتفعت أصواتُهما. فقال عمربن عبدالعزيز: اللّهمّ اغفر، إذاكان يُسراً فصوموا وإذاكان عُسراً فأفطروا[٣].

* * *

[٤٦٣٢/٢] روى أبو النضر محمّدبن مسعود بن عيّاش بالإسناد إلى الزُّهري عن الإمام زين‌العابدين ؏ في صوم السفر والمرض قال: اختلفت العامّة (عامّة الفقهاء) في ذلك فقال قوم: يصوم. وقال قوم: لايصوم. وقال قوم: إن شاء صام وإن شاء أفطر! قال: وأمّا نحن فنقول: يُفطر في الحالين جميعاً، فإن صام في السفر أو في حال المرض، فعليه القضاء؛ ذلك بأنّ الله تعالى يقول:

---

(١) ابن ماجة ١: ٥٣١ / ١٦٦٢؛ سنن النسائي ٤: ١٨٦.

(٢) مسلم ٣: ١٤٥.

(٣) الثعلبي ٢: ٧١ ـ ٧٢.

﴿وَمَنْ كَانَ مَرِيضاً أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ يُرِيدُ اللهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾[١].

ورواه ابن بابويه الصدوق[٢] والكليني[٣] والشيخ أبوجعفر الطوسي[٤] وغيرهم.

ورواه القمي بلفظ: «... فإن صام في السفر أو في حال المرض فهو عاصٍ وعليه القضاء»[٥].

[٤٦٣٣/٢] وقال ابن بابويه الصدوق: روي أنّ من صام في مرضه أو سفره أو أتمّ الصلاة فعليه القضاء، إلّا أن يكون جاهلاً فيه، فليس عليه شيء[٦].

[٤٦٣٤/٢] وروي عن الإمام أبي عبدالله عليه السلام قال: «كلّما أضرّ به الصوم فالإفطار واجب»[٧].

[٤٦٣٥/٢] وروى الكليني بالإسناد إلى مصدّق بن صدقة، عن عمّار بن موسى، عن أبي عبدالله عليه السلام في الرجل يجد في رأسه وجعاً من صداع شديد، هل يجوز له الإفطار؟ قال: «إذا صدع صداعاً شديداً، وإذا حمّ حمّىً شديدة، وإذا رمدت عينه رمداً شديداً فقد حلّ له الإفطار».

ورواه الشيخ بإسناده عن محمّدبن يعقوب كذلك[٨].

[٤٦٣٦/٢] وروى بالإسناد إلى أبي بكر الحضرمي، «سأل الإمامَ أبا عبدالله الصادق عليه السلام قال: ما حدّ المرض الّذي يُتْرَكُ منه الصوم؟ قال: إذا لم يستطع أن يتسحّر».[٩]

[٤٦٣٧/٢] وروى القاضي نعمان المصري عنه عليه السلام قال: «أن يكون العليل لا يستطيع أن يصوم، أو استطاع ولكن زاد في علّته وخاف على نفسه. وهو مؤتمن على ذلك مفوّض إليه فيه؛ فإن أحسّ ضعفاً فليفطر، وإن وجد قوّة على الصوم فليصم، كان المريض على ماكان»[١٠].

---

(١) العيّاشيّ ١: ١٠١/ ١٩٣؛ البحار ٩٣: ٢٦٢، باب ٣١، عن القمي والخصال وفقه الرضا والهداية للصدوق.

(٢) الفقيه ٢: ٨١/ ١٧٨٤؛ الخصال: ٥٣٧/ ٢، أبواب الأربعين.

(٣) الكافي ٤: ٨٦/ ١.

(٤) التهذيب ٤: ٢٩٧/ ٨٩٥ـ ١.

(٥) في حديث طويل عن الزُّهري عن الإمام عليّ بن الحسين عليه السلام يذكر فيه أنواع وربما بلغت أربعين نوعاً (القمي ١: ١٨٥ـ ١٨٧).

(٦) فقه الرضا: ٢٠٨؛ البحار ٩٦: ٣٢٣.

(٧) الفقيه ٢: ١٣٣/ ١٩٤٦.

(٨) الكافي ٤: ١١٨/ ٥؛ التهذيب ٤: ٢٥٦/ ٧٦٠؛ الوسائل ١٠: ٢٢٠.

(٩) الكافي ٤: ١١٨ـ ١١٩/ ٦؛ الفقيه ٢: ١٣٢/ ١٩٤٣؛ التهذيب ٢: ١٧٨/ ٤٠١ـ ١٤؛ و ٤: ٣٢٥/ ١٠٠٩ـ ٧٧.

(١٠) دعائم الإسلام ١: ٢٧٨؛ مستدرك الوسائل ٧: ٣٨٩؛ البحار ٩٣: ٣٢٦/ ٢٣، باب ٤٢.

ورواه العيّاشيّ أيضاً في التفسير[١].

[٤٦٣٨/٢] لكن روى ابن جُريج عن عطاء، قال: قلت له: من أيّ المرض أفطر؟ قال: من أيّ مرض كان، كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ كَانَ مَرِيضاً...﴾[٢]. يعني: الإطلاق.

ولعلّ المتصوّر: أيّ نوع من أنواع الأمراض. فلا ينافي ما تقدّم.

* * *

قلت: أمّا تحديد المرض المسوّغ للإفطار، بالزيادة في العلّة، فلكونه مفهوماً من مناسبة الحكم والموضوع بدلالة الاقتضاء. إذ لا يكون المرض سبباً لإيجاب حكم أو سقوطه، إلّا إذا كان ذلك الأمر مؤثّراً في المرض رفعاً أو زيادة وهكذا جاء في أحاديث أهل البيت عليهم السلام[٣] وأفتى به أصحابنا الإماميّة رضوان الله عليهم[٤]. قال صاحب الجواهر رحمه الله: المدار في جواز الإفطار، على خوف الضرر، لقوله عليه السلام: «كلّما أضرّ به الصوم فالإفطار له واجب»[٥].

وكذا المدار على صدق السفر بطيّ مسافة ثمانية فراسخ، ولو كان ملفّقاً ذهاباً وإياباً. حسبما فصّلته الروايات وفتاوى الأصحاب.. وتمام الكلام في محلّه[٦].

قوله تعالى: ﴿كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾

كان الصوم شريعة إلّهيّة قديمة، ولا تجد نحلة من النحل إلّا وفيها شريعة الصيام، على مختلف أنحائه من الإمساك عن طرف من الجسمانيّات، لترقية النفس وتصاعدها في المعنويّات، تناسياً عن عالم الملك ـ بعض الشيء ـ تمهيداً للتعالي إلى عالم القدس والملكوت، فلم تكن شريعة الصيام ـ أي الإمساك عن بعض مشتهيات النفس لفترة قصيرة ـ جديدة على الأمّة المسلمة، فلتَهُن عليهم ولا يستصعبوها!!

---

(١) العيّاشيّ ١: ١٠٠ / ١٩٠؛ الكافي ٤: ١١٨ / ٣؛ التهذيب ٤: ٢٥٦؛ الاستبصار ٢: ١١٤؛ البحار ٩٣: ٣٢٥ / ١٦.

(٢) ابن عساكر ٥٢: ٨٦، باب ٦٠٩٨. (محمّدبن إسماعيل بن إبراهيم)؛ القرطبي ٢: ٢٧٧.

(٣) راجع: الوسائل ١٠: ٢١٧ ـ ٢٢٢، كتاب الصوم، الأبواب: ١٨ و ١٩ و ٢٠.

(٤) راجع: جواهر الكلام ١٦: ٣٤٥ ـ ٣٤٨.

(٥) الجواهر ١٦: ٣٤٧؛ الوسائل ١٠: ٢١٩ / ٢.

(٦) راجع: النهاية للشيخ: ١٢٢.

قال ابن عاشور: والمراد من ﴿قَبْلِكُمْ﴾ من كان قبل المسلمين من أهل الشرائع، وهم أهل الكتاب أعني اليهود؛ لأنّهم الّذين يعرفهم المخاطبون ويعرفون ظاهر شؤونهم وكانوا على اختلاط بهم في المدينة.

وكان لليهود صوم فرضه الله عليهم وهو صوم اليوم العاشر من الشهر السابع من سنتهم، وهو الشهر المسمّى عندهم «تِشرِي» يبتدىء الصوم من غروب اليوم التاسع إلى غروب اليوم العاشر، وهو يوم كفّارة الخطايا ويسمّونه «كَبُّور».

ثمّ إنّ أحبارهم شرّعوا صوم أربعة أيّام أخرى، وهي الأيّام الأُوَل من الأشْهُر: الرابع والخامِس والسابع والعاشِر من سنتهم، تذكاراً لوقائع بيت المقدس. وصوم يوم «بُورِيم» تذكاراً لنجاتهم من غضب ملك الفرس «خشايارشاه» في قصّة «استيرا». وعندهم صوم التطوّع.

[٢/٤٦٣٩] وفي الحديث: «أحبّ الصيام إلى الله: صيام داوود، كان يصوم يوماً ويفطر يوماً»(١).

أمّا النصارى فليس في شريعتهم نصّ على تشريع صوم زائد على ما في التوراة، فكانوا يتّبعون صوم اليهود.

[٢/٤٦٤٠] وفي صحيح مسلم عن ابن عبّاس: قالوا: يا رسول الله ﷺ إنّ يوم عاشوراء تعظّمه اليهود والنصارى(٢).

ثمّ إنّ رهبانهم شرّعوا صوم أربعين يوماً اقتداءً بالمسيح، إذ صام أربعين يوماً قبل بعثته. ويُشرع عندهم نذرُ الصوم عند التوبة وغيرها. إلّا أنّهم يتوسّعون في صفة الصوم، فهو عندهم: ترك الأقوات القويّة والمشروبات، أو هو تناول طعام واحد في اليوم، يجوز أن تلحقه أكلة خفيفة(٣).

* * *

قال الشيخ محمّد عبده: الصوم، إعداد للنفس وتهيئة لها لتقوى الله بالمراقبة له وتربية الإرادة على كبح جماح الشهوات ليقوى صاحبها على ترك المضارّ والمحرّمات. وقد كُتب على أهل الملل السابقة، فكان ركناً من كلّ دين، لأنّه من أقوى العبادات وأعظم ذرائع التهذيب. وفي إعلام الله لنا بأنّه فَرَضه علينا كما فَرَضه على الّذين من قبلنا، إشعار بوحدة الدين في أصوله ومقصده، وتأكيد

---

(١) مسلم ٣: ١٦٦.
(٢) المصدر: ١٥١.
(٣) التحرير والتنوير لابن عاشور ٢: ١٥٦.

لأمر هذه الفريضة وترغيب فيها.

قال: أبهم الله هؤلاء الّذين من قبلنا. والمعروف أنّ الصوم مشروع في جميع الملل حتّى الوثنيّة، فهو معروف عن قدماء المصريّين في أيّام وَثَنيّتهم، وانتقل منهم إلى اليونان، فكانوا يفرضونه لاسيّما على النساء. وكذلك الرومانيّون كانوا يعنون بالصيام. ولايزال وَثَنيّو الهند وغيرهم يصومون إلى الآن.

وليس في أسفار التوراة الّتي بين أيدينا ما يدلّ على فريضة الصيام، وإنّما فيها مدحه ومدح الصائمين.[١] وثبت أنّ موسى عليه السلام صام أربعين يوماً[٢]. وهو يدلّ على أنّ الصوم كان معروفاً مشروعاً ومعدوداً من العبادات. واليهود اليوم يصومون أسبوعاً تذكاراً لخراب أورشليم وأخذها. ويصومون يوماً من شهر آب.

قال السيّد رشيد رضا: ويُنقل أنّ التوراة فرضت عليهم صوم اليوم العاشر من الشهر السابع، وأنّهم يصومونه بليلته. ولعلّهم كانوا يسمّونه عاشوراء. ولهم أيّام أخر يصومونها نهاراً.

قال الشيخ: وأمّا النصارى فليس في أناجيلهم المعروفة نصّ في فريضة الصوم، وإنّما فيها ذكره ومدحه واعتباره عبادة، كالنهي عن الرياء وإظهار الكآبة فيه، بل تأمر الصائم بدهن رأسه وغسل الوجه حتّى لاتظهر عليه أمارة الصيام فيكون مرائياً كالفرّيسيّين[٣]. وأشهر صومهم وأقدمه الصوم الكبير الّذي قبل عيد الفصح، وهو الّذي صامه موسى وكان يصومه عيسى عليه السلام والحواريّون. ثمّ وضع رؤساء الكنيسة ضروباً أخرى من الصيام، وفيها خلاف بين المذاهب والطوائف. ومنها صوم عن اللحم[٤]، وصوم عن السمك، وصوم عن البيض واللبن. وكان الصوم المشروع عند الأوّلين منهم كصوم اليهود، يأكلون في اليوم والليلة مرّة واحدة، فغيّروه وصاروا يصومون من نصف الليل إلى نصف النهار، وفي قصّتي زكريّا ومريم عليهما السلام أنّهم كانوا يصومون عن الكلام، أي مع الصيام

---

(١) راجع: قاموس الكتاب المقدّس لجيمز هاكس: ٤٢٧ ـ ٤٢٨.

(٢) راجع: سفر التثنية (أص ٩: ٩).

(٣) جماعة كان دأبهم التقشّف والتزهّد في الحياة، إلى حدّ انعزالهم عن الجماعة، فكانوا يسمّون: المنعزلين. راجع: قاموس الكتاب المقدّس: ٦٥٢. على حدّ الصوفيّة والدراويش عندنا.

(٤) وكان صوماً شديد الكراهيّة. قاموس الكتاب المقدس: ٤٢٨.

عن شهوات الزوجيّة والشراب والطعام.(١) ومن ثمّ كان قوله تعالى: ﴿كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾ تشبيهاً لأصل الفريضة، من غير نظر إلى الكمّيّة أو الكيفيّة.

[٤٦٤١/٢] وهكذا روي عن معاذ بن جبل وعطاء قالا: التشبيه واقع على الصوم لا على الصفة ولا على العدّة، وإن اختلف الصيامان بالزيادة والنقصان(٢).

ذكر القرطبي وجوهاً للتشبيه هنا، أحدها: أنّه راجع إلى أصل الوجوب أو المشروعيّة.. ثانيها: أنّه واقع على الصفة من منعهم من الأكل والشرب والنكاح. قاله السّدّي وأبو العالية والربيع.

ثالثها: أنّه واقع على الصوم، لا على الصفة ولا على العدّة. قاله معاذ وعطاء(٣).

وقد ذكر قبل ذلك وجهاً رابعاً، عن الشعبي وقتادة وغيرهما، قالوا: التشبيه يرجع إلى وقت الصوم وقدر الصوم. فقد كتب الله على قوم موسى وعيسى صوم رمضان(!) فغيّروا وزاد أحبارهم عشرة أيّام، وزاد بعض آخر عشرة أخرى ـ لنذر نذره ـ حتّى أصبح صوم النصارى(!) خمسين يوماً. فصعب عليهم في الحرّ فنقلوه إلى الربيع. قال: واختار هذا القول النحّاس قال: وهو الأشبه بما في الآية.

[٤٦٤٢/٢] قال أبو عبدالله القرطبي: وفيه حديث يدلّ على صحّته أسنده عن دَغْفَل بن حنظلة(٤) عن النبيّ ﷺ قال: «كان على النصارى صوم شهر، فمرض رجل منهم فنذروا لئن شافاه الله، لزادوا عشرة. ثمّ كان آخر فأكل لحماً فأوجع فاه، فنذروا لئن شافاه الله، لزادوا سبعة. ثمّ كان ملك آخر فقالوا: لَنُتمَّنَّ هذه السبعة عشرة، ونجعل صومنا في الربيع(!)» قال النحّاس: فصار خمسين(٥).

---

(١) المنار ٢: ١٤٣ـ١٤٤.

(٢) القرطبي ٢: ٢٧٥.

(٣) المصدر.

(٤) إسمه حجر ولُقّب بدَغْفَل كجعفر بمعنى: ولد الفيل أو ولد الذئب. ومن العيش: الفاره الواسع. ومن الأعوام: الُمخْصَب. ومن الريش: الكثير. ولعلّه كان على هذه الصفات. كان نسّابة كثير العلم، ولكن أخذاً من أفواه الرجال أيّاً كانوا. وله أقاصيص هي أشبه بالخرافة. ومن ثمّ استنكره أهل الحديث. قبض النبيّ ﷺ وهو ابن خمس سنين، ومن ثمّ لم يسمع منه، فحديثه عنه مرسل (ولعلّه اختلاق). بعث إليه معاوية لموضع إعجابه به ـ فسأله عن العربيّة وأنساب الناس والنجوم، فوجده عالماً(!) ومن ثمّ رغب إليه أن يعلّم ابنه يزيد، ففعل (!) هلك غرقاً في يوم دولات في قتال الخوارج سنة سبعين. (الإصابة لابن حجر ١: ٤٧٥ / ٢٣٩٩).

(٥) وأخرجه الطبراني في الكبير ٤: ٢٢٧. وابن عساكر ١٧: ٢٨٧.

[٤٦٤٣/٢] وقال القرطبي: وقال مجاهد: كتب الله صوم رمضان على كلّ أمّة(!). وقيل: أخذوا بالوثيقة (أي الاحتياط في الأمر) فصاموا قبل الثلاثين بيوم، وبعدها بيوم، قرناً بعد قرنٍ[1]، حتّى بلغ خمسين يوماً، فصعب عليهم في الحرّ فنقلوه إلى الفصل الشمسي (أي فصل الربيع). قال النقّاش: وفي ذلك حديث عن دَغْفَل بن حنظلة، والحسن البصريّ والسُّدّي.

قال القرطبي: ولهذا (!) كُره الآن صوم يوم الشكّ، والستّة من شوّال بإثر الفطر.

[٤٦٤٤/٢] وقال الشعبي: لو صُمتُ السنة كلّها لأفطرت يوم الشكّ! ذلك لأنّ النصارى فرض عليهم صوم شهر رمضان، فحوّلوه إلى الفصل الشمسي. ثمّ جاء بعدهم قرن فأخذوا بالوثيقة لأنفسهم، فصاموا قبل الثلاثين بيوم وبعدها بيوم، ثمّ لم يزل الآخر يستنّ بسنّة مَنْ قَبْله حتّى انتهوا إلى الخمسين[2].

قلت: كلّ هذا حديث خرافة يا أمّ عمرو!

كما ومن المستغرب أنّهم أخذوا في نسج أوهامهم عن أمّة (أهل الكتاب) كانوا بين أظهرهم فلم يراجعوهم ولم يسألوهم عن شعائرهم الدينيّة، وهي تقام على مسمعهم ومنظرهم، فكيف يا تُرى أنّهم غفلوا عن ذلك وراحوا يتخبّطون في فراغات الأوهام!!

* * *

وهكذا أخذ أبوجعفر الطبري يساير تلكم الأوهام ليحشّد بها كتابه في التفسير.

قال: اختلفوا في المعنى الّذي وقع فيه التشبيه بين فرض صومنا وصوم مَنْ قَبْلنا. فقال قوم: إنّه في الوقت والمقدار. روى ذلك عن الشعبي.

وقال آخرون: إنّ صومهم كان من العتمة إلى العتمة. كانوا يمسكون عن الأكل والشرب والنساء. حكى ذلك عن الربيع.

وقيل: إنّما عنى بمَنْ قَبْلنا هم الناس أي جميع طوائف الناس، سواء أهل الكتاب وغيرهم من سائر الأمم جميعاً. وكان قد كتب الله على الأمم جميعاً صوم ثلاثة أيّام من كلّ شهر.

قال: وأولى هذه الأقوال قول من جعل التشبيه واقعاً بين فرضنا وفرض أهل الكتاب، نظراً

(١) أي زادوا في كلٍّ، يوماً في البدء ويوماً في الختام، إضافة على زيادة الأعوام السابقة(!).

(٢) القرطبي ٢: ٢٧٤ ـ ٢٧٥.

لأنّ الأديان كلّها تبع لدين إبراهيم عليه السلام وهو الّذي أُمرنا باتّباعه. إذن فقد وقع التشبيه على الوقت، لأنّ من كان قبلنا كان فرضهم صيام شهر رمضان..[١].

قلت: إن هذا إلّا رجم بالغيب ومن غير أن يكون له سند تحقيق!؟

وعلى غراره مشى أبو إسحاق الثعلبي[٢] وتبعه البغوي[٣] والخازن[٤] والماوردي[٥] وابن كثير[٦] وغيرهم من أصحاب التفسير بالأثر، من غير تريّث!

وجاء في رواياتنا عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم والأئمّة من أهل بيته عليهم السلام أنّ فريضة الصيام ـ ولا سيّما في شهر رمضان ـ فضيلة اختصّ الله بها هذه الأمّة. وقد كان فرضاً على الأنبياء أنفسهم دون أممهم. الأمر الّذي لا يتنافى ومشروعيّته لهم إجماليّاً والندب إليه في بعض الأحوال، كما عرفت[٧].

[٤٦٤٥/٢] روى ابن بابويه الصدوق بالإسناد إلى جابر بن عبدالله الأنصاري ـ رضوان الله عليه ـ قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «إنّ الله ـ تبارك وتعالى ـ لم يفرض من صيام شهر رمضان فيما مضى إلّا على الأنبياء دون أممهم، وإنّما فرض عليكم ما فرض على أنبيائه ورسله قبلي، إكراماً وتفضيلاً»[٨].

[٤٦٤٦/٢] وروى بإسناده إلى حفص بن غياث النخعي قال: سمعت الإمام أبا عبدالله الصادق عليه السلام يقول: «إنّ شهر رمضان لم يفرض الله صيامه على أحد من الأمم قبلنا.. إنّما فرض الله صيام شهر رمضان على الأنبياء دون الأمم، ففضّل الله به هذه الأمّة، وجعل صيامه فرضاً على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وعلى أمّته»[٩].

[٤٦٤٧/٢] وروى ثقة الإسلام الكليني بالإسناد إلى الإمام أبي جعفر الباقر عليه السلام قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لمّا حضر شهر رمضان، وذلك في ثلاث بقين من شعبان، قال لبلال: ناد في الناس،

---

(١) الطبري ٢: ١٧٤ ـ ١٧٥.
(٢) التعلبي ٢: ٦٢ ـ ٦٣.
(٣) البغوي ١: ٢١٤.
(٤) تفسير الخازن ١: ١١٠.
(٥) النكت والعيون ١: ٢٣٦.
(٦) ابن كثير ١: ٢٢٠.
(٧) راجع: قاموس الكتاب المقدّس ـ جيمز هاكس: ٤٢٧ ـ ٤٢٨.
(٨) مستدرك الوسائل ٧: ٤٠٠. عن كتاب فضائل الأشهر الثلاثة للصدوق: ١٣٩.
(٩) الفقيه ٢: ٩٩ ـ ١٠٠ / ١٨٤٤؛ فضائل الأشهر الثلاثة: ١٢٤ / ١٣١؛ البرهان ١: ٣٩٤ / ٢.

فجمع الناس، ثمّ صعد المنبر، فحمدالله وأثنى عليه، ثمّ قال: «أيّها الناس، إنّ هذا الشهر قد خصّكم الله به وحضركم، وهو سيّد الشهور، ليلةٌ فيه خير من ألف شهر»(١).

[٤٦٤٨/٢] وقال الشيخ أبو جعفر الطوسي: روي عن الإمام أبي جعفر عليه السلام قال: «إنّ شهر رمضان كان صومه واجباً على نبيّ دون أمّته»(٢).

[٤٦٤٩/٢] وقال عليّ بن إبراهيم القمي: أوّل ما فرض الله الصوم، لم يفرضه في شهر رمضان على الأنبياء، ولم يفرضه على الأمم. فلمّا بعث الله نبيّه صلى الله عليه وآله خصّه بفضل شهر رمضان هو وأمّته(٣).

[٤٦٥٠/٢] وفي دعاء الإمام زين العابدين عليه السلام بشأن وداع شهر رمضان والكرامة الّتي منح الله بها هذه الأمّة في هذا الشهر المبارك:

«اللّهمّ وأنت جعلت من صفايا تلك الوظائف وخصائص تلك الفروض، شهر رمضان الّذي اختصصته من سائر الشهور، وتخيّرته من جميع الأزمنة والدهور، وآثرته على كلّ أوقات السنة بما أنزلت فيه القرآن والنور. وضاعفت فيه من الإيمان، وفرضت فيه الصيام، ورغّبت فيه من القيام، وأجللت فيه من ليلة القدر الّتي هي خير من ألف شهر. ثمّ آثرتنا به على سائر الأمم، واصطفيتنا بفضله دون أهل الملل»(٤).

قوله تعالى: ﴿أَيَّاماً مَعْدُودَاتٍ﴾

قال أبو علي الطبرسي: اختلفوا في هذه الأيّام على قولين: أحدهما: أنّها غير شهر رمضان، وكانت ثلاثة أيّام من كلّ شهر ثمّ نسخ. قاله معاذ وعطاء وعن ابن عبّاس. وروي ثلاثة أيّام من كلّ شهر وصوم يوم عاشوراء، عن قتادة. ثمّ قيل: إنّه كان تطوّعاً وقيل: بل كان واجباً. واتّفقوا على أنّ ذلك منسوخ بصوم شهر رمضان.

---

(١) الكافي ٤: ٦٧ / ٥؛ نورالثقلين ١: ١٦٣؛ التهذيب ٤: ١٩٢ ـ ١٩٣؛ البحار ٩٣: ٣٦٢ ـ ٣٦٣ / ٣؛ أمالي الصدوق: ١١٣ـ١١٤، المجلس ١٤.

(٢) التبيان ٢: ١١٦.

(٣) القمي ١: ٦٥.

(٤) الصحيفة السجّادية الكاملة. دعاء رقم ٤٥؛ إقبال الأعمال لابن طاووس ١: ٤٢٥، باب ٣٤؛ البحار ٩٥: ١٧٤. وفيه: «دون أهل الأديان» بدل «أهل الملل».

والقول الآخر: أنّ المعدودات شهر رمضان. عن ابن عبّاس والحسن. واختاره الجبّائي وأبو مسلم. وعليه أكثر المفسّرين؛ قالوا: أوجب ـ سبحانه ـ الصوم أوّلاً فأجمله ولم يبيّن، ثمّ ذكر أنّه أيّاماً معلومات وأبهم، ثمّ بيّنه بقوله: شهر رمضان. قال القاضي: هذا أولى؛ نظراً لأنّه إذا أمكن حمله على معنىً من لزوم نسخ كان أولى. ولأنّ ما قالوه زيادة لا دليل عليه[1].

[٤٦٥١/٢] أخرج ابن أبي حاتم عن مقاتل: ﴿أَيَّاماً مَعْدُودَاتٍ﴾ يعني أيّام رمضان ثلاثين يوماً.

[٤٦٥٢/٢] وأخرج عن ابن أبي نُجيح عن عطاء قال: ثلاثة أيّام من كلّ شهر، ولم يسمّ الشهر قال: كان هذا صيام الناس قبل ذلك، ثمّ فرض الله عليهم شهر رمضان[2].

[٤٦٥٣/٢] وأخرج ابن جرير وأحمد وأبو داوود وابن المنذر والبيهقي والحاكم وصحّحه عن معاذ بن جبل قال: إنّ رسول الله ﷺ قدم المدينة، فصام يوم عاشوراء وثلاثة أيّام من كلّ شهر، ثمّ إنّ الله جلّ وعزّ فرض شهر رمضان، فأنزل الله تعالى ذكره: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ﴾ حتّى بلغ: ﴿وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ﴾ فكان من شاء صام ومن شاء أفطر وأطعم مسكيناً فأجزأ ذلك عنه. ثمّ إنّ الله ـ عزّ وجلّ ـ أوجب الصيام على الصحيح المقيم. وثبت الإطعام للكبير الّذي لا يستطيع الصوم، فأنزل الله عزّ وجلّ: ﴿فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ وَمَنْ كَانَ مَرِيضاً أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾[3].

[٤٦٥٤/٢] وأخرج أبو محمّد البغوي بالإسناد إلى هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة قالت: كان يوم عاشوراء يوماً تصومه قريش في الجاهليّة(!) وكان رسول الله ﷺ يصومه في الجاهليّة(!) فلمّا قدم رسول الله ﷺ المدينة صامه وأمر الناس بصيامه، فلمّا فرض رمضان كان هو الفريضة، وترك يوم عاشوراء. فمن شاء صامه ومن شاء تركه[4].

وأخرجه الشيخان أيضاً عن هشام عن أبيه[5].

---

(١) مجمع البيان ٢: ٩.
(٢) ابن أبي حاتم ١: ٣٠٦ / ١٦٣١.
(٣) مسند أحمد ٥: ٢٤٦ ـ ٢٤٧؛ أبو داوود ١: ١٢٤ / ٥٠٧، باب ٢٨، باب كيف الأذان من كتاب الصلاة؛ سنن البيهقي ٤: ٢٠٠؛ الحاكم ٢: ٢٧٤، كتاب التفسير؛ الدرّ ١: ٤٢٧ ـ ٤٢٨.
(٤) البغوي ١: ٢١٤ ـ ٢١٥ / ١٣٦.
(٥) البخاري ٥: ١٥٤ ـ ١٥٥، كتاب التفسير، باب ١٤؛ مسلم ٣: ١٤٦ ـ ١٤٧، باب صوم عاشوراء.

[٤٦٥٥/٢] وأخرج سعيد بن منصور عن أبي جعفر قال: نسخ شهر رمضان كلّ صوم[١].

[٤٦٥٦/٢] وروى أبو جعفر الطوسي بالإسناد إلى مَعْمَر بن يحيى أنّه سمع الإمام أبا جعفر الباقر عليه السلام يقول: «لا يسأل الله عزّ وجلّ عن صلاة بعد الفريضة، ولا عن صدقة بعد الزكاة. ولا عن صوم بعد شهر رمضان»[٢].

[٤٦٥٧/٢] وهكذا روى بالإسناد إلى عبدالله بن الحسن قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «شهر رمضان نسخ كلّ صوم، والنحر نسخ كلّ ذبيحة، والزكاة نسخت كلّ صدقة. وغسل الجنابة نسخ كلّ غسلٍ»[٣].

قوله تعالى: ﴿وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ﴾

الإطاقة: القدرة على الشيء، لكن قدرةً بلغت غايتها بحيث يفعله بمشقّة بالغة.

ومنه قول عامر بن فُهَيرة:

كلُّ امرىءٍ مُجاهِدٌ بطَوْقِهِ كالثَّور يَحْمي أَنْفه بِرَوْقِهِ[٤]

أي أقصى غايته. قال ابن الأثير: وهو اسم لمقدار ما يمكن أن يفعله بمشقّة منه[٥].

وقال الأزهري: أي كلُّ امرىء مكلَّف ما أطاق[٦].

قال الأستاذ محمّد عبده: الإطاقة: أدنى درجات المكنة والقدرة على الشيء. فلا تقول العرب: أطاق الشيء إلّا إذا كانت قدرته عليه في نهاية الضعف، بحيث يتحمّل به مشقّة شديدة[٧].

وقال ابن عاشور: والطاقة أقرب درجات القدرة إلى مرتبة العجز، و فسّرها الفرّاء بالجَهْد ـ بفتح الجيم ـ وهو المشقّة[٨].

وعليه فالمراد من الّذين يُطيقونه: الّذين يبلغون أقصى جهدهم في الصوم. يقال: جَهَدَ في الأمر جَهْداً أي جدّ وأتعب نفسه. فلا يستطيع الصوم إلّا بمشقّة شديدة.

---

(١) سنن سعيد ٢: ٦٧٨ / ٢٦٢؛ الدرّ ١: ٤٢٩.

(٢) التهذيب ٤: ١٥٣ / ٤٢٤ / ٧؛ البحار ٩٣: ٢٦٨.

(٣) التهذيب ٤: ١٥٣ / ٤٢٥ / ٨؛ البرهان ١: ٣٩٩.

(٤) الرَّوْق: القَرْن.

(٥) النهاية ٣: ١٤٤؛ لسان العرب ١٠: ٢٣٣.

(٦) تهذيب اللغة ٩: ١٩٠.

(٧) المنار ٢: ١٥٦.

(٨) التحرير والتنوير ٢: ١٦٤.

إذن فعلى الّذين يشقّ عليهم الصيام لشيخوخة أو ضعف مفرط لايُرجى زواله، فعليهم التعويض بالفداء: ﴿فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ﴾ عن كلّ يوم، من أوسط ما يطعمون أهليهم في العادة الغالبة[١].

[٤٦٥٨/٢] أخرج عبدالرزاق عن معمر عن قتادة قال: كانت الآية في الشيخ الكبير والمرأة الكبيرة، يطيقان الصوم وهو شديد عليهما، فرخّص لهما أن يُفطرا ويطعما[٢].

[٤٦٥٩/٢] وأخرج أبو إسحاق الثعلبي عن ابن عبّاس في قوله: ﴿وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ﴾ قال: يتكلّفونه[٣]، وهو الشيخ الكبير الهرم والعجوز الكبيرة الهرمة، يطعمون لكلّ يوم مسكيناً ولا يقضون.

[٤٦٦٠/٢] وعن أبي زرعة: الشيخ الكبير والحامل والمرضع، يُطعمون لكلّ يوم مُدّاً من حنطة ولا يقضون[٤].

[٤٦٦١/٢] ومن ثمّ نسب إلى ابن عبّاس، وغيره من السلف أنّهم قرأوا: «وعلى الّذين يُطوَّقونه»[٥] أي يتكلّفونه مع المشقّة اللاحقة بهم. قال أبو عبدالله القرطبي: وهي قراءة على إرادة التفسير، فأدخله بعض النَّقَلة في القرآن[٦]. فهي قراءة على التفسير، كما دأب عليه السلف.

نعم كان الإفطار بشأن هؤلاء رخصة، فمن تكلّفه منهم فصام، فلا شيء عليه.

قال الشيخ محمّد عبده: ظاهر الآية يقتضي لزوم الفدية أفطر أم لم يفطر. لكن أجمعوا على أنّه لا يلزم إلّا مع الإفطار[٧].

لكن ظاهر لحن الخطاب، وملؤه الحنان والإرفاق، أنّه ترخيص وليس عزيمة. وعليه فمعنى الآية: ومن شقّ عليه الصيام فأفطر ـ أخذاً بالرخصة ـ فعليه إطعام مسكين.

[٤٦٦٢/٢] وأخرج ابن جرير عن السدّي في قوله: ﴿وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ﴾ قال: أمّا الّذين يطيقونه فالرجل كان يطيقه، وقد صام قبل ذلك ثمّ يعرض له الوجع أو العطش أو

(١) مقتبس من الآية ٨٩ من سورة المائدة.
(٢) عبدالرزّاق ١: ٣٠٨ / ١٧٩.
(٣) وفي رواية الطبري ٢: ١٨٧ / ٢٢٨٠ قال: يتحشّمونه: يتكلّفونه.
(٤) الثعلبي ١: ٣٠٧ / ١٦٣٤، ١٦٣٦.
(٥) عبدالرزّاق ١: ٣٠٩ / ١٨٠.
(٦) القرطبي ٢: ٢٨٨.
(٧) المنار ٢: ١٥٦.

المرض الطويل، أو المرأة المرضع لاتستطيع أن تصوم؛ فإنّ أولئك عليهم مكان كلّ يوم إطعام مسكين، فإن أطعم مسكيناً فهو خير له، ومتى تكلّف الصيام فصامه فهو خير له[1].

[٤٦٦٣/٢] وقال القاضي النعمان المصري: وقد روينا عن الإمام جعفربن محمّد عليه السلام قال. حدّ المرض الّذي يجب على صاحبه فيه الإفطار، أن يكون العليل لايستطيع أن يصوم أو يكون إن استطاع الصوم زاد في علّته وخاف منه على نفسه. وهو مؤتمن على ذلك ومفوّض إليه فيه. فإن أحسّ ضعفاً فليفطر، وإن وجد قوّة على الصوم فليصم، كان المرض ما كان.

[٤٦٦٤/٢] وقال: وعن عليّ عليه السلام قال: «أتى رسول الله صلى الله عليه وآله شيخ كبير متوكّئاً بين رجلين، فقال: يا رسول الله صلى الله عليه وآله هذا شهر مفروض وأنا لا أطيق الصيام؟ فقال: اذهب فكل وأطعم عن كلّ يوم نصف صاع. وإن قدرت أن تصوم اليوم واليومين وما قدرت، فصم».

[٤٦٦٥/٢] وكذلك أتته امرأة حبلى وقالت: أخاف على ما في بطني إن صُمت؟ فقال لها: «انطلقي فأفطري، وإذا أطقتِ فصومي». وهكذا قال صلى الله عليه وآله لامرأة أتته كانت ترضع. وكذا صاحب عطش كان لايتحمّل الصبر على العطش ساعةً!

قال: فصار الشيخ الفاني بمنزلة العليل بالعلّة المزمنة الّتي لايُرجىٰ برؤها، فلا يقضي ما أفطر وعليه أن يُطعم[2].

[٤٦٦٦/٢] وروى الصدوق عن ابن بكير عن زرارة قال: سألت أبا عبدالله عليه السلام: «ما حدّ المرض الّذي يفطر فيه الصائم ويدع الصلاة من قيام؟ فقال: بل الإنسان على نفسه بصيرة، هو أعلم بما يُطيقه!»[3]

[٤٦٦٧/٢] وعن حريز عن أبي عبدالله عليه السلام قال: «الصائم إذا خاف على عينه من الرمد أفطر»[4].

[٤٦٦٨/٢] وأخرج ابن أبي شيبة وعبد بن حميد وأبو يعلى وابن المنذر والدار قطني والبيهقي عن أنس بن مالك، أنّه ضُعف عن الصوم عاماً قبل موته، فصنع جَفْنةً من ثريد، فدعا ثلاثين مسكيناً

---

(١) الطبري ٢: ١٨٥؛ أبوالفتوح ٣: ١٨.

(٢) دعائم الإسلام ١: ٢٧٨ ـ ٢٧٩.

(٣) الفقيه ٢: ١٣٢ / ١٩٤١؛ الكافي ٤: ١١٨ / ٢؛ التهذيب ٤: ٢٥٦.

(٤) الفقيه ٢: ١٣٢ ـ ١٣٣ / ١٩٤٥؛ الكافي ٤: ١١٨ / ٤.

فأطعمهم[١].

[٤٦٦٩/٢] وأخرج ابن جرير عن الحسن وإبراهيم النخعي قالا: إذا لم يستطع المريض أن يصلّي قائماً أفطر[٢].

[٤٦٧٠/٢] وأخرج مالك وأحمد وابن أبي شيبة والبخاري ومسلم وأبو داوود والترمذي والنسائي وابن ماجه وابن خزيمة والبيهقي في شعب الإيمان عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «كلّ عمل ابن آدم يضاعف؛ الحسنة عشرة أمثالها إلى سبعمائة ضعف، قال الله ﷻ: إلّا الصوم فإنّه لي وأنا أَجْزِي به، يَدَعُ طعامَه وشرابَه وشهوته من أجلي! للصائم فرحتان: فرحة عند فطره، وفرحة عند لقاء ربّه»[٣].

قوله تعالى: ﴿فَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْراً فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ وَأَنْ تَصُومُوا خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾

وفي أوّل الأمر كان تكليف الصوم شاقّاً على المسلمين وقد فرض في السنة الثانية للهجرة قُبيل فرض الجهاد، ومن ثمّ حبّب الله إليهم التطوّع في الخيرات، أي الإتيان بها عن رغبة ذاتيّة حبّاً للخير ذاته.. كما حبّب إليهم الإيمان وزيّنه في قلوبهم[٤]. فحبّبهم التطوّع بالصوم على مشاقّه، فإنّه الخير محضاً، والعبادة الّتي أريد بها وجه الله خالصةً. فضلاً عن أنّ فيه عنصر تربية الإرادة، وتقوية الاحتمال، وإيثار العبادة على الراحة. كلّ ذلك خير تعود فوائده على النفس في سبيل تهذيبها وترقيتها، إلى جنب التقرّب إلى الله والإخلاص له في العبوديّة.

[٤٦٧١/٢] قال رسول الله ﷺ: «يقول الله ـ جلّ ثناؤه ـ: الصوم لي وأنا أَجْزِيْ بِه. وللصائم فرحتان: إذا أفطر فرح، وإذا لقي ربّه فجازاه فرح».

---

(١) المصنّف ٣: ٤٧٥ / ٥، باب ٧؛ أبويعلى ٧: ٢٠٤ / ٤١٩٤؛ الدار قطني ٢: ٢٠٧ / ١٦؛ البيهقي ٤: ٢٧١؛ مجمع الزوائد ٣: ١٦٤؛ كنز العمّال ٨: ٥٩٩ / ٢٤٣٢٥.

(٢) الدرّ ١: ٤٥٩؛ الطبري ٢: ٢٠٣؛ البغوي ١: ٢١٨؛ الثعلبي ٢: ٧١؛ أبوالفتوح ٣: ٣٤.

(٣) الموطّأ ١: ٣١٠ / ٥٨؛ مسند أحمد ٢: ٤٤٣ و ٤٧٧؛ المصنّف ٢: ٤٢٣ / ٤، باب ٣؛ البخاري ٨: ١٩٧، كتاب التوحيد، باب ٣٥؛ مسلم ٣: ١٥٨؛ النسائي ٢: ٩٠ ـ ٩١ / ٢٥٢٥؛ ابن ماجة ١: ٥٢٥ / ١٦٣٨؛ ابن خزيمة ٣: ١٩٧؛ الشعب ٣: ٢٨٠؛ البيهقي ٤: ٢٧٣.

(٤) الحجرات ٤٩: ٧.

أخرجه ابن أبي شيبه ومسلم والنسائي والبيهقي عن أبي سعيد. وزاد قوله ﷺ: «والّذي نفس محمّد بيده، لخَلُوف فم الصائم أطيب عندالله من ريح المسك»[(١)].

[٤٦٧٢/٢] وأخرج أحمد والبيهقي عن جابر، أنّ رسول الله ﷺ قال: «قال ربّنا: الصيام جُنّة يَستَجِنُّ بها العبدُ من النار، وهو لي وأنا أَجْزِي به». قال: سمعت النبيّ ﷺ يقول: «الصيام جُنَّة حصينة من النار»[(٢)].

[٤٦٧٣/٢] وأخرج البيهقي عن أيّوب بن حسّان الواسطي عن أبيه قال: سمعت رجلاً سأل سفيان بن عيينة فقال: يا أبا محمّد فيما يرويه النبيّ ﷺ عن ربّه عزّ وجلّ: «كلّ عمل ابن آدم له، إلّا الصوم فإنّه لي وأنا أجزي به»؟ فقال ابن عيينة: هذا من أجود الأحاديث وأحكمها، إذا كان يوم القيامة يحاسب الله عبده ويؤدّي ما عليه من المظالم من سائر عمله؛ حتّى لا يبقى إلّا الصوم، فيتحمّل الله ما بقي عليه من المظالم ويدخله بالصوم الجنّة[(٣)].

[٤٦٧٤/٢] وأخرج مالك وابن أبي شيبة وأحمد والبخاري ومسلم والنسائي عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «قال الله عزّ وجلّ: كلّ عمل ابن آدم له إلّا الصيام فإنّه لي وأنا أجزي به، والصيام جُنَّة، وإذا كان يوم صوم أحدكم فلا يرفث ولا يصخب، وإن سابّه أو شاتمه أحد فليقل: إنّي امرؤ صائم، والّذي نفس محمّد بيده لخلوف فم الصائم أطيب عندالله من ريح المسك، للصائم فرحتان يفرح بهما: إذا أفطر فرح، وإذا لقي ربّه فرح بصومه»[(٤)].

[٤٦٧٥/٢] وأخرج الترمذي والبيهقي عن رجل من بني سليم أنّ رسول الله ﷺ أخذ بيده فقال: «سبحان الله نصف الميزان، والحمد لله تملأ الميزان، والله أكبر تملأ ما بين السماء والأرض،

---

(١) المصنَّف ٢: ٤٢٣ / ٣، باب ٣؛ مسلم ٣: ١٥٨؛ سنن النسائي ٢: ٩٠؛ شعب الإيمان ٣: ٢٩٤ / ٣٥٨١.

(٢) الدرّ ١: ٤٣٦؛ مسند أحمد ٣: ٣٩٦؛ شعب الإيمان ٣: ٢٨٩ / ٣٥٧٠، وفيه: الصيام جُنّة يَجْتَنُّ بها العبد؛ كنزالعمّال ٨: ٤٥١ و ٤٤٣.

(٣) الدرّ ١: ٤٣٦؛ البيهقي ٤: ٢٧٤؛ شعب الإيمان ٣: ٢٩٥ / ٣٥٨٢.

(٤) الدرّ ١: ٤٣٦؛ الموطّأ ١: ٣١٠ / ٥٧، باب ٢٢؛ المصنّف ٢: ٤٢١ / ٢، باب ٢ (ما يؤمر به الصيام)؛ مسند أحمد ٢: ٢٧٣؛ البخاري ٢: ٢٢٨؛ مسلم ٣: ١٥٧ ـ ١٥٨؛ النسائي ٢: ٩١ / ٢٥٢٦، باب ٤١، وفيه: «فإن شاتمه أحد أو قاتله فليقل ...».

والوضوء نصف الإيمان، والصيام نصف الصبر»[١].

[٤٦٧٦/٢] وأخرج ابن ماجه والبيهقي عن بريدة قال: دخل بلال على رسول الله ﷺ وهو يتغدّى، فقال رسول الله ﷺ: «تغدّ يا بلال» قال: إنّي صائم يا رسول الله، فقال رسول الله ﷺ: «نأكل رزقنا وفضل رزق بلال في الجنّة، أشعرت يا بلال أنّ الصائم تُسبّح عظامُه، وتستغفر له الملائكة ما أُكِل عنده؟!»[٢].

[٤٦٧٧/٢] وأخرج ابن أبي شيبة وابن ماجه والبيهقي عن أبي هريرة، أنّ رسول الله ﷺ قال: «الصيام نصف الصبر، وإنّ لكلّ شيء زكاة وزكاة الجسد الصيام»[٣].

[٤٦٧٨/٢] وأخرج الطبراني في الأوسط عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «اغزوا تَغْنَموا، وصوموا تصِحّوا، وسافروا تستغنوا»[٤].

[٤٦٧٩/٢] وأخرج البيهقي في شعب الإيمان عن أبي مالك الأشعريّ قال: قال رسول الله ﷺ: «إنّ في الجنّة غرفةً يرى ظاهرها من باطنها وباطنها من ظاهرها، أعدَّها الله لمن ألان الكلامَ، وأطعم الطعامَ، وتابع الصيامَ، وصلّى بالليل والناس نيامٌ»[٥].

[٤٦٨٠/٢] وأخرج أبو يعلى والطبراني عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «لو أنّ رجلاً صام يوماً تطوّعاً ثمّ أُعطي ملءَ الأرض ذهباً لم يستوف أجره دون يوم الحساب»[٦].

---

(١) الدرّ ١: ٤٣٨؛ الترمذي ٥: ١٩٧ / ٣٥٨٥، باب ٩٢، أبواب الدعوات، بلفظ:... عن رجل من بني سليم قال: عدّهن رسول الله ﷺ في يدي أو في يده: التسبيح نصف الميزان والحمد لله يملأه والتكبير يملأ ما بين السماء والأرض، والصوم نصف الصبر، والطهور نصف الإيمان. وقال: هذا حديث حسن؛ شعب الإيمان ٣: ٢٩١ / ٣٥٧٥، كنزالعمّال ١: ٤٦٤؛ مسند أحمد ٤: ٢٦٠.

(٢) الدرّ ١: ٤٣٩؛ ابن ماجة ١: ٥٥٦ / ١٧٤٩، باب ٤٦؛ شعب الإيمان ٣: ٢٩٧ / ٣٥٨٦.

(٣) الدرّ ١: ٤٣٨؛ المصنّف ٢: ٤٢٥ / ٥، باب ٤؛ ابن ماجة ١: ٥٥٥ / ١٧٤٥، باب ٤٤؛ شعب الإيمان ٣: ٢٩٢ / ٣٥٧٧؛ كنزالعمّال ٨: ٤٤٤ / ٢٣٥٧١.

(٤) الدرّ ١: ٤٤٠؛ الأوسط ٨: ١٧٤؛ مجمع الزوائد ٥: ٣٢٤؛ ضعفاء العقيلي ٢: ٩٢ / ٥٤٩.

(٥) الدرّ ١: ٤٤٢؛ الشعب ٣: ٤٠٤ / ٣٨٩٢؛ البيهقي ٤: ٣٠٠ ـ ٣٠١؛ مسند أحمد ٥: ٣٤٣؛ كنزالعمّال ١٥: ٨٦٧ / ٤٣٤٤٩؛ مجمع الزوائد ٣: ١٩٢، قال الهيثمي: رواه أحمد ورجاله ثقات.

(٦) الدرّ ١: ٤٤١؛ أبويعلى ١٠: ٥١٢ / ٦١٣٠؛ الأوسط ٥: ١٣١؛ مجمع الزوائد ٣: ١٨٢.

[٤٦٨١/٢] روى أبو جعفر الكليني بالإسناد إلى الإمام أبي جعفر الباقر عليه السلام قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «الصوم جُنَّة من النار»(١).

[٤٦٨٢/٢] وكذا رواه الشيخ بالإسناد إلى الصادق عليه السلام عن رسول الله قال: «الصوم جُنّة من النار».(٢) ورواه الصدوق مرسلاً(٣).

[٤٦٨٣/٢] وعن الإمام أبي عبدالله الصادق عليه السلام قال: إنّ رسول الله صلى الله عليه وآله قال لأصحابه: «ألا أخبركم بشيء إن أنتم فعلتموه تباعد الشيطان منكم كما تباعد المشرق من المغرب؟ قالوا: بلى. قال: الصوم يسوّد وجهه. والصدقه تكسر ظهره. والحبّ في الله والموارزة على العمل الصالح، يقطع دابره. والاستغفار يقطع وتينه. ولكلّ شيء زكاة، وزكاة الأبدان الصيام»(٤).

ورواه الشيخ مسنداً والصدوق مرسلاً وبأسناد(٥).

[٤٦٨٤/٢] وعن الإمام الصادق عن آبائه عن رسول الله صلى الله عليه وآله قال: «إنّ الله ـ عزّ وجلّ ـ وكّل ملائكة بالدعاء للصائمين». وقال: أخبرني جبرئيل عن ربّه أنّه قال: «ما أمرت ملائكتي بالدعاء لأحدٍ من خلقي إلّا استجبت لهم فيه»(٦).

[٤٦٨٥/٢] وروى بالإسناد إلى مسعدة بن صدقة عن الإمام الصادق عليه السلام قال: «نوم الصائم عبادة ونَفَسُه تسبيح»(٧).

[٤٦٨٦/٢] وعن أبي الصباح الكناني عن الصادق عليه السلام قال: «للصائم فرحتان: فرحة عند الإفطار وفرحة عند لقاء ربّه»(٨).

[٤٦٨٧/٢] وبهذا الإسناد عنه عليه السلام قال: «إنّ الله تعالى يقول: الصوم لي وأنا أَجْزي عليه»(٩).

[٤٦٨٨/٢] وفي حديث آخر عن الباقر عليه السلام قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: قال الله ـ عزّ وجلّ ـ: «الصوم

---

(١) الكافي ٤: ٦٢/ ١.
(٢) التهذيب ٤: ١٩١/ ٥٤٤.
(٣) الفقيه ٢: ٤٤/ ١٩٦.
(٤) الكافي ٤: ٦٢/ ٢.
(٥) الفقيه ٢: ٤٥/ ١٩٩؛ الأمالي: ٥٩/ ١؛ فضائل الأشهر الثلاثة: ٧٥/ ٥٧.
(٦) الكافي ٤: ٦٤/ ١١؛ المحاسن: ٧٢/ ١٤٩؛ الفقيه ٢: ٤٥/ ٢٠٢؛ المقنعة: ٤٩.
(٧) الكافي ٤: ٦٤/ ١٢؛ المقنعة: ٤٩؛ المحاسن: ٧٢/ ١٤٨؛ قرب الإسناد: ٤٦.
(٨) الكافي ٤: ٦٤/ ١٥؛ الفقيه ٢: ٤٥/ ٢٠٤.
(٩) الكافي ٤: ٦٣/ ٦.

لي وأنا أجْزي به».

ورواه الصدوق مرسلاً. وزاد: وللصائم فرحتان: حين يُفطر وحين يلقى ربّه. والّذي نفس محمّد بيده لخلوف فم الصائم أطيب عند الله من ريح المسك[١].

[٤٦٨٩/٢] وقال الصادق عليه السلام في حديث له مع عليّ بن عبدالعزيز: «ألا أخبرك بأبواب الخير؟ إنّ الصوم جُنّة!»[٢].

[٤٦٩٠/٢] وفي حديث: «لكلّ شيء زكاة وزكاة الأجساد الصوم».[٣] ورواه المفيد عن الصادق عليه السلام مرسلاً عن رسول الله صلى الله عليه وآله[٤].

[٤٦٩١/٢] وروي بالإسناد إلى إسماعيل بن بشّار عن أبي عبدالله عليه السلام: قال أبي: «إنّ الرجل ليصوم يوماً تطوّعاً يريد ما عند الله، فيدخله الله به الجنّة»[٥].

[٤٦٩٢/٢] وبالإسناد إلى عبدالله بن طلحة عن أبي عبدالله عليه السلام قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «الصائم في عبادةٍ وإن كان نائماً على فراشه، مالم يغتب مسلماً»[٦]. ورواه الصدوق في الفقيه مرسلاً، وفي غيره مسنداً[٧].

[٤٦٩٣/٢] وقال الصدوق: قال الصادق عليه السلام: «نوم الصائم عبادة، وصمته تسبيح، وعمله متقبّل، ودعاؤه مستجاب». ورواه في ثواب الاعمال مسنداً[٨].

[٤٦٩٤/٢] وقال: وقال عليّ عليه السلام ـ: قال رسول الله صلى الله عليه وآله ـ: «من صام يوماً متطوّعاً أدخله الله ـ عزّ وجلّ ـ الجنّة»[٩].

[٤٦٩٥/٢] وفي حديث آخر: «من صام يوماً تطوّعاً ابتغاء ثواب الله وجبت له المغفرة»[١٠].

[٤٦٩٦/٢] وقال: وقال رسول الله صلى الله عليه وآله: «من صام يوماً في سبيل الله تعالى، كان له كعدل سنةٍ

---

(١) التهذيب ٤: ١٥٢ / ٤٢٠؛ الفقيه ٢: ٤٤ / ١٩٨.
(٢) الكافي ٤: ٦٢ / ٣؛ الفقيه ٢: ٤٥ / ٢٠٠.
(٣) الكافي ٤: ٦٣ / ٤؛ التهذيب ٤: ١٩٠ / ٥٣٧.
(٤) المقنعة: ٤٩.
(٥) الكافي ٤: ٦٣ / ٥؛ التهذيب ٤: ١٩١ / ٥٤٣.
(٦) الكافي ٤: ٦٤ / ٩؛ التهذيب ٤: ١٩٠ / ٥٣٨.
(٧) الفقيه ٢: ٤٤ / ١٩٧؛ الأمالي: ٤٤٢ / ١؛ ثواب الأعمال: ٧٥ / ١.
(٨) الفقيه ٢: ٤٦ / ٢٠٧؛ ثواب الأعمال: ٧٥ / ٣.
(٩) الفقيه ٢: ٥٢ / ٢٢٥؛ ثواب الأعمال: ٧٧ / ١.
(١٠) أمالي الصدوق: ٤٤٢ / ٢.

يصومها».[١] ورواه بالإسناد إلى سعيدبن جبير عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ[٢].

[٢/٤٦٩٧] وبإسناده عن جابر عن أبي جعفر عليه السلام قال: «من خُتم له بصيام يوم دخل الجنّة»[٣].

[٢/٤٦٩٨] وبإسناده إلى أنس عن رسول الله ﷺ قال: «إنّ للجنّة باباً يُدعىٰ «الريّان» لا يدخل منه إلّا الصائمون»[٤].

[٢/٤٦٩٩] وأيضاً عنه ﷺ قال: «من صام يوماً تطوّعاً، فلو أُعطي ملء الأرض ذهباً ما وُفّي أجره دون يوم الحساب»[٥].

[٢/٤٧٠٠] وقال ﷺ: «قال الله ـ عزّ وجلّ ـ: كلّ أعمال ابن آدم بعشرة أضعافها إلى سبعمائة ضعف، إلّا الصبر، فإنّه لي وأنا أَجزِي به. فثواب الصبر مخزون في علم الله. قال: والصبر الصوم»[٦].

[٢/٤٧٠١] وقال ﷺ: «ثلاثة لا تردّ دعوتهم: الصائم والإمام العادل والمظلوم، يرفعها الله فوق الغمام، ويُفتح لها أبواب السماء»[٧].

[٢/٤٧٠٢] وقال: «إنّ للصائم عند فطره لدعوة ما تُردّ»[٨].

[٢/٤٧٠٣] وقال: «للصائم عنده إفطاره دعوة مستجابة»[٩].

[٢/٤٧٠٤] وقال: «نوم الصائم عبادة، وصمته تسبيح، وعمله مضاعف، ودعاؤه مستجاب، وذنبه مغفور»[١٠].

[٢/٤٧٠٥] وروى العيّاشيّ بالإسناد إلى أبي عبدالله عليه السلام قال: «الصوم فُوهٌ لا يتكلّم إلّا بالخير»[١١].

إلى غيرها من جلائل أحاديث وردت بشأن فخامة الصوم ورفيع منزلته عند الله!

---

(١) الفقيه ٢: ٥٢ / ٢٢٧.
(٢) ثواب الأعمال: ٧٦ / ١.
(٣) الفقيه ٢: ٥٢ / ٢٢٦؛ ثواب الأعمال: ٧٧ / ١.
(٤) معاني الأخبار: ٤٠٩ / ٩٠.
(٥) المصدر / ٩١.
(٦) المصدر / ذيل رقم ٩١.
(٧) مسند أحمد ٢: ٤٤٥؛ الترمذي ٤: ٧٩؛ ابن ماجة ١: ٥٥٧؛ ابن خزيمة ٣: ١٩٩.
(٨) ابن ماجة ١: ٥٥٧؛ الحاكم ١: ٤٢٢.
(٩) مسند أبي داوود الطيالسي: ٢٩٩؛ شعب الإيمان ٣: ٤٠٨.
(١٠) الثعلبي ٢: ٧٠؛ شعب الإيمان ٣: ٤١٥.
(١١) العيّاشيّ ١: ١٠٠ / ١٨٩؛ البحار ٩٣: ٣٢٥ / ١٥؛ البرهان ١: ٤٠٢ / ٦.

قوله تعالى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ﴾

وهذا تحبيب آخر في أداء هذه الفريضة للصحيح والمقيم؛ إنّها صوم رمضان، الشهر الّذي أُنزل فيه القرآن ـ بمعنى بدء نزوله كان في رمضان ليلة القدر ـ والقرآن كتاب هذه الأمّة الخالد، والّذي أخرجهم من الظلمات إلى النور، وجعلهم على محجّة من الهدى والبيّنات، ومنحهم الضياء والفرقان، فأنشأهم هذه النشأة، وأبدل من خوفهم أمناً، ومكّن لهم في الأرض ووهبهم المقوّمات الّتي صاروا بها أمّة، ولم تكن من قبل شيئاً. وهي بدون هذه المقوّمات ليست أمّة وليس لها مكان في الأرض ولا ذكر في السماء.

فلا أقلّ من الشكر إزاء هذه النعم الجسام، بالاستجابة إلى صوم الشهر الّذي نزل فيه القرآن.

﴿فَمَنْ شَهِدَ مِنكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ﴾ أي من حضر منكم الشهر غير مسافر، وشاهد الهلال أو أيقن به بأيّ وسيلة أخرى كانت موجبة للقطع برؤية الهلال.

وتأكيداً على وضع الصوم عن المسافر والمريض، عاد مكرّراً قوله: ﴿وَمَنْ كَانَ مَرِيضاً أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾. ذلك لأنّه تعالى ﴿يُرِيدُ اللهُ بِكُمُ الْيُسْرَ﴾ في جميع تشريعاته ﴿وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾. إذ لا حرج في الدين، هذه هي القاعدة الكبرى لأسس التشريع في شريعة السماء فهي ميسَّرة لاعسر فيها، الأمر الّذي يوحي بالسهولة واليسر في أخذ الحياة كلّها، وتطبع نفس المسلم بطابع خاصّ من السماحة الّتي لاتكلّف فيها ولاتعقيد، سماحة تؤدّى معها كلّ التكاليف وكلّ الفرائض وكلّ نشاط في الحياة الجادّة، وكأنّما هي مسيل الماء الجاري، ونموّ الشجرة الصاعدة في طمأنينة وثقة ورضاء، هذا، مع الشعور الدائم برحمة الله وإرادته اليسر لا العسر بعباده المؤمنين.

وقد جعل الصوم للمسافر والمريض في أيّام أُخر، لكي يتمكّن المضطرّ من إكمال عدّة أيّام الشهر الّتي فاتته، فلايضيع عليه أجرها: ﴿وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ﴾؛ فلاتفوتكم ميزاتها ومثوباتها.

والصوم على هذا نعمة تستحقّ التكبير المستعقب للشكر والتقدير: ﴿وَلِتُكَبِّرُوا اللهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾.

فهذه غاية من غايات الفريضة، أن يشعر المؤمن بقيمة الهدى الّذي يسّره الله له، ووفّقه الله على القيام به وأدائه بيسر وعافية، الأمر الّذي يجده المؤمن في نفسه في فترة الصيام أكثر من كلّ فترة. حيث كفّ قلبه عن التفكير في معصية، وكفّ جوارحه عن إتيانها، وهو شاعر بالهدى ملموساً

ومحسوساً. فليكبّر الله على هذه الهداية وليشكره على هذه العناية، وليتروّض قلبه على الطاعة، كما نبّه عليه مطلع الحديث: ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾.

وهكذا تبدو منّة الله في هذا التكليف الّذي يبدو شاقّاً على الأبدان والنفوس. وتتجلّى الغاية التربويّة منه، والإعداد من ورائه للدور العظيم الّذي أُخرجت هذه الأمّة لتؤدّية، أداءً تحرسه التقوى ورقابة الله وحسّاسيّة الضمير!

* * *

ومن ثمّ فإنّ فضل هذا الشهر (شهر رمضان) كبير، وعائده على العباد المؤمنين كثير. وقد ازدحمت الروايات في عظيم فضله ووفرة بركاته ما يثير العجب، ولنذكر جانباً منها:

ناهيك من ذلك خطبة سيّد المرسلين وإمام المتّقين في آخر جمعة من شهر شعبان عند ما أطلّ شهر رمضان:

[٤٧٠٦/٢] روى الشيخ عمادالدين أبو جعفر محمّد بن أبي القاسم الطبري بإسناده إلى الحسن بن عليّ بن فضّال عن عليّ بن موسى الرضا عن آبائه عليهم السلام عن عليّ عليه السلام قال: خطبنا رسول الله صلى الله عليه وآله فقال: «أيّها الناس، إنّه قد أقبل إليكم شهر الله بالبركة والرحمة والمغفرة، شهر هو عند الله أفضل الشهور، وأيّامه أفضل الأيّام، ولياليه أفضل الليالي، وساعاته أفضل الساعات. وهو شهر دُعيتم فيه إلى ضيافة الله، وجُعلتم فيه من أهل كرامة الله.

أنفاسكم فيه تسبيح، ونومكم فيه عبادة، وعملكم فيه مقبول، ودعاؤكم فيه مستجاب. فاسألوا الله ربّكم بنيّات صادقة وقلوب طاهرة، أن يوفّقكم لصيامه [وقيامه] وتلاوة كتابه. فإنّ الشّقيّ من حُرم غفران الله في هذا الشهر العظيم!»

ثمّ أخذ في بيان ما ينبغي العمل والاهتمام به في هذا الشهر وقال:

«اذكروا بجوعكم وعطشكم فيه جوع يوم القيامة وعطشه.

وتصدّقوا على فقرائكم ومساكينكم.

ووقّروا كباركم، وارحموا صغاركم، وصلوا أرحامكم.

واحفظوا ألسنتكم، وغُضّوا عمّا لايحلّ النظر إليه أبصاركم، وعمّا لايحلّ الاستماع إليه أسماعكم.

وتحنّنوا على أيتام الناس، يُتحنَّن على أيتامكم.

وتوبوا إلى الله من ذنوبكم، وارفعوا إليه أيديكم بالدعاء في أوقات صلواتكم، فإنّها أفضل الساعات، ينظر الله -عزّ وجلّ- فيها بالرحمة إلى عباده، ويُجيبهم إذا ناجوه، ويُلبّيهم إذا نادوه، ويستجيب لهم إذا دعوه». ثمّ قال:

«أيّها الناس، إنّ أنفسكم مرهونة بأعمالكم، ففكّوها باستغفاركم. وظهوركم ثقيلة من أوزاركم، فخفّفوا عنها بطول سجودكم. واعلموا أنّ الله ﷻ أقسم بعزّته أن لا يُعذّب المصلّين والساجدين، وأن لا يروّعهم بالنار، يوم يقوم الناس لربّ العالمين!

أيّها الناس، من فطّر منكم صائماً مؤمناً في هذا الشهر، كان له بذلك عند الله عتق رقبة ومغفرة لما مضى من ذنوبه. فقيل: يا رسول الله ﷺ وليس كلّنا نقدر على ذلك! فقال: اتّقوا النار ولو بشقّ تمرة، اتّقوا النار ولو بشربة من ماء!

أيّها الناس، من حَسَّن منكم في هذا الشهر خُلقه، كان له جوازٌ على الصراط، يوم تزلّ فيه الأقدام. ومن خفّف منكم في هذا الشهر عمّا ملكت يمينه، خفّف الله عليه حسابه. ومن كفّ فيه شرّه، كفّ الله عنه غضبه يوم يلقاه». إلى أن قال:

«أيّها الناس، إنّ أبواب الجنان في هذا الشهر مُفتَّحة، فاسألوا ربّكم أن لا يغلقها عليكم. وأبواب النيران مُغلَقة، فاسألوا ربّكم أن لا يفتحها عليكم. والشياطين مغلولة، فاسألوا ربّكم أن لا يسلّطها عليكم».

قال أمير المؤمنين ؑ: فقمت وقلت: يا رسول الله ﷺ ما أفضل الأعمال في هذا الشهر؟ فقال: «يا أبا الحسن، أفضل الأعمال في هذا الشهر، الورع عن محارم الله».[(١)]

ورواه ابن بابويه الصدوق بإسناده إلى ابن فضّال عن الرضا ؑ عن آبائه عن عليّ ؑ عن رسول الله ﷺ وفق ما رواه محمد بن أبي القاسم الطبري[(٢)]

[٤٧٠٧/٢] وروى بالإسناد إلى الحسن بن محبوب عن أبي أيّوب عن أبي الورد عن أبي جعفر الباقر ؑ قال: خطب رسول الله ﷺ الناس في آخر جمعة من شعبان، فحمد الله وأثنى عليه، ثمّ

---

(١) الإقبال لابن طاووس ١: ٢٥ ـ ٢٧.

(٢) عيون أخبار الرضا ٢: ٢٦٦، باب ٥٣؛ الأمالي: ١٥٥ المجلس ٢٠؛ فضائل الأشهر الثلاثة: ٧٧ ـ ٧٩ / ٦١.

قال: «أيّها الناس، إنّه قد أظلّكم شهر فيه ليلة خير من ألف شهر، وهو شهر رمضان، فرض الله صيامه، وجعل قيام ليلةٍ فيه كمن تطوّع بصلاة سبعين ليلة فيما سواه من الشهور، وجعل لمن تطوّع فيه بخصلةٍ من خصال الخير والبرّ كأجر من أدّى فريضة من فرائض الله عزّ وجلّ، ومن أدّى فريضة من فرائض الله كان كمن أدّى سبعين فريضة فيما سواه من الشهور.

وهو شهر الصبر، وإنّ الصبر ثوابُه الجنّة. وهو شهر المواساة، وهو شهرٌ يزيد الله فيه رزق المؤمن.

ثمّ ذكر ثواب من فطّر صائماً، وقال: إنّ الله يعطي هذا الثواب منكم لمن لم يقدر إلّا على مذقة من لبن يفطّر بها صائماً أو شربة من ماء عذب أو تُميرات، لايقدر على أكثر من ذلك»[1].

[٤٧٠٨/٢] وروى الكليني بالإسناد إلى أبي جعفر الباقر عليه السلام أيضاً قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله لمّا حضر شهر رمضان، وذلك في ثلاث بقين من شعبان، قال لبلال: ناد في الناس، فجمع الناس، ثمّ صعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه ثمّ قال: «أيّها الناس، إنّ هذا الشهر قد خصّكم الله به وحضركم، وهو سيّد الشهور، فيه ليلة خير من ألف الشهر، تغلق فيه أبواب النيران، وتفتح فيه أبواب الجنان، فمن أدركه فلم يغفر له فأبعده الله»[2].

[٤٧٠٩/٢] وروى ابن بابويه بالإسناد إلى جابر [الجعفي] عن أبي جعفر عليه السلام قال: كان رسول الله صلى الله عليه وآله إذا نظر إلى هلال شهر رمضان، استقبل القبلة بوجهه ثمّ قال: «اللّهمّ أهلّه علينا بالأمن والإيمان، والسلامة والإسلام، والعافية المجلّلة والرزق الواسع ودفع الأسقام، وتلاوة القرآن، والعون على الصلاة والصيام. اللّهمّ سلّمنا لشهر رمضان وسلّمه لنا وتسلّمه منّا، حتّى ينقضي شهر رمضان وقد غفرت لنا».

ثمّ يُقبل بوجهه إلى الناس فيقول: «يا معشر الناس، إذا طلع هلال شهر رمضان غُلّت مردة الشياطين، وفُتحت أبواب السماء وأبواب الجنان وأبواب الرحمة، وغُلّقت أبواب النار، واستجيب الدعاء، وكان لله ـ تبارك وتعالى ـ عند كلّ فطرٍ عُتَقاءَ يعتقهم من النار، وينادي منادٍ كلّ ليلة: هل من تائب؟ هل من سائل؟ هل من مستغفر؟ اللّهمّ، أعطِ كلّ مُنفقٍ خَلَفاً، وأعطِ كلّ مُمسكٍ تَلَفاً».

---

(١) الفقيه ٢: ٥٨، باب ٢٨ / ١ ـ ٢٥٤؛ الكافي ٤: ٦٦ / ٤، والمذقة: لبن غير خالص من خليط الماء.

(٢) الكافي ٤: ٦٧ / ٥؛ الفقيه ٢: ٥٩ / ٢.

قال: حتّى إذا طلع هلال شوّال، نودي المؤمنون: «أن اغدوا إلى جوائزكم، فهو يوم الجائزة!».
قال الإمام أبوجعفر ﷺ: أما والّذي نفسي بيده، ما هي بجائزة الدنانير والدراهم[١].
ورواه الكليني مقتصراً على الشطر الأخير حيث أقبل بوجهه إلى الناس وخاطبهم[٢].

[٤٧١٠/٢] وروى ابن بابويه أنّ الإمام أبوجعفر ﷺ قال لجابر: «يا جابر، من دخل عليه شهر رمضان، فصام نهاره وقام وِرْداً من ليله وحفظ فرجه ولسانه وغضّ بصره وكفّ أذاه، خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمّه! قال جابر: قلت له: جُعلت فداك، ما أحسن هذا من حديث؟! فقال الإمام: ما أشدّ هذا من شرط!»[٣] ذلك لأنّ ما ذكره الإمام شرطاً لغفران الذنوب، شديد الوطأة، قلّ من يتحمّلها.

والقيام وِرْداً كلّ ليلة من شهر رمضان، اختصاص قسطٍ من الليل للقيام بالعبادة تباعاً كلّ ليلة.
وقد ورد ذلك في أحاديث، منها:

[٤٧١١/٢] روى زرارة عن الإمام أبي جعفر ﷺ قال: لمّا انصرف النبيّ ﷺ من عرفات وسار إلى منى، دخل المسجد فسألوه عن ليلة القدر، فقام خطيباً وقال ـ بعد الثناء على الله عزّ وجلّ ـ: «أمّا بُعد فإنّكم سألتموني عن ليلة القدر، ولم أطوها عنكم، لأنّي لم أكن بها عالماً؛ اعلموا أيّها الناس، إنّه من وَرَدَ عليه شهر رمضان ـ وهو صحيحٌ سويٌّ ـ فصام نهاره وقام وِرْداً من ليله وواظب على صلاته، وهجّر إلى جمعته[٤] وغدا إلى عيده، فقد أدرك ليلة القدر، وفاز بجائزة الربّ تعالى»[٥].

[٤٧١٢/٢] وقال الإمام أبو عبدالله الصادق ﷺ: «فازوا ـ والله ـ بجوائز ليست كجوائز العباد»[٦].

* * *

[٤٧١٣/٢] وأخرج العقيلي وابن خزيمة في صحيحه والبيهقي والخطيب والأصبهاني في الترغيب عن سلمان الفارسي قال: خطبنا رسول الله ﷺ في آخر يوم من شعبان فقال: «يا أيّها الناس قد أظلّكم شهر عظيم شهر مبارك، شهر فيه ليلة خير من ألف شهر، جعل الله صيامه فريضةً وقيام ليله تطوّعاً، من تقرّب فيه بخصلة من الخير كان كمن أدّى فريضةً فيما سواه، ومن أدّى

(١) الفقيه ٢: ٥٩ ـ ٦٠ / ٣.
(٢) الكافي ٤: ٦٧ ـ ٦٨ ـ ٦.
(٣) الفقيه ٢: ٦٠ / ٦.
(٤) هجّر إلى كذا: بادر.
(٥) الفقيه ٢: ٦٠ / ٤.
(٦) المصدر / ٥.

فريضةً فيه كان كمن أدّى سبعين فريضةً فيما سواه، وهو شهر الصبر والصبر ثوابه الجنّة، وشهر المواساة، وشهر يزاد في رزق المؤمن، من فطَّر فيه صائماً كان له مغفرةً لذنوبه، وعتق رقبته من النار، وكان له مثل أجره من غير أن ينتقص من أجره شيء. قلنا: يا رسول الله ليس كلّنا نجد ما يُفَطِّر الصائم؟ فقال رسول الله ﷺ: يعطي الله هذا الثواب من فطّر صائماً على مَذْقَةِ لبن أو تمرةٍ أو شربةٍ من ماء، ومن أشبع صائماً سقاه الله من حوضي شربةً لا يظمأ حتّى يدخل الجنّة، وهو شهر أوّله رحمة وأوسطه مغفرة وآخره عتق من النار، من خفّف عن مملوكه فيه غفر الله له وأعتقه من النار، فاستكثروا فيه من أَربع خِصَالٍ: خصلتان ترضون بهما ربّكم، وخصلتان لا غنى بكم عنهما. فأمّا الخصلتان اللّتان ترضون بهما ربّكم فشهادة أن لا إلـهَ إلّا الله وتستغفرونه، وأمّا اللّتان لا غنى بكم عنهما فتسألون الله الجنّة وتعوذون به من النار»[1].

[٤٧١٤/٢] وأخرج ابن أبي شيبة وأحمد والنسائي والبيهقي عن عرفجة قال: كنّا عند عُتبة بن فرقد وهو يحدّثنا عن رمضان، إذ دخل رجل من أصحاب النبيّ ﷺ، فسكت عُتبة بن فرقد قال: يا أبا عبدالله حدّثنا عن رمضان، كيف سمعت رسول الله ﷺ يقول فيه؟ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «رمضان شهرٌ مبارك، تُفتح فيه أبواب الجنّة، وتُغلق فيه أبواب السعير، وتُصفَّد فيه الشياطين، ويُنادي منادٍ كلَّ ليلة: يا باغي الخير هَـلُمَّ، ويا باغي الشرّ أَقْصِرْ، حتّى ينقضي رمضان»[2].

[٤٧١٥/٢] وأخرج البيهقيّ عن عبدالله بن مسعود عن رسول الله ﷺ قال: «إذا كان أوّل ليلة من شهر رمضان فُتِحَتْ أبوابُ الجنان، فلم يُغلَق منها بابٌ الشَّهْرَ كلَّه، وغُلِّقت أبواب النار فلم يُفتَح منها بابٌ الشهرَ كلَّه، وغُلَّت عتاة الجنّ، ونادى منادٍ من السماء كلّ ليلة إلى انفجار الصبح: يا باغي الخير تمّم وأبشر، ويا باغي الشرّ أقصِر وأبصِر، هل من مستغفر نغفر له؟ هل من تائب نتوب عليه؟ هل من داع نستجيب له؟ هل من سائل نعطي سؤله؟ ولله عند كلّ فطر (أي إفطار) من شهر رمضان كلّ ليلة

---

(١) ابن خزيمة ٣: ١٩١ ـ ١٩٢؛ شعب الايمان ٣: ٣٠٥ ـ ٣٠٦ / ٣٦٠٨؛ الثعلبي ٢: ٦٩؛ كنزالعمّال ٨: ٤٧٧ / ٢٣٧١٤؛ مجمع البيان ٢: ١٥؛ أبوالفتوح ٣: ٢٦ ـ ٢٧.

(٢) الدرّ ١: ٤٤٤؛ المصنّف ٢: ٤١٩ / ٢، باب ١؛ مسند أحمد ٤: ٣١٢؛ النسائي ٢: ٦٦ ـ ٦٧؛ شعب الايمان ٣: ٣٠٢ / ٣٦٠١؛ كنزالعمّال ٨: ٤٦٨.

عتقاء من النار ستّون ألفاً، فإذا كان يوم الفطر أعتق مثل ما أعتق في جميع الشهر ثلاثين مرّةً، ستّين ألفاً، ستّين ألفاً»[١].

[٤٧١٦/٢] وأخرج البيهقي والأصبهانيّ عن أبي سعيد الخُدريّ قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا كان أوّل ليلة من رمضان فُتحت أبواب السماء فلا يُغلَق منها باب حتّى يكون آخر ليلة من رمضان، وليس من عبد مؤمن يُصَلّي في ليلة منها إلّا كتب الله له ألفاً وخمسمائة حسنة بكلّ سجدة، وبنى له بيتاً في الجنّة من ياقوتة حمراء لها ستّون ألف باب، فيها قصر من ذهب مُوَشّح بياقوتة حمراء، فإذا صام أوّل يوم من رمضان غُفِر له ما تقدّم من ذنبه إلى مثل ذلك اليوم من شهر رمضان، واستغفر له كلّ يوم سبعون ألف ملك من صلاة الغداة إلى أن توارى بالحجاب، وكان له بكلّ سجدة يسجدها في شهر رمضان بليل أو نهار شجرة يسير الراكب في ظلّها خمسمائة عام»[٢].

[٤٧١٧/٢] وأخرج الأصبهاني عن عليّ ﷺ قال: لمّا كان أوّل ليلة من رمضان قام رسول الله ﷺ وأثنى على الله وقال: «أيّها الناس قد كفاكم الله عدوّكم من الجنّ ووعدكم الإجابة، وقال ﴿ادعوني أستجب لكم﴾ ألا وقد وكّل الله بكلّ شيطانٍ مَرِيْدٍ سبعةً من الملائكة، فليس بمحلول حتّى ينقضي شهر رمضان، ألا وأبوابُ السماء مفتّحةٌ من أوّل ليلة منه إلى آخر ليلة منه، ألا والدعاء فيه مقبول». قال: حتّى إذا كان أوّل ليلة من العشر شمّر وشدّ المِئزر، وخرج من بيته واعتكفهنّ وأحيا الليل. قيل: وما شدّ المِئزَر؟ قال: كان يعتزل النساء فيهنّ[٣].

[٤٧١٨/٢] وأخرج ابن أبي شيبة والنسائي وابن ماجة والبيهقي عن عبدالرحمان بن عوف قال: ذكر رسول الله ﷺ رمضان فقال: «شهر فرض الله عليكم صيامه وسننتُ أنا قيامه، فمن صامه وقامه إيماناً واحتساباً خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمّه»[٤].

[٤٧١٩/٢] وأخرج مسلم والبيهقي عن أبي هريرة أنّ رسول الله ﷺ قال: «الصلوات الخمس،

---

(١) الدرّ ١: ٤٤٦؛ شعب الإيمان ٣: ٣٠٤ / ٣٦٠٦؛ كنزالعمّال ٨: ٤٦٩ / ٢٣٧٠٥.

(٢) الدرّ ١: ٤٥٠؛ شعب الإيمان ٣: ٣١٤ / ٣٦٣٥؛ كنزالعمّال ٨: ٤٧٠ ـ ٤٧١ / ٢٣٧٠٦؛ أبوالفتوح ٣: ٢٧ ـ ٢٨.

(٣) الدرّ ١: ٤٥٥؛ كنزالعمّال ٨: ٥٨٣ / ٢٤٢٧٤.

(٤) الدرّ ١: ٤٤٧؛ المصنّف ٢: ٢٨٧ / ١٣، باب ٢٢٨؛ النسائي ٢: ٨٩ / ٢٥٢٠؛ ابن ماجة ١: ٤٢١ / ١٣٢٨، باب ١٧٣؛ شعب الإيمان ٣: ٣٠٧ / ٣٦١٥؛ كنزالعمّال ٨: ٤٦١ / ٢٣٦٥٩.

والجمعة إلى الجمعة، ورمضان إلى رمضان، مُكفِّرات ما بينهنّ إذا اجتُنبت الكبائر»[(١)].

[٤٧٢٠/٢] وأخرج ابن حِبّان والبيهقي عن أبي سعيد الخُدري قال: قال رسول الله ﷺ: «من صام رمضان، وعرف حدوده، وتحفّظ ممّا ينبغي أن يتحفَّظ منه، كفَّر ما قبله»[(٢)].

[٤٧٢١/٢] وأخرج البزّار عن أبي سعيد قال: قال رسول الله ﷺ: «إنّ لله ـ تبارك وتعالى ـ عتقاء في كلّ يوم وليلة من رمضان، وإنّ لكلّ مسلم في كلّ يوم وليلة دعوةً مستجابةً»[(٣)].

[٤٧٢٢/٢] وأخرج البزّار والطبراني في الأوسط والبيهقي في شعب الإيمان وضعّفه عن أنس: «أنّ النبيّ ﷺ كان إذا دخل رجب قال: اللّهمّ بارك لنا في رجب وشعبان وبلِّغنا رمضان»[(٤)].

[٤٧٢٣/٢] وأخرج البزّار والبيهقي عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: «سيّد الشهور شهر رمضان، وأعظمها حرمةً ذو الحجّة»[(٥)].

[٤٧٢٤/٢] وأخرج ابن أبي شيبة والبيهقي عن ابن مسعود قال: سيّد الشهور شهر رمضان، وسيّد الأيّام الجمعة[(٦)].

[٤٧٢٥/٢] وأخرج حميد بن زنجويه، والبيهقي عن كعب قال: إنّ الله اختار ساعات الليل والنهار فجعل منهنّ الصلوات المكتوبة، واختار الأيّام فجعل منهنّ الجمعة، واختار الشهور فجعل منهنّ

---

(١) مسلم ١: ١٤٤؛ شعب الإيمان ٣: ٣٠٨ ـ ٣٠٩؛ مسند أحمد ٢: ٤٠٠ و ٥٠٦؛ البيهقي ١٠: ١٨٧، كنزالعمّال ٧: ٢٨٤ و ٣١٨؛ الحاكم ١: ١١٩ ـ ١٢٠.

(٢) الدرّ ١: ٤٤٥؛ ابن حبّان ٨: ٢١٩ ـ ٢٢٠ / ٣٤٣٣؛ شعب الإيمان ٣: ٣١٠ / ٣٦٢٣؛ مسند أحمد ٣: ٥٥.

(٣) الدرّ ١: ٤٥٣؛ مختصر زوائد مسند البزّار ١: ٤٠٣ / ٦٦٤؛ مجمع الزوائد ٣: ١٤٣.

(٤) الدرّ ١: ٤٤٤؛ مختصر زوائد مسند البزّار ١: ٤٠٢ / ٦٦٢؛ الأوسط ٤: ١٨٩؛ الشعب ٣: ٣٧٥ / ٣٨١٥؛ مجمع الزوائد ٣: ١٤٠؛ مسند أحمد ١: ٢٥٩، بلفظ: ... عن أنس بن مالك قال: كان النبي ﷺ إذا دخل رجب قال: «اللّهمّ بارك لنا في رجب وشعبان، وبارك لنا في رمضان» وكان يقول: «ليلةُ الجمعة غرّاء ويومُها أزهر»؛ كنزالعمّال ٧: ٧٩ / ١٨٤٩ و ١٤: ١٧٦ / ٣٨٢٨٩.

(٥) الدرّ ١: ٤٥٠؛ مختصر زوائد مسند البزّار ١: ٤٠٢ / ٦٦٣؛ شعب الإيمان ٣: ٣٥٥ / ٣٧٥٥؛ ابن عساكر ٢٦: ٣٩٢ ـ ٣٩٣؛ مجمع الزوائد ٣: ١٤٠؛ كنزالعمّال ٨: ٤٦٣ / ٢٣٦٧٠.

(٦) الدرّ ١: ٤٥١؛ المصنّف ٢: ٥٧ / ٢، باب ٧٠، كتاب الصلاة، باب في فضل الجمعة ويومها، بلفظ: .. عن عبدالله قال: إنّ سيّد الأيّام يوم الجمعة وسيّد الشهور رمضان؛ شعب الإيمان ٣: ٣١٤ / ٣٦٣٨؛ كنزالعمّال ٨: ٤٨٢ / ٢٣٧٣٥.

شهر رمضان، واختار الليالي فجعل منهنّ ليلة القدر، واختار البقاع فجعل منها المساجد[١].

[٤٧٢٦/٢] وأخرج الأصبهاني عن عائشة قالت: قال رسول الله ﷺ: «إذا سلم رمضان سلِمت السَنَة، وإذا سلِمت الجمعة سلمت الأيّام»[٢].

[٤٧٢٧/٢] وأخرج البيهقي والأصبهاني عن أنس قال: قيل: «يا رسول الله أيّ الصدقة أفضل؟ قال: صدقةٌ في رمضان»[٣].

تعظيم التلفّظ بشهر رمضان[٤]

[٤٧٢٨/٢] روى أبوجعفر الكليني بالإسناد إلى غياث بن إبراهيم عن الإمام الصادق عن أبيه الباقر عليه السلام قال: قال الإمام أميرالمؤمنين عليه السلام: «لاتقولوا: رمضان، ولكن قولوا: شهر رمضان؛ فإنّكم ما تدرون ما رمضان؟!». وهكذا رواه ابن بابويه الصدوق[٥].

[٤٧٢٩/٢] وروى بالإسناد إلى محمّد بن أبي نصر عن هشام بن سالم عن سعد عن أبي جعفر عليه السلام قال: كنّا عنده ثمانية رجال، فذكرنا رمضان؛ فقال: «لا تقولوا: هذا رمضان، ولا ذهب رمضان، ولا جاء رمضان، فإنّ رمضان اسم من أسماء الله ـعزّ وجلّ ـ لايجيء ولايذهب، وإنّما يجيء ويذهب الزائل، ولكن قولوا: شهر رمضان. فالشهر مضاف إلى الاسم، والاسم اسم الله عزّ ذكره، وهو الشهر الّذي أُنزل فيه القرآن، جعله مَثَلاً و عيداً»[٦].

---

(١) الدرّ ١: ٤٥١ (و ٢: ٢٢١، ط: هجر)؛ شعب الإيمان ٣: ٣١٤ / ٣٦٣٦.

(٢) الدرّ ١: ٤٥٤؛ كنزالعمّال ٧: ٧١٠ / ٢١٠٤٩، عن الدار قطني في الإفراد، بلفظ: إذا سلمت الجمعة سلمت الأيّام، وإذا سلم رمضان سلمت السنة.

(٣) الدرّ ١: ٤٤٩؛ البيهقي ٤: ٣٠٥ ـ ٣٠٦؛ شعب الإيمان ٣: ٣١١ ـ ٣١٢ / ٣٦٣١؛ كنزالعمّال ٨: ٥٥٧ / ٢٤١٤٩، بلفظ: أفضل الصوم بعد رمضان شعبان، لتعظيم رمضان، وأفضل الصدقة صدقةٌ في رمضان.

(٤) هذا العنوان أخذناه من السيّد رضيّ الدين ابن طاووس في كتابه الشريف: «إقبال الأعمال»: ٢٨.

(٥) الكافي ٤: ٦٩ / ١؛ الفقيه ٢: ١٧٢ ـ ١٧٣ / ٢٥٠١؛ المعاني: ٣١٥ / ٢؛ البحار ٩٣: ٣٧٧ / ٢، باب ٤٨.

(٦) الكافي ٤: ٦٩ ـ ٧٠ / ٢، كتاب الصيام، باب في النهي عن قول رمضان بلاشهر؛ نور الثقلين ١: ١٦٦ ـ ١٦٧؛ الفقيه ٢: ١٧٢ / ٢٠٥٠، كتاب الصوم، باب النوادر؛ المعاني: ٣١٥ / ١، باب معنى رمضان؛ البحار ٩٣: ٣٧٦ / ١، باب ٤٨؛ بصائر الدرجات: ٣٣١ / ١٢، باب ١٨.

[٤٧٣٠/٢] وأخرج الثعلبي عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ «لاتقولوا رمضان، انسبوه كما نسبه الله تعالى في القرآن فقال: شهر رمضان»(١).

[٤٧٣١/٢] وأخرج وكيع وابن جرير عن مجاهد قال: لاتَقُل: رمضان، فإنّك لاتدري ما رمضان، لعلّه اسم من أسماء الله ـ عزّ وجلّ ـ ولكن قل: شهر رمضان، كما قال الله عزّ وجلّ!(٢)

[٤٧٣٢/٢] وروى أبو عليّ محمّد بن محمّد بن الأشعث الكوفي عن أبي الحسن موسى بن إسماعيل بن موسى بن جعفر عن أبيه عن آبائه عليهم السلام عن الإمام أميرالمؤمنين عليه السلام أنّه كان يقول: «لاتقولوا رمضان، فإنّكم لاتدرون ما رمضان، فمن قال فليتصدّق وليصم كفّارة لقوله، ولكن قولوا كما قال الله تعالى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ﴾»(٣).

قال العلّامة المجلسي: لعلّه على الفضل والأولويّة، فإنّ الّذي يقول: رمضان، إنّما يريد الشهر، إمّا بحذف المضاف أو صار بكثرة الاستعمال علَماً للشهر. والدليل على ذلك أنّه ورد في كثير من الأخبار «رمضان» بلا إضافة «شهر»(٤). قال: إلّا أنّ الأحوط هو العمل وفق هذا الخبر(٥).

* * *

وقال أبو عبدالله القرطبي: واختُلِفَ هل يُقال: «رمضان» دون أن يضاف إليه شهر؟ فكره ذلك مجاهد وقال: يقال ـ كما قال الله تعالى ـ: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ﴾ وفي الخبر: «لاتقولوا رمضان، بل انسبوه كما نسبه الله في القرآن، فقال: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ﴾»(٦). وكان يقول: بلغني أنّه اسم من أسماء الله، وكان

---

(١) الثعلبي ٢: ٦٧. قال البُستي: أنس هذا هو: أنس بن أبي أنس، والد مالك بن أنس. واسم أبي أنس مالك بن أبي عامر من ثقات أهل المدينة، وكان من أقيال اليمن. (القرطبي ٢: ٢٩٢).

(٢) الدرّ ١: ٤٤٣؛ الطبري ٢: ١٩٥ / ٢٣٠٤؛ ابن كثير ١: ٢٢٢، و عن محمّدبن كعب؛ البغوي ١: ٢١٦؛ مجمع البيان ٢: ١٢؛ ابن أبي حاتم ٢: ٣١٠ / ١٦٤٨، نقلاً عن محمّدبن كعب القرظي وسعيدبن أبي هريرة وزاد: وروى عن مجاهد نحو ذلك. ورخّص فيه ابن عبّاس وزيدبن ثابت؛ الفردوس بمأثور الخطاب ٥: ٥٢ / ٧٤٣٣، رواه موقوفاً على أبي هريرة؛ كنزالعمّال ٨: ٤٨٤ / ٢٣٧٤٣؛ البيهقي ٤: ٢٠١، موقوفاً على أبي هريرة.

(٣) الجعفريّات (الأشعثيّات): ٥٩؛ البحار ٩٣: ٣٧٧؛ مستدرك الوسائل ٧: ٤٣٨. قال السيّد ابن طاووس ـ في كتاب إقبال الأعمال ١: ٢٩ ـ: هذا الحديث وقف على مولانا عليّ ـ صلوات الله عليه ـ وقد روينا: أن كلّما روي عن مولانا عليّ فهو عن رسول الله ﷺ.

(٤) سنذكرها تباعاً.

(٥) مرآت العقول ١٦: ٢١٣ ـ ٢١٤.

(٦) سبق في حديث أنس عن تفسير الثعلبي ٢: ٦٧.

يكره أن يُجمع لفظه، لهذا المعنى!

ويحتجّ بما روي: رمضان اسم من أسماء الله تعالى!

قال: وهذا ليس بصحيح، فإنّه من حديث أبي معشر نجيح، وهو ضعيف[١].

قال: والصحيح جواز إطلاق «رمضان» من غير إضافة، كما ثبت في الصحاح وغيرها. فذكر حديث مسلم: «إذا جاء رمضان...»[٢].

[٤٧٣٣/٢] وفي صحيح أبي حاتم البُستيّ عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا كان رمضان فُتحت أبواب الرحمة وغُلّقت أبواب جهنّم وسُلْسلَتِ الشياطين». ورواه النسائي بلفظ: «إذا دخل رمضان...» وبلفظ: «إذا جاء رمضان». وفي لفظ آخر: «هذا رمضان قد جاءكم»[٣].

[٤٧٣٤/٢] وروى النسائي عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «أتاكم رمضان شهر مبارك...»[٤].

[٤٧٣٥/٢] وروى عن ابن عبّاس أيضاً قال: قال رسول الله ﷺ لامرأة من الأنصار: «إذا كان رمضان فاعتمري، فإنّ عمرةً فيه تعدل حجّةً»[٥].

[٤٧٣٦/٢] وروي عن عبدالرحمان بن عَوْف قال: قال رسول الله ﷺ: «إنّ الله تعالى فرض صيام رمضان عليكم، وسننتُ لكم قيامه. فمن صامه وقامه إيماناً واحتساباً، خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمّه»[٦].

قال: والآثار في هذا كثيرة، كلّها بإسقاط «شهر».

قال: وربما أسقطت العرب ذكر الشهر مع رمضان، قال الشاعر:

جـارية فـي دِرعـها الفـضفاضِ   أبْـيَضَ مـن أخت بـني إبـاضِ

---

(١) ذكره ابن عُديّ في الضعاف، وجاء بهذا الحديث عنه. الكامل (دارالكتب العلمية) ٨: ٣١٣. وقال البيهقي: أبو معشر هو نجيح السندي ضعّفه يحيى بن معين وكان يحيى القطّان لايحدّث عنه. ثمّ روى عن مجاهد والحسن، وعقّبه بقوله: والطريق إليهما ضعيف. (النسائي ٤: ٢٠١ـ٢٠٢).

(٢) مسلم ٣: ١٢١.

(٣) النسائي ٤: ١٠٢ـ١٠٣.

(٤) المصدر: ١٠٤.

(٥) المصدر.

(٦) مسند أحمد ١: ١٩١.

جـارية فـي رمـضان المـاضي   تُـسقطّع الحـديث بـالإيماضِ[١]

وهكذا ناقش ابن كثير أحاديث المنع، ورجّح الجواز، استناداً إلى صحّة ما ورد من التعبير برمضان مجرّداً عن إضافة شهر[٢].

قلت: وممّا جاء التعبير برمضان مجرّداً عن إضافة شهر:

[٤٧٣٧/٢] ما رواه العيّاشيّ بالإسناد إلى زرارة عن الإمام أبي جعفر الباقر عليه السلام قال ـ في قوله تعالى: ﴿فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ﴾: قال: «ما أبينها لمن عقلها؛ قال: من شهد رمضان فليصمه، ومن سافر فليفطر»[٣].

[٤٧٣٨/٢] وعن محمّد بن مسلم قال: سمعت أبا جعفر عليه السلام يقول: «الشيخ الكبير والّذي به العطاش، لاحرج عليهما أن يُفطرا في رمضان، وتصدَّق كلّ واحد منهما في كلّ يوم بمدٍّ من طعام، ولا قضاء عليهما. وإن لم يقدرا فلا شيء عليهما»[٤].

[٤٧٣٩/٢] وعن أبي بصير قال: سألت الصادق عليه السلام عن رجل مرض من رمضان إلى رمضان قابل، ولم يصحّ بينهما ولم يُطق الصوم؟ قال: «تصدّق مكان كلّ يوم أفطر، على مسكين مدّاً من طعام. قال: فإن استطاع أن يصوم رمضان الّذي يستقبل، وإلّا يتربّص إلى رمضان قابل، فيقضيه. فإن لم يصحّ حتّى جاء رمضان قابل فليتصدَّق كما تصدَّق؛ مكان كلّ يوم أفطر مدّاً. وإن صحّ في ما بين رمضانين فتوانى أن يقضيه حتّى جاء رمضان الآخر، فإنّ عليه الصوم والصدقة جميعاً؛ يقضي الصوم ويتصدّق، من أجل أنّه ضيّع ذلك الصيام»[٥].

[٤٧٤٠/٢] وكذا روى أحمد بن محمّد بن عيسى بالإسناد إلى أبي بصير قال: قال أبو عبدالله عليه السلام: «أيّما رجلٍ كان كبيراً لا يستطيع الصيام، أو مرض من رمضان إلى رمضان، ثمّ صحّ، فإنّما عليه لكلّ يوم أفطر فدية إطعام، وهو مدّ لكلّ مسكين»[٦].

* * *

(١) القرطبي ٢: ٢٩١ ـ ٢٩٣. قوله: تُقطّع الحديثَ بالإيماض أي إذا تبسّمت قطع الناسُ حديثهم وبهرهم ابتسامها والإيماض: ابتسامة مليحة ذات غمز و دلال.

(٢) ابن كثير ١: ٢٢٢.

(٣) العيّاشيّ ١: ٨١ / ١٨٧.

(٤) المصدر: ٧٩ / ١٨١.

(٥) المصدر / ١٧٨.

(٦) النوادر ٧٠ / ١٤٦؛ الوسائل ١٠: ٢١٣ / ١٢.

وعقد البخاري باباً ترجمه بقوله: هل يُقال رمضان أو شهر رمضان؟ ومن رأى كلّه واسعاً. وقال النبيّ ﷺ: «من صام رمضان». وقال: «لا تقدّموا رمضان».

[٤٧٤١/٢] أخرج بالإسناد إلى أبي هريرة أنّ رسول الله ﷺ قال: «إذا جاء رمضان، فُتحت أبواب الجنّة»[١].

[٤٧٤٢/٢] ورواه مسلم: «إذا كان رمضان فُتحت أبواب الرحمة وغُلّقت أبواب جهنّم وسُلسِلَت الشياطين»[٢].

[٤٧٤٣/٢] وأخرج عن ابن عبّاس قال: كان النبيّ ﷺ أجود الناس بالخير، وكان أجود ما يكون في رمضان، حين يلقاه جبريل، وكان يلقاه كلّ ليلة في رمضان[٣].

[٤٧٤٤/٢] وأخرج عن أبي هريرة عن النبيّ ﷺ قال: «لا يتقدَّ مَنَّ أحدكم رمضان بصوم يوم ولا يومين»[٤].

[٤٧٤٥/٢] وأخرج عنه أيضاً قال: قال النبيّ ﷺ: «ومن صام رمضانَ إيماناً واحتساباً غُفر له ما تقدّم من ذنبه»[٥].

في اشتقاق رمضان

قال الزمخشري: رمضان: مصدر رَمَضَ إذا احترق ـ من الرمضاء ـ فأُضيف إليه الشهر وجُعل علماً. ومُنع الصرف للتعريف والألف والنون.

قال: أمّا وجه تسمية هذا الشهر بهذا الاسم، فلأنّ الصوم فيه كانت عبادة قديمة، فكأنّهم سمّوه بذلك لارتماضهم فيه من حرّ الجوع ومقاساة شدّته. كما سمّوه «ناتقاً» لأنّه كان ينتقهم أي يُزعجهم إضجاراً بشدّته عليهم.

وقيل: لمّا نقلوا أسماء الشهور عن اللغة القديمة، سمّوها بالأزمنة الّتي وقعت فيها، فوافق هذا الشهر أيّام رمض الحرّ.

---

(١) البخاري ٣: ٣٢.
(٢) مسلم ٣: ١٢١.
(٣) البخاري ٣: ٣٣؛ النسائي ٤: ١٠١.
(٤) البخاري ٣: ٣٥؛ مسلم ٣: ١٢٥.
(٥) البخاري ٣: ٣٣.

فإن قلت: فإذا كانت التسمية واقعة مع المضاف والمضاف إليه جميعاً، فما وجه ما جاء في الأحاديث من نحو قولهﷺ: «من صام رمضان إيماناً واحتساباً» و «من أدرك رمضان فلم يُغفر له»؟

قلت: هو من باب الحذف لا من الإلباس، كما قال:

فَهَلْ لَكُمُ فِيمَا إليَّ، فَإنّني بصير بما أَعْيَى النِّطاسِيَّ حِذْيَماً

أراد: ابن حِذْيَم[1].

وقال الفيروزآبادي: شهر رمضان، معروف. وجمعه رمضانات ورمضانون وأرمضة. وزيد: أرمضاء[2]. سمّي به، لأنّهم لمّا نقلوا أسماء الشهور عن اللغة القديمة سمّوها بالأزمنة الّتي وقعت فيها، فوافق «ناتق» ـ اسمه القديم ـ زمن الحرّ والرَّمَض[3]. أو هو مشتقّ من «رمض الصائم» إذا اشتدّ حرُّ جوفه، من شدّة العطش، وهو قول فرّاء. أو لأنّه يُحرق الذنوب. ـ من رمضه الحرُّ يرمضه إذا أحرقه ـ.

قال: ورمضان، إن صحّ أنّه من أسماء الله تعالى، فغير مشتقّ. أو راجع إلى معنى «الغافر» أي يمحو الذنوب ويمحقها[4].

[٤٧٤٦/٢] وذكر الإمام الرازي: أنّه قد روي عن رسول اللهﷺ أنّه قال: «إنّما سمّي رمضان، لأنّه

---

(١) الكشّاف ١: ٢٢٦ ـ ٢٢٧. وابن حِذْيَم: طبيب ماهر حاذق. والنطاسيّ ـ لغة روميّة معرّبة ـ بمعنى الماهر الحاذق في الطبّ. يقول الشاعر: فإن كانت رغبة فيما يعود إليّ من «إصابة الرأي والحذقة في حلّ مشكلات الأمور». فإنّي جدير بذلك وبصير بحلّ المعضلات. وكنّى عن ذلك بقوله: بما أَعْيَى حِذْيَم النطاسيّ الماهر. أراد: ابن حِذْيَم، لأنّه كنيته، فحذف جزء الاسم تخفيفاً، ولم يكن عن التباس عليه في الاسم!

(٢) قال مُطرِّز: كان مجاهد يكره أن يُجمع رمضان، ويقول: بلغني أنّه اسم من أسماء الله تعالى. (لسان العرب ٧: ١٦١).

(٣) كما سُمّي شعبان لتشعّبهم حينذاك أي تفرّقهم في طلب المياه. وقيل في الغارات. (لسان العرب ١: ٥٠٢). كما سمّي رجب، لأخذهم بحرمته وكفّهم عن القتال. (المصدر ١: ٤١١). وسمّي شوّال، لشَوَلان الناقة ذنبها لاشتداد الحرّ وانقطاع الرُّطب. (المصدر ١١: ٣٧٧). وسمّي صَفَر، لأنّهم كانوا يمتارون الطعام فيه من المواضع فكانت مكّة تصفر من أهلها أي تخلو. (المصدر ٤: ٤٦٢). والربيعان، لأنّهما فصل الخصب وفيهما تأتي الكمأة والنَّوْر. (المصدر ٨: ١٠٣). والجماديّان، لجمود الماء فيهما عند تسمية الشهور يومذاك. (المصدر ٣: ١٣٠).

(٤) القاموس المحيط ٢: ٣٣٢ ـ ٣٣٣. مع مزج شيء من شرح الزبيدي ٥: ٣٧.

يرمض ذنوب عباد الله».[١] قال: وهذا الشهر إنّما سمّي بهذا الاسم، لأنّ الذنوب تتلاشىٰ في جنب رحمة الله، حتّى كأنّها احترقت. فالذنوب تحترق في جنب بركة هذا الشهر[٢].

[٤٧٤٧/٢] وأخرج ابن مردويه والأصبهانيّ عن عائشة قالت: قيل للنبيّ ﷺ: «يا رسول الله ما رمضان؟ قال: أرمض الله فيه ذنوب المؤمنين وغفَرها لهم. قيل: فشوّال؟ قال: شالت فيه ذنوبُهم فلم يبقَ فيه ذنب إلّا غفره»[٣].

[٤٧٤٨/٢] وأخرج أبو الشيخ في الثواب والديلمي عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «تدرون لِمَ سمّي شعبان شعبان؟ لأنّه يتشعّب فيه لرمضان خيرٌ كثير. تدرون لِمَ سُمّي رمضان رمضان؟ لأنّه يرمض الذنوب، وإنّ في رمضان ثلاث ليال من فاتته فاته خير كثير: ليلة سبع عشرة وليلة إحدى وعشرين وآخرها ليلة! فقيل: يا رسول الله هي سوى ليلة القدر؟ قال: نعم، ومن لم يُغفر له في شهر رمضان فأيَّ شهر يُغفر له»[٤].

[٤٧٤٩/٢] وأخرج ابن عساكر في تاريخه عن ابن عمر قال: إنّما سمّي رمضان، لأنّ الذنوب تُرمَض فيه، وإنّما سمّي شوّالٌ، لأنّه يشول الذنوب كما تشول الناقة ذنَبَها[٥].

[٤٧٥٠/٢] وأخرج ابن مردويه والأصبهانيّ في الترغيب عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «إنّما سمّي رمضان، لأنّ رمضان يرمض الذنوب»[٦].

---

(١) سيأتي الحديث.

(٢) التفسير الكبير ٥: ٨٣.

(٣) الدرّ ١: ٤٤٤؛ ذيل تاريخ بغداد ٥: ٧٥ ـ ٧٦ / ١٢١١، بلفظ: ... عن عائشة قالت: قلت: يا رسول الله ﷺ ما معنى رمضان؟ فقال رسول الله ﷺ: يا حميراء لاتقولي رمضان فإنّه اسم من أسماء الله تعالى، ولكن قولي: شهر رمضان. يعني رمضان: أرمض فيه ذنوب عباده فغفرها. قالت عائشة: فقلنا: يا رسول الله، شوّال؟ فقالت: شالت لهم ذنوبهم فذهبت.

(٤) كنزالعمّال ٨: ٥٩١ / ٢٤٢٩٣.

(٥) الدرّ ١: ٤٤٤؛ ابن عساكر ٤٧: ٣٣٥، باب ٥٥١٠، وفيه: ... عن مالك بن أنس عن الزُّهري عن سالم عن أبيه قال: إنّما سمّي ...؛ كنزالعمّال ٨: ٥٨٨ ـ ٥٨٩ / ٢٤٢٨٤.

(٦) الدرّ ١: ٤٤٤؛ مجمع البيان ٢: ١٢، مع عدم ذكر الراوي، بلفظ: قيل: إنّما سميّ رمضان لأنّه يرمض الذنوب؛ القرطبي ٢: ٢٩١.

قوله تعالى: ﴿الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ﴾

أي كان بدء نزول القرآن فيه، باعتباره كتاب الإسلام المعجز. الأمر الّذي لايتنافى ونزول آياتٍ من قبل، لا بهذا الاعتبار، بل لاعتبارات أخرى للتبشير والإنذار والتشمير بجدّ الأمر، في مثل الآيات الخمس الأُوَل من سورة العلق. وآية إنذار الأقربين. وآيتا المدّثّر والمزّمّل، وما شاكل، فإنّها كانت نزلت بشأن أمر التبليغ، لا بعنوان أنّه من الكتاب، نعم وأصبحت بعدُ من الكتاب بإشارة من جبريل ونصّ الرسولﷺ حسبما فصّلنا الكلام فيه في التمهيد.[١]

* * *

والإخبار بنزول القرآن في هذا الشهر، إعلام بتشريف وتفخيم شأنه، كما هو تحبيب لطيف للقيام بوظيفة الصيام فيه. وهي عبادة خالصة لله تعالى، تناسب اختصاص هذا الشهر بهكذا تشريف!

[٤٧٥١/٢] روى أبو النَّضْر محمّد بن مسعود العيّاشيّ السمرقندي بالإسناد إلى الحارث النصري عن الإمام أبي عبدالله الصادقؑ قال ـ في أخريات شهر شعبان ـ: «إنّ هذا الشهر المبارك الّذي أنزلتَ فيه القرآن وجَعَلْتَه هدىً للناس وبيّناتٍ من الهدى والفرقان، قد حضر، فسلّمنا فيه وسلّمه لنا في يسرٍ منك وعافية».

[٤٧٥٢/٢] وبالإسناد إلى أبي بصير عنهؑ قال: إذا حضر شهر رمضان فقل: «اللّهمّ قد حضر شهر رمضان وقد افترضت علينا صيامه، وأنزلت فيه القرآن هدىً للناس وبيّنات من الهدى والفرقان. اللّهمّ أعنّا على صيامه، وتقبّله منّا وسلّمنا فيه وسلّمه منّا وسلّمنا له في يُسرٍ منك وعافية، إنّك على كلّ شيء قدير، يا أرحم الراحمين»[٢].

[٤٧٥٣/٢] وبالإسناد إلى إبراهيم بن عمر الصنعاني عنهؑ قال: سألته عن قوله تعالى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ﴾ كيف أُنزل فيه القرآن، وإنّما أُنزل في طول عشرين سنة[٣]؟

فقال: «نزل القرآن جملةً واحدةً في شهر رمضان إلى البيت المعمور، ثمّ أُنزل من البيت

(١) التمهيد ١: ١٣٣ ومابعد.

(٢) العيّاشيّ ١: ٩٩ / ١٨٢ ـ ١٨٣؛ البحار ٩٣: ٣٨٣، باب ٥٠ / ١ و ٢.

(٣) حيث بدء النزول كان بعد فترة ثلاث سنوات من البعثة... راجع التمهيد ١: ١٣٥ ومابعد.

المعمور في طول عشرين سنة.

ثمّ قال: قال النبيّ ﷺ: نزلت صحف إبراهيم في أوّل ليلة من شهر رمضان، وأُنزلت التوراة لستٍّ من شهر رمضان. وأُنزل الإنجيل لثلاث عشر ليلة خلت من شهر رمضان. وأُنزل الزبور لثماني عشرة من رمضان، وأُنزل القرآن لأربع وعشرين من رمضان»(١).

قلت: هذا الحديث فيه كلام تعرّضنا له في التمهيد.

[٤٧٥٤/٢] وبالإسناد إلى ابن سنان عمّن ذكره قال: سألت أبا عبدالله عن القرآن والفرقان، أهما شيئان أو شيء واحد؟ فقال: «القرآن، جملة الكتاب، والفرقان المحكم الواجب العمل به»(٢).

[٤٧٥٥/٢] وروى ابن بابويه والكليني والشيخ بالإسناد إلى عليّ بن إبراهيم عن أبيه عن ابن المغيرة عن عمرو الشامي عن الإمام أبي عبدالله ﷺ قال: «إنّ عدّة الشهور عند الله اثنا عشر شهراً في كتاب الله، يوم خلق السماوات والأرض، فغُرَّة الشهور شهر الله ـ عزّ وجلّ ـ وهو شهر رمضان. وقلب شهر رمضان ليلة القدر، ونزل القرآن في أوّل ليلة من شهر رمضان، فَاسْتَقْبِلِ الشهر بالقرآن!»(٣)

[٤٧٥٦/٢] وروى عليّ بن إبراهيم القمّي عن الإمام الصادق ﷺ قال: سئل عن قوله تعالى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ﴾ كيف كان، وإنّما أُنزل القرآن في طول عشرين سنة أوّله وآخره؟ فقال: «أُنزل القرآن جملةً واحدة في شهر رمضان إلى البيت المعمور، ثمّ نزل من البيت المعمور إلى النبيّ ﷺ في طول عشرين سنة»(٤).

وهكذا رواه الصدوق بالإسناد إلى حفص بن غياث عنه ﷺ(٥).

[٤٧٥٧/٢] وروى ابن بابويه والكليني والشيخ بالإسناد إلى أبي بصير عن أبي عبدالله ﷺ قال: «نزلت التوراة في ستّ مضين من شهر رمضان ونزل الإنجيل في اثنتي عشرة مضت من شهر

(١) العيّاشيّ ١: ٩٩/ ١٨٤.
(٢) المصدر/ ١٨٥.
(٣) الفقيه ٢: ٩٩/ ١٨٤٣؛ الأمالي: ١١٨ ـ ١١٩/ ١٠٥ ـ ٤، المجلس ١٥؛ الكافي ٤: ٦٥ ـ ٦٦/ ١؛ التهذيب ٤: ١٩٢/ ٥٤٦ ـ ١؛ البحار ٩٤: ١١/ ١٣؛ البرهان ١: ٣٩٨/ ١؛ نورالثقلين ١: ١٦٦.
(٤) القمي ١: ٦٦.
(٥) الأمالي: ٥٦/ ٥، المجلس ١٥.

رمضان، ونزل الزبور في ثماني عشرة مضت من شهر رمضان، ونزل القرآن في ليلة القدر»[١].

[٤٧٥٨/٢] وأخرج الثعلبي[٢] بإسناده عن أبي ذرّ عن النبيّ ﷺ، أنّه قال: «أُنزلت صحف إبراهيم لثلاث مضين من شهر رمضان ـ وفي رواية الواحدي[٣] في أوّل ليلة منه ـ وأُنزلت توراة موسى لستٍّ مضين من رمضان، وأُنزل إنجيل عيسى لثلاث عشرة خلت من رمضان، وأُنزل زبور داوود لثماني عشرة ليلة خلت من رمضان، وأُنزل الفرقان على محمّد ﷺ لأربع وعشرين من شهر رمضان». قال أبو عليّ: وهذا بعينه ما رواه العيّاشيّ[٤] عن أبي عبدالله عليه السلام[٥].

[٤٧٥٩/٢] أخرج أحمد وابن جرير ومحمّد بن نصر وابن أبي حاتم والطبراني والبيهقي في شعب الإيمان والأصبهاني في الترغيب عن واثلة بن الأسقع أنّ رسول الله ﷺ قال: «أُنزلت صحف إبراهيم في أوّل ليلة من رمضان، وأُنزلت التوراة لِستّ مَضَين من رمضان، وأُنزل الإنجيل لثلاث عشرة خَلَت من رمضان، وأُنزل الزبور لثمان عشرة خلت من رمضان، وأنزل الله القرآن لأربع وعشرين خلت من رمضان»[٦].

[٤٧٦٠/٢] وأخرج أبو يعلى وابن مردويه عن جابر بن عبدالله قال: أنزل الله صحف إبراهيم أوّل ليلة من رمضان، وأنزل التوراة على موسى لستّ خلون من رمضان، وأنزل الزبور على داوود في إحدى عشرة خلت من رمضان، وأنزل الإنجيل على عيسى لثماني عشرة خلت من رمضان، وأنزل القرآن على محمّد لأربع وعشرين خلت من رمضان[٧].

[٤٧٦١/٢] وأخرج ابن جرير ومحمّد بن نصر في كتاب الصلاة وابن أبي حاتم والطبراني وابن

---

(١) الكافي ٤: ١٥٧ / ٥، كتاب الصيام، باب في ليلة القدر؛ التهذيب ٤: ١٩٣ ـ ١٩٤ / ٥٥٢ ـ ٧؛ الفقيه ٢: ١٥٩ / ٢٠٢٦، كتاب الصوم، باب ليلة القدر؛ البرهان ١: ٣٩٩ / ٥؛ نورالثقلين ١: ٣١١ / ١٠.

(٢) الثعلبي ٢: ٦٨.

(٣) الوسيط ١: ٢٨٠، عن واثلة: أنّ النبيّ ﷺ قال....؛

(٤) العيّاشيّ ١: ٩٩ / ١٨٥، (بخلاف).

(٥) مجمع البيان ٢: ١٤. راجع: البرهان ١: ٤٠٠ / ١٢.

(٦) الدرّ ١: ٤٥٦؛ مسند أحمد ٤: ١٠٧؛ الطبري ٢: ١٩٦ / ٢٣٠٧؛ ابن أبي حاتم ١: ٣١٠ / ١٦٤٩؛ الكبير ٢٢: ٧٥؛ الشعب ٢: ٤١٤ / ٢٢٤٨؛ البيهقي ٩: ١٨٨؛ الوسيط ١: ٢٨٠؛ الثعلبي ٢: ٦٨؛ مجمع الزوائد ١: ١٩٧؛ البغوي ١: ٢١٧، نقلاً عن أبي ذرّ؛ أبوالفتوح ٣: ٣٠، نقلاً عن أبي ذرّ.

(٧) أبويعلى ٤: ١٣٥ ـ ١٣٦ / ٢١٩٠؛ مجمع الزوائد ١: ١٩٧؛ الدرّ ١: ٤٥٦.

مردويه والبيهقي في الأسماء والصفات عن مِقْسَم قال: سأل عطيّة بن الأسود، ابنَ عبّاس فقال: إنّه قد وقع في قلبي الشكّ قول الله: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ﴾ وقوله: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾[1] وقوله: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ﴾[2] وقد أُنزل في شوّال، وذي القعدة، وذي الحجّة، والمحرّم، وشهر ربيع الأوّل، فقال ابن عبّاس: إنّه أُنزل في رمضان، وفي ليلة القدر، وفي ليلةٍ مباركةٍ جملةً واحدةً، ثمّ أُنزل بعد ذلك على مواقع النجم رَسَلاً في الشهور والأيّام[3].

[٤٧٦٢/٢] وأخرج الفريابي وابن جرير ومحمّد بن نصر والطبراني وابن مردويه والحاكم وصحّحه والبيهقي والضياء في المختارة عن ابن عبّاس قال: نزل القرآن جملةً ـ وفي لفظ: فُصل القرآن من الذكر ـ لأربعةٍ وعشرين من رمضان، فوضع في بيت العزّة في السماء الدنيا، فجعل جبريل يُنَزِّله على رسول الله ﷺ يرتّله ترتيلاً[4].

[٤٧٦٣/٢] وأخرج ابن الضريس والنسائي ومحمّد بن نصر وابن جرير والطبراني والحاكم وصحّحه وابن مردويه والبيهقي عن ابن عبّاس قال: أُنزل القرآن كلّه جملةً واحدةً في ليلة القدر في رمضان إلى السماء الدنيا، فكان الله إذا أراد أن يحدث في الأرض شيئاً أنزله منه حتّى جمعه[5].

[٤٧٦٤/٢] وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن جريج قال: بلغني أنّه كان ينزل فيه من القرآن حتّى انقطع الوحي وحتّى مات محمّد ﷺ، فكان ينزل من القرآن في ليلة القدر كلّ شيء ينزل من القرآن في تلك السنة، فينزل ذلك من السماء السابعة على جبريل في السماء الدنيا، فلا ينزل جبريل من ذلك على محمّد إلّا بما أمره ربّه[6].

---

(١) القدر ٩٧: ١. (٢) الدخان ٤٤: ٣.

(٣) الدرّ ١: ٤٥٦ ـ ٤٥٧؛ الطبري ٢: ١٩٨ / ٢٣١٥؛ الكبير ١١: ٣٠٩ ـ ٣١٠؛ ابن أبي حاتم ١: ٣١٠ ـ ٣١١ / ١٦٥٠؛ الأسماء والصفات (الجزء الثاني): ٣٦٤ ـ ٣٦٥؛ مجمع الزوائد ٦: ٣١٦؛ الثعلبي ٢: ٦٨؛ الوسيط ١: ٢٨١؛ أبو الفتوح ٣: ٣٠، باختصار.

(٤) الدرّ ١: ٤٥٧؛ الطبري ٢: ١٩٦ / ٢٣٠٥؛ الكبير ١٢: ٢٦؛ الحاكم ٢: ٢٢٣؛ الأسماء والصفات (الجزء الثاني): ٣٦٣؛ مجمع الزوائد ٧: ١٤٠ و ١٥٧؛ البغوي ١: ٢١٦ ـ ٢١٧؛ التبيان ٢: ١٢١ نقلاً عن ابن عبّاس وسعيد بن جبير والحسن.

(٥) الدرّ ١: ٤٥٧؛ النسائي ٥: ٦ / ٧٩٩٠، باب ٦؛ الطبري ٢: ١٩٧ / ٢٣١١؛ الكبير ١٢: ٣٥؛ الحاكم ٢: ٢٢٢، كتاب التفسير؛ الأسماء والصفات (الجزء الثاني): ٣٦٣.

(٦) الدرّ ١: ٤٥٧؛ ابن أبي حاتم ١: ٣١١ / ١٦٥٣؛ الطبري ٢: ١٩٧ ـ ١٩٨ / ٢٣١٤.

[٤٧٦٥/٢] وأخرج عبد بن حميد وابن الضريس عن داوود بن أبي هند قال: قلت لعامر الشعبي: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ﴾، فهل كان نزل عليه في سائر الشهور إلّا ما في رمضان؟ قال: بلى، ولكنّ جبريل كان يعارض محمّدا ما أُنزل في السنة في رمضان، فيحكم الله ما يشاء، ويثبت ما يشاء، وينسخ ما ينسخ، وينسيه ما يشاء[١].

[٤٧٦٦/٢] وأخرج ابن أبي حاتم عن الضحّاك: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ﴾ يقول: الّذي أُنزل صومه في القرآن[٢].

[٤٧٦٧/٢] وقال مقاتل في قوله تعالى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ﴾ أي أُنزل من اللّوح المحفوظ كلّ عام في ليلة القدر إلى السماء الدنيا ثمّ نزل إلى السَّفَرة من اللّوح المحفوظ في عشرين شهراً، ونزل به جبريل في عشرين سنة[٣].

قوله تعالى: ﴿هُدىً لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ﴾

حالان من القرآن؛ فناسب نزوله في هذا الشهر المبارك، حيث إنّه بذاته ذو بركة على الناس من جهتين: جهة هدايته العامّة في صياغته الموجّهة إلى العموم، وجهة هدايته الخاصّة لمن تدبّره وأمعن النظر فيه، إذ فيه من البيّنات اللائحات، يستشفّها أرباب العقول. وعلاوة على ذلك، فإنّ فيه من المعايير ما يفرّق به بين كلّ حقّ وباطل، ويتبيّن الطريق السويّ عن مسالك السوء، بوجه عامّ.

فهناك ـ في القرآن ـ هداية عامّة هي عنايته تعالى الشاملة لجميع الخلائق ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾. وهداية خاصّة هي عنايته تعالى بشأن أهل التقوى واليقين ﴿فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾[٤].

وإضافةً إلى ذلك، فإنّه النور اللامع والضياء الساطع، والبرهان القاطع للتمييز بين الحقّ والباطل والخيرات عن الشرور، على مدى الأيّام وكرّ الدهور. فيه منار الهدى ومصابيح الدجى وشفاءٌ لما في الصدور.

قال إمام المفسّرين الشيخ أبو علي الطبرسيّ: ﴿هُدىً لِلنَّاسِ﴾ أي هادياً للنّاس ودالّاً لهم على ما كُلّفوا من العلوم. ﴿وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ﴾ أي ودلالات من الهدى.

---

(١) الدرّ ١: ٤٥٨؛ الثعلبي ٢: ٦٨؛ أبوالفتوح ٣: ٣٠.
(٢) الدرّ ١: ٤٥٨؛ ابن أبي حاتم ١: ٣١١/ ١٦٥١.
(٣) القرطبي ٢: ٢٩٧.
(٤) الأعراف ٧: ١٥٦.

[٤٧٦٨/٢] وقيل: المراد بالهدى الأوّل، الهدى من الضلالة. وبالثاني، بيان الحلال والحرام. عن ابن عبّاس.

وقيل: أراد بالأوّل ما كَلَّف من العلم. وبالثاني، مايشتمل عليه من ذكر الأنبياء وشرائعهم وأخبارهم، لأنّها لاتُدْرَك إلّا عن طريق القرآن. عن الأصمّ والقاضي.

وقوله: ﴿وَالْفُرْقَانِ﴾ أي وممّا يفرِّق بين الحقّ والباطل.

[٤٧٦٩/٢] قال: وروي عن الإمام أبي عبدالله الصادقﷺ أنّه قال: «القرآن جملة الكتاب، والفرقان المحكم الواجب العمل به»(١).

[٤٧٧٠/٢] وروى الحسن بن محبوب عن أبي أيّوب عن أبي الورد عن الإمام أبي جعفر الباقرﷺ قال: خطب رسول اللهﷺ الناس في آخر جمعة من شعبان، فحمدالله وأثنى عليه، ثمّ قال: «أيّها الناس: إنّه قد أظلّكم شهرٌ فيه ليلة خير من ألف شهر، وهو شهر رمضان، فرض الله صيامه وجعل قيام ليلةٍ فيه بتطوّع صلاةٍ كمن تطوّع بصلاةٍ سبعين ليلة فيما سواه من الشهور. وجعل لمن تطوّع فيه بخصلةٍ من خصال الخير والبرّ كأجر من أدّى فريضة من فرائض الله فيما سواه. ومن أدّى فيه فريضةً من فرائض الله كان كمن أدّىٰ سبعين فريضة فيما سواه من الشهور. وهو شهر الصبر، وإنّ الصبر ثوابه الجنّة. وهو شهر المواساة، وهو شهرٌ يزيد الله فيه من رزق المؤمنين. ومن فطّر فيه مؤمناً صائماً كان له بذلك عندالله عتق رقبة، ومغفرة لذنوبه فيما مضىٰ.

قيل: يا رسول اللهﷺ ليس كلّنا نقدر على أن نُفطّر صائماً؟ قال: إنّ الله كريم يعطي هذا الثواب من لم يقدر منكم إلّا على مذقة من لبن يُفطِّر بها صائماً أو شربة من ماء عذب أو تُميرات لايقدر على أكثر من ذلك...».

وقال: «وهو شهرٌ أوّله رحمة، وأوسطه مغفرة، وآخره إجابة والعتق من النار».

وقال: «ولا غنى بكم فيه عن أربع خصال؛ خصلتين تُرضون الله بهما، وخصلتين لا غنى لكم عنهما. فأمّا اللّتان تُرضون الله بهما، فشهادة أن لا إلـهَ إلّا الله وأنّي رسول الله. وأمّا اللّتان لاغنى لكم عنهما، فتسألون الله فيه حوائجكم والجنّة، وتسألون الله فيه العافية، وتتعوّذون به من النار»(٢).

---

(١) الكافي ٢: ٦٣٠ / ١١، باب النوادر.

(٢) أمالي الصدوق: ٩٧ / ٧٤، المجلس ١١.

[٤٧٧١/٢] وقال: «نومُ الصائم فيه عبادة، وصمتُه تسبيح، ودعاؤه مستجاب، وعملُه مضاعف»[(١)].

الفرقان في القرآن

١ ـ قال تعالى بشأن التوراة: ﴿وَإِذْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَالْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾[(٢)].

٢ ـ وقال أيضاً: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ وَضِيَاءً وَذِكْراً لِلْمُتَّقِينَ﴾[(٣)]

٣ ـ وقال بشأن القرآن: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدىً لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ﴾[(٤)].

٤ ـ وقال: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيراً﴾[(٥)].

٥ ـ وقال: ﴿وَأَنْزَلَ التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ. مِنْ قَبْلُ هُدىً لِلنَّاسِ وَأَنْزَلَ الْفُرْقَانَ﴾[(٦)].

٦ ـ وقال: ﴿وَمَا أَنزَلْنَا عَلَى عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ﴾[(٧)].

٧ ـ وقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَتَّقُوا اللهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَاناً﴾[(٨)].

١ ـ أمّا الفرقان في الآية: (٥٣ ـ البقرة) فمن المحتمل القريب أن يُراد به البيّنات (الآيات المعجزات)، كما جاء في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَاءَكُمْ مُوسَى بِالْبَيِّنَاتِ﴾[(٩)]، وقال موسى خطاباً مع فرعون: ﴿قَدْ جِئْتُكُمْ بِبَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾[(١٠)].

وإنّما أطلق الفرقان على الآية البيّنة (المعجزة)، لأنّه الفارق الصارم بين الحقّ والضلال. فيكون كشاهد صدق لامجال للريب فيه.

ويحتمل أن يُراد به الدلائل على الأحكام الفارقة بين الحلال والحرام والطيّب من الخبيث.

---

(١) مجمع البيان ٢: ٢٧٦ـ٢٧٧؛ انظر: الدعوات، الراوندي: ٢٦ / ٤٥؛ البحار ٩٠: / ٣٦٠.

(٢) البقرة ٢: ٥٣.

(٣) الأنبياء ٢١: ٤٨.

(٤) البقرة ٢: ١٨٥.

(٥) الفرقان ٢٥: ١.

(٦) آل عمران ٣: ٤.

(٧) الأنفال ٨: ٤١.

(٨) الأنفال ٨: ٢٩.

(٩) البقرة ٢: ٩٢.

(١٠) الأعراف ٧: ١٠٥.

واحتمال ثالث أن يكون عطفاً على الكتاب عطفَ ترادفٍ وتفسيرٍ. كما في قول الشاعر ـ وهو عديّ بن زيد ـ:

فَقدّدتِ الأديم لِراهشـيه ... وألفى قولها كذباً ومـيناً

والمَيْنُ: الكذب بخداع

[٤٧٧٢/٢] قال عليّ عليه السلام في ذمّ الدنيا: «فهي الجامِحَةُ الحَرُونُ والمائِنَةُ الخَؤون»[1]. وفـلان متماين الوُدِّ إذا كان غير صادق الخُلّة. وكقول الأفْوة الأوْدِيّ:

وفينا للقرى نارٌ يرى عندها للضّيْفِ رُحْبٌ وسَعَةٌ

والرُّحب والسَّعة واحد، غير أنّ السَّعة أوضح.

ومثله في القرآن:: ﴿عَبَسَ وَبَسَرَ﴾[2]. ﴿لَا تَرَى فِيهَا عِوَجاً وَلَا أَمْتاً﴾[3]. ﴿فِجَاجاً سُبُلاً﴾[4]. ﴿وَغَرَابِيبُ سُودٌ﴾[5]. ﴿فَلَا يَخَافُ ظُلْماً وَلَا هَضْماً﴾[6].[7].

فإنّ العُبُوس هو تقطيب الوجه وتكشُّره. يقال: عَبَّسَ الوجهُ: كَلَحَ.

والبُسُور أيضاً تقطيب الوجه، لكن مع زيادة تغيير اللون من شدّة الغيظ. يقال: بَسَر أي كلح وجهُه وتغيّر.

وقوله تعالى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّي نَسْفاً. فَيَذَرُهَا قَاعاً صَفْصَفاً. لَا تَرَى فِيهَا عِوَجاً وَلَا أَمْتاً﴾ أي يَنْسِفُ الجبالَ ويَذرُّها هَباءً. فيدعُ الأرضَ قاعاً صَفْصَفاً: مستوية الأرجاء ملساء، لاعوج فيها أي لاتعرّج فيها، ولا أمتاً أي نشوزاً في أيّ جانب من جوانبها.

والفَجُّ ـ جمع فِجَاج ـ: الطريق الواسع الواضح بين جبلين. والسبيل ـ جمع سُبُل ـ الطريق أو ماوَضُحَ منها.

والغِرْبيب: الأسود الحالك. وأكثر ما يجيىء تأكيداً فيقال: أَسْوَدُ غِرْبيبٌ.

---

(١) نهج البلاغة ٢: ١٣٣، الخطبة ١٩١. الجامحة: المستعصية. والحرون ـ بالراء المهملة ـ الناقة المستعصية إذا وقفت عن السير مهما حاول راكبها.

(٢) المدّثّر ٧٤: ٢٢.

(٣) طه ٢٠: ١٠٧.

(٤) الأنبياء ٢١: ٣١.

(٥) فاطر ٣٥: ٢٧.

(٦) طه ٢٠: ١١٢.

(٧) اللسان ١٣: ٤٢٦.

والهَضْمُ: الظلمُ الفاحش. يقال: هَضَمَ فلاناً إذا ظلمه وأذلّه بانكسار شأنه.

* * *

٢ ـ وهكذا الفرقان في الآية: (٤٨ ـ الأنبياء) يحتمل إرادة الفاروق للحقّ عن الباطل. كما عن مجاهد وقتادة. أو البرهان الّذي أفحم به موسى فرعون وأذلّه، أو الآيات البيّنات الّتي أجراها الله على يد نبيّه موسى عليه السلام.

قوله: ﴿وَضِيَاءً﴾ صفة أخرى للتوراة الّتي أنزلها الله على موسى وهارون. كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدىً وَنُورٌ﴾(١).

قوله: ﴿وذكرى﴾ عظاتٌ مذكّراتٌ لمن تذكّر واتّقى(٢).

٣ ـ وكذلك قوله تعالى: ﴿هُدىً لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ﴾(٣) أي الدلائل والأحكام اللائحات، وفيها الفارق بين كلّ حقّ وباطل، واضح ساطع البرهان(٤).

٤ ـ ومثله قوله تعالى: ﴿نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ﴾(٥).

٥ ـ وقوله: ﴿نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنْزَلَ التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ. مِنْ قَبْلُ هُدىً لِلنَّاسِ وَأَنْزَلَ الْفُرْقَانَ﴾(٦). أراد به القرآن وفيه الدلائل على سُبُل السلام واضحة لائحة، قال أبو علي الطبرسيّ: إنّما كرّر ذلك، لما اختلفت دلالات صفاته وإن كانت لموصوف واحد، لأنّ في كلّ صفة فائدةً غير فائدة الأخرى. فإنّ الفرقان هو الّذي يفرّق بين الحقّ والباطل فيما يحتاج إليه العباد من أمور الدين وسائر الأحكام. والكتاب ما كان من شأنه أن يكتب ويفرض على العباد.

[٤٧٧٣/٢] كما في الحديث عن الصادق عليه السلام قال: «الفرقان هو كلّ آية محكمة في الكتاب، وهو الّذي جاء مصدّقاً لمن كان قبله من الأنبياء»(٧).

وقال أبو مسلم: المراد بالفرقان الأدلّة الفاصلة بين الحقّ والباطل.

---

(١) المائدة ٥: ٤٤.
(٢) مجمع البيان ٧: ٥١.
(٣) البقرة ٢: ١٨٥.
(٤) مجمع البيان ٢: ٢٧٦ ـ ٢٧٧.
(٥) الفرقان ٢٥: ١.
(٦) آل عمران ٣: ٤.
(٧) انظر: الصافي ١: ٣١٥.

وقيل: المراد الحجّة القاطعة لمحمّد ﷺ على من حاجّه في أمر عيسى عليه السلام. وقيل: المراد به النصر[1].

* * *

٦ـ أمّا يوم الفرقان (الأنفال: ٢٩). فيعني به يوم بدر، لأنّ الله تعالى فرّق فيه بين المسلمين والمشركين، بإعزاز هؤلاء وإذلال أولئك فلم تقم لهم قائمة بعد ذلك اليوم الرهيب، كان المسلمون وهم ثلاثمأة وبضعة عشر رجلاً، وعلى غير أهبة للحرب والنضال، وكان المشركون بين تسعمأة إلى ألف نسمة من صناديد قريش وزعمائهم، وعلى أهبة كاملة للقتال. فهزمهم المسلمون وشرّدوهم بإذن الله وقتلوا منهم زيادةً على سبعين نفراً وأسروا منهم مثل ذلك. فكان يوم فخارٍ للمسلمين وشنارٍ على المشركين مع الأبد. وذلك سبع عشرة ليلة خلت من شهر رمضان من سنة اثنتين من الهجرة على رأس ثمانية عشر شهراً.

وقيل: لتسع عشرة مضت من رمضان. قال الطبرسيّ: وقد رُوي ذلك عن أبي عبدالله عليه السلام[2].

قوله تعالى: ﴿فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ﴾

قال أبو عليّ الطبرسيّ: فيه وجهان:

أحدهما: فمن شهد منكم المصر وحضر ولم يغب في الشهر، فليصمه.

[٤٧٧٤/٢] قال: وهذا معنى ماروواه زرارة عن الإمام أبي جعفر الباقر عليه السلام لمّا سئل عن هذه الآية، قال: «ما أبينها لمن عقلها! ـ ثمّ قال ـ: من شهد شهر رمضان فليصمه، ومن سافر فيه فليفطر».

[٤٧٧٥/٢] قال: وقد روي أيضاً عن الإمام أميرالمؤمنين عليه السلام وابن عبّاس ومجاهد وجماعة من المفسّرين، قالوا: «من شهد الشهر بأن دخل عليه الشهر وهو حاضر، فعليه أن يصوم الشهر كلّه». أي يترجّح له البقاء من دون أن يعزم سفراً.

وهكذا ذكر الشيخ أبوجعفر الطوسيّ: أنّهم قالوا: من شهد الشهر، بأن دخل عليه الشهر، كُرِهَ له أن يسافر حتّى يمضي ثلاث وعشرون من الشهر. إلّا أن يكون واجباً كالحجّ، أو تطوّعاً كالزيارة.

---

(١) مجمع البيان ٢: ٢٣٥.
(٢) المصدر ٤: ٤٦٩.

فإن لم يفعل وخرج، كان عليه الإفطار ولم يجزه الصوم(١).

ومعنى «كُرِهَ له» الندب إلى البقاء لا الإلزام، ومن ثمّ روي عن الحسن قال: لم يجعل الله رمضان قيداً(٢).

الوجه الثاني: من شاهد منكم الشهر مقيماً مكلّفاً فليصم الشهر بعينه. أي متعيّناً عليه الصوم من غير تخيير بينه وبين الفداء. قالوا: وبذلك نُسخ التخيير بين الصوم والفداء، على ما زعمه البعض.

قال الطبرسيّ: وأوّل الوجهين أقوى(٣).

* * *

وقال أبوجعفر محمّدبن جرير الطبري: اختلف أهل التأويل في معنى شهود الشهر؛ فقال بعضهم: هو مقام المقيم في داره. قالوا: فمن دخل عليه شهر رمضان وهو مقيم في داره فعليه صوم الشهر كلّه، غاب بعدُ فسافر أم أقام ولم يبرح.

[٤٧٧٦/٢] روى محمّدبن حميد ومحمّدبن عيسى بالإسناد إلى الضحّاك عن ابن عبّاس قال: هو إهلاله بالدار. يريد: إذا أهلّ وهو مقيم.

[٤٧٧٧/٢] وعنه أيضاً قال: فإذا شهده وهو مقيم فعليه الصوم، أقام أو سافر. وإن شهده وهو في سفر، فإن شاء صام وإن شاء أفطر.

[٤٧٧٨/٢] وعن عُبيدة السلماني، في الرجل يدركه رمضان ثمّ يسافر؟ قال: إذا شهدت أوّله فصم آخره ـ أي إلى آخره ـ ألا ترى يقول: ﴿فَمَنْ شَهِدَ مِنكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ﴾! وحسب حمّاد أنّ عبيدة نَسَبه إلى عليّ عليه السلام(٤).

[٤٧٧٩/٢] وعن أسباط عن السُّدّي قال: أمّا من شهد منكم الشهر فليصمه. فمن دخل عليه رمضان وهو مقيم في أهله فليصمه، وإن خرج فيه فليصمه، فإنّه دخل عليه وهو في أهله.

وقال آخرون: معنى ذلك، فمن شهد منكم الشهر فليصم ما شهد منه. ثمّ ذكر من شهد الشهر فسافر وأفطر، كأبي ميسرة وعليّ عليه السلام والشعبي وسفيان والحكم وحمّاد والحسن وسعيد بن المسيّب،

---

(١) التبيان ٢: ١٢٣.

(٢) أخرجه عبدبن حميد عن الحسن. الدرّ ١: ٤٦٢.

(٣) مجمع البيان ٢: ٢٧٧.

(٤) وهكذا ذكر قتادة ناسباً ذلك إلى عليّ عليه السلام.

ممّن أوجبوا الإفطار في السفر إطلاقاً وتصريحاً بشأن من أدركه شهر رمضان قبل أن يسافر ثمّ عرض له السفر. وقد مرّ حديثهم.

وقال بعض الفقهاء: من شهد الشهر عاقلاً بالغاً بلغ التكليف، فعليه صومه، فإن عرضه جنون أو عائق عن الصيام، فعليه القضاء بعد الإفاقة. أمّا إذا جُنّ قبل الشهر فأطبق الشهر كلّه، فهذا لا قضاء عليه. قال بذلك أبو حنيفة وأصحابُه.

قال الطبري: هذا تأويل لا معنى له، لأنّ الجنون إن كان يُسقط فرض الصوم فسبيله سبيل من فقد عقله جميع الشهر، وقد أجمع الفقهاء على أنّ من فقد عقله جميع الشهر بإغماء أو برسام[١] ثمّ أفاق بعدُ، أنّ عليه القضاء. لم يخالف في ذلك أحد. وهذا حجّة على بطلان هذا التأويل.

قال: وهكذا من زعم أنّ معناه: فمن شهد أوّله مقيماً حاضراً فعليه صوم جميعه، فتأويله أظهر بطلاناً وأفسد، لتظاهر الأخبار عن رسول الله ﷺ أنّه خرج عام الفتح من المدينة في شهر رمضان بعد ما صام بعضه، وأفطر وأمر أصحابه بالإفطار. ثمّ أخذ في سرد أحاديث بهذا الشأن.

قال: فالصحيح هو تأويل من قال: فمن شهد منكم الشهر فليصمه جميع ما شهد منه مقيماً. ومن كان مريضاً أو على سفر فعدّة من أيّام أُخر.

* * *

وقال أبو عبدالله القرطبي: فرض الله صيام شهر رمضان أي مدّة هلاله، وبه سمّي الشهر، كما جاء في الحديث: «فإن غُمّي عليكم الشهر» أي الهلال، وسيأتي. وقال الشاعر:

أَخَوانِ مِن نَجْدٍ عَلىٰ ثِقَةٍ　　والشهرُ مثلُ قُلامة الظُّفر

حتّى تكامل في استدارته　　في أربع زادت على عَشْر

وفُرض علينا عند غُمّة الهلال إكمال عدّة شعبان ثلاثين يوماً، وإكمال عدّة رمضان ثلاثين يوماً، حتّى ندخل في العبادة بيقين ونخرج عنها بيقين.

[٤٧٨٠/٢] وروى الأئمّة الأثبات عن النبيّ ﷺ قال: «صوموا لرؤيته وأفطروا لرؤيته، فإن غُمّ عليكم فأكملوا العدد»[٢].

---

(١) الطبري ٢: ١٩٨. (وط: بولاق ١: ٨٥ـ٨٧).

(٢) البيهقي ٤: ٢٤٧.

[٤٧٨١/٢] وفي رواية: «فإن غُمّي عليكم الشهر فعدّوا ثلاثين»(١).

وقد ذهب مُطَرِّف بن عبدالله بن الشِّخّير(٢) ـ وهو من كبار التابعين ـ وابن قتيبة ـ من اللغويّين ـ فقالا: يُعَوَّل على الحساب(٣) عند الغيم، بتقدير المنازل واعتبار حسابها في صوم رمضان، حتّى أنّه لو كان صحواً لَرُؤي!

[٤٧٨٢/٢] لقوله ﷺ: «فإن أُغمي عليكم فاقدروا له»(٤) أي استدلّوا عليه بمنازله، وقدّروا إتمام الشهر بحسابه(٥).

وقال الجمهور: معنى «فاقدروا له» فأكملوا المقدار، يُفسّره حديث أبي هريرة «فأكملوا العدّة»(٦).

وذكر الداوودي أنّه قيل في معنى قوله: «فاقدروا له» أي قدّروا المنازل.

قال القرطبي: وهذا لا نعلم أحداً قال به إلّا بعض أصحاب الشافعيّ أنّه يُعْتَبر في ذلك بقول المنجّمين! والإجماع حجّة عليهم.

[٤٧٨٣/٢] وقد روى ابن نافع عن مالك ـ في «الإمام، لا يصوم لرؤية الهلال ولا يُفطر لرؤيته، وإنّما يصوم ويُفطر على الحساب» ـ: إنّه لا يُقتدى به ولا يُتّبع.

قال ابن العربيّ: وقد زلّ بعض أصحابنا فحكى عن الشافعيّ أنّه قال: يُعَوَّل على الحساب، وهي عثرة لا لعاً لها(٧).

* * *

---

(١) مسلم ٣: ١٢٢؛ سنن البيهقي ٤: ٢٤٧.

(٢) كان من عُبّاد أهل البصرة وزهّادهم وصاحب علم وجاهٍ. ولد في أيّام حياة النبيّ ﷺ ومات سنة ٨٧ في طاعون الجارف.

(٣) أي يُعوَّل على حساب منازل القمر وسيره عند المنجّمين لدى المحاق وخروجه عن تحت الشعاع.

(٤) مسلم ٣: ١٢٢.

(٥) أي حسبما قدّره المنجّمون.

(٦) جاء في صحيح مسلم (٣: ١٢٤): فأكملوا العَدَدَ. وفي رواية: فصوموا ثلاثين يوماً.

(٧) القرطبي ٢: ٢٩٣ ـ ٢٩٤. قوله: لا لعاً لها، لعاً بالتنوين كلمة يُدعىٰ بها للعاثر ومعناها: لاأنعشك الله عنها. أي عثرة لاموضع للعذر فيها والتخلّص عنها.

وقال ابن العربي: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ﴾، يعني: هلال رمضان. وإنّما سمّي الشهر شهراً لشهرته. ففرض الله علينا الصوم مدّة الهلال.

[٤٧٨٤/٢] وهذا قول النبيّ ﷺ: «صوموا لرؤيته وأفطروا لرؤيته، فإن غُمّ عليكم فأكملوا عدّة شعبان ثلاثين»[١]. ففرض علينا عند غمّة الهلال إكمال عدّة شعبان ثلاثين يوماً، وإكمال عدّة رمضان ثلاثين يوماً عند غمّة هلال شوّال، حتّى يدخل في العبادة بيقين ويخرج عنها بيقين.

[٤٧٨٥/٢] وكذلك ثبت عن النبيّ ﷺ مصرّحاً به أنّه قال: «لاتصوموا حتّى تروا الهلال، ولا تفطروا حتّى تروه»[٢].

[٤٧٨٦/٢] وقد روى الترمذي عن أبي هريرة عن النبيّ ﷺ أنّه قال: «احصوا هلال شعبان لرمضان»[٣].

قال في قوله تعالى: ﴿فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ﴾: هذا محمول على العادة بمشاهدة الشهر، وهي رؤية الهلال. وكذلك روي عن النبيّ ﷺ أنّ الصيام وكذا الإفطار للرؤية، كما مرّ.

وقد زلّ بعض المتقدّمين فقال: يعوّل على الحساب بتقدير المنازل، حتّى يدلّ مايجتمع حسابُه، على أنّه لو كان صحواً لَرُئيَ، استناداً إلى قوله ﷺ: «فإن غُمّ عليكم فاقدروا له».

قال: معناه عند المحقّقين: فأكملوا المقدار. ولذلك قال ﷺ: «فإن غُمّ عليكم فأكملوا عدّة شعبان ثلاثين يوماً».

[٤٧٨٧/٢] وفي رواية: «فإن غُمّ عليكم فأكملوا صوم ثلاثين ثمّ أفطروا» رواه البخاري ومسلم[٤].

وقد زلّ أيضاً بعض أصحابنا فحكى عن الشافعي أنّه قال: يعوّل على الحساب. وهي عثرة لا لعاً لها[٥].

وقفة عند قوله تعالى: ﴿فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ﴾

قال الراغب: الشُّهُود والشَّهَادة، الحُضُور مع المشاهدة، إمّا بالبَصَر أو بالبَصِيرة. وقد يقال

(١) انظر: البخاري ٢: ٢٢٩.

(٢) مسند أحمد ٢: ٦٣؛ البخاري ٢: ٢٢٩.

(٣) الترمذي ٢: ٩٨؛ البيهقي ٤: ٢٠٦.

(٤) البخاري ٢: ٢٢٩؛ سنن النسائي ٤: ١٣٣.

(٥) أحكام القرآن لابن العربي ١: ٨٢.

للحضور مفرداً، قال تعالى: ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ﴾[١].

قال: لكن «الشهود» بالحضور المجرَّد أولى، و«الشهادة» مع المشاهدة أولى.

ويقال للمَحْضَر: مَشْهَد، وجمع مشهد مشاهد. ومنه مشاهد الحجّ وهي مواطنه الشريفة الّتي يحضرها الملائكة والأبرار من الناس.

قال تعالى: ﴿لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ﴾[٢]. ﴿وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾[٣]. ﴿مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ﴾[٤] أي ما حضرنا. ﴿وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ﴾[٥] أي لايحضرونه بنفوسهم، ولابِهَمِّهِم وإرادتهم.

وقوله تعالى: ﴿أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ﴾[٦] يعني مشاهدة البصر.

وقوله تعالى: ﴿وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ﴾[٧] أي تعلمون. وقوله: ﴿مَا أَشْهَدْتُهُمْ خَلْقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾[٨] أي ما جعلتُهم ممّن اطّلعوا ببصيرتهم على خلقها[٩].

* * *

وقال ابن منظور: شهده شهوداً أي حضره، فهو شاهد. وقوم شهود أي حضور. وهو في الأصل مصدر.

والشاهد والشهيد: الحاضر، والجمع شهداء وشهّد وأشهاد وشهود. وأنشد ثعلب:

كأنّي، وإن كانت شهوداً عشيرتي، إذا غِبْتَ عنّي يا عُثَيمُ، غريب

---

(١) الرعد ١٣: ٩. أي العالم بالمغيّب عنكم والحاضر لديكم جميعاً. قال الراغب: أي العالم بما يغيب عن حواسّ الناس وبصائرهم وما يشهدونه بهما.

(٢) الحجّ ٢٢: ٢٨. قال السيّد شبّر: أي ليحضروا منافع لهم دينيّة ودنيويّة.

(٣) النور ٢٤: ٢. أي وليحضروا ويشاهدوا عذابهما. (٤) النمل ٢٧: ٤٩. أي ما حضرنا مقتلهم، فلانعرف قاتليهم.

(٥) الفرقان ٢٥: ٧٢. قال السيّد شبّر: لايحضرون محاضر الباطل. أي لايحضرون مجالس السوء والفسوق.

(٦) الزخرف ٤٣: ١٩. قال السيّد شبّر: أي أَحَضَرُوا؟ (٧) البقرة ٢: ٨٤.

(٨) الكهف ١٨: ٥١. وبقيّة الآية: ﴿وَلا خَلْقَ أنفسِهم وَما كُنتُ مُتَّخِذَ المُضِلّينَ عَضُداً﴾ أي أنا بوحدي خلقت الكون ولم يكن معي حين أوجدت وأبدعت شريك أو نظير ولا شاهد ولا ناظر مشير. وكذلك ما أشهدتُ بعضهم خلق بعض. وما كنتُ متّخذاً من المضلّين عَضُداً: عوناً أو مستشاراً في أمر الخليقة. كيف وهو سبحانه غنيّ عن العالمين وهو المستعان.

(٩) المفردات، مادّة شهد: ٢٦٧ ـ ٢٦٨.

أي إذا غِبْتَ عنّي فإنّي لا أكلّم عشيرتي ولا آنَسُ بهم، حتّى كأنّي غريب في الديار!

وقوله تعالى: ﴿يَوْمٌ مَشْهُودٌ﴾[1] أي محضور يحضره أهل السماء والأرض. ومثله: ﴿إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُوداً﴾[2] يعني صلاة الفجر يحضرها ملائكة اللّيل وملائكة النّهار.

وقوله تعالى: ﴿أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾[3] أي أَحْضَرَ سمعَه وقلبُهُ شاهدٌ لذلك غير غـائبٍ عنه.

وقوله تعالى: ﴿فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ﴾؛ معناه: مَنْ شَهِد منكم المِصْر في الشهر، لايكون إلّا ذلك، لأنّ الشهر يشهده كلّ حيّ فيه. قال الفرّاء: نَصَب الشهر بنزع الصفة ولم ينصبه بوقوع الفعل عليه؛ المعنى: فمن شهد منكم في الشهر أي كان حاضراً غير غائب في سفره. وشاهَدَ الأمرَ والمصرَ كشهده[4].

* * *

إذن فمعنى ﴿فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ﴾: من حضر أي كان حاضراً غير مسافر في هـذا الشـهر. يقال: فلان شهد بدراً وشهد أُحداً أو شهد المشاهد كلّها مع رسول الله ﷺ أي حضرها.

والشهر على هذا ظرف (مفعول فيه) لفعل شهد أي حضر في الشهر ولم يكن مسافراً.

وهذا أنسب لقوله تعالى بعدُ: ﴿وَمَنْ كَانَ مَرِيضاً أَوْ عَلَى سَفَرٍ﴾ أي على متن سفر.

ومن ذلك يُفهم: أنّ من حضر بعضه يصوم أيّام حضوره. كما فهمه ابن جرير الطبري[5].

أمّا إذا أخذنا شهد بمعنى علم ـ شهوداً بالبصيرة واليقين، لا بالبصر والعيان صـرفاً ـ فـيكون انتصاب الشهر على المفعول به بتقدير مضاف أي علم بحلول الشهر، سواءٌ كـان بـرؤية الهـلال، فيكون الشهود بالإبصار سبباً للشهود بالعلم واليقين أم كان بما أُوتي من علم الحساب على مايراه المنجّمون[6].

---

(١) هود ١١: ١٠٣. تمام الآية: ﴿ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَجْمُوعٌ لَهُ النَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَشْهُودٌ﴾.

(٢) الإسراء ١٧: ٧٨. (٣) سورة ق ٥٠: ٢١.

(٤) لسان العرب ٣: ٢٣٩ ـ ٢٤١.

(٥) راجع آخر ما نقلنا من كلامه.

(٦) وقد سبق عن بعض السلف.

وهذا المعنى الثاني أنسب لما ورد من تفسير الشهر بالهلال، كما حكي عن الزجّاج[١]، وأنشد في الأساس[٢] قول ذي الرمّة:

فأصبح أجلى الطرف ما يستزيده   يَرَى الشَّهْرَ قبل الناس وهو نحيل

أي يرى هلالَ الشَّهْرِ.

قيل: سمّي الشهر شهراً باسم الهلال إذا أهلّ أي شهر وظهر، والعرب تقول: رأيت الشهر: أي رأيت هلاله، كما في قول ذي الرمّة[٣].

وقال ابن الأثير: الشهر الهلال، سمّي به لشهرته وظهوره.

[٤٧٨٨/٢] وفي الحديث: «صوموا الشَّهْرَ وسِرَّه»[٤] أراد صوموا أوّل الشهر وآخره. وقيل: سِرُّه وَسَطُه.

[٤٧٨٩/٢] ومنه الحديث: «الشهر تسعٌ وعشرون»[٥]. وفي رواية «إنّما الشهر». أي إنّ فائدة ارتقابِ الهلال ليلة تسع وعشرين ليُعرف نقصُ الشهر قبله. وإن أُريد به الشهرُ نفسه فتكون اللامُ فيه للعهد[٦].

* * *

وكلّ ما ورد من تعليق الصوم والإفطار على رؤية الهلال، قد يكون تأييداً لهذا المعنى إن أُريد به تفسير الآية، لامجرّد بيان ما يترتّب عليها من أحكام، وعليه فتكون الرؤية رمزاً للعلم بالإهلال من أيّ طريق كان لا مجرّد الإبصار بالعين.

ملحوظة

قد يزعم البعض أنّ تعليق وجوب الصوم على رؤية الهلال، يُفضي إلى اختصاص وجوب الصوم بمن شاهد الهلال بشخصه دون غيره ممّن لم يشاهد الهلال.

---

(١) قال الزجاج: سمّي الشهر شهراً لشهرته وبيانه. اللسان ٤: ٤٣٢.

(٢) أساس البلاغة للزمخشري ١: ٥١١. يُقال: وطلع الشهرُ أي الهلالُ.

(٣) اللسان ٤: ٤٣٢.

(٤) أبو داوود ١: ٥٢٣ / ٢٣٢٩، عن النبيّ ﷺ.

(٥) الأمّ ٢: ١٠٣.

(٦) النهاية لابن الأثير ٢: ٥١٥. «مادّة شهر».

قال ابن عاشور: وليس «شهد» بمعنى «رأى»؛ لأنّه لايقال: شهد وإنّما يقال: شاهد. ولا الشهر هنا بمعنى هلاله، لأنّ الهلال لايصحّ أن يتعدّى إليه فعل «شهد» بمعنى حضر!

قال: ومن يفهم الآية على ذلك فقد أخطأ خطأً بيّناً، وهو يُفضي إلى أنّ كلّ فرد من الأمّة معلّق وجوب صومه على مشاهدته هلال رمضان، فمن لم ير الهلال لايجب عليه الصوم، وهذا باطل[١].

قلت: تعليق وجوب الصوم على الرؤية، لايعني الرؤية الشخصيّة، وإنّما المراد حصول الرؤية وتحقّقها خارجاً، بمعنى ثبوتها واقعاً[٢]، فعندها يجب الصوم على العموم. وهكذا في كلّ حكم من الأحكام الشرعيّة حيث كان مورد ابتلاء العموم وكانت صبغته صبغة جُماعيّة، وإن كان التكليف المترتّب موجّهاً إلى آحاد الأفراد.

فهناك فرق بين حكم الشارع: إذا رأيتم القذر لطّخ ثوبكم فاغسلوه. أو حكمه: إذا رأيتم الفجر طالعاً فصلّوا الغداة. فإنّ الأوّل يخصّ أولئك الّذين تلطّخ ثوبهم بالنجس ولايتعدّاهم. أمّا الثاني فيعمّ الجميع، سواء من رأى ومن لم ير، ويكفي بلوغه الرؤيةُ.

* * *

على أنّ هناك مسألة أصوليّة فيما إذا أخذ «العلم وقبيلُه» موضوعاً أو شرطاً لثبوت حكم شرعيّ، فإنّ العلم حينذاك قد لُحِظَ طريقاً إلى ثبوت الموضوع وليس بنفسه موضوعاً.

فقول الشارع: ﴿حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ﴾، كان المناط: طلوع الفجر ذاته، أمّا التبيّن فقد أُخِذ طريقاً لإثباته، ولا موضوعيّة له.

وهذا من إفادات سيّدنا الأستاذ الإمام الخوئي ـ طاب ثراه ـ وتفصيل الكلام موكول إلى مجاله في علم الأصول. وسنذكر كلامه بشأن مسألة الرؤية هنا.

* * *

[٢/ ٤٧٩٠] أخرج النسائي بالإسناد إلى عكرمة عن ابن عبّاس قال: «جاء أعرابيّ إلى النبيّ ﷺ فقال: إنّي أبصرتُ الهلال الليلة. قال: أتشهد أن لا إله إلّا الله وأنّ محمّداً رسول الله؟ قال: نعم. قال: يا بلال أذّن في الناس فليصوموا غداً»[٣].

---

(١) التحرير والتنوير ٢: ١٧٢.

(٢) وتكفي إقامة حجّة شرعيّة على ثبوتها من بيّنة أو شهرة قاطعة، ونحو ذلك.

(٣) النسائي ٢: ٦٨؛ سنن النسائي ٤: ١٣٢، باب قبول شهادة الرجل الواحد على هلال شهر رمضان.

[٤٧٩١/٢] وأخرج الحاكم ـ وصحّحه ـ عن عبدالله بن عمر قال: تراءى الناسُ الهلالَ، فأخبرتُ رسول الله ﷺ أنّي رأيتُه، فصام وأمر الناس بصيامه(١).

[٤٧٩٢/٢] وهكذا أخرج الدارمي بالإسناد إلى نافع عن عبدالله بن عمر قال: تراءى الناس الهلال، فأخبرتُ رسول الله ﷺ أنّي رأيته، فصام وأمر الناس بالصيام(٢).

[٤٧٩٣/٢] وأخرج عن عكرمة عن ابن عبّاس قال: «جاء أعرابيّ إلى النبيّ ﷺ وقال: إنّي رأيت الهلال، فقال: أتشهد أن لا إلٰهَ إلّا الله وأنّي رسول الله؟ قال: نعم. قال: يا بلال، نادِ في الناس فليصوموا غداً»(٣).

وهكذا رواه الترمذي وقال: والعمل على هذا الحديث عند أكثر أهل العلم، قالوا: تُقبل شهادة رجل واحد في الصيام، وبه يقول ابن المبارك والشافعيّ وأحمد وأهل الكوفة(٤).

[٤٧٩٤/٢] وأخرج أبو داوود عن سِماك بن حرب عن عكرمة قال: إنّهم شَكُّوا في هلال رمضان مرّةً، فأرادوا أن لايقوموا ولايصوموا، فجاء أعرابيّ من الحَرَّةِ، فشهد أنّه رأى الهلال. فأتي به النبيّ ﷺ فقال: «أتشهد أن لا إلٰهَ إلّا الله وأنّي رسول الله؟ قال: نعم، وشهد أنّه رأى الهلال، فأمر بلالاً فنادى في الناس أن يقوموا ويصوموا».

وهكذا أخرج حديث ابن عمر الآنف(٥).

[٤٧٩٥/٢] وأخرج البيهقي عن قتادة عن أنس أنّ عمومةً له من الأنصار شهدوا عند النبيّ ﷺ على رؤية الهلال، فأمر الناس أن يخرجوا لعيدهم من الغد(٦).

[٤٧٩٦/٢] وأخرج الدارقطني: أنّ رجلاً شهد عند عليّ بن أبي طالب ﷺ على رؤية هلال رمضان، فصام، وأمر الناس أن يصوموا. وقال: «أصوم يوماً من شعبان أحبّ إليّ من أن أفطر يوماً من رمضان»(٧).

* * *

(١) الحاكم ١: ٤٢٣.
(٢) الدارمي ٢: ٤.
(٣) المصدر: ٥.
(٤) الترمذي ٣: ٧٥ / ٦٩١، ذيل الباب ٧.
(٥) أبو داوود ٢: ٣٠٢.
(٦) البيهقي ٤: ٢٤٩ ـ ٢٥٠، باب الشهادة على رؤية الهلال.
(٧) الدار قطني ٢: ١٤٩، وفيه: أحسبه قال: وأمر الناس أن يصوموا؛ القرطبي ٢: ٢٩٤.

[٤٧٩٧/٢] وروى ابن بابويه الصدوق بالإسناد إلى محمّد بن قيس عن الإمام أبي جعفر الباقر عليه السلام قال: قال أمير المؤمنين عليه السلام: «إذا رأيتم الهلال فافطروا، أو شهد عليه عدل من المسلمين»(١)

وهكذا رواه الشيخ في التهذيب والاستبصار(٢). إلّا أنّه في الأخير: «أو تشهد عليه بيّنة عدول».

ورواه الحرّ العاملي: «أو شهد عليه بيّنة عدل من المسلمين» وعقّبه بقوله: العدل يطلق على الواحد والكثير، فيحمل على الاثنين فصاعداً. بناءً على سقوط لفظ «بيّنة». ومع وجوده أو وجود «عدول» كما في بعض النسخ، لاشبهة فيه(٣).

[٤٧٩٨/٢] وروى أبوجعفر الكليني بالإسناد إلى حمّاد بن عثمان عن الحلبي عن الإمام أبي عبدالله عليه السلام أنّ عليّاً عليه السلام كان يقول: «لا أجيز في الهلال إلّا شهادة رجلين عدلين»(٤).

[٤٧٩٩/٢] وروى الشيخ بإسناده إلى أبي أيّوب إبراهيم بن عثمان الخزّاز عن الإمام أبي عبدالله عليه السلام قال: قلت له: كم يُجزى في رؤية الهلال؟ فقال: «إنّ شهر رمضان فريضة من فرائض الله، فلا تُؤدّوا بالتظنّي، وليس رؤية الهلال أن يقوم عدّة فيقول واحد: قد رأيته، ويقول الآخرون: لم نره! إذا رآه واحد رآه مائة، وإذا رآه مائة رآه ألف! ولايُجزي في رؤية الهلال إذا لم يكن في السماء علّة أقلّ من شهادة خمسين. وإذا كانت في السماء علّة قُبلت شهادة رجلين يدخلان ويخرجان من مصر»(٥).

[٤٨٠٠/٢] وهكذا روى بالإسناد إلى يونس بن عبدالرحمان عن حبيب الخزاعي قال: قال أبو عبدالله عليه السلام: «لاتجوز الشهادة في رؤية الهلال دون خمسين رجلاً عدد القسامة، وإنّما تجوز شهادة رجلين إذا كانا من خارج المصر وكان بالمصر علّة فأخبرا أنّهما رأياه»(٦).

[٤٨٠١/٢] وبالإسناد إلى عبدالله بن بُكَير بن أعين عن الإمام أبي عبدالله عليه السلام قال: «صم للرؤية وأفطر للرؤية؛ وليس رؤية الهلال أن يجيء الرجل والرجلان فيقولان: رأينا؛ إنّما الرؤية أن يقول القائل: رأيتُ، فيقول القوم: صدق!»(٧)

---

(١) الفقيه ٢: ٧٧/ ٤.
(٢) التهذيب ٤: ١٥٨/ ١٢؛ الاستبصار ٢: ٦٤/ ٢٠٧.
(٣) الوسائل ١٠: ٢٨٨/ ٦.
(٤) الكافي ٤: ٧٦/ ٢؛ الوسائل ١٠: ٢٨٦، باب ١١.
(٥) التهذيب ٤: ١٦٠/ ٤٥١؛ الوسائل ١٠: ٢٨٩/ ١٠.
(٦) التهذيب ٤: ١٥٩/ ٤٤٨؛ الاستبصار ٢: ٧٤/ ٢٢٧؛ الوسائل ١٠: ٢٩٠ـ ٢٩١/ ١٣.
(٧) التهذيب ٤: ١٦٤/ ٤٦٤.

[٤٨٠٢/٢] وبالإسناد إلى أبي بصير عن أبي عبدالله عليه السلام أنّه سئل عن اليوم الّذي يُقضىٰ من شهر رمضان؟ فقال: «لاتقضه إلّا أن يثبت شاهدان عدلان من جميع أهل الصلاة متى كان رأس الشهر...»[١].

[٤٨٠٣/٢] وبالإسناد إلى منصور بن حازم عنه عليه السلام قال: «صم لرؤية الهلال وأفطر لرؤيته، فإن شهد عندك شاهدان مرضيّان بأنّهما رأياه فاقضه»[٢].

[٤٨٠٤/٢] وبالإسناد إلى عبدالرحمان قال: سألت أبا عبدالله عليه السلام عن هلال رمضان يغمّ علينا في تسع وعشرين من شعبان؟ فقال: «لاتصم، إلّا أن تراه. فإن شهد أهل بلد آخر فاقضه»[٣].

* * *

قال سيّدنا الأستاذ الإمام الخوئي ـ طاب ثراه ـ: المستفاد من الآية المباركة ﴿فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ﴾ والروايات الكثيرة الناطقة بوجوب الصيام في شهر رمضان، أنّ هذا الشهر بوجوده الواقعي موضوع لوجوب الصوم، فلابدّ من إحرازه بعلم أو علميّ[٤] في ترتّب الأثر، كما هو الشأن في سائر الموضوعات الخارجيّة المعلّق عليها أحكام شرعيّة. وقد دلّت الروايات الكثيرة أيضاً أنّ الشهر الجديد إنّما يتحقّق بخروج الهلال عن تحت الشعاع، بمثابةٍ يكون قابلاً للرؤية. وعليه فإن رآه المكلّف بنفسه فلا إشكال.

[٤٨٠٥/٢] وفي صحيحة عليّ بن جعفر أنّه سأل أخاه موسى بن جعفر عليه السلام عن الرجل يرى الهلال في شهر رمضان وحده، لايُبصره غيره، أَلَهُ أن يصوم؟ قال: «إذا لم يشكّ فيه فليصم، وإلّا فليصم مع الناس إذا صاموا»[٥].

ونحوه ما لو رآه غيره على نحوٍ ثبتت الرؤية بالتواتر، إذ يدلّ عليه حينئذٍ كلّ مادلّ على تعليق الإفطار والصيام بالرؤية، لوضوح عدم إرادة رؤية الشخص بنفسه، إذ قد يكون أعمى أو يفوت عنه وقت الرؤية ونحو ذلك من الموانع. ويلحق به الشياع المفيد للعلم، كما دلّت عليه النصوص المتظافرة.

---

(١) التهذيب ٤: ١٥٧/ ٤٣٨؛ الوسائل ١٠: ٢٨٧/ ٥. (٢) التهذيب ٤: ١٥٧/ ٤٣٦؛ الاستبصار ٢: ٦٣/ ٧.

(٣) الاستبصار ٢: ٦٤/ ٢٠٦ـ٧؛ التهذيب ٤: ١٥٧/ ١١.

(٤) المقصود من العلميّ: قيام حجّة شرعيّة على الثبوت، فإنّها بمنزلة العلم في حجّيته.

(٥) قرب الإسناد: ١٠٣؛ الوسائل ١٠: ٢٦١/ ٢.

[٤٨٠٦/٢] منها موثّقة ابن بكير عن أبي عبدالله عليه السلام قال: «صم للرؤية وأفطر للرؤية، وليس رؤية الهلال أن يجيء الرجل والرجلان فيقولان: رأينا، إنّما الرؤية أن يقول القائل: رأيتُ، فيقول القوم: صدق»[١].

فإنّ تصديق القوم كناية عن شياع الرؤية بينهم من غير نكير، فيكون ذلك موجباً لليقين!

قال: أمّا إذا لم يره بنفسه ولم يتحقّق له العلم الوجداني بثبوت الهلال، فلا محالة ينتقل الدَّوْر إلى الطريق العلميّ الّذي هو حجّة شرعيّة.

وهل يثبت الهلال بإخبار عدل واحد؟

قال ـ طاب ثراه ـ: نحن وإن كنّا نعتبر خبر العدل، بل خبر مطلق الثقة، حجّةً في الموضوعات كما في الأحكام، استناداً إلى بناء العقلاء وسيرتهم على اعتباره، سواء في الأحكام أم في الموضوعات، ماعدا موارد خاصّة خرجت بالدليل، كما في باب القضاء والحدود وسائر الجنايات.

إلّا أنّ هنا في مسألة الهلال، استفاضت الروايات الناطقة بعدم ثبوت الهلال ـ كالطلاق ـ إلّا بشهادة عدلين[٢]، وقد مرّت عليك وتجدها مجموعة في الوسائل[٣].

* * *

وذهب الشيخ الفقيه الأجلّ أبو يعلى حمزة بن عبدالعزيز الملقّب بسلّار[٤]، إلى ثبوت الهلال بشهادة العدل الواحد. قال: ويُعرف دخول شهر رمضان برؤية الأهلّة، إذا تظاهرت، أو شهد بها في أوّله واحد عدل. وفي آخره اثنان عدلان. وإن تعذّرت رؤية الأهلّة، فالعدد[٥].

---

(١) الوسائل ١٠: ٢٩١ / ١٤، باب ١١.

(٢) مستند العروة الوثقى (محاضرات السيد الأستاذ ـ) بقلم الفاضل البروجردي ـ كتاب الصوم ـ ٢: ٦٣ ـ ٦٥.

(٣) الوسائل ١٠: ٢٨٦ ـ ٢٨٩، باب ١١.

(٤) كان متكلّما أصوليّاً فقيهاً أديباً نحويّاً ذا شهرة واسعة بين العلماء، يقفون عند أقواله وينقلونها في كتبهم. قال السيّد الأمين: وحسبك أن يكون من أجلّة تلامذة المفيد والمرتضى. وقال العلّامة في الخلاصة: شيخنا المتقدّم في الفقه والأدب. كان ثقة وجهاً. توفّي: ٤٦٣. (أعيان الشيعة ٧: ١٧٠).

(٥) المراسم العلويّة: ٩٤.

وذكر العلّامة الحلّي ـ سنداً لهذا القول ـ أموراً:

[٤٨٠٧/٢] منها: ما رواه ابن بابويه الصدوق، وأبو جعفر الطوسي بالإسناد إلى محمّد بن قيس عن الإمام أبي جعفر الباقر عليه السلام قال: قال أمير المؤمنين عليه السلام: «إذا رأيتم الهلال فأفطروا، أو شهد عليه عدل من المسلمين»[١].

ولأنّه خبر من وقت فريضة، فيما طريقه المشاهدة، فَيُقبل من الواحد كالخبر بدخول وقت الفريضة.

ولأنّه خبر عن أمر دينيّ يشترك فيه المُخبِر والمُخبَر، فَيُقبل من الواحد كالرواية.

ولأنّ شهادة الواحد تفيد الرجحان لكونه من رمضان، و مرجوحيّة كونه من شعبان، ولا يجوز عقلاً العمل بالمرجوح، فيتعيّن العمل بالراجح؛ إذ لا خروج عن النقيضين عملاً وإبطالاً[٢].

ثمّ أخذ في الإجابة عليها بأنّ محمّد بن قيس مشترك بين جماعة، منهم: أبو أحمد، روى عن أبي جعفر عليه السلام وهو ضعيف. فلعلّه هذا، فلا حجيّة فيه. سلّمنا صحّة السند، لكنّ العدل كما يصدق على الواحد، يصدق على الكثير. والقياسان ضعيفان. والأصل ممنوع. ونمنع إفادة خبر الواحد هنا الرجحان، لأنّ مشاركة الغير في الإبصار مع عدم الرؤية، واستصحاب حال الشهر، يفيدان ظنّ الاشتباه على الرائي[٣].

قلت: محمّد بن قيس، وإن كان مشتركاً بين عدّة رجال، لكن المنصرف عند الإطلاق هو أبو عبدالله البجلي ـ في الأكثر ـ أو أبو نصر الأسدي. وهما ثقتان جليلان لا موضع للغمز فيهما. ذكر سيّدنا الأستاذ أسانيد الشيخ إلى محمّد بن قيس ـ ومنها هذه الرواية ـ وقال: محمّد بن قيس هذا مشترك بين أبي عبدالله البَجَلي وأبي نصر الأسدي. وهما مشهوران معروفان[٤].

وذكر محمّد بن قيس البجلي وقال: ثقة عين[٥]. وقال: طريق الصدوق إليه صحيح[٦]. وذكر محمّد بن قيس الأسدي فنقل عن الشيخ أنّه قال: ثقة ثقة[٧]. ثمّ قال: لاشكّ في انصراف محمّد بن

(١) الفقيه ٢: ٧٧ / ٣٣٧ـ٤.
(٢) راجع: المختلف، للعلامة الحلّي ٣: ٣٥٥ـ٣٥٦.
(٣) راجع: المختلف ٣: ٣٥٦، وتذكرة الفقهاء ٦: ١٢٩ـ ١٣٠.
(٤) معجم رجال الحديث ١٨: ١٧٦ و ١٧٨.
(٥) المصدر: ١٨٠.
(٦) المصدر: ١٨١.
(٧) المصدر: ١٨٢.

قيس ـ عند الإطلاق ـ إلى أحدهما[1].

* * *

وذكر الشيخ أبو عبدالله المفيد رواية الأجلّاء بأنّ شهر رمضان قد يكون تسعة وعشرين يوماً وقد يكون ثلاثين يوماً، وعدّهم من فقهاء أصحاب الأئمّة والأعلام الرؤساء المأخوذ عنهم الحلال والحرام، والفتيا والأحكام، الّذين لا يُطعن عليهم، ولا طريق إلى ذمّ واحد منهم. وهم أصحاب الأصول المدوّنة، والمصنّفات المشهورة، وكلّهم قد أجمعوا نقلاً وعملاً على أنّ شهر رمضان قد ينقص وقد يتمّ، وعرفوه في عقيدتهم واعتمدوه في ديانتهم.

ثمّ أخذ في ذكر أحاديثهم. ومنها: ما رواه محمّد بن قيس:

[٤٨٠٨/٢] قال: أخبرني أبو القاسم جعفر بن محمّد بن قولويه عن محمّد بن همام عن عبدالله بن جعفر عن إبراهيم بن مهزيار عن الحسين بن سعيد عن يوسف بن عقيل عن محمّد بن قيس عن أبي جعفر محمّد بن علي عليه السلام قال: «قال أمير المؤمنين عليه السلام إذا رأيتم الهلال فأفطروا أو شهد عليه عدل[2] من المسلمين»[3].

هكذا ذكره الشيخ في التهذيب[4] شرحاً لمقنعة شيخه المفيد، وكذا الصدوق في «من لايحضره الفقيه»[5]، بلفظ «عدل» مفرداً.

* * *

أمّا قول العلّامة إنّ لفظة «عدل» تُطلق على الواحد والكثير، فصحيح، ولكن للمستدلّ أن يأخذ بإطلاق الكلام، ليشمل الواحد أيضاً كما يشمل الكثير.

أمّا قياس الإخبار بالهلال بالإخبار بدخول الوقت، فحقّ؛ إذ لا فرق بين الأمرين، وكلاهما إخبار عن دخول وقت الفريضة! فإن صحّ أحدهما صحّ الآخر، لصحّة الاعتماد على إخبار الثقة في الموضوعات، إذا لم يكن موضع اتّهام.

---

(١) المصدر: ١٨٣.

(٢) كانت النسخة «عدول». وصحّحناه على نسخة الفقيه والتهذيب. وقد عرفت أنّه المشهور المنقول.

(٣) الرسالة العدديّة: ٢٥ ـ ٢٦ و ٢٨ ـ ٢٩. (المجلّد التاسع) مصنّفات الشيخ المفيد.

(٤) التهذيب ٤: ١٥٨ / ٤٤٠ ـ ١٢.

(٥) الفقيه ٢: ٧٧ / ٤ ـ ٣٣٧.

وكذا قياس الخبر عن الموضوعات بالخبر عن الأحكام، فإنّ الراوي للحديث في الأحكام الشرعيّة، مصدَّق لدى الجميع إذا كان ثقة أميناً. وهو أهمّ[١] من موضوع حكمٍ بالذات. فلو صُدِّق في الأهمّ فلا مجال لعدم تصديقه في غير الأهمّ.

وأمّا استصحاب الحال، فينقضه وجود الدليل القاطع، وهو خبر العدل، الّذي سبق أن نبّهنا على حجيّته، باعتباره بيّنة شرعية، على الإطلاق.

وما ورد من اعتبار التعدّد وربما بلغ الخمسين، فإنّما هو لمكان الاتّهام ـ كما جاءت الإشارة إليه في نفس الروايات ـ لا ما إذا حصل الاطمئنان واليقين لدى العرف والوجدان السليم.

قوله تعالى: ﴿فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾

أي يقضي بعدد الأيّام الّتي أفطر، مخيّراً بين أن يوصلها أو يفرّقها.. وذلك لإطلاق الدليل:

[٤٨٠٩/٢] أخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم والبيهقي في سننه عن ابن عبّاس في قضاء رمضان قال: إن شاء تابع وإن شاء فرّق، لأنّ الله تعالى يقول: ﴿فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾[٢].

[٤٨١٠/٢] وأخرج ابن أبي شيبة عن عكرمة: ﴿فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾ قال: إن شاء وصل وإن شاء فرّق[٣].

[٤٨١١/٢] وأخرج مالك وابن أبي شيبة عن ابن عمر قال: يصوم شهر رمضان متتابعاً من أفطره من مرض أو سفر[٤].

[٤٨١٢/٢] وأخرج ابن المنذر والدارقطني ـ وصحّحه ـ والبيهقي في سننه عن عائشة قالت: نزلت الآية هكذا: «فعدّة من أيّام أُخر متتابعات» فسُقطت «متتابعات»[٥].

---

(١) لأنّه إسناد حكم شرعيّ إلٰهي إلى معصوم، ويكون مورد الابتلاء أبداً. وهذا على خلاف موضوع خارجيّ بالذات لو أخطأ فيه، لم يترتّب عليه أثر فادح.

(٢) الدرّ ١: ٤٦٣؛ ابن أبي حاتم ١: ٣٠٦ ـ ٣٠٧ / ١٦٣٣؛ البيهقي ٤: ٢٥٨.

(٣) الدرّ ١: ٤٦٣؛ المصنّف ٢: ٤٤٩ / ١٥، باب ٢٦.

(٤) الدرّ ١: ٤٦٣؛ الموطّأ ١: ٣٠٤ / ٤٥؛ المصنّف ٢: ٤٤٩ / ٢، باب ٢٧؛ القرطبي ٢: ٢٨٢.

(٥) الدرّ ١: ٤٦٤؛ الدار قطني ٢: ١٩٢ / ٦٠؛ سنن البيهقي ٤: ٢٥٨؛ القرطبي ٢: ٢٨١.

قولها: «فسُقطت...» يشي بتحريف أثيم حصل بعدُ. الأمر الّذي تأباه طبيعة القرآن المصونة عن تناول أيدى المبطلين. فلعلّ الأمر قد اشتبه عليها فحسبت من التفسير نصّاً، نظير ما حسبته من تشريع الرضعات آية قرآنيّة أكلها داجن البيت؟!

وعبثاً حاول بعضهم تأويل مثل ذلك إلى كونه من منسوخ التلاوة أو الإنساء[١] وقد أسلفنا الكلام فيهما عند مباحثنا عن مسألة «صيانة القرآن من التحريف».

[٤٨١٣/٢] وأخرج وكيع وابن أبي حاتم عن أبي هريرة، أنّ امرأة سألته: كيف تقضي رمضان؟ فقال: صومي كيف شئتِ وأحصي العدّة، فإنّما ﴿يُرِيدُ اللهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾[٢].

قوله تعالى: ﴿يُرِيدُ اللهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾

تعليلٌ لطيفٌ لِرُخَصِه تعالى بشأن هذه الأمّة، حيث السهولة والسماح في شريعتها بصورة عامّة، وذلك بفضل عنايته تعالى بشأن عباده المؤمنين.

[٤٨١٤/٢] روى الشيخ أبو جعفر الطوسي بالإسناد إلى أبي أسود الدُّئلي عن أبي ذرّ ـ رضوان الله عليه ـ قال: قال رسول الله ﷺ ـ: «بُعثتُ بالحنيفيّة السَّمْحَة...»[٣].

[٤٨١٥/٢] وروى أبو جعفر البرقي بالإسناد إلى أبي عبدالله عليه السلام قال: «إنّ الله ـ تبارك وتعالى ـ أعطى محمّداً شرائع نوح وإبراهيم وموسى وعيسى عليهم السلام: التوحيد، والإخلاص، وخلع الأنداد، والفطرة الحنيفيّة[٤] السَّمْحة، لا رُهبانيّة ولا سياحة[٥]. أحلّ فيها الطيّبات، وحرّم فيها الخبيثات، ووَضع عنهم إصرهم والأغلال الّتي كانت عليهم، فعرف فضله بذلك»[٦].

---

(١) قال البيهقي ـ بعد نقل كلامها ـ: أي فنُسخت. يعني: نسخ التلاوة. وهو باطل بالإجماع. راجع: الجزء الثامن من التمهيد: ٢٤ ـ ٣٣.

(٢) الدرّ ١: ٤٦٣؛ ابن أبي حاتم ١: ٣١٣ / ١٦٦١.

(٣) الأمالي ٢: ١٤١، مجلس يوم الجمعة ٤/المحرم /٤٥٧، في وصيّته ﷺ لأبي ذرّ؛ البحار ٧٩: ٢٣٣ / ٥٨ و ٨٧: ٢/٣٣٣.

(٤) أي الفطرة المستقيمة، المائلة عن كلّ زيف وحيف.

(٥) الرهبانيّة: الاعتزال عن الجماعة إلى الإنزواء للعبادة. والسياحة الممقوتة هنا هي الّتي يدور صاحبها في البلاد للاستجداء والتكدّي. تاركاً الاشتغال بالكسب والتجارة والارتزاق بجهد العمل. واصطلح أخيراً تسميتهم بالدراويش.

(٦) المحاسن ١: ٢٨٧ / ٤٣١؛ البحار ١٦: ٣٣٠ / ٢٦ و ٦٥: ٣١٧ / ١، باب ٢٦.

ورواه أبو جعفر الكليني بنفس الإسناد[١].

[٤٨١٦/٢] وروى أبوجعفر الكليني بالإسناد إلى ابن القدّاح عن الإمام أبي عبدالله عليه السلام قال: جاءت امرأة عثمان بن مظعون إلى النبيّ صلى الله عليه وآله فقالت: يا رسول الله، إنّ عثمان يصوم النهار ويقوم الليل! فخرج رسول الله صلى الله عليه وآله مغضباً يحمل نعليه حتّى جاء إلى عثمان، فوجده يصلّي! فانصرف عثمان[٢] حين رأى رسول الله. فقال له: «يا عثمان، لم يرسلني الله بالرُّهبانيّة، ولكن بعثني بالحنيفيّة السهلة السمحة؛ أصوم وأصلّي، وألمس أهلي. فمن أحبّ فطرتي فليستنّ بسنّتي، ومن سنّتي النكاح»[٣].

[٤٨١٧/٢] وروى بالإسناد إلى جابر بن عبدالله الأنصاري قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «ألا أخبركم بخير رجالكم؟ قلنا: بلى، يا رسول الله، قال: إنّ من خير رجالكم التقيّ النقيّ السَّمِحُ الكفّين، النقيّ الطرفين، البَرُّ بوالديه، ولا يُلجىء عياله إلى غيره»[٤].

قوله: النقيّ الطرفين، أي البطن والفرج، عن أكل الحرام وارتكاب الفحشاء. أو الفرج والفم، عن الشبهة والخَنَى. قال ابن الأثير: طرفا الإنسان، لسانه وذَكَرُه. ومنه قولهم: لايُدْرَى أيُّ طرفيه أطول؟![٥]

[٤٨١٨/٢] وقد رُوي عن النبيّ صلى الله عليه وآله قال: «إن أكثر ما يُدخل به النار من أمّتي الأجوفان! قالوا: يا رسول الله، وما الأجوفان؟ قال: الفرج والفم. قال: وأكثر ما يُدخل به الجنّة تقوى الله وحسنُ الخلق»[٦].

[٤٨١٩/٢] وقال صلى الله عليه وآله: «من ضمن لي مابين لحييه ومابين رجليه، ضمنتُ له الجنّة»[٧].

[٤٨٢٠/٢] وأخرج عبدالرزّاق عن معمر عن الزهري عن عروة عن عائشة قالت: والله لقد رأيت رسول الله صلى الله عليه وآله يقوم على باب حجرتي، والحبشة يلعبون بالحراب[٨] في المسجد، ورسول الله

(١) الكافي ٢: ١٧، باب الشرائع.

(٢) أي عن الصلاة، بمعنى أتمّ الّتي كانت بيده ولم يستأنف أخرى.

(٣) الكافي ٥: ٤٩٤، باب كراهيّة الرهبانيّة؛ البحار ٢٢: ٢٦٤ / ٣.

(٤) الكافي ٢: ٥٧.

(٥) النهاية ٣: ١٢٠ «مادّة طرف».

(٦) الخصال ١: ٧٨ / ١٢٦؛ البحار ٦٧: ٣٧٦.

(٧) معاني الأخبار: ٤١١ / ٩٩، باب معنى نوادر المعاني.

(٨) حراب جمع حَرْبة: آلة شبه رمح صغير.

يسترني بردائه لأنظر إلى لعبهم من بين أذنه وعاتقه، ثمّ يقوم (أي يُديم وقوفه) من أجلي، حتّى أكون أنا الّتي أنصرف! قالت: فاقدُروا قَدْر الجارية الحديثة السنّ الحريصة للّهو[١].

وأخرجه أحمد عن طريق عبدالرزّاق بنفس الإسناد[٢]. والبخاري من طريق معمر[٣] وكذا مسلم من طريق ابن شهاب[٤].

[٤٨٢١/٢] وأخرج عبدالرزّاق عن معمر عن هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة قالت: كنت ألعب باللعب فتأتيني صواحبي، فإذا دخل رسول الله ﷺ فَرَرْنَ منه، فيأخذهنّ رسول الله ﷺ فيردهنّ إليّ[٥].

وأخرجه أحمد[٦] والبخاري[٧] ومسلم من طريق هشام[٨].

[٤٨٢٢/٢] وأخرج عبدالرزّاق عن أنس قال: لمّا قدم رسول الله ﷺ المدينة، لعب الحبش بحرابهم فرحاً بقدومه[٩].

وأخرجه أبو داوود[١٠] وأحمد[١١] وعبد بن حميد[١٢] من طريق عبدالرزّاق.

[٤٨٢٣/٢] وأخرج عن المطّلب بن عبدالله عمّن سمع رسول الله ﷺ يقول: «ألهوا والعبوا، فإنّي أكرهُ أن يُرىٰ في دينكم غِلْظَةٌ»[١٣].

[٤٨٢٤/٢] وهكذا أخرج أحمد ـ بعد حديث عائشة ـ أنّها قالت: قال رسول الله ﷺ يومئذٍ:

---

(١) كنزالعمّال ١٥: ٢١٢ / ٤٠٦١٦.
(٢) مسند أحمد ٦: ١٦٦.
(٣) البخار ٦: ١٤٧. وفيه: فاقدُروا قَدْر الجارية الحديثة السّنّ تسمع اللهو.
(٤) مسلم ٣: ٢٢.
(٥) المصنّف ١٠: ٦٩.
(٦) مسند أحمد ٦: ١٦٦.
(٧) البخاري ٧: ١٠٢. وفيه «وكان لي صواحب يلعبن معي، فكان رسول الله ﷺ إذا دخل يتقمّعن منه فَيُسَرِّبُهُنَّ إليّ فيلعبن معي!». يتقمّعن أي أمسكن عن اللعب واختفين؛ البيهقي ٧: ٩٢.
(٨) مسلم ٧: ١٣٥، باب في فضل عائشة.
(٩) المصنّف ١٠: ٤٦٦ / ١٩٧٢٣.
(١٠) أبو داوود ٢: ٤٦١ / ٤٩٢٣؛ البيهقي ٧: ٩٢.
(١١) مسند أحمد ٣: ١٦١.
(١٢) منتخب مسند عبدبن حميد: ٣٧١ / ١٢٣٩.
(١٣) أورده المتّقي الهندي في كتاب اللهو واللعب من كنزالعمّال (١٥: ٢١٢ / ٤٠٦١٦) نقلاً عن الجامع الكبير لعبدالرزّاق؛ وراجع: نهج الفصاحة ٢: ٨٤٣ / ٥٢٢٦ والجامع الصغير ١: ٢٣٩ / ١٥٨٢.

«لتعلم يهودُ أنّ في ديننا فُسحةً ؛ إنّي أُرسلتُ بحنيفيّةٍ سمحةٍ»[١].

[٤٨٢٥/٢] وأخرج ابن سعد وأحمد وأبو يعلى والطبراني وابن مردويه عن عروة الفُقَيْمي عن أبي عروة قال: كنّا ننتظر النبيّ ﷺ فخرج رجلاً يقطر رأسُه من وضوء أو غسل فصلّى. فلمّا قضى الصلاة، جعل الناس يسألونه: يا رسول الله ﷺ أعلينا حرج في كذا وكذا؟ أو ماتقول في كذا وكذا؟ فقال رسول الله ﷺ: لا، أي لاحرج عليكم في الدين. ثمّ قال: «أيّها الناس، إنّ دين الله ـ عزّ وجلّ ـ في يسرٍ. يقولها ثلاثاً»[٢].

[٤٨٢٦/٢] وأخرج البزّار عن أنس أنّ رسول الله ﷺ قال: «يَسّروا ولاتُعسّروا، وسَكّنوا ولاتنفروا»[٣].

[٤٨٢٧/٢] وأخرج أحمد عن أبي ذرّ عن النبيّ ﷺ قال: «الإسلام ذلول لا يُركَب إلّا ذلولاً»[٤].

[٤٨٢٨/٢] وأخرج البيهقي من طريق معبد الجهني عن بعض أصحاب النبيّ ﷺ (هو سلمان)[٥] قال: قال رسول الله ﷺ: «العلم أفضل من العمل، وخير الأعمال أوسطها، ودين الله بين القاسي والغالي، والحسنة بين السيّئتين لا ينالُها [أحدٌ] إلّا بالله، وشرُّ السير الحَقْحَقَة»[٦][٧].

قوله: والحسنة بين السيّئتين أي بين الغلوّ والتقصير، كما في الحديث التالي:

[٤٨٢٩/٢] أخرج الحكيم الترمذي في نوادر الأصول عن الحسن قال: إنّ دين الله وضع دون الغلوّ وفوق التقصير[٨].

[٤٨٣٠/٢] وروى العيّاشيّ بالإسناد إلى الحلبي عن بعض أصحابنا عن الإمام أبي جعفر عليه السلام قال

---

(١) مسند أحمد ٦: ٢٣٣.

(٢) الطبقات الكبرى ٧: ٦٨؛ أبو يعلى ١٢: ٢٧٤ / ٦٨٦٣؛ كنز العمّال ٣: ٤٢ ـ ٤٣ / ٥٣٨٩؛ القرطبي ٢: ٣٠١؛ الدرّ ١: ٤٦٣؛ مجمع الزوائد ١: ٦١ ـ ٦٢.

(٣) الدرّ ١: ٤٦٥؛ مجمع الزوائد ١: ٦١؛ ابن كثير ١: ٢٢٣؛ القرطبي ٢: ٣٠١.

(٤) الدرّ ١: ٤٦٥؛ مسند أحمد ٥: ١٤٥؛ مجمع الزوائد ١: ٦٢؛ كنز العمّال ١: ٦٦ / ٢٤٤.

(٥) راجع: النهاية لابن الأثير ١: ٤١٢.

(٦) الحقحقة هو المتعب من السّير. وقيل أن تحمل الدابّة على مالا تطيقه.

(٧) الدرّ ١: ٤٦٥؛ شعب الإيمان ٣: ٤٠٢ / ٣٨٨٧؛ كنز العمّال ١٠: ١٣٢ / ٢٨٦٥٨.

(٨) النوادر ١: ١٦٧؛ الدرّ ١: ٤٦٦.

لابنه أبي عبدالله ﷺ: «يا بُنَيَّ، عليك بالحسنة بين السيّئتين تمحوهما! قال: وكيف ذاك يا أبه؟ قال: مَثَلُ ذلك قول الله عزّ وجلّ: ﴿وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلاً﴾[١].

فالجهر بصوتك سيّئة. والإخفات به سيّئة. وابتغ بين ذلك سبيلاً، حسنة.

وهكذا قوله تعالى: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُوماً مَحْسُوراً﴾[٢]. وقوله: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَاماً﴾[٣]. فأسرفوا، سيّئة. وقتروا، سيّئة. وكان بين ذلك قواماً، حسنة»، قال ﷺ: «فعليك بالحسنة بين السيّئتين»[٤].

والمراد من الحسنة بين السيّئتين يمحوهما: أنّ الحسنة إذا وقعت موقعها المطلوب شرعاً، كانت قد أمحت سيّئتين: الغلوّ والتقصير، لولم تقع تلك الحسنة موضعها المطلوب.

[٢/ ٤٨٣١] وأخرج ابن عبيد والبيهقي عن إسحاق بن سويد قال: تَعَبَّدَ عبدالله بن مُطرّف فقال له مُطرّف: يا عبدالله، العلم أفضل من العمل، والحسنة بين السيّئتين، وخير الأمور أوساطها، وشرّ السير الحقحقة»[٥].

[٢/ ٤٨٣٢] وأخرج ابن جرير عن قتادة في قوله تعالى: ﴿يُرِيدُ اللهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾ قال: فَأَرِيدُوا لأنفسكم الّذي أراد الله لكم[٦].

[٢/ ٤٨٣٣] وأخرج أبو عبيد والبيهقي عن تميم الداري قال: خذ من دينك لنفسك، ومن نفسك لدينك حتّى يستقيم بك الأمر على عبادةٍ تطيقها[٧].

[٢/ ٤٨٣٤] وأخرج الطبراني والبيهقي عن سهل بن أبي أمامة بن سهل بن حنيف عن أبيه عن جدّه، أنّ رسول الله ﷺ قال: «لا تشدّدوا على أنفسكم، فإنّما هلك من كان قبلكم بتشديدهم على أنفسهم، وستجدون بقاياهم في الصوامع والديارات»[٨].

---

(١) الإسراء ١٧: ١١٠. (٢) الإسراء ١٧: ٢٩.

(٣) الفرقان ٢٥: ٦٧.

(٤) العيّاشيّ ٢: ٣١٩ / ١٧٩؛ البحار ٦٨: ٢١٦، مع شيء من التغيير لأجل الإيضاح.

(٥) الدرّ ١: ٤٦٦؛ شعب الإيمان ٣: ٤٠٢ / ٣٨٨٨. (٦) الطبري ٢: ٢١٣ / ٢٣٧٣.

(٧) الدرّ ١: ٤٦٦؛ شعب الإيمان ٣: ٤٠٣.

(٨) الدرّ ١: ٤٦٥؛ الكبير ٦: ٧٣؛ الأوسط ٣: ٢٥٨؛ شعب الإيمان ٣: ٤٠١ / ٣٨٨٤؛ مجمع الزوائد ١: ٦٢؛ كنزالعمّال ٣: ٤٦ / ٥٤١٢.

باب القصد في العبادة

وعقد ثقة الإسلام الكليني باباً في الأصول من الكافي الشريف، تَرْجَمَهُ بباب الاقتصاد في العبادة، ذكر فيه أحاديث أئمّة أهل البيت عليهم السلام وأهمّها النقل عن جدّهم الرسول صلى الله عليه وآله وسلم بشأن الرفق في الدين وتيسيره دون تعسيره، نذكرها بالنصّ:

[٤٨٣٥/٢] روى بالإسناد إلى الإمام أبي جعفر عليه السلام قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «إنّ هذا الدين متين، فأوغلوا فيه برفق، ولا تُكَرِّهُوا عبادةَ الله إلى عبادِ الله، فتكونوا كالراكب المُنْبَتِّ، الّذي لا سفراً قطع ولا ظهراً أبقى»[١].

قوله: «كالراكب المُنْبَتّ» أي المفرط المُجهد في السير بحيث أتعب مركوبه فعطب عن الجري. قال ابن الأثير: يقال للرجل إذا انقُطِعَ به في سفره وعَطِبَتْ راحلتهُ: قد انْبَتَّ، من البتّ: القطع. وهو مطاوع بَتَّه وأبَتَّه. يريد أنّه بقي في طريقه عاجزاً عن مقصده ولم يَقْضِ وَطَره، وقد أَعْطَب ظهرَه[٢].

[٤٨٣٦/٢] وروى بالإسناد إلى الإمام أبي عبدالله عليه السلام قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لعليّ عليه السلام: «يا عليُّ، إنّ هذا الدين متين، فأوغل فيه برفق، ولا تبغّض إلى نفسك عبادةَ ربّك، فإنّ المُنْبَتَّ ـ يعني المفرط ـ لاظهراً أبقى ولا أرضا قطع. فاعمل عمل من يرجو أن يموت هَرِماً، واحذر حذر من يتخوّف أن يموت غداً»[٣].

قال الشريف الرضيّ: ووصف الدين هاهنا مجاز، والمراد أنّه صعب الظهر، شديد الأسر[٤] مأخوذ من متن الإنسان، وهو ما اشتدّ من لحم منكبيه. وإنّما وصفه ـ عليه الصلاة والسلام ـ بذلك، لمشقّة القيام بشرائطه، والأداء لوظائفه. فأمر ـ عليه الصلاة والسلام ـ أن يدخل الإنسان أبوابه

(١) الكافي ٢: ٨٦ / ١.

(٢) النهاية ١: ٩٢ «مادّة بَتَّ».

(٣) الكافي ٢: ٨٧ / ٦.

(٤) الأسر: الشدّ بالقيد المستحكم. قال تعالى: «﴿نَحْنُ خَلَقْنَاهُمْ وَشَدَدْنَا أَسْرَهُمْ﴾» (الإنسان ٧٦: ٢٨) أي استحكمنا أربطة مفاصلهم.

مُتَرَفِّقاً، ويرقىٰ هِضَابَه[١] متدرّجاً، ليستمرَّ على تَجَشُّم متاعبه[٢]، ويَمْرُنَ على امتطاء مصاعبه[٣]. وشبّه ـ عليه الصلاة والسلام ـ العابد الّذي يُحْسِرُ مُنَّتَه ويَسْتَنْفِدُ طاقَتَه[٤]، بالمُنْبَتّ. وهو الّذي يُغِذُّ السَّير ويكُدُّ الظَّهر[٥] منقطعاً من رُفْقته، ومنفرداً عن صحابته، فَتَحْسُرُ مَطِيَّتُه[٦] ولا يقطع شُقَّتَه[٧].

قال: وهذا من أحسن التمثيلات وأوقع التشبيهات!

قال: وممّا يقوّي المراد بهذا الخبر، ماكشفناه من حقيقة الخبر الآخر عنه ـ عليه الصلاة والسلام وهو:

[٤٨٣٧/٢] فيما رواه بُرَيدة بن الحُصَيْب الأسلمي، قال: قال ـ عليه الصلاة والسلام ـ: «عليكم هدياً قاصداً، فإنّه مَنْ يُشَادَّ هذا الدين يَغْلِبْه»[٨][٩].

قوله ﷺ: «فاعمل عمل من يرجو أن يموت هرماً، واحذر حذر من يتخوّف أن يموت غداً».

قال العلّامة المجلسيّ: أي تأنّ وارفق ولا تستعجل، فإنّ من يرجو البقاء طويلاً لا يسارع في الفعل كثيراً. أو أنّ من يرجو ذلك لا يُتعب نفسه بل يداريها ولا يَنْهَكُها بكثرة العمل والازدحام فيه. فهذا نهيٌ عن الإفراط.

كما ويجب التحذّر عن التفريط والتقصير في العمل، وعن التسويف في أداء الواجب. عَـلَّهُ يموت غداً![١٠]

---

(١) هِضاب جمع هَضْبة: الجبل المنبسط على وجه الأرض أو الطويل الممتنع المنفرد. ويقال للأرض المرتفعة المستطيلة: هَضْبة. ومراد الشريف هنا هو المرتفع الممتنع الصعود. (٢) أي تحمّل مشاقّه.

(٣) يَمْرُن: يتعوّد ويلين له صعوبة الأمر. وامتطأ الدابّة: ركبها.

(٤) يُحْسر من أحسر أي أعيا. والمُنَّة: القُوّة. واستنفد وُسْعَه أي استفرغه.

(٥) أغَذَّ السَّير وفي السير. أسرع وألحّ في السير. وكَدَّ يَكُدُّ الدابّةَ: أتعبها. والمراد من الظهر هنا الدابّة. أي أتعبها في مداومة السير. (٦) حَسِرَ وحَسَرَ: كَلَّ. والمطيّة الدابّة.

(٧) الشُّقَّة ـ بالكسر والضمّ: المسافة الّتي يَشُقُّها السائر، أي يقطعها ويطويها في مسيرته.

(٨) مسند أحمد ٤: ٤٢٢ و ٥: ٣٦١؛ الحاكم ١: ٣١٢؛ البيهقي ٣: ١٨؛ مجمع الزوائد ١: ٦٢؛ كنزالعمّال ٣: ٢٩ / ٥٣٠٥؛ الدرّ ١: ١٩٣.

(٩) المجازات النبويّة: ٢٦٠ ـ ٢٦١ / ٢٠٥، مؤسسة الحلبي بمصر، و ٢٤٤ ـ ٢٤٥ / ٢٠٧. مؤسسة دارالحديث.

(١٠) نقلاً بتصرّف وتلخيص: مرآة العقول ٨: ١١١.

[٤٨٣٨/٢] وبهذا المعنى أخرج البيهقي عن عبدالله بن عمرو بن العاص عنه ﷺ قال: «إنّ هذا الدين متين، فأوغل فيه برفق، ولا تُبَغِّض إلى نفسك عبادةَ ربّك؛ فإنّ المُنْبَتَّ لا سفراً قطع ولا ظهراً أبقى. فاعمل عمل امرىءٍ يظنّ أن لن يموت أبداً، واحذر حذراً تخشىٰ أن تموت غداً»[١].

[٤٨٣٩/٢] وهكذا أخرج بالإسناد إلى جابر بن عبدالله عنه ﷺ قال: «إنّ هذا الدين متين، فأوغل فيه برفقٍ ولا تبغّض إلى نفسك عبادة الله، فإنّ المنبتّ لا أرضاً قطع ولا ظهراً أبقى»[٢].

[٤٨٤٠/٢] وأخرج عن عائشة عنه ﷺ قال: «إنّ هذا الدين متين، فأوغل فيه برفق ولا تُكَرِّهوا عبادةَ الله إلى عبادِه، فإنّ المنبتَّ لا يقطع سفراً ولا يستبقي ظهراً»[٣].

[٤٨٤١/٢] وروى الكليني بالإسناد إلى حفص بن البختري عن أبي عبدالله عليه السلام قال: «لا تُكَرِّهُوا إلى أنفسكم العبادة»[٤].

قال المجلسي: وحاصله النهي عن الإفراط في التطوّعات، بحيث تكرهها النفس ولا تكون فيها راغبة ناشطة[٥].

[٤٨٤٢/٢] وبالإسناد إلى حنان بن سُدَير قال: سمعت أبا عبدالله عليه السلام يقول: «إنّ الله ـ عزّ وجلّ ـ إذا أحبّ عبداً فعمل عملاً قليلاً جزاه بالقليل الكثير، ولم يتعاظمه أن يجزي بالقليل الكثير له!»[٦].

قوله: ولم يتعاظمه أي لا يعظم عليه مجازاة الكثير إزاء عمل قليل، ذلك لأنّ كبر العمل وصغره بالكيفيّة والقصد، لا بالكمّيّة والحجم.

قال المجلسي: وفي ذلك إشارة إلى أنّ السعي في زيادة كيفيّة العمل أحسن من السعي في زيادة كمّيّته، وأنّ السعي في تصحيح العقائد والأخلاق أهمّ من السعي في كثرة الأعمال[٧].

[٤٨٤٣/٢] وروى بالإسناد إلى أبي بصير عن أبي عبدالله عليه السلام قال: «مرّ بي أبي وأنا بالطواف، وأنا

---

(١) البيهقي ٣: ١٩؛ شعب الإيمان ٣: ٤٠٠ / ٣٨٨٦؛ كنزالعمّال ٣: ٤٠ / ٥٣٧٩.

(٢) البيهقي ٣: ١٨.

(٣) شعب الإيمان ٣: ٤٠١ ـ ٤٠٢ / ٣٨٨٥؛ كنزالعمّال ٣: ٤٠ / ٥٣٧٨.

(٤) الكافي ٢: ٨٦ / ٢.

(٥) مرآة العقول ٨: ١١٠.

(٦) الكافي ٢: ٨٦ / ٣.

(٧) مرآة العقول ٨: ١١٠.

حَدَثٌ[١] وقد اجتهدتُ في العبادة، فرآني وأنا أتصابُّ عَرَقاً[٢]. فقال لي: يا جعفر، يا بُنَيَّ، إنَّ الله إذا أحبّ عبداً أدخله الجنّة ورضي منه باليسير»[٣].

[٤٨٤٤/٢] وبالإسناد إلى ابن أبي عمير عن غير واحد عن أبي عبدالله عليه السلام قال: «اجتهدتُ في العبادة وأنا شابٌّ. فقال لي أبي: يا بُنَيَّ، دونَ ما أراك تصنع؛ فإنّ الله -عزّ وجلّ- إذا أحبّ عبداً، رضي منه باليسير»[٤].

قوله: دونَ ما أراك تصنع. قال المجلسي: دون، منصوب بفعل مقدّر، أي اصنع دون الّذي أراك فيه[٥].

وقوله -في الحديث السابق-: «إذا أحبّ عبداً».. قال المجلسي: أي بحسن العقائد وصدق النيّات، ورعاية الخُلُق الكريم في الأعمال والعبادات، ومنها: رعاية تقوى الله[٦].

* * *

[٤٨٤٥/٢] وروى بالإسناد إلى زرارة عن أبي جعفر عليه السلام قال: «أحبّ الأعمال إلى الله -عزّ وجلّ- ماداوم عليه العبد وإن قلّ»[٧].

[٤٨٤٦/٢] وعن نَجَبة عنه عليه السلام قال: «ما من شيءٍ أحبُّ إلى الله -عزّ وجلّ- من عملٍ يُداوَم عليه وإن قلّ»[٨].

[٤٨٤٧/٢] وعن معاوية بن عمّار عن أبي عبدالله عليه السلام قال: «كان عليّ بن الحسين -صلوات الله عليهما- يقول: إنّي لأُحبُّ أن أداوم على العمل وإن قلّ»[٩].

[٤٨٤٨/٢] وعن محمّد بن مسلم عن أبي جعفر عليه السلام قال: «كان عليّ بن الحسين -صلوات الله عليهما- يقول: إنّي لأُحبُّ أن أقدم على ربّي وعملي مستوٍ»[١٠]. أي لاإفراط فيه ولا تفريط.

[٤٨٤٩/٢] وعن سليمان بن خالد قال: قال أبو عبدالله عليه السلام: «إيّاك أن تفرض على نفسك فريضةً

---

(١) الحَدَث: الشابّ.

(٢) من الصبّ وهو الرشف الغزير.

(٣) الكافي ٢: ٨٦/ ٤؛ الوسائل ١: ١٠٩/ ٣.

(٤) الكافي ٢: ٨٧/ ٥؛ الوسائل ١: ١٠٨/ ١.

(٥) مرآة العقول ٨: ١١١.

(٦) المصدر: ١١٠. مع شيء من التصرّف.

(٧) الكافي ٢: ٨٢/ ٢.

(٨) المصدر/ ٣.

(٩) المصدر/ ٤.

(١٠) المصدر: ٨٣/ ٥.

فتفارقها اثني عشر هلالاً!»[١].

[٤٨٥٠/٢] وروى ابن بابويه الصدوق وأبو جعفر الكليني، كلاهما بالإسناد إلى الحسن بن محبوب عن جميل بن صالح عن محمّد بن مروان عن أبي عبدالله عليه السلام في حديث بشأن صوم رسول الله صلى الله عليه وآله قال: «كان أبي ـ أبو جعفر الباقر عليه السلام ـ يقول: ما من أحد أبغض إلى الله ـ عزّ وجلّ ـ[٢] من رجل يقال له: كان رسول الله صلى الله عليه وآله يفعل كذا وكذا، فيقول: لايعذّبني الله على أن أجتهد في الصلاة والصوم، كأنّه يرى أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله ترك شيئاً من الفضل عجزاً عنه!»[٣]. أي يجتهد في الزيادة على ما فعله رسول الله صلى الله عليه وآله بزعم: أنّ الإكثار في العبادة مندوب إليه كيفما كان!

[٤٨٥١/٢] ولعلّه نظراً لما رواه أبو جعفر الصفّار بالإسناد إلى أبي هاشم عن عنبسة بن نجاد العابد قال: سمعتُ جعفر بن محمّد عليه السلام ـ وذكرت عنده الصلاة ـ فقال: «إنّ في كتاب عليّ عليه السلام الّذي أملاه رسول الله صلى الله عليه وآله: أنّ الله لايُعذّب على كثرة الصلاة والصيام، ولكن يزيده جزاءً». وفي نسخة: «يزيده خيراً»[٤].

[٤٨٥٢/٢] وما رواه الحسن بن حمزة العلوي بالإسناد إلى مسعدة بن صدقة عن الصادق عليه السلام عن آبائه عليهم السلام قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «الصلاة خير موضوع، فمن شاء استقلّ ومن شاء استكثر».

رواه المجلسي عن كتاب الإمامة والتبصرة[٥].

[٤٨٥٣/٢] ولكن روى أبو جعفر الطوسي بالإسناد إلى الأعمش عن تميم بن سلمة عن أبي عُبيدة عن عبدالله بن مسعود قال: «اقتصادٌ في سنّة، خير من اجتهاد في بدعة. ثمّ قال: تعلّموا ممّن علم فعمل»[٦]. يعني رسول الله صلى الله عليه وآله الّذي هو صاحب الرسالة. قال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللهَ كَثِيراً﴾[٧]. وقد نهى ـ كما مرّ ـ الإجهاد في العبادة،

---

(١) المصدر / ٦.

(٢) في رواية الكافي: «أبغض إليّ».

(٣) الفقيه ٢: ٤٨ / ٢٠٩؛ الكافي ٤: ٩٠ / ٣.

(٤) بصائر الدرجات: ١٦٥ (الجزء الرابع: ١١)؛ البحار ٧٩: ٣٠٨ / ٨.

(٥) البحار ٧٩: ٣٠٨ / ٩.

(٦) الأمالي ٢: ٢٧٠ / ٢٢، الجزء العاشر. ورواه صاحب الوسائل (١: ١١١ / ٩) بالإسناد إلى عبدالله عن عليّ عليه السلام.

(٧) الأحزاب ٣٣: ٢١.

بحيث يُملّ أو يُضني ويُعقّب: أن لا سفراً قطع ولا ظهراً أبقى.

[٤٨٥٤/٢] وهكذا روى أبو جعفر الكليني بالإسناد إلى سلّام بن المستنير عن أبي جعفر عليه السلام قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «ألا إنّ لكلّ عبادة شِرَّةً، ثمّ تصير إلى فترةٍ[1]. فمن صارت شِرَّة عبادته إلى سُنَّتي فقد اهتدى، ومن خالف سنّتي فقد ضلّ وكان عمله في تبار!»[2]

[٤٨٥٥/٢] قال صلى الله عليه وآله وسلم: «أما إنّي أصلّي وأنام، وأصوم وأفطر، وأضحك وأبكي. فمن رغب عن منهاجي وسنّتي فليس منّي»[3].

[٤٨٥٦/٢] وقال الإمام أمير المؤمنين عليه السلام: «إنّ للقلوب شهوة وإقبالاً وإدباراً، فأتوها من قبل شهوتها وإقبالها، فإنّ القلب إذا أُكره عمي»[4].

[٤٨٥٧/٢] وقال عليه السلام: «قليل مدوم عليه خير من كثير مملول منه»[5].

[٤٨٥٨/٢] وقال: «قليل تدوم عليه أرجى من كثير مملول منه»[6].

[٤٨٥٩/٢] وقال: «إذا أضرّت النوافل بالفرائض فارفضوها»[7].

[٤٨٦٠/٢] وقال: «لا تَرى الجاهلَ إلّا مُفرِطاً أو مُفرِّطاً»[8]

[٤٨٦١/٢] وقال: «إضاعة الفرصة غصّة»[9].

[٤٨٦٢/٢] وفي وصيّته ـ صلوات الله عليه ـ لابنه الحسن عليه السلام: «واقتصد ـ يا بُنيَّ ـ في معيشتك، واقتصد في عبادتك، وعليك فيها بالأمر الدائم الّذي تطيقه».

رواه الشيخ في الأمالي بالإسناد إلى أبي معمر عن أبي بكر بن عيّاش عن الفجيع العقيلي عن الإمام الحسن بن علي عليه السلام[10].

---

(١) الشرّة: النشاط وشدّة الرغبة.

(٢) وفي نسخة: «في تباب». وكلاهما بمعني الخسران والدمار.

(٣) الكافي ٢: ٨٦ / ١؛ الوسائل ١: ١٠٩ / ٥ ـ ٢٦٨؛ البحار ٦٨: ٢٠٩ (باب الاقتصاد في العبادة والمداومة عليها، وفضل التوسّط فيها والاستواء).

(٤) نهج البلاغة، قصار الحكم: ١٩٣.

(٥) المصدر، قصار الحكم: ٤٤٤.

(٦) المصدر، قصارالحكم: ٢٧٨.

(٧) المصدر، قصار الحكم: ٢٧٩.

(٨) المصدر، قصار الحكم: ٧٠.

(٩) المصدر، قصار الحكم: ١١٨.

(١٠) الأمالي ١: ٧ / ٨، الجزء الأوّل؛ البحار ٦٨: ٢١٤ / ٩.

[٤٨٦٣/٢] وروى ابن بابويه الصدوق بالإسناد إلى هشام بن سالم عن أبي عبدالله عليه السلام قال: «العمل الدائم القليل على اليقين، أفضل عند الله من العمل الكثير على غير يقين»(١).

إلى غيرها من أحاديث كريمة، جمعها وشرحها العلّامة الكبير المولى محمّد باقر المجلسي في بحار أنواره، في باب ترجمه بباب «الاقتصاد في العبادة والمداومة عليها. وفعل الخير وتعجيله. وفضل التوسّط في جميع الأمور واستواء العمل»(٢). فلله درّه وعليه أجره.

* * *

وعقد البخاري في كتاب الإيمان باباً ترجمه بقوله: بابُ الدينُ يُسْرٌ. وقولُ النبيّ صلى الله عليه وآله: «أحبُّ الدين إلى الله الحنيفيّة السمحة»(٣).

قال ابن حجر في الشرح: أي أحبّ خصال الدين؛ لأنّ خصال الدين كلّها محبوبة، لكن ما كان منها سمحاً أي سهلاً فهو أحبّ إلى الله.

[٤٨٦٤/٢] قال: ويدلّ عليه ما أخرجه أحمد بسند صحيح من حديث أعرابيّ لم يسمّه: أنّه سمع رسول الله صلى الله عليه وآله يقول: «خير دينكم أيسره»(٤).

قال: أو الدين جنس، أي أحبّ الأديان إلى الله الحنيفيّة. والمراد بالأديان الشرائع الماضية. والحنيفيّة ملّة إبراهيم. والحنيف في اللغة من كان على ملّة إبراهيم. وسمّي إبراهيم حنيفاً لميله عن الباطل إلى الحقّ؛ لأنّ أصل الحَنَف الميل. والسمحة: السهلة، أي أنّها مبنيّة على السهولة، لقوله تعالى: ﴿هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ﴾(٥).

قال: وهذا الحديث المعلّق(٦) لم يسنده المؤلّف في هذا الكتاب، لأنّه ليس على شرطه، نعم

---

(١) علل الشرائع ٢: ٢٤٦؛ البحار ٦٨: ٢١٤ / ١٠. (٢) البحار ٦٨: ٢٠٩ ـ ٢٢٧.

(٣) البخاري ١: ١٦.

(٤) مسند أحمد ٣: ٤٧٩. نقلاً عن أبي قتادة عن الأعرابي؛ مجمع الزوائد ١: ٦١ باب قوله: خير دينكم أيسره. قال الهيثمي رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح؛ ابن كثير ١: ٢٢٣. (٥) الحجّ ٢٢: ٧٨.

(٦) أي حديث «أحبّ الدين إلى الله الحنيفيّة السمحة». وسمّي معلّقا لحذف الراوي الأوّل من الإسناد. (مقياس الهداية للمامقاني ١: ٢١٥).

وصله في كتاب الأدب المفرد، وكذا وصله أحمدُ بن حنبل وغيرُه من طريق محمّد بن إسحاق عن داوود بن الحصين عن عكرمة عن ابن عبّاس[١]. وإسناده حسن، استعمله المؤلف في الترجمة، لكونه متقاصراً عن شرطه، وقوّاه بما دلّ عن معناه، لتناسب السهولة واليسر[٢].

[٤٨٦٥/٢] وأخرج بالإسناد إلى أبي هريرة عن النبيّ ﷺ قال: «إنّ الدين يُسْرٌ ولَنْ يُشَادَّ الدينَ أحدٌ إلّا غَلَبه، فَسَدِّدُوا وقارِبُوا وأَبْشِرُوا، واستعينوا بالغُدْوَة والرَّوْحَة وشيء من الدُّلْجَةِ»[٣].

قوله: «ولَنْ يُشادَّ الدينَ أحدٌ إلّا غلبه». قال ابن حجر: المشادّة ـ بالتشديد ـ المغالبة، يقال: شادّه يشادّه مشادّةً إذا قاواه. والمعنى: لا يتعمّق أحد في الأعمال الدينيّة ويترك الرفق إلّا عجز وانقطع فيُغْلَب. قال ابن المنير: في هذا الحديث عَلَم من أعلام النبوّة، فقد رأينا ورأى الناس قبلنا أنّ كلَّ متنطّعٍ في الدين ينقطع.. وليس المراد منع طلب الأكمل في العبادة، فإنّه من الأمور المحمودة، بل منع الإفراط المؤدّي إلى الملال، أو المبالغة في التطوّع المفضي إلى ترك الأفضل أو إخراج الفرض عن وقته، كمن بات يصلّي الليل كلّه ويغالب النوم إلى أن غلبته عيناه في آخر الليل فنام عن صلاة الصبح في الجماعة أو إلى أن خرج الوقت المختار أو إلى أن طلعت الشمس فخرج وقتُ الفريضة.

[٤٨٦٦/٢] وفي حديث محجن بن الأدرع عند أحمد: «إنّكم لن تنالوا هذا الأمر بالمغالبة، وخير دينكم اليُسرة»[٤].

قال ابن حجر: وقد يستفاد من هذا الإشارةُ إلى الأخذ بالرخصة الشرعيّة، فإنّ الأخذ بالعزيمة، موضعَ الرخصة، تنطُّعٌ، كمن يترك التيمّم عند العجز عن استعمال الماء، فيفضي به استعماله إلى حصول الضرر[٥].

قوله: «فسدِّدوا» أي ألزموا السداد وهو الصواب من غيرِ إفراط أو تفريط. قال أهل اللغة: السداد، التوسّط في العمل.

قوله: «وقاربوا» أي إن لم تستطيعوا الأخذ بالأكمل فاعملوا بما يقرب منه.

---

(١) مسند أحمد ١: ٢٣٦. وسيأتي.
(٢) فتح الباري ١: ٨٦ـ٨٧.
(٣) البخاري ١: ١٦.
(٤) مسند أحمد ٥: ٣٢. وسنذكره تفصيلاً.
(٥) فتح الباري ١: ٨٧ـ٨٨.

قوله: «وأبشروا» أي بالثواب على العمل الدائم وإن قلّ. قال ابن حجر: والمراد بالتبشير هنا تبشير من عجز عن العمل بالأكمل، بأنّ العجز إذا لم يكن من صنيعه، لايستلزم نقص أجره. وأبهم المبشَّر به تعظيماً له وتفخيماً[١].

قوله: «واستعينوا بالغُدوة والرَّوحة وشيء من الدُّلجة» أي استعينوا على مداومة العبادة بإيقاعها في الأوقات المنشِّطة. والغُدْوَة ـ بالضمّ ـ البُكرة أو ما بين صلاة الغداة وطلوع الشمس، كما قال الجوهري[٢]. والغَدْوَة ـ بالفتح ـ سير أوّل النهار، نقيض الرَّوْحة: السير بعد العصر، والدُّلْجة ـ بضمّ أوّله وفتحه وإسكان اللام ـ سير آخر الليل.

وأنشدوا للإمام أميرالمؤمنين عليه السلام:

اصبر على السَّيرِ والإدلاج في السَّحَرِ وفي الرَّواح على الحاجات والبُكَرِ

فجعل الإدلاج في السَّحَر[٣].

قال ابن حجر: وهذه الأوقات أطيب أوقات المسافر، وكأنّه صلى الله عليه وآله خاطب مسافراً إلى مقصدٍ، فنبّهه على أوقات نشاطه، لأنّ المسافر إذا سافر الليل والنهار جميعاً، عجز وانقطع. وإذا تحرّى السير في هذه الأوقات المنشِّطة، أمكنته المداومة من غير مشقّة.

قال: وحُسْن هذه الاستعارة، أنّ الدنيا ـ في الحقيقة ـ دار نقلةٍ إلى الآخرة، وأنّ هذه الأوقات بخصوصها أروح ما يكون فيها البدن للعبادة[٤].

[٤٨٦٧/٢] أخرج البخاري بالإسناد إلى ابن أبي ذئب عن سعيد المَقْبُريّ عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «لن يُنجّيَ أحداً منكم عملُه! قالوا: ولا أنت، يا رسول الله؟ قال: ولا أنا، إلّا أن يتغمّدني الله برحمةٍ. ثمّ قال: سَدِّدوا وقاربوا واغدوا وروحوا وشيءٌ من الدُّلْجَةِ، والقَصْدَ القَصْدَ، تبلغوا»[٥].

قال ابن حجر: «القَصْدَ القَصْدَ» بالنصب فيهما على الحثّ والإغراء. والقصد: الأخذ بالأمر

---

(١) المصدر ١: ٨٨.

(٢) الصحاح ٦: ٢٤٤٤. «مادة غدا»؛ اللسان ١٥: ١١٦؛ النهاية ٣: ٣٤٦.

(٣) النهاية لابن الأثير ٢: ١٢٩؛ اللسان ٢: ٢٧٣. (٤) فتح الباري ١: ٨٨.

(٥) البخاري ٨: ١٢٢، كتاب الرقاق، باب القصد والمداومة على العمل؛ مسند أحمد ٢: ٥١٤ و ٥٣٧.

الوسط.

قال: وهذه الأحاديث تضمّنت الترغيب في القيام والصيام والجهاد. فأرادﷺ أن يبيّن أنّ الأَوْلي للعامل بذلك أن لايُجهد نفسه بحيث يعجز وينقطع، بل يعمل بتلطّف وتدريج ليدوم عملُه ولاينقطع[١].

[٤٨٦٨/٢] وأخرج البخاري بالإسناد إلى أبي هريرة عن النبيّ ﷺ قال: «إنّ الدين يُسر، ولن يُشَادَّ الدين أحدٌ إلّا غلبه، فسدّدوا وقاربوا وأبشروا، واستعينوا بالغدوة والروحة وشيء من الدُّلْجَةِ»[٢].

[٤٨٦٩/٢] وأخرج مسلم بالإسناد إلى أبي موسى عنهﷺ قال: «يَسِّروا ولاتُعسِّروا، وبَشِّروا ولاتُنفِّروا»[٣].

[٤٨٧٠/٢] وبالإسناد إلى أنس عنهﷺ قال: «يَسِّرُوا ولاتُعَسِّرُوا وسَكِّنُوا ولاتُنَفِّروا»[٤].

[٤٨٧١/٢] وأخرج البيهقي عن هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة، كانت عندها امرأة من بني أسد، فدخل النبيّﷺ فقال: من هذه؟ قالت: فلانة، لاتنام الليل! فذكرت من صلاتها وقيامها. فقال النبيّﷺ: «مَهْ، عليكم بما تطيقون، فوالله لا يَمَلُّ اللهُ حتّى تَمَلُّوا. ثمّ قال: أحبّ الدين إلى الله، الّذي يدوم عليه صاحبه».[٥] أي لايُجهد نفسه حتّى ينقطع عن العمل رأساً، فلا يمكنه التداوم عليه!

[٤٨٧٢/٢] وأخرج عن أنس بن مالك قال: دخل النبيّﷺ المسجد، فإذا حبل ممدود بين ساريتين! فقال: ما هذا؟ فقالوا: هذا الحبل لزينب تصلّي، فاذا فترت (أي كسلت) تعلّقت به. فقال النبيّﷺ: «حُلُّوه. لِيُصَلِّ أحدُكم بنشاطه، فإذا فترَ فليقعد»[٦]. قال البيهقي: ورواه البخاري ومسلم في الصحيح.

---

(١) فتح الباري ١: ٨٨.

(٢) البخاري ١: ١٦، باب الدين يُسر، وقول رسول اللهﷺ: أحبّ الدين إلى الله الحنيفيّة السمحة. وراجع: عوالي اللئالي لأبن أبي جمهور ١: ٣٨١ / ٤.

(٣) مسلم ٥: ١٤١، كتاب الجهاد والسير، باب في الأمر بالتيسير وترك التنفير.

(٤) المصدر. (٥) البيهقي ٣: ١٧.

(٦) المصدر: ١٨.

[٤٨٧٣/٢] وفي رواية أخرى: أنّ رسول الله ﷺ دخل المسجد فرأى حبلاً ممدوداً بين ساريتين، فقال: ما هذا الحبل؟ قالوا: لفلانة تصلّي فإذا غُلِبَتْ تعلّقت به! فقال رسول الله ﷺ: «لتصلّي ما عقلت، فإذا خشيت أن تُغْلَب فلتنم[(١)]».

[٤٨٧٤/٢] ومن هذا القبيل ما أخرجه أحمد بالإسناد إلى عبدالله بن سقيق عن رجاء بن أبي رجاء الباهلي عن محجن بن الأدرع قال: قال رجاء: أقبلتُ مع محجن ذات يوم حتّى انتهينا إلى مسجد البصرة فوجدنا بُرَيدة الأسلمي على باب من أبواب المسجد جالساً. قال: وكان في المسجد رجل يقال له: سكبة، يطيل الصلاة. فلمّا انتهينا إلى باب المسجد وعليه بُريدة قال ـ وكان صاحب مزاحات ـ: يا محجن، ألا تصلّي كما يصلّي سكبة! قال رجاء: فلم يردّ عليه محجن شيئاً ورجع. قال: وقال لي محجن: إنّ رسول الله ﷺ أخذ بيدي فانطلق يمشي حتّى صعد أُحداً، فأشرف على المدينة فقال: ويل أمّها من قرية يتركها أهلها كأعمر ما تكون... ثمّ انحدر حتّى إذا كُنّا بسُدَّة المسجد، رأى رسول الله ﷺ رجلاً يصلّي في المسجد، ويسجد ويركع، ويسجد ويركع! قال: فقال لي رسول الله ﷺ ـ: من هذا؟ قال: فأخذت أطريه له. قال: قلت: يا رسول الله ﷺ هذا فلان، وهذا وهذا!! قال: اسكت، لاتُسْمِعْه فتهلكه. قال: ثمّ انطلق يمشي حتّى إذا كنّا عند حجرة، لكنّه رفض يدي ثمّ قال: «إنّ خير دينكم أيسره، إنّ خير دينكم أيسره، إنّ خير دينكم أيسره»[(٢)].

[٤٨٧٥/٢] وفي رواية أخرى: قال محجن: قلت: يا نبيّ الله، هذا فلان وهذا من أحسن أهل المدينة، أو قال: أكثر أهل المدينة صلاةً! قال: لاتُسمعه فتهلكه، ثمّ قال ـ مرّتين أو ثلاثاً ـ: «إنّكم أمّة أريد بكم اليسر»[(٣)].

[٤٨٧٦/٢] وأخرج عن أبي أمامة قال: خرجنا مع رسول الله ﷺ سريّة من سراياه، فمرّ رجل بغارٍ فيه شيء من ماء، فحدّث نفسه بأن يقيم في ذلك الغار فَيَقُوتُه ما كان فيه من ماء ويصيب ما حوله من البقل، ويتخلّى من الدنيا! ثمّ قال: لو أتيتُ نبيّ الله ﷺ فذكرتُ ذلك له، فإن أذن لي فعلتُ وإلّا لم أفعل، فأتاه فقال: يا نبيّ الله، إنّي مررت بغارٍ فيه ما يَقوتُني من الماء والبقل، فحدّثتني نفسي بأن أقيم فيه وأتخلّى من الدنيا!

---

(١) المصدر: ١٩.

(٢) مسند أحمد ٥: ٣٢.

(٣) المصدر.

فقال النبيّ ﷺ: «إنّي لم أُبعَثْ باليهوديّة ولا بالنصرانيّة[1]، ولكنّي بُعثت بالحنيفيّة السمحة، والّذي نفسُ محمّدٍ بيده، لغُدْوةٌ أو رَوْحةٌ في سبيل الله خير من الدنيا وما فيها. ولمقام أحدكم في الصفّ خير من صلاته ستّين سنة»[2].

[٤٨٧٧/٢] وأخرج بالإسناد إلى عكرمة عن ابن عبّاس قال: «قيل لرسول الله ﷺ: أيّ الأديان أحبّ إلى الله؟ قال: الحنيفيّة السمحة»[3].

[٤٨٧٨/٢] وأخرج عن أبي قتادة عن الأعرابي الّذي سمع رسول الله ﷺ يقول: «إنّ خير دينكم أيسره، إنّ خير دينكم أيسره»[4].

ملحوظة

المستفادُ من حديث الاستعانةُ بالغُدْوة والرَّوْحة والدُلْجة (الآنف)[5]، جوازُ العبادة بل الحثّ عليها في هذه الأوقات، لأنّها أوقات مُنَشِّطة ـ كما قال ابن حجر ـ فليختارها المتطوّع بالعبادة، فإنّها أروح له وأرغب وأنشط.

وهذا هو الموافق لنصّ القرآن الكريم: ﴿وسبّح بحمد ربّك قبلَ طلوع الشمس وقبلَ الغروب ومن الليل فسبّحه وأدبار السجود﴾[6]. ﴿وَاذْكُر رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعاً وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ وَلَا تَكُنْ مِنَ الْغَافِلِينَ﴾[7].

﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾[8].

﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللهُ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ. رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْماً تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ﴾[9].

---

(١) أي الحاضرتين وفيهما العُزلة والرهبانيّة!

(٢) مسند أحمد ٥: ٢٦٦.

(٣) المصدر ١: ٢٣٦.

(٤) المصدر ٣: ٤٧٩.

(٥) فيما نقلناه عن البخاري ١: ١٦. وشرحه ابن حجر في الشرح (فتح الباري ١: ٨٧ ـ ٨٨).

(٦) سورة ق ٥٠: ٣٩ ـ ٤٠.

(٧) الأعراف ٧: ٢٠٥.

(٨) الكهف ١٨: ٢٨.

(٩) النور ٢٤: ٣٦ ـ ٣٧.

﴿وَاذْكُرْ رَبَّكَ كَثِيراً وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ﴾[١].

﴿إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ﴾[٢].

﴿وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ﴾[٣].

﴿فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ أَنْ سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيّاً﴾[٤].

وقد عرفت معنى الغداة (باكورة النهار) الشاملة لما بعد صلاة الفجر حتّى طلوع الشمس، وحين إشراقها بعد الطلوع.

والآصال جمع أصيل: الوقت بين العصر والمغرب.

والعشيّ: أوّل الظلام، أو آخر النهار. وعن مجاهد: العشيّ ـ هنا ـ من حين زوال الشمس إلى غروبها. كما قال الشاعر:

فلا الظلَّ من برد الضُّحىٰ يستطيعُه ولا الفيءَ من بَرْد العشيّ يذوقُ[٥]

وكذا يقال: العشيّ للوقت من المغرب إلى العَتَمة. ومن ثمّ يقال: عشاءان، غير أنّ المراد في الآية هو المعنى الأوّل، حسب السياق.

وأمّا وقت السحر فناهيك قوله تعالى: ﴿الصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالْقَانِتِينَ وَالْمُنْفِقِينَ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ﴾[٦].

وقوله: ﴿وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾[٧].

* * *

فتلك أوقات ثلاثة جاء المدح والترغيب فيها للعبادة والصلاة والاستغفار والاجتهاد في التقرّب إليه سبحانه.

فياتُرى كيف يرى لفيفٌ من الفقهاء المنع من التنفّل بالصلاة والعبادة، بعد صلاة الفجر قبل الطلوع، وحين إشراق الشمس، وعند الأصيل؟! يَرَوْن أنّ الشمس تطلع بين قرني الشيطان، كما

---

(١) آل عمران ٣: ٤١.

(٢) سورة ص ٣٨: ١٨.

(٣) غافر ٤٠: ٥٥.

(٤) مريم ١٩: ١١.

(٥) مجمع البيان ٢: ٤٣٩ ـ ٤٤٠.

(٦) آل عمران ٣: ١٧.

(٧) الذاريات ٥١: ١٨.

تغرب بين قرنيه! ومن ثمّ فالصلاة إبّان طلوعها وبعد الطلوع، وكذا إبّان غروبها وبعد الغروب، قد تُتَراءىٰ سجوداً للشيطان، كما كان يفعله عَبَدَةُ الشمس عند الطلوع وعند الغروب!! يالها من سذاجة رأي؟ فضلاً عن غرابة تلكم الأحاديث ونكارتها؟!

[٤٨٧٩/٢] رووا عن ابن عبّاس أنّه قال: شهد عندي رجال مرضيّون فيهم عمر، وأرضاهم عندي عمر، أنّ رسول الله ﷺ نهى عن الصلاة، أو قال: لاصلاة بعد الصبح حتّى تشرق الشمس أو تطلع وبعد العصر حتّى تغرب الشمس. رواه البخاري في الصحيح وأخرجه مسلم وغيرهما[١].

[٤٨٨٠/٢] ورووا عن عمرو بن عَبَسة (صحابيّ نزل الشام) عن النبيّ ﷺ قال: «صلّ صلاة الصبح، ثمّ اقصر عن الصلاة حتّى تطلع الشمس حتّى ترتفع، فإنّها تطلع حين تطلع بين قرني شيطان، وحينئذٍ يسجد لها الكفّار. ثمّ صلّ حتّى يستقلّ الظلّ بالرمح، ثمّ اقصر عن الصلاة، فإنّ جهنم حينئذٍ تُسْجَرُ، فإذا أقبل الفيء فصلّ حتّى تصلّي العصر، ثمّ اقصر عن الصلاة حتّى تغرب الشمس، فإنّها تغرب بين قرني شيطان، وحينئذٍ تسجد لها الكفّار»[٢]. ورواه مسلم في الصحيح[٣].

[٤٨٨١/٢] ورووا عن أبي عبدالله الصنابحي[٤] أنّ رسول الله ﷺ قال: «إنّ الشمس تطلع ومعها قرن الشيطان، فإذا ارتفعت فارقها، ثمّ إذا استوت قارنها، فإذا زالت فارقها، فإذا دنت للغروب قارنها، فإذا غربت فارقها. ونهى عن الصلاة في تلك الساعات»[٥].

ومن الغريب تأكيد مثل معاوية على المنع من الصلاة حينذاك:

[٤٨٨٢/٢] روى البيهقي بالإسناد إلى أبي التياح قال: سمعتُ حمران بن أبان يحدّث عن معاوية قال: إنّكم لتصلّون صلاةً، لقد صحبنا رسول الله ﷺ فما رأيناه يصلّيها، ولقد نهى عنهما، يعني الركعتين بعد العصر[٦]. ورواه البخاري في الصحيح[٧].

---

(١) راجع: البيهقي ٢: ٤٥١ ـ ٤٥٥. (جماع أبواب الساعات الّتي تكره فيها صلاة التطوّع)، والبخاري ١: ١٤٥ ومسلم ٢: ٢٠٨ والمصنّف لابن أبي شيبة ٢: ٢٤٥ / ١٠.

(٢) البيهقي ٢: ٤٥٤ ـ ٤٥٥.

(٣) مسلم ٢: ٢٠٨ ـ ٢٠٩.

(٤) هو عبدالرحمان بن عُسَيْلَة. رحل إلى النبيّ ﷺ فوجده قد مات قبله بخمس ليالٍ أو ستّ. ثمّ نزل الشام. روى عن النبيّ ﷺ مرسلاً. (تهذيب التهذيب ٦: ٢٢٩).

(٥) البيهقي ٢: ٤٥٤.

(٦) المصدر: ٤٥٢ ـ ٤٥٣.

(٧) البخاري ١: ١٤٥.

[٤٨٨٣/٢] وعنه عن معبد الجُهَني قال: خطب معاوية فقال: ألا، ما بال أقوام يصلّون صلاةً، لقد صحبتُ رسول الله ﷺ فما رأيناه يصلّيها، وقد سمعناه ينهى عنها يعني الركعتين بعد العصر[١].

[٤٨٨٤/٢] ورووا عن ابن عبّاس أنّه قال: كنتُ أضرب الناس مع عمر بن الخطّاب على الركعتين بعد العصر[٢].

[٤٨٨٥/٢] ورووا عنه أيضاً أنّه قال: لقد رأيتُ عمر بن الخطّاب يضرب الناس على الصلاة بعد العصر، ثمّ قال ابن عبّاس: صلّ إن شئت ما بينك وبين أن تغيب الشمس[٣].

قال ابن حزم الأندلسي: هم يقولون في الصاحب يروي الحديث ثمّ يخالفه: لولا أنّه كان عنده علم بنسخه، ما خالفه، فيلزمهم أن يقولوا هاهنا: لولا أنّه كان عند ابن عبّاس علمٌ أثبت من فعل عمر، ما خالف ما كان عليه عمر.

[٤٨٨٦/٢] قال: وروينا بالإسناد إلى شعبة عن أبي شعيب عن طاووس قال: سُئل ابن عمر عن الركعتين بعد العصر؟ فرخّص فيهما![٤]

قال: هلّا قالوا: إنّ ابن عمر لم يكن ليخالف أباه لولا فضلُ علم كان عنده أثبتُ من فعل أبيه![٥]

قال: وقالوا: قد كان عمر يضرب الناس على الصلاة بعد العصر، وابن عبّاس معه.. قلنا: لا حجّة في أحدٍ دون رسول الله ﷺ، لا في عمر ولا في غيره، بل هو ﷺ الحجّة على عمر و غيره.

قال: وقد خالف عمر في ذلك طوائف من الصحابة.

[٤٨٨٧/٢] روى بالإسناد إلى عروة بن الزبير عن تميم الداري أنّه ركع ركعتين بعد العصر، فأتاه عمر فضربه بالدرّة! فأشار إليه تميم: أن اجلس فجلس عمر حتّى فرغ تميم، فقال لعمر: لِمَ ضربتني؟ فقال له عمر: لأنّك ركعتَ هاتين الركعتين وقد نهيتُ عنهما! فقال له تميم: إنّي قد صلّيتهما مع من هو خير منك: رسول الله ﷺ! فاعتذر إليه عمر في كلام رقيق.

[٤٨٨٨/٢] وعن زيد بن خالد الجُهَني: أنّ عمر رآه يصلّي بعد العصر ركعتين ـ وعمر خليفةٌ ـ فضربه بالدرّة وهو يصلّي كما هو! فلمّا انصرف قال له زيد: يا أمير المؤمنين، فوالله لا أدعهما أبداً

---

(١) البيهقي ٢: ٤٥٣.
(٢) المصدر: ٤٥٧.
(٣) المحلّى لابن حزم ٢: ٢٧٥.
(٤) المصدر.
(٥) المصدر ٣: ٢.

بعد إذ رأيتُ رسول الله ﷺ يصلّيهما! فجلس إليه عمر واعتذر له كما اعتذر لتميم الداري[١].

[٤٨٨٩/٢] قال ابن حزم: وروينا عن عبدالرزّاق عن ابن جُرَيج عن عطاء بن أبي رباح: أنّ عائشة وأمّ سَلَمة كانتا تركعان ركعتين بعد العصر.

[٤٨٩٠/٢] وبالإسناد إلى سعيد بن جُبَير قال: كانت عائشة تصلّي ركعتين بعد العصر وهي قائمة. وكانت ميمونة تصلّي أربعاً وهي قاعدة. فسُئلت عن ذلك، فقالت عن عائشة: إنّها شابّة وأنا عجوز، فأصلّي أربعاً بدل ركعتيها.

[٤٨٩١/٢] وروى هشام عن أبيه عروة قال: كان الزبير وعبدالله ابنه يصلّيان بعد العصر ركعتين.

[٤٨٩٢/٢] وعن عبدالرزّاق عن معمر عن هشام قال: كنّا نصلّي مع ابن الزبير العصر في المسجد الحرام، فكان يصلّي بعد العصر ركعتين، وكنّا نصلّيهما معه.

[٤٨٩٣/٢] وعن السائب بن يزيد قال: سبّح المنكدر[٢] بعد العصر فضربه عمر!

قال ابن حزم: السائب والمنكدر صاحبان لرسول الله ﷺ[٣]

[٤٨٩٤/٢] وعن طاووس قال: إنّ أبا أيّوب الأنصاري كان يصلّي قبل خلافة عمر ركعتين بعدالعصر، فلمّا استخلف عمر تركهما، فلمّا توفّي عمر ركعهما! فقيل له: ما هذا؟ فقال: إنّ عمر كان يضرب الناس عليهما!

قال ابن حزم: في هذا الحديث بيان واضح أنّ أبابكر وعثمان كانا يُجيزان الركوع بعد العصر!

[٤٨٩٥/٢] وعن عاصم بن ضمرة قال: إنّ عليّ بن أبي طالب ﷺ كان في سفر فصلّى العصر، ثمّ دخل فسطاطه فصلّى ركعتين.

[٤٨٩٦/٢] وعن شعبة عن أبي إسحاق السَّبيعي قال: سألتُ أبا جُحَيفة[٤] عن الركعتين بعد العصر؟ فقال: إن لم ينفعاك لم يضرّاك!

---

(١) المصدر ٢: ٢٧٤ ـ ٢٧٥.

(٢) هو المنكدر بن عبدالله بن الهدير التميمي ذكره الطبراني وغيره في الصحابة. وذكره ابن حجر في القسم الأوّل من حرف الميم ٣: ٤٦٤ / ٨٢٤٥.

(٣) المحلّى ٣: ٢ ـ ٣.

(٤) هو وهب بن عبدالله السُّوائي، قدم على النبيّ ﷺ في أواخر عمره وحفظ عنه ثمّ صحب عليّاً ﷺ وولّاه شرطة الكوفة. وكان عليّ ﷺ يسمّيه: وهب الخير. مات سنة ٦٤ (الإصابة ٣: ٦٤٢ / ٩١٦٦).

[٤٨٩٧/٢] وعن جُبَير بن نُفَير قال: كتب عمر إلى عُمير بن سعد[1] ينهاه الركعتين بعد العصر، فقال أبو الدرداء[2]: أمّا أنا فلا أتركهما، فمن شاء أن ينحضج فلينحضج!

(يقال: انحضع الرجل، إذا التهب غضباً واتّقد من الغيظ وأيضاً، انحصح: ضرب بنفسه الأرض غيظاً)

فقوله: «فمن شاء ينحضج فلينحضج» أي يتّقد من الغيظ وينشقّ انشقاقاً![3]

[٤٨٩٨/٢] وعن أنس بن سيرين قال: خرجت مع أنس بن مالك إلى أرضه ببذق سيرين، وهي رأس خمسة فراسخ، فحضرت صلاة العصر، فأمّنا قاعداً على بساط السفينة، فصلّىٰ بنا ركعتين، ثمّ سلّم. ثمّ صلّى ركعتين.

وقد أطال ابن حزم في الردّ على زاعمي المنع من التنفّل بعد العصر، وعدّد أكابر الصحابة ممّن كانوا يأتون به، وكذا أمّهات المؤمنين: عائشة وأمّ سلمة وميمونة وهكذا كبار التابعين وعدّدهم، ومن ثمّ لم يعبه بما رووه في المنع، لضعف السند ولقصور دلالتها على التحريم، فيما فصّله من الكلام فيها، وقال أخيراً: وبه نأخذ[4] أي بما عمل به هؤلاء الأعلام.

* * *

[٤٨٩٩/٢] وزيادةً على ما سبق نورد ما أخرجه البخاري ـ في الصحيح ـ عن عبدالرحمان بن الأسود عن أبيه عن عائشة قالت: ركعتان لم يكن رسول الله ﷺ يدعهما سرّاً ولا علانيةً: ركعتان قبل صلاة الصبح وركعتان بعد العصر.

[٤٩٠٠/٢] وعن هشام بن عروة عن أبيه عروة بن الزبير قال: قالت عائشة: ابن أختي، ما ترك النبيّ ﷺ السجدتين بعد العصر عندي قطُّ.

[٤٩٠١/٢] وعن شعبة عن أبي إسحاق قال: رأيت الأسود ومسروقاً شهدا على عائشة قالت: ما كان النبيّ ﷺ يأتيني في يوم بعد العصر إلّا صلّى ركعتين[5].

---

(١) هو عُمَير بن سعد الأنصاري الأوسي، صحابي وشهد فتوح الشام واستعمله عمر على حمص، وكان معجباً به وكان يسمّيه نسيج وحده. وكان عمر يتمنّى أن يكون له رجال مثل عُمَير يستعين بهم على أمور المسلمين.

(٢) الصحابيّ الكبير نزل الشام وتوفّي بها.

(٣) لسان العرب ٢: ٢٣٨.

(٤) المحلّى ٣: ٣ـ٧.

(٥) البخاري ١: ١٤٦ـ١٤٧.

[٤٩٠٢/٢] وكذا أخرج مسلم في الصحيح عن عروة عن عائشة قالت: ما ترك رسول الله ﷺ ركعتين بعد العصر عندي قطّ.

[٤٩٠٣/٢] وعن عبدالرحمان بن الأسود عن أبيه عن عائشة قالت: صلاتان ما تركهما رسول الله ﷺ في بيتي قطّ سرّاً ولا علانيةً: ركعتين قبل الفجر وركعتين بعد العصر.

[٤٩٠٤/٢] وعن الأسود ومسروق قالا: نشهد على عائشة أنّها قالت: ما كان يومه الّذي كان يكون عندي إلّا صلّاهما رسول الله ﷺ في بيتي، تعني الركعتين بعد العصر.

[٤٩٠٥/٢] وذكر عن أنس أنّ عمر كان يضرب الأيدي على صلاةٍ بعد العصر[1].

تعليل عليل

نعم، يُستغرب القول بأنّ الشمس تطلع وتغرب بين قرني شيطان، لو أريد ظاهر التعبير ولم يكن هناك تأويل معقول! إذ كيف يمكن القول بذلك، مع العلم بأنّ طلوعها وغروبها أمر نسبيٌّ، يحصل في كلّ آنات حركتها الدوريّة الظاهريّة حول الأرض، وبتعبير أدقّ: كانت حركة الأرض الوضعيّة حول محورها المائل، هي الّتي تجعل الشمس في عين الرائي طالعة وغاربة حسب مختلف الآفاق. فطلوعها عند قوم غروب عند آخرين، وهكذا على مرّ الآنات والدقائق وعلى استمرار ودوام. وعليه فالشيطان ـ على ضعف مقدرته ـ قد سخر من بني آدم العائشين على وجه البسيطة، سخريّة تداومت حسب آفات حياتهم على طول الدهر!!

والأغرب نسبة ذلك إلى مثل رسول الإسلام ﷺ وحاشاه من عظيم حكيم!

كما ونُسب أيضاً إلى الأفذاذ من عترته الطيّبين وحاشاهم من عظماء أعلام!

[٤٩٠٦/٢] روي بطريق فيه جهالة أنّ رجلاً سأل الإمام أبي عبدالله ؑ: عن الّذي يُروى عن أبيه الإمام أبي جعفر ؑ بأنّ الشمس تطلع بين قرني شيطان؟ قال: «نعم، إنّ إبليس اتّخذ عرشاً بين السماء والأرض، فإذا طلعت الشمسُ وسجد الناسُ في ذلك الوقت، قال إبليس لشياطينه: إنّ بني آدم يصلّون لي!!»[2]

---

(١) مسلم ٢: ٢١١ـ٢١٢.

(٢) الكافي ٣: ٢٩٠/ ٨. والمروي عن أبي جعفر ؑ في: ١٨٠/ ٢.

ولعلّ راقم الأسطورة حسب من الأرض بسيطة غير كريّة، وإلّا لكان عليه أن يفترض لإبليس عروشاً متتالية إلى مالايُحصىٰ حسب آنات حركة الأرض الدوريّة!!

ومن ثمّ ورد استنكاره من الناحية المقدّسة:

[٤٩٠٧/٢] روى ابن بابويه الصدوق عن محمّد بن أحمد الشيباني، وعليّ بن أحمد بن محمّد الدقّاق، والحسين بن إبراهيم بن أحمد بن هشام المؤدّب، وعليّ بن عبدالله الورّاق جميعاً، قالوا: حدّثنا أبو الحسين محمّد بن جعفر الأسدي قال: كان فيما ورد عَلَيَّ من الشيخ أبي جعفر محمّد بن عثمان العُمَري، في جواب مسائلي إلى صاحب الزمان ـ عجّل الله تعالى فرجه الشريف ـ:

«أمّا ما سألت عنه من الصلاة عند طلوع الشمس وعند غروبها؛ فلئن كان كما يقولون: إنّ الشمس تطلع بين قرني الشيطان وتغرب بين قرني الشيطان، فما أرغم أنف الشيطان أفضل من الصلاة، فصلّها وارغم أنف الشيطان!»[1].

ورواه ـ في الفقيه[2] ـ عن جماعة من مشايخه ـ ممّن عدّدناهم ـ عن أبي الحسين الأسدي الرازي أحد الأبواب ومن المشايخ العظام، ثقة صحيح الحديث[3]. وكذلك المشايخ، فقد ارتضاهم الصدوق وترضّى لهم.

هذا فضلاً عن اعتلاء محتواه بما يوافق المعقول.

ومن ثمّ اعتبره الصدوق سنداً قويّاً للردّ على مزعومة الخلاف، ورجّحه على روايات المنع[4]. وكذلك الشيخ أخذه دليلاً معتبراً على الرخصة، تجاه دلائل المنع[5].

[٤٩٠٨/٢] روى الصدوق بالإسناد إلى عبدالرحمان بن الأسود عن أبيه عن عائشة قالت: صلاتان لم يتركهما رسول الله ﷺ سرّاً وعلانية: ركعتين بعد العصر وركعتين قبل الفجر.

[٤٩٠٩/٢] وبالإسناد إلى عبدالواحد بن أيمن عن أبيه أنّه دخل على عائشة يسألها عن الركعتين بعد العصر؟ قالت: والّذي ذهب بنفسه (تعني رسول الله ﷺ) ما تركهما حتّى لقى الله ﷻ.

---

(١) كمال الدين وتمام النعمة ٢: ٥٢٠ / ٤٩، باب ٤٥.

(٢) الفقيه ١: ٣١٥ / ٤. وهكذا رواه الشيخ في التهذيب ٢: ١٧٥ / ١٥٥، واعتبره سنداً للرخصة. وأورده الطبرسي في كتاب الاحتجاج ٢: ٢٩٨؛ الوسائل ٤: ٢٣٦ / ٨.

(٣) معجم رجال الحديث ١٦: ١٧٦ / ١٠٤١١.

(٤) الخصال ١: ٧١ ـ ٧٢.

(٥) تهذيب الأحكام ٢: ١٧٥.

[٤٩١٠/٢] وعن مسروق عن عائشة: كان رسول الله ﷺ عندي يصلّي بعد العصر ركعتين.

[٤٩١١/٢] وبالإسناد إلى أبي جمرة[١] عن أبي بكر بن عبدالله عن أبيه قال: قال رسول الله ﷺ «من صلّى البَرْدَيْن دخل الجنّة».[٢] قال الصدوق: يعنى بعد الغداة وبعد العصر[٣].

قال ابن الأثير: البَرْدَيْن والأَبْرَدَيْن: الغداة والعشيّ. وقيل: ظلّهما[٤].

ومن ثمّ فسّرهما الصدوق بركعتين بعد الغداة وركعتين بعد العصر.

وفسّرهما بعضُهم بفريضتي الفجر والعصر!

[٤٩١٢/٢] روى مسلم بالإسناد إلى قيس بن أبي حازم قال: سمعت جرير بن عبدالله وهو يقول: كنّا جلوساً عند رسول الله ﷺ إذ قال: «إن استطعتم أن لاتُغْلَبوا على صلاة قبل طلوع الشمس وقبل غروبها» قال جرير: يعني الفجر والغداة. ثمّ قرأ: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ﴾[٥].

لكن، لا الفجر قبل طلوع الشمس، ولا العصر قبل الغروب. بل صلاة الفجر عند طلوع الفجر الّذي هو مبدأ الوقت، لا قبل طلوع الشمس الّذي هو آخر الوقت. في حين نعلم أنّ الصلاة المندوب إليها هي الّتي تقع أوّل الوقت لا آخره. فإنّ الصلاة في أوّل وقتها رضوان الله، وفي آخر وقتها عفو الله[٦]، بمعنى أنّها بمثابة التوبة والاستغفار لما فرط منه، فيعفو عنه ذنبه والله عَفُوٌّ غفور.

إذن لا معنى للندب إلى إيقاع الفريضة في آخر وقتها، إبّان طلوع الشمس.

وكذا فريضة العصر يبدأ وقت فضيلتها بامتداد الظلّ أربعة أقدام، وينتهي بمقدار أدائها. ثمّ بعد ذلك يمتدّ وقتها إلى سقوط القرص. فوقت فضيلتها المندوب إليها، قبل الغروب بساعات.

فالصحيح الموافق لظاهر التعبير هو تفسير الصدوق بِبَعْدِ الغداة وبعد العصر.

قال الصدوق ـ بعد أن أورد الأحاديث الآنفة ـ: كان مرادي بإيراد هذه الأخبار، الردّ على

---

(١) هو نصربن عمران الضُبَعي البصري نزيل خراسان. يروي عن أبي بكر بن أبي موسى الأشعري. واسم أبي بكر: عمرو. واسم أبي موسى: عبدالله بن قيس بن سليم.

(٢) مسلم ٢: ١١٤.

(٣) الخصال ١: ١٠٨/٧١.

(٤) النهاية ١: ١١٤؛ اللسان ٣: ٨٤.

(٥) سورة ق ٥٠: ٣٩. وقرأها جرير ـ كما في صحيح مسلم ـ: قبل غروبها.

(٦) كما في الحديث عن الإمام جعفر بن محمّد الصادق ﷺ (دعائم الإسلام ١: ١٣٧)؛ البحار ٨٠: ٢٥/٤٧؛ و ٧٩: ٢٣/٣٥١.

المخالف الّذي لايرى بعد الغداة وبعد العصر صلاةً! قال: فأحببتُ أن أبيّن أنّ أمثال هؤلاء قد خالفوا النبيّ ﷺ في قوله وفعله![1]

* * *

[٤٩١٣/٢] وهكذا روى الشيخ بالإسناد إلى محمّدبن الفرج صاحب الرضا عليه السلام قال: كتبتُ إلى العبد الصالح الإمام أبي الحسن موسى بن جعفر عليه السلام أسأله عن مسائل، فكتب إليّ: «وصَلِّ بعد العصر من النوافل ما شئت، وصَلِّ بعد الغداة من النوافل ما شئت»[2].

هذا، مضافاً إلى ما ورد من جواز قضاء النوافل في ذينك الوقتين.

[٤٩١٤/٢] روى الشيخ بإسناده إلى عبدالله بن يعفور عن أبي عبدالله عليه السلام في قضاء صلاة اللّيل والوتر تفوت الرجل، أيقضيها بعد صلاة الفجر وبعد العصر؟ قال: «لابأس بذلك»[3].

[٤٩١٥/٢] وعن جميل بن درّاج قال: «سألت أبا الحسن موسى بن جعفر عليه السلام عن قضاء صلاة اللّيل بعد الفجر إلى طلوع الشمس؟ قال: نعم، وبعد العصر إلى اللّيل، فهو من سرّ آل محمّد ﷺ المخزون»[4].

[٤٩١٦/٢] وعن سليمان بن هارون قال: سألتُ أبا عبدالله عليه السلام عن قضاء الصلاة بعد العصر؟ قال: «نعم، إنّما هي النوافل، فاقضها متى شئت!»[5].

* * *

والمتحصّل ممّا سلف أنّ دليل المنع، من حيث اشتماله على تعليل عليل[6]، لايقاوم دليل الجواز، المتوافق مع الأصل[7]، ولظاهر القرآن الكريم[8]. فلا يصلح مستنداً في مسرح الفقاهة

---

(١) الخصال ١: ٧١ـ ٧٢ / ١٠٨، باب الاثنين.

(٢) التهذيب ٢: ١٧٣ / ٦٨٨ـ ١٤٦؛ الوسائل ٤: ٢٣٥ / ٥٠٢٠ ـ ٥.

(٣) التهذيب ٢: ١٧٣ / ٦٨٧.

(٤) المصدر / ٦٨٩.

(٥) التهذيب ٢: ١٧٣ / ٦٩٠.

(٦) حيث لا يقبله عقل سليم ولاشرع حكيم.

(٧) أصل الجواز فيما لا دليل قاطعاً على المنع. مضافاً إلى الإطلاق والعموم في أدلّة العبادات.

(٨) حيث قوله تعالى: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ﴾. (سورة ق ٥٠: ٣٩ـ ٤٠). وقد أسلفنا الآيات بهذا الشأن، ونبّهنا: أنّهم عبثاً حاولوا تأويلها إلى صلاتي الفجر والعصر!؟

والاستنباط.

وقد أكثر الثقةُ الجليلُ أبو جعفر محمّدبن عليّ بن النعمان المعروف بمؤمن الطاق، في كتابه «إفعل ولاتفعل» من التشنيع على العامّة في روايتهم ذلك عن النبيّ ﷺ قال: إنّهم كثيراً ما يُخبرون عن النبيّ ﷺ بتحريم شيء وبعلّة التحريم، وتلك العلّة خطأ لايجوز أن ينطق بها النبيّ ﷺ ولا يُحرّمُ الله من قِبَلها شيئاً. فمن ذلك ما أجمعوا عليه من النهي عن الصلاة في وقتين، عند طلوع الشمس وعند الغروب، فلولا أنّ علّة النهي: أنّها تطلع وتغرب بين قرني الشيطان، لكان ذلك جائزاً. لكن، فإذكان آخر الحديث موصولاً بأوّله، وكان آخره فاسداً، كان ذلك موجباً لفساد الجميع. قال: وهذا[١] جهل من قائله، والأنبياء لاتجهل.. قال: فلمّا بطلت هذه الرواية بفساد آخر الحديث، ثبت أنّ التطوّع جائز في الوقتين[٢].

والقول بالتفصيل

كما لامجال للقول بالتفصيل بين النوافل المبتدأة وغيرها من ذوات الأسباب[٣]، بعد عموم التعليل، لو اعتبرناه!

نظراً لأنّ إبليس، لو كان له أن يعبث بصلاة المصلّين حينذاك، فإنّه لايُفرِّق بين صلاةٍ وصلاةٍ، وقد ثبت في الأصول: أنّ التعليل يُعمّم ويخصّص[٤].

ذكر المحقّق صاحب الشرائع أنّ النوافل المبتدأة تكره عند طلوع الشمس وعند غروبها[٥].

[٤٩١٧/٢] واستدلّ له صاحب الجواهر بما رواه محمّد بن مسلم عن الباقر عليه السلام بشأن الصلاة على الجنائز في كلّ ساعة وأنّها جائزة، حيث إنّها ليست بصلاة ذات ركوع وسجود، وإنّما تُكره الصلاة

---

(١) أي تعليل التحريم بطلوع الشمس وغروبها بين قرني الشيطان.

(٢) نقله المحقق السيّد العاملي في مدارك الأحكام ٣: ١٠٨ ـ ١٠٩؛ وكذا الفاضل الهندي في كشف اللثام ٣: ٩٠ ـ ٩١، ولكن ناسباً له إلى المفيد. وهو سهو منه.

(٣) كصلاة التحيّة وصلاة الطواف والزيارة وصلاة يوم الغدير ونحوها.

(٤) كما إذا قيل: لا تأكل الرمّان، لأنّه حامض. فإنّه يخصّص الحكم بالحامض منه. أو قيل: لاتشرب الخمر، لأنّه مسكر. فإنّه يعمّم الحكم لكلّ مسكر بالذات.

(٥) شرائع الإسلام ١: ٦٤، المسألة الخامسة.

عند طلوع الشمس وعند غروبها، الّتي فيها الخشوع والركوع والسجود، لأنّها تغرب بين قرني شيطان وتغرب بين قرني شيطان[١].

[٢/ ٤٩١٨] وبمرسل إبراهيم بن هاشم عن الصادق عليه السلام: «إنّ إبليس اتّخذ عرشاً بين السماء والأرض، فإذا طلعت الشمس وسجد في ذلك الوقت الناسُ، قال إبليس لشياطينه: إنّ بني آدم يُصلّون لي!»[٢].

[٢/ ٤٩١٩] وبحديث المناهي: «نهى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عن الصلاة عند طلوع الشمس وعند غروبها وعند قيامها ـ وفي نسخة ـ عند استوائها»[٣].

وغيرها من روايات جاء النهي فيها منوطاً بتلبيس إبليس[٤].

وهذا ـ كما ترى ـ لا يخصّ المبتدأة أي المتطوّع بها، بل يعمّ كلّ صلاة صلّاها المصلّي حينذاك، فإنّ الشيطان ـ حسب زعمهم ـ يزمّر له ويطبّل ويحسبها سجوداً له، أيّاً كانت الصلاة!

فالأولى نبذ تلكم الروايات رأساً، نظراً للعلّة الموهنة، كما عرفت.

* * *

قال الشيخ: إنّ أصحابنا لا يختلفون في جواز الصلوات ذوات الأسباب في هذه الأوقات. وإنّما منهم من يزيد على ذلك ويجوّز الصلاة الّتي لا سبب لها، فيها[٥].

وقال السيّد صاحب العروة ـ بعد أن ذكر الأوقات الّتي قالوا بكراهة التنفّل فيها ـ: «وعندي في ثبوت الكراهة في المذكورات إشكال»[٦].

قال سيّدنا الأستاذ الإمام الخوئي في الشرح ـ بعد أن ذكر حديث تلبيس إبليس ـ: ما معنى أنّ الشمس تطلع بين قرني شيطان وتغرب بين قرني شيطان؟! فهو تعليل بأمر غير معقول في نفسه، وهو أشبه بمفتعلات المخالفين، لاستنكارهم الصلاة في الأوقات الثلاثة، مُعَلّلاً له بهذا الوجه العليل! فلا مناص من حمل الحديث على ضرب من التعريض، ولا مجال للاستدلال به على وجهٍ!

(١) الوسائل ٣: ١٠٨/ ٢، باب ٢٠.
(٢) المصدر ٤: ٢٣٥/ ٤، باب ٣٨.
(٣) المصدر: ٢٣٦/ ٦، باب ٣٨.
(٤) جواهر الكلام ٧: ٢٨٢ ـ ٢٨٣.
(٥) كتاب الخلاف ١: ٥٢١، م: ٢٦٣.
(٦) العروة الوثقى ١: ٣٨٢ (ط ١٤١٤ ق)، أوقات الرواتب م: ١٨.

ثمّ على فرض الاستناد، فلا وجه للتفصيل بعد عموم التعليل وأنّ المنهيّ هو ما اشتمل على السجود والخشوع، وهو عام في مطلق الصلوات[١].

تأويلات فارغة

وقد حاول البعض تأويل تلكم التعاليل، فما أسفّوا منه بشيء:

قال الحافظ أبو زكريّا النووي: قيل: المراد بقرني الشيطان حزبُه وأتباعُه. وقيل: قوّتُه وغلبتُه وانتشار فساده. وقيل: القرنان ناحيتا الرأس، وأنّه على ظاهره. قال: وهذا هو الأقوى. قالوا: ومعناه: أنّه يُدني رأسه إلى الشمس في هذه الأوقات، ليكون الساجد لها من الكفّار كالساجدين له في الصورة، وحينئذٍ يكون له ولبنيه تسلّطٌ ظاهر وتمكّنٌ من أن يُلبّسوا على المصلّين صلاتهم. فكُرِهت الصلاة حينئذٍ صيانةً لها، كما كُرِهت في الأماكن الّتي هي مأوى الشيطان[٢].

وقال ابن الأثير: وفيه: «الشمس تطلع بين قَرْنَي الشيطان» أي ناحيتي رأسه وجانبيه. وقيل: القرن: القوّة، أيّ حين تطلع الشمس يتحرّك الشيطان ويتسلّط، فيكون كالمعين لها. وقيل: بين قرنيه، أي أُمّتيه الأوّلين والآخرين. قال: وكلّ هذا تمثيل لمن يسجد للشمس عند طلوعها، فكأنّ الشيطان سوّل له ذلك، فإذا سجد لها كان كأنّ الشيطان مقترن بها[٣].

قلت: لم يكن المصلّي حينذاك متّجهاً إلى الشمس لامُشرِّقاً ولا مُغرِّباً، ليتمّ قياسه بعبدة الشمس. بل يصلّي متّجهاً إلى الكعبة واضعاً قرص الشمس على أحد طرفيه. فهذا قياس مع الفارق!

* * *

وقال الطيّبي في شرح المشكاة: فيه وجوه: أحدها، أنّه ينتصب قائماً في وجه الشمس عند طلوعها، ليكون طلوعها كالمعين لها بين قرنيه أي فَوْديه[٤] فيكون مستقبلاً لمن يسجد للشمس، فتصير عبادتهم له. فنهوا عن الصلاة في ذلك الوقت، مخالفة لعبدة الشيطان.

---

(١) التنقيح في شرح العروة، بقلم الغروي التبريزي ٦: ٥٣٦ و ٥٣٩ (ج ١ من كتاب الصلاة).

(٢) النووي بشرح مسلم ٦: ١١٢.

(٣) النهاية ٤: ٥٢ (مادّة قَرَنَ).

(٤) الفَوْد: جانب الرأس ممّا يلي الأذنين إلى الأمام.

وثانيها: أن يُراد بقرنيه حزباه اللّذان يبعثهما لإغواء الناس.

وثالثها: أنّه من باب التمثيل، شُبِّه الشيطانُ فيما يُسَوِّل لعَبَدَةِ الشَّمْس ويدعوهم إلى معانَدَةِ الحقّ، بذوات القرون الّتي تُعالج الأشياء وتُدافعها بقرونها.

ورابعها: أن يُراد بالقرن القوّة، من قولهم: أنا مُقرن له أي مُطيق.[١] ومعنى التثنية تضعيف القوّة[٢]، كما يقال: مالي بهذا الأمر يدٌ ولا يدان، أي لاقدرة ولا طاقة[٣].

وقال السيّد الجواد العاملي: وقد ذُكر لهذه العلّة ـ أعني طلوع الشمس وغروبها بين قرني الشيطان، معاني أربعة. الأوّل: أنّ القرن، القوّة. والتثنية لتضعيفها. الثاني: أنّ قرنيه، حزباه اللّذان يبعثهما لإغواء الناس. الثالث: أنّه يقوم في وجه الشمس حتّى تطلع أو تغرب بين قرنيه، مستقبلاً لمن يسجد للشمس. الرابع: تمثيلُ تسويلِ الشيطان لعبدة الشمس ودعائهم إلى مدافعة الحقّ، بمدافعة ذوات القرون ومعالجتها بقرونها[٤].

وقال العراقي في شرح التقريب[٥]: اختلفوا في معنى الحديث، فقيل: المراد، مقارنة الشيطان للشمس عند طلوعها وغروبها. وقيل: المراد، قوّة وسوسة الشيطان للعبد وتسويله له.

وقيل: وقوف الشيطان للشمس عند طلوعها، فيقابلها بين قرني رأسه، فينقلب سجود الكفّار للشمس عبادةً له.

وقال القاضي عياض: المراد من قرني الشيطان على الحقيقة، كما ذهب إليه الداوودي. وعند غروبها، يريد السجود لله تعالى، فيأتي شيطان فيصدّه، فتغرب بين قرني رأسه، وهكذا عند الطلوع.

وقال الخطّابي: قرنه عبارة عن مقارنته لها.

وقيل: المراد، التمثيل بذوات القرون، فكما أنّها تدافع عمّا يريدها بقرونها، كذلك الشيطان يدافع عن وقتها بما يزيّنه للإنسان[٦].

---

(١) يقال: أقرن للأمر: أطاقه وقوي عليه. ومنه قوله تعالى: ﴿وماكنّا له مقرنين﴾ (الزخرف ٤٣: ١٣) أي مطيقين.

(٢) أي مضاعفتها.

(٣) راجع: البحار ٨١: ١٤٦ ـ ١٤٧، وكشف اللثام ٣: ٩١، والجواهر ٧: ٢٨٩.

(٤) مفتاح الكرامة ٢: ٥٠، مؤسسة آل البيت.

(٥) طرح التثريب في شرح التقريب لزين الدين عبدالرحيم العراقي ٢: ١٩٥. (هامش التنقيح ٦: ٥٣٦).

(٦) راجع: هامش التنقيح للغروي ٦: ٥٣٦ ـ ٥٣٧.

إلى غيرها من تكلّفاتٍ باهتة لاترجع إلى محصَّلٍ معقولٍ. والعجبُ من بعض الأعلام حيث يمرّ على تلكم السفاسف مرور الكرام، ويقول غير مكترثٍ بها: والأمر سهل؟![1]

* * *

كما وأخرج البخاري حديث قرني الشيطان، في كتاب بدء الخلق، باب صفة إبليس وجنوده[2]:

[٢/ ٤٩٢٠] قال: أخبرنا عَبْدة (يعني: ابن سليمان)[3] عن هشام بن عروة عن أبيه عن عبدالله بن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا طلع حاجب الشمس، فدعوا الصلاة حتّى تبرز. وإذا غاب حاجب الشمس، فدعوا الصلاة حتّى تغيب. ولاتحيّنوا[4] بصلاتكم طلوعَ الشمس ولا غروبَها، فإنّها تطلُع بين قرني شيطان» وفي رواية: «الشيطان»[5].

قال ابن حجر في الشرح: حاجب الشمس هو طرف قرصها الّذي يبدو عند طلوع الشمس ويبقى عند الغروب. وقرنا الشيطان: جانبا رأسه. يقال: إنّه ينتصب في محاذاة مطلع الشمس، حتّى إذا طلعت كانت بين جانبي رأسه، لتقع السجدة له إذا سجد عَبَدةُ الشمس لها، وكذا عند غروبها. قال: وعلى هذا فقوله: تطلع بين قرني الشيطان، أي بالنسبة إلى من يُشاهد الشمس عند طلوعها، فلو شاهد الشيطان لرآه منتصباً عندها![6]

وهذا أيضاً تأويل لايرجع إلى محصَّل.

قوله تعالى: ﴿وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ﴾

فقد جعل الله الصوم للمسافر والمريض في أيّام أُخر، لكي يتمكّن المعذور من صوم رمضان، أن يكمله أي يتدارك عدّة ما تعذّره فيصوم بقدرها في أيّام أُخر.

[٢/ ٤٩٢١] وهكذا أخرج ابن جرير عن الضحّاك قال: ﴿وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ﴾ أي عدّة ما أفطر المريض والمسافر[7].

---

(١) راجع: جواهر الكلام ٧: ٢٩٢.

(٢) البخاري ٤: ٩٢.

(٣) فتح الباري ٢: ٤٩.

(٤) تحيّن لكذا: ترصّد له.

(٥) البخاري ٤: ٩٢.

(٦) فتح الباري ٦: ٢٤٠.

(٧) الطبري ٢: ٢١٣/ ٢٣٧٦.

[٤٩٢٢/٢] وأخرج أيضاً عن ابن زيد قال: إكمال العدّة، أن يصوم ما أفطر من رمضان في سفر أو مرض، إلى أن يتمّه، فإذا أتمّه فقد أكمل العدّة(١).

[٤٩٢٣/٢] وكذا قال الفرّاء: معنى الآية: ولتكملوا العدّة في قضاء ما أفطرتم(٢).

وهناك روايات فسّرت الآية باكتمال شهر رمضان ثلاثين يوماً أبداً.

[٤٩٢٤/٢] روى أبو النضر محمّد بن مسعود العيّاشيّ بالإسناد إلى ابن أبي عمير عن رجلٍ قال: قلت لأبي عبدالله عليه السلام: جعلت فداك، ما يتحدَّثُ به عندنا: أنّ النبيّ ﷺ صام تسعة وعشرين أكثر ممّا صام ثلاثين، أحقّ هذا؟ قال: «ما خلق الله من هذا حرفاً، ما صامه النبيّ ﷺ إلّا ثلاثين، لأنّ الله ـ تعالى ـ يقول: ﴿وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ﴾ أفكان النبيّ ينقصه؟!»(٣)

[٤٩٢٥/٢] وأخرج البخاري بالإسناد إلى خالد الحذّاء عن عبدالرحمان بن أبي بَكْرَة عن أبيه عن النبيّ ﷺ قال: «شهران لاينقصان، شهرا عيدٍ: رمضانُ وذو الحجّة»(٤).

[٤٩٢٦/٢] وهكذا رواه مسلم في الصحيح عنه ﷺ قال: «شهرا عيد لاينقصان: رمضانُ وذوالحجّة»(٥).

[٤٩٢٧/٢] وأخرج أحمد بالإسناد أيضاً إلى خالد الحذّاء عن عبدالرحمان بن أبي بَكْرة عن أبيه، قال: أحسبه عن النبيّ ﷺ قال: «شهرانِ لاينقصانِ، شهرا عيدٍ: رمضانُ وذوالحجّة»(٦).

وأخرجه أبو داوود عن خالد عن ابن أبي بكرة عن أبيه عن النبيّ ﷺ كذلك(٧).

وهكذا ابن ماجة بنفس الإسناد(٨).

[٤٩٢٨/٢] وأخرج الترمذي أيضاً بنفس الإسناد عنه ﷺ قال: «شهرا عيدٍ لاينقصان: رمضان وذو الحجّة»(٩).

---

(١) المصدر / ٢٣٧٧.
(٢) الوسيط ١: ٢٨٢؛ معاني القرآن ١: ١١٣.
(٣) العيّاشيّ ١: ١٠١ / ١٩٥؛ البحار ٩٣: ٢٩٩ / ١١، باب ٣٧؛ البرهان ١: ٤٠٣ / ٧؛ نورالثقلين ١: ١٧٠.
(٤) البخاري ٢: ٢٣٠، باب ١٢ (شهرا عيدٍ لاينقصان).
(٥) مسلم ٣: ١٢٧، باب معنى قوله ﷺ: (شهرا عيدٍ لاينقصان).
(٦) مسند أحمد ٥: ٣٨ و ٤٧ ـ ٤٨ و ٥١.
(٧) أبو داوود ٢: ٢٩٧ / ٢٣٢٣.
(٨) ابن ماجة ١: ٥٠٩، باب ٤٨١.
(٩) الترمذي ٣: ٧٥ / ٦٩٢، باب ٨، من كتاب الصوم.

قلت: ومن غريب الاتّفاق أنّ روايات كمال الشهرين ينحصر طريق أسانيدها برواية خالد بن مِهران الحذّاء عن عبدالرحمان بن أبي بَكْرة عن أبيه.

كما أنّ ما ورد في رواياتنا ينتهي إسنادها ـ حسبما ذكره الشيخ في التهذيب[1] ـ في الحسن بن حذيفة بن منصور عن أبيه عن معاذ بن كثير. وسنذكرها.

الأمر الّذي يجب التريّث لديه:

أمّا خالد بن مهران الحذّاء، فقد توقّف فيه أئمّة النقد والتمحيص، قال أبو حاتم: يكتب حديثه ولا يحتجّ به. وكان زياد قد استعمله على عشور البصرة. قال يحيى بن معين: قلت لحمّاد بن زيد: فخالد الحذّاء؟ قال: قدم علينا قدمة من الشام فكأنّا أنكرنا حفظه.

ومن طريق أحمد بن حنبل: قيل لابن عليّة في حديثٍ كان خالد يرويه؟ فلم يلتفت إليه ابن عليّة وضَعَّف أمر خالد. قال ابن حجر: والظاهر أنّ كلام هؤلاء فيه من أجل ما أشار إليه حمّاد بن زيد من تغيير حفظه بآخره أو من أجل دخوله في عمل السلطان[2].

وأمّا حذيفة بن منصور، فسيأتي نقل كلام ابن داوود فيه: حديثه غير نقيّ يروي الصحيح والسقيم، ولذلك ذكرناه في الضعفاء. قال ابن الغضائري بشأنه: حديثه غير نقيّ يروي الصحيح والسقيم وأمره ملتبس، ونقل عنه أنّه وُلّي من قبل بني أمية[3].

* * *

هذا، فضلاً عن أنّ الحديث في ظاهر تعبيره لايستقيم على أساس، وقد حاول بعضهم تأويله، وذكروا له وجوهاً:

والبخاري بنفسه عند ما عقد الباب، نقل عن إسحاق بن راهويه: أنّ هذين الشهرين حتّى لو كانا ناقصين عدداً، فإنّهما تامّان فضلاً ومثوبة. قال: وإن كان ناقصاً فهو تمام.

قال البخاري: وقال محمّد ـ يعني نَفْسَه ـ: لايجتمعان كلاهما ناقص[4]. أي لايقعان كلاهما في سنة واحدة ناقصين.

قال ابن حجر في الشرح: اختلف العلماء في معنى هذا الحديث، فمنهم من حمله على ظاهره،

---

(١) التهذيب ٤: ١٦٧ـ١٦٩.
(٢) تهذيب التهذيب ٣: ١٢١ـ١٢٢ / ٢٢٤.
(٣) كتاب الرجال لابن داوود: ٧١ / ٣٨٩ و٢٣٧ / ١١١.
(٤) البخاري ٢: ٢٣٠.

فقال: لايكون رمضان ولا ذو الحجّة أبداً إلّا ثلاثين يوماً! قال ابن حجر: وهذا قول مردود، معاند للموجود المشاهد. ويكفي في ردّه قولهﷺ: «صوموا للرؤية وأفطروا للرؤية، فإن غُمَّ عليكم فأكملوا العدّة».[1] فإنّه لو كان رمضان أبداً ثلاثين لم يحتج إلى هذا.

قال: ومنهم من تأوّل له معنىً لائقاً، وقال أبوالحسن: كان إسحاق بن راهويه يقول: لاينقصان في الفضيلة، إن كانا تسعة وعشرين أو ثلاثين.

وقيل: لاينقصان معاً، إن جاء أحدهما تسعاً وعشرين، جاء الآخر ثلاثين ولابدّ.

وقيل: لاينقصان في ثواب العمل فيهما. قال: وهذان القولان مشهوران عن السلف.

قال: ووقع عند الترمذي نقل القولين عن إسحاق بن راهويه وأحمد بن حنبل[2]، وكأنّ البخاري اختار مقالة أحمد فجزم بها، أو تواردا عليه.

[٤٩٢٩/٢] وروى الحاكم في تاريخه بإسناد صحيح: أنّ إسحاق بن إبراهيم سُئل عن ذلك؟ فقال: إنّكم ترون العدد ثلاثين، فإن كان تسعاً وعشرين، ترونه نقصاناً، وليس ذلك بنقصان.

وذكر ابن حِبّان لهذا الحديث معنيين: أحدهما ما قاله إسحاق، والآخر: أنّ المراد أنّهما في الفضل سواء، لقولهﷺ في الحديث الآخر: «ما من أيّامٍ، العملُ فيها أفضل من عشر ذي الحجّة»[3].

وذكر القرطبي أنّ فيه خمسة أقوال، فذكر نحو ما تقدّم وزاد: أنّ معناه: لاينقصان في عامٍ بعينه، وهو العام الّذي قال فيهﷺ تلك المقالة. وهذا حكاه ابن بزيزة، ومن قَبْله أبو الوليد بن رشد، ونقله المحبّ الطبري عن أبي بكر بن فورك.

وقيل: المعنى: لاينقصان في الأحكام. وبهذا جزم البيهقي وقَبْله الطحاوي، فقال: معنى لاينقصان، أنّ الأحكام فيهما، وإن كانا تسعة وعشرين، متكاملة غير ناقصة عن حكمهما إذا كانا ثلاثين.

---

(١) المصدر: ٢٢٩.

(٢) الترمذي ٣: ٧٦. وفيه: قال أحمد: لاينقصان معاً في سنة واحدة، إن نقص أحدهما تمّ الآخر. وقال إسحاق: إن كان تسعاً وعشرين فهو تام غير نقصان. قال الترمذي: وعليه فيجوز اجتماعهما في النقصان عدداً.

(٣) انظر: فتح الباري ٤: ١٠٧.

وقيل: معناه: لاينقصان في نفس الأمر، لكن ربما حال دون رؤية الهلال مانع. وهذا أشار إليه ابن حِبّان أيضاً. قال ابن حجر: ولايخفى بعدُه!

وقيل: معناه: لاينقصان معاً في سنة واحدة، على طريق الأكثر الأغلب، وإن ندر وقوع ذلك. قال ابن حجر: وهذا أعدل ممّا تقدّم، لأنّه ربما وُجد وقوعهما ووقوع كلٍّ منهما تسعة وعشرين.

قال الطحاوي: الأخذ بظاهر الحديث أو حمله على نقص أحدهما، يدفعه العيان، لأنّا قد وجدناهما ينقصان معاً في أعوام.

قال الزين بن المنير: لايخلو شيء من هذه الأقوال عن الاعتراض، وأقربها أنّ المراد: أنّ النقص الحسّيّ باعتبار العدد، ينجبر بأنّ كلاًّ منهما شهر عيد عظيم[1]، فلاينبغي وصفهما بالنقصان، بخلاف غيرهما من الشهور. قال ابن حجر: وحاصله يرجع إلى تأييد قول إسحاق.

وقال البيهقي ـ في المعرفة ـ: إنّما خصّهما بالذكر، لتعلّق حكم الصوم والحجّ بهما. قال ابن حجر: وبه جزم النووي وقال: إنّه الصواب المعتمد[2]، والمعنى: أنّ كلّ ما ورد عنهما من الفضائل والأحكام حاصل، سواء كان رمضان ثلاثين أو تسعاً وعشرين، سواء صادف الوقوف اليوم التاسع أو غيره. ولايخفى أنّ محلّ ذلك ما إذا لم يحصل تقصير في ابتغاء الهلال، وفائدة الحديث رفع مايقع في القلوب من شكّ لمن صام تسعاً وعشرين أو وقف في غير يوم عرفة، وقد استشكل بعض العلماء إمكان الوقوف في الثامن، اجتهاداً! وليس مشكلاً، لأنّه ربما ثبتت الرؤية بشاهدين أنّ أوّل ذي الحجّة الخميس مثلاً، فوقفوا يوم الجمعة، ثمّ تبيّن أنّهما شهدا زوراً!

وقال الطيّبي: ظاهر سياق الحديث بيان اختصاص الشهرين بمزيّة ليست في غيرهما من

---

(١) غير خفيّ أنّ عيد الفطر من شوّال لارمضان! قال ابن حجر: أطلق على رمضان أنّه شهر عيد، لقربه من العيد، أو لكون هلال العيد ربّما رؤي في اليوم الأخير من رمضان. قاله الأثرم. والأوّل أولى. ونظيره قوله ﷺ: «المغرب وتر النهار» أخرجه الترمذي (٢: ٣٢ و مسند أحمد ٢: ٣٠). وصلاة المغرب ليليّة جهريّة، وأطلق كونها وتر النهار لقربها منه. وفيه إشارة إلى أنّ وقتها يقع أوّل ما تغرب الشمس. (فتح الباري ٤: ١٠٨). ولايخفى تكلّفه في هذا التأويل!

(٢) ذكر النووي ثلاثة أقوال وضعف الثالث، ثمّ قال: والأوّل هو الصواب المعتمد. ومعناه: أنّ قوله ﷺ: من صام رمضان إيماناً واحتساباً، غفرله ما تقدّم من ذنبه. وقوله ﷺ: من قام رمضان إيماناً واحتساباً، وغير ذلك، فكلّ هذه الفضائل تحصل، سواء تمّ العدد أم نقص. (النووي بشرح مسلم ٧: ١٩٩).

الشهور، وليس المراد أنّ ثواب الطاعة في غيرهما ينقص، وإنّما المراد رفع الحرج عمّا عسى أن يقع فيه خطأ في الحكم، لاختصاصهما بالعيدين، وجواز احتمال وقوع الخطاء فيهما، ومن ثمّ قال: شهرا عيدٍ، بعد قوله: شهران لاينقصان. ولم يقتصر على قوله: رمضانُ وذوالحجّة.

قال ابن حجر: وفي الحديث حجّة لمن قال: إنّ الثواب ليس مرتّباً على وجود المشقّة دائماً، بل للهِ أن يتفضّل بإلحاق الناقص بالتامّ في الثواب. واستدلّ بعضهم لمالك في اكتفائه لرمضان بنيّة واحدة، قال: لأنّه جعل الشهر بجملته عبادة واحدة، فاكتفي له بالنيّة. وهذا الحديث يقتضي أنّ التسوية في الثواب بين الشهر الناقص والشهر التامّ إنّما هو بالنظر إلى جعل الثواب متعلّقاً بالشهر من حيث الجملة، لا من حيث تفضيل الأيّام[1].

* * *

تلك كلّ محاولات القوم في توجيه وتأويل حديث تمام رمضان، علّه يتوافق مع المعقول من كلام صادر عن منبع حكيم! ولكن هيهات، وقد قيل قديماً: إذا كثر الجواب خفي الصواب، الأمر الّذي يشي بغمزٍ في أصل الصدور.

فلقد كان تركُه على عواهنه أولى من ركوب صعاب بلا جدوى؛ الأمر الّذي تنبّه له علماؤنا الأعلام، فتركوا التكلّف فيما لا طائل تحته. وسنتعرّض لذلك.

هذا وقد صحّ الحديث بأنّ شهر رمضان ينقص ويتمّ كسائر الشهور، الأمر الّذي يوافق المعقول المشهود، ويتقدّم ـ بطبيعة الحال ـ على حديث مريب.

[٤٩٣٠/٢] روى أصحاب السنن جميعاً بالإسناد إلى جابر بن عبدالله الأنصاري عن رسول الله ﷺ قال: «إنّ الشهر ـ شهر رمضان ـ يكون تسعاً وعشرين». وكذا بالإسناد إلى أمّ سلمة، وعائشة وسعد بن أبي وقّاص وغيرهم، عنه ﷺ وأطبقوا على ذلك من غير خلاف. وقد عقد مسلم باباً في صحيحه، ترجمه بباب الشهر يكون تسعاً وعشرين[2]. وكذا غيره من كتب الصحاح.

* * *

وهكذا جاء في روايات أصحابنا عن أئمّة أهل البيت ﷺ، أنّ شهر رمضان، شهر من الشهور،

(١) فتح الباري ٤: ١٠٦ ـ ١٠٨.

(٢) مسلم ٣: ١٢٥ ـ ١٢٦.

يصيبه مايصيب الشهور من التمام والنقصان:

[٤٩٣١/٢] روى الشيخ أبوجعفر الطوسي بالإسناد إلى حمّادبن عثمان عن الإمام أبي عبدالله الصادق عليه السلام قال: «شهر رمضان، شهر من الشهور، يصيبه مايصيب الشهور من النقصان»[١].

[٤٩٣٢/٢] وبالإسناد إلى رفاعة عنه عليه السلام قال: «صيام شهر رمضان بالرؤية، وليس بالظنّ، وقد يكون شهر رمضان تسعةً وعشرين، وقد يكون ثلاثين، يصيبه مايصيب الشهور من التمام والنقصان»[٢].

[٤٩٣٣/٢] وبالإسناد إلى محمّدبن مسلم عن أحدهما (الباقر أو الصادق عليهما السلام) قال: «شهر رمضان يصيبه مايصيب الشهور من النقصان، فإذا صمت تسعةً وعشرين يوماً، ثمّ تغيّمت السماء فأتمّ العدّة ثلاثين يوماً»[٣].

إلى غيرها من روايات هي صريحة المفاد، وافية المراد، لاغُبار عليها.

* * *

ثمّ أورد الشيخ الأخبار بكون شهر رمضان ثلاثين يوماً أبداً، كلّها برواية حذيفة بن منصور[٤]، تارةً ينسبه إلى الإمام أبي عبدالله عليه السلام بلا واسطة، وأخرى مع واسطة معاذ بن كثير، وثالثة ينسبه إلى معاذ نفسه، وهكذا تراه يختلط في نسبة ذلك إلى قائله.

ومن ثَمَّ عقّبه الشيخ بقوله: وهذا الخبر، لايصحّ العمل به من وجوه:

أحدها: أنّ متن هذا الحديث لايُوجَد في شيء من الأصول المصنَّفة، وإنّما هو موجود في الشواذّ من الأخبار.

ثانيها: أنّ كتاب حذيفة بن منصور رحمه الله عَرِيَ منه، والكتاب معروف مشهور. ولو كان هذا

---

(١) التهذيب ٤: ١٦٠/٤٥٢؛ الوسائل ١٠: ٢٦٢/٣.   (٢) الاستبصار ٢: ٦٣/٤؛ الوسائل ١٠: ٢٦٣/٦.

(٣) التهذيب ٤: ١٥٥/١؛ الوسائل ١٠: ٢٦١ ـ ٢٦٢/١.

(٤) هي ستّ روايات بأرقام: ٤٩ ـ ٥٤. التهذيب ٤: ١٦٧ ـ ١٦٨. هذا وقد قال ابن الغضائري بشأنه: حديثه غير نقيّ؛ يروي الصحيح والسقيم، وأمره ملتبس. قال تقيّ الدين ابن داوود الحلّي: ولذلك ذكرته في الضعفاء. (رجال ابن داوود: ٧١ برقم ٣٨٩ و: ٢٣٧ برقم ١١١). كما وأنّ طريق الشيخ إليه ضعيف. قال سيّدنا الأستاذ: وللشيخ إليه طريقان كلاهما ضعيف. (معجم رجال الحديث ٥: ٢٢٥).

الحديث صحيحاً عنه لضمّنه كتابه.

ثالثها: أنّ هذا الخبر مختلف الألفاظ، مضطرب المعاني: ألا ترى أنّ حذيفة تارةً يرويه عن معاذ بن كثير عن أبي عبدالله عليه السلام[1]. وتارةً يرويه عن أبي عبدالله عليه السلام بلا واسطة[2] وتارةً يُفتي به معاذ من قِبَل نفسه، فلا يسنده إلى أحد[3].

قال: وهذا الضرب من الاختلاف ممّا يضعف الاعتراض به والتعلّق بمثله[4].

مقالة الشيخ المفيد

وللشيخ أبي عبدالله المفيد رسالة في الردّ على أصحاب القول بالعدد، أجاب فيها عن مسائل بعض الإخوان من أهل الموصل، سألوا: هل يصحّ قول من قال بالعدد وأنكر أن ينقص شهر رمضان! وعن قوله تعالى: ﴿وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ﴾[5]، هل هو في قضاء مافات من الشهر، أم هو راجع إلى الشهر نفسه؟

فأجاب عليه الرحمة بأنّ الشهر ما اشتهر بالهلال، فكان مرتبطاً به، وهذا يكون لتسعة وعشرين يوماً ولثلاثين. حسب المشهود وقد قال تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ﴾[6]، فأنيط الشهر بالهلال محضاً.

قال: وأمّا ما تعلّق به أصحاب العدد وأنّ شهر رمضان لا يكون أقلّ من ثلاثين يوماً، فهي أحاديث شاذّة قد طعن فيها نُقّاد الآثار من الشيعة في سندها، وهي مثبتة في كتب الصيام، في أبواب النوادر، والنوادر هي الّتي لاعمل عليها.

ثمّ جعل يذكر الأحاديث المرويّة بهذا الشأن، وينقدها نقداً فنّيّاً، واحدة تلو أخرى، حسب الأصول، وعقّبها بالأحاديث الصحاح ذوات الاعتبار، روتها الفقهاء الأعلام من أصحاب الأئمّة من لدن عهد الإمام الباقر فإلى عهد الإمام العسكري عليهما السلام وهم الأعلام الرؤساء المأخوذ عنهم الحلال

---

(١) التهذيب ٤: ١٦٧ / ٤٩ و ١٦٨ / ٥٠ و ٥٢. (٢) المصدر: ١٦٨ / ٥١ و ٥٣.

(٣) المصدر: ١٦٩ / ٥٤. وقد ضعّف المولى المجلسي أسناد الأحاديث كلّها سوى هذا الخبر الأخير الّذي نسبه إلى معاذ نفسه. (ملاذ الأخيار ٦: ٤٦٩ ـ ٤٧١). (٤) التهذيب ٤: ١٦٩.

(٥) البقرة ٢: ١٨٥. (٦) البقرة ٢: ١٨٩.

والحرام والفتيا والأحكام، الّذين لايُطعن عليهم، ولاطريق إلى ذمّ واحد منهم، وهم أصحاب الأصول المدوّنة، والمصنّفات المشهورة، كلّهم قد أجمعوا نقلاً وعملاً على أنّ شهر رمضان يكون تسعة وعشرين يوماً؛ نقلوا ذلك عن أئمّة الهدى ﷺ وعرفوه في عقيدتهم، واعتمدوه في ديانتهم[١].

* * *

وللشريف المرتضى أيضاً رسالة في الردّ على دلائل أصحاب القول بالعدد، يذكر أدلّتهم ويناقشها واحدة بعد أخرى. ويجعل الرجحان في كفّة القائلين بالرؤية. وفقاً للمتواتر من أحاديث الرسول والأئمّة من ذرّيّته الأطيبين، صلوات الله عليهم أجمعين[٢].

ومن المعاصرين العلّامة المولى أبوالحسن الشعراني، في تعليقه على كتاب الوافي للمولى محسن الفيض الكاشاني، علّق على قول المصنّف: «إنّ المسألة ممّا تعارضت فيه الأخبار» قال: العجب من المصنّف كيف اعتنى بهذه الأخبار، وكيف يتعارض المتواتر المشهور مع الشاذّ النادر؟! فالاستهلال والشهادة على رؤية الهلال، عمل جميع المسلمين، يعلم ذلك جميع أهل العالم، وملأت الكتب من أحكامها في الفقه والحديث والتواريخ والسِّير من نقل الوقائع فيها. فكيف تقاس الأحاديث الّتي شهد بصحّتها آلاف أُلوف من الناس، بأحاديث لم يطّلع عليها أحد إلّا نادراً، ومن اطّلع عليها ردّها إلّا نادراً! ومن يرى التعارض بينهما، فمثله كمثل من يرى التعارض بين اللائح المشهور والخامل المغمور.

وهل هناك تعارض بين المتواتر المعلوم والشاذّ النادر المهجور؟! إذن لاينبغي الاعتناء بخبر الواحد المناقض للمتواتر المستفيض[٣].

وممّا يجدر التنبّه له أنّ المولى الفيض الكاشاني، بعد كلامه ذلك نبّه إلى نكتة دقيقة، قال: والصواب أن يقال: هنا روايتان، إحداهما موافقة للقواعد والأصول المعتمدة ومطابقة للظواهر والعمومات القرآنيّة والأخرى مخالفة لها، فضلاً عن اشتمالها على تعليلات عليلة تنبو عنها العقول

---

(١) رسالة «جوابات أهل الموصل في العدد والرؤية» وهي المعروفة بالرسالة العَدَديّة. (المجلد التاسع من مصنّفات الشيخ المفيد).

(٢) المجموعة الثانية من رسائل الشريف المرتضى، برقم ١٠ (١٧ ـ ٦٣).

(٣) الوافي ١١: ١٤٥، الهامش، بتصرّف يسير.

السليمة والطباع المستقيمة، ويبعد صدورها عن أئمّة الهدى، بل هي ممّا يُستَشمّ منه رائحه الوضع والاختلاق.

على أنّ الروايات الأُولى أكثر رواةً وأوثق رجالاً وأسدّ مقالاً، وأشبه بكلام أئمّة الهدى، صلوات الله عليهم أجمعين[١].

قال الفقيه البحراني ـ بعد أن نقل كلام الفيض ـ: من تمحّل في محاولة الجمع والأخذ بالتأويل، فقد أتى بتكلّف سحيق سخيف بعيد وظاهر القصور، والأظهر هو رجحان القول المشهور لرجحان أخباره ـ على ما ذكره المحقّق الفيض ـ ويزيده اعتباراً اعتضادُها بإجماع الطائفة سلفاً وخلفاً على الأخذ بمضمونها، وهو مؤذن بكون ذلك هو مذهب أهل البيت عليهم السلام[٢].

قوله تعالى: ﴿وَلِتُكَبِّرُوا اللهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾

نعم كان الصوم للمقيم السليم، والرخصة للمسافر والمريض، نعمة من الله، نعمة الهداية إلى سُبُل السلام والصلاح، فكانت تستحقّ الشكر والتكبير لعظيم آلائه تعالى على العباد. وما هذه إلّا غاية عليا من غايات الفرائض، أن يشعر المؤمن بقيمة الهدى الّذي يَسَّره الله له، وهذا الإحساس والشعور هو بذاته شكر على النعماء.

وهو أمر فطريّ يجده الإنسان في صميم ذاته، عندما يواجه إفضال ربّه تعالى عليه، فينبعث من ذات وجوده ليبدي هذا الشكر في صورة خضوع وخشوع وإعظام وإكبار تجاه هذا التوفيق العظيم ومن ثمّ قالوا: شكر النعم واجب في شريعة العقول.

[٢/٤٩٣٤] وفي الحديث: «الشكر، المعرفة»[٣].

هذا، وقد ورد الأثر بأداء هذا التكبير شكراً لله، عند إكمال الصوم، ليلةَ الفطر، بعد صلاة المغرب وبعد صلاة العشاء وبعد الفجر وبعد صلاة العيد.

[٢/٤٩٣٥] روى المشايخ الثلاثة بالإسناد إلى سعيد النقّاش، عن الإمام أبي عبدالله عليه السلام قال: «أما إنّ في الفطر تكبيراً، ولكنّه مسنون. قلت: وأين هو؟ قال: في ليلة الفطر في المغرب والعشاء الآخرة

(١) المصدر: ١٤٦، بتصرّفٍ واختزال. (٢) الحدائق الناضرة ١٣: ٢٧٨، بتصرّفٍ واختزال.

(٣) المحاسن ١: ١٤٩ / ٦٥، كتاب الصفوة، باب المعرفة ١٩؛ البحار ٢٤: ٦٠ / ٣٨، باب ٢٩.

وفي صلاة الفجر وصلاة العيد، ثمّ يقطع. قلت: كيف أقول: قال: تقول: الله أكبر، الله أكبر، لا إلّه إلّا الله والله أكبر، ولله الحمد. الحمد لله على ما هدانا، وله الشكر على ما أولانا. قال: وهو قول الله تعالى: ﴿وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ﴾ يعني الصيام، ﴿وَلِتُكَبِّرُوا اللهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ﴾»[1].

[٤٩٣٦/٢] وروى الصدوق بالإسناد إلى الأعمش عن الصادق عليه السلام في حديث شرائع الدين، قال: والتكبير في العيدين واجب (أي ثابت) أمّا في الفطر ففي خمس صلوات، يُبتدأ به من صلاة المغرب ليلة الفطر، إلى صلاة العصر من يوم الفطر[2]. وهو أن يقال: «الله أكبر، الله أكبر، لا إلّه إلّا الله والله أكبر، الله أكبر ولله الحمد، الله أكبر على ما هدانا، والحمد لله على ما أولانا»[3]. لقوله ـ عزّ وجلّ ـ: ﴿وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ﴾.

وفي الأضحى بالأمصار في دبر عشر صلوات، يبتدأ به من صلاة الظهر يوم النحر، إلى صلاة الغداة من اليوم الثالث (أي الثاني عشر من ذي الحجّة). وبمنى، في دبر خمس عشرة صلاة، يُبتدأ به من صلاة الظهر يوم النحر، إلى صلاة الغداة من اليوم الرابع. ويزاد قال: ويُزاد في هذا التكبير (في الأضحى): «والله أكبر على ما رزقنا من بهيمة الأنعام»[4].

[٤٩٣٧/٢] وروى بالإسناد إلى الفضل بن شاذان أنّه سمع الرضا عليه السلام يقول: «فإن قيل: فَلِمَ جُعل يومُ الفطر العيدَ؟ قيل: لأن يكون للمسلمين مجمعاً يجتمعون فيه ويبرزون لله تعالى، فيحمدونه على ما منّ عليهم، فيكون يوم عيد ويوم اجتماع ويوم فطر ويوم زكاة ويوم رغبة ويوم تضرّع، ولأنّه أوّل يوم من السنة يحلّ فيه الأكل والشرب[5]، لأنّ أوّل شهور السنة عند أهل الحقّ شهر رمضان، فأحبّ الله تعالى أن يكون لهم في ذلك اليوم مجمع يحمدونه فيه ويقدّسونه.

فإن قيل: فلم جُعل التكبير فيها (في صلاة العيد) أكثر منه في غيرها من الصلوات؟ قيل: لأنّ التكبير إنّما هو تعظيم لله وتحميد على ما هدى الله وعافىٰ، كما قال الله ـ عزّ وجلّ ـ ﴿وَلِتُكَبِّرُوا اللهَ

---

(١) الكافي ٤: ١٦٦ ـ ١٦٧ / ١؛ التهذيب ٣: ١٣٨ ـ ١٣٩ / ٤٣؛ الفقيه ٢: ١٠٨ / ٤٦٤ ـ ١. مصباح المتهجّد، للطوسي: ٥٩٢؛ مصباح الكفعمي: ٦٤٧. والتكبيرات صحّحناها على المصباحين؛ العيّاشيّ ١: ١٠١ / ١٩٤.

(٢) لعلّه لمن لم يصلّ صلاة العيد.

(٣) وفي النسخة: على ما أبلانا.

(٤) الخصال ٢: ٦٠٩ / ٩.

(٥) أي أوّل يوم منذ ابتدأت السنة.

عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾»[١].

[٤٩٣٨/٢] ورواه في الفقيه بتلخيص، جاء فيه:

«إنّما جُعل يوم الفطر عيداً، ليكون للمسلمين مجتمعاً يجتمعون فيه ويبرزون لله ـ عزّ وجلّ ـ ويمجّدونه على ما منّ عليهم، فيكون يوم عيد ويوم اجتماع ويوم فطر ويوم زكاة ويوم رغبة ويوم تضرّع، ولأنّه أوّل يوم من السنة يحلّ فيه الأكل والشرب، لأنّ أوّل شهور السنة عند أهل الحقّ شهر رمضان، فأحبّ الله ـ عزّ وجلّ ـ أن يكون لهم في ذلك مجمع يحمدونه فيه ويقدّسونه. وإنّما جعل التكبير فيها أكثر منه في غيرها من الصلاة، لأنّ التكبير هو التعظيم لله وتمجيد على ما هدى الله وعافى»[٢].

[٤٩٣٩/٢] وأخرج ابن جرير عن ابن عبّاس قال: حقّ على المسلمين إذا نظروا إلى هلال شوّال أن يكبّروا الله حتّى يفرغوا من عيدهم، لأنّ الله يقول: ﴿وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللهَ﴾[٣].

[٤٩٤٠/٢] وعن ابن عبّاس في قوله: ﴿وَلِتُكَبِّرُوا اللهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ﴾ قال: لتعظّموا الله على ما أرشدكم له من شرائع الدين[٤].

[٤٩٤١/٢] وأخرج الطبراني في المعجم الصغير عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «زيّنوا أعيادكم بالتكبير»[٥].

[٤٩٤٢/٢] وأخرج المروزي والدارقطني والبيهقي في السنن عن أبي عبدالرحمان السُّلَمي قال: كانوا في الفطر أشدّ منهم في الأضحى يعني في التكبير[٦].

(١) علل الشرائع ١: ٢٦٩ / ٩، باب ١٨٢؛ عيون الأخبار ٢: ١٢٢ / ١، باب ٣٤.

(٢) الفقيه ١: ٣٣٠ ـ ٣٣١ / ١٤٨٨ ـ ٣٢؛ البحار ٦: ٧٩ و ٨٧: ٣٦٢.

(٣) الدرّ ١: ٤٦٨؛ الطبري ٢: ٢١٤ / ٢٣٨٠؛ الثعلبي ٢: ٧٤، باختلاف يسير، ونقلاً عن زيدبن أسلم أيضاً؛ القرطبي ٢: ٣٠٦، إلى قوله: «يكبّروا». وزاد: روي عنه: يكبّر من رؤية الهلال إلى انقضاء الخطبة ويمسك وقت خروج الإمام ويُكبّر بتكبيره.

(٤) الوسيط ١: ٢٨٣.

(٥) الدرّ ١: ٤٦٨؛ الصغير ١: ٢١٥؛ الأوسط ٤: ٣٣٩؛ مجمع الزوائد ٢: ١٩٧؛ كنزالعمّال ٨: ٥٤٦ / ٢٤٠٩٤، عن أنس.

(٦) الدرّ ١: ٤٦٨؛ الدار قطني ٢: ٤٤ / ٥؛ البيهقي ٣: ٢٧٩؛ الحاكم ١: ٢٩٨؛ القرطبي ٢: ٣٠٧.

[٤٩٤٣/٢] وأخرج ابن أبي شيبة في المصنَّف عن الزهري، أنّ رسول الله ﷺ كان يخرج يوم الفطر فيكبّر حتّى يأتي المصلّى وحتّى تُقضى الصلاةُ، فإذا قضى الصلاة قطع التكبير[1].

[٤٩٤٤/٢] وأخرج البيهقي في شعب الإيمان من طريق نافع عن عبدالله بن مسعود، أنّ رسول الله ﷺ كان يخرج إلى العيدين رافعاً صوته بالتهليل والتكبير[2].

[٤٩٤٥/٢] وأخرج سعيد بن منصور وابن أبي شيبة والمروزي عن ابن مسعود أنّه كان يكبّر: الله أكبر، الله أكبر، لا إلـهَ إلّا الله والله أكبر، ولله الحمد[3].

[٤٩٤٦/٢] وأخرج ابن أبي شيبة والمروزي والبيهقي في سننه عن ابن عبّاس، أنّه كان يكبّر: الله أكبر كبيراً، الله أكبر كبيراً، الله أكبر ولله الحمد، الله أكبر وأجلّ على ما هدانا[4].

---

(١) الدرّ ١: ٤٦٨؛ المصنَّف ٢: ٧١ / ٣، باب ٥؛ البيهقي ٣: ٢٧٩.

(٢) الدرّ ١: ٤٦٨؛ شعب الإيمان ٣: ٣٤٢ / ٣٧١٤؛ كنزالعمّال ٧: ٨٨ / ١٨١٠١.

(٣) الدرّ ١: ٤٦٨؛ المصنَّف ٢: ٧٣ ـ ٧٤ / ٢ و ٦، باب ٧.

(٤) الدرّ ١: ٤٦٨؛ المصنَّف ٢: ٧٤ / ٦، باب ٧؛ البيهقي ٣: ٣١٥.